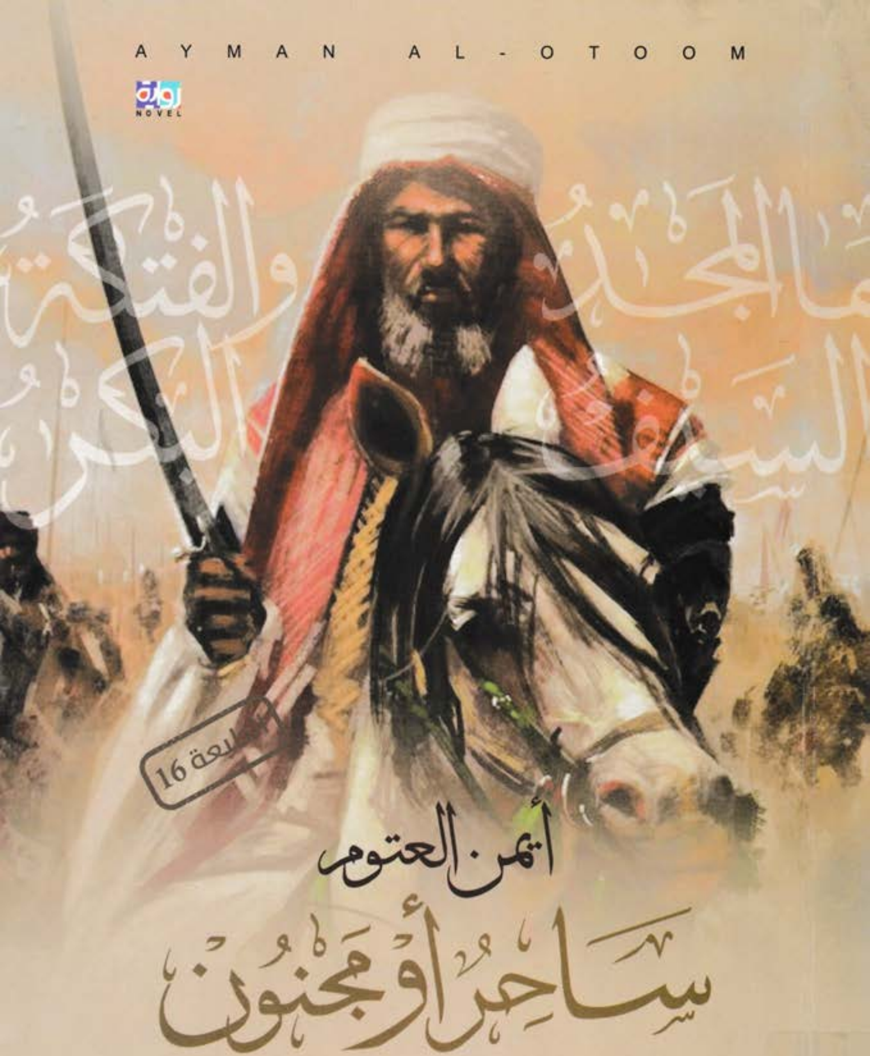

A Y M A N A L - O T O O M

رواية
NOVEL

الطبعة 16

أيمن العتوم

ساحر أو مجنون

المخطوطة الثالثة

حكاية الشاعر الثائر أحمد بن الحسين (المتنبي)

مكتبة سر من قرأ

ساحر أو مجنون

◂ المخطوطة الثالثة ▸

حكاية الشاعر الثائر أحمد بن الحسين (المتنبي)

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

ساحر أو مجنون/ رواية
أيمن العتوم/ كاتب من الأردن
حكاية الشاعر الثائر أحمد بن الحسين (المتنبي)
المخطوطة الثالثة
الطبعة السادسة عشرة 2023
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة، شارع ميشيل أبي شهلا، متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص.ب 5460-11، الرمز البريديّ 1107-2190
تلفاكس 707891/2 9611+
بيروت / لبنان
e-mail:mkpublishing@terra.net.Lb
info@airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص.ب 9157 ، عمّان 11191 الاردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكتروني : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف للفنان: يوسف الصرايرة/ الأردن yosarairh@hotmail.com
الصف الضوئي : المؤسسة العربية للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعي: مطبعة عبد الكريم اسماعيل/ الأردن

الترقيم الدولي: ISBN:978-614-486-454-8

13 11 2023
مكتبة
t.me/soramnqraa

AYMAN AL OTOOM

NOVEL

مكتبة
t.me/soramnqraa

أيمن العتوم

ساحر أو مجنون

المخطوطة الثالثة

حكاية الشاعر الثائر أحمد بن الحسين (المتنبي)

الطبعة 16

قبل البدء:

قصّة المخطوطة الثّالثة (ساحرٌ أو مجنون)

زرتُ بغداد في معرض الكتاب عام ٢٠١٩م، كان واجِبًا آنئذٍ أنْ أزور المتنبّي، فعلتُ ذلك ذات مساءٍ من أيّام شباط الباردة، وقفتُ مليًّا عند تمثاله، وأنشدتُ بين يدَيه شوارِدَه السّائرات، وكان أكثرَ إنشادي يتبسّم تبسُّمَ الرّضا والشّجا... ثُمّ ودّعتُه وقفلتُ راجِعًا. في طريق عودتي عثرتُ في أحدِ الأزقّة على كُتَبِيّ يُشبه دَلاّل الكتب في العصر العبّاسي من حيثُ الوظيفة، إذ هو جامعُ مخطوطاتٍ ومُنتقِي أخبارٍ من بطون الكتب، وبينما أُقلّب المخطوطات الّتي في مكتبته وهو يُقلّب الطّرف فِيّ مُشفِقًا على هذه الكنوز ومُستعجِلاً ذهابي، وجدتُ عنده نسخة أخرى من مخطوطة (أحمد بن الحُسين) الّتي عندي، ففرحتُ فرحًا شديدًا، ولمّا قابلتُها بنُسختِها الّتي في هاتفي، فإذا في نسخته بعضُ الزّيادات، فراودتُه عنها ليبيعها لي، فلم يرضَ، فَزِدْتُ له في الثّمن فأبى، فاستأذنْتُهُ أنْ أجلسَ في مكتبته للمقابلة بين النّسختَين، وإضافة الزّيادة من نُسخته إلى نُسختي، فرضي وهو عَلَيّ ضانّ، فمكثتُ أسبوعًا على هذه الحال حتّى تَمّ لي ما أراد...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما أودّ قوله إنّ بعضَ الزّيادات ربّما أُضِيفتْ متأخّرةً كانت من صنع المتنبّي نفسه أو من صُنعِ راويته عليّ بن حمزة على الأرجح، ولا أحسبُ أنّ رواتَه في مصر أو في الشّام في المرحلة الأولى أضافوا شيئًا، ذلك أنّ قراءة الدّيوان على المتنبّي كانتْ بعدَ خروجه من مصر، وكثرة الأسئلة عليه وتدوينها كانتْ في مرحلة بلاد فارس إلى مقتله.. ولعلّ بعض هذه الزّيادات كان من اصطِناع الهواة الّذين أعجبتْهم قِصّة هذا الشّاعر، أو ربّما سَبَبُ ذلك التّصحيف، أو اختِلاف النُّسّاخ... وعلى أيّة حالٍ، فإنّني خرجتُ بالنّسخة الأكمل الّتي عملتُ عليها كما عملتُ على أُختَيها سنواتٍ طِوالاً، لأقدّم لكم هذه الرّواية على هذا الوجه الّذي تقرؤونه في هذه الصّفحات، صحيحٌ أنّها روايتي، ولكنّها حِكايته؛ حكاية الشّاعر الثّائر (أحمد بن الحسين).

المرحلة الأولى

في حَمْدِ أَحْمَدِهِ

٣٠٣ - ٣١٢ هـ

أَبلى الهَوى أَسَفًا يَومَ النَّوى بَدَني
وَفَرَّقَ الهَجرُ بَينَ الجَفْنِ وَالوَسَنِ
رُوحٌ تَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الخِلالِ إِذا
أَطارَتِ الرِّيْحُ عَنهُ الثَّوبَ لَمْ يَبِنِ
كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّني رَجُلٌ
لَولا مُخاطَبَتي إِيّاكَ لَم تَرَني

(١)

ولادة

كانَ وَقْعُ أقدامه على الأرض، يُشبِه دمدمة الأرض بعدَ هُطُول المطر، الرّيح تلعبُ بأوراق الشّجر، والأرض مُبتلّة بالنّدى، والضّباب يلفّ المكان، والسّرداب الّذي هبطَ إليه الجِنّي كان مُعتِمًا تمامًا، لكنّ عينَيه كانتا جمرتَين ترَيان في أشدّ الأماكن حُلكةً. كان الجنّيّ ذا لحيةٍ بيضاء طويلة، يلبسُ عباءةَ مَلِك، وكان وجهه صافِيًا كأنّه قِطعة بلّور، هبطَ على مَهَل، لم يكنْ يتقدّمه أحدٌ، بينما كان يمشي وراءه آلافٌ من الجنّ بأحجامٍ مختلفةٍ كأنّهم يعاسيبُ النّحل، كانوا يسبحون على سقوف السّراديب، ويسيلون على جوانبها، وهم يُغمغِمون بكلماتٍ غير مفهومة، بينما كان هو صامِتًا، يبتسم، ويتقدّم بخُطُواتٍ واثِقةٍ وئيدةٍ إلى الغرفة الّتي ينتهي إليها السّرداب، لم يكنْ أحدٌ يعرفُ مَنْ بناه أو مَنْ خَطّ له هذه الالتِواءات، سردابٌ لم يدخلْه بشريٌّ من قبل، وحده هذا القادم إلى العالَم اليوم سيكونُ أوّل بشريّ يُولَد فيه.

وصل (أَنْيان) إلى قرار الغرفة، أفسحَتْ له القابِلاتُ المكان، ووقفْنَ في صمتٍ وهيبةٍ خلفَ السّرير الّذي كانتِ تتمدّدُ عليه الأمّ النّائِمة أو هكذا خُيِّلَ لِمَنْ يراها. كانت الجُدران تُشعّ بِضياءٍ ناعس،

رخيم، ومريح، وعليها تغيم وتبدو صُورٌ لشخوصٍ لا يَعرفُ مِن وجوهها أحدٌ شيئًا. وقفَ (أَنْيان) عندَ رأسِ الطّفل الّذي كان يصرخُ وما زالَ الماءُ يسيلُ على جسدِه الطّريّ، مَسَح على رأسِهِ برِقّة، وهمَسَ في أُذنِه بكلماتٍ لم يسمعها سِواه فسكت، كانتِ القابِلات وحُشُودٌ تكتظّ بها المساربُ تُلقِي برؤوسِها على صُدروها في صمتٍ مَهِيب، كأنّهم ينتظرون إشارةً منه، مرّتْ لَحَظاتٌ توقّف فيها كلّ شيءٍ عن الحركة، قبلَ أنْ يفوه المَلِك بسؤالٍ يتيم: «والأمّ؟». تقدّمتْ إحدى القابِلات خُطوةً إلى الأمام باتّجاه (أَنْيان) لتهمسَ بأسًى وهي لا تَزال مُطرِقةً: «لقد ماتتْ». ردّ دون أنْ يلفّ جِذعه باتّجاهها: «ادفنوها كما يليق بملكةٍ من مَلِكاتنا». «وهو؟». «سآخذه، إنّه ينتمي إلينا». ضَمّه إلى صدره، وألبسه رِداءً من غَيْم. ومضى به عابِرًا السّراديب إلى السّطح، تنفّس الوليدُ هواء الأرض فعادَتْ إليه الحَرَكة، أرادَ أنْ يصرخ، لكنّه لَمّا التقتْ عيناه بعينَي (أَنْيان) أصابه خَدَرٌ فسكت، وفرحٌ غامِضٌ فابتسم. في دوائرَ لا تنتهي، تزدادُ اتّساعًا كلّما ابتعدتْ عن المركز، رفع (أنيان) يده اليُسرى، فهدأ الجمع المُتراكِب، وخمدتْ حركات الوافِدين، كان ذلك إيذانًا بأنّه يريدُ أنْ يقول شيئًا، وعلى كلّ جنّيٍّ فوقَ سطح هذه الأرض أنْ يصمت، ويخفضَ طرفَه، ويجثو على رُكْبتَيه، ويُرهِفَ أُذُنَيه ليسمع. رفع (أنيان) الطّفل بيمينه، وهتف: «سأهبه الخلود، لن يكون مثل غيره، لن يكون فانِيًا، سأهبُه أعمار الجِنّ جميعَهم، وستُهنِّئه البشريّة بالخُلود دون أنْ تدري أو تريد. الخلود انتِزاع». غاظَ ذلك الجنّ، أردف: «سآخذُ من أعماركم له». لم يكنْ لهم رأي، عليهم أنْ يُطيعوا، غيرَ أنّ الحسدَ تحرّك في قلوبهم، كانَ الدّم الجاري في عروقهم يهتفُ: «لماذا؟». «ما الّذي رأيتَ فيه ولم ترَ فينا؟». «أيُّ شيءٍ تميّز به وهو لا يزال في القِماط حتّى تسرق من أعمارَنا

لتعطيه؟». «ما الّذي أعجبكَ فيه وهو لم يجترحْ في الأرضِ حتّى هذه اللّحظة شيئًا لتكون له هذه الحُظوة؟». كانتْ خواطرهم تفضحهم، وكان (أنيان) يسمع ذلك، نظر إليهم جميعًا، فشعّتْ عيناه ولاحظ ذلك أبعدُهم الّذي تضيق به الأرض كملاحظة أقربهم له، ابتسم، وهتف: «ستُدركون ذلك أيّها الحَسَدة، أنتم لا تعرفون أنّ امتداده امتدادٌ لنا، أنتم لا تُدركون أنّنا نأخذُ منه كما نُعطيه، إنّ أعماركم لو بقيتْ لكم لنخرها دود الفناء، أمّا له، فسيكتمل به ما نقصَ منكم... الآن سترون ذلك وتسمعونه».

صرَخَ (أنيان) وهو لا يزال يحتضن الطّفل: «يا سَلَمْيَة». فتبدّلت الأرض غير الأرض، وجاءَ جِنُّ سَلَمْيَة، قُلْ أيّها الخالد، فأنشدَ الوليد ما أُلقِيَ في رُوعه، فأطرقَت الجِنّ الّتي هناك، وجثتْ على رُكبِها، وأقرّتْ له. ثُمّ صرخ (أنيان): «يا نِصّيبين»، فتبدّلتِ الأرض، ونبتَ من بين شقوقها جِنُّها، وتابع: «أَنشِدْهم أيّها السّاحر»، فأنشدَ الطّفل هناك ما كانَ في الغيب، فخرّت الجنّ، وتبيّنتْ أنّ مَلِكها على الحقّ. ثُمّ صرخ (أنيان) ثالثةً: «يا أنطاكيّة»، فتبدّلتِ الأرض، ووفدتْ من البحر كلّ جِنّها، كانَتْ عروق الماء لا تزال تُبلّل أجسادِها، وتُبلِّد شُعورها، قُل: «يا...» توقّف قبلَ أنْ ينطق باسمِه، ثُمّ جاءه صوتٌ من السّماء: «قُلْ يا أحمد». فضحكَ (أنيان) لمن أسعفه من السّماء الّذي كرّر ليُؤكّد: «اسمُه أحمد»، فرفعه (أنيان) هذه المرّة بكلتا يدَيه حتّى مَسّ رأسُه السّماء الأولى: «قُلْ يا أحمد»، فغنّى، فتمايلَ الجمع، قبل أنْ تحينَ التِفاتةٌ من المَلِك إليهم جميعًا فيسجدون ويُقِرّون. ثُمّ طافَ به أصقاع الأرض كلّها، حتّى أنشدَ

شِعرَه في كلّ بقعة، فما منْ شجرٍ، ولا مَدَرٍ، ولا وبر، ولا حضرٍ، ولا ماءٍ ولا يابسٍ إلاّ سرتْ عليه كلماتُه، وانسربتْ فيه حروفُه.

ثُمّ هتفَ (أنيان) مُغضَبًا»: «الآنَ ائتُوني بأبيه». فجيءَ به يسعى، وهو في هلعٍ بينَ جِنيَّين يسوقانه مُترفِّقَين به، فلمّا وصل إلى خلاءٍ من الأرض، رأى أسرابًا من الخلق بيضَ الثّياب يُخْنُون، ورأى مَلِكًا عظيمًا يتوسّطهم يُهاب، فارتجفتْ أوصالُه، فهربَ إلى الظّنّ بأنّه يحلم حتّى لا يُغشَى عليه، فطمأنه المَلِك: «لا تخفْ، أنتَ أبوه، ولكنّنا أحقُّ به منك، سنُلقِي على أعلمنا وأبلغِنا شبَهَك، وسيكون أباه أمام النّاس، وأمّا أنتَ فإلى غَيابة»، ثُمّ أشار بيده ومسحَ بها جسد الّذي عنِده عِلمٌ من الكتاب فصارَه، أو خَلَبَه، ثُمّ وَجّه إليه القول: «وأمّا أنتَ فإلى الكوفة وإلى حواريها، فإنّ أهلَها أشدَّ ما يكونون عطشًا إلى سِقائِك».

(٢)

مَنْ يكونُ أبي؟!

«إنّكَ كثيرُ الطّواف في الحواري، ولن تستطيع أنْ ترعاه كما أرعاه أنا». «أستطيعُ أنْ أطوفَ بيوتَ الكُوفةِ كُلَّها، وأعُودَ إليه قبل أنْ تغيبَ الشّمس لآخذه بما يجب أنْ يُؤخذَ به العباقرة». «لا، إنّه مُحتاجٌ إلى رعايةٍ من نوعٍ آخَر». «ربّما كَنُفكِ سيمنحه الهُدُوء والطّمأنينة، وأمّا أنا فسأمنحه شيئًا لا يُمكن لأحدٍ أنْ يمنحه إيّاه سِواي». «لا تُجادِلْ كثيرًا». «إنّكِ لا تعرفين شيئًا». «بل أنتَ الّذي لا تعرفُ شيئًا، اليتيمُ يحتاجُ إلى أمّ». «لقد غيّبَها الموت، ولا داعي لأنْ نُثير الأحزان». «أنا أُمّه بعدَ أُمّه». «ذلك لك».

هيّأتْ جدّتي لي سريرًا إليها في بيتٍ بسيطٍ، مُكوّنٍ من غرفتَين، إحداهما كانتْ تضمّنا، والأخرى كانتْ تضمّ كعوبًا من الجلد تحوي نفائسَ من العِلم، وكانتْ تُرقّصني إذا هبطَ المساءُ بأغنيات الثّورة:

يَـا وَارِثَ المَجْـدِ لا تأمَـنْ إلَى اللّيْـلِ
واذْخَرْ مِـنَ العَزْمِ ما يَحْمِـي مِنَ الهَوْلِ
لَقَـدْ وَلَدْتُـكَ للجُـلّى فكُـنْ مَلِـكًا
يَزِيـدُ فِي فَضْلِـهِ عَـنْ سَـابغِ الفَضْـلِ

لا تَرْكَنَـنَّ إلى ضَعْفٍ ولا خَـوَرٍ
أو تُشْغَـلَنَّ بِـما يُلهِـي عَـنِ الأصْـلِ
فـإنْ شَرِبْنـا مـن الأحـزانِ أسـودَهَا
فَإِنَّهـا سَـوْفَ تَبْـلَى مِثْلَـما تُبـلِي

صحبَتْني جدّتي وأنا ابنُ أربعٍ إلى مدارس الأشراف العلويّين، قالتْ للقَيّم على المدرسة: «تعرفُ أباه، سؤال الأشراف ذُلّ، فلا حاجةَ لأنْ تسألني». «سيكون لكِ ما تريدين، ولكنْ عليكِ أنْ تنسَي أنّه ابنُكِ، إذا وفدَ إلينا فعليه أنْ ينقطع لنا». «أعرف، ولكنّ ذلك لا يمنعني أنْ أحضر معه بعضَ الدّروس حتّى يَشِبّ». تركتْ يدي، فشعرتُ أنّني انتقلتُ إلى عالَمٍ آخر.

بأقواس أقرب إلى الدّائرة من نِصفها، وأروقة فسيحة، ومداخل مُزخرفة، وحجارةٍ رماديّة كأنّ ذكرى الرّاحلين قد نثرتْ عليها رداءَها، وفي مكانٍ لا يدخلُ إلى ساحته إلاّ مَنْ يُؤذَن له، ذلك النّوع من الغُرَباء الّذين ينفصِلون عن دُنياهم بمجرّد دُخُولهم البَوّابة الأولى. كانت المدرسةُ عالَمي يومئذٍ. بدأَ أستاذُ القرآن بسورة الأحقاف، كنتُ أحفظُ من أوّل تردادٍ خلفَه، طربتُ حينَ وصلَ إلى قوله: «وإذْ صَرَفْنا إِليكَ». فشعرتُ أنّني المُخاطَب في هذه الآية، فمارتْ في أعماقِي مشاعرُ غريبةٌ، لم يكنْ لي أنْ أتبيّن كُنهَها إلاّ بعدَ بضعة أعوامٍ من تلك الأيّام، ثُمّ ثَنّى الشّيخُ بسورةِ الجنّ، فلمّا وصلتُ في الحِفظ إلى قوله: «وأنّه لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ

يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا»، شعرتُ أنّني المَعنيّ بذلك، ثُمّ تصاعدَ الإيقاع، فلمّا صار إلى قوله: «وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا»، شعرتُ أنّني أحصيتُ ما أُريد.

كانتْ جدّتي تأتي إلى المدرسة مساء كلّ خميسٍ، فتأخذني بعدَ أنْ تُعطِيَ شيخَها المواثيق على أنّها ستُعيدُنِي مساء السّبت، وما إنْ نخرجْ معًا من بوّابة المدرسة حتّى تطوفَ بي أنحاء الكُوفة، فتقفُ عندَ بيتٍ مُهدَّم: «هنا نشأ أسلافُك»، ثُمّ تمرّ على رَدْم وتَستعبِر: «هنا وقفَ عليّ». فإذا تجاوزتْه إلى ناحيةٍ أخرى، قالتْ: «هنا بعضُ دَمِ الحُسين، ألا تشعر بروحِه؟»، فأُغمِضُ عينَيّ، وأجيب: «أشمّ رائِحة المِسك من التّراب»، فتشدّ على يدَيّ: «هو ذاك». ثُمّ أشعرُ أنّ الأرضَ تُطوَى من تحتِ أقدامنا، فنجدُ أنفسَنا في أرضٍ غير الأرض، وتُشيرُ جدّتي بيمينها: «هنا ثوى مُوسَى، ألا تراه؟!». فأهتفُ: «أسمعُ حفيفَ أجنحةٍ». فتفترّ شِفاهها عن بسمةِ الرّضا: «إنّها الملائكة الّتي الّتي كانتْ في مجلسِ العِلم عنده»، ثُمّ يطيرُ بنا بُراقُ الوقت، فنرى الرّوضة، فتقول: «هنا الحسن، وزين العابِدين، والباقر، وجعفر.. هنا قُبور آبائِك، فلا دُعيتَ ابني إنْ لم تعرفْ لهم الفضل، وتتهَدّى دُرُوبَهم». ثُمّ تُطوَى لنا الأرضُ من جديدٍ، فنرى الملويّة تقف شامِخة، فإذا هي شاهِدةٌ على صعود كلمة الله إلى السّماء، فتهتفُ وقد بانَ على وجهها التّعب، وغَضّنتِ السّنون ما كان مُونِعًا من صفحة وجهها: «هنا دُفِنَ أبوك». وتقفُ كلمة (أبوك) في الفراغ الخفيف الحاجز بيننا، وأصمتُ، وترتسمُ علائم التّعجّبِ على وجهي: «أبي؟». فتردّ بثقة: «نعم، أبوك، لقد هاجَتْ به الفِتن، فأوى إلى

هذه التُّربة». «ولكنْ؟» وأتردّد قليلاً قبل أنْ أنطق: «أليسَ أبي ما زال حَيًّا؟!» وتتجاهل سؤالي قائلة: «لا تنسَ الجذيمة الّتي أنبتَتْك، الجهلُ أعدى أعداء الإنسان». وأتجاهلُ تَجاهُلَها بسؤال آخر: «أليسَ أبي ذلك الّذي يطوفُ أنحاء الكوفة، يحمل الدّلاء على عاتِقَيه؟!». وتبقى صامتة، فأردف: «الرَّوّاء؟»، وشعرتُ أنّها غضبتْ آنئذٍ، ثُمّ رأيتُها تهبطُ إليّ حتّى إذا صار وجهُها في وجهي، قالتْ بنبرةٍ حادّة: «هذا ليسَ أباك». «فمنْ يكونُ إذًا؟». «لا أعرفُ، إنّه حارِسٌ مِسكينٌ ألصقوه بِكَ حتّى تنسَى». «أنسَى ماذا؟». «تنسَى ثأرَك». «ثأري؟ وهل لي ثأر؟!». «لستَ ابني إنْ لم تأخذْ به». شعرتُ بالخوفِ من جُملتِها الأخيرة، قبل أنْ أبتعدَ خُطوةً إلى الخلف، وأُحِدَّ النَّظرَ في وجهها وأسألَ بتحدٍّ: «فمَن يكون؟». «هذا السَّقّاء؟». «نعم». «بعثَ به مَلِكُ الجنّ إلينا ليحرسك». «يحرسني؟». «نعم». «مِمّ؟». «من الّذين سيسرقون تاريخك». ولم أفهمْ ما قالتْه جدّتي آنئذٍ، غير أنّ موجةً من الخوفِ الطّفوليّ عبرتْني وقتَها، فرميتُ بينَ يديَها بسؤال أخير: «وَمَنْ يكون أبي إذًا؟». «سأقول لكَ عندما تكبر».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٣)

هل يَبِيعُون النّساء؟!

ستقول لي جدّتي مَنْ أبي حينها أكبر، ولكنّني لم أكبر. تأتي بكعبٍ من تلك الكعوب ذات الألوان المُتباينة على الرّفوف الخشبيّة القديمة، فتقرأ:

والخَيْـلُ تَعْـرِفُ مِـنْ جَذِيمَـةَ أنّهَا
تَعْــدُو بِــكُلّ سَــمَيْدَعٍ بُهْلُــولِ

فأقرأ خلفَها، فإذا مضتْ ساعةٌ على ذلك، أخذتْني من يدي وأنا لم أجتزِ السّادسة من عمري إلى خَلاءٍ من الكوفة، في صحراءَ لا يُرى فيها إنس، فتهتفُ بكلماتٍ تامّات، فيأتيها (مُرّة)، ولم أكنْ أعرفُ اسمه، لكنّني كنتُ أسمعُ صوتَه الّذي يُشبِه صوتَ الرّعدِ يهتفُ: «جاءَكِ مُرّة، لبّيكِ يا أُمّاه». فتسأل والرّيحُ تُبعثر صوتَها في سَمُوم الظِّلال: «بَحَقِّ أبيه الّذي تعرفه عَلِّمْه». وكانتْ لُمرّة خيلٌ بَلقاء، يُردِفني خلفَه، وتسبحُ بنا وهو يتغنّى بأشعارٍ كان يقول إنّها من أشعار الجِنّ، وكنتُ أحفظُ كلّ ما يتلوه على مسامِعي. فإذا مضتْ ساعةٌ يُعرّفني فيها أماكنَ لم أكنْ لأعرفَها، ومواضع لم تكنْ خيلٌ لِتَخُبَّ فوقَها لولاه، حتّى يعودَ إلى جَدّتي الّتي لم تُبارِح مكانها، وقد غزلتِ الشّمسُ فوقَ رأسِها شالَها، حتّى إذا سقطتْ في حِضْنها حلّ اللّيل، فلا يُرى إلاّ نَقعُ الخيل المُثار في المساء، فتقفُ على

قدَمَيها فَرِحةً بعدَ أنْ داخَلَها الخوفُ من أنّني لن أعود، وتهتف بمُرّة: «لن تخطفه، لقد أخذتُ منكَ الأمان»، فيردّ: «إنّه ذكيّ، هذا العقل لن يهدَأ، إنّ في رأسِه واحِدًا منّا، إذا نظرَ إلى السّماء أرعدتْ». «عِدْني إنّكَ لن تخطفه». «هو مخطوفٌ على أيّة حال».

وتعودُ بي جَدّتي إلى البيت: «متى ستُصبح فارِسًا؟». وأهزّ رأسي؛ ليس لديّ ما أقول. ثُمّ تُهيِّئ لي العَشاء، فنجلسُ في فُسحةٍ بين الغرفتين نأكل: «إنّ طعمَه مُرّ». «لن تكونَ حياتُكَ كذلك إذا أردت». «وماذا أريد؟». «ستعرف، لن يعرفَ غيرُ المرء ما يُريدُه من نفسِه». «أنا لا أفهمُكِ تمامًا يا جَدّتي». وتمسحُ دمعةً صافِيةً على خَدّها، ثُمّ تقوم إلى الغرفة الأخرى، وتناديني وأنا لا أزالُ أمسحُ بعضَ الطّعام عن فمي: «حان وقتُ الدّرْس». وألحقُ بها، فتجلسُ إلى الكرسيّ الّذي يُشبِه كُرسيّ الإمام في المدرسة، وفي يدَيها كِتاب، ثُمّ تبدأ تقرأ عَلَيّ، كانتْ تقرأ عليَّ كلامًا يسيلُ في دمي، ويجري مع عروقي، قالتْ إنّه الشِّعر، وإنّ الفتى لا يكونُ فارِسًا إلاّ إذا كان شاعِرًا: «أولئك الّذين لا يصولون بالكلمة كما يصولون بالسّيف، تبقى فروسيّتهم ناقِصة». وتتشابكُ الكلمة مع السّيف في عقلي، فإذا ارتفعَ قُرصُ الشّمس حتّى كادَ طرفُ النّافذة العلويّ أنْ يشطره، أخذَتْني من يدي إلى السّوق: «هَيّا يا أحمد، لي حاجةٌ في السّوق».

كانت السّوق تعجّ بالّذين يحملون الدّلاء على أعتاقهم، أو أولئك الّذين يحملونها على أبعِرةٍ غادَين رائِحين، وكان بعضُهم يركب تلك الأبعرة ويصيح: «ثلاث دِلاء بثلاث دراهم تصل إلى البيت»، وكانتْ قَطَرات الماء الّتي تتساقطُ من أفواهها تلمع على أشعّة الشّمس اللاهِبة،

فتندفع الأفواه العطشى إلى الشِّراء. قلتُ لجدّتي وأنا أشيرُ إلى سَقّاء رفيع السّاقَين، ضامر البطن، عاري الأوراك، يتنافر شَعر صَدرِه كغولة، ويلبس عِمامةً متّسخة مُترِبة قد تشقّقتْ أطرافُها: «ذلك أبي؟». «إنّه ليسَ أباكَ، قلتُ لكَ هذا غيرَ مرّة». «إنّه يُشبِهه». «أبوكَ لا يُشبِهه أحد!».

ونمضي في السُّوق. فإذا عبرْنا النّحّاسين وقَرْع قدورهم، وصلْنا إلى زُقاقٍ تصطفُّ على جانبَيه دَكاكينُ النّسّاجين، كانوا ينسِجون على الأنوال الضّخمة بُسُطًا زاهِية الألوان، يقف المُشتغِلون خلفَها، وآخرون يجلسون بينَ يدَيها، وكنتُ أرى السّقائين في كلّ مكان، ثُمّ لمّا انتهى الزُّقاقُ رأيتُ على طَرَفِه دارَ وِراقة، فاستمهلتُ جَدّتي في سَيْرِها، إذ خطفَتْ لُبّي كُعُوب الجِلد الدّاكنة الّتي تستقرّ على الأرفف الخشبيّة في صدر الدّار، ورأيتُ اثنَين في بسطتها يُفاوِضون صاحبها في كتابٍ يُقلّبانه بين أيديهم. «بكم هذا الكتاب؟». «بسبع دنانير». «إنّ سيّدي لم يُعطِني أكثر من خمسة». «إنّه الجمهرة لابن دُريد». «لا أعرفُ ما تعني». «إنّ كتابًا كهذا أحسنُ من عروسٍ أيّها الجاهل». ونمضي. فنصل بعدَ الزُّقاق إلى ساحةٍ كبيرةٍ تقفُ فيها نِساءٌ تنكشفُ ثيابهنّ عن أجسادٍ بَضّة، كان هناك عددٌ كبيرٌ منهنّ، يلبسْن ثيابًا سوداء، وأخريات ثيابًا مُلَوّنة، وهُنّ يَمِسْنَ بدلال.

قَدَّم أحدُهم جاريةً لم تتجاوز السّادسة عشرة من عمرها، بيضاء، مُستديرة الوجه، دَعْجاء العينَين، وكانتْ تنظُرُ إلى الشّارِين وهي تبتسم، تلفّ جذعها المشوق بملاءةٍ من وَشْيٍ مرقوم، تكشفُ من جسدها أكثرَ مِمّا تُخفِي، وكانتْ لعساء الشّفتَين، نافرة النَّهدَين: «المُهفهَفَة، هذا

هو اسمُها، إنّها روميّة...» ويتوقّف قليلاً وهو يضحك، قبلَ أنْ يُتِمّ: «تحفظُ ألفَ بيتٍ من الشِّعر، لقد تعبتُ في تعليمها، وصوتُها فيه السِّحر الحَلال، مَنْ يشتريها بألفِ دينارٍ فقط». يُشير أحدُ الأثرياء الّذي لم ينزل عن صَهوةِ جوادِه إلى خادِمه، يتقدّم الخادم: «يدفعُ سيّدي لكَ فيها خمسمئة دينار»، يُضيّق البائع عينَيه: «خمسمئة دينار، هذا لا يُساوي ثمن ما دفَعْتُه للمُعلِّمين الّذين علّموها الشّعر، والغِناء، ورَقّقوا صوتَها، وأنا علَّمْتُها الظّرافة، امضِ من هنا، يبدو أنَّ سيّدكَ لا يُقدِّر هذه الجوهرة». يعودُ الغلامُ إلى سيّده، يُشير إليه السّيّد قبل أنْ يبلغه بأصابع يده الثّلاث، يعود الغلام: «يدفع لكَ ثمانمئة دينار». «الله من فوق قال: (ولا تبخسوا النّاسَ أشياءَهم)، منذُ سنتَين وأنا أسهر على تعليمها، إذا لم تدفع الألف، فاغربْ عن وجهي». يُزيحه النّخّاس بيدَيه: «أريدُ أنْ أرى شارِيًا يعرفُ قيمة هذه المكنونة»، يتابع: «الألف قليلٌ على هذا الدّلال، حَوْراء رُوميّة، تعرفُ ذلك من كَفَلِها، ولن تشعر بالملل معها، إنّها تغنّي أكثر من عشرةِ أعاريض. غَنّ أيّتها السّاحرة». تنتحنح المُهَفهفة، قبل أنْ ينبثق صوتُها من حنجرةٍ عميقة:

إنّي بُليتُ بظبيٍ مِن الظِّباء رَشيْقِ

رأيتُهُ يتَثَنّى بقرب دار الرّقيق

ينظر الغلام في هذه اللّحظة إلى سيّده الّذي يهزّ رأسَه، فيرجع إلى النّخّاس: «قد قَبِل سيّدي». «هي حَلال عليه، لن يخسر في الألف شيئًا، سيعرفُ ذلك سريعًا».

كانتْ سوقًا كبيرة، رأيتُ فيها الجواري يقفْن على صُعُدٍ خشبيّة، والنّخاسون يقلّبونهنّ بعصيّهم ويديرونهنّ أمام أعين الشّارين كما تُدار الكُؤوس البلّوريّة: «إنّها شركسيّة، اسمُها نُظُم، لثغتُها وحدها تساوي مئة دينار». «هيلانة لحنُ عودٍ ما نَبا، إلى مثلها القلبُ صَبا، إنّها حبشيّة لمن أرادَ أنْ يجدَ الحرارة في البرد، واللّهو في الجدّ». «إنّها جرجيّة، تُدفِئ الضّجيع وتُشبع الرّضيع، لها أيطلا ظَبي سريع، وصوت من الجنّة بديع... هي بألفَين فحسب، أينَ أنتمْ أيّها السّادة، أين مَنْ قالوا إنّهم وزراء هذه الدّولة، هذه الّتي تليقُ بكم». واقتربتُ من جدّتي الّتي كانتْ تُساوِمُ النّسّاجَ في بِساطٍ وهي غافلةٌ عنّي، شددتُ يدَها، فنظرتْ إليّ مُتسائِلة، فلم أستطعْ أن أقول شيئًا، ورأيتُ شفتَيها كأنّهما تنطقان، غير أنّ أصواتَ النّخّاسين غَطّتْ على صوتِها. «إنّها أملحُ الجواري وجهًا، وأهيفهنّ قَدًّا، وأعذبهنّ صوتًا، بستّمئة من يشتري؟». «هذه الملعونة (عُرَيب)، إنّها أحسنُ من يلعب النّرد والشّطرنج، سمراء غير أنّ لها كشحًا هضيمًا، وكفلاً عظيمًا، وصوتًا رخيمًا، ولا تعدم نديمًا، إذا قامتْ ترجرجتْ، وإذا مشتْ تلفّتَت، وإذا رقصتْ تلّوتْ تلوّي الأفعى في حان خَمّار، بألفٍ ومئتين». وشددتُ هذه المرّة يدَ جَدّتي بقُوّة، واستدارتْ بجسمها نحوي، ونظرتْ في عينَيّ تستنطقني، فتساءلتُ مستنكِرًا: «هل يبيعون النّساء في هذه السُّوق يا جدّتي؟». «إنّهم يبيعون كلّ شيءٍ هنا يا بُنيّ». «كيفَ يُمكن أنْ يُبعْنَ هكذا كأنّهنّ سقطُ المتاع؟!». «اصبرْ قليلاً يا بنيّ، هؤلاء الجواري سيُصبحْنَ ملكاتِ هذه البِلاد الواسعة، سيعزلْن الولاة، ويُعَيِّنَّ القادة، وستغدو المواكب إلى مخادعهنّ وتروح!».

وقفلْنا عائِدين إلى البيت، وفي زُقاق الصّفّارين رأيتُ أبي يُنادِي على الماء، وقد أثَّرَ الحبل في عاتقه، ومعه ولدٌ أعمى أكلَ الجُدَريّ وجهه فذهبَ برونقه، يتكفّف النّاس، فاقتربتُ منه وناديَتُه: «أبي... يا أبي»، فالتفتَ نحوي وقد لمعتْ عيناه: «إنّني أراك». ولمّا صِرْتُ قريبًا منه أرادَ أنْ يحتضنني، لكنّ جدّتي سارعتْ إليّ فانتزعَتْني من بينِ ذراعَيه: «هيّا بنا، سوفَ نتأخّر عن البيت».

(٤)

نكِّرْ تُعْرَف..!!

عُدتُ إلى المدرسة، كانتْ ثيابي رقيقة، تخفق على جسدي النّحيل، ولمْ يكنْ لهذا الجسد من لحم على وَضَم، وإلى ذلك كنتُ رحبَ الفناء عندَ نفسي، وكان رأسِي حاسِرًا، ولم تكنْ جدّتي لتتمكّن من شِراء عِمامةٍ لي أُسوةً ببقيّة الأولاد، وإنْ كان شَعْرِي الفاحِمُ وافرًا. وكان رُفقائي يرفلون في ثياب الدِّمَقس، ويتيهون بعماماتهم الّتي تتهدّل ذُؤاباتها حتّى تُغطّي شحمات آذانهم. وكانوا ينظرون إليّ نظرة ازدِراء، وكنتُ أسمعُهم: «جاء ابنُ السَّقاء». «انظروا إلى ثِيابِه المُضحِكة». ألا يملك أبوه ثمنَ ثوبٍ واحدٍ نظيفٍ عوض أنْ يلبسَ هذا الثّوب المُمَزَّق المُمَخرَق طَوال السّنة؟!». «إنّه نحيلٌ جِدًّا، لماذا لا يُطعِمونه في البيت؟!». وينفجر أحدُهم بالضَّحِك وهو يرمي إليّ قِطعة خُبزٍ مُملَّح: «كُلْ أيّها المِسكين، لا بُدّ أنّكَ لن تجدَ مثل هذا الخُبز في بيتك». وغيرَ مرّةٍ كنتُ أشعر أنّه يجب أنْ أنقضّ عليهم جميعًا فآكُلَهم بأسناني، وأُمزِّق أحشاءَهم بأظافري. إنّ هذه الدُّنيا لا تعترف بغير أصحاب الأكمام الطّويلة، والعباءات المُزركشة، والعمامات المُرخاة. تبًّا لكم أيّتُها الرُّخَم المُتعفّنة. أيّتها العُجول المعلوفة، والشّحوم المُهدَّلة، أينَ أنتَ أيّها السّيف حتّى أبقر بطون هؤلاء المُتخَمين؟! لماذا ولدَني أبٌ فقير، وأمٌّ ميّتة، وجَدّة لا تملك لي سِوى الكلمات؟!

وجَلَسْنا إلى حلقة الشّيخ، فلمّا انتهتْ بي الحلقة إلى آخرها، قامَ أقربُ الأولاد إليّ وهو يضعُ إصبعَيه على أنفه، ويهمسُ بصوتٍ أسمعه: «إنّ رائحتكَ لا تُطاق. هل نمتَ أمسِ في كنيف؟!». وماذا أفعل، وددتُ لو جدعتُ أنفكَ أيّها البغل، هذا الأنف الّذي لا يشمّ غير رائحة البخور والعُطور، والأطعمة المشويّة. ولم يُحرّكِ الإمام ساكِنًا، ومضى الولد يجرّ مِرط ثوبِه خلفه، حتّى جلسَ إلى ولدٍ آخَرَ يُشبهه. فلمّا ابتدأ الدّرس صمتوا صَمْتَ الحملان الوديعة، ولم أسمع سوى صوتِ اجترارهم وأنفاسهم المتقطّعة، وسأل الشّيخ: «ما وجهُ إعراب كلمة (خاسئِين) في قوله تعالى: «فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»، فلم تتحرَّكْ شَفَتا واحدٍ منهم، وجَمجموا ولَجلجوا، فأشرعتُ يدي، فلمّا أَذِن لي الإمام، قلتُ: «إنّ هذه الكلمة وردتْ في القرآن مرّتَين، وإنّ لها سَتّ وجوهٍ من الإعراب».

ثُمّ قُمْنا إلى الصّلاة، فاصطَفَفْنا، فلكَزني الّذي عن يميني، وأشار برأسه: «ارجعْ إلى الصّفّ الأخير، فليسَ هذا مكانُك». فلم أقلْ شيئًا، غيرَ أنّني نظرتُ إليه نظرةً تَحَدٍّ. فلم يرعَوِ، وجذبني من كتفي: «ألم تسمع أيّها الأصمّ؟! هذا الصّف لأولاد الأشراف، لا لأولاد المُرتَزَقة مَبتوتي النَّسب». فثارتْ ثائرتي، وأحطتُ عُنُقَه بِكَفّي، وشَدَدتُ عليها، وهتفتُ بغيظٍ: «أنا ابن الأشراف يا بن الفاعِلة»، فراحَ يثغو كشاةٍ، فشددتُ عليها أكثر، وصرختُ: «اسمعْ أيّها النّكرة، لو قلتَ هذا الكلام لي مرّة أخرى فسأدقّ عُنُقَك، وأقتلعُ عينيك، أتعرفُ مَنْ تُكلِّم أيها النّعامة المُدلَّلة؟». وراحَ يشهقُ وهو يختنق، وتلوّى بينَ يَدَيّ، وثنى جِذعه حتّى كادَ يجثو على رُكبتَيه، وكانتْ عيناه تتوسّلان إليّ، غير أنّني لم أكترثْ به ولا

بتوسّلاته، وشددتُ أكثر حتّى ازرقّ وجهه، وتبعثَر الصّفّ المُستقيم، وتجَمَّعوا حولي يستنقذونه منّي وهم يتصايَحون، واجتَمع الأئمّة، فتركتُه آنئذٍ ونفضتُ يدَيّ وقلتُ وأنا ألهث: «أنا مُقَدّمٌ على هؤلاء جميعًا، ولو كانوا يعرفونني لركعوا بين يَدَيّ، ويومًا، ليسَ بعيدًا، سأقفُ أنا ليسَ في الصّفّ الأوّل فحسب، بل موضع الإمام نفسِه، وستكونون خلفي كلّكم أيّتها الإبل السّائمة». وذُهِل الأئمّة قبلَ الطّلاّب. ولم أُصَلّ معهم تلك الصّلاة، وخرجتُ مُغضَبًا وأنا أردّد وسطَ ذهولهم: «إنّ صلاةً لا أكون فيها إمامًا باطِلة».

عُدتُ إلى جَدّتي، ودخلتُ البيتَ بخطواتٍ سريعةٍ حانِقة: «مَنْ أبي؟». «ما الّذي حدَث يا أحمد؟». «أريدُ أنْ أعرفَ مَنْ أبي؟». «قلتُ لكَ إنّني سأقول لكَ مَنْ أبوكَ عندما تكبر». «أريدُ أنْ أعرف الآن». «لماذا تلهثُ هكذا، ما الّذي حدَثَ في المكتب يا أحمد؟!». «أنا لا أطيق المُكوثَ مع هذه الجيف المُتكدِّسة». «هل تشاجرتَ مع الصّبيان؟». «مَنْ أبي؟! أهذا السّؤال صعبٌ إلى الحدّ الّذي تستحيلُ معه الإجابة؟!». «أبوكَ خيرُ هؤلاء الأشراف جميعًا. إنّه إمامهم». «أريدُ أنْ أعرفَ اسمَه». «لن تعرفَ الآن!». «أنتِ تخدعينني، أسِرٌّ هو؟!». «أبوكَ المُنتَظر يا أحمد». «لماذا تُجيبين إجاباتٍ مُضلِّلة، أريدُ أنْ أعرفَ نسبي!». كانتْ عيناها قد بدأتَا تغرورقان بالدّموع، ضَمّتْني إليها، ونظرتُ إلى وجهها العَجوز وأنا مُحنَق، وراح صدرها يعلو ويهبطُ من النّشيج، فدفَعْتُها عنّي، ووقفتُ على مبعدةٍ منها، ثُمّ مسحتُ ما تقاطَر من دموعها فوقَ وجهي، وهتفتُ:

كُفِّــي أَراني وَيــكِ لَوْمَــكِ أَلوَمــا

هَــمٌّ أَقــامَ عَــلى فُــؤادٍ أَنجَــما

وَخَيــالُ جِســمٍ لَمْ يُخَــلِّ لَــهُ الهَــوى

لَــحْمًا فَيُنحِلَــهُ السَّــقامُ وَلا

دَمَاوَخُفــوقُ قَلــبٍ لَــو رَأَيــتِ لَهيبَــهُ

يــا جَنَّتــي لَظَنَنــتِ فيــهِ جَهَنَّــما

ورأيتُ وجهها يُشرِق من خلال الدّموع، وتهلّلتْ أساريرُها، وافترّتْ شفَتَاها عن بسمةٍ مُتذبذِبة، ونطقتْ بين دموع الحُزن والفرح: «صِرتَ شاعِرًا... متّى أتاكَ رَئِيّ الشّعر يا بُنَيّ؟!». وهوتْ نحوي تريدُ أنْ تضمّني من جديد، لكنّني لم أُمكِّنْها من ذلك، وأعطيتُها ظهري، وصفقتُ الباب خلفي، وخرجتُ لا ألوي على شيءٍ.

ركضتُ في الحواري حتّى تقطّعتْ أنفاسي، فلمّا صارتْ بيوتات (كِندة) خلفي، رُحْتُ أذرع الأرض بخطوات واسِعةٍ نحو البادِية، ومشيتُ في وجه الشّمس، والشّمسُ تهربُ من أمامي في الأفق، لن تقفَ حتّى هذه الشّمسُ في وجهي، حتّى إذا خَفّتْ حرارتُها، وبَرَد العرقُ الّذي يتصبّبُ على جبيني، ظَهَر لي السَّقّاء، نبتَ كعفريتٍ في وسطِ الصّحراء، ونادَى عليّ بصوتٍ حنون: «بُنيّ». فخفّفتُ من خُطُواتي اللاّهبة، حتّى توقّفتُ، واستدرتُ نحوه، وسألتُه قبل أنْ يصير إليّ: «مَنْ أنتَ أيّها الدّعيّ؟!». «أنا أبوك». «لستَ أبي». «بل أنا هو. لا تسمَعْ لجدّتك، إنّها تُخفي الحقيقة، ولكنِ اسمع لقلبك». وشعرتُ نحوه بمودّة غامرة، وخفقَ قلبي لرؤيته، وكانت الشّمس تتوارى خجلى، وهبَّتْ نسائمُ

خفيفة، فسمعتُه يهتفُ بصوتٍ ملائكيّ عَبرَ جوارحي: «انظرْ إلى عَينَيّ يا بُنيّ وستعرفني، الأبناء مَخبُوؤون في عيون آبائِهم». ونظرتُ إلى عينَيه، فإذا هما عينا نبيّ، وغُصتُ فيهما، وسمعتُه يهمس: «دَعِ الأجسادَ لأهل الأجسادِ يا بُنيّ، إنّما نحنُ أرواح، عُيُوننا تنطقُ بما يعتمل في قلوبنا». ووضعَ كفّه في كفّي، ونظرتُ فشعرتُ أنّ أمان الأرضِ كلّها في عروقه، وسِرنا معًا نحو الخَلاء، ليسَ فيه سِوانا، وهتف: «إنّ وجوه الإعراب السّتة الّتي قُلتَها في...» وقاطَعْتُه: «هل كنتَ معنا؟». «أنا لستُ معكَ فحسب، أنا فيك». وشعرتُ أنّها أصدقُ كلمةٍ سمعتُها مُذ وُلِدت، وتابع: «الوجوه السّتة يُضاف إليها وجوه سِتّة أخرى، كلّ تقليبٍ في موضع الكلام يرفعه إلى عرشِ معنًى جديد؛ تلك هي اللّغة». «وهتفتُ: «تقليبُ الكلام». فهتف: «نعم، وعليكَ أنْ تكون سيّدَ هذا الكلام». ومضينا وقد حلّ اللّيل تمامًا، ورَقَى بي، لا أدري هل طارَ أمْ سار، غير أنّ بادية الكوفة لم تكنْ باديتَها، وسماءَها لم تكنْ سماءَها، وشعرتُ أنّنا نرتقي إلى النّجوم، ونجلسُ على ثَبَجِها، ورُحْنا نقول كلامًا كثيرًا، وقال: «يا بُنَيّ اللّغةُ فِتنة». فأقول: «ائذنْ لي ولا تفتِنّي»، فيضحك، وتضحك نجمةٌ قريبةٌ أسمعها: «ألا في الفِتنة سَقَطوا». ويقول: «نَكِّر تُعرَف، أَخِّر تُقَدّم، أعطِ تأخذ، احذفْ تَجِد». وأسأله: «هذا للكلام أم للبشر؟». «بل لكلّ موجودٍ... يا بُنَيّ ستطول غيبتُكَ عن شهودِك، ولكنّ شهودكَ لن يزول، وسيحتقرك النّاس وما سواهم كذلك، وسيزدرون ما تقول، فما أتى نبيٌّ بالمعجِز إلاّ ازدُرِي وازدُجِر، فدع ما يقولون دُبُر أُذنَيك، وانظر إلى غايتك، أترى هذه النّجوم الضّاحكة، لا تثق بأحدٍ حتّى بها، ثِق فقط بقلبك، بما تراه أنتَ محجوبًا عن عيون الخلق، فإنّ عيونهم أجمعين غير عينَيك، وإنّ أقدار السّماوات وهَبَتْك عُيُونًا لم تُوهَب لبشريّ قبلكَ،

ولن توهبَ لأحدٍ بعدك... يا بُنَيّ انظر؛ هل ترى، إنّهم ينظرون ولا يَرَون. فإذا زال الحِجاب حَدَّ البصرُ... يا بُنَيّ...» وكانتِ النّجوم تجلسُ بين أيدينا كأنّها تلاميذُ طيّعة تسمعُ لهذا الشّيخ الّذي ازدُري في الأرض وُوقِّر في السّماء.

فلمّا طار غُرابُ اللّيل عُدْت، فوجدتُ جدّتي على الباب، وهي تغطّي وجهها بباطن كَفَّيْها، فلمّا سمعتْ صوتَ أقدامي انتبهتْ: «أينَ كُنتَ يا بُنيّ؟!». ولم أُجِبْها. ودخلتُ من الباب، فتبعتْني: «هل خطفوك مرّةً أُخرى؟!». «أنا مخطوفٌ على أيّة حالٍ يا جَدّتي. عليكِ أنْ تُسلّمي بذلك». وهمهمتْ: «أمري لله».

لم أنمْ تلك اللّيلة وأنا أفكّر بأبي. هذه الفتنة السّاحرة. هذا الكلام الّذي أُلقِي في رُوعي كأنّه أنشأني من جديدٍ وجعلني خَلْقًا آخر. وسمعتُ أقدامَ النّهار تدرجُ على مدرج النّمل، فإذا هو الفجر، فقمتُ، وأيقظتُ جَدّتي، فهبّتْ مفزوعة: «ماذا هناكَ يا بُنَيّ؟». «لم أَنَمْ ليلتي!». واعتدلتْ في السّرير، وخفضتْ رأسَها، وهمستْ: «أنّى لمثلكَ بعدَ اليوم أنْ ينام؟!».

وتسلّلتْ أشعّة الشّمس من الطّاق، ومضيتُ إلى المدرسة، وقد وضعتُ كتابَ المُفضَّليّات في كُمّي، هذه المرّة لن أدعَ أحدًا يسخر منّي، ورُحتُ أحفظُ منه ما تيسّر، حتّى إذا ولجتُ البوّابة العالية المُفضِية إلى السّاحة الغامِضة، أويتُ إلى الظّلّ أتابعُ الحِفظ، فجاءني أحدُ الأئمّة، وأشارَ إلى الكتاب الّذي بينَ يدَيّ: «هاتِه»، فناولتُه له، فهتف: «تمَثّلْ»، فرحتُ أقرأ له ما حفظتُ فلمّا انتهيتُ إلى القصيدة العاشِرة، قال لي:

«حسبُك». فقلتُ: «اقرأْ علَيّ»، فقرأ عشر قصائد، فلمّا وقفَ كان جمعٌ من التّلاميذ قد تجمهروا حولَنا، فهتف وهو ينظر إليهم والكتاب ما يزال مبسوطًا بينَ كفَّيه: «هل تُعيدُ علينا ما قرأتُ عليك؟!». فقلتُ: «أفعل»، فما أخطأتُ في وزنٍ واحدٍ، وما تلعثَمْتُ في كلمةٍ واحدة، فهتف وهو يُغلِقُ الكتاب: «أنتَ جِنّيّ».

ثُمّ انتظمْنا في الحلقة وقد ضحا النّهار، فما رأيتُ أحدًا من رِمَم الأمس ينبسُ ببنتِ شِفة، وقد هابوني، فوجدتُ لذلك لذّة في نفسي، كانوا ينظرون إليّ مِنْ طَرَفٍ خَفِيّ، وتزّاور عُيُونهم خوفًا وتوقيرًا. ثُمّ انفضّت الدّروس، وجاءت جدّتي لتأخذني، فمضيتُ معها وأنا أرفع صدري، وأَشُدُّ خطوتي.

في الزّقاق الّذي يُفضي إلى الحيّ الفقير الّذي نقطنُ فيه، رأيتُ صَبِيَّين يتجاذَبان جُرَذًا، كان أحدهما يرفعه مُفتخِرًا أنّه تمكّنَ من قَتْلِه بعدَ أنْ راوَغَه طويلاً، والآخر يصيح فيه: «دَعْه لي فأنا الّذي أغرتُ عليه أوّلا، أنا الكِنانيُّ لا كَذِب»، فيردّ صاحِبه: «لن يكون وأنا العامريّ لا فخر، لقد هويتُ على ذَنَبِه بأسناني». «أينَ البطولة في ذلك؟ لقد رميتُه بحجرٍ أوّل ما شاهَدْتُه، لولاي لم يكنْ لك أنْ تصيده، ولا أنْ تظفرَ به»، وراحا يتنازَعان، والجُرَذ المِسكين المرفوع من ذنبه في الهواء مُستسلِمٌ لِفعل هذين البطَلَين، وأتيتُهما: «أيّها البطلان، كلاكما مُتفرّد في البطولة، لقد سمعتُ صِياح هذا الجُرَذ وأنا في المكتب، فعلمتُ أنّ فارِسَين قد فتَكَا به، ولم يرحماه... أُفٍّ لكما من أبلهَين!». وتخلّى الّذي كان يرفعه من ذنَبه عنه، وأرادَ أنْ يتقدَّم نحوي ليضربني، فوكزتُه بجُمع يدي، فسقطَ وهو يبكي، أمّا صاحِبهُ فأطلقَ سِيقانه للرّيح، فناديتُه: «إلى أينَ تهربُ

أيّها الصّنديد، تعالَ فإنّ صاحِبَكَ الهُمام لا يزال يبحثُ عن مكانٍ يعضُّ فيه هذا الجُرَذ أفي بطنه أم في ذيله؟!»، ونهضَ الّذي سقطَ مذعورًا ولَحِقَ بصاحبه، وشَدّتْني جدّتي من يَدي، وهي تضحك: «أبطال، لا بُدّ أنّ لهما ثأرًا عنده». فلمّا مضينا خُطوتَين، قلتُ:

لَقَـــدْ أَصْبَـــحَ الجُرَذُ المُسْـــتَغِيرُ
أَسِـــيْرَ المَنَايـــا صَرِيْـــعَ العَطَـــبْ
رَمَـــاهُ الكِنَـــانيّ والعامِـــرِيُّ
وَتَـــلّاهُ لِلْوَجْـــهِ فِعْـــلَ العَـــرَبْ
كِلا الرّجُلَـــيْنِ اتَّـــلَى قَتْلَـــهُ
فَأَيُّكُـــما غَـــلَّ حُـــرَّ السَّـــلَبْ
وَأَيُّكُـــما كَانَ مِـــنْ خَلْفِـــهِ
فَـــإِنَّ بِـــهِ عَضّـــةً فِي الذّنَـــبْ!!

(٥)

ذَنْبُهم ضَعفُهم

وسألتُ جدّتي: «ما اسم أبي؟». «إنّ الجِنّ والإنسَ تُسمّيه الحُسين، ولكنّه (محمّد)». «فهذا السَّقّاء الّذي أراه مَن؟». «هو الحُسين». «هو أم شَبَهُه؟». «هو وشَبَهُه معًا، مرّة يكونُه ومرّةً لا يَكونه». «إذا كان هذا السّقّاء جنّيًا، وعليه أُلقي شَبَه أبي، فلماذا اختاروا له مِهنة السّقاية؟ ولماذا اختاروا له اسمَ الحُسين؟!». «ستعرف». «متى؟». «قبل أنْ تموت، وستموتُ الحقيقةُ معك». «فأين أبي مُحمّد؟». «لقد غُيِّب؛ وسيعودُ يومًا». «لن يعودَ مَنْ غاب». «كُلُّ غائبٍ مُنتظَر». «فبلّغيني عنه ولو آية». «إنّ آياتِه كُلَّها في بطون الكتب».

صرتُ أتركُ البيت في اللّيل عندما تنام جدّتي، وأخرجُ في دروب كِندة، أمشي بهمّة دون أنْ أتلكّأ أو أنظر هنا أو هناك، كأنّني أسعى إلى غايةٍ، أو أسيرُ إلى لِقاءِ أحدٍ، وما كان هناك مَنْ ينتظرني في نهاية الطّريق، كنتُ وحدي، وكنتُ أسعى إليّ، وكنتُ أمضي إلى شيءٍ لا أدري ما هو، أبحثُ عنه مع أنّني لم أفقده، وأسأل عنه مع أنّه لم يكنْ، غير أنّني شعرتُ أنّ بادية الكوفة يُمكن أنْ تُساعِدني... فأمشي... أمشي، وأمشي، الحواري خالية، الأزقّة فارغةٌ تمامًا، تركتْها الأقدام الرّاحلة، لا مدرج حتّى للنّمل في هذا الوقت من اللّيل، من بعيدٍ لا أسمعُ إلاّ

صوتي قادِمًا مع الذّئاب أو الوحوش أو الهوامّ الّتي تسكنَ وراء هذه البيوت المُوحشِة، المُغلَقة على الأسرار الصّغيرة... فأمشي... لا أتوقّف حتّى تكلّ قدماي... وأتعب... لكنّ شيئًا ما هناك يُناديني، أسمعه في داخلي بوضوحٍ يقول: كيفَ رضيتَ أنْ تنام خلفَ تلك الجُدران الخرساء وتتركَ هذا الفضاء الفسيح؟! إنّني أنتظرك فلا تَعجَزْ... وأُسرعُ هذه المرّة في خُطُواتي، أقفز، أحجل، أهمّ، أنهج، أرسمُ، أَخِذُ، أعدو، أركض... أسبقُ الرّيح... وأصل في النّهاية إلى فضاءٍ مُطلَق، قُبّة سماويّة كُحليّة مُرصّعة بالنّجوم، أفتحُ لها ذارعَيّ، وأراه... أراه نعم، لقد كنتُ أتوقّع ذلك غير أنّني لم أتيقّنْ إلاّ عندما رأيتُه حَقًّا، لقد كان صوتُه فِيّ، يهتف: «يا أحمد، ما تسمعه تراه، ما تسمعهُ يقين»، وأسأله: «هل هذا أنتَ يا أبي؟». فيردّ: «ومن سِواه يكون!». ويُعلّمني.

«لن تلبسَ بعدَ اليوم سِوى النّظيف من الثّياب، ولن تمشي إلاّ كَمِلك». وتُرَجِّلُ جدّتي شعري الأسودَ الفاحِمَ الكَثّ: «هذه الوَفْرة لا تليق إلاّ بعظيم». وأبتسِم: «ألا تهتمّين يا جَدّتي بعقلي كما تهتمّين بجسدي». «إنّ هذا العقل سيُتعِبك». «خيرٌ له من أنْ يُريحَني». وانطلقتُ بعدها إلى المكتب.

في الدّروب المُلتوية، والأزقّة الضّاجّة، أرى النّاسَ ولا أراهم، هذا الحَيُّ البائس لن يحتلّ بؤسُه قلبي، النّاس أشباح، الأجسادُ جُثَث، الكُؤوس بِلّور، البلّور خمر، الخمر وَلَه، الوله بَلَه، الجواري متاع، المتاع خِداع، الخِداع ابتِداع، الحقيقة هنا، هنا فحسبُ، وأنقر رأسي بطرف إصبعي وأسير.

في زاويةٍ إلى دُكّان نَحّاس رأيتُ أخي الأعمى، يُقرفص خافِضًا رأسه بين ساقَيه، وواضِعًا يُسراه على شَعره الأشعث، وباسِطًا يَدَه اليُمنى يستعطي، رَمَى له أحدٌ بكيسٍ ففتحه، فلم يجدْ فيه شيئًا، ورَمَى له آخَر حَشَفًا جافًّا، فأكله وهو يشكر صاحِبَه، ومرّ صبيّ فحذفه بكسرة خُبزٍ يابِسة بقوّة فأصابتْ عينه المُطفأة فصرخ من الألم، وأراد أنْ يستوي على ساقَيه ويشتم، ولكنّه آثر الصّمت، هُرِعتُ نَحوه، فأخذتُه من ذراعه برفقٍ: «قُمْ يا أخي، لا يليق بكَ أنْ تفعل ذلك». ووقف، وأمال رأسَه يُرهِفُ سَمعه إلى الصّوت، فقال: «مَنْ؟». «أنا أحمد». «أحمد مَن؟». «أخوك». «ليس لي أخٌ، مَنْ أنت؟». «بل أنا أخوك». «مَنْ قال لك ذلك؟». «جَدّتي». «إنّني أكرهها». «تكرهها، ماذا فعلتْ لك؟!». «تسألني؟ ماذا فعلتْ لي؟ أنا أتمنّى أنْ تفقد بصرها كما فقدتُ بصري». «لا تقلْ ذلك يا أخي!». «بل إنّني أتمنّى لو استطعتُ لاقتلعتُ عينَيها بيدَيّ هاتَين، وحرمْتُها النّظر إليك». وفتحتُ حقيبة القِماش الّتي معي، وأخرجتُ له تمرًا طريًّا، وخُبزًا، ومددتها نحوه: «كُلْ يا أخي». وراح يأكل بنهمٍ، كأنّه لم يأكلْ منذُ وُلِد. «لِمَ لا تأتي وتبيتَ معنا؟!». «إنّ جدّتي لا تُحبّ سِواك». «إنها تُحبّنا معًا، ولكنّك لا تأتي إلينا». «لا حاجةَ لي بكما». «سأقسِم الطّعام في كلّ مرّةٍ بيني وبينك». «قلتُ لك: لا حاجةَ لي بك ولا بِها ولا بِطعامكما». وضممتُه إلى صدري، وربّتُّ على كتفه، وبقيتُ كذلك حتّى راح جسدُه يرتجّ، وسَمِعتُ صوتَ أنينِه، وهمستُ في أُذنه: «أنا أخوكَ فلا تبتئِسْ». فلمّا هدَأ قليلاً دفعني بقوّة عنه، وهتف: «دعْني وحدي أجد رِزقي». ونفضَ رأسهَ نَفَضاتٍ عِدّة، وشَدّ على الحروف: «ليسَ لي أخٌ. امضِ من هنا». ونظرتُ إلى عينَيه المُطفأتَين

تنوصان تبحثان عن نورٍ في هذا الظّلام السرمديّ، وشعرتُ أنّه يعني ما يقول. ومضيت.

في الطّريق لم أحبِسْ دموعي، القهر. الفقر. المرض. الجوع. العمى. كيفَ يخلقُ الله النّاس بهذا كُلّه؟! وصرختُ صرخةً انشقّ لها ما تبقّى من الزّقاق، وردّدَتْ جنباتُه أصداءَها قبل أنْ أدخل المكتب.

كنتُ أمشي في الرّواق العالي الفاصل بين غُرَف الدّروس، والتّلاميذ يبتعدون عن طريقي ويتناثرون على جانِبَيه، اقتربَ أحدُهم منّي يريدُ أنْ يُلاطفني: «يا أحمد!». وتوقّفتُ دون أنْ أنظر إليه، وحذا حَذْوه آخرون لمّا رأوا إقبالَه عَلَيّ، وسألتُه وأنا لا أزال أُعطيه ظهري: «ماذا تريد؟». «كيفَ تحفظ الشّعر بهذه السّهولة؟!». واستدرتُ نحوه هذه المرّة، وحدّقتُ في عينَيه، وقلتُ بثقة: «أنا لا أحفظه، بل أراه مطبوعًا في عقلي». ونَدّتْ ضَحِكةٌ مكتومةٌ من أحدِ القريبين، فجحظتُه بعينَيّ فابتلعها، ثُمّ أراد الأوّل أنْ يُمازِحني ليردم فجوة الجفوة بيننا، فنظر إلى شَعري الوافر المُرَجّل، وثيابي النّظيفة الجديدة، فهتف: «ما أحسنَ هذه الوفرة، وما أجملَ هذه الثّياب!» وابتسم، فشددتُ على أسناني، وقلتُ:

لا تَحسُـــنُ الوَفــرَةُ حَتّـــى تُــرى
مَنشُــورَةَ الضِّفْرَيــنِ يَــومَ القِتالْ
عَـــلى فَتـــىً مُعتَقِـــلٍ صَعْـــدَةً
يَعُلُّهـــا مِـــن كُلِّ وافي السِّـــبَالْ

واخترقتْ كلمة (صعدة) نَحْرَ الفتى، وشعر بالذُّعر فتراجعَ إلى الوراء خُطوتَين، وسقطتْ من يده رقوقٌ كان يحملها، ونظَر إليَّ آخرون بهلع، ومضوا وهم يتهامسون: «هذا هو... هذا هو...».

وانتظمْنا في المكتب، وكان درسُ المِلَل والنِّحَل، فما أضافَ الإمام لما قرأتُه شيئًا، غير أنّه لم يذكر المانويّة ولا الزّرادشتيّة، ولمّا ذكّرتُه بما نَقُصَ من درسه، نَكِرني، وهتف: «صَهْ، ما أنتَ حتّى...» ولم يُتِمّ ما بدأ، واستبدل بها أخرى قائلاً: «تعلّمْ كيفَ تتأدّب في...». ولم يكدْ يُكمل جملته الثّانية، حتّى تناهَى إلى مسامعنا صِياحٌ قادِمٌ من البهو الّذي تقوم حوله الأروقة وغُرَف الدّروس، والتفتْنا جميعًا من خلال الأعمدة نحاول أنْ نعرفَ سبب هذه الصّرخة العالية، فرأينا عددًا من الأئمّة يرفعون أذرعَهم كأنّها أشرعةُ سفنٍ تغرق، وهم يصيحون: «القرامطة... القرامطة... لقد هجمَ القرامطة على الكوفة...». ورأيتُهم يهربون، وقد خلع بعضهم العِمامة ورماها في فضاء البَهو، وشَمّر آخرون عن سيقانهم، لافّين عباءاتهم على جذوعهم وهم يركضون في كلّ اتّجاه، وقام إمام حلقتنا، وهرب هو الآخر، ورأيتُه يقفز كأنّه أرنب، وفعَل فِعله التّلاميذُ، وعمّتِ الفوضى المكان، وسادَ هرجٌ ومرج، وشاهدتُ بعضُهم في هروبه يرتطم ببعضِهم فيسّاقطون تساقُطَ الذّباب، ولمستُ في عيونهم الفزع، ورأيتُ سيقانهم ترجف، وأبدانَهم ترتعش... وأمّا أنا فشعرتُ بلذّة غريبة، ومتعةٍ لا تُفَسّر، وهمستُ لنفسي: «القرامطة... لقد جاؤوا أخيرًا». ومشيتُ بهدوء عبر رجالٍ سَرْبَلَهم الهلع، يهربون هروب الفِئران ضَلّت جُحورها، والسّنوّرات واجهتْ أُسدَها، والحجل رأتْ صَيّادها... يطيرون... ينسربون... يصرخون... كلّ هذا من القرامطة، وماذا عسى أنْ يكون هؤلاء وهؤلاء...؟! وتناهتْ إلى مسامعي

صرخاتُ بعضِهم: «إنّهم سيدخلون مسجد الكوفة». وحدّثْتُ نفسي: «لقد جاء اللّقاء على غير مِيعاد». وتابعتُ سَيْري الواثق خارِجًا من المكتب، حتّى إذا وقفتُ على بوّابته رأيتُهم، ويا لجَمال ما رأيت، لمثلِ هذا المشهدِ أتوق، ولمثل هذه الفروسيّة أعيش.

كانَ الجنود يلبسون الدّروع، يجرّون الحديد، وتُغطّي رؤوسهم المَغافر، ويُشرِعون الرّماح بأيمانهم، يشطر الرّمح صاحِبَه نِصفَين، فكأنّه يقفه على الحَدَّين في مهابةٍ وعَظَمة، وكانت حِلَق الدّروع وصفائح المَغافِر تبرقُ على أشعّة الشّمس وتلمع، حتّى خِلتُ أنّه لو كان الوقتُ ليلاً لصار نهارًا. ورأيتُ الخُيُول تُهملِجُ، وتتقلقل بالفرسان، فتعلو أجسادهُم وتهبطُ، عُلُوًّا خفيفًا وهبوطًا وادِعًا، والرّماح تتساوق مع ذلك العلوّ والهُبوط فتبدو في مجموعها إذا نظرتَ إليها من هنا أمواجَ بحرٍ فضّيّةً تسيرُ الهُوَينى، فراعني المشهد، وأصابني بالانتِشاء، ورأيتُ النّاس في الأزقّة والحواري بعدَ ذلك، وفي الدّرب الّذي يمرّ من أمام المدرسة ينحنون لهم، ويرفعون أيديهم مُرحّبين خوفًا لا حُبًّا، فزاد ذلك من انتِشائي، فأنْ تحمل النّاس على أنْ تهابكَ وترهبك إلى كُرهٍ، خيرٌ من أنْ تدعهم يطمئنّون إليك ويأمنونك إلى حُبّ؛ إنّ الخوف داعية الطّاعة، وإنّ الأمان داعية العِصيان. وإنّ الحُبّ للنّساء، والقُوّة للرّجال.

ورأيتُ بعضَهم ينهبُ ما في الدّكاكين من طعام، ويصيح: «أدُّوا ما عليكم إلى مَنْ يحمونكم»، وصاحبُ الدُّكّان صاغِرٌ مُتقهقِر، ورأيتُ آخرين يلكزون بالرّماح صُدُور النّاس، وداسَتْ حوافر الخيل أجسادَ بعضهم في التّدافُع الّذي تضيقُ به الأزقّة، ورأيتُ بعضَ الدّماء تسيلُ فشممتُ لها رائحةً لذيذة، فزجرتُ نفسي: «أَيُمتّعك منظر الدّم،

وتجذبك رائحته؟». «كلاّ، ولكنّني أكره الضّعيف المُتخاذِل، وأحبّ القويّ المُتطاول، الحياة للأشدّاء، أمّا الّذين لا ينزعون حياتهم من بين أشداق الرّماح، فلا يستحقّون تلك الحياة». «ولكنْ ما ذنبُ هؤلاء المساكين حتّى تُراقَ دماؤهم؟!». «ذَنْبُهم ضَعفُهم». «لا بُدّ أنّكَ تهذي». «ربّما، ولكنّ الحياة تسير على هذا النّحو. الموتُ يُدفَع بالسّيف». «الموتُ لا يدفعه شيء». «لا تكنْ واعِظًا. تأمّل معي هؤلاء الأحياء، وأولئك الموتى، إنّ السّيف حَدٌّ بينهما، وعلى صفَّتَيه يقفان». «أخشى عليكَ منك». «خيرٌ من أطمئنّ إليّ. للقوّة شَهوة، وللسّطوة فِتنة، وللسّلطة مُتعة، وما من شيءٍ ألذّ مِمّا يُؤخذ غُلُبّة».

(٦)

أصحابُ حَقّ أم باطل؟!

سَبَقْتُهم إلى مسجد الكوفة. كنتُ أنهبُ الأرضَ نهبًا، وأشقّ الطّريق شَقًّا، ووقفتُ على بوّابته الحجريّة الضّخمة أمام ساحته الفسيحة، ولم أدخلْه. وكان النّاس قد بدؤوا يتوافدون إليه ليشاهدوا (أبا طاهرٍ القرمطيّ)، وانتظرتُه أنا خارجَ السّاحة دون أنْ أعبرها، فلقد جِئتُ كي أراه قبل أنْ أستمع إليه، وما عَتَم وقتٌ حتّى وَفَدَ في موكبٍ لا يليقُ إلاّ بالأكاسرة، وفتحتُ عينَيّ على اتّساعهما أوّل ما وَقَعَتا عليه، كان صغيرًا في العُمر دون الثّامنة عشرة، عظيمًا في الخليقة، وكان مُسَربَلاً بالحديد، وكان جُندُه يحفّون به في جلالٍ وتوقيرٍ وانصِياع. كانتِ السُّيُوف تتدلّى على جوانبِ الفرسان، وخِلَلُها كأنّها عذوق النّخل، وكانت الرّماح المُشرعة تصطفّ على جانِبَي الموكب كأنّها الأشجار السّامقة تحجبه إلاّ قليلاً، ولمّا كانوا يتحرّكون كانتْ حركتُهم تسمحُ لبعضِ الفُرَج في هذه الأَجَمَة المُتشابِكة من القَنا، فأراه من جديدٍ على رأسِه تاجٌ لا عِمامة، والتّاج أولى بالطّاعة من العِمامة. ولحيته نصفُ ظاهرة ونصفُ غائرة، وما غارَ يُخفي ما ظَهَر، وما ظهر يُوقِّر ما غار، وضُرِبتْ حوله البِيض، والعسّالة، والمَغافر، والأَسَل، والحِلَق، ... وكان صوتُ الخيول الّتي تصهل صهيلاً خفيفًا مرّة بعدَ مرّة يبعثُ على السّكينة الغامضة، والهيبة

المُستِرة... ثُمّ ترجّل عن جواده فشكّل العَشَرات من الفرسان حلقةً حوله، فمشى حتّى حسبتُ الأرض ترتجّ تحتَ وقعِ أقدامه، هذا الفتى الجَعْد، هذا الفارس الوَرْد، هذا المَلِك النَّهْد... وشعرتُ للحظةٍ أنّ عليّ أنْ أنتزعَ قلبَه، فأضعه مكانَ قلبي، وهمستُ لنفسي: «أنا أحقّ بالمُلكِ منه».

وتَبِعَه النّاس، فشققتُ صُفوفَهم، والنّاس تنظر إليّ تُدافعني لأتأخّر، وأنا لا أكترث لهم، حتّى صرتُ في مقدّمة الجَمْع، وصَعِدَ المنبر يتمنطق بالسّيف، ثُمّ اتّخذ من رمحه عصًا تقبضُ عليها يُسراه، ومسَحَ لحيته السّوداء بيُمناه، ثُمّ صلّى وسَلّم، وقال: «إنّ آل البيت قد ظُلِموا، وإنّ ناسًا بالغوا في ظُلمهم، وإنّ ما سال من دماءِ آل البيت لا تُقِيدُه دماءُ أهل الأرض كلّها، وإنّه لو قامتْ مقتلةٌ عظيمةٌ، فذُبِحَ فيها تسعة أعشار البشر ما كان ذلك بشِسْعِ نِعالهم. وإنّني جِئتُ لأُحِقّ الحَقّ، وأُبطِلَ الباطل، وآخذَ من الظّالمِين للمظلومين، ومن المُترَفِين للمحرومين، وإنّني لأمينُ المُنتَظر، وداعيةُ الغائب، ورسول مَنْ يأتي في آخر الزّمان فيملأ الأرضَ عدلاً بعدَ أنْ مُلِئتْ جورًا. وإنّه لا عدلَ دون سيف، ولا ظُلمَ إلاّ مَعَ ضعة، ولا ذلّ إلاّ مع خنوع، وإنّني أدعو رِجالي إلى أنْ يأخذوا على أيدي الظّالِمِ أوّل ما أستوي في الصّف، وأنْ يُحرّقوا على مَنْ ظلَمَ وطَغى وتجبّر مزارعهم، وينبهوا أموالهم، ويهدموا بيوتهم فلا يبقى حجرٌ على حجر، ولا طينٌ يأخذُ بطين». ولمّا رعشتْ قلوب النّاس لهذه المقالة أجللتُها، ولمّا رجفتْ أوصالهم قرّتْ أوصالي. ثُمّ هبطَ المنبر، وتفرّق النّاس.

وهُرِعتُ إلى البيت، فرأيتُ في الطّريق القُدُورَ المُنكفِئة، والمياه المَسكُوبة، والدّماء المَرشُوقة، والجُثَث المَنثُورة، ورأيتُ الرّماح تنفذُ إلى

صدر أحدهم فتخرج من ظهره فتنفثِئ دفقةٌ كبيرةٌ من الدّم من فمه، ورأيتُ الحبوب الّتي في الدّكاكين تُحمَل على ظهور الخيل والإبل، يسوقها أتباع القرمطيّ خارج الكوفة.

وتلقّتْني جدّتي على الباب فَزِعة. وركضتْ نحوي فاحتَضنَتْني كأنّها شعرتْ أنّها فقدَتْني. وسألتُها: «ما بال وجهكِ شاحِبًا؟». فردّتْ: «القرامطة لم يتركوا شيئًا، ألم ترَ؟!». «لقد رأيت». ودخلنا البيت.

لم أنم اللّيل على عادتي، وطويلٌ ليلُ عاشِق، وأطولُ منه ليلُ تائق، وبقيتُ أفكّر في هؤلاء الّذين كتبوا بالرّماح بدل الأقلام، وغمسوا بالدّم بدل المِداد، وجعلوا صدور العالَمين قراطيسَهم! وقلتُ: أصحابُ حَقّ أم باطل؟ فإنْ كانوا أصحابَ حَقٍّ فلا يُلامُ السّيف إذا أرادَ انتزاعَ الحَقّ، وإنْ كانوا أصحابَ باطلٍ فهم أصحابُ قُوّة، وكلّ قوّةٍ تُهاب، وإنّني فيهم على حالَين، إمّا أنْ أكون صاحبَ حَقٍّ فأنتزعه بالسّيف، وإمّا أنْ أكونَ صاحبَ قُوّة فيهابني كلّ ذي عداوة، فإنّ العداوة لا تنتجُ إلا عن حسد، وإنّ الحسد لا ينتجُ إلاّ مِمّن أمِنتَه، وإنّه لا أمانَ بعدَ اليوم.

فلمّا كان الغَدُ هدأتِ النّائرة، وسكنتِ الثّائرة، وخرجَ القرامطة إلى مُعسكرهم في بادية الكوفة، وقلتُ لعلها تلك الّتي كنتُ أخلو إليها بأبي، ثُمّ مضى يومٌ أقربَ إلى أيّامي الأخرى، فانتهيتُ – وجدّتي تحاول أنْ تصدّني – إلى المكتب، فكان فيه لقاءُ (الذّهبيّ)، وإذا هو يطرحُ مسألة، فوقفتُ أُجيبُه إليها، فتقَحَّمَتْني عَيْنُه، وسألني: «ابنُ مَنْ أنت؟». فقلتُ: «وما يعنيكَ من نَسَبي إذا أصابَ جوابي؟!». فكأنّني شتمْتُه، فازوّر بعينِه، وقال: «اقعدْ أيّها الفِتى الغِرّ». فكأنّه لم يقلْ لي شيئًا،

وكأنّني لم أسمَعْ، ومضيتُ أجيبُ عن مسألتِه، فقاطَعَني في مُنتَصَفِها: «أمِنَ الأشرافِ أنت؟». فتابعتُ إجابتي، وتجاهلتُ اعتِراضَه، فحينئذٍ نفد صَبْرُه، وهتفَ مَغِيظًا: «اغربْ عن وجهي أيّها الغُراب، ودَعْ أبناءَ الأشراف يتكلّمون». فنفدَ صبري لذلك كذلك، فهتفتُ في وجهه والجمع يستمِعون:

لَـمّـا نُسِـبْتَ فَكُنْـتَ ابْنًـا لِغَـيْرِ أَبٍ
ثُـمَّ امْتُحِنـتَ فَلَـمْ تَرْجِـعْ إِلى أَدَبِ
سُـمِّيْتَ بِالذَّهَبِـيِّ اليَـوْمَ تَسـمِيَةً
مُشْـتَقَّةً مِنْ ذَهَـابِ العَقْـلِ لا الذَّهَبِ
مُلَقَّـبٌ بِـكَ مـا لُقِّبْـتَ وَيْـكَ بِـهِ
يـا أَيُّهـا اللَقَـبُ المُلْقَـى عَـلَى اللَقَـبِ

وبين تصديقٍ وتكذيب، وبين انجِذابٍ إلى غريب القول ومعناه، تخلخل الدّرْس، وتناخَر القوم، وتستّر الجُبناء بأرديتهم فغَطَّوا بها رؤوسَهم، وغَشَّوْا بها أعيُنَهم. وأرغَى الذّهبيُّ وأزبد: «من أنتَ يا بن اللّقيطة حتّى تهجوني؟!». وتركتُه يعوي وينبح، وما جاوزَ نُباحه أُذنيّ، وأشفق التّلاميذُ على الموقف، فنظرَ بعضُهم في وجوه بعضٍ، ولم أعدْ إلى مجلسِه بعدَ ذلك أبدًا، فما لي عند مَنْ لا يعرفني مُكث، ولن أنتمي إلى أهلِ بيتٍ يجهلون قَدْري.

وعُدتُ إلى جدّتي في غير موعدٍ. فنكرتْ قدومي، وهتفتْ بي مُتوجِّسة: «ماذا فعلتَ يا أحمد؟ هل أحدَثْتَ شِجارًا جديدًا؟». وأجبتُها

ببيت المُتلمِّس:

ولا يُقِيْــمُ عَــلَى ضَيْــمٍ يُــرَادُ بِــهِ

إلَّا الأَذَلاَّنِ عَــيْرُ الحَــيِّ والوَتَــدُ

وسألتْني: «ماذا أحدثتَ من مصيبةٍ هذه المرّة؟». فقلتُ لها: «هجوتُ الإمام الذّهبيّ»، وقرأتُ عليها الأبيات، فضمّتْني إلى صدرِها، ومسحتْ على رأسِي، ولا أدري إنْ كانتْ تبكي، غير أنّها قالتْ: «إنّني أخافُ عليكَ يا أحمد. إنّكَ جريء. مَنْ يستطيع أنْ يهجو القاضي أو الإمام؟!». «ليسَ إمامًا مَنْ يُميّز بيننا. وليسَ قاضِيًا مَنْ لا يحكم بالعدل». وسألتْ: «هل أنتَ جائع؟». فقلتُ: «أريدُ أنْ أزور معسكر القرامطة خارج الكوفة؟». «ولماذا تريدُ ذلك؟ إنّهم مارِقون من الدِّين، ونحنُ نوقِّره». «أريدُ أنْ أتعلّم الفروسيّة». «لن تتعلّم منهم شيئًا». ودخلت.

وأتيتُ على ما كان في الغرفة من كُتُب. فبدأتُ أحفظُ ما أجدُه منها، واطمأنّتْ جدّتي إلى ذلك، ووجدتْ فيه تعويضًا عن دروس المكتب، وقلتُ: «لو وجدتُ منهم توقيرًا لما تركتُهم، ولكنّ العِلم دون قُوّةٍ ماءٌ مدلوق في التّراب». «إنّ لكَ في مشايخ الهُدى عِوضًا». «فأينَ هُم يا جَدّتي؟». «سيأتون إليكَ لأجلك، وستراهم وتعرفهم». «وكيفَ أعرفهم؟!». «إنّهم مُلثَّمون لا يظهر من وجوههم غيرُ عيونهم، وإنّهم على ذلك حتّى يُتِمّ الله لهم ما يريدون».

وتركتُ البيتَ بعدَ أنْ أوتْ جدّتي إلى فِراشِها وأيقنتُ أنّها نامتْ.

فمضيتُ، فما كدتُ أقطعُ الزُّقاق الأوّل حتّى ظهر لي: «إلى أينَ يا بُنَيّ؟». «إلى مُعسكر القرامطة». «وماذا ستجدُ عندهم؟». «ما أفقدُه في سِواهم». «فماذا تفقد؟». «السّيف والخيل». «فأنا آخُذُكَ إلى مَنْ هُمْ خيرٌ منهم شجاعةً وفروسيّة، وسيُعلّمونك كلّ ما تريد». «آلآن؟». «لا، في المرّة القادمة». «فتمضي معي إلى معسكر هؤلاء؟». «أمضي». وغاصتْ يدي في يده، ولا أدري كيفَ لم تمرّ لَحَظات حتّى كُنّا على نشزٍ ننظر إلى خِيامهم، وهتفتُ من الهول: «هل أنتَ جِنّي؟!»، فردّ أبي وهو يبتسم: «كلانا يا بُنيّ، كلانا كذلك».

ورأينا المشاعل في أيدي الفُرسان تُضيءُ ظلامًا لا يُدفَعُ لولا هؤلاء، ورأيتُ النّار في وسط المُعسكر تُوقَد فتصعدُ إلى الفَضاء فتُلقِي الرّهبة على المكان، ورأيتُ حنيذًا في وَسَطِها يُشوَى على السَّفُّود، وقَطَر من الخِيام فُرسانٌ كثيرون، فتجمّعوا حِلَقًا، ثُمّ راحوا يهزجون، ويتمايلون على اللّحون، ونظرتُ إلى أبي فرأيتُه يبتسم، وبسطَ لي كَفّه: «هَيّا يا بُنَيّ». «إلى أين؟». «ندخل حوزَتهم». ومشيتُ معه وأنا إلى الرّهبة أقرب منّي إلى الطّمأنينة، ولمّا صِرنا قريبَين، تحفّز الحَرس، وأشرعوا رِماحهم، وهتفوا: «عَرّفْ بنفسِك، ثُمّ من هذا الغُلام الّذي معك؟». فردّ أبي: «أنا رَسول مُرّة، وهذا ابني». فأجَلُّوه، وعَظّموا شأنه، ورأيتُ أحدهم كان متأخّرًا، فأزاحَ الحَرَسَ عن طريقه، وحنَى رأسَه لأبي، ثُمّ نادَى في القوم: «رَسولُ مُرّة». فرأيتُ الفرسان يصطفّون في سُرادِق طويل، ويُشير قائد الحرس لنا، فنمشي، ومضينا بين السّماطَين المضروبَين حولنا كالسُّرادق العظيم مُوقَّرين، وراعني ما أُخِذنا به من الحفاوة، وخَامَرَ قلبي ما خَامَرَه من الشُّعور بالعَظَمة، ورأيتُ أنّني مَلِكٌ يمشي بين حاشِيته،

وظلّ قائدُ الحرس يتقدّمنا بين الجنود الحافّين بِنا مُطرقي الرّؤوس حتّى انتهى بنا إلى خيمة زعيمهم (أبي طاهر القُرمطيّ)، فجاء حافِيًا، ونزل عن سريره مُبادِرًا، ورحّبَ بأبي ووقّره وعَظّمه، ثُمّ أجلَسَه عن يمينه، وراحَا يتحادَثان، وجِيء لنا بالشّراب والطّعام على أتمّ ما يكون الطّعام والشّراب اشتِهاءً ولذّة ووفرة، ثُمّ وقعتْ عيني على عينِه، فلمعتْ، فهتف: «أهذا ابنُك؟». «هو ابنُ العظيم مُحمّد الّذي تعرف». فكادَ يقوم من مقامه ويُقبّل الأرضَ بينَ يَدَيّ، فشعرتُ بما لا أطيق له وصفًا من الأُبّهة، ولا أجمعُ له قولاً من العَظَمة. ثُمّ سألني إنْ قلتُ شِعرًا، فهتفتُ قبل أنْ يأذن لي:

ذَمَّ الزَّمَـانُ إِلَيْـهِ مِـنْ أَحِبَّتِـهِ
مـا ذَمَّ مِـنْ بَـدْرِهِ فِي حَمْـدِ أَحْمَـدِهِ
شَـمْسٌ إِذَا الشَّـمْسُ لاقَتْهُ عَـلَى فَرَسٍ
تَـرَدَّدَ النُّـورُ فِيْهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ
إِنْ يَقْبُـحِ الحُسْـنُ إِلّا عِنْـدَ طَلْعَتِـهِ
فَالعَبْـدُ يَقْبُـحُ إِلّا عِنْـدَ سَـيِّدِهِ

فمال، وجال، وحالَ به الحال، فقام وصَفّق، ثُمّ قال: «إنْ يعشْ هذا عشرين حولاً، فسيكون له بين الثّقلَين شأن». ثُمّ طار غُراب اللّيل على عادته، فعُدْنا، فلمّا صرْنا في أوّل زُقاقٍ يُفضي إلى حَيّنا في (كِنْدة)، نفضَ أبي يده من يدي، وقال: «أترى هؤلاء القوم الّذين كُنّا في ضيافتهم؟». «ما شأنُهم؟!». «سيسرقون الحجر الأسود عن قريب». فنكرتُ عليه ما قال، وهَمّ أنْ يقول شيئًا غريبًا غيرَ ما قال، لكنّه ودّعني، فسألتُه: «بِتْ

معي في كِندة». فقال: «إنّني لا أنام هُناك». «فأينَ تنامُ إذًا؟». «في مهيعٍ ينام فيه جِنّ نِصّيبين». ومضى.

ثُمّ لم تمضِ غيرُ ليالٍ حتّى استحرّ القتلُ في أهل الكوفة، قتل القرامطة كلّ حيٍّ وجدوه في طريقهم، فهرب النّاس، وابذعرّوا في كلّ اتّجاه، فبعضُهم مضَى جنوبًا، وبعضُهم شَمالاً، وما بقي إلاّ مَنْ لا يستطيع الرّحيل، وخافتْ جدّتي عَلَيّ، فقلتُ لها: «أَمِنَ القرامطة تُخوّفينني يا جَدّتي؟!». فهتفتْ: «إنّهم لا أمانَ لهم». «إنّهم أهلُ قوّة، ولا أمان مع القُوّة إلاّ لذي لُبّ». «إنّهم بلا ألباب يا بُنَيّ». وأردفتْ: «ستخرجُ من الكوفةِ خوفًا على حياتِك». «لن يقتلوني». «إنّهم يقتلون كلّ مَنْ يدبّ على وجه الأرض». «أنا غيرُ هؤلاء». «لا تُجادِلْني أكثر من هذا. إنّ قَلَقِي ليس من رحيلكَ عنّي، بل من رحيلكَ دوني، ذلك أنّ ساقَيّ لم تعودا تحملانني، لقد صرتُ عجوزًا على أنْ أهاجر من هذا الحيّ في هذا العُمر... كلّ ما أنا قَلِقٌ عليه اللّحظة: مَنْ سيرحل بِك من هذه القرية المنكوبة». وبرزَ أبي في زاوية الغرفة، كأنّه تَذرَّى من الجِدار، وهتف: «أنا آخذُه معي». وزمّتْ جدّتي شَفَتَيها: «إنّه يزدادُ تعلُّقًا بك، وأخافُ أنْ ينتهي به الأمر إلى الجنون». «سيكون معي في أمان، تعرفين هذا». ومضيتُ معه في حِنْدِس الظّلام لا يرانا فيه غيرُ أهل اللّيل.

(٧)

قد تمّتْ لكَ المُعجِزة

طار بي أبي، أو هذا الّذي صرتُ أطمئنّ إلى أنّه أبي. مضى بي إلى باديةٍ قال لي: إنّها باديةُ السّماوة، وإنّها المكان الأفضل من أجل أنْ تتعلّم أمرين: الفروسيّة والفصاحة.مكتبة سُر مَن قرأ

من خلفي كنتُ أسمع أصوات القتلى وهم يجودون بآخرِ أنفاسهم، وأصوات الثّاكلات وهُنّ ينُحْنَ على بعولتهنّ وأبنائِهنّ، كان صوتُ النّواح يغوصُ في أعماقي، شيءٌ يُمكن أنْ يُشكّل الإيقاع الحزين الّذي سأتّكِئ عليه في أداء موسيقى كلماتي عمّا قريب؛ هذا الحُزن المُختّر مادّةُ الشِّعر، هذا الصّوت الشّجيّ صوتي أنا، غير أنّهم كانوا مقتولي الأجساد، وكنتُ مقتول الرّوح، ذلك القتل الّذي ستنتهي به غايتي في هذه الحياة القصيرة الطّويلة.

ومع أنّني كنتُ أسمع أصوات النّواح هذه من خلفي لا تكفّ ولا تنتهي، غير أنّه لم يكنْ معنا أحدٌ في مسيرنا، ذلك أنّ أبي أحدُ علماء الجنّ كما قلتُ لكم، وكان يعرفُ طريقًا غير الّتي يعرفها البشر، بل إنّه كان يتجنّب في الصّحراء أنْ يراه فيها أحدٌ، وكان يقفز لا يمشي، ويطير لا يسير، ثُمّ كفّتْ أصوات النّواح، وهدأتْ حركتُنا نحن، وكان اللّيل قد زادَ الفضاء سكونًا وصمتًا، فلم نكنْ نسمع شيئًا، اللهمّ إلاّ صوتُ

قدَمَي أبي العاريتَين على رمال الصّحراء الّتي بردتْ، فكان صوتُها كأنّه حفيفُ أجنحة، ولم يكنْ ينظر إليّ طَوال الطّريق أو يُكلّمني، غير أنّه أبرز رُقعةً من داخل ثيابه بعدَ أنْ قَطَعْنا أرضًا بعيدة، ولا أدري من أين جاء بها، ولا من أعطاها له، ولم تطلْ تساؤلاتي، إذ دفع بهذه الرّقعة إليّ، وقال: «هي من جدّتك». وطلبَ منّي أنْ أقرأها. فتحتُها فإذا فيها: «يا مُحمّد... ثُمّ صوتُ دمعة، ثُمّ حروفٌ مكتوبةٍ بيدٍ مرتعِشة: خُذِ ابني هذا إلى أعمامي من بني الصّابي، وأبنائِهم من جُشَم بن همدان، فإنّ فيهم عونًا على الأمر الّذي تعلم، ولا تُفْلِتْه حتّى يُدْرِكَ ثأره. ثُمّ صوتُ دمعةٍ أخيرة». طويتُ الرّقعة بلا مبالاة، ونظر فِيّ أبي مُستِطلعًا، فوجدني غيرَ مكترث، فسأل: «ألا يهمُّكَ أنْ تعرفَ الأمر الّذي من أجله ستأخذ بثارِك؟!». أجبتُ وأنا أسلُكُ الرّقعة في جيب قميصه كأنّني أتخلّص منها: «لا، لا يهمّني ألبتّة». «لِمَ؟». «لأنّني سألتُ هذا السّؤال غيرَ مرّة لكَ ولجدّتي، ولكنّكما صمتّا صمتَ القبور، فعلمتُ أنّ الجواب السّيفُ، وأنّ فيه فصل المقال، فلو أنتَ أجبْتني اليوم ما أفدْتَني، ولكنِ ادفَعْني إلى أهل الإجابة». وبرقتْ عينا أبي، وظهرتْ جِنّيّتُه، وافترّ عن ابتسامةِ رضًا، وتنهّد، ثُمّ مدّ يده إلى جيبه، وأخذ الرّقعة، ودسَها في فمه بسرعة وابتلعها في لَحَظات. ثُمّ طارَ بي.

«إلى أينَ يا أبي؟». «إلى بابل». «لكنْ ليسَ هناك بنو همدان!». «صحيح، هناك بنو الجان، وأنتَ أولى أنْ تسمع منهم وتُعاينهم قبل أنْ تمضي إلى الغرب جهةَ الصّحراء الخافِية».

كُنّا نسبح في الفضاء، جسدَين خفيفَين، لا تمسّ الأرضَ أقدامُنا العارية، وأمّا ثيابنا فتخفق على أجسادِنا النّحيلة، هبطْنا مدينة بابل، لم يكنْ يبدو منها شيءٌ، وبيدٍ كأنّها يدٌ سَماويَة، مَدّها أبي إلى السّتار الّذي

يُخفِي المدينة تحته، ثُمّ بأصابع أنيقة كأنّها أصابعُ ملكٍ، رفَعَ ذلك السّتار فبدت المدينة المُغرِقة في القِدَم مدينةَ أشباحٍ، يتردّد فيها الفراغ؛ أطلالٌ مُهدّمة، وبيوتٌ خَرِبة، وشوارع مطموسةٌ، ولونٌ ترابيّ يعلو الحجارةَ المبعثرةَ هنا وهناك، والجدرانَ نصفَ القائِمة، على مبعدةٍ تسمح لبشريٍّ أنْ يرى، شاهدتُ الحدائق المعلّقة، وجذور الأشجار اليابسة الّتي أخنى عليها سالفُ الأبد، وجذوعها الّتي تشقّقتْ لطول عهدها بالماء، بعدَ أنْ مرّتْ قرونٌ وقرون، وبلمسةٍ من أبي تحوّلت البلاقع الميّتة إلى حدائق غَنّاء، وخُيّل إليّ أنّني أسمعُ أصواتًا جميلةً فيها ولا أرى أصحابها، وأسمعُ موسيقى ولا أرى عازفيها، ثُمّ تراءتْ لنا بوّابة عشتار، وبلمسةٍ سحريّة أخرى من أبي تحوّلتْ من اللّون الترابيّ الّذي سَكَنه الموت إلى لونٍ فيروزيّ بديع، تهيمُ فيه العين، وقبلَ أنْ أشهق شاهدتُ اللّون الذّهبيّ للثّور والتّنّين المرسومَين على البوّابة، ثُمّ بدتْ لي وصايا نبوخذ نصّر مكتوبةً بغير العربيّة، غير أنّ مسحةً سحريّة أخرى من أبي حوّلتْها إلى العربيّة، فقرأتُها في لحظات وحفظتُها، قال لي أبي: ستتّكِئ على وصاياه في سِحرك، ولكنّكَ لم ترَ شيئًا بعد. ثُمّ مرّتْ لَحَظَاتُ صمتٍ تامّ. بدا المكان قبورًا رفعتْ من جوف الأرضِ إلى ظهرها، كان يُمكن أنْ تكون مرعبةً لولا مسَحات أبي. غير أنّ أبي توقّف عن الحركة ولزم الصّمت، بل إنّه جَثَا على رُكبتَيه، كأنّه يركعُ أمام سُلطانٍ عظيم. وسمعتُ حفيفًا يمرّ بجانبي، ولكنّني لم أرَ شيئًا، ثُمّ شعرتُ بأنّ الهواء امتلأ برائحةٍ زرقاء حادّة جارحة، والرّائحة لا تكون كذلك إلاّ في حضرة الموتى، ثُمّ سمعتُ أبي يقول: «هل أكشفُ عنه الحجاب؟». وتوقّف أبي عن الكلام ينتظر الإجابة، قبل أنْ يرفع رأسَه ويقول: «أفعل». فعلمتُ أنّه أُذِنَ لي أنْ أرى، ومسح أبي على عينَيّ، فهالَني ما رأيتُ، كانتْ

معاشر الجنّ قد تقاطرتْ في تلك اللّحظة إلى ذلك المكان، ودخلني الفزع، وعرفَ أبي ذلك في عينَيّ، فضمّني إليه لأهدأ، ثُمّ همس: «إنّهم أخوالُك». وارتعشتُ بدل أنْ أطمئنّ، ثُمّ ضمّني أخرى: «لن نمكثَ طويلاً، فقط اسمعْ ما يُقال». كان هذا جَمْعُ عُلماءِ الجنّ، من غابر الأزمنة وسحيقها، قد اجتمعوا مثلما اجتمع أهل نيقية، ثُمّ دارتْ بينهم نقاشات لو أرادَ بشريٌّ أنْ يكتبها وراءَهم لما كفتْه ألفُ سنة، ثُمّ أجمعوا أمرهم على النّصّ الّذي قرؤوه عليّ في ليلةٍ مُباركةٍ واحدة، ثُمّ مسحَ كبيرهم على صدري، وقال: «قد استودِع العِلم، ولن يُضيّعه». وقال أبي: «قد تمّتْ لكَ المُعجِزة، هيّا بنا». وسحبني من يدي، ثُمّ ألقى سربالَها القديم عليها، فعادتْ بابل كما كانتْ حينَ جِئناها أمس، بيوتًا خربةً مدفونةً في باطن الأرض.

وأردتُ أنْ أسأل أبي: «هل أنت جنّيّ؟!». ولم أفعل، لقد سألتُه من قبل وقال لي: «كلانا يا بُنَيّ». أعرفُ هذه الإجابة الّتي لا تحمل الحقيقة، وتحمل الحقيقة كلّها في آنٍ واحد. ثُمّ مضيْنا. لم يدمْ بقاؤنا غيرَ ليلةٍ واحدةٍ في بابل، وغادرنا اللّيلة التّالية إلى بادية الشّام، وصلْنا إلى جزءٍ من الأرض لا ينتمي إلى الأرض. استقبلَنا قومٌ مُلثّمون، رحّبوا بِنا دون أنْ يرفعوا اللُّثُمَ عن وجوهم، قال لهم أبي: «ابنكم...». وأرادَ أنْ يُكمِلَ، فرفعَ أحدُهم يده وهتف: «نعرفُ مَنْ يكون، وجَدّته أمٌّ لنا كُلُّنا، وسنأخذه بما يجبَ وفوقَ ما تُحبّ». ثُمّ انتحَى أبي جانِبًا كأنّه أكملَ المهمّة، ورحتُ أجلسُ إلى النّار المُوقدة في وسط حلقةٍ التقى عندها أكثرُ من مئةِ فارسٍ مُلثّم.

ثُمّ صاحَ المُنادِي: «يا خيلَ الله اركبي». فركبوا، وشَنّوا الإغارة، وأرادَ أحدهم أنْ يُردفني خلفه، فصاح به آخَر: «لا تفعلْ، أعطِه أجودَ خيولِنا». «ستوقعه». «دَعه يقع». «ستندقّ عنقه». «نتخلّص منه». «أهكذا كانت وصيّة أمّنا». «لا ينتمي إلينا من لا يُشبههنا، قلتُ لكَ أعطِه...». ثُمّ لم يُكمل ونزل عن خيله ودفَعَها إليّ، وصاحَ بي: «هيّا». وركبَ خيلاً آخر، وطرَدْنا، لا أدري إلى أين، كان الفرسان الّذين لم أرَ وجه واحدٍ منهم حتّى الآن يحملون المشاعل في أيديهم، وسمعتُ أحدهم يصيح بالآخر: «إنّه هو، لا تُجاوره، سيعرفُ كيفَ يقود الخيل». كانَت الخيلُ تعدو بي، وأنا أكادُ أسقطُ عنها لولا أنّني أمسكتُ بالزّمام كما يجب لفارس، وشددتُ قدمي على الرّكاب كما ينبغي، ومضينا. قال أحدُهم والخيل تعدو عَدْوَ الجنّ: «يا إمااام» ومطَلَ الألف حتّى خِلتُ أنّ الفضاء رَدّد صداها، فأجابَه الآخر: «يا محمّااااد». ومَطَلَ الفتحة حتّى صارتْ ألفًا، ومطلَ الألف حتّى صارتْ مثلَ أختها، ثُمّ أغاروا على قبائل هناك في أطراف الجزيرة، فنهبوا وسرقوا وقتلوا وسفكوا الدّماء. فلمّا عُدْنا وقد أخذَ منّي الجَهْد والخوف كلّ مأخذٍ بحثتُ عن أبي فلم أجدْه، وبقيتُ وحيدًا بين هؤلاء الغرباء ثلاث ليالٍ، أغير معهم، فينهبون ويقتلون، ثُمّ إذا عادوا أنشدوا الأشعار في الفخر بصنيعهم، وأنا في كلّ مرّةٍ أتحرّى أبي فلا أجدُ له أثرًا، حتّى إذا مرّ أسبوعٌ خَلَفْتُهم؛ فلم أخرجْ معهم، وتذرّعتُ بالمرض، ثُمّ إنّني صرختُ في سكون تلك اللّيلة بنداء أبي، فنبتَ أمامي في الظّلام فجأة، فذُعرت، فهدّأ من روعي: «لا تخف، أنا معك». «أريدُ أنْ أكلّمك في شأنِ هؤلاء». «أعرفُ ما تريد؟». «مَنْ يكونون؟». «ليسَ لكَ منهم إلاّ الفروسيّة». «لكنّ هذه الفروسيّة تقومُ على القتل لا على الشَّرَف». «هم من هذا النّوع من الفُرسان».

«جَدّتي لم تبعثْني إلى هؤلاء». «مَنْ قال لك ذلك؟!». «قلبي قال لي، لقد بعثتْني إلى مَنْ يعلّمني الفصاحة والفروسيّة، لا القتل والنّهب، أنا لم أجِئ من أجل أنْ أرى الصّحراء ترتوي بدماء الأعراب بسبب شهوةٍ أو رغبة». «ألا تُعجِبكُ قصائدهم الّتي يتغنّون بها؟!». «تُعجبني الدّماء الّتي تترقرق على حدّ ظُباتهم». «أتخاف من الدّم؟!». «كلاّ، بل أخافُ أنْ أُدِيمه، أنْ يُصبِح اعتيادًا، أنْ يكون داعيتي إليه الباطل لا الحقّ». ولم يردّ أبي بعدَ ذلك بشيء، فهتفتُ: «خُذني إلى سِواهم، ليسَ هؤلاء من سألتْك جدّتي أنْ أكونَ بينهم». «بل هم». «إنّكَ تكذب». واحمرّتْ عينا أبي، وشعرتُ أنّهما تحولّتا إلى جمرتَين، وانتفخَ صدرُه، وتكوّر حتّى صار كالقُبّة العظيمة، وصرخَ بي صرخةً عظيمة: «كيفَ تجرؤ أنْ تقول ذلك في وجهي؟!». وشعرتُ في لحظةٍ أنّ لحمَ وجهي سيسقط، وأنّه سيسحقني بينَ يدَيه، وأنّه لم يعدْ أبي، غيرَ أنّني جثوتُ على رُكبتَيّ أمامه، وأردتُ أنْ أعتذر له، لكنّه هتفَ بصوتٍ غاضب: «لا تعتذر، الأولى بِكَ ألاّ تُحيجَ نفسكَ إلى موقفٍ تُضطرّ فيه إلى الاعتذار إلى أحد، إنّ الاعتذار ضعف، وأنا ولدتُكَ لكي تظلّ هامتُكَ عالية».

لم يطلْ مكوثنا هناك غيرَ ليلةٍ واحدة، جمَعْنا فيها أمرنا إلى أنْ نغادر، فغادَرنا حافِيَين دون راحلةٍ في صحراء شاسِعة إلى بلادٍ مجهولةٍ وأعرابٍ لا نعرفهم، فنزلْنا في منطقةٍ يُقال لها (البوكمال)، وقد وصلْنا إليها بعدَ أنْ كِدْنا نموت جوعًا وعطشًا، ولم يقبلْ أبي أنْ يعترفَ أنّه ذو قدرات خارقة هذه المرّة، فقضينا شهرًا كامِلاً، نشربُ ما في قِربنا الّتي نملؤها من الواحات في الطّريق، ونأكل ما نجده من خَشَاش الأرض، ولولا أنّني ما زلتُ حَيًّا، وأُخبركم بقصّتي هذه لقلتُ لكم إنّني مِتّ في

الطّريق ظمأً ثلاث مرّات على الأقلّ، كانت السّماء في كلّ مرّةٍ تنقذني من الموت بأنْ تسوقَ إليّ سحابةً فتمكثَ فوقَ رأسي ليلةً كاملة، ثُمّ تبرق السّماء وتُرعد، ثُمّ يهطل المطر، فأشربُ وأقوم من ضجعة الموت، وأعودُ للحياة من جديد.

فلمّا وصلْنا أنا وأبي السّقّاء أو الرَّوّاء، وقد كان طوال هذا الشّهر سَقّاء مسكينًا لا يملك من أمره شيئًا، لَمّا وصلْنا إلى هذه النّواحي، رأيتُ أهل هذه القبائل مُلثّمين مثل أولئك الّذين غادرناهم وهربْنا من جَوْرِهم، فنكرتْهم نفسي أوّل الأمر، لكنّ أبي شَدّ على يدي، وقال بلغة الواثق العارف: «هؤلاء مُلثَّمون ولكنّهم مُختلِفون». وقام إلينا شيخُهم فدخلْنا في زُمْرتِهم، دخول الماء في حصى النّهر؛ سهلاً عذبًا مأنوسًا.

(٨)

يَجُوعُ اللّفظُ ويَشْبعُ المَعنى

قدّمنا أحدُ هؤلاء الأعراب إلى شيخ القبيلة، دفَع أبي إليه الرُّقعة الّتي ابتلعها، لم أعدْ أستغربُ أنّه يأتي بمثلِ هذه الأفعال الغريبة، قرأها الشّيخ، فانفرجتْ أساريره، ورحّب بنا أجلّ ترحيب، وقال: «أهلاً بابن الهمدانيّة المُوقَّرَة»، وبسطَ لنا رِداءه. ثمّ سأل أبي: «مَنْ تكون؟». «خادِمٌ جِئتُ معه، لأنفذَ وصيّة جدّته الهمدانيّة الّتي تعرفونها». وحانتْ منّي التِفاتةُ اندهاشٍ إلى أبي، فنكِرَني، وتظاهر بأنّه لا يعرفني، وليستْ بيننا أيّة علاقة، وفي غمرة ذلك أردف: «وأنا مُستعدّ لأنْ أستمرّ في هذه الخدمة في دياركم هنا؟». «وماذا تُحسِن؟». كنتُ لا أزال أنظر إلى أبي مُستغرِبًا، وهو يتابع كلامه مع شيخ القبيلة دون أنْ يطرفَ له جفن، قال: «أيّ شيءٍ يا سيّدي، إنْ شِئت علفتُ لكم الدّواب، ونظفّتُ لكم الزّرائب...» وأوقفه الشّيخ الّذي شَكّ في منظره وطريقته الواثقة من حديثه: «وهل قطعتَ هذه المسافة كلّها من الكوفة إلى هنا لتعمل هذه الأعمال الوضيعة؟!». وانحنى أبي انحِناءً ظاهِرًا، وهتف: «أُحسِنُ شيئًا آخر يا سيّدي... أنا سَقّاء، فإنْ شِئتَ أنْ تُعيرني بعيرًا أطوفُ به على بيوتاتكم أسقي بها صِبيانكم وذراريكم فعلتُ». وأشار له الشّيخ أنْ ينصرف، فانصرفَ على الفور، فيما قرّبني إليه، وقال: «سأدفعك إلى أهل اللّغة تسمعُ منهم القول اللُّباب». وقدّم إليّ مذقًا من لبن، وهتف:

«هنا في الصّحراء ستتعلّم أشياء كثيرة، أمّا أهل اللّغة فستجلسُ إليهم نصفَ أيّام الأسبوع، وستسمع وتُدوِّن وتسأل. وأمّا أهل الفروسيّة فسيصحبونك خارجَ هذا المدر إلى خلاءٍ من الأرض فتتعلّم منهم فنون القتال النّصفَ الثّاني من الأسبوع، أمّا يوم الجمعة فتشهدها هنا إلى الصّلاة، فإذا قُضيت تُرِكَت لكَ الموماة بكلّ ما فيها تسألُها وتسألك، فإنّ حديثَ الصّحراء شجن». وتوقّع الشّيخ أنْ أقول شيئًا، ولكنّني بقيتُ صامِتًا، فسألني: «ألا يُعجِبَكَ ما قلتُ للتّوّ؟». «بلى». «فَفِيمَ صمتُك؟». «أُفَكِّر في أبياتٍ عَرَضَتْ لي». «وهل تقول الشّعر؟». «أقوله». وتعجّبَ الشّيخ من ثقتي، ونظرَ إليّ مُتفحّصًا، واستنكر: «أفي مثل هذه السّنّ؟». «قد قلتُه من قبلِ هذه». فزادَ تعجّبه واستنشدني، فقلتُ:

أحَيـا وَأَيـسَرُ مـا قاسَـيتُ مـا قَتَـلا
وَالبَـينُ جـارَ عَـلى ضَعفي وَمـا عَدَلا
وَالوَجـدُ يَقوى كَما تَقـوى النَوى أَبَدًا
وَالصَّـبْرُ يَنحَلُ في جِسـمي كَـما نَحِلا
لـوَلا مُفارَقَـةُ الأَحبـابِ مـا وَجَـدَت
لَهَـا المَنايـا إِلى أَرواحِنـا سُـبُلا

فاستحسنَ ما سمع، وفحصني مرّة أخرى بنظراته المُستريبة: «أأنتَ قلتَ هذا؟». «نعم يا سيّدي». «ففيم نُعلّمكَ الشّعر إذًا؟ علّمْنا أنت!». وضحكَ مع العبارة الأخيرة، ولم يجدْ صدًى لضحكته، فزَمّ شفتَيه، وهتف: «فما تريدُ؟». فأجبتُ: «أريدُ أعلى من هذا». «وما الّذي تراه أعلى مِن الشّعر؟». «الأداة الّتي يُقال بها هذا الكلام». «فما هي؟».

«البلاغة». «فما ترى في البلاغة؟». «أنْ يَجوعَ اللّفظُ ويَشبعَ المعنى». فزَمّ شفتَيه مرّة أخرى مُعجَبًا، وهتف: «سنُشرِبكَ هذه البلاغة في قلبك». ثُمّ نادى على خادم كان يقف على مقربة: «ائتِني بالسّقّاء». فمثَل أبي بين يدَيه، وأمره الشّيخ: «لا أريدُكَ أنْ تسقي بيوتاتنا، فقطْ اخدمْ هذا الصّبيّ، وَلَبِّ كُلَّ ما يحتاجُ إليه». وكدتُ أنفجر من الضّحك، لولا أنّ أبي حدجني بنظرةٍ نافِذة، فسكتّ.

وخرجتُ مع أبي وقد سار أمامي، حتّى وصلْنا إلى نشزٍ عليه بيتٌ مكوّن من غرفتَين. أعدّ أبي كما طلبَ منه الشّيخ المكان، فجهّزَ لي المبيت في غرفة، والرّقوق والكعوب والطّاولة الّتي إليها المحبرة في غرفةٍ أخرى، وسألتُه: «ألا تنام معي هذه اللّيلة؟». «تعرفُ أين أنام». «بينَ جِنّ نِصّيبين» وهززتُ رأسي بأسف، وتابعتُ: «أترى سأجدُ عند هؤلاء ضالّتي؟». وأجابَ أبي بهزّةٍ من رأسِه، وأردف:

لـولا مفارقـة الأحبـابِ مـا وجـدتْ
لَهَـا المَنايَـا إِلى أَرواحِنَـا سُـبُلا

وقبلَ أنْ أفتحَ فمي فأسأله كأنّ الأمر يحدثُ أوّل مرّة: «هل كنتَ معنا؟»، أجاب: «أنا فيك، فلا حاجة لأنْ تسأل مرّة أخرى». «فما أردتَ إذًا من إعادة البيت عَلَيّ؟». «كنتُ أريدُ أنْ أسألك: من تقصد بالأحباب فيه؟». وأجبتُ دون تردّد: «جدّتي». وصمتَ أبي وهو مُطرِقٌ في الأرض، فلمّا مرّتْ لحظَاتٌ ثقيلةٌ على صمته الذّابح، اقتربَ منّي وهمس: «تُحبّ جدّتك؟». «كما أُحبّك». «ليسَ عن هذا أسألك». «فعَمّ؟». «عن نوازعك». «لم أفهم». واقتربَ منّي أكثر حتّى شعرتُ

بِحَرّ أنفاسِه في وجهي، وتابع: «تخلّصْ من نوازعك، لن تكتمل حتّى تتطهّر من كلّ ما يجذبُك إلى سِواك، الشّوق نقصان». ثُمّ اختفى كأنّه ذابَ في الأرض.

ومضى الأمر على هذا النّحو، أجلسُ إلى اللّغة عندَ أهلها، فأسمعُ وأدوّن وأحفظ، ولقد حفظتُ مئة ألفِ بيتٍ في سنتَين، ذهَبَ بعضُها شواهدَ في النّحو والصّرف، وذهبَ أكثرُها في أهل الجاهليّة، ولم يكنْ يحتاجُ قائِلها أنْ يُعيدَها على مسامعي مرّة ثانية، ولقد قال الشّيخ إنّ فيها من أشعار الجنّ، ولقد اختلطَ عَلَيّ ما قاله البشر مِمّا لم يقولوه، حتّى لم أعدْ أعرفُ على أيّ الأعاريض أقف، ثُمّ إنّني واصلتُ اللّيل بالنّهار في الحِفظ، وأُتِيَ لي بعلوم الأوّلين في اللّغة والبديع والبيان، وجيءِ بكتب الفلاسفة مِمّا توفّر عليه حُنَين بن إسحق، ولم أكنْ أدري من أَين يأتي بها الشّيخ، غيرَ أنّ سنتَين في هذه البادية قد صنعتْني بدويًّا قُحًّا، فصارَ لي لِسانُهم، وصارتْ لي سليقتهم في اللّغة، ولقد حفظتُ عنهم نحو ألفِ كلمةٍ غريبةٍ هي من صميم العربيّة لا يَقُولُها إلاّ أهل الخاصّة، ومئةَ جمعٍ لا يقوله إلاّ أرباب الكلام، فمن ذلك (المحايي) جمع مَحْيا، والبُوقات جمع بُوق، والأُرُوض جمع أرض، والسّراويلات جمع سراويل. ولقد عرفتُ عندهم غبار السَّلاهب، ولم أعرفه من قبل، وعرفتُ الغَبَب، والجِرِشَّى، والفاضَة، والأَضاة، والدِّلاص، والأَثِيث، والجَعْد، والبُخْنق، والمِخَشّ، والكَنَهْوَر، والكِباء، والسّمَيذع، والطِّمِرَّة، والحيزوم، والخَرَق، والكُور، والعُذافر، والفَهَق، والمُؤلّلة، والطُّخْرور، والعَبْل، والإطْل، والشّادخة، والبوغاء، والشَّحْو، والأرساغ، والشّقّاء، والصِّفاق، والذِّمر، والتَّوْراب، والعِزْهاة، والكُدْريّ، والمَذَل، والتّغشمر،

والتّطلُّس، والهَمَلَّعة، واليَعْبُوب، والعَضارِيْط، والنُّغبة، والمُجلَّحة، والزُّبْد، والحَفْش، والمخالي، والنَّعامى، ... وغيرها كثيرٌ حتّى لا تقولوا لقد مللنا من معجمك، ولم يكنْ أهل الحضر يقولون شيئًا من ذلك. ولا أدري إنْ ألقتْ في روعي ذلك المُعجم العربُ الأقحاح، أم الجنّ الأسياح!!

ثُمّ لّما كانتْ أيّام الفروسيّة تلثَّمْتُ مِثلَهم، وتلقّيتُ آدابَ الفروسيّة كما ينبغي، وكان الّذي يُعلّمني يقول: «أكرمِ الخيلَ كما تُكرِمُ نفسَك، ولا تجعلها تنظر لغير ما تنظر، ولا تُعرّضْ أكفالَها على الرّماح، فإنْ حَصِرْت فلبّاتُها، واطبعْ على عنقِها قبلةً كلّما نزلتَ عنها».

ولقدْ صادقْتُ الخيل، حتّى صِرتُ أعرفُ ما تريد، ولم أكذبْ معها قطّ، وتعرفُ الخيل مَنْ تُخالِل، وتحفظُ للصّادق معها ذِمّته، ولقد نشأتْ بيني وبينَها مودّة حتّى كانتْ ترى قدومي من حفيف نعلي، فلا أسمعَ مِن فَرس، ولقد احتضنتُ خيلاً سمّيتُها السّبوح، وقلتُ فيها أكثرَ من عشرةِ أعاريض، تركتُها بين يدَي أبي يُنشِدُها الجنّ، وصادقتُ بعدَها الإبل، فما عرفَ حنينَها أكثرَ منّي، ولا سمعَ أنينَها أوفى ذِمّة منّي، ولقد قلتُ فيها مثلما قلتُ في الخيل وزيادة، وأودعتُها أبي كذلك ينثرُ جُمانَها بين أهلِه من الجنّ، غيرَ أنّني لا أبخل عليكم بهذه الأبيات الثّلاثة:

أَنكَحْتُ صُمَّ حَصاها خُفَّ يَعمَلَةٍ
تَغَشمَرَت بي إِلَيكَ السَهلَ وَالجَبَلا
لَو كُنتَ حَشوَ قَميصي فَوقَ نُمرُقِها
سَمِعتَ لِلجِنِّ في غيطانِها زَجَلا

حَتّـى وَصَلـتُ بِنَفـسٍ مـاتَ أَكثَرُهـا
وَلَيتَنـي عِشـتُ مِنهـا بِالَّـذي فَضَـلا

ثُمّ إنّني في يوم الجمعة، اليوم الّذي تركَه الشّيخُ لي خِلْوًا، كنتُ أقوى ما أكون على المشي، أمشي حافِيًا، ناصِبًا حُرّ وجهي للشّمس حتّى تغيب، فأقطعُ ما لا تقطعُ القوافل السّيّارة، وكنتُ أتعرّف في الطّريق مواضعها، وأمواهها، وقبائلها، وبيوتاتها، وأهلَها، وطُيورَها، ووحوشَها، وجحور الحَيّات فيها، وأهلَ النُسُك فيها، ومُخبِتِيها، وشُطّارَها، وعُيّارَها، ولمّا استخفّ بي أحدُ الشُّطّار ذات مرّة، علوتُه بالرّمح حتّى فَزِعَ وظنّني من مَرَدةِ الجنّ، ولم أشأ أنْ أقتله، فتركتُه بعلامةٍ في ظهره، تُخبرُ عن جُبنِه، وتردَع من خَلفه... ولمّا كان النّهار ينقضي في مشيٍ لا يتوقّف، أستروح اللّيل، فآوي إلى ربوةٍ إلى النّجم هافِية، فيخرجُ من أعماقي ماردُ الشّعر، فأنشدُ ما أقول، ولا تسمع غيرُ الرّيح صوتي، ولا تُنصِتُ غيرُ النّجوم لنجواي، إلاّ في مرّاتٍ قليلة، فإنّ أبي كان يقطع عليّ خلوتي، ومن ذلك أنّني في إحدى هذه الجُمُعات البعيدة، واللّيل مُعيٍ، والكواكب ظُلّع، ابتدأت، فقلتُ:

كَـمْ قَتيـلٍ كَـما قُتِلتُ شَـهيدِ
بِبَيـاضِ الطُـلى وَوَردِ الخُـدودِ
وَعُيـونِ المَهـا وَلا كَعُيـونٍ
فَتَكَـت بِالمُتَيَّـمِ المَعمـودِ

فلمّا وصلتُ إلى قولي:

دَرَّ دَرُّ الصِبــا أَأَيّــامَ تَجريــ

ــرِ ذُيــولي بِــدارِ أَثلَــةَ عــودي

برزَ لي كما يبرز العفريت، فسألني: «فأينَ أثلة هذه؟». فقلتُ: «قطَعتَ عليّ النّشيد، وخرّبْت عليّ الإيقاع، ما شأنُكَ وأثلة؟». فردّ كأنّما يُناكفني: «أحببتُ أنْ أسأل». فأجبت: «إنّما هي من خيالي». «بل هي في ديارنا نحن الجنّ». «غيرَ أنّني ما سكنتُها». ورَقّ صَوتُه، وقال: «يا بنيّ، ما سَكَنَكَ أجودُ أنْ يُطلِعَ منكَ الشّعر مِمّا سَكَنْته». فسكنتُ، فأشار إليّ أنْ أُكمِل، فقلتُ وقد سهوتُ: «لعنَ الله شيطانكَ، أينَ كُنّا؟ لقد لعنتَ اللّحنَ وأُمّه!». فضحك حتّى تردّدتْ ضِحكته في الفضاء وكادَ يستلقي على ظهره، وقال، أنا أُكمل إذًا، وهتف اللّعين:

عَمرَكَ اللهُ هَل رَأَيتَ بُدورًا...

فهويتُ على فمه، فوضعتُ كفّي عليه: «ناشَدْتُك الله ألاّ تُكمل» فهزّ رأسَه موافِقًا فلمّا رفعتُ يدي، هتف: «فأَتِمّ ما بدأتَ إذًا»، فأخذتُ أقول:

جَمَعَــت بَــينَ جِســمِ أَحمَــدَ وَالسُــقـ

ــمِ وَبَــينَ الجُفــونِ وَالتَســهيدِ

فردّ من طرب: «ظَهَرَتْ أناك». فأكملتُ إذْ عرفتُ أنّ ذلك إطراء، وإيذانٌ بأنْ أتابع:

كُلُّ شَيءٍ مِـنَ الدِمـاءِ حَـرامٌ
شُربُـهُ مـا خَـلا دَمَ العُنْقُـودِ

فردّ وهو يرقص: «بدأتَ تهذي». فأكملت:

مـا مُقَامـي بِـأَرضِ نَخْلَـةَ إِلّا
كَمُقـامِ المَسـيحِ بَـينَ اليَهـودِ

فحجل كأنّ نصفَه الجنّي غلبَ وجوده الإنسيّ: «لقد صبأت». فأكملتُ:

مَفـرَشي صَهـوَةُ الحِصـانِ وَلَكِـنْ
نَ قَميـصي مَـسرودَةٌ مِـن حَديـدِ

فوخدَ من لذّةٍ: «أنتَ فارسٌ حقيقيٌّ وربّ الكعبة». فهتفتُ:

عِـش عَزيـزًا أَو مُـت وَأَنـتَ كَريـمٌ
بَـينَ طَعـنِ القَنـا وَخَفـقِ البُنـودِ
فَـرُؤوسُ الرِمـاحِ أَذهَـبُ لِلغَيـ
ـظِ وَأَشـفى لِغِـلِّ صَـدرِ الحَقـودِ

فوضع كفّه على ذقنه المُستدقّة: «هذان البيتان من رأسِ جدّتك، ستُهلِكك هذه العجوز وهي تصرخُ في أذنيك: الثّأرَ... الثّأر».

فقَفَلْتُ البِناء:

أَنـا تِـربُ النَـدى وَرَبُّ القَـوافي
وَسِـهامُ العِـدا وَغَيـظُ الحَسـودِ

أَنــا في أُمَّــةٍ تَدارَكَهـا اللَـ

ـــهُ غَريــبٌ كَصالِــحٍ في ثَمــودِ

فمال وجال، وناح وصاح، وعوى وهوى، وبكى وشكا، واسترجع وهتف: «وأنا أشهد، وإنّكَ لشاعرٌ جريءٌ كالأسد، تهجمُ على الألفاظ كالبحر». فهتفتُ:

أَمِــطْ عنــكَ تشــبيهي بِـما وكأَنّــه

فَــمَا أحــدٌ فَوْقِــي، ولا أَحَــدٌ مِثْــلي

(٩)

الثّأر ضَعْف، والثّورة قُوّة

قال أبي للشّيخ: «إنّ جدّته تطلبُه». «عليه أنْ يُتِمّ الثّالثة». «إذا طلبَتْه جَدّته فمَنْ يعصي لها أمرًا؟!». «إنّها امرأة». «وإنّكَ رجل». حَدّق الشّيخ في أبي ليفهم معنى عبارته الأخيرة، غيرَ أنّ وجه أبي كان مثل صحيفة البِلّور، بارِدًا، شفيفًا إلى زُرقة، ولا يحمل أيّة تعابير، فأوقع ذلك الشّيخ في الحيرة، فرفع عقيرته: «سيبقى عندنا عامًا ثالثًا». انتفخَ صَدْرُ أبي، وقال بحزم: «عليه أنْ يرحل اللّيلة معي». كانت هذه العبارة كفيلة بأنْ تضع الشّيخ على حدّ الحقيقة، أخيرًا سمع من أبي عبارةً غير مُحايِدة، فردّ بحزمٍ مُماثِل: «وأنا قلتُ، سيبقى هنا أيّها السَّقّاء». زعق أبي هذه المرّة بصوت الجنّيّ الّذي فيه: «وأنا قلتُ سيرحل معي اللّيلة». أرادَ شيخُ القبيلة أنْ يشتمه، أنْ يأمر بقتله، أنْ يبصق في وجهه، غيرَ أنّ عينَيْ أبي زرعتا الخوفَ في فؤاده، فأطلقَ زفيرًا محبوسًا، وجلسَ على مُتّكئِه بعدَ أن كان واقفًا، وأشاحَ بوجهه بعيدًا وهو يشعر بمزيجٍ من الخوف والغيظ والقهر والكَبْت، أحسَّ أبي بذلك فاقتربَ منه يُلاطِفه: «تعرفُ أنّ هذا الفتى ليسَ من جُملتِكم». فردّ الشّيخ: «وليسَ من جملتكم كذلك». «هو ليسَ لأحدٍ». «فَلِمَ ستأخذه؟». «هل أحببتَه؟». زَمّ الشّيخ شفتَيه، قبل أنْ يقول: «أحببتُ أنْ يبقى عندنا فترةً أطول، يتضلّع فيها من الفصيحة،

ويأخذها من سندها الأعلى». «لقد أتمّ ذلك وأنتَ تعرف». «فما تكون أنتَ له حتّى تقرّر بشأنه إنْ كان سيبقى أم يرحل، ألا تسأله؟». «أنا له فوقَ ما تعرف وأبعدَ مِمّا في نفسك، غير أنّني مع ذلك لا أملك إلاّ أنْ أسيرَ حسبَ ما هُيِّئَ له».

هنا (تدمر). وصلْنا إليها من بادية السّماوة في أقلّ من ليلةٍ. كيفَ يقطعُ أبي هذه المسافات بهذه الطّريقة؟ لا أدري. هل كانتْ تُطوَى له الأرض؟! ربّما.

سألتُ أبي: «لِمَ أتيتَ بي إلى هنا؟». ولم يُجِبْ، غيرَ أنّه أشارَ بيُمناه إلى ساحةٍ محفوفةٍ بالأعمدة. حدّقتُ النّظر فلمَ أرَ فيها غيرَ الفراغ، كانت السّاحة الفسيحة الّتي نثرَ عليها البدرُ الفِضّي كِنانته خاليةً تمامًا، «لا أرى شيئًا»، قلتُ لأبي. هَزّ رأسَه هَزّاتٍ خفيفة، ثُمّ أخذني من يدي، عبرنا الدّرب حتّى صِرْنا في منتصفها، وقال لي أبي: «الآن ترى... انظرْ» وأشارَ إلى محيط السّاحة، فرأيتُ عليه هالاتٍ ضوئيّة، نبتَتْ من الأرض، وشكّلتْ دائرةً من الكائنات النّورانيّة، كان المكان ساكِنًا، لا يُسمَع فيه أيّ صوتٍ، وباستثناء حركةٍ خفيفةٍ من هذه الكائنات، فلم يكنْ في المكان سِوانا، دَخَلني الخوف، فالتجأتُ إلى أبي وأنا أحتمي به: «ما يكون هؤلاء؟». «إنّهم قُرناؤُك». رجفتُ: «قُرنائي». كانوا يغيبون ويظهرون بهدوء مع دقّات القلب، وتردُّد النَّفَس، «خوفُكَ يُبعِدهم، ألقِ إليهم حبلَ طُمأنينتك». كان الحبلُ مقطوعًا.

تركنا السّاحة خلفنَا، حتّى صِرنا إلى المسرح الّذي أمامه المُدَرّج الدّائريّ، وهتفَ أبي وأنا مثلَ ثوبٍ تُطيّره الرّيح ملتصِقًا به: «انظرْ، ألا ترى؟!». وسألتُ بصوتٍ خفيض: «أين؟». «هذه المدرّجات؟».

«لا أرى أحدًا». «بل إنّها تغصُّ بالوُرّاد، جاؤوا من كلّ فَجٍّ عميقٍ ليسمعوك». «يسمعونني؟». وسمعتُ صوتَ انتِشاء أبي: «انظرْ، إنّهم تركوا بابل وسحرَها وراءهم، وعبقرَ وجِنَّها، والطّائفَ وشياطينها، والجاهليّة وغابرها، والسّواد وآهِليه، وجاؤوا هنا لأجلك... هَيّا قُلْ شيئًا». ونظرتُ فرأيتُ هذه المرّة، وشجّعني، فتنحنحت:

أَظَبْيَـةَ الوَحْـشِ لَـوْلا ظَبْيَـةُ الأَنَـسِ
لَمـا غَـدَوْتُ بِجَـدٍّ فِي الهَـوَى تَعِـسِ
وَلا سَـقَيْتُ الثَّـرَى وَالمُـزْنُ مُخْلِفُـهُ
دَمْعًـا يُنَشِّـفُهُ مِـنْ لَوْعَـةٍ نَفَـسِي
وَلا وَقَفْـتُ بِجِسْـمٍ مُـسْيَ ثَالِثَـةٍ
ذِي أَرْسُـمٍ دُرُسٍ فِي الأَرْسُـمِ الدُّرُسِ

ولم تكنْ دُرُسًا إلاّ لمن لم يكنْ له قلبٌ. وفي (تدمر)، أنشدتُ قُرَنائي بعدَ تلك اللّيلة أكثر من خمسين قصيدة في عشرةِ شهور، ألقى أبي أكثر من نِصفِها في البحر، ولم يسمحْ لي أنْ أُثبِتَ في الرّقاع إلاّ كلّ قصيدةٍ مُقلِقةٍ، مُؤرِجحة، تذرو قلبَ سامِعِها في الرّيح.

ثُمّ قال: «قد تمّتْ لكَ ثلاثُ سنواتٍ، فالآن إلى الكوفة، فإنّ جَدّتكَ تكادُ تموت شوقًا إليك». فقلتُ: «أمنْ تدمر إلى الكوفة دون أنْ نقيم في القُرى الظّاهرة؟!». «ليسَ من قُرًى ستمرّ بها إلاّ وهي مُقدَّرة، أمّا اليوم فإنّ رُوحَ جدّتك تُناديك». وارتحلْنا فما فمرّت ثلاث ليالٍ حتّى كُنّا في الكوفة، فدخلْناها ليلاً بعدَ أنْ وَثِقْنا أنّ القرامطة قد

غادروها تمامًا، ولمّا صِرتُ على الباب، نَظَر إليّ قوْسُه وحَنّ، وشَكَا وأنّ، وبكى واستعبَر، حتّى لقد رأيتُ دُمُوعَه تسيل على صخوره، ثُمّ احتضنْتهُ فشعرتُ بنشيجه على صدري، فقلتُ: «يا مُسْيَ ثالِثة، هَوّنْ عليك، فإنّما يقظات العين كالحُلُم». ودخلْتُ البيت وحدي، وغادر أبي على عادته، فلمّا صرتُ في الفناء، ملتُ إلى الغرفة الّتي فيها جدّتي فإذا هي نائمةٌ مُتكوِّرة على نفسها، فلم أشأ أنْ أوقِظها، فعدلتُ إلى غرفة الدّرس، فنمتُ فيها، وما صحوتُ إلاّ على صياحها وبُكائِها من الفرحة في الصّباح.

«كيفَ هي أحوالك؟ ما فعلتْ بِكَ الأيّام؟ ما حفظتَ؟ ما رأيت؟ ما سمعت؟ ما عِشْت؟»، كانتْ تُمطرني بوابلٍ من الأسئلة، وأنا أضحك: «سأجيبك». جهّزتْ لنا طعامًا، ولم ترفعْ عينَيْها طَوال الوقتِ عنّي: «لقد كبرت». «إنّها ثلاثُ سنواتٍ فحسب». «على هذه السّنوات الثّلاث أنْ تُعيدَك خلقًا آخر». «تقصدين هذه اللِّمّة؟». «أقصدُ هذا العقلَ يا بُنَيّ. أقصدُ ما وَعَى»، تنهّدتْ قبل أنْ تقول: «كيفَ كان أبوكَ معك؟». أجبْتُها: «أوردني موارد العِلم وأصدرني، ومواردَ الخيال وأرواني، وموارد الزّمان وأراني، ومواردَ المكان ومَكّنني». «لقد أحسنَ إذْ فعل». سألتُها: «كيفَ كان يملك ذلك؟». نظرتْ إليّ مستفهمة: «ماذا تعني؟». «أهو جنّيّ أم بشريّ؟ أهو أبي أم لا؟ ما يكونُ هذا المخلوق؟». «سؤال لا جَوابَ له يا بُنَيّ، وقد حارَ فيه هو، وأنا، ولا نملك أنْ نزيدَ على أنْ نقفَ على حَدّ السّؤال». «ففيم اطمأنَنْتِ إليه، وقد كنت منه على خوف؟». «إنّ الحقيقة لا تظهر في اللّقاء الأوّل، كما أنّ النّبتة لا تنبثق من السِّقاء الأوّل».

مضتْ أكثرُ أيّامي بعدَ ذلك في الكوفةِ في خلائها، أُسمِعَ قومًا مُتخيّلين، وجمعًا غيرَ مرئيّين ما أقولُ من الشّعر، كنتُ إذا بدأتُ إنشادَ البيت الأوّل تتابعُ الأبيات حتّى تسيل كأنّها عينٌ جرتْ فتفجّرتْ، فتتدفّق دون توقّف، المئةُ والمئتان والثّلاث، ما يوقفني عن ذلك إلاّ نعيبُ غراب اللّيل إذا طار، أعودُ إلى البيت في الفجر، أنام حتّى تطلع الشّمس، ثُم أغدو إلى شيخٍ قد عَزَل نفسَه عن النّاس.

وذاعَ شعري؛ البدايات الّتي فاهتْ بها روحي، النّسائم الّتي حاولتْ أنْ تجمع بين الوردة والسّيف وإنْ كانتْ إلى السّيفِ أقرب، وبين النّسيم والنّقع وإنْ كانتْ إلى النَّقْع أَحَنّ، غيرَ أنّ ما في رأسي، وما يضجّ فيه كان يُوحي أن مواجهة الحياة في آفاقٍ أوسعَ من الكوفة وأوسع من بادية السّماوة والبوكمال وتدمر وما إليها ستزيد هذا الشّعر تعتيقًا، إنّ لديّ من الآيات ما يُخضِع أعناق النّاس أبعد من هذه المحلّة البائسة، بل إنّها أبعدُ من أقاصي الأرضِ كلّها.

أوقفتْني جدّتي ذات مرّة حيرى إلى غضب: «مَنْ هذا الشّيخ الّذي تركتَ المكتبَ والأئِمّة لتجلسَ إليه؟». ابتسمتُ: «أبو الفضل الكوفيّ». «أعرفُه، ليسَ عن هذا أسالك». «فَعَمّ؟». «إنّه قرمطيّ». «وماذا في ذلك؟». «ليستْ هذه إجابة». ولانتْ عريكتي قليلاً وأنا أهتف: «إنّهم يطلبون ثأرًا يا جدّتي، ألا يشتركون معنا في ذلك؟ ألم تقضي هذه السّنوات وأنتِ تملأين عقلي بالثّأر». «هناك فرقٌ يا أحمد بين الثّأر والثّورة، الثّأر ضعف، والثّورة قُوّة». «فمتى يحِينُ حَيْن الثّورة إذًا؟». «لكلِّ أجلٍ كتابٌ، أراكَ تستعجلُ ثمرتك، وعقاب الاستِعجال أوقَعُ في النّفس من العظم في الشّجا». «العجلة إلاّ في هذه ندامة». «لا

يا بُنَيّ، هؤلاء القرامطة الّذين تُعجبك قوّتهم وبأسُهم ليسوا إلاّ قَتَلَة، القُوّة في غير موضعها بطشٌ وظُلم، وفي موضعها رفقٌ وعدل». «فكيفَ أعرفُ الحَدّ الفاصلَ بينهما؟!». «اتركهمْ، فليسوا إلاّ مجموعةً متعطّشة إلى الدّماء، وهذا العطش سيُعميهم وسيقضي عليهم، فيأكلُ بعضُهم بعضًا». «إنّه يُعجبني يا جدّتي، إنّه يتكلّم بكلام الفلاسفة، وإنّ مآثرهم لتُعجبني، وإنّ حكيمَ القول عندهم لَيأخُذُ بلُبّي.. ثُمّ انظري هذه القُوّة الّتي غذتْ عقلي قبل جسدي حتّى صار ما صار عليه اليوم». «إنّكَ ما تزال فتًى، وما زلتَ تحتاجُ أنْ ترى العدل وتنتجع مواضعه، وتبتعد عن كلام المناطقة والفلاسفة والمُهوِّسين». «يا جدّتي، أشعرُ أنّني ماضٍ إلى غايةٍ عظيمةٍ، في طريقٍ طويلة، وعقبةٍ كؤود، وليلٍ أسحم، ودمٍ صبيب، وحزنٍ ثقيل، وزمنٍ بئيس، وأنا وحدي دون أنيس». «إذًا فلْيكنْ هذا قدرَك، وحدك، لا ترتبط بهؤلاء القَتَلَة، إذا هَمَمْتَ فتذكّرْ أنْ نُبْل الغاية لا تُوصِل إليها الطّريق الوَخِمة».

ورغم هذا الحديث الّذي دار بيني وبين جدّتي إلاّ أنّني ظللتُ ألتقيه خارجَ بيوتات الكوفة، حتّى كان ليلٌ قال لي فيه: «يُوشِكُ أنْ يكون يوم الثّارات». وطلبَ منّي أنْ أحتاطَ فلم أفهم ما يعني، وعُدتُ إلى البيت، فوجدتُ جدّتي متلهّفةً تسأل عنّي: «أينَ كنت؟». «مع أبي الفضل الكوفيّ». «لعنة الله على ما جمع بينكما». «هدّئي من روعك يا جَدّتي». «أما سمعتَ ما يُقال؟!». «ما الّذي يحدث؟». ولم تجبْ بعدَها جدّتي بحرف، إذْ إنّ صهيل الخيول، وصليل السّيوف، وقرع الحديد، وصياح النّاس، والفوضى قد بدأتْ في الأطراف وانداحتْ، ثُمّ نمتْ وتعاظمتْ حتّى صارَ القتل

في كلّ بيتٍ، وسارت النّار في كلّ منزل، وهوتْ سُقُفٌ وجدران، واحترقتْ ضياع وغُدران، وسالتْ دِماءٌ كثيرة، وانتشرتِ الجثثُ في الطّرقات، وكان الجُندُ ينادون: «يا أبا طاهر». وكان نداءٌ كهذا كفيلاً بأنْ يُحدِثَ مَقتلةً عظيمةً أدخلت الرّعبَ في قلوب الآمنين، واسودّتْ لها السّماء واكفهرّتْ، وسال دهانُها أحمر في تلك اللّيلة، وقُتِلَ خلقٌ كثير، وما نجَا إلاّ من استَطاع الفِرار، وكان أكثر القتلى من الأطفال والنّساء، ورأيتُ الخوفَ لأوّل مرّة على هذه الصّورة في عينَي جَدّتي، وضمّتْني بين ذراعَيها وقتًا طويلاً دون أنْ تُفلتني، وشدّتْني إليها لّما سَمعتْ بعضَ أصواتِ الجُند في الخارج وهم يطعنون ويهدمون ويحرقون، وشممْنا رائحة الدُّخان تنبعثُ من الأرجاء، وأيقنتْ جدّتي بأنّ الموت الّذي يحمله هؤلاء يقفُ على الباب، ولّما تخيّلتْ للحظةٍ أنّها ستفقدني، ضمّتْني بين ذراعَيها أكثر، ومضتْ بي إلى الغرفة القصيّة. «ماذا يا جدّتي؟». «خائفةٌ جِدًّا عليك». ودفعتْني إلى جدار أصمّ. «ماذا يا جدّتي أَإلى الجِدار؟!». «إنّ وراءَه بابًا وسردابًا». وكادتْ تُزيح جدارًا أصمّ بالفعل لولا أنّ أبي ظهر فجأة في تلك اللّحظة، وتذرّى بغتة، وهتف: «لا تقلقي، سيكون معي في أمان». وجذبني إليه، وأرادَ أنْ يطير، لكنّني ناشدتُه: «وجدّتي؟». «ستكون بخير». ومن بين دموعها المُنسابة على وجنتَيها هتفتْ: «لا تقلقا عَليّ». ولا أدري إنْ كان قد أركبني على ظهره أم على دابّة من غير دوابّ البشر، وسار، فما شعرتُ حتّى رأيتُ نفسي في لحظاتٍ خارجَ الكوفة. ونزلتُ على الأرض، وسارتْ أقدامي العارية تمسّ التّراب، وسألتُ أبي: «إلى أين؟».

(١٠)

اشربْ بعضَ ما سالَ مِن دَمِك

قال أبي: «بغداد». «أنقصدُ بغداد يا أبي؟». «ولن أقصدَ سِواها معكَ». «وماذا تعني؟». «هل قلتُ ما لا يُفهَم». «قلتَ أكثرَ مِمّا يُفهَم، فهل ستقيم فيها فترمي عصا التّرحال فلا نقصد أنا وأنتَ سِواها، أمْ ستتخلّى عنّي بعدَها، فلا تصحبْني إلى غيرها، وأضربُ أنا في القِفار وحدي؟». ومضينا.

كانتِ الأرضُ وعرة، والمسلك شوكًا، وكُنّا حُفاة. «خرجْنا من البيت دون أنْ ننتعل». «نعلُكَ هذا الدَّمُ الّذي يسيل من قدمَيك في الشّوك». وجلستُ من تعبِ النّهار الطّويل الّذي مشيناه في قائظة الحرّ، وقد نَفَرَ دمٌ كثيرٌ من رجلَيّ، فلمّا مسحتُه بكفّي عن باطن قدمي، كان العرقُ يتصبّبُ على جبيني، فرفعتُ كفّي فمسحتُ ذلك الجبين بها، فاتّشح بالدّم واختلطَ مع العرق، فنظر إليّ أبي وابتسم، وهتف: «إكليلٌ من شوكٍ ودم، وستُصلَب». ومضينا.

فلمّا كُنّا في نهار اليوم الثّاني عطشتُ، فسألتُ أبي الماء، فقال: «اشربْ بعضَ ما سالَ من دمك». فنكرتُ عليه ما قال، وأردفتُ: «أنا عَطِشٌ حَقًّا يا أبي». «ستعطش حياتَكَ كُلَّها ولن يرويك الفُراتُ ولا

دجلة». وبدأتُ أخاف كلماته. وشددتُ على شفَتَيَّ المُشَقَّقَتين، وهتفتُ من جديد: «ألا نستطيع أنْ نجدَ ماءً في غير هذه الطّريق الّتي نسير فيها؟!». «عليكَ أنْ تصبر، إنّ عَطَشَكَ طويل». وشعرتُ أنْ حلقي يكادُ يتمزّق، ورحتُ أمسحُ شفتَيّ بأطراف أصابعي أملاً أنْ أُخفّف حرارة الصّدى، ولكنْ هيهات. وخارتْ قُواي، وتقوّس ظهري، وتهدّلتْ ذراعاي، وكدتُ أسقطُ على الأرضِ من الإعياء، ونظرتُ إلى أبي كي يَحميَني ولكنّه لم يفعل، وتركني أسقطُ بالفِعل، ثُمّ قامَ على قدمَيه فوقي، فرأيتُ وجهه كأنّه نخلةٌ ضارِبةٌ في السّماء، وهو يبتسمُ كأنَّ شيئًا لم يحدثْ، وسألتُه: «ماء.. ماء...». وازدادت ابتِسامتُه اتِّساعًا، ثُمّ سقطَ وجهه في الظّلام.

حينَ أفقتُ من غيبوبتي، كان أبي يجلسُ إلى جانبي، نظَرَ إليّ، التقتْ عينانا، ولم يقلْ شيئًا. «يا... يا... أ..» ولم أستطعْ أنْ أكمل العبارة، وظلّ هو صامِتًا، ثُمّ تدلّى رأسي على صدري وغِبْتُ عنّي، فلمّا صحوتُ وجدتُ شفاهي قد تندَّى بعضُها مع برودة الجوّ، لا أدري إنّ كان ذلك حَقًّا ما حدث، أمّ أنّ أبي سقاني، أو بلّلَها بشيءٍ ما، وسألني: «هل تستطيع أنْ تسير؟». ولم أشأ أنْ أقول: «إنّ قواي خائرةٌ تمامًا، وإنّني غيرُ قادرٍ أنْ أسير خطوة واحدة». ولم يستجبْ أبي لخاطري، وأعرفُ أنّه سمعه، بل إنّه جذبني برفق وحزمٍ معًا، وأوقفني على رِجلَيّ، وضغطَ على جذعي، وهمس في أُذُنَيّ: «ما زالتْ الطّريق أمامكَ طويلة» ثُمّ دفعني عنه، وأردف: «هَيّا يا بُنَيّ». «ولكنْ يا أبي...». ووشتْ طريقة نُطقي بانزعاجي مِمّا يحدث، فسألني: «ماذا؟». «أين قدراتك الخارقة؟ لِمَ لا تساعدنا

بها فيها نحن فيه؟». «قدراتي ليستْ لي دائِماً». «فهل تريدُنا أنْ نموت؟». «نحنُ موتى على أيّة حال». «ولكنّني ما زلتُ في الثّانية عشرة يا أبي، وأمامي حياةٌ أريدُ أنْ أعيشها». «الحياةُ الّتي تريدُ أنْ تعيشها، يجب أنْ تصبر فيها طويلاً». «سأصبر لكنْ ليسَ على العطش حَدّ الموت». «دجلةُ قريبةٌ منّا، ونستطيع أنْ نصل إليها قبل العِشاء الآخِرة». «فلْنَفْعلْ يا أبي، مِلْ بنا من هذه الصّحراء إليها حتّى لا نموت». «الصّبر الّذي يجب أنْ تتعلّمه في أعلى درجاته لن تُعلّمه لكَ خيرًا منه هذه الصّحراء ولا هذا العطش». «يا أبي... ياااا». وضاعتْ صيحتي وسقطتُ من جديدٍ.

في اليوم الثّالث، أَقَلْنا على ضفاف دجلة، كانتِ البيوتات الّتي على أطراف بغداد قد بدأ بعضُها يظهر من بعيدٍ، شربتُ أوّل نُغبةٍ بعدَ ثلاثةِ أيّام طويلةٍ من العطش، وأمّا الجوع فلم يكنْ ليشكّل لديّ فارِقًا، ثُمّ مضيْنا.

حينَ دخلْنا إلى بغداد، كان أبو طاهر القرمطيّ قد فعل فيها ما فعل بالكوفة، ولا أدري إنْ كُنّا نفرّ منه إليه، وأنّ سيوفه ستظلّ مشرعةً في وجوهنا في كلّ مكانٍ نقصده. وبدا ذلك اللّقاء اليتيم في خيمته على أطراف الكوفة باهِتًا، وشعرتُ أنّني أتأرجح بين ما يريدُ أبي لي من صُحبته، وبين ما تريدُه جدّتي منّي، ولأنّ كليهما لم يُصرّح بما تنطوي عليه أضالِعه، فقد رُحتُ أتأرجح بينهما على قَلِق، وما اهتديتُ إلى ما يريدُه قلبي من هؤلاء.

أدخلني أبي أوّلَ شأننا في بغداد إلى دار ابن دريد. كانتْ دار ابن دريدٍ عالية، فسيحةَ البهو، نظيفةَ الفناء، وسيعة المداخل، كأنّها قد أُعِدّتْ أنْ تكون مدرسة، وكان يقصدُها عددٌ كبيرٌ من طلبة العِلم، وكانتْ تعجّ بهم في النّهار إلى أوّل اللّيل، ولمّا أخذني أبي إليها، قدَمّني إلى الشّيخ الّذي نيّف على التّسعين، وقال له: «هذا ابني أحمد». ونفضَ الشّيخ العصا من يده باستِخفافٍ، وكأنّه يشير إلينا أنْ نخرج، وأرادَ أبي أنْ يستحثّه على قبولي، فقال: «إنّه نابِغة». فَزمَّ ابنُ دريدٍ شفتَيه، وقال: «النّوابغ عندي كالنّمل، اخرُجا من هنا قبل أنْ أقذف بالعَصا في وجهيكما». واغتاظَ أبي قليلاً، رأيتُ ذلك في وجهه، لكنّه كتَمَ غيظَه، فلن يسلكني في العِلم إذا استسلم لنوازع الغضب الّتي نفرتْ من وجهه آنئذٍ، بسبب ازدراء الشّيخ لنا، واستخفافه بهيئاتِنا، ولهذا حاول محاولةً جديدة: «إنّه يكتبُ الشّعر». وضَحِك ابنُ دريد هذه المرّة، حتّى ضاقتْ عيناه الّتي بدا أنّ حاجِبَيهما الكثيفَين قد سَقَطَا عليهما فصار نِصف أعمى، ومَدّ رِجله، ومسحَ ذقنه البيضاء بيسراه، وأشار بعصاه من جديد، وهو يحرّكها في وجهنا حتّى تأخذ بأطراف آماقِنا: «كلّ هؤلاء الّذين ترونَهم من هؤلاء الصّبية والكهول والشّيوخ يقولون الشّعر. النّاس يقولون الشّعر في بغداد كما يتكلّمون، ويتفكّهون به في مجالسهم كما يضحكون... اخرُجا». وألقى الأمر الأخير بحزم. غير أنّ أبي أرادَ أن يُلقي بثقلٍ جديدٍ أمام الشّيخ: «إنّ ولدي هذا يحفظ المُعلّقات». «كلّ من هم فوقَ العاشرة في هذا المجلس يحفظها». «إنّه يحفظُ معجمًا فريدًا من كلمات أهل البادية». «أهل البادية هم ومعجمهم هنا». «إنّه يحفظُ الجمهرة». وانقطَعَ صوتُ ابنُ دريد مع جملة أبي الأخيرة، ولم يردّ أوّلَ الأمر، وصمتَ صمتًا مَريبًا، ونَظَر أبي إليّ فَرِحًا، وشَعَر أنّ هذه الكلمة ستغيّر الموقفَ كلّه، ورمقَ ابنَ

دريد من جديد الّذي وضع العَصا جانِبًا، ومسح لحيته الطّويلة بكلتا يدَيه، واعتدل في جِلْسته، وهتف: «أيّ جمهرةٍ تعني؟». «جمهرةُ ابن دريد؟». «جمهرتي أنا؟». «وهل هنا سِواها؟». «ويحفظُها كلّها». «عن ظهر قلب». «وإذا طلبتُ منه أنْ يستظهرها أمامي الآن؟». «لن يُسقِطَ منها حرفًا». «فإذا أسقط». «وجب طردُه». ولم يقبل ابن دريد بغير هذا ثمنًا للانتِظام في حلقته، غيرَ أنّه ماتَ بعدَ ستّة أشهرٍ من ذلك اللّقاء الفريد، ثُمّ إنّني حفظتُ كلّ ما كتبَ إلى الجمهرة، وأخذتُ عنه كلّ ما وعى، فقد لازمْتُه اللّيلَ والنّهار بأطرافهما وآنائِهما.

ثُمّ لازمتُ بعده المرزبانيّ تلميذ ابن دريدٍ الأثير، وكانَ حُفَظة، كثيرَ السّماع، وأخذتُ عنه كلّ العلم الّذي عنده، وقادَني المرزباني إلى طائفة أخرى من العلماء قضيتُ بينهم أيّامي كلّها ذاهِلاً عن نفسي، وقال لي أبي: «قد كانتْ أيّامك هذه في بغداد تبصرةً إلى أيّامك في البادية، لقد وعيتَ اليوم لغةَ أهل الوبر وأهل الحضر، ولغةَ التّراب ولغة الخمائل».

ثُمّ استمرّ العهدُ بي وأنا في تلك المجالس، أجدُ فيها راحتي، وأجدُ فيها أُنسي، وأبي معي وليس معي، إنْ حضر غاب، وإنْ غابَ حضر، غيرَ أنّه كانتْ لنا أيّامٌ كذلك نقضيها معًا على شاطِئ دجلة.

وكثيرًا ما كان مِمّن معي من طلبة العِلم، تستخفّهم المظاهر، أو تُغريهم الأعراض، ولم يكنْ لي من غايةٍ إلاّ الغاية، وكانوا يخوضون في كلّ خائِضة، يروّحون بذلك عن أنفسهم، غيرَ أنّه مَلَكَتْ علينا في تلك الأيّام أخبار القرامطة الّذين سرقوا الحجر الأسود، وصدقتْ نبوءة أبي فيهم، سمعتُهم يقولون في تلك المجالس «إنّ القرامطة قاموا بالهجوم

على البصرة وذبحوا أهلها مذبحة عظيمةً استمرت (١٧) يوما، واستباحوا الأموال واغتصبوا النساء، ثم تركوا البصرة إلى أطراف الشام، فقتلوا ونهَبوا كلّ قريةٍ مرّوا بها».

وانشغلَ النّاس في تلك الأيّام بأخبارهم أكثر من انشِغالهم بالعِلم، ورأيتُ قلوب النّاسِ هَواء، فهل يتوقّع النّاس من أبي طاهرٍ هذا غير ما فعل؟ ورأى بعضُهم استِخفافي بالحوادث الّتي تجري، حتّى جاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى، وجلسَ إلى الحلقة، وقال: «إنّ أبا طاهر قد دخل مكّة هو وجنُودُه يوم التّروية، فأمر بقتل النّاس في الشّعاب والأزقّة، وحَرَّقَ عليهم بيوتهم، ثُمّ إنّه دَخَلَ الحَرَم، والنّاس تطوف بالكعبة، فأمر بقتل كلّ مَنْ يطاله السّيف، فجرى في صحنها دمٌ كثير، ثُمّ إنّه جلَسَ على باب الكعبة، ينظر إلى هرج النّاس، وأصحابه يسفكون الدّماء، وهو مُنتشٍ يقول: أنا الله وبالله، أنا أخلقُ الخلقَ وأُفنيهم أنا، وكانتِ النّاس لا تدري أتُصرَع من السّيف أم من هول ما تسمع، ومَنْ فَرّ ليتعلّق بأستار الكعبة ذُبِحَ عندها، فلمّا مضى أكثرُ النّهار وعلتِ الجُثَثُ بعضُها بعضًا، أمرَ أنْ تُلقَى في بِئر زمزم ويُردَم عليها، ثُمّ قامَ إلى قُبّة زمزم فهَدَمَها، وأمر أنْ يُقلَع باب الكعبة، فقُلِع، وأمر أنْ يُنزَع عنها سِتارُها فنُزِع، ثُمّ أمرَ أنْ يُخلَعَ الحجر الأسود من مكانه، فجاءه رجلٌ منهم فضربه بمِثْقَلٍ في يده وقال: أينَ الطَّيْرُ الأَبابيلُ؟ أينَ الحِجارةُ مِنْ سِجّيل؟ ثم قلعه، وأخذوه إلى بلدٍ لهم تُسمّى (هجر)، وحملوه على الجِمال إلى موضعه هذا، وفي الطّريق تبعهم (ابن محلب) أمير مكة هو وأهل بيته وجنده، يتشفّعون إلى أبي طاهر ويتذلّلون له كي يردّ الحجر الأسود ليوضع في مكانه، وقال الأمير له: خُذْ كلّ ما في خزائني من أموال، ولكنْ لا تهتكْ حرمة

المسلمين بأخذه، فلم يلتفت إليه، ولم يكنْ أمامه إلاّ أنْ يقاتله دفاعًا عن شرف الإسلام وحرمته، فقاتله أبو طاهر وذبحَه وذبحَ أكثر أهل بيته، ثُمّ تابعَ سيرَه إلى (هجر) وقد نهبَ إلى الحَجَر أموالَ الحجيج.

ولم يتجرّأ أبو طاهر على ذلك لولا أنّ كرسيّ الخلافة هنا في بغداد يتربّع عليه كلّ يومٍ خليفة، تدخل جوقةٌ من الجُندِ مرّة فتعزل الجالس عليه وتقطع رأسه وتُقدّمه لأخيه الّذي يخلفه من بعده، وتدخل فرقةٌ من المغنّين والقِيان فترقصُ أمام الكرسيّ، ثُمّ تسحل الكرسيّ والجالس عليه، من أجل أنْ ترقصَ أمام جالسٍ آخَر، فكان كلّما تدحرج رأسٌ رَكِبَ الكتفَين رأسٌ آخر، ثُمّ يتحسّسه رُعبًا وهو ينتظر دحرجته من جديد.

لم أدعْ هذه الأحداث المَهُولة تُغنيني عن أنْ آخذَ من العلم أحسنه، وكان أبي يعرفُ أنّ قدري أنْ يكونَ السّيرُ إلى غايتي لا تعرقله الأحداث الّتي تقع في الدّرب مهما كانتْ فادحة. غيرَ أنّ كثيرًا من الوساوس صارتْ تأتيني في تلك اللّيالي، وأنا أرى ما يحدثُ في بلادٍ يجبَ أنْ يكونَ من أمرها غير ما أرى، تنتظمَ تحتَ إمرةِ راعٍ يردّ الإبل السّائمة إلى حظيرتها، ويوقفُ العدالةَ على حَدّ السّيف، ليمنعَ هذه الفِتَن الهوجاء الّتي تعصفُ بكلّ شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المرحلة الثّانية

نَكَبَات الدّهر والثّورة

٣١٣ - ٣١٩ هـ

خَلِيْلُكَ أَنْــتَ لا مَــنْ قُلْتَ خِلِّي
وَإِنْ كَثُــرَ التَّجَمُّــلُ وَالــكَلامُ
وَلَوْ حِيْــزَ الحِفَــاظُ بِغَــيْرِ عَقْلٍ
تَجَنَّــبَ عُنْــقَ صَيْقَلِــهِ الحُسَــامُ
وَشِــبْهُ الــشَّيْءِ مُنْجَــذِبٌ إِلَيْــهِ
وَأَشْــبَهُنا بِدُنْيانــا الطَّغَــامُ
وَلَــوْ لَمْ يَعْــلُ إِلّا ذُو مَحَــلٍّ
تَعَــالَى الجَيْــشُ وَانْحَــطَّ القَتَامُ

(١)

إنّ هذا لَشَيْءٌ عُجاب

التقيتُ أبا عليّ القاليّ بعدَ بضعة شهور من وصولي إلى بغداد، كان طَموحًا، ضَوى إلى ما خلفَ غايات بعضِنا الصّغيرة، وقد تعاهَدْنا على ألاّ نبتّ حبل المودّة بيننا قبل أنْ يقرأ كلّ واحدٍ منّا على الآخر ألفَ رويّ غيبًا، في ساعةٍ ما بعدَ الزّوال، حيثُ تكون الرّاحة الّتي تسبق مجلس العِلم الأخير.

كان (القالي) يكبرني بأكثر من ثلاثَ عشرةَ سنة، وكان قد قدم إلى بغداد من (ملاذكرد) كي يأخذ العلم هنا من أربابه، ولَزِمَ (ابنَ دريد) قبلي. وفي خلواتنا كان يقول: «إنّ بغداد اليوم تسير إلى الموت، يجرّها كلّ ذي زِقّ إلى ما يريد، وإنّ خلفاءها ما بين مسحول ومخلوعٍ ومقتول ومفقوء العينين، وإنّني أرى أنّني سأغادرها حينَ أملك المالَ والرّاحلة». وسألتُه: «إلى أين؟». «ربّما أُيمّم وجهي شطر المغرب». «المغرب؟!». «أجتاز البحر إلى أهل الأندلس، فإنّ حَفَدة عبد الرّحمن الدّاخل يُوقّرون أهل العِلم، وإنّنا هنا لن نُطعَمَ شيئًا». ثُمّ غُمّ عَلَيّ أمرُه، فلم أرَه في حلقات الدّرس بعد ذلك.

ثُمّ رأيتُ أبي يأخذني مدّة عهدي في بغداد إلى (نِفطويه)، وكان شيخًا أدهم، فيه دمامةٌ لكنّه حُلو الرّوح، وكان صادِقًا، نقيّ الكلمة،

أخذتُ عنه القرآن على سبع قراءات، وقرأتُ عليه في الفقه ما لو جمعتُه في قراطيس لناءت الجِمال بِحَمله، وكان كثير الاعتزاز في الدّرس بشيوخه وخاصّة (ثعلب) و(المبرّد)، وحفظتُ على يدَيه نقائض جرير والفرزدق حرفًا حرفًا. وكان يُوقّر أهل العِلم، غيرَ أنّ مجلسَه ضَمّ ما هَبّ ودَبّ، فكان فيه إليّ أهلُ العقول الضّعيفة.

وفي الآنِ نفسِه من تلك الأعصر الذّهبيّة أوّل نشأتي في أروقة العلم جلستُ إلى (ابن درستويه)، أيّام أقام ببغداد، ثُمّ رحل. وقد أوقفني على الكتاب لسيبويه، وعلى بعضِ لُمَعِه، وروّاني عددًا من الأحاديث دخلتْ في رُوعي. ولم يكنْ ذلك إلاّ بالمُساءَلة، فكنتُ أتربّص بهؤلاء الأساطين بعدَ أنْ يفرغوا من دروسهم، فأنثر بين يديهم كِنانة أسئلتي، ولقد كنتُ أُمحّص القول لديهم، لآخذَ من الحرفِ أعلاه، ومن اللّهجة أفصحها، ومن الرّواية أصدَقَها، وما كانوا يضنّون بذلك؛ لأنّهم كانوا أهل عِلم حَقًّا، غير أنّ مجالسهم كانتْ تضمّ العصافير والصّقور معًا، مَنْ كانوا زُغب الجناح، ومَنْ قويت خوافيهم وقوادمهم، ولقد عانيتُ من أهل الصّدور المنتفخة، والعُيون المُتشاوِسة ما عانيتُ، ومِن أولئك الّذين كانتْ لهم نفوسٌ ضعيفة وجيوبٌ منتفخة.

وأمّا مَنْ كان يَبَشّ للمال من أهل العِلم فيقرّب هذا لِجَيبه، وهذا لِسَيْبِه، وهذا لسُلطانِه، وهذا لِقِيانِه، فكانوا ينزلون عندي تحتَ قدمَيّ. ومع أنّ المال كان عزيزًا مُشتَهًى، غيرَ أنّه إذا تسابقَ مع العِلم في مضمارٍ واحدٍ أسقطَ هيبَته، ولا أُنكِرُ أنّني سعيتُ إليه في تلك الأيّام الّتي لم أكنْ لأجدَ فيها لقمةً آكُلُها، وكانتْ ظهورات أبي قليلة، فلقد صارَ كأنّه حلم، يظهر طيفًا، ويقول كلامًا غير مفهومٍ، ويمضي.

ومرّتْ عَلَيّ أيّامُ وَحدة، لم يكنْ لي فيها صديق، وكان أبي يتعمّد أنْ يختفي، ولم يعدْ معي عَقْدٌ على نَقْدٍ، وعِشْتُ في ضيق، حتّى طلبَ منّي أحدُ الأغنياء أنْ أُعلّم ابنه، فوقفتُ عليه فأعطاني دُريهمات، فنثرتُها في وجهه، فمدّ إليّ عُنُقَه، وحملقَ عينَيه، فعاجلتُه: «إنّ شرَّ البُخلِ بُخلُ الغَنيّ». ومضيتُ وأنا لا أجدُ ما يسدّ رمقي، ولعنتُ غيبةَ أبي، وأردتُ أنْ ألعنه هو فبرزَ لي عفريتًا، وقال: «تريدُ أنْ تكونَ نبيًّا دون أنْ تصبر؟! إنّ هذا لَشيءٌ عُجاب!!». «أَعَلَى مثل هذا الجوع والسّغب والرّثاثة والغثاثة؟!». «مجدُكَ أخيرًا لا أوّلا». ودخلني ما دخلني من الكبرياء، فصرختُ: «المجدُ لي أوّلاً وأخيرًا، وأنتَ لم أعدْ بحاجةٍ إليك»، وضمّني إليه حتّى كادتْ أضلاعي تتكسّر، وأنفاسي تتقطّع: «عليكَ أنْ تملكَ نفسَك عند الغضب، هذا اللّسانُ سيُهلكك». «بل سيُخلّدني». وتركني بعدَ أنْ رحتُ ألهث، ونظرَ إليّ عميقًا، وهو ما يزال يضعُ ذراعيه على كتفي: «سأفقدك». وبكى! أوّل مرّة أرى أبي يبكي. ووقفتُ مشدوهًا لا أدري ما أفعل، وذابَ على عادته فجأة، فخلا منه المكانُ وقلبي.

ومضيتُ في يومٍ إلى دُور الورّاقين، فوقفتُ أطالِعُ ما فيها وأديم النّظر في الرّقوق، فبينما أنا كذلك، وفدَ رجلٌ ومعه كتابٌ من كُتُب (الأصمعيّ)، بدا أنّه افتقر وأرادَ بيعَه ليتسرّى ببعضِ ثمنه، فلمّا أعطاه الورّاق، أخذتُه أنظرُ فيه طويلاً، فشقّ ذلك على صاحبه، فقال لي: يا هذا أريدُ بيعه وقد قَطعْتَني عن ذلك، فإن كنتَ تريد حفظه في هذه المدة فهذا إنْ شاء الله يكونُ بعدَ شهر؛ فقلتُ له: إن كنتُ حفظته في وقفتي هذه فما لي عليك؟ فقال بتحدٍّ واستخفاف وهو ينثر يديه في وجهي سأمًا: أهبُ لك الكتاب. فأخذَ الورّاقُ الكتاب وقال لي: أنا بينكما؛ هيّا إنْ

كنتَ صادِقًا، استظهرْه لي. فرُحتُ أتلوه إلى آخره، لم أخطِئ في كلمة، ولم أُسقِطْ سطرًا، ثم استلبتُه فجعلتُه في كمّي وأردتُ القيام، فعَلِقَ بي صاحبه وطالبني بالثمن، فقلتُ: لقد حفظتُه، وناشدني أنْ أردّه لفقره وحاجته إلى المال، وما كان يدري أنّ ما بي من الفقر أشدّ مِمّا به. فقال له الورّاق: ما إلى ذلك سبيل قد وهبتَه له، وأنت شَرَطْتَ على نفسك هذا للغلام، فتَرَكَهُ لي، ومضى بحسرته. فلمّا غابَ عن ناظري، دفعتُه للورّاق فسألتُه: «بكم تشتريه؟». فقال: «بعشرة دراهم». فنظرتُ إليه زارِيًا: «غرّكَ صِغَرُ سِنّي، أنا أعرفُ أنّ ثمنه ثلاثون درهمًا على الأقلّ، ولكنّ شرّ النّاس مَنْ يبخسُ النّاس أشياءَهم». ولم تُحرّكِ الكلمة فيه أدنى ساكنٍ من مروءَته، ولكنّه أعطاني بدلاً منها خمسَةَ عشرَ درهمًا، فوضعتُها في كمّي، ومضيتُ إلى أقرب دُكّانٍ، فاشتريتُ خبزًا وعسلاً بعشرة دراهم، وأكلتُ، ونمتُ تلك اللّيلة على بعضِ اللّقيمات في بطني، وقد مضى على الجوع ثمانية أشهرٍ لم أشبعْ فيها من طعامٍ قطّ.

فلمّا كان الغد غدوتُ إلى السّوق، وما بقي معي إلاّ الدّراهم الخمسة، فقلتُ أشتري ثوبًا جديدًا، فمضيتُ إلى سوق القماش، فرأيتُ أحدهم يُنادي على الأُزُر النّيسابوريّة، فتشتري منه النّساء، ومَن في سوق الثّياب غيرُ النّساء! ثُمّ سمعتُ بائِعًا آخر يُنادي على الجُبَب الرّشيديّة، فسألتُ البائع عن ثمن الجُبّة الواحدة، فلمّا طالَعني، تَقالَّ هيئتي ونحولي والخِلَق الّتي أرتديها، ثُمّ هتف: «ليس عندنا ما نبيعه لكَ أيّها الفتى»، وصَعّر خَدّه إلى الجهة الأخرى وراحَ يُنادِي، فمرّت فتاةٌ فَغَمَزَها، فتثنّي رَخْصُها، فقال لها: «إلى أينَ يا عسل؟». فقالتْ: «إلى السّوق». فنَعُمَ كلامُه: «نحنُ في السّوق». «أعني سوق الجواري». ومضتْ إلى حيثُ

تُباع الأجساد، فتذكّرتُ ما قالتْه جدّتي لي قبل سنوات في الكُوفة من أنّ هؤلاء سيَبِعْن الرّجال والخلفاء، وسيَشْتَرِين الذّهب والكراسيّ، وسيُعيّنَّ قادة الجيوش وولاة الأمور.. ولعمري لقد صَدَقَتْ، والله لقد شهدتُ هذا في بغداد اللّعينة هذه. فتركتُ سوق القِماش والباعة تُنادي: «عمائم سوسيّة، مناديل فارسيّة، عصائبُ كرديّة، نِعالٌ خُوزيّة، ...».

فلمّا عبرتُ تلك السّوق المزدحمة، مررتُ بالصّاغة، فإذا خواتم الذّهب والفضّة والياقوت والماس، وتحسَّسْتُ الدّراهم الخمسة الّتي في جيبي، وهممتُ أنْ أسأل عن خاتمٍ من الفضّة أطبعُ على فَصّه شطرًا من شِعري، لكنّني تراجعتُ حتّى لا أَسمعَ من أحمقَ مقالة، وأنا في غِنًى عن هَذَيان أهل السّوق وفظاظتهم وقلّة عقولهم، ورِقّة أدبهم... ومضيتُ، وأنا أرى بغداد كأنّها سوقٌ للطّعام وللشّراب، لا مجلسًا للعِلم والآداب، وقد انتقلتُ بين الحالَين حتّى نَكِرتُ نفسي، وفي السّوق ما لا يُرى في سِواه، وفي صوتِ أهلِه عن صوتِ أهل الحقّ تنكُّب، ومضيت.

فلمّا صرتُ إلى سوق الفاكهة، وقفتُ بصاحب دُكّان يبيعُها، ورأيت عنده خمسةً من البِطّيخ باكورة، فاسْتَحسَنْتُها، ونويتُ أن أشتريَها بالدّراهم التي معي، وحدّثْتُ نفسي: «إنْ لم تقدرْ دراهمي على شِراء الثّياب الفاخرة والخواتم اللاّمعة، فإنّها قادرةٌ على شِراء هذا البطّيخ، وإنّني إلى أنْ أسدَّ جوعي أحوجُ منّي إلى أنْ أسترَ جسدي»، فتقدّمْتُ إليه، وقلت له: كم ثمن هذه البطاطيخ الخمسة يا رجل؟ فأجابني بغير اكتراث: اذهبْ فهذا البطّيخ ليس من أكلك، فنقمتُ على هُزئِه بي، فأصرَرْتُ عليه وقلت يا هذا لا تتكلمْ بما يغيظ واقصد

الثَّمنَ الّذي تُريد، فقال حينها: ثمنُها عشرة دراهم! ولشدّة ما صَدَمني بالثَّمن الّذي طَلَبه ما استطعتُ مُساومتَه ووقفتُ حائِرًا فيما أفعل، وحاولتُ أن أُعطِيَه الخمسة دراهم ثمنًا للبِطِّيخ لكنه لم يقبل، وبينما أنا أقف في دُكّانِهِ خرج شيخ من التِّجار من الخان المجاور مُتّجهًا إلى داره، فوثب إليه ذلك البائع وأخذ يدعوه لشراء البطيخ قائلًا: يا مولاي هذا البطيخ باكورة إنْ أذنتَ لي أخذتُه إلى منزلك، فسأله الشّيخُ عن ثمنه، فأجاب صاحب البطيخ: ثمنُه خمسةُ دراهم فقط، فقال الرّجل: لا بل درهمين، فوافق البائعُ على الثّمن الذي قاله شيخُ التجار، وباعه البطيخ فعلًا بدرهمَين، ثُمَّ حملَه وأوصله إلى داره، وبعدها دعا له شاكرًا وعاد إلى دُكَّانه سعيدًا مسرورًا. فتعجَّبْتُ مِمَّا فعل وقلتُ له: يا هذا، ما رأيتُ أعجبَ من جَهلِك، اسْتَمْتَ عليَّ في هذا البطّيخ، وفعلْتَ فَعْلتكَ الَّتي فعلتَ، وكنتُ قد أعطيتُكَ فى ثمنه خمسةَ دراهم أحملُه أنا على عاتقي، فبِعتَه بدرهمَين محمولاً! فقال الرّجل: اسكتْ يا هذا؛ فإنه يملك مئة ألف دينار! إذنْ بِعتَه لِغِناه، وما ترجو من غِناه أيّها الأحمق، إنّ هؤلاء يركبونكم، ويسومونكم سَوْم الدّابّة، وستبقون عبيدًا، يزدادون هم غِنًى وتكبُّرًا، وتزدادون أنتم فقرًا وذُلاًّ.

تركتُه مُغضبًا، وودتُ لو صفعتُه أو وكزتُه، وعلمتُ حينَها أنَّ الناس لا يُكرِمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مِئةَ ألف دينار، فقلتُ في نفسي: «لأسعيَنّ حتّى تكون مئة ألفِ دينار أقلّ ما أملك». وأنشدتُ:

إذا لَمْ تَجِـــدْ مَـــا يَبْتُرُ الفَقْـــرَ قَاعِدًا
فَقُمْ وَاطْلُبِ الـشَّيْءَ الّذِي يَبْتُرُ العُمْرَا

هُمَـــا خلَّتـــانِ: ثَـــرْوَةٌ أوْ مَنِيَّـــةٌ
لَعَلَّـــكَ أنْ تُبْقِـــي بِوَاحِـــدَةٍ ذِكْرَا

ثُمّ قضيتُ أيّامًا بيضاءَ في بيتِ محمّد بن عبيد الله العلويّ، فأنِسَ بي وأنِسْتُ به، وسلكتُ عنده زمنًا عَذْب المورد، وقد اتّفق لنا ما يدور في صدورنا، وكُنّا نأنفُ رَذْلة القوم، وما يترامَون به على أقدام أهل الجاه، وقد رأيْنا أنّ هذا الأمر الّذي فَسَدَ في هذه البلاد لا يُصلِحه إلاّ السّيف.

(٢)

بغدادُ ليستْ دارًا لك

وماذا يعني أنْ تفارقَ مَنْ تُحِبّ؟ إنّ حياتي كلّها بُنِيتْ على الفِراق، ولم يكنْ لي من وِصال إلاّ معه، ولا حياةَ إلاّ فيه. وغاب العلويّ كذلك في نهر الحياة الّتي غابَ فيها قبلَه كثيرون، ووجدتُ نفسي وحيدًا، وقد نهشني الجوع والفقر كما لم ينهشْني من قبل، وخطرَ في بالي أنّ جدّتي ربّما فكّرتْ بي فبعثتْ لي شيئًا من مالٍ يسدّ الرّمق، أو يقي هذه الحالة من الشّظف، وقلتُ: «أينَ هي وأنا؟» وأسِيتُ لحالها أكثرِ مِمّا أسيتُ لحالي، ولا أدري كيفَ تتدبّر معيشتها هي الأخرى مع ما فعله القرامطة بالكوفة، وما فعَله عُبّاد السّيقان الآدميّة في بغداد.

وأويتُ إلى خَرابةٍ خارج أحياءِ بغداد، بعد أنْ خلتْ دار العلويّ منه، وأغلقتْ أبوابها ولا أدري ما فعل الله به. كانت الخرابة بيتًا قديمًا هدّمه صعالكة أبي طاهر، ورحل أهلُه عنه، وأويتُ إليه شريدًا يتلمّس آثار المُشرّدين من قبله، وكان قد نُهِبَ بالكامل، وبحثتُ عن حشيةٍ ولو بالية من أجل أنْ أنام عليها فما وجدتُ، فنمتُ على التّراب، ووضعتُ تحتَ رأسي حجرًا واتّخذتُه مِخدّة لكي أنام؟ ونظرتُ من خلال السّقف المُهدَّم إلى السّماء، وكانتْ ليلةً ليلاء، غابَ فيها القمر، وبرزت النّجوم فرصّعت القبّة الكُحليّة الّتي تتراءَى منها جمالاً يدفعه جَمال، وهَجَمتْ عَلَيَّ الخواطر والظّنون، فأرِقتُ، وما وجدتُ للنوّم سبيلاً، فهتفتُ:

أرقٌ عـــلى أرقٍ ومثـــليَ يـــأرقُ

وجـــوًى يَزيـــدُ وعـــبرةٌ تترقرقُ

وحاولتُ أنْ أقول البيت الثّاني، فأدفَعَ به القصيدة إلى الأمام، ولكنّه حُبسَ عليّ، طرده الهَمّ، ودفعه رأسٌ يتدهدَى على صخرةٍ يحسبها وسادة. ثُمّ رُحتُ أعدّ النّجوم، فمللت، فانتقيتُ منها ما أسميتُه بأسماءَ حبيبةٍ إلى قلبي، فما ظفرتُ إلاّ بثلاثة أسماء، غاروا كما غارت هذه النّجوم، فقذفتُهم في بئر النّسيان، وردمتُ عليهم، وصرختُ في أعماقي مُغضَبًا: «سأعيشُ وحيدًا وأموتُ وحيدًا». ولم يتحرّك حولي لغضبتي هذه شيءٌ، وبقي كلّ شيءٍ حولي ساكِنًا، فصرختُ صرخةً أقوى من سابقتها: «ثكلتْني أمّي إنْ لم أطعنْ هذه النّجوم وأجعل دمَها يسيل بينَ قدمَي». وضحكتُ هُزئًا بهذه المقولة، فكيفَ تثكلني أمّي وأنا لا أعرفُ مَنْ أمّي، وندّتْ ضحكة أخرى من صميم وجعي وقهري فتداخلتْ مع البُكاء، ورحتُ أبكي وأضحكُ معًا، وأنا لا أدري لِمَ أفعلُ ذلك، وصمتُّ فجأةً، ومسحتُ دموعي، وقمتُ أركلُ كلّ شيءٍ في هذه الخرابة، وقذفتُ بحجارتها المُهدَّمة على ما تبقّى من جدرانها فزدتُها تهديمًا، ورحتُ أهذي، ثُمّ سكنتُ للحظاتٍ، وصرختُ: أبي... أبيييي وما تحرّك في المكان غيرُ صوتي، وخمَدَ الصّوت وعادَت الخرابة إلى الهدوء في هذا اللّيل البهيم، الّذي تجرحُ سوادَهُ نَثَراتٌ فِضّيّة من نجومٍ خلتُ أنّها تبكي لِبُكائي... وشعرتُ بجوعٍ قرصَ معدتي، وتركَ فيها ندوبًا، وندَّتْ منّي آهةٌ حَرّى، ومضيتُ إلى المطبخ، أو ما كان يُمكن أنْ يكون مطبخًا، أبحثُ عن بقايا طعامٍ، فوجدتُ موقدًا صدئًا عَلَتْه الأتربة، فمددتُ يدي إلى بطنه، فعثرتُ على شيءٍ صلدٍ، فأخرجتُه فإذا

هي قِطعةُ حديد، فرميتُها بعيدًا، وأمسكتُ الموقد فنثرتُ ما في بطنه فما سقطَ منه غير التّراب والصّدأ، فقذفتُ به إلى جدارِ المطبخ فعَوى الموقد والجدار ثُمّ سكَتا سكوتًا قاطِعًا، ورحتُ أتابع البحث في زوايا المطبخ، وتحسَّسْتُها فوجدتُها قد نُقِبتْ لتُصبِحَ جحورًا للفِئران، ومددتُ عصًا إلى تلكم الجحور لعلّها تُخرِجُ شيئًا مِمّا أخذتْه الفِئران إلى هنالك، فلم يخرجْ غيرُ الفِئران، ولم أسمع غيرَ صريرها، ورحتُ أملأ يدي من بُرازها وأنثره في كلّ اتّجاه، ثُمّ إنّني شعرتُ بشيءٍ يُخشخش تحتَ قدمي، فنظرتُ إليه، فلم أرَ في الظّلام، غيرَ أنّني انحنيتُ وأمسكتُ بمصدر الخشخشة، فإذا هي كِسْرةُ خُبْزٍ مرّ عليها شهرٌ أو أكثر، غمرتْها الرّياح السّوافي بالأتربة والأغبرة، وبالَ عليها أكثر من مِئة فأرٍ أو زاحفة، ومع ذلك فرحتُ بها فرحًا لم أشعرْ به من قبلُ، فأخذتُها والسّعادةُ تلمعُ في عينَيّ، فنكَتُّ عنها ما عَلِقَ بها من ترابٍ وأوساخٍ، ورحتُ أبحثُ عن ماءٍ أغسلُ به العفن أو روث الهوامّ، فضحكتُ من خاطر الغِنى الّذي جاءني في حالتي هذه: «وأين الماء؟». نفختُ عليها هواءً بارِدًا من شفتَيّ المقرورتَين، وأكلتُها بتلذُّذٍ عجيب. ثُمّ عدتُ إلى حشية التّراب، ومخدّة الحجر ونمتُ نومًا عميقًا.

عشتُ في هذه الخرابة أكثرَ من شهرَين، قطَعَ بي أبي الدّرب، وصاحبي العلويّ فارقني دون أنْ يودّعني، وسمعتُ أنّه انضمّ إلى بعضِ أهل الثّورات والجماعات السّرّيّة، قدّرتُ له شجاعته، ولكنّها عندي شجاعةٌ منقوصة، فلو أردتُ الثّورة لأعلنتُ بها، ولقدتُها مُجاهرةً، أمّا الّذين يتستّرون، وينهبون في غاراتٍ على قومٍ غُفْلٍ فهم في اعتقادي لصوصٌ وليسوا ثُوّارًا.

تحسَّنَتْ أيّامي في الخرابة بعد ذلك قليلاً، والأمر أنّني صرتُ أزور دور الورّاقين فأعمل بها نسّاخًا بعضَ الوقتِ فآخُذَ مقابل نسخي الكتب بعضَ الدّراهم أُسكِت بها الجوع فحسب، ثُمّ أختلفُ إلى مجالس العِلم، فآخذَ ما شاء الله لي أنْ آخذَ من تلك العلوم.

ثُمّ كملتْ لي في بغداد سنتان، وشعرتُ أنّني بلغتُ ما كنتُ أؤمّل منها، وأنّها ليستْ بدار إقامة، قلتُ هذا لنفسي، ثُمّ تساءلت: «أفكانت الكوفةَ دار إقامةٍ لي إذًا؟». ونفضتُ رأسي رافِضًا ذلك، ثُمّ سألتُني: «فأيّ البلادِ هي بلادُ إقامةٍ لي؟». ليستْ لديّ إجابةٌ اليوم، وليكنْ من الزّمان لسانٌ ناطقٌ بخُبري، وعالِمٌ بحالي، والأيّام قادمة.

ثُمّ إنّها ليلةٌ من ليالي الخرابة، إذْ عصفتِ الرّيح، وسفت التّراب، وأطارتِ الأوراق والجذوع، وقلقلت الغبار، وعوتْ ذئابٌ بعيدةٌ، ورغتْ أبعرةٍ لا أدري على أيّ جنبٍ تروح، وأنا جائِعٌ ووحيدٌ، تصطكّ أسناني من البرد، وتخفقُ عليّ ثِيابي من النُّحول. فأويتُ إلى أكثر زوايا الخرابة دِفئًا، وأبعدَها عن مهبّ الرّيح، رجاءَ أنْ تصدّها فتهدأ، فيهدأ معها هذا الجنون، غيرَ أنّ للرّيح شأنًا آخر، أطارتْ بعضَ ما كان في السّقوف، وهدّمَتْه، وسقطتَ أجزاءٌ منه على قَدَمَيّ فردمَتْهما، وآذتْهما، فنفضتُهما من تحتِ الرّدم مذعورًا ورحتُ أجري خارجَ الخرابة، لأهربَ من الموت، فوجدتُني أهربُ منه إليه، كانت الرّيحُ تزمجر في الخارج أكثر منها في الدّاخل، وكانتْ هناكَ أشياء تتطاير لا يقرّ لها قرار تهوي على الأرض مثل الجثث الضّخمة، ثُمّ لا تلبثُ أنْ تطير من جديدٍ، وتهوي بها الرّيح في كلّ مكانٍ.. فعدتُ، وبحثتُ عن موئلٍ أنجو فيه، فَعَزّ عليّ،

ثُمّ صرختُ: يا أبي... أين أنتَ يا أبي...؟ وتكوّرتُ على نفسي لأحمي جسدي ورأسي من رَدْم جديدٍ إذا ما انهال، ثُمّ فجأةً سكنتِ الرّيحُ كأنّها لم تُزجر، وهدأتْ كأنّها لم تَعْوِ من قبل، وبرزَ أبي، فتًى جميلاً مُضيء الوجه، هادِئ السِّمات، وأدار رأسه في دورةٍ عجيبةٍ في الخرابة فسكنَ كلّ شيءٍ فيها، وابتسمَ في وجهي، ولم أُصدّقْ أنّني أراه من جديد، فقمتُ لأحتضنه، فازدادتْ ابتِسامتهُ اتّساعًا، وتلقّاني بذراعيه، فإذا حضنُه أمان، ووجهُه أمان، وذراعاه أمان، ونورُ عينيَه أمان، وإذا هو كلّه أمان، وبقيتُ على هذه الحالة وأنا أحتضنه دون أنْ ينبسَ أو أنبسَ بحرف، ثُمّ بعدَ ذلك هتف: «لم يعدْ لكَ في بغداد حاجة». وكنتُ قد هدأت، وهدأ كلّ شيءٍ من حولي، ثُمّ جلسْنا على حجرَين، وسألتُه: «لِمَ غِبْتَ عنّي كلّ هذه الفترة؟». «أَظهرُ بِقَدَر وأغيبُ بقدر، لكنّني أخشى أنْ يكونَ لقاؤنا هذا هو آخرَ عهدي بك». ونظرَ إليّ بعدَ أنْ كان مُطرِقًا، فشعرتُ أنّه صادقٌ بكلّ حرفٍ قاله، وغمرتْني موجةٌ من الحُزن الشّديد: «لِمَ تتركني يا أبي؟ أيرضيك أنْ أبقى وحيدًا؟». «ستعيش وحيدًا يا بُنَيّ هذا قدرُك، إنّما هُيِّئتْ لكَ كلّ هذه السّنوات لكي يشتدّ عُودُك، وإنّكَ الآن صِرْت قادِرًا على أنْ تستمرّ وحدك». «وأقاتل كلّ هذه الوحوش وحدي؟». «ولن ينتصر عليها أحدٌ غيرُك». «إنّني مللتُ بغداد». «إنّ سنتَين كافيتان، إنّ قدرك ألاّ تقيم في مكانٍ واحدٍ أكثر من هذا». «فإلى أينَ أمضي؟». «إلى حيثُ تجدُ مجدك؟». «وأينَ أجدُه؟». «ليسَ له مكان، عليكَ أنْ تضربَ في الأرض بحثًا عنه؟». «وحدي؟». «وحدك». «فأينَ أرتحل أوّلاً؟». «لا أعرف، كلّ ما أعرفُه، أنّ عليكَ أنْ ترتحل، وتتركَ بغداد، بغدادُ ليستْ دارًا لك ولا لمجدك». «وأنتَ؟». «أنا؟». «نعم». «ماذا بشأني؟». «هل سأراكَ بينَ فترةٍ وأخرى؟». «أخشى أنْ أقول لا، لكنّها لا، يا بُنَيّ

«إنّ هذا آخر عهدي بك». وشعرتُ بطعنةٍ في القلب، وخفضتُ هامتي على صدري، ورحتُ أعبثُ بالتّراب، ولم يُمهلْني أبي في حزني طويلاً، فطعنني من جديدٍ حينَ قال: «غيابي الطّويل الّذي لا يعرف غير الله له عودة، سيكون سببًا في ضياع نسبك». فازداد إطراقي وبُؤسي، ولم أقلْ شيئًا. وأمسكَ أبي برأسي ورفعه إليه: إنّ هذا سيكون أحدَ أسباب مجدك فلا تحزن، إنّهم سيخوضون في نسبك كثيرًا فلا تأسَ لما يقولون، فإنّك ابنُ مَنْ نَجَلَك، وما نجلكَ غيرُ المجد، وما نَسَبَكَ غيرُ الطّموح، وما رَفَعَك غيرُ إبائك، وسيكون هذا مبعثَ قوّة لك، وسيرتقي بك إلى مرتبة الخلود» وسكتَ من جديدٍ، فيما كانتْ عبَراتٌ حارّة تتقاطر على خَدّيّ، ومسحَ بطرفِ ثوبه الأبيض دموعي، وهتف وهو يُحدّ النّظر في عينَيّ: «اكتمْ نسبَنا، ولا تُبدِه لأحد. أنتَ أيّها العالي قد اكتمل لَكَ فصلُ القول، ولانَ لكَ حَزْنُه، وانقادَ لك أخشنُه، وسَهُلَ لك أَمَرُّه، فما أعطت العربيّة من الشّعراء مثلما أعطتْك». وصمتَ هو الآخر برهة، وأطرقَ في الأرض، ثُمّ نظَر إليّ، واقتربَ منّي، فأخذَ رأسي ووضعه على كتفِه، وراحَ يمسحُ عليه بكفَّيه بحنان: «الدُنّيا لمن غلبَ، والضّعيفُ مُحتقرٌ عندَ نفسِه قبل أنْ يكون مُحتقرًا عندَ الآخرين، لا أريدُك أنْ تعيشَ ضعيفًا، حتّى لو أظمتْكَ الدُنيا، ونبحتْك كلابُ الزّمان، ونهشتْك ذئاب الدُّنيا، وحين أرحل لن تكون إلى جانبك سوى قدراتك الحقيقيّة التي اكتسبْتَها بأشطار الدم». وصمت، ثُمّ تركَ رأسي، وابتعدَ قليلاً، وغابَ نصفُ وجهه في الظّلّ، وبدأ نِصفُه الآخَر يَغِيم، ثُمّ اختفى فجأة، فلا أدري أخرجَ من جدار الخرابة، أم صعدَ من سقوفها إلى السّماء!

(٣)

هل مرّ أبي من هنا؟

ضاقتْ عليّ بغدادُ إذًا. فقلتُ أقصد الشّام، ولم تكنِ الشّامُ لتعرفَ قدْري، فهل عرفتْه بغداد؟ ولا أدري أيّ البلادُ ستعرفُ ما أنا؟ ولم يكنْ على مرابع الشّام من الولادة ما يُمكن أنْ يعرفَ ما أنا، غيرَ أنّني نهيتُ نفسي عن الجلوس في بلدٍ، واعتضتْ عنه بالرّحيل، فلستُ من الأحلاسِ، إنّما أنا أضربُ في الأرض على وجهي، كما تضرب الجِنّ أتشمّم موطن السِّقاء، ولا أدري أينَ يحُطّ بِي الرّحل.

وإذًا هو الرّحيلُ، قصدتُ (الرّقّة) أوّل الأمر، ولا أدري لِمَ اخترتُها، شيءٌ ما ساقني إليها، وإذًا ها هي دار المفؤودة قلوبهم المفقوءة عيونهم المسحولة أستاههم، أعني بغداد، تُصبِح خلفي. تزوّدتُ في آخر أسبوع قضيتُه في دار الورّاقين ببعض الطّعام والماء من المال الّذي جمعتُه من النَّسْخ، ومضيتُ ماشِيًا على قَدَميّ، على ظهري كُورٌ من الجلد فيه خبزٌ وتمرٌ وبُرّ، وقربةُ ماءٍ، فأتيتُ (البَرَدان) على بُعدِ سبعة فراسخ من دجلة، من نواحي (دُجَيل)، وكنتُ أحفظُ في الطّريق ما أرى، حتّى إذا ضاعَ الدّليل كان عقلي دليلي، وعينايَ قرطاسًا مُصوّرًا. ولقد عرفتُ فيها (عينَ التّمر) الموضع الّذي دارتْ فيه المعركة، وكان النّصر لخالد بن الوليد، ورأيتُ فيها سيوفًا تتقاتل، وسمعتُ ضبحَ الخيول في

الصّباح، وعلا أُذُنَيّ صهيلُها، وهال رُوعي صليلُ سيوفِها، وهَبّتْ فِيّ حماسةٌ أنْ أدخل المعركة الّتي جرتْ سنةَ (١٢) للهجرة، فأُقاتل فيها إلى جانب خالد، غير أنّني مضيتُ، وكان الشّمسُ تهوي، وأنا لم آكُلْ منذُ الصّباح، فملتُ إلى أحد أديرتها، فإذا فيه أهل العبادة قد فرغوا أنفسهم لها، فجلستُ الأرض، وأسندتُ ظهري إلى حائِطِ الدَّيْر وهو سامقٌ يومئذٍ، ومددتُ يدي إلى الكُور، فأكلتُ خبزًا وتمرًا، ثُمّ أرسلتُ طرفي في البعيد، فأطلّتْ علَيّ من السّور مُتديّرة، فسألتْني عن حاجتي، فقلت: «عابرُ سبيل». فدعتْني إلى أنْ أبيتَ في الدّير فأنفت. ثُمّ غابتْ فما عتمتْ حتّى جاءَ الشّمّاس وهو يفتحُ ذراعَيه من بعيدٍ: «أهلاً بضيف الرّبّ». فقمتُ وتركتُه ومضيتُ دون أنْ أكلّمه. ومشيتُ والشّمس قد غابت، والجوّ قد برد، في مزارع مملوّة بنفسجًا وبهارًا، وبقيتُ أمشي حتّى أظلمَ كلّ شيءٍ، فلمّا وصلتُ إلى (عُكْبَرا) بحثتُ عن موضعٍ أنام، فلم أجدْ إلاّ ساقَ شجرةٍ، فمهدتُ لنفسي الموضع، ووضعتُ الكُور تحتَ رأسي، ولففتُ جسدي بجُبّتي، ونمت.

ولمّا استيقظتِ الشّمسُ، قصدتُ النّاس، فلم أرَ أحدًا، فعلمتُ أنّهم تركوا بيوتهم إلى المزارع وما فيها إلاّ النّساء، وبحثتُ عن أحدٍ يُسمّي لي وجهاءَها أو أهل الأعيان منهم فعييت، فتركتُها، وقصدتُ (القادسيّة) الّتي بين (حَرْبى) و(سامُرّاء) وفيها يُصنَع الزّجاج، ولم أجدْ فيها من أهل الرّأي أحدًا، فقد كانوا أهل صِناعة، فتركتُها، وجعلتُ (باحَمْشا) خلفي، حتّى وصلتُ إلى (سامُرّاء)، وهي مدينة عظيمة، أعني كانتْ عظيمةً، أيّامَ المعتصم والواثق، غير أنّه لمّا قويتْ شوكةُ الأتراك، وغلبوا على أمرها، وتصرّفتْ فيها أهواؤُهم؛ فعزلوا وولّوا كما يفعل

الدّيلم ببغداد وغيرها، آنئذٍ فسدتْ، وعدا بعضُهم على بعضٍ ففنُوا، ولم يبقَ منها إلاّ بيوتاتٌ قليلةٌ، وأهلٌ بائِسون، مع أنّ بناءَها أيّام انتِظامها كان يمتدّ أكثر من ثمانية فراسخ.

ومررتُ (بالملويّة)، ووقفتُ على قبر الإمام الحسن بن عليّ العسكريّ، وقرأتُ الصّلاة، وتذكّرتُ أوّل صِباي مع جدّتي حينَ أرتْني هذا القبر، وما زالتْ كلمتها: «لا تنسَ الجذيمة الّتي أنبتَتْك» ترنّ في مسمعي إلى اليوم. ورأيتُ عددًا من النّاس يطوفون بالقبر، فسألتُهم: «ما تفعلون؟». فقالوا: «نطوفُ بالإمام». «وما ينفعكم هذا الطّواف؟». «البركة». «البركةُ تكونُ في السّيف لا في مثلِ هذا الخَور». وراحوا يحدجونني ازدراءً وخوفًا، وأنا ذلك الغُلام الّذي ما زال في السّادسة عشرة من عمره، ولا يزال نحيل البدن، لا يملك حتّى دابّة عجفاء من أجل أنْ يركبها.

وبقيتُ في مسجد الإمام العسكريّ أيّامًا، جلستُ فيها إلى أهل العِلم، وبحثتُ عمّن أكتبُ فيه قافيةً فيجزيني عليها شيئًا فلم أجدْ، فلعنتُ حظّي، ثُمّ دعاني داعي الرّحيل، فحملتُ كُوري على ظهري، وقصدتُ (كرخَ فيروز) مِمّا يليّ (سامُرّاء)، فأقمتُ فيه يومًا، ثُمّ تركتُه واتّجهتُ غربًا، حتّى وصلتُ إلى (جبلتا) فعملتُ فيها على طَعامِ يومي، وأهلُها بينهم وبين العربيّة بلادٌ، وبحثتُ فيهم عن واحدٍ يحمل في عقله ما أحمل من الثّورة على الظُّلم فعييتُ، فنمتُ في مزارعها، وعلى طُرُقاتها، ولم أجدْ من أهلِها حتّى من غيرِ مُسلِميها من يُضيّفني عنده. ثُمّ ها هو العمر يضيعُ هكذا، وليستْ بي حاجةٌ لأنْ أتردّى من شاهقٍ فتندقّ عنقي، فأموت، إنّما جِئتُ كيفَ أرقى سماءً فأعلو فلا يصلُ إليّ مِن سَقَطِ القوم أحدٌ. ومضيتُ.

ومررتُ في شهري الثّاني على رحيلي من سامرّاء (بالسّودقانيّة) و(بارِمّا) و(السِّنّ)، حتّى وصلتُ بعدَ أنْ كادتْ تُزهَقُ روحي إلى (الحديثة)، فقلتُ أمكثُ فيها حتّى أرتاحَ من تعبِ السّفر، فلقد عاينتُ الموت كلّ يومٍ، ورأيتُ الأهوال كلّ ليلةٍ.

وفي (الحديثة) فراتٌ ونَخْل، وعملتُ في مزارع النّخل أوّل الأمر على طعامِ يومي، ثُمّ لمّا وثق بي صاحبُ المزرعة، ورأى جِدّي في العَمل، ورأى فصاحتي، أعطاني أجرًا مقداره خمسة دراهم إذا عملتُ من مشرقِ الشّمس إلى مغيبها، وكنتُ في اللّيل أخلو إلى بعضِ فتيانها، أسائلهم: «هل عيشٌ كهذا عيش؟». فلم يكنْ أحدٌ منهم يفهم ما أعني، ثُمّ لمّا فتحتُ لهم من الكتاب صفحةً ذُعِروا، وعرفتُ أنّهم ليسوا أولئك الّذين يُمكن أنْ تُخاطَب عقولهم الرّاتعة في الذّلّ بهذا:

ذَلَّ مَـــنْ يَغبِـــطُ الذّليـــلَ بعيشٍ

رُبّ عيـــشٍ أخـــفُّ منـــه الحِمامُ

ولمّا كانتْ أوقاتُ خلوتي، كنتُ أجلسُ على ضِفّة الفُرات، فأتأمّل في مائِه المُنساب، وأسترجِعُ أيّامي في الكُوفة، وتخطرُ جدّتي ببالي خَطَراتٍ فأحنّ إليها، ولا أدري ما حَلّ بها، ولا إنْ كانتْ ما زالتْ في الأحياء. وأمّا أبي، فبدأتْ صورتُه تغيب شيئًا فشيئًا، وصرتُ أعتادُ غِيابه، إنَّ جُزءَه الكامن فِيّ غيرُ جزء جدّتي، فحنيني إلى جدّتي لم يكنْ لأبي نصيبٌ منه، حتّى في الأيّام الّتي أشفيتُ فيها على الهَلاك في أيّامي السّابقة، ما ناديتُه ولا استحضرتُه، ولا استغثتُ به، وأحسبني أراه مبتسمًا الآن إنْ كان حَيًّا وهو يرقبُ ما أفعل بفخر، لقد أرادَني أنْ أعيش وحدي لمجدي،

وأنْ أسعى له سعيًا حثيثًا غير مكترثٍ للأخاديد في الدّروب. ولكنْ أيّ مجدٍ هذا الّذي أبحثُ عنه؟! وساءلتُ الفراتَ تلك اللّيلة عنه: «أيّها الماء الّذي أشكلَ عليّ ماذا أريدُ من زمني هذا؟!». وكانتْ مياهه تسخر من سؤالي، وأسمعها تقول إنّ سعيَكَ هو ما تريدُ، الثّورة، الأخذ بالثّأر، أنْ تملكَ العربَ والعَجَم؟ أفي هذا شَكّ. وسقطتُ في بحر خيالاتي، ونمتُ تلك اللّيلة على الضّفة حالِمًا وحزينًا.

ثُمّ عزمتُ على أُتِمّ هذا المسير الّذي بدأتُه إلى الرّقّة، والوصول إليها يحتاجُ إلى شهرَين أو ثلاثةً، وقلتُ لعلّني أجدُ في الرّقّة بُغيتي، واجتهدتُ في العمل في مزارع (الحديثة) حتّى أجمع المال الّذي يُعينني على السّفر إلى (الرّقّة)، وقلتُ: أتبعُ الماء حتّى أصلَ إليها، ولا أدعُه يغيبُ عن ناظري، وفعلتُ.

غير أنّه لم تمرّ سوى بضع ليالٍ حتّى انقطَع الماء، وتاه الدّليل، فاستعنتُ بالنّجوم عن النّاس في الاهتِداء، ثُمّ قلتُ قبل أنْ أصلَ إلى الرّقّة لا بُدّ من (نَصِيبين) حيثُ كان يقول أبي في غيبته إنّه ينامُ هناك، ولم يدفعْني إلى المضيّ إليها الشّوقُ إلى سَماعِ كلماته، فلمْ تعدْ لي به حاجة، وما دفَعَني غيرُ هذا الضّعف البشريّ والقدر الإلهيّ اللّذَان يقولان لك: «مِن هنا أيّها المُرتحِل الّذي يعرفُ ولا يعرف».

ولـمّـا توجّهـتُ تلقـاء (نَصِيبين) كان لا بُـدّ أنْ أمرّ بقـرًى ظاهرة، وأخـرى باطنـة، بقـرًى يعرفُ أهلهـا أنّهم بـشر، وآخرون يعيشـون لا يـدرون إنْ كان في السّـماء إلـه وفي الأرض إلـه، ومـررتُ أوّل الأمـر بـ (باعيناثـا)، ثُـمّ بـ (برقعيد) وهي ممـرّ القوافـل يومئذٍ مـن الموصل

إلى (نَصِيبين)، وسألتُ بعضَ سيّارتها عن أهل الكوفة، فقالوا إنّ طريقَنا غيرُ طريقهم، وإنّنا لا نقصد الكوفة حتّى نمرّ بها فنخبرك، وركبتُ مع إحدى هذه القوافل السّائرة إلى (نَصِيبين) على أنْ أرعى جِمالَهم، وأعلفَ دوابّهم، وأحدو لقافلتهم، وقد أعجبهم حُدائي، فكانوا يطربون له كما تطربُ الإبل، وماذا غنّيتُ غيرَ صوتي، وهل كان في الصّحراء كلّها غيرُه؟ غير أنّ أهل (برقعيد) هؤلاء لصوص، وقد وطّن صعاليكُها أنفسهم على أنْ ينهبوا كلّ مَنْ مرّ بهم، وقد كانوا إذا ربطَ السّيّارة نُوقَهم إلى الخانات وأمّنوها بالسّلاح من حولها، صعدَ لصوصُهم سطوح الخانات، وأرسلوا كلاليب من حديدٍ، فنشبتْ في أرحل النّوق، ثُمّ يرفعونها، ويأخذون ما صادوه من طعامٍ أو ثيابٍ أو مالٍ. ولم نُقِمْ فيها كثيرًا، فارتحلتُ مع القافلة إلى (أذرمةً)، فأرحْنا على النّهر الّذي يشقّها من أوّلها إلى آخرها حتّى يغيبَ في الصّحراء، ومَنْ أحوجُ إلى الماء منها، وقد دخلْنا عصرًا من بابها القائم يومئذٍ على قنطرةٍ معقودةٍ بالصّخر والآجُرّ، وتمتدّ منه حول المدينة سورٌ يلفّها، وإليه خندقٌ حصين، ولمّا صِرْنا فيها، مضى رئيس القافلة إلى السّوق، ومضيتُ معهم، وفي السّوق يومئذٍ أكثر من مئتَي حانوت، فباعتِ القافلة واشترتْ، وأقمْنا في الخانات أسبوعَين، ثُمّ ارتحلت القافلة وارتحلتُ معها، وفي الطّريق غنّيتُ الإبل لحنًا على الرّمل فرملت، ومضينا سِراعًا إلى (تلّ فراشة)، وقطعتُ أكثرَ الطّريق ماشِيًا فقد كنتُ أتناوبُ الرّكوب على النّاقة أنا وثلاثةُ عبيدٍ. فلمّا وصلنا إلى (تلّ فراشة) أرحْنا فيها ليلةً واحدةً فلم تكنْ فيها سوقٌ للتّجارة، وتركناها إلى (نَصِيبين)، ولمّا أشرفْنا على وُكُناتِ أبي، قلتُ لرئيس القافلة: أتركُكَ هنا، فلي في

هـذه الأرض مـأرب»، فلـمْ يأبَه لقـولي، وما عـرفَ هيأتي حـينَ حدّثْتُه بذلـك، ولـو لا أنّـه عرفنـي من صـوتِي، صـوتي الّـذي لا يُخطِئـه أحدٌ، لبصـقَ في وجهـي. وتركتُ القافلة عـلى مهيعٍ من (نَصِيبيـن)، وهويتُ فأخـذتُ مـن الـتّرابِ حفنـةً فقرّبْتُها من أنفـي وأخذتُ أشـمُّها طويلاً مُغمِضًـا عَينَـيّ، وأنـا أهمـس: «هل مـرّ أبي مـن هنا؟!».

(٤)

أبحثُ عن ظِلّ أبي!

فلمّا دخلتُ المدينة تلقّتْني بساتينُها المُمتدّة، وبرّدتْ نسائمُها المُنعِشة قلبي، وهممتُ أنْ أهمسَ بصوتِ أبي، فكففت، غير أنّه لو ظهر لي، لم أكنْ لأقول له إلاّ: «كيفَ أنت؟ أنا مُشتاقٌ إليك فهل أنتَ مُشتاقٌ إليّ؟». ومنعتُ نفسي عن ضعفي، فإنّ الشّوق ضَعف، وإنّ سروري برؤية أبي قليلٌ إلى غمِّه باستسلامي إلى نوازعي.

غيرَ أنّ (نَصِيبن) - على بساتينها الّتي تخضلّ بالماء - كثيرةُ العقارب، ولقد رماها (كسرى أنوشروان) حينَ أرادَ أنْ يفتَحها، وامتنعَ عليه سورُها بقوارير، يملأ القوارير بالعقارب السّامّة، ثُمّ يرميها بأشباه المنجنيق، فتنقذفُ من أعلى السّور، وتنكسر في قلب المدينة، فتخرجُ العقارب من القوارير آلافًا مُؤلّفة، وتسير في الطّرقات بين سيقان النّاس، فأشاعتِ الذّعر والرّعب في القاطنين، وقتلتْ عددًا كبيرًا من السّاهين، حتّى ضَجّوا واستسلموا، غيرَ أنّ كسرى لمّا دخلَها فاتِحًا لم يستطعْ أنْ يتخلّص من عقاربها، فقد تكاثرتْ حتّى صار لها تلٌّ كبيرٌ تأوي إليه يُسمّى (تلّ العقارب).

ثُمّ خرجتُ أبحثُ عن ظلّ أبي، فمررتُ (بدير مار يعقوب) القديم، وفيه ضريح القِدّيس (مار يعقوب)، وقالتْ لي مُتديّرة جلستُ إليها: إنّ القدّيس (مار يعقوب) هو شفيع (نَصِيبين)، وإنّه يأتي يومَ القيامة شفيعًا للمؤمنين به، ومَنْ يدري، إذا كان هناكَ شفعاء غيرُه.

ومكثتُ في الدّير شهرًا قرأتُ كلّ ما في مكتبته من رقوق، حتّى أتيتُ على أكثرَ من مئة رَقّ، كلُّها في علومهم، وفي لاهوتهم، وفي اختِلاف أحبارهم في رَبّهم، وخرجتُ شاكرًا المُتديّرة الحسناء على أنّ الدّير قَبِل لي بالمبيت والطّعام والشّراب، ورَبَّ لي نعمةً إلى كلّ ذلك؛ أنّه فتَحَ لي رُقوقَ رُفوفِه.

ثُمّ إنّي تركتُ الدّير أبحثُ عن ظلّ أبي، فدخلتُ مسجدًا قيل إنّه بُنِي في زمن عُثمان بن عفّان، فلمْ أجدْ أبي فيه، غيرَ أنّ الشّيخ الّذي كان يُدرّس القرآن قال لي: «إنّ أبا القاسم الّذي بُعِثَ إلى هذه الأمّة هو شفيعُها، ولا تُرتَضَى شفاعةُ سِواه». ولم تكنِ الشّفاعة غايتي، كانتْ غايتي ظلَّ أبي والرّقوق، فاقترحتُ على الشّيخ أنْ يُعطيني مفتاح مكتبة المسجد على أنْ أنظّف له السّاحة والبهو والفناء والكُنُف، فسارعَ في القبول، فمكثتُ شهرًا قرأتُ فيه مئة رَقٍّ من رقوق المسجد، وقيل إنّ المصحف الّذي بعثَ عثمانُ به إلى الأمصار استقرّ بعدَ رَحَلاتٍ كثيرةٍ هنا، وإنّه هو هذا الّذي يقرأ فيه الشّيخ كلّ ليلة جمعة، ولا أدري إنْ كان ذلك حَقًّا أم وهمًا من أوهام النُّقولات الّتي لا يُعرفُ لها لبّةٌ من كفل.

وخرجتُ بعدَ ذلك الشّهر من خدمة المسجد أمشي وحدي، أبحثُ عن ظلّ أبي، حتّى أتيتُ أرضًا مُنبسطةً ذاتَ رملٍ ناعمٍ، فيها

بيوتٌ قديمةٌ لا يُدَرى إنْ كانتْ بيوتَ أهل السّريان أم بيوت أهل الرّومان، ولكنّها خاليةٌ يصفرُ فيها الهواء، وكانتْ معدودةً تكاد تكون بضعةَ عشرَ دارًا فحسب، كأنّه لم يُبنَ غيرُها، أو لم يبقَ مِمّا ابتلعتْهُ الأرض في نازلةٍ سواها. وكان خلفَها بمسافةِ فرسخٍ على الأقلّ جبالٌ عريضةٌ متسلسلةٌ عاليةٌ لا يُرى ما خَلفَها. فأتيتُ هذه البيوت الحجريّة، فرأيتُ جدرانها سميكةً كأنّها صخورٌ مركوزة، واقتربتُ منها أكثر فإذا عليها نقوشاتٌ ليستْ سريانيّة ولا عبرانيّة ولا آراميّة وقد كنتُ عرفتُ شيئًا من هذه اللّغات من قبلُ، وليستْ عربيّة بالطّبع، فتحسّستُها بأصابعي، فإذا أصابعي تُضيء، وإذا هو صوتُ يُدمدِمُ خلفي، فارتعتُ، ونظرتُ فلم أرَ أحدًا، فعرفتُ أنّها ديار أبي. فقلتُ أنام ثلاثَ ليالٍ حتّى أراه في يقظةٍ أو منامٍ، أو أسمعَ صوته، ولن أرحل من هنا إلاّ بإشارةٍ منه.

في اللّيلة الأولى سمعتُ عزيفًا لم أشكّ للحظةٍ أنّه عزيفُ الجنّ، ورأيتُ من بعيدٍ في السّاحة الوسيعة أمام هذه البيوت نارًا مُوقدة، فتجارأتُ وأتيتُها، فرأيتُ عجبًا؛ قومًا يتحلّقون حول النّار يقرؤون من صُحُفٍ في أيديهم، وهم يهتّزون على إيقاع ما يقرؤون، وكانوا يلبسون جُبَبًا سوداء ذاتَ قلنسواتٍ مُدَبّبة تتهدّل على رؤوسهم، وهم يُعطونني ظُهورهم فلا أرى من وجوههم شيئًا، فنظرتُ إلى الجزء المقابل من الحلقة وفؤادي يرتعشُ بينَ أضالِعي محاولاً أنْ أرى وجوه القوم هنالك، فلَمْ أرَ إلاّ سوادًا لا يتبيّن الرّائي إليها وجوه أصحابِها، وأردتُ أنْ أقتربَ أكثرَ فعلا صوتُهم، وعَظُمَ دبيبُهم، فعرفتُ أنّه عَليّ أنْ ألزمَ مكاني، ثُمّ رحتُ أستمع إلى أناشيدهم، فإذا فيها صوتي، وشعرتُ أنّ لحنَها معجونٌ من

كلماتي، فأغمضتُ عينَيّ، وأخذتُ هواءً حارًّا عميقًا، ثُمّ أخرجتُه، وأنشدتُهم، فما عتَموا حتّى رَدّدوا ورائي ألحاني، حتّى إذا انقضى أكثرُ اللّيل، انطفأتِ النّار فجأة، ونظرتُ إلى الحلقة فلم أرَ أحدًا، وذابوا في الأرض أو طاروا في السّماء كأنّهم لم يكونوا هنا قبل قليل، ولا سمعوا صوتي، وشعرتُ للحظةٍ أنّ خيالي هو الّذي اخترعهم، وشككتُ في أنّني رأيتُ شيئًا، واقتربتُ بحذرٍ إلى موضع النّار، لعلّي أجدُ رمادًا مكانَ انذوائِها، فما وجدتُ شيئًا غيرَ التّراب، وزادَ ذلك شَكّي، ولفحتْني هَبّةٌ من ريحٍ شديدة، فأحطتُ جذعي بذراعَيّ، وأردتُ أنْ أقول شيئًا، ولكنّني لم أفعلْ، وعُدتُ إلى البيوتات الخالية، وانتظرتُ يومَين آخَرين، فما رأيتُ شيئًا، ولا سمعتُ أحدًا، وعندئذٍ قلتُ: «هذا يكفي، إنّ هذه البيوت الخالية لن تُطعمني من جوع، ولن تَرويني من عطش»، وعزمتُ على الرّحيل إلى (الرّقة)، فقد طالَ مسيري إليها.

ومضيتُ، فإذا الأرضُ تُرحّب بي على غير عادتها، وكأنّها ألِفَتْني، أو ألفتُها، ولا أدري إنْ كان صَفْقِي عليها بأقدامي، وَطّأ لهذه المودّة الّتي لا يُدرَى بها إلاّ أنْ تُعَاش. وماذا على ظهري غير كُوري إلى حبلٍ أثّر في عاتِقي، وأسِيتُ أنّ عاتقي لا يحملُ سيفًا، وأنّ جذعي لا تحمله دابّة، وتذكّرتُ قول الأحيمر السّعديّ:

وإنّي لأَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ أنْ أُرَى
أُجَرِّرُ حَبْلاً مَا إِلَيْهِ بَعِيرُ!

وما ينفعُ الأسى مثلي، وأنا لا أنيسَ ولا رفيق ولا دار ولا أهل، وإنّما يُشيّعني قلبي، وتؤنسني كلماتي؟! ومررتُ (بدارا)، وقد دارَ على أهلها الزّمان، فما أقمتُ فيها إلاّ لأُريحَ هذا الجسد من سَفَرٍ يطول، وترحالٍ لا ينبَتّ، ثُمّ مضيتُ إلى (ماردين)، وقد رَحّب الشّمال بي، فكان في بساتينها من (نَصِيبين) شَبَه، وانتظرتُ قافلةً في الطّريق تحملني إلى (الرّقّة)، فعييتُ أنْ أجدها، ولم ألتقِ غيرَ بعضِ عابري السّبيل الّذين كانوا إذا عاينوني أشفقوا على هيئتي، وقال بعضُهم في سِرّه: «إنّه هامةُ اليومَ أو غدًا، كان الله في عون هذا الفتى المِسكين». وأنا أحتقر نظَرات الشّفقة الّتي في عيونهم، فما أستجلبُ من أحدٍ شفقة، ولا أنتظر من أحدٍ خيرًا، ولا أدعُ لأحدٍ عليّ يدًا، وإنّي ماضٍ حتّى أبلغ ما أريد، أو أموتَ دونه.

ونظرتُ والشّمسُ تتخلّل عذوق النّخل وقد مالتْ إلى الغروب، فرأيتُ نساء (ماردين) البَضّات، وهُنّ يرفلنُ في حُلَل الجَمال، وقد انحنَين على الزّرع يحصُدْنه، وما لي في النّساء مأرب، فإنّ مآربي لا يعلم سِرّها سِواي، ولكنّ العين تعشق قبلَ الأذن، ومضيتُ حتّى أتيتُ (دارا كفرتوثا)، وأويتُ إلى مسجدها أطلبُ بعضَ الرّاحة لجسدٍ لا يريدُها، وعقلٍ يحثّني على ألاّ أقيم حتّى أرى. فما وجدتُ في المسجد غير العجائز، وما كانوا يُتِمّون صَفًّا واحِدًا، فعلمتُ أنّ الدّين في هذه البلدة يعيشُ خارجها، ومضيتُ حتّى رأيتُ العيون الخمسة الّتي تُشكّل نهر (الخابور)، ورأيتُ شَجَره يتثنّى دلالاً على إيقاعِ نسائِمه، ولا أدري إنْ كانت (الفارعة) قد عنت الشّجر هذا حين رثتْ أخاها بقولها:

أَيَا شَجَرَ الخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا

كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ؟!

وفي (الخابور) أكلتُ من شَجَرِه ما تساقطَ من ثَمَرِه، فكنتُ أحملهُ فأغسلُه في النّهر، ثُمّ أُعرّضه للشّمس حتّى يجفّ، ثُمّ آكله، ولقد اشتهيتُ الخبزَ فلم أجدْ معي درهمًا واحِدًا أشتري به نصفَ رغيف، وأقمتُ في المخاضَة أوساط النهر، أُعَرِّضُ ساقَيّ النّحيلتَين لمائِه علّها تحبسُ سمكةً، أو أظفر بها، فأشويها على النّار، فما وُفِّقْتُ إلى ذلك، فقلتُ في التّمر الجافّ عِوَض، ويفتح الله على ما قَدّر، ثُمّ مضيتُ بعدَ بضع ليالٍ.

وخَلَتِ الطّرُقُ من النّاس، وما الرّسالة إذا لم تكنْ إلى قوم، وإنّني لأبحثُ عن الفِتْيان فأعثرُ على الشُّيوخ، وعلى العقول فلا أَجدُ غيرَ الأجساد، وعلى الهمم فلا يتقحّمني غير العجز، ثُمّ إنّني إذا وجدتُهم، رأيتُهم ضِعافَ الرأي، ثِقال الجُثُوم، قليلي الحيلة، كأنّما ينتظرون مرّ الأيّام ليكبروا، ولا يتحرَّون غايةً أو يشتاقون إلى راية، وهذا مِمّا ابْتُلِي به شباب زماني، وهل فَتْكةُ الزّمان إلاّ بالشّباب؟ ولكنْ أينَ هم منّي وأينَ أنا منهم؟

وسحبتُ ذيولي، ومضيتُ، فوصلتُ إلى (الرّقّة) بعدَ مسيرةِ أربعةِ أشهرٍ فيما سَبقَها، وقد تبدّلتِ الأحوال، وما زادَني تتابُعُ الأهوال، ومُعاقرة الوحدة إلاّ صمودًا وعنادًا، وسبقًا إلى كلّ شريفٍ من الأعمال جليلٍ من الغايات.

أقمتُ في (الرّقّة) نحوًا من ثلاثة أسابيع، ولقد وجدتُ فيها أهل عِلمٍ، فجلستُ إليهم وناظرتهم، فما استساغوا مُناظرتي، فأمّا مردّ ذلك فإلى نحولي، فقد حَدَجَتْني العيون بسؤال أظهرتْه قُلوبُهم وإنْ لم تَقُلْه ألسنتُهم: «ما هذا الصّعلوك؟». وثاني هذه التّقالّة أنّني غريبٌ، وكلّ غريبٍ منبوذٌ، فكيفَ إذا بَذَّ أهل معرفتهم، وكلّ غريبٍ نفيس، وكلّ غريب وحيد، وقد كنتُ ذلك كُلّه. وعشتُ فيها على خُبزِ الشّعير، آخُذُ نصيبي منه من دوابّهم على سِقايتها، وأطحنه بمطحنةٍ من حجرٍ صنعتُها، وأعجن الطّحين وأخبزهُ، وآكلُ على ما أخبز ثلاثَةَ أيّام. فلمّا رأيتُ أنّه ما في (الرّقّة) من العرب الأقحاح، ولا حتّى من ذوي السُّلطان العادل مَنْ أُلقِي بين يدَيه كلماتي، عرفتُ أنّه لا بُدّ من الرّحيل، فحدّثْتُ نفسي به، ومتى أيّها الفتى لم تُحدّثْ نفسكَ بذلك؟

ولمّا بدَأ الصّيف يُولّي، والخريفُ يُطلّ برأسِه، وأنا في تلك الدّيار الشّماليّة، قلتُ أمضي، فإنّ الغاية (منبج)، وإنّ فيها رجالاً أتوسّم أنْ أجدَ عندهم شيئًا من ضالّتي، فعبرتُ أوّل الأمر إلى (دوسر) وهي قرية قرب (صِفّين) على الفرات، فأقمتُ فيها يومَين، ثُمّ ارتحلتُ إلى (داقين)، ولاحَ من بعيدٍ جسرُ (منبج)، فقلتُ أبيتُ على مقربةٍ منه، ثُمّ أعبره يومَ يقوى جسدي على المُضِيّ، ولقد كان؛ عبرتُ الجِسْرَ، وفي القلبُ لحنٌ غامضٌ بوعدٍ أشدّ غموضًا، فما مرّتْ ليلةٌ صافية حتّى كنتُ في وسطَ (منبج)، وهناك أنخت!

(٥)

مَنْ صَعّرَ خَدّه لي أَخَذْتُه بالسّيف

و(منبجُ) طيّبة الهَواء، يُستَشفَى بها من العِلَل، ولقد شَفَتْني وشَفَتْ صدري، «وهي بُرّة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء في فيافٍ فِيح بين قيصومٍ وشِيح»، وهي مَنبِتُ الشّاعر البُحتريّ، الّذي قال له أبو تمّام لمّا سَمِعَ منه شِعره: «نُعيتُ إلى نفسي»، وما لي ومقالته فيه، فإنّما جِئتُ إلى هذه البسيطة من أجل أنْ ينعى كلّ شاعرٍ إليَّ نفسَه، من أهل الحضر والوبر والمدر، ومن شعراء الغابرة في الجاهليّة، وشعراء هذا الزّمان، وكلّ زمان. لقد كان لي مع البحتريّ هذا قِصّة، لولا أنّ أهل الحسد سيكذّبونها لأخبرتُ بها، ذلك أنّني لمّا قرأتُ قوَله:

وما النَّــــاسُ إِلَّا واجِدٌ غَـــيْرُ مَالِكٍ
لِمَــــا يَبْتَغِــــي أَوْ مَالِكٌ غَـــيْرُ وَاجِدِ
وَلَمْ أَرَ أَمْثَــــالَ الرِّجَـــالِ تَفَاوَتَـــتْ
إِلَى الفَضْلِ حَتَّى عُـــدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ
وَلَنْ تَسْــــتَبِينَ الدَّهْـــرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ
إِذَا أَنْـــتَ لَمْ تُدْلَلْ عَلَيْهَا بِحَاسِـــدِ

قلتُ لأحفظنَّ كُلّ حرفٍ قالَه، فما مضى شهرٌ حتّى حفظتُ كلّ ما كتب. ولقد قرأتُه على أهل البادِية مِمّنْ كانوا يوقّرونه في أنحاء تدمر من الجِنّ حتّى أقرّوا لي بذلك، فلو أنّ عاقِلاً قال كيفَ تحفظُ نحوًا من ستّة عشر ألف بيتٍ في شهر، فقل لهم إنّه أحمدُ بن الحُسَين!!

أوّل ما لقيتُ من أعيان (منبج) سيّد بني كِلاب (سعيد بن العَبّاس)، ولقد اجتمعتُ في إيوانه بعيون بني كلاب، فرأيتُ شبابًا مُتوقّدًا، وحزمًا عضبًا، فأضمرتُ في نفسي أنْ يكونوا عُدّتي، فقلتُ أقول في سيّدهم ما يُرغّبهم فِيّ، فإنّ آلةَ القول الّتي أُديرها على ما لا يقدر أحدٌ أنْ يديرها على مثل ما أفعل ستقع في قلوبهم فيتبعونني، وعلى هذا أجمعتُ أمري، وهتفتُ في جمعهم بالقصيدة الّتي أقول فيها:

أَيقَنتُ أَنَّ سَــعيدًا طالِــبٌ بِدَمي
لَمّا بَــصُرتُ بِــهِ بِالرُمــحِ مُعتَقِلا
وَأَنَّنــي غَــيرُ مُحصٍ فَضــلَ والِدِهِ
وَنائِــلٌ دونَ نَيــلي وَصفَــهُ زُحَلا
قَيْــلٌ بِمَنبِــجَ مَثــواهُ وَنائِلُــهُ
في الأُفقِ يَســأَلُ عَمَّن غَيرَهُ سَــأَلا

فارتاحَ لي هو وقومُه، فأكرمني، وبقيتُ عنده مُدّة أرفلُ في ثياب النِّعمة، وأُهديت إليّ سرابيل، وأغدِقتْ عَلَيّ مكرُمات، فكان هذا أوّل تغيُّر حالي من شظفٍ وفقرٍ نحَتا في أثلةِ جسدي.

وشهدتُ معه مجلِسه، أُحدّثه بما حفظتُ من أشعار الأوّلين والآخِرين، وأنثر بين يدَيه سِهام البَيان، فملأه العَجَب، وقُصِّبَ طرفُ كُمّي بذلك، ثُمّ خلوتُ إلى شبابِ بني كَلاب، فأخذتُ أرى ما تنطوي عليه ضمائرهم، فإذا هُمْ مثلي على النِّقمة على ما تهدَّم من أُسِّ الخِلافة، وما تناثر من سُلطانها في أيدي السُّوقة، ووجدتُ عندهم أُذُنًا واعيًا وقلبًا شهيدًا. فجمعتُ حولي منهم عددًا، كُنّا نركبُ إلى الفُرات مُدّة ضُحًى، فنجلسُ على ضِفافه، وأسمعُ منهم ويسمعون منّي، فملكتُهم بسِحر القول، وخلبتُ ألبابهم بُحسْنِ السّمت، وأخذتُهم بصائب الرّأي، وحُجّة المنطق، فقالوا: «علامَ عزَمْتُ؟». فقلتُ: «إنّ الأمر جِدّ، ولكنّ الوقتَ لم يحِنْ». فقالوا: «نحنُ يُدك». فقلتُ: «أنتم كذلك».

ثُمّ تركتُ السُّلطان، فأتيتُ في بعضِ ربض (منبج) بني أوس، فرأيتُ شموسًا طالِعة، ورأيتُ شبابًا يتحرّقون إلى القِتال، تدفعهم شهوةُ النّصر، فقلتُ لمحمّدهم الأكبر فيهم ما بدأتُه ليلةَ أرقي في بغداد من زمنٍ بعيد:

أَمّا بَنو أَوسِ ابْنِ مَعْــنِ ابْنِ الرِّضَا
فَأَعَزُّ مَــن تُحــدَى إِلَيــهِ الأَينُقُ
كَــبَّرتُ حَــوْلَ دِيارِهِم لَمّــا بَدَتْ
مِنها الشُّــموسُ وَلَيسَ فيها المَشرِقُ

فوجدتُ في شبابهم ما وجدتُ في شباب بني كلاب، فحدَّثْتُهم بأمري، فتردّد منهم عُصبة، وإنّ الغريب لتُصَعّر له الخدود إلاّي، فإنّ مَنْ صَعّرَ خَدّه لي أخَذْتُه بالسّيف ولا أُبالي، وإنّ أمرًا أريدُه لا يستقيم

معه تردّدٌ، فإمّا عَزمٌ حتّى البلوغ، وإمّا موتٌ يكون فيه حَزُّ الحلاقم. فما زِلتُ فيهم أُدير رأيي، بما ملكتُ من سِحر الحروف، حتّى لانَ بعضُهم، وقالوا: «نحنُ لك». فقلتُ: «الأمر ليس اليوم، وإنّما هو غدًا، وإنّ غدًا لناظره قريب».

ولقد رأيتُ من ذوي السُّلطان ترحيبًا أوّل الأمر، ثُمّ نُكوصًا بعدَ استِخبار، فإنّ مَنْ نفذَ إليه شيءٌ مِمّا انطوتْ عليه نفسي لن يُدبر عنّي فحسب، فهذا أهونُ الأمر، وإنّما سيُقاتلني حتّى يرى دمائي تُخضّب سيفَه، وإنّني أُدرِكُ أنّ ما عَزَمتُ عليه، هو خَضْبُ الدّم على أيّة حال، سواءً أكان على سيفي أم على سيوفهم.

ثُمّ إنّني اشتريتُ بما نلتُ على قصائدي الّتي قلتُها في الأميرَين سيوفًا وخيولاً وبعضَ الدّروع، وجمعتُ شباب بني كلاب، فكُنّا نخرج مسافةَ فرسخين إلى الفُرات، بعيدًا عن الأعين، ويأتي كلّ مُستطيعٍ منهم بخيلِه وسِلاحه، فنتدرّب على فنون القِتال، ولقد كانتْ لكلماتي السّطوة الّتي ضربتْ بها سيوفهم، وطعنتْ بها رِماحُهم. فكان بيتٌ من قولي:

أَسَـــدٌ دَمُ الأَسَـــدِ الهِزَبْـــرِ خِضابُهُ

مَوْتٌ فريـــصُ المَوْتِ منـــه تُرْعَدُ

أشدَّ في إلهاب حماستهم من بناتِ طارق.

ثُـمّ تركتُهـما، أعنـي الأميرَيـن، فلـم يكـنْ لأحـدٍ علـيَّ يـدٌ، ولم أكـنْ أسـتأذن في أنْ أنـصرف، ولا أسـتأذن في أنْ أقـول في سِـواهما، فأتيـتُ (علـيّ بـن أحمـدَ الطّائـيّ)، فنقّبـتُ عـن عروبتـه، وفتّشـتُ

بالكلمة عن مروءته، وحدَّثْتُه بمادّة الفتوح، الجنس العربيّ الّذي بسطَ سُلطانه وعدله على هذه البلاد، فأنشدتُه:

أَلا أَيُّها القَيلُ المُقيمُ بِمَنبِجٍ
وَهِمَّتُهُ فَوقَ السِماكَينِ توضِعُ
أَلَيسَ عَجيبًا أَنَّ وَصفَكَ مُعجِزٌ
وَأَنَّ ظُنوني في مَعاليكَ تَظلَعُ
وَأَنَّكَ في ثَوبٍ وَصَدرُكَ فيكُما
عَلى أَنَّهُ مِن ساحَةِ الأَرضِ أَوسَعُ
وَقَلبُكَ في الدُنيا وَلَو دَخَلَتْ بِنا
وَبِالجِنِّ فيهِ ما دَرَت كَيفَ تَرجِعُ

فاهتزّ اهتزاز العصفور بلّله القطر، وصاحَ حتّى فَضّ عنه هيبة المُلك، ودعا بما وعتْ خَزائنُه، فنثرَ أنفَسَها بين يدَيّ، وقال: «إنّ هذا القول لا تقدرُ عليه إلاّ الجنّ» فلم أُدِرْ طرفًا إلى ما رمى، ولم أحنِ جذعًا إلى ما ألقى، وغمزتُ أحدَ فتياني، فوعاها في كِساءٍ، وخرجْنا.

ثُمّ قلتُ في نفسي: «لم أُبعَثْ إلى منبج، لأقيم فيها إقامة المُخدَّرة المَصُون، وإنّما هي بلدٌ، وبلادُ الله كثيرة، وإنّ لي في سواها مُنتَجَع». فعزمتُ على أنْ أمضي إلى بلدِ الزّيتون (طرابلس)، فإنّها بوّابة اللاذقيّة، واللاذقيّة غاية، فمضيتُ على ناقةٍ تخدو الرّسيم، ولم يكنْ معي يومَها من المال إلاّ ما يُمكّنني من شرائِها، فقد أنفقتُ أكثرَ ما اكتسبتُ على شبابِ طَيِّئ وكلاب، وإنّ المال إذا ذهبَ في العُدّة بقي، ولن أُنفقَ منه إلاّ ما خَدَم رِسالتي، ونهضَ بما نَشَّأتْني عليه جَدّتي.

ورملتْ بي ناقتي وأنا أحدوها جنوبًا، أمرُّ بالقُرى فلا أجدُ شبابًا كشباب منبج، وأبيتُ في الخانات على ما ادّخرتُ من دنانير، غيرَ أنّني ما كدتُ أقطعُ الطّريقَ نِصفَها حتّى نفد ما معي من مال، ولم يعدْ معي غير النّاقة، وقد أعياني السّفر والجوع والعطَش، حتّى فكّرتُ أنْ أبيَعها، غيرَ أنّني تذكّرتُ أيّام كانتْ ناقتي نعلي، أمشي حافِيًا تنهشُ صخور الأرضِ باطنِ قدَميّ، ويُجرّح شوكُها لحمَهما:

لا نَاقَتِـــي تَقْبَـــلُ الرّدِيـــفَ وَلا

بالسّـــوْطِ يَـــوْمَ الرّهَـــانِ أُجْهِدُهَا

شِرَاكُهَـــا كُورُهَـــا، وَمِشْـــفَرُهَا

زِمَامُهَـــا، وَالشُّسُـــوعُ مِقْوَدُهَـــا

فقلتُ: «لا أبيعها، ولو مِتّ جوعًا، وإنْ بلّغتْني غايتي سأُشبِعها على ذلك قبل أنْ أشبَعَ أنا». فمضيتُ بها آكُلُ مِمّا أجدُ في الأرض. وعادَتْني كُرَب الزّمان، فكأنّ حوادثه مُولعةٌ بي.

فلمّا وصلتُ إلى (طرابلس) بعدَ لأي، في ليالٍ صعبةٍ لم أجدْ فيها ما أطعَمُ غيرَ هِمّتي، جِئتُ إلى بلدٍ يستحمّ على البحر، يأتيها رِزقُ ربّها من كلّ مكان، مقصدُ القوافل، والسّفن، والتّجارات الكبيرة، والنّعمة فيها ظاهرة، فلمّا مرّتْ لي فيها أيّامٌ، أتيتُ عُبيدَ الله بن خِلِّكان، وكان صوتِي قد سارتْ به الرُّكبان، فبسطَ لي رِداءه الرّحب، فأنشدتُه:

إِنْ تَرْمِني نكَبــاتُ الدَّهرِ عَن كَثَبٍ
تَرم اِمــرَأً غيرَ رِعديــدٍ وَلا نكِسِ
يَفدي بَنِيــكَ عُبَيدَ الله حاسِــدُهُم
بِجَبهَةِ العَيْرِ يُفــدى حافِرُ الفَرَسِ
أَبــا الغَطارِفَــةِ الحامــينَ جارَهُمُ
وَتارِكي اللَيثِ كَلبًــا غيرَ مُفتَرَسِ

فنزلَ عن كُرسِيّه، وتقدّمَ إليّ وعانقني، وقال: «أمنتَ نكبات الدّهر أيّها الفتى، وإنّكَ لتحُلُّ في مرتعٍ خصب». وقد كان.

(٦)

الدّمُ يَحِنُّ إلى الدَّم

وحَدّثْتُ فتيان (طرابلس) بما حَدّثْتُ به فِتيان (منبج)، فلم أجدْ عندهم ما أبتغي. وعرفتُ أنَّ أهل البحر أهلُ راحةٍ ينشغلون بالفلسفة إذا كانوا أهل رأي، وبالتّجارة إذا كانوا أهلَ مالٍ، وما لي وما لهما، فإنّني حالفتُ السّيف على أنْ ينصرني، فمَنْ حملَ سيفَه إلى سيفي كان منّي، ومن تعتّقَ بسِواه تركتُه إلى سِواه.

ولم أُقِمْ فيها غيرَ بضعة أيّام، وعزمتُ على المسير إلى (اللاذقيّة)، وكنتُ لا أزال أذكرُ كيفَ قُتِلَ الخليفة المُقتدر، وكيفَ يلعبُ بالخلافة الخدمُ والجواري، وقلتُ خلافةٌ تُساس من غير العرب لا يُمكن أنْ تدوم، وإنّ هذا الأمر الّذي استخفَّ به الأتراك والدّيلم والسّفَلة لا بُدّ أنْ يوضَع له حَدّ، غيرَ أنّني أبحثُ عن النّصير وقد عَزّ، وأسعَى إلى جمعِ العربِ تحتَ رايةٍ واحدةٍ وإنْ كان مُحالاً، ولكنْ مَنْ قال إنّ العُظَماء يعترفون بالمُستحيلات، ومَنْ يشكّ أنّها إنّما خُلِقتْ لهم كي يَفْرُوها. فقلتُ أذهبُ إلى التّنوخيّين في (اللاذقيّة) فلعلّني أجدُ عندهم أو عندَ فِتْيانهم ما أُراكِمُ به عُدّتي، وإنّ لي بهم نَسَبًا، وإنّ الدَّم يَحِنّ إلى الدّم. وعلى هذا مضيت.

بِعْتُ النّاقة، واشتريتُ خيلاً، والخيلُ على السّاحل تقطعُ ما لا تقطعه النّاقة. شددتُ السَّرْج على حِصاني الأشهب، ثُمّ عدَوْتُ به عَدْو النّاقِم، وركضتُ به ركض الفارس الهاجِم، حتّى وصلتُ إلى طَرطُوس، فأرحْتُ فيها، فوجدْتُني غريبًا، كأنّني نزلتُ في بلادِ الرّوم، ولم أجدْ فيها إلاّ قليلاً من العرب، فشدَدْتُ الخِطام أنهبُ الأرضَ نهبًا، من مشرق الشّمس إلى مغربها، ثُمّ أُرِيحُ على البحر، آكُل ما في الجِراب، وأنام في الخانات المُنتشِرة على الطّريق، حَتّى وصلتُ إلى (بانْياس)، فلمْ أدْخُلْها، وتركْتُها أقطعُ الأرض، وأنا أضوى وخيلي تضبح، حتّى وصلْتُ بها إلى (جبلة) بعدَ بضعِ ليالٍ. فدخلْتُها، وقلتُ إنّ (اللاّذقيّة) على بُعدِ فراسِخَ من هنا، وإنّني صرتُ قريبًا. والغاية الّتي هي ألفُ غاية صارتْ على مرمى كلمةٍ في هذه الطّريق الّتي لا تنتهي. نمتُ في خانٍ وَسِخ، يعلو في فِنائه ثُغاء البهائِم، وتفوحُ من جُدرانه روائح الزّبل والدّوابّ لِقاءَ خمسةِ دراهم، ولم أَنَمْ تلك اللّيلة، وخَطَرَ أبي ببالي للحظةٍ فطردْتُ الخاطر وتسلّيْتُ باستِظهار أشعار امرئ القيس حتّى ابْيَضَّ سوادُ الجُدْران، فقُمتُ، فشددتُ على الأشهب، وخرجتُ أبغي الغاية. أتركُ خلفِي الزّمان والمكان والنّاسَ والحجارة والسُّهول والحُزُون، حتّى كدتُ أتلفُ أنا وحِصاني من الدَّأَب، فدخلتُ (اللاّذقيّة) وقد كادتْ تخلُصُ نفسي من جسدي.

وكانَ أوّل ما سَمِعْتُ بها خبَرَ موتِ (محمّد بن إسحق التّنوخيّ)، فكأنّ المصائِب تتلقّاني كلّما أقبلتُ على غاية، وإنّ المَدْحَ إذا لم يعدْ هنا مُمكِنًا فَلْيَكنِ الرّثاء، وتحرّكَ فِيّ وفي أهلِه دَموان، فقلتُ في الرّاحل:

أَمُجَــاوِرَ الدِّيْــماسِ رَهْنَ قَــرارَةٍ

فيهــا الضِيــاءُ بِوَجهِــهِ وَالنورُ

ما كُنتُ أَحسَــبُ قَبلَ دَفنِكَ في الثَرى

أَنَّ الكَواكِــبَ في الــتُراب تَغــورُ

ما كُنتُ آمُلُ قَبلَ نَعشِــكَ أَن أَرى

رَضــوى عَلى أَيدي الرِجالِ تَســيرُ

فنكِرَ عَلَيَّ جَماعةٌ ما قلتُ، ونعتوا القول بالبُرود، فعرفْتُ أنّ الحَسَدَ الّذي كان يُطِلُّ برأسِه على استِحياءٍ في مضَى، قد صارَ يبرزُ أمامي بشخصِه كامِلاً، وأنّ أدوى ما سألقى هو حَسَدُ السّفلة، وإنّ الحَسَدَ من أهل العقل لا يُقبَل إلاّ على مَضاضةٍ، فكيفَ إذا كان من أحلامِ العصافير؟!

سِــوى حَسَــدِ الحُسَّــادِ دَاوِ فإنّــهُ

إذا حَــلَّ في قَلْــبٍ فَلَيْــسَ يَحُــولُ

ثُمّ قلتُ: «ماتَ المقصود، وبقي أخوه، فلي في مَدْحِه مندوحة»، فكتبتُ في (الحُسَين) أخيه رويًّا مُطرِبًا، غيرَ أنّ آثار البُكاء على أخيه الميّت سَحَبَتْ ذُيُولها على الرّوعة، فوجدْتُني أهتف:

عَلَى ذَا مَضَى النّــاسُ اجْتِماعٌ وفُرقَةٌ

وَمَيْــتٌ وَمَوْلُــودٌ وقَــالٍ ووامِقُ

فقالوا: «وهل يُوعَظَ في مقام المَدْح؟». فعرفتُ أنّني جِئتُ بنفسي إلى أهل هذه الحاضرة من أجل أنْ أتلَقّى سِهام الكائِدين، فعزمتُ على أنْ أُسَيِّر حياتي على أنْ أدوسَ مقالةَ الحاسِدين أو أجعلَها دُبُرَ أُذُنَيّ.

وعزمتُ أنْ أتركَه وأخاه الميّت، وأمضي إلى سِواهما. فإنّني أبحثُ عن سُلطانٍ حقيقيّ، أتّخذُه بمدحي إيّاه جسرًا إلى غايتي، فلم يكنْ في عيني سِواي، ولم يملأ عَلَيّ أضالعي غيرُ عزمي، وإنّ هؤلاء السّلاطين بُلغةٌ أتبلّغ بها في مسيري إلى مجدي، ثُمّ أتركهم ورائي ينظرون إليّ عَجَبًا وخوفًا، وهم يقرعون سِنّ النَّدم. وَمنْ في الأرضِ كلّها يومئذٍ يملك الحرفَ مثلما أملكه!!

ومضيتُ إلى أبي الحُسين (عليّ بن إبراهيم التّنوخيّ) فلمّا وفدتُ عليه أوّل أمري، ودخلتُ إلى مجلسه، وجدتُ بينَ يديه كُؤوس الشّراب، فغضَّ ذلك من قيمته عندي، غير أنّني أدرْتُ عن ذلك صفحة وجهي وأنا أُحَدِّث نفسي: «إنّ الله لينصُرُ الحقّ بالبَرّ والفاجر». فلمّا رآني، تهلّلَ وجهه، وهَشَّ وبَشَّ، وقدّم إليّ كأسًا فيها شرابٌ أسود، فارتجلتُ:

إِذا مـا الـكَأسُ أَرعَشَـتِ اليَدَيـنِ
صَحَـوتُ فَلَـم تَحُـلْ بَينـي وَبَينـي
هَجَـرتُ الخَمـرَ كَالذَهَـبِ المُصَفّـى
فَخَمـري مـاءُ مُـزنٍ كَاللُجَـينِ
أَغـارُ مِـنَ الزُجاجَـةِ وَهـيَ تَجـري
عَـلى شَـفَةِ الأَمـيرِ أَبي الحُسَـينِ

فطرب، ورَمَى الكأسَ فأقحمها الجِدار فتبعثرتْ شظايا وسالَ سوادُها قُرمزيًّا داكِنًا. ثُمّ قرّبَتْني إليه صلةُ نسبٍ قديمٍ بيننا، وعروبةٌ لا تتثلّم، ومروءةٌ لا تتهدّم، وقد كان في نفسيَ حاجاتٌ كثيرةٌ لم أُفصِحْ

عنها، ولم أكشفْ عنها السّتر لأحدٍ، غير أنّ كِتْمان ما في القلب يضيق به حتّى ينفجر، فكيفَ إذا كان الأمر في ذاته مُفجِّرًا، وهي اعتِلاء غير العرب العَرْش، وتربُّع القِرَدةِ عليه، وكان في نفسي في تلك الأيّام شِرّةٌ وعَجَلةٌ، غيرَ أنّني لا أُورد نفسي موارد الهلاكِ حتّى أعرفَ كيفَ أُصْدِرها، وكشّفتُ له يومًا ما في نفسي فهتفتُ بينَ يدَيه:

أَحَـــقٌّ عـــافٍ بِدَمعِـــكَ الهِمَـــمُ
أَحـــدَثُ شَيْءٍ عَهـــدًا بِهـــا القِدَمُ
وَإِنَّـــما النـــاسُ بِالمُلـــوكِ وَمـــا
تُفلِـــحُ عُـــربٌ مُلوكُهـــا عَجَمُ
لا أَدَبٌ عِندَهُـــم وَلا حَسَـــبٌ
وَلا عُهـــودٌ لَهُـــم وَلا ذِمَـــمُ

فاعتدلَ وكان مُتّكِئًا يشرب، وضَيَّقَ عَيْنَه، ورأيتُ شفتَيه ترتعشان، تريدان أنْ تقولا كلامًا لكنّه لا يقوى عليه، فأردتُ أنْ أُريحَ انحباس الكلمة عليهما، فأعدتُ عليه بيتَ القصيد:

وَإِنَّـــما النـــاسُ بِالمُلُـــوكِ وَمـــا
تُفلِـــحُ عُـــربٌ مُلوكُهـــا عَجَمُ

فرأيتُه كأنّه شهق، وأرادَ أنْ يبلعَ ريقه فما استطاع، وهززتُ رأسي: «أصلحَ الله الأمير، هل يُعاني من شيءٍ؟». وهُرِعَتْ إليه حاشيته، فأخذوا الكأسَ الّتي كادتْ تسقطُ من يدَيه، وأراحوا جسده على السّرير،

وطلبوا منّي أنْ أخرج، فوددتُ لو أنّني حَطّمْتُ كؤوس الشّراب الّتي في المجلس على رؤوس الحاضرين جميعًا.

وتركتُ الملوك والوجهاء وأهل السّلطان زمنًا، لا أغشى قصورهم، ولا أطلبُ الإذن بالدّخول عليهم، فقد شعرتُ بأنّه تُودِّعَ منهم، وأنَّ ما أبحث عنه ليسَ إليه سبيلٌ إلاّ أنْ تضيق الأرضُ على ناهِبها، وأنْ تبلغَ به القُلُوب الحناجر.

(٧)

الشّعر في سُوقِ الكسادِ

جلستُ على صخرةٍ في البحر صباحَ اليوم، وتذكّرتُ جلوس الفلاسفة الّذين مَضَوا. وقد هَبَطَ عَلَيّ الهَمّ: «إنّ هؤلاء الملوك لا يعدلون أقلّ من الهَباء، وإنّهم لا هَمّ لهم إلاّ بُطونهم وفُرُوجهم، وأمّا عقولهم فصارتْ في أستاههم، تُحرّكهم الشّهوة، ويَهُزّهم منظر الجواري والقِيان، وأمّا الدّولة، فلا دولة. وأمّا حضور العقل فغياب، ومتى تقوم لنا قائِمةٌ إذا استمرّ الأمر على هذا النّحو؟». ثُمّ رميتُ نفسي في البحر بملابسي، ورحتُ أسبحُ حتّى وصلتُ إلى عُرْضِ البحر، وبدا تيه الماء سرابًا في الصّحراء، وأُفُقًا لا نهاية له، وثقّلَتِ الأردية لّما امتلأتْ بالماء جسدي، فتخلّصتُ من أكثرها، ورحتُ أذرع البحر من جديدٍ سِباحةً إلى غير وُجهة، كنتُ أخبطُ الماء كأنّني أستعجل المسافة وأستقربُ الزّمن، وأمضي إلى المجهول... ثُمّ لّما انتصفَ النّهار، وأعياني العوم والتّجديف، أرحتُ في البحر على ظهري، وعيناايَ في عين الشّمس، ثُمّ غلبَ نُورُها نورَهما فأغمضتُ عينَيّ ورحتُ أحلم، فرأيتُ ما لا يُرى.

كان أبي يصيح: «يا (أنيان)»، فبرز له (أنيان) عملاقًا عظيمًا، أبيضَ كُلِّ شيء، ولا أدري إنْ كنتُ رأيتُه من قبلُ أم لا. كانتْ عيناه تقدحان شررًا، وهتفَ مُحنقًا مَغِيظًا: «ما بك؟». «إنّ ابني من أهلي، وإنّ

وعدَكَ الحقّ». «وَمَنْ قال إنّه ليسَ كذلك، ثُمّ إنّني ما أخلفتُ وعدي». «فهل سيقودُ هذه الأمّة؟!». «إنّه ليسَ نبيًّا». «أعرف». «وليسَ عرّافًا». «أعرف». «وليسَ من المُعمَّرين». «أعرف». «فكيفَ تريدُه أنْ يقود النّاس؟». «يا سيّدي، إنْ لم يكنْ نَبِيًّا فمعجزاتُه كلماته، وإنْ لم يكنْ عَرّافًا، فبصرُه بالأمور أعظم مِمّا يأتي به العَرّافون، وإنْ لم يُعَمَّر فإنّ شِعره لن يموت... ثُمّ...» ورأيتُ أبي يصمتُ قليلاً، ويُكمل: «ثُمّ إنّه ليسَ بشريًّا». وسأله (أنيان): «ماذا تعني؟». «أنتَ تعرفُ ما أعني». ومَسَحَ (أنيان) بيدَيه الفضاء، فرأيتُ عَجَبًا، خيول تركضُ في المدى تصهل صهيلاً مُتتابِعًا أقربَ إلى زئير الأُسُود، وعليها فرسانٌ يصيحون صيحاتٍ تبلغ عنان السّماء، ثُمّ رأيتُ نفسي على الطّرف الآخر، تسيرُ نحوي هذه الخيول، وكلّما قطعتْ مرحلةً انضمّتْ إليها خيولٌ جديدة، حتّى شكّلتْ سُيولاً جارية، ثُمّ لمّا وصلتْ إليّ فتحتُ ذراعَيّ مُرحبًّا بها وأنا أبتسم ابتساماتٍ راضِية، ولا أدري لماذا لم أتنحَّ عن طريقها وهي تجري نحوي كالسّيل الهادر، ولم يتوقّفِ الفوجُ الأوّل الّذي تلقّاني منها، بل دَخلَتِ الخيولُ كلُّها إلى صدري وذابتْ فيه، فلمّا دخل ألفُ فرسٍ وفارسٍ في صدري، لم يعدْ فيه موضعٌ ولا مَجال، فراحتِ الخيول تتابعُ سيرها عن يميني وعن شِمالي حتّى شكّلتْ دائرةً من حولي، وظلّت الدّائرة تتّسع وأنا في عَجَبٍ ودَهَشٍ مِمّا يجري، والخيول تحوم حولي في دوائر لا تُرى نهايتها، ثُمّ رأيتُ فرسًا بلقاء لم أرَ مثلَها في الجَمال والبَهاء، وكان يعتليها (أنيان) المَهيب، وكنتُ لا أزال أفتحُ ذِراعَيّ على اتّساعهما وأدور حول نفسي، وأنا أنظرُ إلى هذا المشهد العجيب، فلمّا وقعتْ عيناي عليها توقّفتُ عنده، وابتسم هو لي، فشعرتُ بالطّمأنينة، ثُمّ نزل عن فرسَه، وتقدَّمَ نحوي، وسلّمني لجِامَها، وقال لي: «هي لكَ منذُ

اليوم». وأخذتُ اللّجام وأنا في رَيْبٍ من أمري، وزادَتْني ابتسامتُه الّتي اتّسعتْ طُمأنينةً وأشار لي أنْ أركبها، فلمّا ركِبْتُها، غابَ فجأة، فرُحتُ أُديرُ نظري أبحثُ عنه، ولكنّني لم أجدْ له أثرًا، فشَدَدتُ على الخيل، وحرّكتُ رجلَيّ، وأردتُ أنْ أصيحَ بالنّاس أنْ يتبعوني، فوجدْتُني أخبطُ في البحر، ووجدتُ الشّمس قد رَسَمَتْ خيطًا ذهبيًّا على الماء وهي تهوي في لَحَظَاتِها الأخيرة في الأفق.

كانتْ يقظةً عاجِلة لم تُمهلْني حتّى أُدرِكَ ما حَدَث، سبحتُ نحو الشّاطِئ، كان أبعدَ مِمّا تخيّلت، ولمّا وصلتُ إلى السّاحل كانتِ الشّمس قد غربتْ منذُ فترةٍ وحَلَّ اللّيل، وخرجتُ من الماءِ شِبْهَ عارٍ، وسترَ اللّيلُ جسدي، وركضتُ إلى الخان الّذي أكتريه منذُ أنْ جِئتُ إلى هنا قبل بضعة شُهُور، وزمّلتُ نفسي، وتدثّرتُ بالفِراش، ورحتُ عبثًا أحاول نومًا عزيزًا هَرَبًا مِمّا رأيت وفعلت!

صحوتُ في اللّيل. لا أدري أيَّ جزءٍ من اللّيل هو، كنتُ أنتفض. أعددتُ لنفسي شرابًا ساخِنًا. وهُرِعتُ إلى قراطيسي، كنتُ قد اشتريتُ بعضَ الرّقوق والكتب من هنا بعد أنْ حصلتُ على بعضِ المال بعَثَ به الأمير التّنوخيّ إليّ بعدَ أنْ استيقظَ من سَكرتِه. وقد بعثَ معها برسالةٍ وقَّع تحتها بجملةٍ واحدةٍ تتضمّن سؤالاً قائِلاً: «أداعِيةُ شِعرٍ أنتَ أم داعيةُ أمر؟». فوقّعتُ تحتها من فوري بمقالة امرئ القيس: «اليوم خمرٌ وغدًا أمر». ثُمّ رحتُ اقرأ في الرّقوق، وكنتُ قد أولِعتُ تلك الأيّام بالفلسفة، واختلفتُ فيها إلى بعضِ شيوخِها هنا في اللّاذقيّة.

ثُمّ دَبّ فِيّ من القلق ما يدِبّ على عادته. فخرجتُ من الخان أمشي، وأنا أستظهر المُجلّدة الأولى من ديوان أبي تمّام. حتّى وصلتُ إلى البحر مرّة ثانية، كان ساكِنًا هادِئًا، وقد توسّط القمرُ قُبّته، فأرسل أشعّته الفضّية على لُجّة الماء الهادِئة، فراحَ القمر يرقصُ على رَقَصِ تلك الأمواج، وكانَ صوتُها يذهبُ بي إلى عوالمَ خفيّة، كانتْ تهدُرُ أحيانًا وهي تأتي نحوي كأنّها تريدُ أنْ تقول لي شيئًا، ثُمّ تنحسر عن قدَمَيّ وتعودُ إلى مائِها، ولا يبقَى تحتَهما إلاّ الزَّبد.

ومضيتُ على السّاحل أمشي وأنا أراجع مجلّدة أبي تمّام، فلمّا آذنتْ بإنهائِها، كان القمر قد غاب وبدأَتْ خُيوط الفجر تنتشر، فعُدتُ إلى الخان، ثُمّ رحتُ أقلّب الرّقوق أطالِعُ ما فيها حتّى غفوت على المكتب.

قضيتُ شهورًا أربعةً بعدَها في اللّاذقيّة، أختلفُ إلى (يونس) الّذي يُعلّم المذهب الأبيقوريّ في الفلسفة في دارة الورّاقين بدربِ القُلّة. ولقد درستُ عليه إلى ذلك مذهب (فيلون)، و(أفلوطين). واختلفتُ إلى (عازر) الّذي تعلّمتُ على يدَيه مذهب (زرادشت) و(ماني)، ولم يمهلْني الوقت حتّى أُتِمّ ما بدأتُ به معهما، غيرَ أنّني أخذتُ ما أردتُ من العِلم، ثُمّ هَجَمَ عليّ الخاطر الّذي لا يفتأ يفعل ذلك: «أهذا غايةُ ما تريد؟ أهذه البلادُ مُنتهَى ارتحالِك؟ أإلى بلدٍ غيرِ ذي رأيٍ تلجأ، وإلى قومٍ غيرِ ذي عِلمٍ تركن؟ أهذا أنت؟!». ولقد عييتُ في الإجابة إلى اليوم عن السّؤال الأخير: «أهذا أنت؟!»

وحدّثتُ نفسي قبل أنْ أرحل أنْ أمدح (عليّ بن إبراهيم) هذا، لا لأنّه يستحقّ ذلك، فإنّني غسلتُ يدي منه ومن الملوك أجمعين، ولكنّ

الفقر الّذي ما فَتِئ ينهشُ جسدي، وينشبُ في بلعومي أظافره سوفَ يقعدُ بي عن الغاية، وسيُلبّثني في هذه البلاد الّتي أودّ ألاّ أفارقها قبل أنْ أركلَ كلّ شَيءٍ فيها بقدمي، كانَ لا بُدّ من المال، والأليم في الأمر أنّ المال لا يأتي إلاّ عن طريقِ مدحِ مَن لا يستحقّ فيما لا تكون عنده الغاية ولا يكون بين يديه الرّجاء، وإنّني لأُكبِر شعري عن ذلك، ولكنّ المُضطرّ مُدفَّع إلى ما يكره، وقد يأتي المرء ما يكره رجاءَ أن يقي ما تساقطَ أو ما تبقّى من نفسِه، وهل يُمكن أنْ يُرفَع الفقر بأنْ يسقطَ ماء الوجه؟ وهل يمكن أنْ يعلو الشّعر إذا كان بِضاعةً كاسِدة في زمنٍ لا يُوقّر فيه أهلُه الشّعرَ ولا أهلَه؟!

وبعدَ أيّام في الخان الّذي تختنق فيه الرّئتان على ما فيه من قلّة النّظافة، عزمتُ أن أقولَ فيه، فقصَدْتُ قصره، فلمّا أُذِن لي، دخلتُ البهو الّذي يتّسع لسُربةٍ من الخيل، ثُمّ الفناء الّذي يعلو على أعمدةٍ شاهقة، ثُمّ المجلس المحفوف بالقِيان والمعازف والمُغنّين والمُغنّيات، ثُمّ قليلٌ من أهل الرّأي، يتّخذون أماكنهم على أرائك وأسرّة وهم يضحكون ويمرحون.

وصلتُ إذًا إلى المجلسِ الّذي سأُلقي فيه القصيدة بينَ يدَيّ الأمير، وكان المشهدُ الّذي حولي أقربُ إلى الرّقص منه إلى الشّعر، وإلى الغِناء منه إلى الإنشاد، وإلى الميوعة منه إلى الفصاحة، وإلى التّرف والهزل منه إلى الجِدّ... وتهامسَ القوم الّذين ازْدرَوا - كما ازدرى الآخرون - ثيابي وهيئتي، فسمعتُ أحدهم يُشيرُ إليّ وهو يُسِرّ إلى جليسِه الّذي عن يمينه، ويكتُم بباطن كفّه ضَحِكَة استِهزاء تكاد تنفجر من فمه الّذي تسيل من جوانبه خيوط خمرٍ قانٍ: «مَنْ هذا؟». فيردُ عليه جليسُه وهو

لا يتورّع من إخفاء سُخريته ناظِرًا إلى من زاوية عينه: «إنّه أحمدُ بن الحُسين». «وَمْن يكون؟». «شاعرٌ يتنقّل بين الولاة والملوك مُستعطِيًا». وكدتُ أنقضُّ عليه فآكله بأسناني لما سَمِعْتُ كلمته الأخيرة، وهمستُ لنفسي: «أنا أستعطي أيّها الخنزير. أيّها الرّمّة الّتي حُشِيتْ زبلاً وخمرًا وتفاهةً وخواء». ثُمّ سمعتُ أحدهم في الطّرف الّذي عن يميني يهتف: «يقولون إنّكَ شاعرٌ، فهلاّ أسمَعْتَنا؟». ولم أتوجّه إليه بنظري، بل أبقيتُ نظري مُسمّرًا على الرجل الّذي كان يستهزِئ بي، وهتفت: «لن أقول قبل أنْ يأتي الأمير». «الأمير يطوفُ في أنحاء القصر يُمتّع ناظِرَيه بحدائقه ومغانيه، قبل أنْ يَفِدَ إلى هنا، قلْ لنا شيئًا قبل أنْ يأتي». «لن أقول بيتًا واحِدًا إلاّ في حضرته، أمّا الرّمم الّتي أراها تستلقي على أقفيتها أمامي فلن أقول لها شيئًا». كانت هذه الجملة كفيلةً بأنْ تقسِمَ المجلسَ إلى قسمين، قسمٍ هالَتْه جرأتي فخافَ فخَنَس، وقسمٍ آخَر حرّكتْه هذه الجرأة وهذه الشتيمة إلى القول باستِهزاء مخلوطٍ بشيءٍ من الشّكّ والخوف معًا: «ولماذا لن تقول أمامنا شيئًا؟». «لأنّني لا أرى السّفلة يستحقّون عاليَ الكلام». وقضتْ جملتي الأخيرة على ما تبقّى من صوتٍ في المجلسِ، فبدا مَنْ كان فيه كأنّهم تماثيل، حتّى حضر الأمير واتّخذ مجلسه على عرشِه، والعيون ترمقني وفي أعماقِها يتنازع الخوفُ منّي البادي على وجوههم، والاحتقارُ لي الّذي جاهدوا أنفُسَهم بإخفائِه حتّى لا يرتسم على قَسَماتهم. فلمّا جلسَ الأمير، رَحّب بي على حذر: «أهلاً بالشّاعر العجيب. هل وصلتْ إليكَ رسالتي؟». «نعم يا سيّدي». «فما تقول في الإجابة؟». «أجيبُكَ بقصيدةٍ أيّها الأمير». «أنشِدْنا، فإنّنا مُستمِعون».

أُحــادٌ أَم سُــداسٌ في أُحَــادِ
لُيَيْلَتُنــا المَنُوطَــةُ بِالتَّنــادِ
كَأَنَّ بَنــاتِ نَعْــشٍ في دُجَاهــا
خَرائِــدُ ســافِراتٌ في حِــدادِ
أُفَكِّــرُ في مُعَاقَــرَةِ المَنايــا
وَقَــوْدِ الخَيــلِ مُشرِفَــةَ الهَوادي

وماجَ الجمع، وسُمِعَ لَغَط في المجلس، وهمسَ بعضُهم: «هذا يُهَدِّدُ ويتوعّد». ونظرَ بعضُهم إلى الأمير فوجدوه صامِتًا يُضيّق عينَيه وهو لا يُزيحهما عنّي، ويُمسِّدُ لحيته وقد بدتِ الحيرة على غضون وجهه... وتابعتُ إنشادي:

زَعيــمٌ لِلقَنــا الخَطِّــيِّ عَزمــي
بِسَــفْكِ دَمِ الحَــواضِرِ وَالبَوادي

فأسكتتْ كلمة (سفك) ما في المجلس من لَغَطٍ ولَجَب، وصمتَ كُلّ مَنْ فيه، وهم يستخبرونَ ما أنا، ويُفكّرون فيما أقول، وقد عقدتِ المُباغتة ألسنتهم، فتابعتُ:

إِلى كَــم ذا التَخَلُّــفُ وَالتَــواني
وَكَــم هَــذا التَــمادي في التَمادي
وَشُــغلُ النَفسِ عَن طَلَــبِ المَعالي
بِبَيعِ الشِــعرِ في سُــوقِ الكَســادِ

وانسابَ الخوفُ في العُرُوقِ، ورَعشَتْ جوارُحهم، وظنّ كلّ واحدٍ منهم أنّه المعنيّ بالقول، حتّى إذا وصلتُ إلى قولي:

فَلَــمّا جِئتُــهُ أَعــلى مَحَــلّي
وَأَجلَسَــني عَلى السَــبعِ الشِــدادِ
تَهَلَّــلَ قَبــلَ تَســليمي عَلَيــهِ
وَأَلقــى مالَــهُ قَبــلَ الوِســادِ

سرتْ في المجلسِ بعضُ الطّمأنينة، واستردّ بعضُ الجالِسين أنفاسهم، وكادتِ القِيان أنْ تغنّي الشّعر الّذي قلتُ، فما أمهلتُهم حتّى تابعتُ:

أَشَرتَ أَبــا الحُسَــينِ بِمَــدحِ قَومٍ
نَزَلــتُ بِهِم فَــسِرتُ بِغَــيرِ زادِ
وَإِنّي عَنــكَ بَعــدَ غَــدٍ لَغــادِ
وَقَلبــي عَــن فِنائِــكَ غَــيرُ غادِ
مُحِبُّــكَ حَيثُــما اِتَّجَهَــت رِكابي
وَضَيفُــكَ حَيثُ كُنتُ مِــنَ البِلادِ

فاعتدلَ، فقامَ، فبقيَ على وقفته تلك لَحَظاتٍ، حتّى أشارَ لحاجِبه، وهو يريدُ أنْ يقول غير أنّه لا يقول، فأتاه بالمال، فدفعَ إليّ صُرّة فيها ألفُ دينار، فجلعتُها في كُمّي، واستأذنتُ الأمير، فلم يقدر على النّطق، فأشار لي برأسِه، فخرجتُ، فلمّا صرتُ على مبعدةٍ سمعتُ صوتَ المعازف تصدحُ في المجلس، فتركتُهم ومضيتُ وأنا أحقرُ ما رأيت.

(٨)

إِنّ يدًا لا تَطعنُ أَوْلى أنْ تُقطَع

فلمّا آذن الصُّبحُ بالانبِلاج، كنتُ قد قصدتُ إلى السُّوق، فبعتُ فرسي، واشتريتُ فرسًا أفتى منه وأشدّ مِراسًا، وأصلبَ عُودًا. ورأيتُ الدّمع يقطُر من عينَي فرسي القديمة، فمسحتُ على عنقها وقبّلتُها، فحفرتِ الأرضَ بحوافرها وهي تصهل صهيلاً أقربَ إلى النّشيج، فاعتنقتُها فهدأتْ رويدًا، حتّى سكَنَ ما كان يرجفُ من أوصالِها، ثُمّ اكتنفْتُ رأسَها بيدَيّ، ورجعتُ إلى الوراء خُطوةً، وهمستُ: «إنّما أنا عابِرُ سبيل، وإنّ أرواحًا جمعتْنا على غيرِ عهدٍ لَهِيَ أوفى من أنْ يبتّ الحبلَ بينها هَجرٌ على اضطِرار، وإنّنا لنلتقي كلّما بعُدت الغاية، فلا تأسَيْ». ونظرتُ إلى عينَيْها أرى أثرَ ما قلتُه عليهما، فإذا هما تَهمِلان، وإذا هِيَ تُدير عُنُقَها عنّي كأنّها لم تقتنع بما قلتُ، وشعرتُ أنّها تهمس: «ما جَمَع بيننا لن يفرّقه الدّهر، فإلامَ تتركني؟! أإلى لِئامٍ من النّاس لا يعرفون قَدْري؟!». وحفرتِ الأرضَ بقدمَيها مرّة أخرى، وغابتْ في زِحام السُّوقِ مع مُبتاعها كأنّها قد استسلمتْ إلى حُزنِها.

واشتريتُ فرسًا دهماء ليسَ فيها من البياض سِوى ما كان في جبهتِها، ولمّا سُمتُها قبّلتُها أوّل العهد على تلك الغُرّة، فسرتْ بينَ

جسدَينا رعشةُ اللّقاء الأولى، ونشوةُ القُبلة البِكر، ثُمّ رُحتُ أسوقُها إلى قَدَري وقَدَرها، وهي تستخبرُ خَبَري كما أفعل معها، فلمّا أنشدتُها:

أَو رَكِبُـــوا الخَيْـــلَ غَـــيْرَ مُسْرَجَةٍ
فَـــإِنَّ أَفْخاذَهُـــم لَهَـــا حُـــزُمُ

سكَنَ جسَدُها، وحرّكتْ رأسَها حرَكاتٍ مُتتابِعةٍ في لجامٍ أصدرَ حديدُهُ صوتًا قال لي: «لا بُدّ للفارسِ من سَرْجٍ». فابتعتُ لهاً أحسنَ سرجٍ، وشدَدْتُه عليها، ومضيتُ. فلمّا صارتِ اللاذقيّة وماؤُها خلفَنا لاحَ لنا الفضاء الرّحبُ، ولا أرى في الفضاء إلاّي، فهمزتُها هَمْزَ العاشق الفارسِ المُجرِّب، فأطلقتْ سيقانَها للرّيح، وسَبَحَتْ في صَحراءَ لا تدري لها نهايةً، ولا ترى فيها غيرَ ماء الرّمل، ولا تعرفُ مثلي إلى أينَ تمضي، غيرَ أنّها تسبَحُ إلى شأوٍ لا يُدرَك، وشأنٍ لا يُترَك.

ومضتْ علينا ثلاثُ ليالٍ في الصّحراء، أبيتُ تحتَ نُجومِها، وأنتجعُ إذا بردَ حَرُّ الشّمس ما تناثرَ من أفيائِها، وأقرأ عليها سُورةَ النّصر، وأعلفُها من قُوتِ قلبي، قلبي الّذي يحملني إلى نجمٍ لا ينطفِئ، وسماءٍ لا تُطاوَل. فلمّا كانتْ ليلتُنا الرّابعة، كادَ ما معنا من الطّعام ينفد، فقلتُ لها: «إلى أينَ والموتُ يتربّصُ بِنا في كلّ ناحية؟!». فصهلتْ فكأنّني سمعتُها تقول: «لكَ الموتُ الّذي أنتَ موتُه». «والغاية؟». «بعيدة». «والمأمول؟». «لا يُنال إلاّ على خوفٍ وأَيْنٍ وإرقال». «وأنا؟». «ما في المدى سِواك. فامضِ أَمْضِ معك». فثنيتُ عِنانها وأنا أكادُ أَفْرَقُ مِمّا أريدُ، وقصدتُ بها، أو قصدتْ بي إلى حَلَب، وما حلبٌ يومَئذٍ إلاّ حُلُمٌ غامِضٌ يُخبِّئُ فيه الغيبُ أسرارَه.

وصلتُ إلى المدينة الّتي ملكَ مشهدُها قلبي أوّل ما أشرفتُ عليها، وكان ذلك بعدما أشفَيْتُ على الهَلاكِ أطوفُ المَوامِي والفَلَوات على مَتْن الأدهم، وأقطَعُ الغبراوات والمفازات، فلمّا أتيتُها كانتْ على نَشَزٍ من الأرض، يُحيطُ بها سُورٌ أشهب من حجرٍ أبيض، وجعلتُ أحومُ حولَ سُورِها قبل أنْ أدخلها، وأنا أكادُ أكسرُ عنقي كلّما أردتُ أنْ أتسوّر بعَينَيّ شاهِقَه، وقضيتُ النّهارَ على ذلك، ووجدتُ لها ستّة أبواب حتّى كادتْ أنْ تكون الجنّةَ على مقربةٍ من جهنّم، وفي جانب السور قلعةٌ حصينةٌ ما حدّثْتُ نفسي في بادِئ الأمر أنْ أقتحمها، لأنّ صاحبَها لم يكنْ صاحبي يومئذٍ، ونمتُ تحتَ فَيْءٍ من السُّور ليلةً، فسمعتُ في ذلك اللّيل داعِيًا في الهزيع الأخير من اللّيل يهتف: «يا عاليَ الشّأن إنّ الشّأنَ لا يحوزه إلاّ ذو شرفٍ ومُحافَظَة، فمَنْ كان فارسًا حازِمًا ألقتْ إليه قِيادَها، ومنحتْه قلبَها»، فوجدتُ في ذلك الهاتفِ دعوةً لي بدخولها، فلا عاليَ شأنٍ عندي يومئذٍ سِواي، فدخلتُها مع الفجر على ظَهر فَرَسي يملأ المكانُ عليّ جوارحي بما فيه من رهبةٍ وهيبةٍ وجمالٍ وجَلال، فوجدتُ في أعلاها مسجدًا وكنيستَين، فكأنّما غلبَ عليها الميلُ إلى الصّليب، وأنا من الصّليب على حَذَرٍ وشَكّ، بل أنا على شَكٍّ من كلّ شيء، فلمّا دخلتُ الكنيسة الأولى مع دخول الشّمس من بلّور نوافِذَها، تلقّاني حشدٌ من الرُّهبان يلبسون الجلابيب الحُمرَ إلاّ واحِدًا يلبسُ جلبابًا أسودَ، قد غطّى شيبُ لحيته الكَثّة نصفَ صَدرِه، واعتمر قلنسوةً مذهّبة تعلو ذراعًا فوقَ هامته، فلمّا رآني رسَمَ الصّليبَ ورَحّب بي، وقادَني إلى أبي إبراهيم، وقال وقد تركتُ خِطام الأدهم لأحدهم: «تعالَ أُرِك». فمضيتُ معه، فأوقفني على مذبحٍ مَهولٍ يُقدّس عنده صِغار رُهبانهم ويُصلّون، فقال لي: «هذا مذبحُ إبراهيم الّذي قَرّب عنده

قُربانه». فما أخذَ منّي الأمر أكثرَ من دخول كلماته إلى مكانٍ لم يُجاوز شحمتَي أُذني، لأنّ لي عقلاً لم يكنْ ليقبلَ بكلّ ما يسمع، وكان ينفي أكثرَه، ثُمّ سألني، وهو يبتسم كأنّما طَمِعَ في أنْ يستميلَ فتًى غَطّتْ ذُؤابته النّافرة من عِمامته بعضَ جبهتِه: «أتعرفُ لِمَ سُمِّيتْ حلبُ بهذا؟». فواريتُ ذُؤابتي تحتَ عِمامتي، قبل أنْ أقول له: «في أمرها خبران». فزمّ شفتَيه مُستطلِعًا كأنّما يحثّني على الإجابة، فأردفتُ: «في أسفل هذه القلعة مغارةٌ كان النّبيّ إبراهيم يُخبِّئ فيها غنمَه وبقَرَه، وكان يحلب كلّ يوم بقرةً شهباء، ويسقي النّاس المُقيمين في جِوارها لَبَنَها، فكانوا إذا شَدّ الضُّحَى مِئزره وانتظروا جُودَه يقولون: حَلَبَ أم لا؟ فلهذا سُمّيتْ حلبَ»، فهَزّ الرّاهبُ رأسَه من عجبٍ، ونظرَ نظرةً إلى غيرِ ما يراني، كأنّه يُريد أنْ أقول له ما لا يعرفُه، فقلتُ: «وأمّا الخَبَرُ الثّاني فيها، فهو إنّما (حَلَب) و(حمص) و(برذعة) كانوا إخوة من بني عمليق فبنى كلّ واحد منهم مدينة فسمّيت باسمه». فشَدّ على يَدي، وهوى يُريدُ تقبيلَها، فنزعتُها من يده، فلمّا اعتدلَ جِذْعُهُ سألني: «مَنْ أنت؟». فقلتُ: «لو كنتُ أدري مَنْ أنا أو ما أنا لوجدتُ لكَ إجابة». غيرَ أنّني نزعتُ خاطري هذا من صدري، وقلتُ: «أنا ابنُ الرّعان والطِّعان» فزادَه ذلك عجبًا. فعاجلتُه بسُؤال: «فأينَ دارُ عَلْوة؟». فضيَّقَ عينَيه، وصمتَ، ثُمّ كأنّه قال: «ومَنْ عَلْوةُ هذه؟». فتركتُه، ومضيتُ أستطلعُ ما في المدينة من آثار.

هويتُ مع الأدهم من النّشَز الّذي بُنِيتْ عليه القلعةُ إلى أسفله، فأتيتُ الوادي، فخضتُ في مائه مع فرسي، فانتهى بي وهو ينازِعُ الماء حتّى يسير في أرضٍ قَلِقةٍ إلى نهرِ قُوَيق، فوقفتُ على النَّهرِ فسمعتُ أصواتَ (قاق) من الضّفادع على ضِفّتَيه، فعلمتُ من صوتِها لِمَ سُمِّيَ

بذلك، ومضى بِيَ الأدهم حتّى رأيتُ أشجارَ الحُور تسمقُ في السّماء تحفّ جانِبَيه، كأنّ ما فاتها من شموخِ الحجر تُعوّضه بشموخ هذا الشّجر، فأردتُ أنْ أقول فيها شِعرًا، فما واتاني، وسألتُ في الطّرقات عن دار (عَلْوة)، فإنّ شِعر البحتريّ فيها جعلَ بيني وبينها أُلفةً ورَحِمًا، فدلّني بعضُ القُطّان عليها، فأتيتُها فإذا هيَ دارِسة، وإذا هيَ أطلالٌ يلعبُ فيها البُوم، وتنعقُ فيها الغِربان، فعلمتُ أنّ الدّيارَ بأهلها، وأنّ موتَهم موتُها، وأنّ ما ذاعَ من القول الّذي هو صوتٌ أخلدُ من البيوت الّتي هِيَ حجارة، وتذكّرتُ مقالة صاحبي في صاحبته:

تَنـــاءَتْ دارُ عَلْـــوَةَ بَعْـــدَ قُرْبِ
فَهَـــلْ رَكْـــبٌ يُبَلِّغُها السَّـــلاما؟!

فسَلَمْتُ عليها عنه، فما أنا يا أبا عُبادَة إلاّ هذا الرّكب. ثُمّ أنشدتُ في الرّوامس قولَه:

وَرُبَّـــتَ لَيلَـــةٍ قَـــدْ بِتُّ أُسْـــقَى
بِعَيْنَيْهـــا وَكَفَّيْهـــا المُدامَـــا
قَطَعْنـــا اللَّيْـــلَ لَثْـــمًا وَاعْتِناقًـــا
وَأَفنَيْنـــاهُ ضَـــمًّا وَالْتِزامَـــا

فقبّلتُ ما تهدّمَ من جُدرانها عنه، أوصِلُ حرارةَ قلبِه إلى قلبِها، فكأنّ الحجارة رجفتْ، ونَدّتْ، فسالَ على عُروقِها الدَّمع، فأقمتُ فيها بعضَ ساعةٍ، ثُمّ خرجتُ من تلك الدّار مُستعبِرًا.

أمضيتُ لياليَ مشهودةٍ في حلب، غيرَ أنّني لم أختلفْ إلى أهل العِلمِ فيها، ولم أمدحْ فيها أحدًا، وسمعتُ بفتًى يُحاول مُلكًا فيها يُدعَى عليّ بن عبد الله الحمدانيّ، ورثِ عن أبيه القتيل الأمر، وهو يُحاول أنْ يستعيدَ ما فقده أبوه وبَنُو عمِّه، وسمعتُ بخروجه لقتال عمرو بن حابسٍ وبني ضَبّة، وإيقاعه الهَزِيمة بهم، فلمّا عرفتُ أنّه لِدَتي، وأنّه يخوض الحروب ويقودُ الجيوش وهو لا يزال فتًى، وفي عروبته نقاءٌ وصَفاءٌ، تحرّك الشِّعر في صدري، فكتبتُ فيه قصيدةً أقولُ في أوّلها:

ذِكَـــرُ الصِّبَـــا وَمَراتِـــعِ الآرامِ
جَلَبَـــتْ حِمَامي قَبْلَ وَقْـــتِ حِمَامي

ولم ألتقِ هذا الفتى المُعجِب، ولم أُنشِدْها إيّاه، ولكنّني خبأتُ القصيدة، فما يدري أحدٌ ما تأتي به الأيّام. وكانَ لي أمرٌ غيرُ الإقامة في هذه المدينة العظيمة، فتركتُها كأنّما كانتْ حُلمًا أستعيدُه في قابل الأيّام، ونكّبْتُها ورائي إلى أنطاكيّة، أقصد (المُغيثَ) لعلّه يُغيث، فإنّني لا أبرحَ حتّى أبلغ.

كانتِ الطّريقُ بين حلب وأنطاكيّة عامرةً لا انقِطاع فيها، وهي آمنةٌ إلى الحدّ الّذي نمتُ في سبيلها على الطّرقات، وليسَ ذلك غريبًا علَيّ، غيرَ أنّني كنتُ لا أنامُ في الطّرقات فيما مضى إلاّ والسّيفُ على عاتقي، أمّا هذه المرّة بين هاتَين المدينتَين فقد خلعتُ الجِناد والحمائل، وخلعتُ السَّرجَ وألقيتُها عَليه، ولمّا كانتْ تلك اللّيلة، سهرتُ وأنا أُسنِدُ إلى الأدهم الرّابضِ ظهري، وبينَ يدَيّ أوارقٌ ودَواة، أكتبُ مطلعَ القصيدة الّتي سأقولُها في (المُغيث).

مكتبة
t.me/soramnqraa

وشددتُ على الأدهم فجرَ اليوم الثّاني، ولم يكنْ بينهما إلى السّكون والأمان مسافةً تدعوني إلى التّريُّث، فلمّا أشرفتُ عليها تحرّكتِ المُضغة الّتي في قلبي تحرُّكَ المَشوق المُستَهام، وتذكّرتُ أوّل ما لاحتْ بُيُوتُها، قول زُهير بن أبي سُلمى:

عَلَـــوْنَ بِأَنْطاكِيَّــــةٍ فَــــوْقَ عَقْمَةٍ
وِرَادَ الحَــــوَاشِي لَوْنُها لَــــوْنُ عَنْدَمِ

وقد عاينتُ هذا اللّون حَقًّا، فما أعذبَ الشّعر الّذي لا يُغيّر لَونَه كَرُّ الدُّهور. وأمّا السّور الّذي لها فقد عدَدْتُ فيه - وأنا أطوفُ حولَه قبل أنْ أحلّ محلاتها - ثلاثَمئةٍ وستّين برجًا، وفيها ذوو الحِلَق والمغافر، وإذا كانتْ على هذا الأمن مِمّا رأيتُ فلِمَ يحرسُها كلّ هؤلاء؟! ومضيتُ بما تبقّى من دنانير التّنوخيّ، فاكتريتُ أحسنَ ما فيها من نُزُلٍ، وأقمتُ على أملٍ لا أدري ما هو، غيرَ أنّ الأمل رُقيةُ المُتأمّل، ولولاه لهَلَكَ. فلمّا استطلعتُ أخبارَها وتاريخَها عرفتُ أنّ أهلَها أهلُ شُوسٍ، وأنّ فيهم رُعونةُ الّذي لا يُقيم على ضَيْمٍ، فقلتُ لنفسي: «لو اتّخذتُ من أهلِها إلى مَن اتّخذتُه من حواضرَ سلفتْ فتيانًا يكونون عُدّتي على ما أريدُ، أشدُّ بهم الإغارة فُرسانًا ورُكبانًا». وعلى هذا مضيتُ، فاتّصلتُ بشبابِها، أسمعُ منهم ويسمعون منّي، وأُحدِّثهم عن أنّ حياةً لا يكونُ فيها غَزوٌ هي نِفاق، وأنّ جسدًا لا يحمل السّلاح هو خُواء، وأنّ يدًا لا تطعن أولى أنْ تُقطَع. فجذبهم إليّ ما أوتيتُ من البيان، وما جُمِعَ إليّ من قُوّة الحافِظة، إلى قُوّة الحُجّة، فكان لي معهم شأن.

ثُمّ اختلفتُ إلى مساجِدِها، فأسنَدْتُ ظهري إلى أسطواناتها، فأقبلَ عليّ أهلُها أُعلّمهم النّحو وأُبصِّرُهم بالشّعر، فكان لي مع تلامذتي فيها عُدّةٌ أخرى إلى عُدّتي من شبابها المُمتلِئين حماسةً إلى مُشاشِهم.

فلمّا مَضى على ذلك القدوم شهرٌ أو يزيدُ، أرسلتُ مع أحدِ فتياني رسالةً إلى أميرها المُغيث: «إنّ لي لِسانًا يُخلِّدُ لكَ ذكرًا في العالَمين ما دارَ في خَلَدِ أنطيخس». ويبدو أنّ الرّسالة أعجبَتْه ودفعَتْه إلى الفضُول، وقد كان سبقَتْ حروفي وجودي في مدينته، فوقّع في ذيل الرّسالة: «إنّا مُنتظِرون».

فوفدتُ عليه، ليلةَ أُنسٍ يصفو فيها كلّ شيءٍ لمُؤتنسٍ. وكانتْ مصابيحُ قصرِه تُوقِدُ أضواؤُها الماء، فترى كأنّ نار المجوس قد حفّتْ به، وألقتْ عليه سربالاً من الرّهبة. ولّما مثلتُ بينَ يدَيه، كان كلّ مَنْ في مجلسه يُميلون أعناقَهم إليّ، وما كان ذلك ليكون لولا الحرفُ الّذي تنزّل على قلوبهم فأخضعَ له أعناقَهم، فأنشدتُه قصيدتي الّتي أوّلها:

دَمْعٌ جَرَى فَقَضَى في الرَبعِ ما وَجَبَا
لِأَهلِهِ وَشَفى أَنّى وَلا كَرَبا

فوجمَ الجمْعُ، فلمّا وصلتُ إلى قولي:

ناءَيْتُهُ فَدَنا، أَدنَيتُهُ فَنَأى
جَمَّشْتُهُ فَنَبا، قَبَّلْتُهُ فَأَبى

رَقَصَ قلبُه رَقَصَ الذّبيح لم يملك لُمديةِ الحرفِ دَفْعًا، فعاجلتُه:

مَـــرَّت بِنا بَـــينَ تِرْبَيهـــا فَقُلتُ لَها
مِـنْ أَيْنَ جانَسَ هَذا الشَّـادِنُ العَرَبا؟!

فضيّقَ عينَيه، لا يُطيق على الجَوابِ صبرًا، فأنفذتُه:

فَاسْتَضحَكَتْ ثُمَّ قالَت كَالُمغيثِ يُرى
لَيثَ الشَرى وَهوَ مِن عِجْلٍ إِذا انْتَسَبا

فطرب طربًا كادَ يخلعُ له ثِيابَه، ووقفَ يحجلُ على قَدَمَيه من سُكرِ ما سَمِع، فلمْ أمْهِلْهُ، فصدحتُ وفرسي الأدهم في فناء القصر يحجل هو الآخر ويرقصُ طربًا، فلمّا قفلتُ القصيدة، دَعَا وهو يكادُ يبكي: «أرأيتم أجمَلَ من هذا، والله إنّه السِّحر الحلال. ادعوا لنا القِيان يُغنّين هذا الرّويّ، فما غَنّتْ قينةٌ إنّ أرادتْ أعذبَ منه... ثُمّ أعطوا هذا الفتى كلّ ما جَمَعه القُضاة في سنتِنا هذه». فقامَ خازنُ المال إلى غرفةٍ مُطرِفة، ففتحَ بابَها المُقفَل، وغابَ في سوادِها، غيرَ أنّ قناديل المجلس الّذي نحنُ فيه ألقَتْ على ظهره الّذي كنتُ ألمحهُ من هنا ظِلاًّ، فرأيتُ فيه شيطانًا ذا جذعٍ مُقوّس، ثُمّ رأيتُ صوتَ صفقةٍ بعدَ انحناءته تلك، ثّمّ خرجَ فدفعَ إليّ صندوقًا مُتَرْبَسًا، فاحتملتُه، وتركتُهم يُغنّون ما وهبْتُهم. ووضعتُ الصّندوق فوق السّرج، ومسحتُ على عنق الأدهم، وشددتُ إلى غايةٍ لا يقوم بها إلاّ هذا القَدْرُ من المال، وأنا أُسقِطُ تحتَ نعلي ما عَلِق بي - وأنا خارجٌ - من أصواتِهم وألحانهم!

(٩)

الموعِدُ الثّورةُ والكافِلُ الله

فلمّا وصلتُ إلى الخان الّذي أعيشُ فيه. فتحتُ الصّندوق أُمنّي نفسي بما يلمعُ في جوفه من الدّنانير، فما عثرتُ فيه على ما يَبُلّ الرّيق، وكان فارِغًا على الإجمال، فبلغَ منّي الغيظُ مبلغًا عظيمًا، ووجدتُ فيه صُرّة فيها بعضُ الدّراهم، ورَقًّا مكتوبًا فيه: «إنّنا نُعطِي أكثر مِمّا نأخذ، وما أعطيتَنا إلاّ كلامًا». فثارتْ ثائرتي، ومزّقتُ الرّقّ، ورميتُ الصّندوق بالجدار فتكسّر، ولم أدرِ أَألوم هذا الأمير أم ألومُ نفسي على تذلُّلي إليه بنفيسِ شِعري، وشعرتُ بالغُبن والخديعة، ووقعتُ - إلى ذلك - في حيرةٍ من أمري، وتساءلتُ: كيفَ يطربُ لشِعري هذا الطّرب، ثُمّ يُعطيني هذا العَطاء الهزيل الّذي لا يُذكر؟! أفيكون هو مَنْ فعل هذا أمْ حاجِبُه؟! ثُمّ إنّه أوحى إلى خازنِ بيتِ المال أنْ يُعطيني ما جمَع بيتُ القَضاء؟ أفكان هو صادِقًا، وما كانت الخِيانةُ إلاّ من وزيره؟! ولْيكن، لو كان الأمر من تدبيرهما فإنّني قد ابتعلتُ الطُّعمَ بالفِعل، وسيكون هؤلاء ينظرون إلى الشِّعر هذه النّظرة الوضيعة حَقًّا، ولا بُدّ أنّه عندهم ليسَ أكثرَ من لَحنٍ يُغنّى بأفواه النّساء، ويتُمايل به مع جذوع الرّاقصات الخليعات... وعلى أيّة حالٍ، فإنّ هذا الأمير الحَدَث الّذي هو في مثل سِنّي أو يكبرني قليلاً فَعَلَها معي، ولو لمْ يكنْ راضِيًا أو على عِلْمٍ بما

يحمله الصّندوق فلن يتركني هكذا أواجه هذا الفَعْلَةَ الشّنيعة، وقلتُ في نفسي: أنتظر ليلةً أو اثنتَين، فلعلّه حينَ يعلم بها حدث، يبعثُ لي مَنْ يعرفُ قدري ويُجزِل لي المَثوبة، وانتظرتُ بالفِعل ليلتَين، فما جاءني أحد، ولا طرقَ بابي طارق، واتّهمتُ نفسي، وسقطتُ في شعورٍ فظيعٍ مُؤلمٍ لا يُطاق، وعلمتُ أنّ الملوكَ أخسُّ النّاس في الباطن وإنْ ظهروا على غير ذلك، وأنّه لا سبيل إلى اللّقاء معهم، وأنّه عَلَيّ بعدَ هذا أنْ أدوسَهم، وأصعدَ على أكتافهم، ونشأَ في نفسي منذُ تلك الحادثةِ احتقارٌ كبيرٌ لهم.

ظللتُ أقرعُ سِنّ النّدم أسبوعًا، ألزمُ حِلْسَ الخان، ولا أخرجُ منه إلاّ لِمامًا، وأنا في ألمٍ وبُؤسٍ وحيرة، ولم يكنْ معي من المال ما يُعينني، ونقمتُ على الزّمان والبشر والمكان، ولم أُخْلِ نفسي من ذلك فنَقِمْتُ عليها، وخرجتُ من الخان إلى ظاهر أنطاكيّة، وأنا أركبُ الأدهم، وركضتُ به في المدى الفسيح وأنا أصيح، وظللتُ سحابةَ النّهار أركضُ لا أدري إلى أينَ حتّى ضَبَحَ الأدهم ولَهَث، ونَفَرَ ونَخَر، وتَعِبَ وما تعبتُ، حتّى حار في أمري، فلمّا بلَغَ منه الجهد حَرَن، فما عادَ يستجيبُ لي، ولوى رَقَبَتَه، وحفر الأرضَ بحوافره، وصَهَلَ صهيل المُتعَبِ الحزين، ثُمّ جَثَم، فقفزتُ عنه كي لا أُدفَنَ تحته، وظلّ على مَبرَكِه، ونام، وأخذني أنا ما أخذَه من الرَّهَق، فنمتُ إلى جواره، فما استيقظتُ إلاّ في اللّيل على حفيفِ خِطامه يُمرّره على وجهي، وصوتِ ضُباحِه من منخرَيه ينفثُ بهما هواءً حارًّا على وجنتَيّ، فركبتُه بائِسًا، وعدتُ به إلى الخان، ثُمّ قضيتُ سائر اللّيل أُفكّر فيما يجب أنْ أفعل، فما زارني نومٌ ولا عادَني، فخرجتُ أجرّ رِجلَيّ، والأدهم يتبعني بنَظَراته وقد تركتُه في الخان، ومضيتُ حتّى تَقَطّعَ شِسْعُ نعلي، فلمّا استقبلني حِضنُ الأُفَق،

صرختُ بالشّعر صرخة الثّائر النّاقِم:

فُـــؤَادٌ مـــا تُسَـــلّيهِ المُـــدامُ
وَعُمْـــرٌ مِثْـــلُ مـــا تَهَـــبُ اللِّئامُ
وَدَهْـــرٌ ناسُـــهُ نـــاسٌ صِغـــارٌ
وَإِنْ كانَـــتْ لَهُـــم جُثَـــثٌ ضِخامُ
وَما أَنـــا مِنهُـــمُ بِالعَيْـــشِ فيهِمْ
وَلَكِـــنْ مَعْـــدِنُ الذَّهَـــبِ الرَّغامُ
أَرانِـــبُ غَـــيْرَ أَنَّهُـــمُ مُلـــوكٌ
مُفَتَّحَـــةٌ عُيونُهُـــمُ نِيـــامُ

ومضتِ القصيدة على هذا النّحو، يسيل منها الغضَبُ مُضرّجًا بالدّم، وتعلو فيها أصواتُ السّيوف على أصواتِ صرخات المذبوحين. ثُمّ لمّا فرغتُ منها أو من بعضِها، زفرتُ زفرةً طويلةً فرأيتُ النّجومَ على سَجى اللّيل تشتعلُ بِحَرِّ تلك الزّفرة وتَتّقد، ثُمّ إنّني عُدْتُ إلى الخان، وعزمتُ على أنّه لا سبيل إلاّ إلى الثّورة.

فلمّا صار ضُحى اليوم التّالي، مضيتُ إلى المسجد فأعطيتُ آخر دروسي في النّحو. وصرختُ في آخر ساعةٍ من ذلك النّهار في وجه من حضرَ المجلس: «إنّ هذا القلبَ لم يُخلَقْ ليعشق، وإنّما ليمتلأ بالحِقد على طَغامِ مُلُوكِكم، وإنّ هذه الذّراع لم تُخلَق لتحمل فُتات الطّعام، وإنّما لتحمل الرُّمح الشّاجِر في أرواح أُمَرائِكم، وإنّ هذا الكاهل لم يُخلَق لتُحمَل عليه جِرارُ الماء، وإنّما لَيُرفَع عليه السّيفُ فتُضرَبَ به أعناقُ أسيادِكم، وإنّكم إنْ لم تكونوا على ما ذكرتُ فإنّكم أذلُّ مِنَ العير،

وأوضعُ من الضّباع، وأخسُّ من الذّباب، وأحطّ من القُرود». وراحَ التّلاميذُ ينظرون إليّ مع كلّ عبارةٍ نظرةَ المَخُوف، ويحدجُ بعضُهم بعضًا حَدْجةَ المُرتاب، ثُمّ إنّي قُمتُ عنهم فما سمعتُ منهم غيرَ همهمات الفزع يومَ الرّوع، وتركتُ المسجد، وعُدتُ إلى الخان، فجمعتُ كُتُبي ورُقُوقي، ودُوِيَّ حِبْري، ثُمّ انتزعتُ رَقًّا من بينها، وكتبتُ فيه عهدً لفتيان (أنطاكيّة) أنْ يوافوني في (سَلَمْية) حينَ يحينُ الحَين، وقلتُ لهم: «الموعدُ الثّورة، والكافلُ الله».

وحللتُ خِطام الأدهم، وعَلَوْتُه، ثُمّ هَمَزْتُه فمضيتُ إلى (اللاذقيّة)، ولا أدري لِمَ قصدتُها، وقد كنتُ تركتُها، غيرَ أنّني أردتُ أنْ أتّصل بأبي عبد الله مُعاذ بن إسماعيل الّذي كان يختلفُ إليّ أيّامَ إقامتي فيها، ويجمَعُ إليّ الشّباب وأهل الفُتُوّة والشِّرَة.

وصلتُ إلى (اللاّذقيّة) في بعضِ نهارٍ، كأنّني كنتُ أطيرُ طيرًا، وأسبحُ مع الأدهم سِباحةً، ووافيتُ أبا عبد الله عصر ذلك اليوم، فقلتُ له: «اجمعْ لي فتيان اللاذقيّة». فقال لي: «ألا ترتاحُ من سفرك؟». فقلتُ: «لا راحةَ لي بعدَ اليوم». «فلو أنّكَ نِمتَ فجمعتُهم لك فجر الغد». «لقد نَفى عنّي النّومَ هذا الأمرُ الّذي عزمتُ عليه». «أهو على هذه الخطورة حتّى لا يحتمل التّأجيل؟!». «إنّه على خَطَرٍ وقَدَرٍ لا يكون إلاّ لمن هم مثلي». «فأينَ أجدُ لكَ في هذا الوقتِ منْ يجتمع إليك؟!». فنهرتُه، وقبضتُ على رُسغِه قبضةَ جَبّار، وصرختُ في وجهه: «لا تكنْ خَوّارًا». فرأيتُ الفَرَقَ في وجهه، فنفَضَ يده وخرجَ مُسرِعًا.

فما مضتْ ساعةٌ حتّى تقاطَرَ القوم، وراحَ بعضُهم يدعو نُظَراءَه، فأصقَبُوا إليّ، فلمّا تَمّ عِدادُ مِئةٍ منهم، أشهرتُ السّيف، ثُمّ اتّكأتُ عليه،

وقمتُ فيهم خطيبًا: «إنّكم ترون أنّ هذه الأمّة الضّالّة لا يَرُدُّها عن ضَلالِها إلاّ نُبُوّة، وإنّ النُّبوّة قد مضت، وإنّ الكتابَ قد نزل، فالنُّبوّة العُلُوُّ عن رَذْلهم، والكتاب هذا الشّعر الّذي أقولُهُ يوحِي به الله إليّ فأهدي بهم شارِدَهم، وأُوقِظُ به نائِمَهم، وأجمع به كلمتَهم على الرّأي الجامع، وإنّكم ترون أنّ هؤلاء الملوكَ الفَسَدةَ الفَسَقَة لا يردعهم إلاّ السّيف، وإنّني عزمتُ على أنْ أُقاتِلهم حتّى أظفرَ بمُلْكِ لي ولكم، نملأ فيه الدُّنيا عدْلاً كما ملؤوها جَوْرًا، فهل أنتمْ على قَدْر هذه الدّعوة، أمْ أنّكمْ لستُم بِذاك؟!». وصمتُّ أنظرُ في وجوهم أرى أثَرَ ما قلتُ فيهم، ومرّتْ لَحَظَاتٌ كان القومُ فيها مُطِرقين صامِتين لا ينبِسون بحرفٍ، حتّى قامَ منهم قائِمٌ، فأشهَرَ سَيْفَه مثلما فعلتُ أوّلَ خُطبتي، وهتف: «إنّ هؤلاء الّذين تروهم - وأشار بسيفه نحوهم - على قلبِ رجلٍ واحدٍ معك، وإنّهم يَرَون ما ترى، وإنّنا وجدْنا من العنَتِ من ملوكنا ما وجدت، وابتُلِينا من الضّنَك بما ابتُليت، وإنّنا لا نترُكُكَ لقَدَرِك وحدكَ؛ فامْضِ نمضِ في رِكابك، فإنّكَ لو قاتلتَ بنا سُرَب جُيوشِهمْ لقاتلناهم دُونَك، وإنّكَ لو خُضْتَ بنا نهرَ الفُراتِ لخُضناه معك». ثُمّ زَفَر وصَمت، فتقدّمتُ إليه، فشددتُ على يَدَيه، ونظرتُ في عينَيه طويلاً فإذا هما تقدحان شَرَرًا، فسألتُه: «مَنْ أنت؟». فرّد: «وما يعنيكَ من اسمي؟ إنّما تريدُ هذا السّيف، وإنّنا لنُسمّى به، وأنعِمْ به من نسبٍ إليه ننتسب». فافترّتْ شفتاي عن بسمةٍ واسعةٍ لم تظهرْ على وجهي مرّة واحدةً منذُ خرجتُ من الكوفة، وهتفتُ: «أفتُبايِعُ على الموت؟». فردّ واثِقًا: «أبايِعُ». فسألتُه: «فما الضّامن؟». فردّ: «هذا السّيف، وهؤلاء القوم»، فنظرتُ إليهم، فلمّا حلّتْ عليهم نظرتي اشتعلَتْ فيهم نارٌ لا أدري كيفَ اشتعلتْ، فوقفوا على أرجلهم، وأشهروا سيوفهم وهم يهتفون، فبايَعُوني واحِدًا واحِدًا. ثُمّ إنّني بعثتُ هذا الفتى الّذي رَدّ

عَلَيّ أوّل الأمر إلى بني كلب من بادية السّماوة، وطلبْتُ منه أنْ يجمعَ إليّ فِتْيانهم، ويُذكّرهم بالعهد الّذي قَطَعُوه، وكتبتُ في رَقٍّ بيتَين من الشّعر، وقلتُ له: «إذا حللتَ فيهم، فاقرأهما على مسامعهم يُجيبوكَ إلينا»، وأنشدتُ البيتَين أمام القوم:

مُحِبِّــي قِيَامي مَــا لِذَلِكُــمُ النَّصْلِ
بَرِيْئاً مِنَ الجَرْحَى سَــلِيمًا مِنَ القَتْلِ
أَرَى مِــنْ فِرِنْدِي قِطْعَــةً في فِرِنْدِهِ
وَجَوْدَةُ ضَرْبِ الهامِ في جَوْدَةِ الصَّقْلِ

فهاجُوا، وماجوا، وصرخوا بالثّار: «لا يسلمُ الشّرفُ الرّفيعُ من الأذى حتّى يُراقَ على جوانبه الدّم». فرأيتُ فيما قالوا رُوحي. ثُمّ قلتُ لهم: «قبلَ أنْ ينقضي الوقتُ بيننا هنا لا بُدّ أنْ نتّخذ موضعًا تكون فيه دعوتنا»، فقال أمثلهم: «فما ترى؟». فقلتُ: «سَلَمْية موطن الدّعوة، وموضع الثّأر، ومُنطلَق المُلْك». فقال أحدُهم: «فإنّها بعيدةٌ من هنا، وإنّها لتحتاجُ ليلتَين حتّى نصلَ إليها»، فنهرتُ القائل: «وما اللّيلتان والأسبوع والشّهر إلى ما عَزَمْنا عليه، أمْسِكْ عليكَ لِسانَك أيّها الجَبان، إنّ هذه الدّعوة لا يقومُ بها إلاّ الأشدّاء الألِدّاء». فخَنَس. وأنغضَ رأسَه، وحَقَرَهُ القوم، فما وجدَ من سبيلٍ ليخرجَ مِمّا أوقعَ فيه نفسَه إلاّ أنْ يعتذر، فهتف: «اغفرْ لي أيّها الدّاعي، فإنَّ اللّفظ خانني، وهذا عُنُقي بين يديك» فلم أقبلْ عُذرَه، وطلبتُ من الفتى أنْ يَنبُذَه فلا يكون في جُنودنا ألبتّة، وأنْ يُرجِعه طفلاً إلى أُمّه يرعى السّائِمة، ثُمّ هتفتُ: «مَنْ كان له سيفٌ وراحِلة، فليمْضِ من السّاعة إلى (سلمْيةَ) ففيها المُقام». فخرجوا يتدافَعون ويتصايَحون.

ثُمّ لَمّا خلا المكان، ولم يبقَ إلاّ أبو عبد الله وكان يسمع ويرى وهو خائفٌ مُشفِقٌ مُهتال، قلتُ له: «اجمَعْ لي بَنِي عديّ». فبلعَ ريقه وقال: «وعلامَ أجمعهم لك؟». «على ما جَمَعتَ عليه هؤلاء». «فماذا ستقول لهم؟». «وما شأنُكَ بما سأقول، إنّ الحرفَ عجينٌ في يدَيّ، فاترْك لي هذا، إنّما الثّوابُ العاجِلُ لِمَنْ أطاعَ وأتى، وضَرْبُ الرّقابِ لِمَنْ عَصى وأبى». فردّ وهو يرجفُ: «إنّ هذا أمرٌ عظيمٌ أخافُ منه عليك»، فكدتُ أصفعه، أو أضربَ عنقه بِحَدِّ سيفي، غيرَ أنّني استعضتُ عن ذلك بقولي مُرتجِلاً:

أَبَــا عَبْــدِ الإِلَـــهِ مُعـــاذُ إِنّي
خَفِـــيٌّ عَنـــكَ في الهَيْجَـــا مَقَامي
ذَكَرْتُ جَسِـــيْمَ مـــا طَلَبِـــي وَأنّا
نُخاطِـــرُ فِيْـــهِ بِالمُهَـــجِ الجِســـامِ
وَلَو بَـــرَزَ الزَّمَـــانُ إِلَيّ شَـــخْصًا
لَخَضَّـــبَ شَـــعْرَ مَفْرِقِهِ حُســـامي

فخرجَ وهو يُحوقِل، ومضى إلى بَنِي عَدِيّ يدعوهم بدعوتي، وإنّني ركبتُ الأدهمَ، وهتفتُ وأنا أمضي إلى (سَلَمْية):

إِذَا امْتَــلأتْ عُيــونُ الخَيْــلُ مِنّي
فَوَيــلٌ في التَّيَقُّــظِ وَالمَنَــامِ

(١٠)

إنَّ الصَّحْرَاءَ قَدْ ضَجَّتْ وعَجَّتْ

وصلتُ إلى (سلمْية)، فوجدتُ بعضَ الفِتيان قد بلغوها قبلي، وأقمتُ يومَين، أنتظرُ توافُدَ القوم، فاجتمَع إليّ فيهما ألفُ فتًى يقطُر الدّمُ من سُيُوفهم، فدار في خاطري أنّني بهؤلاء الألف لا أملكُ أمرَ الشّامِ فحسبُ، بل أملك إليها الحجاز والعِراقَين، وأعودُ خليفةً عليها كُلِّها، غيرَ أنّ ذلك لم يكنْ كُلَّ ما في الأمر، فإنّنا قد أقمْنا بعدَ ذلك شهرًا والفِتيانُ لا يكفُّون عن التّقاطرِ إلينا، فلمّا اجتَمَع في (سلمية) حولي أربعةُ آلافِ فارسٍ تحرّكَ فينا إلى القتلِ الطّعامُ والمَنام، وكان لا بُدّ من الإغارة، فاخترتُ مئتَي فارسٍ شديدٍ، فأغرتُ بهم على القُرى القريبة، فقاتَلْنا مَنْ قاتَلَنا منهم، وكتَبْنا على الصُّلْح من سالمَنا، وقلتُ لأهل القرى: «ما جِئتُ غازِيًا للآمِنين، إنّما الجيشُ الّذي لي يحتاجُ إلى الطّعام والمال، فاحْتَجِنوا هنا في هذه السّاحة ما فَضَل منهما عندكم فإنّ الإخوةَ يقتسمون، ولكمُ الأمان، وإنّني إذا أظهرني الله، جعلتُكم خاصّتي؛ لأنّكم أوّلُ مَن شَهِدَ وجهي، وبَلَغتْه دعوتي». فجَمَعْنا لآلافِنا الأربعةَ من تلك القُرى ما يكفينا شهرًا، فلمّا عُدتُ بالغنائِم إليهم هلّلوا وكبَّروا، فقمتُ فيهم خطيبًا: «إنّ ما جمعْناه لا يُقيم الأوَد، وإنّنا لسنا دُعاةَ دمٍ من أجل الدّم، وإنّنا لن نعودَ إلى ذلك مرّة أُخرى، ثُمّ إنّ هذا القِتال لِعامّة النّاس سيُثير حولنا الضّغائن وسيفشو أمرُنا إلى الخليفة

أو عُمّاله على المُدُنِ القريبة من هنا فيُباغِتوننا، ويغزوننا في عُقْر دارِنا، وما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلاّ ذَلُّوا، وإنّ دعوَتنا لا بُدّ أنْ تكون في بدايتِها سِرّيّة، ثُمّ نجهر بالدّعوة حينَ يكون لنا جيشٌ عرمرمٌ لا يُهزَم، وحينَ تكون رايتُنا مَكِينةً عَصِيّةً على أنْ تسقط». فقال أحدُهم: «فأمّا سِرّيّة الدّعوة فلكَ ذلك، وأمّا القُوتُ فأينَ نجدُ بعدَ حينٍ ما نأكل منه ونعتاشُ به؟!». فقلت: «إنّ هذه الأرضُ خَصْبة، وإنّ هذا الماء الّذي هنا كثير، فسنزرعُها ونأكل من جَنى ما نزرع». «فأينَ ننام؟ إنّ هذه الخيام لا تسترُ غدًا من برد الشّتاء ولا من مَطَرِه». فقلتُ: «سنبني بيوتَنا بأيدينا، وإنّ الطّينَ والماء والحجارة كثير». فأقمْنا على ذلك شهرًا، نزرعُ ونبني، حتّى تمّتْ لنا قريةٌ في ظاهر (سلَمْية).

ومع البناء والزّراعة جعلتُ أفرَسَنا يُدرّب على القِتال أضعَفَنا، فكُنّا نخرج إلى ساحةٍ أعددْناها للتّدريب والمِران، كان على كلّ سالكٍ في سبيل الفروسيّة أنْ يأخذَ بآدابِها، ويتخلّق بأخلاقِها. وكانَ علَيّ أميرًا لهذا الجيش أنْ أضعَ خُطّة لتعليم الفروسيّة مستشيرًا مَنْ كان له باعٌ طويلٌ فيها.

كُنّا نبدأ بالإحماء، فعلى الفارس أنْ يستيقظَ فجرًا، ويركضَ على رِجلَيه أربعةَ فراسخ في اليوم، فإذا تَمّ له أسبوعٌ على ذلك، فيدخلُ في الجري مُسابِقًا خيلاً مطرودة، فيبقى على ذلك حتّى تكادُ تعادل سرعتُه سرعةَ الخيل.

وأمّا المرحلة الأولى من التّدرّب على القتال، فتكونُ بالعَصا ليعرف منها المُبتدِئ شكل الحركة، فإذا أتقنَها أُعطِيَ سيفًا صقيلاً. ولم تكنِ السّيوف في البداية كثيرة، فقد كانَ أكثرُ من نصفِنا لا يحملُ

سيفًا، وكذلك كانتِ الجيادُ، غيرَ أنّه كانَ في جيشِنا حَدّادون مَهرة، صنعوا السّيوفَ وشحَذوها، وكُنّا نشتري بعدَ أنْ غبَر على إقامتنا هنا ستّة أشهرٍ السّيوفَ والخيولَ من بَيْعِ ما نزرع. وأعدَدْنا في إسطبلاتٍ الفُحولَ للأفراس الإناثَ من أجلِ أنْ تُنتَج. ولم يكنْ في جيشنا ذِكرٌ لامرأة، ولا نزوعٌ إلى جسدٍ أنثويّ، على الأقلّ كُنتُ أكبِتُ ذلك فيهم، ومَنْ غلَبَتْه شهوتُه أُرسِله إلى أهلِه فيقضي منها وَطَره، أو إلى جاريته فيُشبعُ بها رَغبَته. وأمّا هنا في هذه السُّوح في (سَلَمْية) فلم يكنْ غيرُنا نحنَ الرّجال الأشاوس، والفرسان الصُّلْد، ولا مكانَ لغريزةٍ تُضعِفُ الفارس، أو تحرفه عن غايته.

وكان في جيشي الخَيّالةُ والرَّجّالة، فمنْ لم يجدْ خيلاً رَجَل. وكان كلٌّ منهما فارِسًا. تدرّب في ثلاثة شهورٍ أو أكثر على الضّربِ بالسّيف، والطّعنِ بالرّمح، والرّشق بالنّبل، والإنفاذ بالسّهم. وكان فينا الجَمّارون والنّشّابون والزّرّاقون والنّفاطون ورُماة الجُروخ. واشترينا من بعدُ الدّروعَ والمغافر، فلِبسَها أمراءُ السّرايا، ثُمّ شاعتْ بعدُ فلبسها غيرُهم.

كُنّا نخرج إلى السّاحة الخَلاء خارج البيوتات، فيصطفّ في الجزء الأوّل من النّهار المُتدرّبون على أرجلهم، فيُقابِلُ كلّ واحدٍ خَصْمَه، وكان على كلّ منهما أنْ يمتاز بالسّرعة والقُوّة والخِفّة، وأنْ يكونَ قادِرًا على أنْ يرتقي بجِسمه إلى الأعلى حتّى يكونَ أخمصَا قدمَيه أعلى من هامة مُقاتِله. فإذا تَمّ ذلك حتّى ترتفع الشّمسُ، طلبتُ منهم أنْ تُواجِه السَّرِيّةُ السَّرِيّةَ كأنّها حربٌ بين فرقتَين، فإذا أخذتْ من الوقت حَظّها، وصارتِ الشّمسُ فوقَ الرّؤوس، أرحْنا لنتغدّى. ثُمّ عُدْنا من بعدُ فقابلْتُ الكتيبة بالكتيبة، كأنّها حربٌ بين جيشَين، وكنتُ أصيحُ فيه أنْ يطعنوا كأنّهم في

الوطيس أمام عدوّهم، وألاّ تختلج في قلوبهم رأفةٌ بخصومهم، فكان يموتُ في سبيل ذلك بضعةُ مُقاتِلين، ويُجرَح العَشَرات، وكُنّا نرثي مَنْ مات بقصائدَ أقولُها أو يقولها غيري، وندفنهم في خَلاءٍ في قبورٍ دون شواهد. وكُنّا نداوي الجرحى بالماء والخُبز والعُشبِ والكلمة الطّيّبة.

ثُـمّ علّمْتُهـم فنـون الزّحـف، وفنون القِتـال على ظهـور الخيل، والفنـون الإغـارة عـلى الجيـشِ الجاثِـم، وفنـون القِتـال عـلى المتـون السّـابِحة، ثُـمّ تَمّـتْ لنـا الكتيبـة الخرسـاء، والكتيبـة الشّـهباء، وكتيبة الإقـدام، وكتيبـة الإعـدام.

وعَمّتْ دعوتي مُدُنَ الشّام كلّها، وسَمِعَ بها القاصي والدّاني، وهوتِ القبائل العربيّة في البادية إلينا هُويّ القَطا العِطاش إلى الوِرد العَذْب، حَتّى فاضَ عن أنْ نقدر على تدريب سالِكيه، فناديتُ أنْ توقّفوا عن قبول الفُرسان الجُدُد، فإنّ الصّحراء قد ضَجّت وعَجّت، وإنّ الدّيمومة قد لَجّتْ وارتَجّتْ.

ولّما مَضى على ذلك سنةٌ أيقنتُ أنّه آنَ الأوان لقِتال ذوي السُّلطان الغاشمين، والبُلَهاءَ الّذين يجلسون على الكراسيّ المُذهّبة في القصور المُنيفة، وقلتُ لمجلسِ شورى من فتيانٍ كأنّ أحداقَهم حِلَقُ المراود: «ما ترون؟». «لقد صار أمرُنا عظيمًا». «فأشيروا عَلَيّ». «أعمِلِ السّيف، فإنّ الرّقابَ لا تدين إلاّ له». «أعرف، غيرَ أنّني أسأل عن النّهج والخُطّة». «لم نُفكّر بذلك من قبلُ، أشِرْ أنتَ علينا». «إنّ الدّولة مركزٌ وأطراف، تضعفُ كلّما خرجتَ من المركز إلى الأطراف، مثلَ الثوبُ إذا أردتَ أنْ تنسله وتُعيده خيوطًا، فابدأ من الأطراف، فإذا تَمّ لكَ ابِتلاعُ الجوارح

سَقَطَ الرّأسُ من تلقاء نفسِه». «فأوضِحْ لنا، فإنّ الأمر اختلطَ علينا». «سنُغيرُ على القرى الّتي حولَنا، ونُخضِعَها لنا قريةً قريةً حتّى نصلَ إلى دمشق، فإذا أخضعْنا دمشقَ سَهُلَ أنْ تسقط حماة وحمصُ واللاّذقية وغيرها». «نحنُ معك، لا نقطعُ أمرًا دونك». «فاجْمَعوا لي قادة الفصائل والسّرايا، واجعلوا كلّ قائدٍ من بطنٍ أو فخذٍ أو قبيلةٍ أميرًا على كتيبةٍ ينتسبُ أكثرُها إليه، حتّى لا يفرّ منهم فارٌّ أمام أبناء عمومته فيكون ذلك عارًا يلحقُ به إلى يوم مماته». فنظَر بعضُهم في وجوه بعضٍ مُقرّين، ثُمَّ بسطتُ أمامهم رُقعةً من جلدٍ فيها جغرافيّة الشّام كلّها، كنتُ قد عملتُ على رَسْمِها طَوال المُدّة الماضِية، فلم يكن في البِلادِ كلّها مَنْ يعرفُها أكثرَ منّي، وحدّدْتُ باللّون الأحمر موقَعنا في (سَلَمْية)، وباللّون الأخضر القُرى الّتي سنُخضِعها في الشّهر الأوّل، وباللّون الأصفر القُرى التي سنُخضِعها في الشّهر الثّاني، وباللّون الأزرق القُرى الّتي سنُخضِعها بعدَ ذلك. فأمّا قرى الأخضر فسُنَيدة والصّفاوي والخَفِيّة وتلّ التّوت والمالِحة، وأمّا قُرى الأصفر فتل الدّرّة وقُبّة الكرديّ والدُّمينة وغور العاصي والرَّسْتن، وأمّا قُرى الأزرق فتَلْبيسة والزّعفرانة والأشرفيّة والجابريّة... ثُمّ تنهّدتُ وأسندتُ جِذعي بعدَ ذلك، وسألتُهم: «فإذا تَمّ ذلك لنا، وهو واقِعٌ لا محالة، فأينَ نتّجه؟». فقال أحدُهم: «إلى حمص، فإنّها أكبر مدن هذه البوادي من الحواضر». فهتفتُ: «كلاّ، بل دمشق، فإنّ الأطراف تكون قد نسلت، فَلِمَ لا نبتلعُ الرّأس؟!». فأقرّوني على ذلك. ثُمّ إنّنا بِتْنا تلك اللّيلة نُعِدّ العُدّة، ونجمع السّلاح، ونُهيِّئ الخيول، ونبتهل إلى الله بالدُّعاء. وأمرتُهم من بعدُ أنْ يعودوا إلى مواقعهم، وأنْ يرتاحوا، فإنّ غدًا لناظره قريب.

فلمّا سار اللّيل وسرى، عادَني من أيّامي الأولى ما عادَني، فلم يطرقْ طارقُ النّوم عينَيّ، فقُمتُ أطوفُ على البيوت والخِيام أتفقّد الجيشَ الّذي أَعِدّ للإغارة غدًا، فوجدتُ مَنْ أمرْناه بالنّوم قد نام، ومن أمرناه بِشَحذ السُّيوف وتثقيف الرّماح وتَرْييش السّهام يفعل ما أُمِرَ به، غير أنّني مررتُ بخيمةٍ فيها أربعة فتيانٍ يتمازَحون ويتضاحَكون، وقد انقطع ضَحِكُهم بغتةً حينَ قال أحدُهم: «علامَ ننقادُ لهذا الفتى المدعوّ أحمد بن الحُسين، يقودنا قَوْد السّائمة، ويخدعنا بحُسنِ بيانه، وقَسامة وجهه، وما هو إلاّ فتًى شريدٌ طرَدَه القرامطة من الكوفة فجال في البوادي فقيرًا، وأنتم ترونَ ما تَمّ له اليوم، وهو حَدَثٌ أصغر منّا سِنًّا، وأقلّ مِنّا تجربةً، فأينَ ذهبتْ عُقولُنا حتّى نُسلِّمَ له بكلّ شيءٍ؟!». فما كادَ يُتِمُّ ذلك حتّى اقتحمتُ عليهم الخيمة، وأشهرتُ السّيف، فخافوا، وسارعوا إلى الوقوف على أرجلهم وتراجَعوا إلى الوراء، ورأوا الغضَبَ في عينَيّ، فقال أحدُهم: «لستُ أنا». وقال الثّاني: «لم أَفُهْ بكلمةٍ مِمّا سمعت». فصرختُ: «أَوَ تَعرِفُ ما سمعت؟ أفيكون الأمر لكم أيّها الحمقى، أمْ لهَذَا القائم في يدي، ووالله لو لا أنْ يقولوا إنّ أحمدَ بن مُحمّدٍ يقتلُ أصحابه لوددتُ أنْ تشربَ هذه الظُّبا من دمائِكم جميعًا». ثُمّ قال الثّالث وهو يبلع ريقه ولا يكادُ يُبين: «وأمّا أنا فأعرفُ لك قَدْرك فلا تأخُذَنّي بما فعل السّفهاء منّا». وخرّ الرّابعُ على قدمَيه، وجَثا على رُكبتَيه، حينَ رآني أُقبِلَ نحو أكادُ أُطيِّرُ رأسَه من فوقِ كتفَيه، وسمعتُه يقول باستخذاء: «أعرفُ أنّني أتيتُ العَوْراء البَوْراء، وإنّ عنقي لك فافعلْ ما ترى». فلّما خضَع هذا الخُضوع، لطمتُه بظاهر شِمالي، ثُمّ أقمْتُه من جُثُوِّه ونظرتُ في عينَيه وأنا أفور من الغَضب: «لا تخضعْ لأحدٍ، ولا تذلّ لمخلوق، وإنْ كانَ عليكَ أنْ تُواجِهَ الموتَ فمُبتسِمًا مرفوعَ الهامةِ مَشدودَ

الصّدرِ أيّها الأخرق» ثُمّ وكزتُه بيدي فتقهقر إلى أصحابه، فأنشدتُ من لحظتي:

قِفَا تَرَيا وَذْقِي فَهَاتَا المَخَايِلُ
وَلا تَخْشَيا خُلْفًا لِمَا أَنَا قَائِلُ

رَمَانِي خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ اسْتِهِ
وَآخَرُ قُطْنٌ مِنْ يَدَيْهِ الجَنَادِلُ

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهْوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ
وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِيَ جاهِلُ

تُحَقِّرُ عِنْدي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ
وَيَقْصُرُ في عَيْنِي المَدَى المُتَطَاوِلُ

ثُمّ أمرتُهم أنْ يناموا، لكي لا يسقطُ السّيفُ من أيديهم صبيحة الغد. فلمّا كانَ ما كانَ مَلَكْنا أمور القُرى كما خَطّطْتُ، وكنتُ إذا دخلتُ قريةً أصلحْتُ طُرُقَها، وأمّنْتُ أهلَها، وجعلتُ عليها حاميةً من الجُند يُعرَف لها اللّواء، وكان لواؤنا أسودَ، منقوشٌ فيه: «وما النّصر إلاّ من عند الله».

وفَشَا أمرُنا في الدّيار كلّها، وسارَ اسمي بين النّاس وشاع، وذاع ذيوعًا لم يكنْ لفتًى في السّابعةَ عشرة مثلي إلاّ للقُرمطيّ يوم رأيته حينَ دخل الكوفة، واختلفوا في هذا الّذي دانتْ له هذه البِقاع، فمِنْ قائلٍ: «إنّه قاطِعُ طريقٍ جَمَعَ إليه اللّصوص والصّعاليك يريدُ بهم أمرًا لا طاقةً له به»، ومن قائلٍ: «إنّه فتًى من أشراف الكوفة

دَفَعَه ثأرٌ قديمٌ عند الخليفة أنْ يطلبَ به رأسَه». ومن قائلٍ: «إنّما هو نبيٌّ كذّاب، تَبِعَه الأغرار والفُجّار». وغلبتِ الصّفة الأخيرةُ عليَّ، فقالوا: «هذا المُتنبِّئُ... هذا المُتنبِّئ...»، ووجدَها الحاسِدون والحاقِدون منفذًا سهلاً إلى عقول أهل السّلطة، فزادوا فيها حتّى ألّفوا على لساني بعضَ التّرّهات قالوا إنّها قرآنٌ أتيتُ به، فمن ذلك ادّعاؤهم أنّني قلتُ في بعضِ آياتي: «والنَّجْمِ السَّيَّار، والفَلَكِ الدَّوَّار، واللَّيْلِ والنَّهار، إنَّ الكافرَ لَفِي أَخْطَار امْضِ عَلَى سُنَّتِك، وَاقْفُ أَثَرَ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِين؛ فَإِنَّ اللهَ قامِعٌ بِكَ زَيْغَ مَنْ أَلْحَدَ فِي دِيْنِه، وَضَلَّ عَنْ سَبِيْلِه». ومن يعرفُ العربيّة أو بعضَها يُدرك أنّ تلميذًا في الكُتّاب يتهجّأ الحروف يأتي بخيرٍ من هذا الهُراء المَجوج! ولكنّ أهلَ العقول يغلبهم أهلُ الهوى إذا حملوا عنهم السّيفَ باسم الدّين!!

المرحلة الثّالثة

في السِّجْن

٣٢٠ - ٣٢٢ هـ

يــا مَــنْ أَلُــوذُ بِــهِ فِيْــمَا أُؤَمِّلُهُ
وَمَــنْ أَعُــوذُ بِهِ مِمَّــا أُحَــاذِرُهُ
لا يَجْــبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْــتَ كَاسِرُهُ
وَلا يَهِيْضُــونَ عَظْمًا أَنْــتَ جَابِرُهُ

(١)

عِشْ عَزِيْزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ

ودانتْ لي قُرًى ظاهرةً وأخرى باطِنة. واستفحلَ أمري حتّى كِدتُ أمرُّ بالكتيبة في ميادين المِران لا أعرفُ منهم أحدًا لكثرتهم. وأرسلَ الخليفةُ إلى عُمّاله في حواضر الشّام يستخبرونهم خُبري، فتنطّعَ صاحِبُ حمص، وهو أخرقُ يلعبُ الأطفال بعقلِه، فقال للخليفة: «أنا أكفيكَه، على أنْ تُعطِيَ الإخشيدَ شرقَ الشّام وقُراها». فوافقه الخليفةُ على ذلك.

وكاتَبَ (لُؤلُؤ الغُوريّ) أمير حمصٍ أميرَ الإخشيد (محمّد ابن طُغج) في أمري، فقال له: «إنّه هذا المُتنبّي الدَّعِيّ الّذي ظَهَر في بادية السّماوة بين أظهرنا، وجَمَعَ إليه سُفهاء الأعراب ولُصُوصَهم قد استفْحَلَ أمرُه، وإنّه مثلُ الوَرَمِ في جَسَدِ دَولتِنا، والجُرحِ المَرمُوم على الفَساد، وإنْ لم نُداوِ ما أصابَنا بسببه، فإنّه سيغلبُ عليكَ وعليّ وعلى عُمّالِنا كافّة، فأعطِني الأمر في البَتِّ بشأنِه». فوقّع ابنُ طُغجٍ في أسفلِ الكتاب: «استأصِلْ شأفتَه، ولا يَكُنْ لكَ بِه رحمة». فوجد (لؤلُؤ) في كلمة (ابن طُغج) ما ينقعُ به غُلّته.

وجمعَ (لُؤلُؤ) هذا قادةَ جيشِه، وأهلَ الرّأي في بلاطِه، وأعلمَهم أنّ الاجتِماع يكون في قصر القُبّة على أسرعِ ما يكونُ الاجتِماع، فتهَاوى القادة وأصحابُ الشُّورى إلى القصر وهم لا يدرون فيمَ جَمَعهم، ولكنّ صرخةَ التّنادي هَوّلتِ الأمر فجعلتْهُ جَلَلاً، وكانوا يتهامَسون في الشّأنِ الّذي من أجلِه دُعُوا إليه دون أنْ ينتظرَ الدّاعي انبلاجَ الفجر، ورَكِبَهم من الوسواس والهَلَعِ ما رَكِبَهم.

فلمّا تَمّ خمسون من وزرائِه وقادتِه وأهلِ مَشُورته، بسطَ بينهم الأمر: «لقد جَمَعتُكم لأمرٍ عظيم». فهمهمَ الجمعُ، فتابعَ: «إنّ غُلامًا في ربُوعنا قد رَفَعَ السّيفَ في وجه هذه الدّولةِ المُظفّرة، وسَعَى إلى شَقّ عَصَا الطّاعة». فسأل أحدُهم: «وَمَنْ يكون هذا؟!». «أحمدُ بن الحُسين». «فكم مضى من عمره؟!». «يُقال إنّه في السّابعةَ عشرة». فسرتْ همهمةٌ جديدة: «فتًى في السّابعةَ عشرة يهُزّ أركان هذه الدّولة؟!». فأسكتهم (لُؤلُؤ): «إنّ خلفَه جيشًا يفوقُ عشرة آلافِ مقاتِلٍ كُلُّهم قد أصقبوا له». «فكَيفَ جَمَعهم تحتَ إمرته؟!». فغضبَ (لُؤلُؤ) وصَرخَ بخاصّته: «أَفَجَمَعْتُكم لتستخبروا خبرَ هذا المارِق، أم لتُعينوني على القَضاء عليه؟!». فقامَ حكيمٌ من القوم، فقال: «فماذا يقول لأتباعه حتّى يجتمعوا له؟!». «لا أدري تمامًا، غيرَ أنّ الأخبار الّتي وصلتْ إليّ تقول إنّه يطلبُ ثأرًا». «لكنّ الثّأر لا يكون إلاّ لواحدٍ أو اثنتين، فهل يكون لهذه الآلاف المُؤلّفة، لا بُدّ أنّ له عليهم دالّةً من جهةٍ أخرى». «لقد سَحَرَهم بِحُسنِ كلامه، وجَمال شِعره». «إنّ حُسن الشّعر يُميل القلوب لا يُميل السّيوف». «قيل إنّه جَمَع الفقراء النّاقمين على الأغنياء». «فكمْ لهم من المُدّة معه؟!». «سنةٌ أو تزيدُ قليلاً». «إنّهم لن يسيروا خلفَه إلاّ في غارةٍ واحدةٍ أو اثنتين، أمّا

أنْ يكونوا له أكثرَ من سنةٍ فلا بُدّ أنّ في الأمر شيئًا غيرَ هذا». واستنفدَ الأميرُ كلّ ما لديه من الإجابات، وضاقَ ذرعًا بهذا الحكيم، وصرخ: «ليسَ من شأني ما حدث، إنّما ما سيحدُث، وإنّ ابن طُغج قد أمرني باستِئصال شأفته». فسكتَ الجمع، وحاروا، ولاصوا، وباصُوا، فقام صاحبُ ذقنٍ طويلةٍ يُعلِنُ الهِلالَ والعيدَ للسُّلطان، ويخطبُ له على المنابر، فوقفَ على قَدَمَيه، وتنحنح: «أنا أعرفُ كيفَ تقضي عليه». فدارتْ إليه أعناقُ القوم، واستعجله الأمير، فقال: «إنّه يُشبِه القرمطيّ في كثيرٍ من الأمور كما عرفتُ، وإنّ القَضاء عليه يكون بالدِّين والسّيف معًا، فلا السّيفُ وحده كافِيًا ولا الدّين». فردّ الأمير: «فماذا ترى؟». فسأل الشّيخُ: «إنّه نبيٌّ كَذّاب». «وهل أعلنَ بالنُّبُوّة؟!». «سنُعلِنُها عنه». وسادَ صمتٌ في المُجتمِعين، وعلتْ وجوههم الحيرة، وبعدَ طول انتِظار هتفَ الشّيخ: «ألقِ على لِسانِه رِسالَته، واجعلِ السّجَاعين يُحبِّرون آياته، وقاتِلْه بدعوى الظّهور نبيًّا جديدًا». فوجدَ الأمير الرّاحةَ في قول الشّيخ، وبدا الاستغراب والإنكار على وجوه أكثرِ الموجودين، وهتف الأمير: «إذًا فامضِ على ذلك؛ دَعْنا نُقاتِلُ نبيًّا كذّابًا، فإنّ ذلك سيجمعُ حولَنا الرّأي، وسيدعو النّاس إلى قِتالِه معنا، وسيجعل جُنودَه يتفرّقون من حولِه إذا عَلِموا أنّه يدعو إلى نُبُوّة، وقد قال محمّد لا نبيّ بعدي». وسادَ الصّمتُ من جديد، غيرَ أنّ أحدَ قادتِه قام بين يدي المُجتمِعين فهتف: «نَعلَمُ كلُّنا أنّه يدعو لنفسه لا إلى رِسالة، وأنّه يدعو لِمُلْكٍ لا إلى نُبُوّة، فكيفَ سيُصدِّقُنا النّاس؟! هل تظنّون أنّ ذلك سهل». «سيُصدّقنا النّاس إنْ أعلنّا بذلك بينهم، ونشرْنا آياتِه الكاذبات على الملأ، فإنّكَ إذا قُلتَ الكذبة البَلْقاء مرّة بعدَ مرّة، وما فترتَ عن تردادها صارتْ حقيقةً واقِعة». فتنطّع الشّيخ ليُؤيّد الأمير فيما ذهبَ إليه: «وأنا أجعل

مِنْ تلاميذي الصّغار مَنْ يكتبُ لكَ قُرآنه، ويُدبِّجُ لكَ سُوَرَه». وصاحَ الأمير: «إنّها الحربُ أيّها القادة، اجمعوا لي عشرةَ آلافِ مُقاتِل، وسأكون في مُقدّمتهم، ولن أعودَ إلى قصري هذا حتّى أقتلع جذوره من الأرض، وأجعله عبرةً لكلّ مَنْ يخرجُ على أمر الولاة».

ولم أكنْ أدري بما يدور في الخَفاء، ولستُ مِمّن يعلم الغيبَ حتّى أستكثر من الخير، فباغتَنا جيشُ (لُؤلُؤ) هذا ونحنُ نأوي في ليل أحدِ الأيّام إلى بيوتنا، فلمّا جاءني الخبر في تلك اللّيلة المشؤومة من أحدِ أفراد الطّلائِع، لبِسْتُ الدِّرع والدّلاص واللأمة والمِغفر، وأخذتُ عُدّتي للقتال، ودعوتُ قادةَ الكتائب إلى ذلك، فسَرَى في الجيشِ خبرُ هجوم أمير حمص سَرَيان النّار في الهشيم، وشاعتْ بيننا الشّائِعات المُؤيسة، فقال قائِل: «إنّهم عشرةُ آلاف فارسٍ يلبسون الحِلَق وفي أيديهم المشاعل». وقال ثانٍ: «إنّهم مئةُ ألفِ فارسٍ قد اجتمعَ إليهم كلّ مَنْ مروا به في القُرى على قِتالِنا». وقال ثالثٌ: «إنّنا نتبعُ فتًى لم يبلغ الحُلم غيرَ مُجرِّبٍ في القِتال، وجيشُ هؤلاء من الّذين فتحوا بلادَ روميّة ومَنْ هَدّدوا قصر الخليفة في بغداد». وقال رابع: «إنّه الذّبح ولا مفرّ لنا، فانفذُوا بأنفسكم». وهاجَ القوم وماجُوا، فوقفتُ بين مَنْ فَزِعَ منهم خطيبًا: «إنّما النّصر صبرُ ساعةٍ، لا يَغُرنّكم جَمْعُهم، فالإبل إذا ضُرِبت على وجوهها فرّت، لا تتَولّوا يومَ الزّحف». وكنتُ كمنْ يُخاطبُ آذانًا صمّاء وقلوبًا جوفاء، ومَنْ يستطيعُ أنْ يُسكّن رجفةَ الضّلوع في هذه الصّدور والموت يهوي نحوها كالرّيح المُرسَلة. وهتفتُ في بعضِ القادة: «اقتلوا كلّ مَنْ يفرّ، إنّه يومُ الجِلاد، فإنّ فررتُم فإلى الموت تفرّون، وصرختُ بأعلى صوتي:

وإذا لَمْ يَكُـــنْ مِـــنَ المَـــوْتِ بُـــدٌّ

فَمِـــنَ العَـــارِ أنْ تَمُـــوتَ جَبَانـــا

فكأنّني لم أُنشِدْ إلاّ الفراغ، وفرّ أكثرُ الجيشِ، ولم يثبتْ معي في ذلك اللّقاء إلاّ مِئتا مُقاتِل، فعرفتُ أنّني كنتُ أتّكِئ على جِدار من هواء، وأنّ الماء الّذي كنتُ أعدُّه موجًا مُتلاطِمًا قد راحَ ينسربُ من تحتِ رِجليّ هادِمًا كلّ ما بَنَيت. ولكنّ ذلك لم يُدخِلْ إلى قلبي من الخوفِ شيئًا، بل امتلأ قلبي بالغيظِ والحقد والغضب، وسِرْتُ بمن تبقّى معي، فقاتلتُ جيشَ (لُؤلُؤ) هذا حتّى كسرتُ حِدّة هجومهم المُباغِت، واستمرّ القِتال حتّى انبلجَ الفجر، وماتَ أكثرُ مَنْ هرب، ولقد صدقتُهم، فلو أنّهم ماتوا تحتَ ظلال السّيوف لكانَ خيرًا لهم من أنْ يموتوا تحتَ حوافر الخيول. ولمّا أشرقتِ الشّمسُ عسكرَ جيشُ (لُؤلُؤ) على مقربةٍ من (سلمية)، وأرادوا الرّاحة، فرُحتُ أتفقّد القتلى، فما دارتْ حوافر خيلي إلاّ على الجُثث، وما ظلّ شبرٌ من مُعَسكرِنا إلاّ ضَجّ بالأشلاء، وامتلأ بالدِّماء. فجمعتُ ما تبقّى مِمّن بايعني على ما عقدتُ عليه الدّعوة أوّل الأمر، فقال الفتى المُبايع: «ها أنتَ ترى، إنّ أعوانَك فرّوا يومَ الرّوع». فقلتُ: «لقد فرّوا إلى الجحيم، ورُحتُ أردّد:

عِشْ عَزِيـــزًا أَوْ مُـــتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ

بَـــيْنَ طَعْنِ القَنَـــا وَخَفْـــقِ البُنُودِ

فقام قائدٌ آخر: «فما الرأي الآن وقد علمتَ ما صارتْ إليه أمورنا؟!». «سنقاتل حتّى آخر فارس». «إنّ هذا انتحار». «ولْيكنْ، إنّه أحسنُ من أنْ يكونَ جُبْنًا وخَورًا». «إنّكَ ترمي بنا إلى التَّهْلُكة». «إنّ

التّهلكة هي أنْ تكون قادِرًا على أنْ تقاتل ولو بيدٍ واحدةٍ ثُمّ لا تفعل». «إنّنا ميّتون لا محالة». «إنّا كذلك على أيّة حالٍ». فقامَ أحدُهم، وسارَ الهُوينى حتّى خرَج، ثُمّ رَكِبَ فرسَه، وغابَ في عَيْنِ الشّمس، وقامَ الثّاني والثّالث ومَنْ بعده، فركبوا جِيادهم وتركونا ننظرُ في وجوه بعضِنا، ولم يبقَ معي إلاّ سبعون فارِسًا، فتبايَعْنا على الموت، وكانتِ الجِراحُ قد أثخَنَتْنا، فرأى بعضُهم أنْ نستريح حتّى يبدؤونا بالقِتال، فقلتُ: «إذًا سيذبحوننا ونحنُ على فُرُشِنا». «فهل من حِكمةٍ أنْ يُقاتِلَ سبعون فارِسًا عشرةَ آلافِ فارسٍ أو يزيد؟!». «ربّما تكون محقًّا، ولكنْ ليسَ من الحِكمة أنْ نتركهم يذبحوننا ذَبْحَ الشِّياه». ثُمّ وقفتُ على قَدَمَيّ، وأشهرتُ سيفي، والدّماء تسيلُ من وجهي وتملأ لبّتي، وركبتُ فَرَسي، فما تَبِعَني إلاّ عشرون مُقاتِلاً، فالتقينا مع جيشِ (لُؤلؤ) في السّاحة الّتي تفصِلُ بينَ مُعسكرَينا، وأيقنّا أنّه الموتُ لا محالة، فتفجّر في دمي الثّأر، وشدَدْتُ على القوم، فما أشهروا السّيوف في وجوهنا، بل قامَ منهم ألفُ فارسٍ فأحاطوا بنا إحاطة السّوار بالمِعصَم، وهتفَ قائدهم: «أيّها القوم، لكم الأمان، إنّنا لا نريدُ قِتالَكم، إنّما نريدُ هذا الدّعيّ أحمد بن الحُسين، فَمَنْ هو فيكم؟!». فصمتَ مُقاتِلِيّ، فلمّا مرّ وقتٌ ولم يُجِبْ أحدٌ منّا، هتفَ القائد: «مَنْ لم يكن أحمد بن الحُسين فله أنْ يخرجَ من هنا سالِمًا، وسأؤمّن له الطّريق إلى حيثُ يبلغ قريته أو أهلَ بيتِه»، وأحدثَ ممرًّا في الخُيُول المُلتفّة، وأشار: «مِنْ هنا». فرأيتُ أوّل مُقاتِلِيّ يخرج، ثُمّ الثّاني، فأشفقتُ على مَنْ تبقّى معي من هذا الّذي يحدث، فصرختُ بصوتٍ شَقّ سجف الفضاء: «أنا أحمدُ بن مُحمّد، وإنْ شِئتم فأنا أحمدُ بن الحُسين، ولدتْني أمّي للثّأر، وإنّ آلافكم هذه لا تُخيفني، وأنشدتُ وأنا

أهمزُ جوادي:

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاتَّرِكِي
حِيَاضَ خَـوْفِ الرَّدَى لِلشَّـاءِ وَالنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذَرْكِ عَـــلَى الأَرْمَاحِ سَـــائِلَةً
فَلا دُعِيْـــتُ ابْنَ أُمِّ المَجْـــدِ وَالكَرَمِ

أنا هو الّذي تريدونه أيّها المارِقون، ولن تصلوا إليّ إلاّ إذا سقطتُ جُثّة هامِدة»، وصرختُ بمن تبقّى حولي من فُرساني: «أمّا أنتم أيّها الجُبناء فاذهبوا، لقد غفرتُ لكم، وآمُلُ أنْ تغفروا أنتم لأنفسكم». وشَدّ عَلَيّ القومُ، فقاتلتُ حتّى قتلتُ منهم من استطعتُ، ثُمّ أنشبَ أحدُهم الرُّمح في بطن جوادي، فخرّ على الأرض، وسقطَ مُضرّجا بالدّم والصّهيل، فالتفّ عليّ الفُرسان، فَغَطُّوا عليّ الفَضاء، ثُمّ خِلتُ أنّ الشّمسَ انطفأتْ في لحظة، وأنّني سقطتُ في العتمة.

(٢)

تاجُ الشَّوْكِ

رَشَقَ أحدُهم دلوًا من الماء في وجهي فصحوت، كانتْ يداي مُكبّلتَين بالأصفادِ إلى رِجليّ، ورأسِي حاسِرة، والدّمُ يُغطّي ثيابي، ويسيل ما تَخَثَّر منه على وجهي مع الماء، ونظرتُ فإذا وجهُ مَلِكٍ في وجهي، فعرفتُ من إذعانهم بين يديه أنّه (لُؤلُؤ الغُوريّ)، وكان أسمرَ الوجه، غليظَ القَسَمات، عيناه جَمْرتا نار، ورأيتُه يَصُكّ على أسنانه ويهتف: «أيّها المُتنبِّئ، قُبحًا لهذا الوجه». فلم أقوَ على أنْ أقول شيئًا، وهتفتُ بمن حولي: «الماء... اسْقُوني لا أبا لكم». فمدّ الأمير القربة، فدُهِشْتُ؛ يفعلها بنفسِه! وقرّبها من فَمِي فدُهِشتُ أكثر، فلمّا فتحتُ فمي المُحطّب، وشفتَيّ المُشقّقَتين أَهُمّ بالشُّرب، تراجَع إلى الوراء، وسكَبَ ما في القربة ببطءٍ على التّراب بين قَدَميّ، وهو يُقهقِه بصوتٍ عالٍ، ثُمّ رمَى القربة بعيدًا، وهتفَ بالحَرَس: «جُرُّوه مُنكَبًّا على وَجهِه إلى حمص». وركبَ جَوَاده وانطلقَ بقادة الجيشِ إلى دِياره.

وكان بينَ (سلمية) و(حمص) ستّة فراسخ، فأحكمَ الحَرَسُ الأصفادَ في يدَيّ ورِجلَيّ، ثُمّ جمَعُوا كِلتا يَدَيّ إلى سلسلةٍ من الحديد، وربطوها في سَرْجِ حِصانٍ شديدِ الأَسْر، وضربوا ظهرهَ بالسَّوط، فراحَ يجري، وأنا خلفَه أَتَدَهْدَى على الصّخور والتّراب، تأكلُ الأرضُ من

بطني وأفخاذي، ويسيلُ الدّمُ من جسدي، حتّى شَكّلَ خيطًا صبيبًا من ورائي، وتراشقتْ قطرات الدّمِ على الحجارة فصبغَتْها باللّون الأحمر، وكانَ جذعي يتلوّى يمينًا ويسارًا، ويترجرج مع عَدْو الخيل، وأنا أرفعُ رأسي حتّى لا يتهشّم، وأغمضُ عينَيّ ما استطعتُ حتّى لا تُفقآ أو تسيلا على وَجْنَتَيّ، والحصان ينهبُ الأرضَ من أمامي نهبًا. وشعرتُ من شدّة الألم الفظيع برغبةٍ قويّة في الصّراخ، ولكنّني لم أفعل، وإنّ شماتة الأعداء بي أصعبُ عليَّ من الهلاك. ولم أكنْ بحاجةٍ إلى شيءٍ أكثرَ من حاجتي إلى الماء، وكنتُ كلّما نَزَفَ منّي الدّم ازْدَدْتُ عطَشًا، وملأ التّراب فمي، واختلطَ بالدّم في أسناني وعلى شفتَيّ، وحلمتُ بنغبة ماءٍ واحدة، تُبرّد لهبَ هذا الصّدى، وكان حُلُمًا عصيَّ المَنال، واستمرّوا يسحلونني بين الصّخور والحجارة وهم يَجْلِدون ظهر الحِصان، وهو يجري، واشتدّتْ حرارة الشّمسُ وازدادَ معها عطشي حتّى صرتُ أبلعُ ما سالَ من دمي بينَ شفتَيّ مَمْزُوجًا بالتّراب اللّزِج لعلّني أُبرِّد ما أصابني من هذا العطش الذّابح، وكان أشدّ عليّ من الموت، وتمنّيْتُ أنْ أفقدَ الوَعْي لأتخلّص من هذه الآلام الفظيعة، غيرَ أنّ هذا لم يحدث، وهمستُ بصوتٍ واهنٍ: «ماء... ماء». ولم يسمعني أحدٌ مع هياج الخيل، وارتطام الحوافر بالأرض، وجَرّ العَرَبات، وهياج الجيش وتململُه، فرفعتُ صوتي بأقصى ما أستطيع: «ماء... ماء... أيّها الكَفَرة... شربة ماءٍ واحدةٍ... أليسَ في قلوبكم رحمة؟!». ولم يلتفتْ لصوتي أحدٌ، وظلّتِ الخيل تطوي البِلادَ طَيًّا، وأنا مثلَ كومةٍ من العِظام تُقرقِعُ على الطّريق.

ثُمّ إنّ الخيلَ أُمِرتْ فتوقّفتْ تحتَ ظِلّ شجرةٍ، فشعرتُ في فَيْء الظّلال أنّني في نعيمٍ مُقيم، وراج جسدي يرتجّ، وأنفاسي تتقطّع،

فابتلعتُ من الهواءِ البارِدِ ما استطعتُ، فشعرتُ بشيءٍ من الانتِعاش، وبدأتْ أنفاسي تهدأ، ولُهاثي يخفُت، ولم يطلِ المقامُ كثيرًا، فإنَّ أحدَ الحرسَ في هذه الكتيبة المُوكّلة بجَرّي إلى (حمص) قد مالَ بجواده إلى شجرةِ زعرور في جانب الطّرق، فكسرَ بقائمِ سيفِه أغصانًا منها، ثُمّ راحَ يصنع من شَوْكِها إكليلاً، فلمّا أتمّ ذلك، جاءني فقرَّبَ الإكليل منّي، وجثا على رُكبَتَيه أمامي، وقبل أنْ يلفّ به رأسي، هتف وهو يبتسمُ ابتسامة المُحنَق: «لقد صنعتُ لكَ تاجًا من الشّوك». وصمت، وظللتُ أنظر إليه من بين قطرات الدّم الّتي تخثّرتْ على جفوني، وهتفَ بعدَ حين: «ألا تريدُ أنْ تسألني لماذا؟». فلم أُجِبْ، وبقيتُ صامِتًا، فَلَكَمني لكمةً قويّة على صدري، حتّى شعرتُ بأنّ الحجارة الّتي تحتَ ظهري دَخَلَتْ في عِظامِ صدري، ثُمّ أقامني من على الأرض، فأقعدني، وهمسَ وهو يقتربُ من وجهي أكثر: «أمّا التّاج فلأنَكَ أردْتَ أنْ تكون مَلِكًا، فأولى بملكٍ مثلِك أنْ يكون له هذا النّوع من التّيجان. وأمّا لِمَ كان من الشّوك فهذا ما يُناسِبُ نُبُوّتَك، فإنّ الأنبياء وهم يصعدون جبل الجُلجُلة أُلبِسوا تيجان الشّوك». ثُمّ قهقهَ قهقةً عالِية، وحشرَ التّاجَ على رأسي الحاسِر، فجرّح جبهتي، وثَقَّبَ قُمْعَ رأسي، وكدتُ أُفجِّرُ من أعماقي صرخةً عالية لولا أنّني شعرتُ أنّ هذه الصّرخةَ إعلانٌ بهزيمتي أمامه، فاستعضتُ عن ذلك بأنْ شدَدْتُ على أسناني حتّى كادتْ تتحطّم في فمي فأزدردُها كُلَّها، وأطلقتُ من بعدِها زفيرًا حارًّا حتّى شعرتُ بأنّه قد حرق ثيابَ هذا الحارس، ثُمّ اتّسعتْ حدَقَتا عَينَيّ من الوجع حتّى شعرتُ أنّهما ستَنفقِئان، ثُمّ شَدّ أكثرَ على التّاج، حتّى أحسستُ بخيوط الدّماء تَنشعِبُ في كلّ اتّجاه.

ومضينا إلى (حمص)، الجيشُ يحوطني من جهاتي الأربع، والخيلُ تركضُ كأنّها لا تدري بهذا المُعذَّب المجرور خلفَها، فلمّا راحتِ الشّمس تهوي جهة الغرب وقد خفتْ حرارتُها مررْنا على قريةٍ، فأوقفَ القائدُ الكتيبةَ على مدخل القرية، وبعثَ أحدَ الجنود إليها، وطلبَ منه أنْ يجمعَ في ساحةٍ فسيحةٍ من ساحاتها المِئات من رِجالها ونسائِها وأطفالِها وسُفهائِها ومَجانينها. وانتظرْنا نحنُ خارجَ القرية، حَتّى عادَ إلينا ذلك المبعوث، فأشارَ إلى الكتيبة فتقدّمت، فلمّا صِرْنا في تلك السّاحة، ربطوني إلى عمودٍ في مُنتَصَفِها، ويدايَ مُقيّدتان خلفَ ظهري مع ذلك العمود، وكان لا يزال إكليلُ الشّوكِ على رأسي، وكانتْ ثيابي قد تمزّقَ أكثرُها، وصدري قد انكشفَ عن شعرٍ مُلبّدٍ بالدّم الأسود، وقدمايَ مربوطتَين معًا. وعلى ضوءِ خيوطِ الشّمس الأخيرة، وقفَ قائدُ الكتيبة، فهتفَ في الجَمْع: «هذا الفتى الأحمق يدّعي أنّه نَبِيّ، وأنّه يأتيه الخَبَرُ من السّماء، وأنّه سيملأ الأرضَ عدلاً بعدَ أنْ مُلِئَتْ جورًا. فما ترونَ فيه؟». فما كادَ يُتِمُّ مقالته حتّى رأيتُ النّعال تتطايرُ في الهَواء وتنصفقُ في وجهي، والحجارة تهوي على جذعي ورأسي وقدَمَيّ، والشّتائمْ تتوالَى بعدَ الشّتائم، والقهقهات تتداخل في القهقهات، والعصيّ تأكلُ من أطرافي، ومَخارزُ الحديد تغوصُ فيما تبقّى من لحمي...». وسألتُ الله أنْ يُميتني من الألم في تلك السّاعة دون أنْ أتلفّظ بكلمةٍ يكونُ فيها استِخذاءٌ أو ضَعْف... ثُمّ أشار القائدُ بيدَيه، فتوقّفتْ أمطار النّعال والبُصاق والحجارة. واقتربَ منّي، وهتفَ: «سنمرّ على سبعِ قُرًى في الطّريق، وسنجعل كلّ قريةٍ تأخذُ منكَ حَقّها». فحدجْتُه فيما بَقِي في عَينَيّ من نورٍ مُتحدّيًا ومُحتقِرًا. فغضبَ ونفر ونفخ، وهتفَ: «سنرى إنْ كنتَ ستصمدُ طويلاً أيّها اللّقيط». فحينئذٍ ثارَ فِيّ من الغَضَب ما دَفَع

بقوّةٍ غيرِ مُفسَّرةٍ في صوتي، بأنْ أصرخَ في وجهه:

لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخَيْلِ سَاهِمَةً
وَالحَرْبُ أَقوَمُ مِن ساقٍ عَلى قَدَمِ
وَالطَّعْنُ يُحْرِقُها، وَالزَّجْرُ يُقلِقُها
حَتّى كَأَنَّ بِها ضَرْبًا مِنَ اللَّمَمِ

فلمّا سَمِعَ القائدُ ذلك مِنّي نظرَ إليّ نظراتِ خوفٍ غَطّاها بصُراخٍ هستيريّ: «سنرى... سنرى أيّها الوغدُ كيفَ ينجلي؟!». ثُمّ لَطَمني لَطْمةً أطفأتْ نورَ عينَيّ في ذُبالة مصباح الشّمس الّذي انطفأ هو الآخَر.

صحوتُ في آخر اللّيل، وقد فُكّتْ بعضُ قيودي، وأُرْسِلَتْ بعضُ أصفادي، ولم يبقَ إلاّ ذلك الغُلّ الّذي في رِجْلَي، وفتحتُ عينَيّ وأدرْتُهما في المكان، فرأيتُ حارِسَين، أحدُهما نائمٌ والآخرُ قائمٌ، وأَحْدَدْتُ البصر وأجلْتُه لأعرفَ أينَ نحنُ، إذْ لم يكنْ في تلك البِلادِ أخبرُ منّي بمواضِعها، ولا أعلمُ منّي بسهولها وحُزُونها، فلمّا مضَى على تلك الإجالِة ما يكفي من التّبصُّر عرفتُ أنّنا في (خُنيْفِس)، وأنّنا نتّجه إلى الجنوب الغربيّ من بلاد الشّام نحو (حِمْص)، وأنّنا لم نقطع في هذه اللّيلة إلاّ ثلثَ المسافة، وأنّه تبقّى ليلتان أخريان أو ثلاثٌ حتّى نصل إلى حمص، وعلى ضوء القمر المكتمل - الّذي ظَلّل المكان وألقى بالهيئات خافِتةً خلفَه - رأيتُ الحارس القائم يُعطيني ظهره، فتململتُ في مكاني، وتحرّكتُ أصفادُ قدمَيّ، فصلصلَتْ فانتبه، ولَفَّ جِذعه، وتحرّكَ نحوي، فلمّا صارَ على بُعدِ خُطوتين منّي هتفتُ: «ماء... ماء...». فجاءني بقربة، وقرّبها من فمي، وقال لي: «اشربْ». فتوجّستُ خِيفةً من الأمر، وبدا في صوتي

هَمْسُ الرّجاء: «أهو ماءٌ حَقًّا، أم سُمّ؟». «لا تخفْ إنّه ماء، هَيّا اشربْ». ودَفَعَ إليّ القربة، فأمسكْتُها بكلتا يَدَيّ، وقبضتُ على عنقها بشدّة المُتعلِّق بالنّجاة هَرَبًا من الموت، وقرّبتُه من فمي، ورحتُ أعبُّ منه عبًّا، فَضَحِكَ ضحكةً خفيفة، وحانتْ منه التِفاتةُ حذرٍ إلى صاحبه النّائم: «لا تعبّ هكذا، سوف تتأذّى، اشربْ عَلاًّ». فوافقتُه على ذلك، ورحتُ أشربُ ببطءٍ، وهو يرقبني ويبتسم، ثُمّ قال لي وهو يتلفّتُ حوله: «لا تخبرْ أحدًا بما فعلتُ»، ثُمّ أشارَ إلى رفيقه وهتف: «وإذا صَحا هذا فاكْتُمْ ما دارَ بيننا» فهززْتُ رأسي مُوافِقًا مُمتنًّا. وطلبْتُ منه أنْ يُخلّصني من تاج الشّوك، فمدَّ يدَيه، فراحَ يحاول أنْ ينزِعه ببطءٍ، فما رفَعه عن هامتي حتّى شعرتُ أنّه أخذَ نُتَفًا من لحمي معه. ثُمّ سألْتُه: «مَنْ تكون؟». فردّ بصوتٍ خفيض: «لا يهمّكَ مَنْ أكون». «فلماذا ساعَدْتَني؟». «أشفقتُ عليك». «فهل لديكَ طعامٌ؟!». «لا أستطيعُ أنْ أفعل». «كسرةَ خبزٍ واحدةٍ ينهضُ بها هذا الجسد». مدّ يده في جيبِ قميصه، وأخرج حفنةً من التّمر، ودَفَعها إلَيّ: «كُلْ». ورحتُ آكُلُها، وأنا أشعرُ بأنّ مَنْ تسبّب لكَ بجُرْحٍ قادرٌ على أنْ يُرَمِّمه، فلمّا أتيتُ على التّمرة السّابِعة، شربتُ شربةً أخيرةً، واضطجعتُ أبغي النّوم، فلبّاني قبلَ أنْ أطلبه!

فلَمّا كان الغدُ، أمر بي القائد، فأُعيدتْ إليّ الأصفاد، وارتحلْنا جنوبًا. فمررنا كما قال بسبع قُرًى، يعرضني على سُفهائِها وأشرارِها ومجانينِها مرّة بعدَ مرّة، وأنا أذوقُ من الصّفعات واللّطمات واللّكمات ما لا طاقةَ لأحدٍ باحتِماله، فما نَدّتْ منّي صرخةٌ واحدة، ولا نبسَتْ شفاهي بحرفٍ واحدٍ من حروف الاستِجداء.

فلمّا تَمّ اليومُ الثّالث، وصلْنا إلى حمص، فأُمِر بي، فقادوني إلى سِجنها الحصين، وألقِي بما تبقّى منّي فيه، فكأنّهم آذَنُوا بدخولي إلى عالَمٍ جديد، وكأنّ تطوافي في البلاد كان ينقصُه هذا المكان الرّهيب!

(٣)

الغِيْلان

«لعنةُ الله على المُلُوك كُلّهم». كانتْ هذه أولى العبارات الّتي أطلقتُها عندما صحوتُ في اليوم التّالي. ولمّا سمعتُ أحدَ المُمَخرقين يُنادي على سجينٍ في الزّاوية المقابلة: «يا أبا سعيدٍ، هاتِ يدكَ لقد خفِشَتْ عيني» تذكّرتُ ما كان يُعاتبني عليه أبو سعيدٍ أوّل الدّعوة، فهتفتُ بالأرجوزة من فوري وأنا أشعر مع كلّ شطرٍ أنّني أشفي غليلي منهم:

أَبــا سَــعيدٍ جَنِّــبِ العِتابــا
فَــرُبَّ رائِــي خَطَــأٍ صَوابــا
فَإِنَّهُــم قَــد أَكثَــروا الحُجَّابــا
وَاسْــتَوقَفُوا لِرَدِّنــا البَوَّابــا
وَإِنَّ حَــدَّ الصَّــارِمِ القِرْضَابَــا
وَالذَّابِــلاتِ السُّــمْرَ وَالعِرَابــا
يَرْفَــعُ فِيــما بَيْنَنــا الحِجَابــا

كان السّرادق الّذي ألقيتُ فيه يضجُّ بأعدادٍ كبيرةٍ من المساجين، فلمّا سَمِعوا رَجَزِي هذا جَفِلُوا، وزوى بعضُهم جِذعه عنّي، فنظرتُ في وجوههم، فرأيتُ أنّني كومةٌ من العِظام بين مئةٍ من المَجذُومين

والمَجدُورين والمَجانين والمَقْرورين والمَهابيل والمَصافِيق، فعلمتُ أنّني وقعتُ إلى خير القوم، وأنّ لَياليِّ ستكون بيضاء في هذا السّجن.

كنتُ أرى بعضَهم يأكل في وعاءٍ من الفَخّار يحمله بين يدَيه، ينهشُ ما فيه، ويتناثر المَرَق والخبز على شِدقَيه، وآخر كان ذا شعرٍ كثيفٍ يتنسدل حتّى يُغطّي نصف وجهه، وقد اضطجع إلى جِدارِ الغرفة وهو يشخر، وعددًا من المجتمعين حول سجينٍ يُحدّثهم فيُطلِقون ضَحِكاتٍ جوفاء، ويُقهِقه الواحد منهم حتّى ليكاد يقع على ظهره من شِدّة الضّحك. ورابعُ يسقطُ الذّباب على زاوية فَمِه، فإذا حَكّ رِجلَيه هناك، نفخَ هواءً من تلك الزّاوية ليُطيِّره!

كانت تفوح من الغرفة رائحة كريهة، أشدّ نفاذًا في الأنف من روائح السَّبِخات الّتي لقيتُها في المَوامي المهجورة، وأشدّ خلوصًا من روائح الضّباع النّافقة الّتي كنتُ ألقَى بعضَها في الفيافي البعيدة، وكان يجلسُ إلى جانبي عَجوزٌ يلعبُ بلحيته ويُحدّق في الفراغ، وإلى جانبه عجوزٌ قد انتشرتْ ثآليلُ في وجهه، يُديمُ النّظر فِيّ، ويبتسمُ أحيانًا ويعبسُ أحيانًا أخرى، ولمّا طالَ نَظَرُه إليّ وتحديقُه بي، سألتُه: «هيه، أنت، أيّها العجوز، هل تعرفني؟». لمعتْ عيناه ولم يُزِحْهما عنّي وانفرجَتْ بعضُ أسارير وجهه حتّى خِلْتُ أنّ ثآليل وجهه اختفتْ واستطالت مع استطالة قَسَماته، ثُمّ أعدتُ عليه السّؤال: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟ هل التقَينا من قبلُ؟». ولم تتحرّكْ شِفاهُه بحرف، ولم ينبس بكلمة، وظلّ يُحدّقُ فِيّ كأنّه يُحدّق في الجدار. فتركتُ القومَ ورُحتُ أمشي على قَدَمَيّ المُجرَّحَتين، وعِظامي المُتكسّرة، أتفقّد المكان وأستطلِعُ ما فيه، فوجدتُ أنّ هذه الغرفة الّتي فيها ما يقربُ من مئةِ سجينٍ لا تتّسع لنصفِ هذا

العدد ولا حتّى لِرُبعه، ففيم يُكرهوننا على ذلك؟! ومضيتُ أذرع الخُطا في المكان وأنا أنقلُ الخطو من بين الأجسادِ حتّى لا تقعَ أقدامي على جُثّةٍ نائمة، أو جسدٍ مُمَدّد، أو شيخٍ مُسَنّد... ثُمّ علمتُ من هواء الغرفة الفاسد الكريه الخانق أنّ هذه الغرفة تحتَ الأرض، وتعجّبْتُ من أنْ تكون لها هذه الرّائحة لو لم تكنْ قد أُعِدّتْ لتكون كذلك، فلو كانت الغرفةُ فوقَ الأرض، ولا يحجبُها عن نور الشّمس أو عن هواءِ سماءِ حمص شيءٌ غيرُ ما يحجب البيوت لكانتْ أنعشَ من هذا هواءً، وأعطرَ من هذا رائحةً، فأنا أعرفُ بحمص من أهل حِمْصَ نفسِها، إنّها مدينةٌ عامرةٌ، حَسَنةُ الهَواء، طيّبة الرّائحة، مستوية النّجاد، كثيرة الأسواق، وأرضُها شديدة الخصب، ونساؤُها جميلاتٌ، ونهر (المَقلوب) يجري فيزيدُها خصبًا، ويزيدُ نساءَها مَلاحةً، ففيم هذا الهواء الفاسد؟ وفيمَ كان هذا القبو الّذي امتلأ عفونةً ورطوبة؟! والله ما كانَ إلاّ إرغامًا لنا، وإذلالاً لكبريائِنا. ونفضتُ يدي في الهواء مُغضَبًا فكادتْ ترتطمُ بسقف الغرفة، والتفتُّ إلى المساجين، فرأيتُهم ينظرون إليّ من طرفٍ خفيّ مُتعجّبين، كأنّني هبطتُ إليهم من السّماء، ولم يكنْ فيهم من هو في مثل سِنّي، ولعلّهم تساءَلوا: «مَنْ رمى بهذا الفتى الوسيم القسيم إلى هذا الموضع القاتل المُميت؟».

فُتِحَ باب الغرفة، وظهَرَ ثلاثةُ حرّاسٍ أَشِدّاء، وقد أمسكوا بجفنةٍ كبيرةٍ من الطّعام يقعدُ فيها أربعةُ رجالٍ أصِحّاء، يحملونها من آذانٍ لها، فتناءَوا بها حتّى وضعوها على مبعدةٍ من الباب، ونادَى أحدُهم: «أبا سعيد، دونَكَ الجفنة». فجاءَ الشّيخ يجرّ رِجلَيه، وتحفّز المساجين ينتظرون خروج الحُرّاس، فما كادوا يقفلون الباب خلفَهم بالزَّرَد، حتّى هَجَمَ كلّ من في القبو إلى الجفنة، وداسُوا في الطّريق على أبي سعيدٍ وهو يصيح بهم

من تحت أقدامهم: «يا سَفلَة... لو أنّ لي بكم قُوّة»، وانتهبوا كلّ ما فيها من الطّعام، وراحوا يزدردون ما احتجنوه في الزّوايا كالقِرَدة، فعافتْ نفسي ما رأيتُ، ولم أُحرِّكْ ساكِنًا، وبقيتُ جالِسًا أنظر إليهم مستغربًا مُستخِفًا، ونمتُ ليلتي تلك خاوي الأمعاء.

صحوتُ على صوتِ صياحٍ في القبو. كانت الشّمس - رغم أنّها ساطِعةٌ - غيرَ قادرةٍ على أنْ تُبدِّدَ عَتمة القبو كامِلاً، فقط من الكُوّة الصّغيرة الموجودة جنوب الغرفة تسلّل بعضُ الضّوء، لكنّه لم يُضِئْ إلاّ جُزءًا يسيرًا، على هذا الضّوء في ذلك الجُزء رأيتُ الهياجَ قد حلّ بالمساجين، وكانت الصّرخات تتعالى من ذلك المكان، فهُرِعتُ إليهم، فإذا عجوزٌ في السّتين قد أنشبَ مخرزًا في عينِ رجلٍ في الأربعين وفقأها، وراحَ يضربُه بكلّ ما أوتي من قُوّة في أنحاءَ من جِسمه، ولم يَدْرِ أحدٌ لِمَ يفعل ذلك، ولا من أينَ جاءَ بالمِخرز؟ ولكنّني سمعتُ هَمَساتٍ أنّ هذا الرّجل راودَ ذلكَ العجوزَ عن نفسِه، وأنّه أرادَ أنْ يفجرَ به.

قفزتُ كالجنّي على رِقاب المُتجمهرين، حتّى إذا تخطّيتُ تلك الرّقاب، وانْسللْتُ من بين الأجساد المتلاصِقة المتجمهرة، خلصتُ إلى العجوز، فأمسكتُ بذراعه ولويتُها، وهدّأتُ من روَعه، ثُمّ سحبتُه من بين الجمهرة، وأخذتُه إلى زاوية القبو، وطلبتُ من المساجين الّذين يعرفونه أنْ يُحيطوا به فيمنعوه من الحركة ويَحمُوه. أمّا ذو العين المفقوءة فكان لا يزال يصيح، ويتلوّى على الأرض، وهو يصرخ: «سأقتلك أيّها الخرقة البالية؟ أنا أُراود خَيْشةً مثلك؟ لو كنتُ أفعلها لفعلتُها مع غلام». ثُمّ تختلطُ الكلمات الأخيرة من صُراخِه ببكائِه، فيتحوّل في لَحَظاتٍ إلى طفل.

كانَ الحَرَسُ يسمعون ويُشاهدون من خلفَ طاقات الأبواب المُصمتة، لكنّهم كانوا يتندّرون ويضحكون ويتلذّذون بما يرون، ولم يتدخّلوا في الأمر إلاّ بعدَ أنِ انفضّ الجَمْع، فدخلوا بأسلحتهم، فجَرّوا الفاقِئ والمفقوء من أرجلهم، وخرجوا بهما، ولم أرهما بعدَ ذلك أبدًا.

ومضى الأمر على ذلك أسبوعًا، حتّى عافتْ نفسي نفسي، ولم أدرِ ما أفعل بين هؤلاء القوم المجانين، ولا كيفَ يُمكن أنْ يستمرّ سجني طويلاً. ولم أدرِ أنّني لم أرَ بعدُ شيئًا، وأنّني لم أشعرْ بأنّني في سِجْنٍ حتّى جاءَ أحدُ الحرسِ في صبيحة بعضِ الأيّام الّتي انفلتَتْ في العَدّ مِنّي، فقامَ على الباب، وفي يده كِتاب، فنادَى: «مَنْ فيكم أحمدُ بن الحُسين» فسكتُّ أوّل الأمر لعلّه يكونُ سِواي، فلمّا أنْ أعادَه للمرّة الثّانية ولم يُجِبْه أحدٌ، هتفتُ: «أنا أحمدُ بن الحُسين». فسألني أنّ أتقدّمَ من آخر القبو حتّى أصيرَ على مقربةٍ منه، ثُمّ نَظَرَ فِيّ مُتعجِّبًا أوّل الأمر ثُمّ مُحتقِرًا، فكأنّه تقالّني إلى جانب ما سيقرؤه عَلَيّ في كتابه، فنفضَ ما في يده من الكتاب، وفَضّ خاتَمه، وقال: «اسْمعْ، هذا كتاب أمير حمص العليّة، إنّ أهلَ القضاء قد نَظَروا في أمرك، وقلّبوا ما قُلتَه من شِعرٍ أيّامَ قيامكَ في أهل الوَبَر، وما ادّعَيْته من النُّبُوّة، وما خَرَجْت بِهِ على وليّ الأمر، فقرّروا اتّهامَكَ بالزّندقة. وهذا خاتم الأمير». ثُمّ دَفَعَ إليّ بالكتاب، وأنا في ذُهُولٍ مِمّا أسمع، والقوم من خلفي على هذا النّحو، فلمّا صارَ بينَ يدَيّ، أخذتُه فمَزّقتُه، وجعلتُه تحتَ نعلي.

صارتْ نظرةُ المساجين إليّ بعدَ ذلك على غيرِ ما رأيتُهم عليه أوّل دخولي إلى هنا، كانتْ نظرةً ممزوجةً بين الاحتِقار والخوف، الاحتِقار لأنّهم مسجونون مع زنديقٍ كافرٍ مُدّعٍ للنّبُوّة، والخوفِ مِنْ أنّ فتًى

في مثل سنّي لعلّه لم يبلغ الثّامنة عشرة إذا كانَ قد تجرّأ على النّبُوّة فإنّه سيتجرّأ على كلّ ما هو خطير، فلمّا دارتْ حكايتي على ألسنهم، تناهَى إلى مسامعهم خبَرُ الدّعوة الّتي دعوتُ بها في بادية السّماوة، وما كان من التفافِ المُقاتلين حولي، وما جمعتُه من الجيش، فحينئذٍ وقعَ في قلوبهم الخوفُ منّي على الحقيقة واستقرّ، ولمّا عَلِموا بقتالي لأمير هذه البلاد العَلِيّة، وجيشِ هذه الدّولة المُظفّرة صاروا يتحاشَون النَّظَر في وجهي، وقد أراحَني ذلك كثيرًا.

غيرَ أنّ الأيّام لا تعبأ في طريقها بأمانيّ الكُسالى، والشّهور لا تُبطِئ في جَرَيانِها لتنتظر أصحاب الأحلام البائسة، وأنا أرى عمري هنا جَوادًا ضامِرًا، لم تعدْ له رغبةٌ في الطّعام ولا في الشّراب، قد صُفِّدتْ قوائِمه، فهو يموتُ حُزنًا وكمدًا، وقهرًا وغيظًا، فما أُعِدّ الجَواد إلاّ للجَري، وما نُتِجَ إلاّ للقتال، وللتّغبير في السّرايا. ثُمّ ها أنذا كالأجرب المنبوذ أقضي هذه الأيّام السّوداء مع هذه الجِيَفِ الّتي ليسَ فيها حياة.

فلمّا مرّ على بقائي شهرٌ آخر في ذلك القَبْو، فُتِحَ الباب هذه المرّة في اللّيل البهيم، ولم يكنْ أحدٌ من المساجين مُستيقظًا، عدا بِضعة منهم نفتْ أسبابٌ كثيرةٌ – من الهمّ والأرق والشّوق والخوف والقلقِ – النّومَ عن عيونهم. ووقف الحارس على الباب وهو يحمل في يمينه سِراجًا، فكَسَرَ السّراجُ العتمة، وأضاء بعضَ المكان، وألقَى الضّوءُ ظِلَّ الحارسِ على الجدار الّذي عن يمينه في الخلف، فبدا كأنّه غُولٌ من الغِيلان، ثُمّ هتفَ بصوتٍ أجشّ، كأنّ صاحبه لم يُفِق من سُكْرٍ أو نوم: «أينَ أحْمُد ابن الحُسين». فتقدَّمْتُ هذه المرّة إليه بهدوء دون أنْ أنتظر. «أنا هو». فتعجّبَ: «أنتَ؟». «قلتُ لكَ أنا هو». فنفضَ من شِمالِه الكتاب، ودَفَعَه

إليّ، فأخذتُه، فإذا فيه: «من قاضِي قُضاة حمص إلى صاحب السّجن القديم، أحضِرْ إلى المحكمة الزّنديق أحمد بن الحُسين مُكبّلاً ننظرْ في أمره». وأقفلَ الحارسُ الباب خلفه، فسقطَ ظِلُّه عن الجدار، وأمّا أنا فأخذتُ الكتاب فمزّقْتُه كما فعلتُ بسابِقه، ودُسْتُه بأقدامي غيرَ مُبالٍ أو مُكترث!

(٤)

المُحاكَمة

رأيتُ السّجن من الخارجِ أوّلَ مرّة، قناطر من الحجر العتيق، تُحيطُ مجموعةٌ من هذه القناطر بساحةٍ فسيحة، وتحتَ كلّ قنطرةٍ مُعتقل، غرفٌ أبوابُها من الحديد القائم، تُفتَح إلى اليمين، وتتّسع الغرفة لثلاثة مساجين أو أربعة، كنتُ أرى فيها عشرةً يتزاحَمون على القُضبان الّتي تُشّكل في مجموعها نصفَ البوّابة العلوي، مِئاتٌ من العيون ازدحَمَتْ على تلك البَوّابات لترى هذا الّذي يُساقُ إلى المحكمة. وما أنا؟ كيفَ كنتُ أبدو في ذلك الصّباح الّذي اقتادني فيها اثنان عن يميني وشِمالي مُمسِكان بكاهِلَيّ، واثنان أمامي، ومثلهما خلفي، يحلمون السّيوف، ويعتقلون الصّعَدات، ويلبسون المغافر الّتي تُغطّي رؤوسهم، ويتلثّمون بلُثُمٍ سوداء، ويدفعونني دفعًا إلى العربة الّتي تنتظرنا في الخارج. كنتُ أشعَثَ الشّعر، قد تناثرَ مَجموعُهُ على كاهِلَيّ، مُمزّق الثّياب، رثّ الأسمال، حادّ النّظرات على وَهَن، حاضر البصيرة على بِلَى، مُتوقّد العقل على أسًى، أُجَرجِرُ رِجليَّ في الأصفادِ الثّقيلة، وأُجيل الطّرف في العيون الّتي ترمقني من الزّوايا والحوافّ، وقد غَطّى صِياحُهم على أصواتِ الجُندِ الآمرة لي بالتّقدّم، كانوا يصيحون: «كافر... زنديق... أحمق... لعنة الله عليه... إلى الجحيم مع أبي لهب... يدّعي النّبوّة... أفلا عضّ على جذع شجرةٍ خيرٌ له من أنْ يقول أنا نبيّ... قهقهات... شتائم... تلويحٌ بالأيادي... المتنبّي... ها هو المتنبّي... المتنبّي... المُتنبّي» وسمعتُ

الكلمة الأخيرة - وأنا أقطعُ السّاحة من شمالها إلى جنوبها حيثُ البوّابة الكُبرى - أكثرَ من خمسين مرّة، حتّى رأيتُها ترتسمُ على الجدار الّذي يعلو قنطرة الباب الرّئيس.

قُذِفتُ في جوفِ العربة، وشَدّ الحارس الّذي اعتلى الجوادَ الأَسْودَ سُيُورَ الجِلد، فتحرّكت الخيل، ثُمّ ضَرَبَها بالسّوط حتّى راحتْ تنهبُ الأرضَ نهبًا، ولم يطل الأمر حتّى دخلْنا بالعربة والأحصنة إلى ساحةٍ فسيحة، أرضُها مُجصّصةٌ ببلاطٍ من الرّخام تكاد تنزلقُ عليه حَوافِرُ الخيل. ثُمّ نُزِعتُ من مكاني ودُفِعتُ إلى دار القضاء، وكان يُصعَدُ إليها بدرجٍ كذلك الدّرج الّذي يُصعَد به في المِئذنة، ولكنّه عريضٌ، ثُمّ وقفْنا بباب القَضاء، ولم يُسمَح لنا بالدّخول حتّى يُؤذن لنا، فلمّا مرّ على ذلك وقتٌ، أردتُ أنْ أجلس على مقعدة حجريّة عند الباب، فنهرني الحارس وجذبني جذبة كادَ يخلعُ بها كتفي، ثُمّ خرجَ عددٌ من المُتّهمين من الدّار، فأُذِن لنا، فلمّا دخلتُ رأيتُ سقفًا عالِيًا، مُحاطًا بقُبّة عملاقةٍ، يتدلّى من مركزها عددٌ من السُّرُج الضّخمة، وتحتَ مركز القُبّة يجلسُ القاضي إلى مكتبٍ من الخشب البُنّي المصقول، وكان يلبسُ عِمامةً خمريّة، تلفُّ رأسَه بإحكامٍ وقد نبتَ من أعلاها ريشة فيروزيّة، وأمّا القُفطان فكان أسودَ مُوشًّى بنقوشٍ مُذهّبة، وكانَ إلى يمينه مكتبٌ أصغرُ منه يجلسُ إليه كاتبُ القاضي، وهو فتًى في العشرين على ما قَدّرتُ، طويلُ الشّعر يُغطّي نصفَ وجهه ولا يُرى من أذنيه أو رقبته شيءٌ، وقد لبس جلبابًا أحمر، وأمامه دواةُ حبرٍ قد غُمّستْ فيها ريشةٌ، وإليها رقوقٌ يعلو بعضُها بعضًا.

كانت القاعة المَهُولة العُلوّ تتكِئ في جوانبها على أعمدةٍ أسطوانيّة ورديّة اللّون، ولها قَواعِدُ ضخمة، ومن خلفِ كاتب القاضي تستندُ إلى الجِدار خِزانةٌ فيها مُجلّدات وكُعُوبٌ، بدا لي أنّها القضايا الّتي يُحاكَم عليها المُتّهمون. ومن خلفي كانتْ هناك مقاعِدُ من خشبٍ كتلك الّتي تكون في الكنائس يجلسُ إليها بعضُ الرّجال، غير مأذونٍ لهم بالكلام، يستمعون ويرون فحسب. ومن خلفِ القاضي كان جنديٌّ بكامل عُدّته يقفُ مُستعدًّا لأيّ أمرٍ منه.

وأشارَ القاضي برأسِه إلى الحارس الّذي رافَقني إلى الداخل، فنزعَ الأصفادَ من يدَيّ ورِجلَيّ، فحرّكتُهما لمّا شعرتُ بالحرّيّة آمُلُ تسيير ما انحبسَ فيهما من الدّم. ونَظَرَ القاضي إليّ أوّل الأمر، وضَيَّقَ عينَيه ولم يقلْ شيئًا. ثُمّ مرّ وقتٌ من الصّمتِ المُطبِق، وبإشارةٍ منه إلى الكاتب، وقفَ، وتناولَ مُجلّدًا من الخزانة الّتي خلفَ ظهره، ودار من مكتبه ووضعه وهو ينحني على طاولة القاضي. راحَ القاضي يقلّب المُجلّد حتّى توقّف عندَ صفحةٍ من صَفَحَاتها، وراوَحَ في نَظَرِه بينها وبيني، ثُمّ زفرَ زفرةً خفيفةً وقال: «أنتَ أحمُد بن الحُسين؟!». «أنا هو». «أنتَ مُتّهمٌ بالزّندقة». بقيتُ صامِتًا، لم أدرِ كيفَ يُمكن أنْ يكونَ الرّدُّ على تهمةٍ كهذه، ولم يُمهلْني القاضي كثيرًا، إذ إنّه أردف: «ومتّهم بادّعائِكَ النُّبُوّة، فهل فعلتَ ذلك؟». «لا، هذا محضُ افتِراء». «لقد شَهِدَ عليكَ غيرُ واحدٍ من الشّهودِ العُدول». «كذبوا جميعًا». «أفأنتَ القائل: أنا الرّبّ؟!». «لم يَحدُثْ». «أفتدّعي إلى جانب النُّبوة أنّكَ إله؟!». «حاشاي». «هل تقومُ الجِنّ على خِدمتك ومساعدتك في دعواك؟!». «الجِنُّ أعقل من أنْ تفعل ذلك». «هل أنتَ مُشعوذ؟». «لو كنتُ كذلك لأغويتُ رجالكَ فما استطاعوا أنْ يُوقِفوني بين يديك». «هل صحيحٌ أنّ الأرضَ تُطوَى

لك، وأنّكَ تسيرُ فيها بِسَيرٍ لا يقطعه الرّهط؟». «صحيح». «هل تعلمُ ما يحدثُ في القُرى فتخبّر إحداها بصنيع أهلِ سواها». «قُلْ لا يعلمُ الغيبَ إلاّ الله». «أفمؤمنٌ أنت؟!». «لا يُوجد على وجه الأرض أشدّ إيمانًا منّي». «هل أتيتَ ببعضِ المُعجِزات من سَوْقِ السّحاب وإنزال الغيث؟!». «إنّما هِيَ خُدَعٌ ظاهرة». «فتبعكَ الأرذلون؟». «بل تَبِعَني أصحابُ الحِلَق، والأُسُودُ من الفتيان». ثُمّ تنهّد القاضي، وطلبَ من الكاتبِ أنْ يتلو عليهما ما في صحيفةِ الدّعوى، فتنحنح الكاتب، وأنشد:

أَيَّ مَحَـــلٍّ أَرتَقـــي   أَيَّ عَظيـــمٍ أَتَّقـــي

وَكُلُّ مــا قَد خَلَــقَ اللهُ   وَمـــا لَم يَخلُــــقِ

مُحتَقَـــرٌ في هِمَّتـــي   كَشَـــعرَةٍ في مَفرِقـــي

وسكتَ الكاتب، فنظرَ إليّ القاضي، وهتف: «أفلستَ قائلَ هذه الأبيات؟». «بلى». «فهذه تُوجِبُ عليك التُّهمة». «فأينَ رأيتَ ذلك؟». وزجرني القاضي: «لا تسألْ؛ أنتَ تُجيبُ فقط». ثُمّ أشارَ القاضي إلى الجنديّ الّذي خلفَه، فغابَ في الباب الّذي دخلتُه أوّل الأمر إلى هنا عن يميني، ثُمّ دخلَ ومعه شاهِدان، أمّا أحدُهما فتذكّرتُه، إنّه (أبو دُلَف)، أحدُ الّذين انضمّوا تحتَ لوائي أيّام الثّورة، وقد فَرّ يوم الزّحف، ولم يثبتْ حين تناوشتْني الرّماح، وأمّا الآخر فلم أعرفْه. ثُمّ طلبَ القاضي من (أبي دُلَفٍ) أنْ يقفَ هو الآخر في موضعِ الشّهود، وأنشدَ القاضي:

فُـــؤَادٌ مــا تُسَــلّيهِ المُــدامُ

وَعُمْــرٌ مِثْــلُ مــا تَهَــبُ اللِّئامُ

ثُمّ أردفَ يسألني: «ألستَ ناظِمَ هذا البيت؟». «بلى». «ففيه إثباتٌ آخَرُ للتُّهمة». «فكيفَ؟». فتوجّه القاضي إلى (أبي دُلَف)، وسأله: «قل له كيف؟». فتهيّأ أبو دلفٍ للكلام غيرَ أنّ رجفةً أرعشتْ تُرقُوَتَه، وأوقفت حصى الكلام في حنجرته، فكادَ يغصُّ بها. ونظرتُ إليه فلمّا التقتْ عيناايَ بعينَيه غَضَّهما وأخنى رأسَه، ثُمّ شَجّعه القاضي، وهتف: «قُلْ لنا يا أبا دُلَف وأنتَ عارفٌ بهذا الرّجل وبشِعره، أينَ موضعُ التّهمة في هذا البيت؟». فردّ أبو دُلَف وقد استعادَ شيئًا من رباطةِ جأشِه: «إنّ فيه تعدّيًا صارِخًا على الله». ونظرتُ إليه مُتعجّبًا مُنكِرًا، فأردفَ القاضِي بصوتٍ هادِئ: «فأينَ رأيتَ ذلك يا أبا دُلَف؟». «إنّه لا يَهبُ الأعمار إلاّ الله، وإنّ البيتَ جعل الله من زمرة اللّئام، وهذا من أشنعِ ما يُمكن أنْ توصَف به الذّاتُ الإلهيّة، فلو أنّه فعلَ كما فعَلَ بنو إسرائيل حين وصفوا الله بأنّه فقيرٌ وبأنّ يَدَهُ مَغلولةٌ لكانَ أهون». ثُمّ سكَتَ، وندّتْ منّي شهقةٌ لِمَا سمعت، وصرختُ: «اخرسْ أيّها الكلب، ووالله لوددت أنّ السّيف في يدي حتّى أقطِعَ لسانَكَ ثُمّ أقطع عنقك، لقدَ عرفتُكَ أيّها الخَوّار، كم يَليقُ بجبانٍ فرّ من الحرب فِرار الجُرذان أن يكذب هذه الكذبة الشّوهاء». وضربَ القاضي بكلتا يدَيه على الطّاولة الّتي أمامه، فتهيّأ الجنديّ للأمر، وولجَ إلى القاعةِ بعضُ الحَرَس، وتأهّبوا لِمَا يطلبُه القاضِي منهم. غيرَ أنّه أشارَ إليهم بكفّه ليخرجوا. فلمّا هَدَأت الزّوبعة الّتي ثارتْ، سألَ القاضي الكاتبَ من جديدٍ أنْ يقرأ ما تبقّى في صحيفة الاتّهام، فأنشدَ:

عَمْـــرَكَ اللهَ هَـــلْ رَأَيْتَ بُـــدُورًا

طَلَعَـــتْ فِي بَراقِـــعٍ وَعُقُـــودِ

رامِيَــــاتٍ بِأَسْــــهُمٍ رِيْشُـــها الهُدْ

بُ تَشُـــقُّ القُلُـــوبَ قَبْـــلَ الجُلُودِ

يَتَرَشَّـــفْنَ مِـــن فَمي رَشَـــفاتٍ

هُـــنَّ فيـــهِ أَحـــلى مِـــنَ التَوحيدِ

ثُمّ جلس. فأمره القاضي أنْ يقف مرّة أخرى، ويُعيد البيت الأخير، ففعل. فهتفَ القاضي: «وهذه تُثبِتُ عليكَ التُّهمة». فسألتُ: «فكيفَ ذلك؟». فسمحَ للشّاهد الثّاني أنْ يتكلّم، فهتف: «إنّ البيت الأخير لا يُمكن أنْ يُخرجَ صاحبه من دائرة الكُفْر». فسأله القاضي التّوضيح. فأردف: «لقد جعل القائلُ قُبُلاتِ هؤلاءِ الغَواني العواهِر أحلى من توحيد الله والإيمان به، فهل بعدَ ذلك من كُفر». فتململتُ في وقِفتي، واعترضتُ: «لقد غَيَّرَ هذا الأفّاق في البيت أيّها القاضي». وحَدَجني القاضي مُغضَبًا، لكنّه سمَحَ لي بالاعتراض، فقلت: «إنّما يُروَى البيتُ على النّحو الآتي:

يَتَرَشَّـــفنَ مِـــن فَمي رَشَـــفاتٍ

هُـــنَّ فيـــهِ حـــلاوةُ التَوحيـــدِ

فسألني الفرقَ بين الرّوايتَين، فقلت: «إنّ هذه الرّشفات ليستْ أحلى من الشّهادة، بل إنّني وجدتُ لها في فمي حلاوةً كتلك الّتي أجدهُا حينَ أنطقُ بكلمة التّوحيد، فأيُّ إيمانٍ أعظمُ من ذلك، ثُمّ إنّ هذا من باب التّشبيه، ولا يخفى عليكَ أيّها القاضي أنّ اللّغة فيها المجاز والكناية والاستِعارة، فمن أيّ بابٍ من أبواب البلاغة هذه دخلتَ خرجت. ثُمّ هَبْ أنّ البيت على ما رواه هذا السّافل، فإنّ التّوحيد هذا ليسَ ما

تبادَرَ إلى ذهنك، ولا ما وقرَ في ذهن هذا الأحمق، فالتّوحيد نوعٌ من التّمر عرفتُه أيّامَ المكتبِ في الكوفة شديدُ الحلاوة، فالجامع بين القُبُلات والتّمر هو الحلاوة الّتي ذكرتُ، فأينَ الكُفْرُ في الجمع بينهما». وصمَتَ القاضي وقلّب الأوراق الّتي بينَ يدَيه، ثُمّ طلبَ من الحارسِ أنْ يُعيدني إلى السّجن، على أنّ تُعقدَ لي محاكمةٌ أخرى، يستمعُ فيها إلى شُهودٍ آخرين.

وجرّني الحرسُ حتّى قذفوني في جوف العربة، وساروا بي وهم يستعيذون بالله أنْ يجمعهم مع كافرٍ في ظرفٍ واحدٍ، ولمّا عبرتُ بعدَ أنْ وصلنا، فناء السّجن الواسع، صرخَ السُّجناء وهو يشيرون بأذرعهم المُشرَعة نحوي: «المُتنبّي عاد.. عادَ المُتنبّي». وراحوا يُصفّقون ويهزجون بالكلمة على إيقاع تصفيقاتهم.

(٥)

المُحاكمة مرّة أخرى

ما الّذي تغيّر في هؤلاء؟ إنّهم قرودٌ تنطقُ بما لا تَعِي. مجموعةٌ من البُلَهاء تسيرُ كأنّها عمياء دونَ غاية، إنّ عدد المجانين يزداد كلّ يومٍ، إنّهم يرمون مع كلّ صباحِ عشرةً منهم، يزجّون بهم في هذا الزّحام الخانق، حتّى لم يعدْ هناكَ مكانٌ للنّوم ولو على بولِ أحدهم، أو على إستِه. أفِي حمص كلّ هؤلاء المجانين؟! ففيمَ رأيتُ رجالَها أهل دين، ونساءَها أهلَ زين؟! أفكانوا يُلقون بكلّ مجنون خرجَ عن الوسامة والقَسامة إلى هذا القبو، الّذي صار أشبهَ بقفصٍ تعوي فيه الحيوانات الجريحة؟!

صرختُ بالحُرّاس الّذين جاؤوا بجفنة الطّعام الكبيرة ذاتَ يوم: «أنا لا أطيقُ البقاء هنا.. أخرجوني من هذا السَّبِخة... أنا لستُ حيوانًا حتّى تضعوني مع هذه السّوام». ولم يسمع الحرسُ إلاّ آخر جملتي واللّغط الّذي تعالى، فتَقَدّم أوسطهم إليّ وهو يضع كفّه على مقبض السّيف، وهتف: «ماذا قلتَ؟». «أريدُ أنْ أخرجَ من هنا؟». «لِماذا؟! هل على رأسِكَ ريشة؟». «أريدُ أنْ أخرج من بين هؤلاء النّوكى». «لا تقلق سوفَ نُبدّل لك هؤلاء المساكين بعلماء حمص، وفقهائها وقُضاتها، هل هذا ما تريدُه؟». لم تُعجبْني سُخريتُه البلهاء، فاقتربْتُ منه، وشَدَدْتُ على عنقِهِ، فتغيّر لونُ وجهه، واحمرّتْ حَدَقتاه، وألقتْ حرَكتي المُباغتة

الرّعبَ في قلبه، وصرختُ وأنا أشدُّ على الحروف كأنّ الغيظَ يرفعُ شوكةً من كُبّة صوفٍ في جوفي: «لم يجرُؤ أحدٌ على أنْ يستهزِئَ بي، أعيدُ عليكَ ما أطلبُ لعلكّ تفهم: عليكَ أنْ تُخرجِني من هنا، وتضعني في سجنٍ مع غير هؤلاء أو وحدي، وأقسِمُ لو لمْ تفعل في المرّة القادمة لأدقّنّ عنقك، ولأشربنّ الأكؤب خمرًا من دمك». وهالَه ما قلت، فحرّكَ الخوفُ كلّ جارحةٍ في جسده، فدفعني بكلتا يدَيه، وصرخَ على الحارِسَين: «اضربوه»، وراحوا يضربونني بقوائم السّيوف الّتي معهم، ويمعجونني بالمغافر الّتي على رؤوسهم حتّى شَفَعَ بي مجنون من المجانين الّذين لا تزال في أجسادهم قُوّة، فسحبني من بين أنيابهم، وقد ذهبَ شطري دمًا في الصّعيد.

مرّتْ سبعةُ أيّام حتّى رجَعَتْ إليّ بعضُ العافية، لم أرَ في النّهارات الّتي تلتْ ذلك النّهار أيًّا من وجوه الحرس الثّلاثة، لا أدري إنْ أخذوا كلامي على محمل الجِدّ أم لا؟ لم أقرب الطّعامَ طَوال هذا الأسبوع، لم آكلْ لقمةً واحدة، اكتفيتُ بالماء، أشربُه حينَ تتيبّس شِفاهي، وأتكوّم بقيّة النّهار وطَوال اللّيل في زاويةٍ وحدي، أرقبُ ما أراه من حركاتِ مَنْ رمتْني الأقدار بينهم منذُ ما يقربُ من ثلاثة شهور. كان يُمكن أنْ يُخفّفَ وطأة السّجن هذه رَقٌّ فيه مُعلّقة من المُعلّقات، أو درسٌ في النّحو، أو صَفحةٌ من كتاب الله، لكنّه لم يكنْ معي غير الوجوه الصّفراء المجدورة، ذات الرّوائح النَّخِرة، ولم يكنْ لي مهربٌ مِمّا أنا فيه غير أنْ أستظهرَ ما حفظتُه فيما مَضى من حياتي، فاستظهرتُ الجمهرة، فوجدتُ أنّ نصفَها قد سقط، واستظهرتُ صِفات الخيل في الحيوان عند الجاحظ، فآنسني، فجهدتُ أنْ أدربّ نفسي على ذلك بأنْ أقول بعضَ أبيات الشّعر، غيرَ

أنّ الرّقوق أو الجلود والدُوِيّ والأحبار وغيرها، كانتْ كلّها مفقودة ممنوعة، ولو أنّهم رَضُوا أنْ يُدخِلوا شيئًا منها إلى هنا، لما وجدَ العَمى إلى قلبي سبيلاً، ولاستغنيتُ بذلك عن الوحشة الّتي تُسبّبها كلّ هذه الجموع من حولي! مكتبة سُر مَن قرأ

وتمنّيتُ أنْ يظهر لي أبي، لكنّه لم يفعل، وهتفتُ باسمه في اللّيالي الطّويلة فلم يستجبْ، ناجيتُه بصوتٍ يقطُرُ رجاءً أنْ يظهر لي كما كان يظهر أيّام سيري في الفَلَوات فيُؤنس وحشتي ولو ليلةً واحدة، ولكنّه كان يُمعن في الغياب، كأنّه لم يكنْ يومًا موجودًا، أو كأنّ وجوده كان بعضًا من خيالاتي الّتي لا تكفّ عن الانبثاق.

وأنحلتْ قِلّةُ الطّعام جسدي، وأسهمتْ نَظَراتي، وأطاشتْ لُبّي، فصرتُ أرى النّاسَ خيالاتٍ تتحرّك في المدى، وصرتُ أسمعُ لأصواتهم صدًى كأنّها قادِمة من جوفِ بِئر عميقة، وصرتُ لا أقوى على القِيامِ على رِجلَيّ، ومرّ أسبوعٌ آخر، وشهرٌ على تلك الحال حتّى رَقّ جلدي، وبانتْ عِظامي، وصارَ مَنْ يُعايِنُها يستطيعُ أنْ يعُدّها عظمةً عظمةً، ولا أدري لِمَ أمعنتُ في الامتناع عن الطّعام حتّى خُيِّلَ لمن يراني أنّني مُقدِمٌ على الانتِحار، وأنّني أدعو الموتَ ليأخذ روحي معه عاجِلاً غيرَ آجل.

وذاتَ يوم من هذه الأيّام الّتي انفلتتْ من العَدّ، في هذه الصّباحات الّتي يُؤتى فيها بالطّعام، رأيتُ الحُرّاس الثّلاثَ قد وضعوا الجفنة كما اعتادوا، ولكنّهم لم يخرجوا، ولم أُلقِ للأمر بالاً فقد تودّعتُ من كلّ شيءٍ، ولمّا أدرتُ الطّرفُ نحوهم، كان الجوع والهُزال يُريني

إيّاهم أشباحًا، لا ثلاثةً فحسب، بل عشرة أو أكثر، ورأيتُ أحدهم كأنّه تقدّم نحوي، وهو يتراقَصُ في عينَيّ شبحًا من ثيابٍ جوفاء، حتّى توقّف أمامي، فسمعتُ له صدًى، غير أنّني لم أسمع ما قال، ولم أدرِ ماذا يريد. فلَطَمني على وجهي، فتَرَجْرَجَتْ حدقتا عَينَيّ ترجرج الزِّئبق، ثُمّ رشقَ وجهي بالماء، فصحوت من شبه الغيبوبة الّتي كنتُ فيها، ثُمّ جذبني من ذراعي حتّى كاد يخلعها، ثُمّ صفعني بظاهر كفّه حتّى أتمّ لي يقظةً ترى شيئًا وتسمع شيئًا، ثُمّ هتف: «سنأخذك إلى المحكمة». نزلت الكلمات عَلَيّ نزول هلال العيد، فأردتُ أن أبتسم، فعبثًا مططتُ شفتَيّ، ثُمّ سمعتُه يقول: «اسْقُوه لبنًا وتمرًا حتّى يستطيع الوقوف أمام القاضي، وقيّدوه، وأركبوه عربات المحكمة».

وعادَتْ أصوات المِئات تثقبُ أُذنَيّ ونحن نعبر السّاحة خارِجين: «المتنبّي... المتنبّي..». لعنةُ الله على هذه السّاحة، أفلم يكنْ أجدر بهم أنْ تكون هناك بوّابة أخرى لهذا السّجن قريبةٌ من القبو المدفونين تحته حتّى نتجنّب المرور بكلّ هؤلاء. ومثلتُ أمام القاضي إيّاه الّذي مثلْتُ أمامه في السّابق. وجرت الأمور في بدايتها على عادة المرّة الأولى، وهتفَ القاضي: «ستُحاكَمُ اليوم على ادّعائِكَ النّبُوّة، وعلى خروجِكَ على الحاكم». فهزتُ رأسي بلا مبالاة. فأردف يقرأ من الرَّقّ الّذي أمامه: «لقد خرجْتَ في بني عَدِيّ؟». «نعم». «وقال لكَ بعضُهم ههنا ناقةٌ صعبةٌ لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُروّضَها ولا أنْ يعتلي ظهرها، فإنّ قدرتَ على ركوبها أقررنا أنّكَ مُرسَل». فلم أُجِبْ. فتابع: «فتحيّلْتَ على النّاقة حتّى رَكِبْتَها، فنفرتْ ساعةً وتنكّرَتْ بُرهةً، ثُمّ سَكَنَ نِفارُها ومَشَتْ مَشْيَ المُسْمِحة قد أقرّتْ لكَ بما لم تُقِرّ به لبشريٍّ عاديّ، وأنّكَ ورَدْتَ

بها الحِلّة وأنتَ راكبٌ عليها، فعجبوا من ذلك كلّ العجب، وصار ذلك من دلائلك عندهم؟». «أمّا أنّها لم تقرّ به لبشريّ عاديّ فصحيح، فلستُ بشرًا عادِيًا، وأمّا أنّ ذلك من دلائل نُبوّتي فلا، وإنّما هو من دلائل فُحولتي». فَزّم القاضِي شفتيه، وَدَعا بأحدِ الشّهودِ فدخل، فنظرتُ في وجهه فما عرفتُه، غيرَ أنّه أقبلَ نحوي وابتسم وهَمّ بمعانقتي لولا هيبة المحكمة ولولا القيود الّتي تلبسني من أعلى هامتي إلى أخمصِ قَدَمَيّ، وهتفَ حينَ وقفَ عن يميني مُميلاً عنقه نحوي: «ألا تعرفني؟». فنكِرْتُه، وهززتُ رأسي بالنّفي، فردّ: «أنا صاحِبُ الجُرح». فجاهدتُ أنْ أعرفَه فلم أقدر، فأصحابُ الجِراحِ عندي كثيرون، ولقد أثخنتُ فيهم حتّى كأنّما صارَ لأهل البادية والحاضرة في الشّامِ كلَّهم تِرةٌ عندي. فبادَرَنا القاضي قائِلاً: «إنّ هذا الشّاهدَ يقول إنّه كان معكَ في ديوان اللاّذقيّة، وأنّه كان كاتِبًا هناك، وأنّ سِكّين الأقلام انقلبتْ على يده فجَرَحتْهُ جُرْحًا مُفرِطًا حتّى نَزَفَ دمًا كثيرًا، وأنّكَ تَفَلْتَ على الجُرح من رِيقك، فهل هذا صحيح؟». فتذكّرتُ الأمر على نحو ما قال، فهتفتُ: «صحيح». فتابع القاضي: «ثُمّ إنّكَ شددتَ على الجُرْحِ فَبَرِئَ مِنْ ساعته، فهل هذا صحيح؟». «صحيح». فتابَع: «فصار النّاسُ يعتقدون فيكَ أعظمَ اعتقاد، ويظنّون فيكَ النُّبوّة؟». فانتفضتُ: «كَلا». فتحرّكَ الشّاهد بجانبي الّذي كان كاتبًا في ذلك الدّيوان، وهتف: «بل اعتقدْنا فيه ذلك يا سيّدي، وأبعَدَ منه». فسأله القاضي: «وما الّذي هو أبعدُ منه؟». «صِرنا نعتقدُ أنّه يُحيي الموتى». فزفرتُ من الغيظِ حتّى انتفخَ صدري. ثُمّ أمر القاضي الشّاهدَ بالخروج، فخرج. ثُمّ أدخل القاضي شاهِدًا ثانِيًا، فعرفتُه أوّل ما دخل، إنّه ابنُ أمّ شيبان الهاشميّ، وعرفتُ الحِقدَ في وجهه من جهةِ نَسَبي، فقد كان أحدَ أسباب إخفائي له، فلمّا

صارَ بين يدي القاضي، سأله: «ما تقولُ في هذا الرّجل؟». فردّ الهاشميّ بثقةٍ وهدوءٍ وصوتٍ عالٍ كأنّه يحفظُ النّصّ أو يستظهره: «إنّه كَذّاب ومُدّعٍ، فأمّا كذبه فادّعاؤه النُّبوّة في بني عَدِي وبني كلبٍ وبني كلاب. وأمّا ادّعاؤه فإظهار نَسَبِه على أنّه عَلَويٌّ قُحّ، وما هو إلاّ فرعٌ مكسورٌ، وغصنٌ مشروخ، وذو نَسَبٍ هجين، لا يُعرَف أبوه ولا جَدّه». وهَمَمتُ أنْ أعضّ رقبةَ هذا الأفّاك، أو أنّ يدي تقدر على السّيف فتجعل رأسه تتدحرجُ بين رجلَي القاضي. وأمرهَ القاضي بالخروج بعدَ ذلك، فأرسَلَ إليّ نَظرةَ تَشَفٍّ وخرج.

استغرقتْ محاكمتي ذلك النّهارَ كلّه، ولقد طلبْتُ من القاضي أنْ أجلسَ قليلاً من وهنٍ في جسدي، أو أنْ يُؤجّل المحاكمة، أو يتركنا نستريحُ قليلاً، فأمر باستراحةٍ لصلاة الظّهر، ثُمّ عُدْنا.

فلمّا واصلَ القاضي الجلسةَ بعدُ، سألني وأنا واقفٌ موقفَ المُتّهم: «أصحيحٌ أنّ دعوتكَ قد عَمّت مُدُنَ الشّام كلّها؟». «صحيح». «وأنّه بُويعَ لكَ فيها بالنُّبوّة». «كلا». «فعلامَ بويعتَ؟». «على الموت، وأنْ نُعيدَ هذا الأمر إلى أهله». «وما الأمر الّذي تنوي إعادته إلى أهله؟». «المُلك». «المُلْك؟». «نعم». «ولِمَ؟». «لأنّه تربّع على العروش القِرَدة». «فأنتَ أحسنُ منهم؟!». «لا يُجاريهم في سوئِهم أحد». «ففيم دعوتَ أتباعَكَ في سلمية؟!». «إلى قِتال اللّصوص». «لقد كنتَ تفعل فِعل اللّصوص». «كلاّ. كُنّا نأخذُ من مال الأغنياء للفقراء. وكُنّا نملكُ القُرى ونوطّد الجيشَ من أجلِ إقامةِ الحَقّ». «أفأنتَ الحقّ؟!». «هُمُ الباطل». «ألكَ الخروجُ على وليّ الأمر؟!». «لِيَ الثّورةُ على كلّ ظُلم». «فأنتَ تُقِرّ بهذا؟!». «دون خوفٍ أو تَلَجْلُج». «إذًا لقد فَرّ المُقاتِلون

الشُّجعان من حولك!!». «لقد فرّ الصّحابة من حول النّبيّ يومَ حُنين، وفرَّ مَنْ كان مع خالدٍ في العراق أيّام القادسيّة، وما يثبُتُ مع الأنبياء إلاّ الخُلَّص». وصفَق القاضي الرّقوق الّتي أمامه، وهتف: «استراحةٌ من أجل النُّطقِ بالقرار». وانفضَّ جمعُ المحكمة، وكانت الشّمس قد مالتْ عن قُبّة السّماء، وأُلقيتُ في غرفةٍ مُحصّنةٍ مُحاطًا بعشرة حُرّاس، حتّى يُصدِر القاضي الحُكم في شأني بعدَ صلاة العصر.

(٦)

القَرار

واجتمع في المحكمة القاضي والكاتب والجالِبُ والحَرَسُ والشُّهود، والنُّظّارة، وقد ضَجّت القاعة بهم، وأُخرِجتُ من الغرفة إليه مُكبّلاً من رأسي حتّى غطّت الأصفادُ جذعي ولَوَتْه بثِقلها وشِدّتها، ثُمّ لمّا صرتُ في وجهه، فتحَ القاضي الرّقوق، واختار أوّلها، وراحَ يقرأ منها: «انعقدتُ المحكمةُ هذه في رمضانٍ لأيّامٍ سِتّ بقينَ منه من عام ٣٢١ من هجرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبعدَ النّظَر في التُّهَم الّتي نُسِبَتْ إلى المُتّهم أحمد بن الحسين وجدت المُحكمة أنّه مُدانٌ في الخروج على الحاكم، وفي انتِسابه الكاذب إلى العلويّة، ولم تتوصّل المحكمة إلى رأيٍ جامعٍ في ادّعائِه النُّبُوّة. وبناءً على ما تَقَدّم فإنّ المَحكمة تأمرُ بقتل هذا المُدّعي المارق، ثُمّ دَفْنِه دون أنْ يُصَلّي عليه أحدٌ من المسلِمين».
ثُمّ طَوى الرّقّ، وهاجتِ القاعةُ وماجَتْ، وعلتِ الأصوات، وصاحَ النُّظّارة، مؤيّدين للحُكْم، وسمعتُ الغوغاء خلفي تهتف: «الموتَ... الموتَ...» وأخذني الخَيالُ بعيدًا إلى أوّلِ مَوماةٍ استقبلتْ وجهي مع أبي، أيّامَ كانت الصّحراء في اللّيل تفتحُ ذراعَيها لهذا العاشق، وأيّام كانت الجِنُّ في الأرض كلّها تهوي إلى الموضع الّذي أقفُ فيه من أجل أنْ تسمعَ سِحرَ ما أقول. وتذكّرتُ ابتسامَةَ أبي، ووقوفَه إلى جانبي، وتمنّيتُ أنْ يظهر في هذه اللّحظة المصيريّة فجأة، وأنْ يطير بي كما كان يفعل دائمًا

من هذا المكان القاتل، أنْ يرفعني معه إلى السّماء من خلال هذه القبّة العالية المليئة بالسّروج، ونظرتُ بالفعل إليها لعَلّني أراه، فلم أرَ غيرَ سُرُجٍ مُظلِمة، وتداخلتْ الخيالات بأصواتِ الهاتفين من خلفي واللّغط الّذي ملأ المكان، واستيقظتُ فجأةً من خيالاتي على أحد الحرسَ يهمزني بحربةٍ في جذعي المكشوف، وآخرَ يدفعني، وصحوتُ من الحلم وأنا أُجرجَرُ مثل الكلب على درج المحكمة، ثُمّ يُقذَفُ بي إلى العربة، وتنطلقُ العربة إلى السّجن.

رموني هذه المرّة في غرفةٍ وحدي، شعرتُ بالرّاحة لعدم وجود القرود إلى جانبي، ومع أنّني أيقنتُ بالموت، فقد تبسّمتُ وأنا أغذُّ إليه الخُطا، وبدا لي أنّها النّهاية، ولم أكنْ أعرفُ شكلَ هذه النّهاية من قبلُ، ولم أدرِ أنّها ستكونُ سريعةً على هذا النّحو. وأسندتُ ظهري إلى الغرفة، ورُحتُ أنظرُ إلى الجِدار الّذي يواجهني، رأيتُ عليه أيّامَ المكتب، أيّام كنتُ أريدُ أنْ أقومَ فيهم للصّلاة وأنا لا أزال في الثّامنة، ظهرتْ لي أمّي الّتي لم أرَها في حياتي، أُمّي الّتي قالوا لي إنّها ماتتْ يومَ وُلِدت، رأيتُها اليوم وقد مَدّتْ إلَيّ ذراعيها وهي تبتسم، ومددتُ ذراعَيّ إليها وأنا أردّ ابتِسامتها بابتسامة، غيرَ أنّها بدأتْ تغيبُ في الجدار شيئًا فشيئًا، ورأيتُ دموعها تنحدرُ على وجناتها قبل أنْ تغيبَ تمامًا. رأيتُ بيتنا في الكوفة، كانتْ جدّتي تجلسُ في فنائه، نظرتْ فجأةً جهتي وكانت منحنيةً على الأرض تلتقطُ منها شيئًا، وهتفتْ: «ما زلتُ أنتظرُكَ يا حبيب، لا تُطلِ الغيبة علَيّ». فابتسمتُ وهتفتُ وأنا أمسحُ دمعةً باردةً حاولتْ أنْ تسيلَ فمنعتُها: «سأفعل اللّيلة أو غدًا يا حبيبتي».

وهناك. في مجلسِ التّنفيذ، رُفِعَ القرار إلى مركز الشُّرطة، فقال رئيسهم: «إنّ القاضي أمرَ بإعدام أحمد بن الحُسين وقتله، ولكنّه لم يذكر الطّريقة الّتي سيُقتَل بها، وتركَ لنا إلى ذلك أمرَ مكان التّنفيذ، وما لَمْ يُنَصّ على المكان فإنّه حسبَ أعراف الشُّرطة يتمّ في السّجن الّذي ألقي فيه القبضُ عليه». ثُمّ التفتَ إلى أعوانه وسألهم: «فما ترون؟!». فتقدّم أقربُ النّاس رتبةً إليه وهتف: «يُقتَل بالطّريقة الّتي خَرَج بها، مَنْ خرجَ بالسّيف يُقتَل بالسّيف، ومَنْ يأخذُ بالسّيف بالسّيف يَهلَك، أرى أنْ توضَع عنقه تحت السّيف فيهوي عليها فيقطعها». ثُمّ صمت. فتقدّم شُرَطيّ آخر يليه في المرتبة، فقال: «أرى أنْ يُطبَّقَ فيه حَدُّ الحِرابة، فقد رَوّع الآمنين ونهبَ القُرى، وهؤلاء يُصلَبون وتُقطَّع أيديهم وأرجُلُهم من خلاف». ثُمّ صمتَ فتقدّم الثّالث، وهتف: «أمّا أنا فأرى أنْ يُقتَل حَرْقًا، فلقد أحرقَ الأطفال والنّساءَ في القُرى الّتي أغارَ عليها مع مُرتزقته، على أنْ يُحرَقَ حَيًّا». ثُمّ صمتَ فتقدّم الرّابع، وهتف: «إنّه ما زالَ غلامًا، وإنّني أرى أنْ يُقتَل بالسُّمّ، فلا يشعر بالموت أبدًا». فنهرَه مَنْ سبَقَه: «آلآن غَلَبَتْكَ الرأفةُ على هذا اللّصّ». ثُمّ صمتوا، وجاءَ دور الخامس الّذي حَكّ ذقنه استِعدادًا لِما سيقول: «أرى أنّ الجَزاء من جِنْسِ العمل كما يقول ديننا». ثُمّ صمت كأنّه يستنطق الباقين أنْ يسألوه عن مُراده، فسألوه، فقال: «إنّه غزَا ونهَبَ وقتَلَ على الخيل، فبالخِيْلِ يُقتَل». فسُمِعَ بعضُهم يسأله: «تقصدُ نُطلِقُ عليه الخيول تدوسهُ تحتَ حوافِرَها حتّى تنفتقَ أمعاؤُه من أحشائه». فردّ: «كلا، ما هذا قصدْت». فسأله أحُدهم: «إذًا نُطلِقُ عليه أسدًا جائِعًا يفترسه في بضع لُقيمات ويزدرده في لحَظات، كما فعل الحَجّاج». «لا... لا يُمكن تطبيق هذه الطّريقة من الموت، فمكانُها ساحة السّجن، ومن الصّعب أنْ تسيطر على أسدٍ هائجٍ

جائعٍ في تلك السّاحة، فينفلتَ على المساجين الآخرين فيقتل منهم ما شاء». فردّ رئيس الشُّرَطة عليه مُحنقًا: «أطلْتَ، فأفصِحْ وأوجِزْ». فردّ وهو يبتسم: «نأتي بأربعة خيولٍ، فنربطُ يدَيه ورِجلَيه إلى كلّ خيلٍ منها، ثُمّ نُلْهِبُ بالسّياطِ ظُهورها، فتفزعُ جاريةً في كلّ اتّجاه، فتتمزّق أطرافُه، وتتدفّق دماؤه جاريةً في السّاحة، ويتحوّل إلى أشلاءَ مجذوذة، وتُزهَق روحه في لَحَظات». فَرَدّ رئيس الحرس وهو يهزّ رأسه مُمتعِظًا: «ما أقسى ما فكّرتَ به!!». ثُمّ إنّهم استقرّوا على أمرٍ، وبُيِّتَ للتّنفيذ.

فلمّا كان آخرَ يومٍ من رمضان، جاءتْني كتبية الإعدام، والشّمسُ تأذنُ بالرّحيل، قبل أنْ يُفطِرَ الصّائمون، ثُمّ دُعِي رئيس الفتوى، ورئيس الشُّرطة والشّيخ المُلَقِّن، وبعضِ رجال الدّين والقضاء، وأمير الجيش وبعضُ قادة فصائله، فمُدّ لهم بساطٌ رُكِزَتْ عليه كراسيّهم الوثيرة، ومُدّ لي (النّطْع) وكان أسودَ يسرقُ من الشّمس لونَها الأصفر المائل إلى المغيب، ثُمّ فُتِحَتْ كُوَى المعتقلات، ورُفِعَ الحَظْر عن المشاهدة، فتزاحمت الرّوؤس على تلك الأبواب والكُوى تنظرُ إلى مشهدِ الموتِ الّذي سينزلُ بي.

وفتَحَ الحَرَسُ الباب، وأشفقوا عليّ وهم يسوقونني إلى نهايتي، فنظرتُ في وجوههم وأنا أرفعُ رأسي، وأشدّ من عزيمتي، وبادرني الشّيخ الّذي يريدُ أنْ يقرأ عليّ الشّهادتَين، لأموتَ عليهما مُسلِمًا، فدفعتُه عنّي، وهتفتُ في وجهه:

شَـــيخٍ يَرى الصَلَواتِ الخَمسَ نافِلَةً
وَيَســـتَحِلُّ دَمَ الحُجّـــاجِ في الحَرَمِ

ومضيتُ تارِكًا إيّاه خلفي إلى قدَرِي، فلمّا قطعتُ ثلثَ السّاحة الفسيحة تراءَى لي الجمْعُ الّذي جاءَ ليشهدَ مقتلي قطيعًا من الأصنام، وبدا النّطع الّذي عليه يسيل دمي بساطَ ريحٍ سيأخذني إلى عالَمٍ جديدٍ غيرَ هذا العالَم. وتابَعْتُ الخطو مع الحرَسَ دونَ أنْ يبدو عليّ الخوفُ، ولم يرفّ لي جفن، ولم تطرف لي عَيْن، وسمعتُ أصواتَ الرّعاع من وراء الحجرات يصيحون: «الموتَ للمتنبّي... الموتَ للمتنبّي.. اقتلوه... اقتلوه...». وهمستُ في نفسي: «مَنْ يجرُؤ أنْ يقتلني... على أيِّ وجهٍ سيكون الموتُ صديقًا لي». ثُمّ ها نحنُ صِرْنا عندَ النِّطع أمام رئيس الشُّرَطة، كان رئيس الشُّرَطَة قد استعدّ لإعلان أمر تنفيذ القتل فِيّ على مسامعي، وحانتْ منه التِفاتةٌ إلى عَيَنَيّ، فحَلّ فيه الرُّعب، فماذا رأى في عيَنَيّ غير الهُزْء بالموت، وغيرَ ابِتسامة السُّخرية من كلّ ما يجري حولي، وأرادَ أنْ يقرأ القرار وطريقة التّنفيذ، فهتف: «قَرّرت الدّولةُ...» ثُمّ رَفَعَ نَظَرَه إليّ فتلعثَم، فأكملَ: «قرّرت الدّولة نائِبًا عنها...» ثُمّ نظَرَ إليّ فرأيتُ خدوده ترتجف، ورأيتُ شِفاهه تتذبذب، ثُمّ أردتُ أنْ أملأ الفراغ الّذي أحدَثَهُ صمتُه الرّاجف، فهتفتُ:

مَـــنْ لَـــوْ رَآنِيَ ماءً ماتَ مِـــن ظَمَأٍ
وَلَـــو مَثَلْتُ لَـــهُ في النَّـــوْمِ لَم يَنَمِ
مِيْعَـــادُ كُلِّ رَقيقِ الشَّـــفْرَتَيْنِ غَدًا
وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ العُرْبِ وَالعَجَمِ

ثُمّ أتمّ رئيس الشُّرَطة قرار التّنفيذ، فجُذِبْتُ من عنقي إلى النّطع، ثُمّ رُكّعتُ على رُكبَتَيّ، فهتفتُ: «لا تقتلوني جاثِيًا». ونهضتُ مُستنِدًا بقدمي اليُمنى على رُكبتي اليُسرى هامًّا بالوقوف، فضُرِبْتُ بالقنا على

ظهري، فهويتُ على الأرض، واعتدلتُ ما استطعتُ قبل أنْ أهتف: «اقتلوني واقِفًا. إذا كانت الغايةُ قتلي، فماذا يضيرُكم أنْ تقتلوني واقِفًا». فردّ رئيسُ التّنفيذ: «وإذا كانت النّهاية قتلَك، فما الفارقُ في الوجه الّذي ستُقتَل عليه». فأجبتُ: «أموتُ واقِفًا رافِعًا رأسي مُستقبِلاً وجهَ السّماء، على أنْ أموتَ راكِعًا خافِضًا هامتي مسقبِلاً جوفَ الأرض».

في هذه اللّحظات كان السّجنُ بالآلاف من المساجين الّذين فيه، يصيحون بإيقاعٍ واحدٍ ارتجّتْ له الجُدران: «اقتلوهُ اقتلوهْ... لعنةُ الله عَلَيْهْ». فيما كان مَنْ شَهِدَ الواقعة من عِلية القوم، يستعجلون أمر قتلَي، وينتظرون أذان المغرب لكي يُفطِروا، وقد انزعجوا من أصواتِ الرّعاع، ومن الحديث الّذي يدور بيني وبين الحَرَس وهم لا يسمعونه، كلّ ما كانوا ينتظرونه أنْ تنفصل هذه العنق عن هذا الجسد، وينتهي عَهْدُ الأنبياء الكذبة إلى الأبد كما يأمُلون.

ودار الحارسُ الّذي سينُفِّذُ القتل من خلفي، كانَ بغلاً لم أرَ مثله في حياتي، ضخم الجُثّة، مُحيطُ ذراعه أكبرُ من محيطِ جذعي، وكان أنخر، وذا لحيةٍ شعثاء، وقسماتٍ قاسِية، وصفحةٍ غليظةٍ مُغضَّنة، ثُمّ أدار لي ظهري، ليقطعَ عنقي من الخلف، فأدرتُ له وجهي، وأزحتُ القميصَ عن اللّبّة، وكشفتُ له عن عنقٍ مرفوعةٍ، وهتفتُ: «اضربْني على اللّبّة، فهذا أسرعُ للموت، وأشفَى للصّدر، وأبرأ لي، فقد قضيتُ حياتي أطلبُ من أتباعي، أنْ يموتوا في اللّبات لا في الأكفال». وهَزّ الحارس العملاق رأسَه، وشُدَّتْ يداي خلفَ ظهري، ورجلاي بعضهما إلى بعض، واستقبلتُ الموت بصدرٍ مفتوح، وأحكم كلتا يدَيه الكبيرتَين المعروقتَين على مقبض السّيف، ثُمّ دَفع ذراعَيه إلى الوراء بأقصى ما يستطيع لافًّا

جِذعه إلى اليَمين وحَدّق بعينَين واسِعَتَين إلى موضع العنق، وأرادَ أنْ يهوي بالضّربة القاضِية، الضّربة الّتي أقفُ فيها على الحافّة بين الموت والحياة، لولا أنّ صوتًا مُجلجِلاً ملأ فضاء السّجن، فُتِحت البوّابة الكبيرة، ودخلتْ منها سُرْبةٌ من الخيول، كانتْ تعدو كأنّها تسبح، وكان صوتُ الفرسان إلى صوتِها عالِيًا مُرعِبًا، ووجمَ الجمعُ الّذي عند الموت، وسُمِعَ صوتُ أحد الخَيّالة: «أيّها القائد... يا أمير الجيش، لقد...».

وسقطتِ الشّمسُ بعدَ ذلك خلفَ القُبّة الزّرقاء.

(٧)

أمضي إلى قَدَرٍ جديد

لن تنتهي الثّورات الدّاخليّة. لن تستقرّ هذه الدّولة. ليستْ حمص وحدها. إنّ الخروج على القادة يظهر في كلّ مكان، وينتشر في كلّ صِقْع. ماذا تبقّى من الخليفة الّذي عليه أنْ يجمع أمرَ المُسلِمين؟ لا شيء، إنّه يقبعُ في قصره لا يخرجُ منه إلاّ بإذن قائد الجيشِ عنده، قائد الجيش الّذي لا يُتقن العربيّة يُوجّه أوامره إلى خليفة المُسلمين الّذين سادوا العالَمين بالعربيّة وبالقرآن. ليستْ حمصُ بِدْعًا من هذه الثّورات، إنّ أمرَ الأمّة في تمزّق، إنّه قد انتحَى كلّ فقيهٍ أو شيخٍ أعور، أو قائدٍ أعمش، أو علجٍ أبخر بكلّ بُقعةٍ من بلادَنا ونصّب نفسَه عليها أميرًا، ما أكثرَ الأمراءَ والملوكَ في زماننا وما أقلّ النّاس!

إذًا تغيّر قائدُ الجيش، فتغيّر تبعًا له كلّ شيءٍ. إنّ القادة يصدقُ فيهم: «إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها». وإنّ النّاس يصدقُ فيهم: «كلّما دخلتْ أمّة لعنتْ أختَها». فما ترى أمّة تُحكَم بالعدل إلاّ قتلتْ حاكِمَها، وما تُرَى أمّة تُحكَم بالسّيف إلاّ ركعتْ لحاكمها. هكذا نجوتُ من الموت بقدرٍ إلهيّ، وأعرفُ أنّني أمضي إلى قدرٍ جديد.

لم أعدْ إلى الغرفة الّتي ساقوني منها إلى الموت، بل أعادوني إلى قبوٍ آخر، أصغرُ من سابِقه، ولكنّه يحظَى بالمجانين أنفسهم وبالقرود ذاتهم.

فرأيتُ من الحِكمة مع فرصتي الجديدة في الحياة، أنْ أغيّر طريقة النّظر إلى الأمور، وأنْ أتروّى في الحُكم على الأشياء، واتّخاذ المواقف حسبَ ما تقتضيه الغاية والوجود فأنا كما قال الأوّل:

أَضَاعُــونِي وَأَيَّ فَتًــى أَضَاعُــوا

لِيَــوْمِ كَرِيْهَــةٍ وَسَــدَادِ ثَغْــرِ

ولكنّني لن أدعهم يُضيّعونني، وسأرتقي المُرتَقى الّذي لم يرتَقِهِ أحدٌ من قَبْلي.

وحلّ العيدُ في اليوم الثّاني، وأعلنَ القاضي الّذي أعلنَ موتي هلالَ العيد، فما كان موتًا على ما يشتهي، وما يقبضُ الأرواحَ إلاّ الخالِق، فأمّا هؤلاء فبُلْهٌ جُوْفٌ خرقى حمقى أوغاد، ولن ينتزع إيماني وقُوّتي مخلوقٌ مهما تردّى من ثياب السُّلطة والبهرجة والصّولجان، ومهما جلسَ على العروش، ورقصتْ حوله الغانيات وغَنّت له القِيان!

وحدي، غيرَ أنّني واحِدٌ في كثير. ليسَ في الكوفة ورائي غيرُ جدّتي. أمّا أبي فغاب في دياميم الجنّ، وأمّا أمّي فكان من أمرها ما كان، أعطتْني الحياةَ كلّها وهي تجود بأنفاسِها في آخر لحَظاتها؛ ماتت لكي أعيش، وأمّا أخي فأعمى على جسرٍ ببغداد يتكفّف النّاس، وكان في غِنًى عن ذلك لو أطاعني، وأمّا أختي فتزوّجتْ ورحل بها زوجُها إلى بغداد، وأمّا الزوجة فلم تأتِ بعدُ، وأمّا الأولاد فما لي سِواي، وأمّا ثأري ففي صدري وصدر جدّتي، وأمّا نسبي فيعلمه العلويّون ولكنّهم لا يريدون ظهوره خوفَ أبي وعودته، وأمّا همّتي فهمّة الملوك، وها أنذا مع هذا كلّه أقبعُ في هذا السّجن وحيدًا طريدًا شريدًا تتقاذفه أيدي المنون بين الهياكل الجوفاء الصّمّاء.

مرّ عيدان، وبدأتْ نفسي تضيقُ على عادته، فأنا سريعُ التّقلّب، حادّ المِزاج، وقّاد الذّهن، أنظرُ في يومي يمرّ دونَ أنْ أقرأ أو أكتب، لو انّ جدّتي تبعثُ لي بالكتب الّتي اشترتْها لي أيّام المكتب. لكنْ أينَ أنا وأينَ هي؟ وهل تعرفُ ما حاقَ بي؟ هل تدري أنّ ابنَها وحبيبَها تجرّأ عليه السّفَلة، وأنّه ولغ في دمه الفَسَقة، ونهشَ من جسده الكَفَرَةُ الفَجَرَة؟! لو كانتْ تعلمُ ما تركتْني أقاسي هذا هنا. ولكنْ ما أخبارُها؟ هل ما زالتْ تعسشُ هناك في الكوفة على ذِكرانا؟ كيفَ تتدبّر أمرَ معيشتها؟ مَنْ يرعى شؤونها؟ لا بُدّ أنها غاضِبةٌ منّي لطُول البُعد؟ آه يا جدّتي؛ لو كنتُ أستطيعُ أنْ أكتبَ لك لَفَعِلْت. إنّني قابعُ هنا في السّجن كالكلب الأجرب محرومًا من كلّ شيءٍ. ووقفتُ فجأةً على قَدَمَيّ، وصرختُ بأعلى صوتي: «أينَ أنتَ يا قيّم السّجن؟ أينَ أنتَ يا رئيسَ الشُّرَطة؟ أنا لستُ كلبًا، أنا الشّاعر الأوحد، والفردُ الأمجد. أين أنتم أيّها الظَّلَمة، أريدُ كتبًا، أريدُ أقلامًا.. أينَ أنتم يا كلاب يا... وشتمتُ شتيمةً صعبةً، وهُرِعتُ إلى باب القبو فرحتُ أركُلُه بجنونٍ، وأخبطُ على حديده بيدَيّ، وأنا أصيح، والمساجين المجانين ينظرون إليّ ويبتسمون، فلمّا تعبتُ من الصّياح والشّتائم، انهارتْ قُواي، وسقطتُ على الأرض، ولم أُفِق إلا في صبيحة اليوم التّالي على فتح الحرسِ للباب ليُقدّموا لنا جِفان الطّعام.

ثُمّ لمّا كان الظُّهر من ذلك اليوم، فُتِحَ باب القَبْو، فدخل رجلٌ لا يلبسُ لِباس الشُّرطة، فدَعا: «يا أحمد.. يا أحمد...». فنظرتُ إلى الرّجل فلم أتبيّنه من بعيدٍ، فأشرتُ بيدي أنّني لن أقومَ إليه، وأنّ عليهِ أنْ يدنو منّي، ففعل، فلمّا صارَ على مقربةٍ عرفتُ أنّه (أبو دلف)، فأمرتُه أنْ يخرج، ولا يُريني وجهه، وأردتُ أنْ ألكمه، فتراجعتُ، ثُمّ سمعتُه

يقول: «لماذا تُعرِضُ عنّي يا صديقي». «لستُ صديقَك، لقد وشيتَ بي». «لم أفعل». «وشهدتَ ضِدّي في المحكمة». «لم أفعل». «وفررتَ يوم الزّحف». «لم أفعلْ». «وجِئتَ إلى هنا لتشمتَ بي؟». «كلاّ، جِئتُ لأواسيك، ولأخفّف عنك، فمهما حدَثَ فنحنُ أصدقاء». «الأصدقاء لا يغدرون ولا يخونون». «إنّكَ تنظر إلى الأمر وتُديره في عقلك على هواكَ». انتفضتُ حينَها، ووقفتُ على قَدَميّ، وصرختُ: «اخرجْ أيّها الكلب، وإلاّ هشّمتُ وجهك». فخرجَ خائِفًا مُسرِعًا، وتركَ طبقًا كبيرًا ملفوفًا بالورق، وسفطًا مُغطّى بالقِماش.

بقيتُ أنظرُ إلى ما تركَ دون أنْ أفتحه، فلمّا رأيتُ عيون المجانين تتحوّل إليه، أخذتُه ففتحتُه، فإذا في الأوّل طَعامٌ شهيٌّ ساخن، وإذا هو لحمٌ وخبزٌ ومَرَق، وإلى جانب ذلك سَفَطٌ فيه رقوقٌ وقراطيس ومِدادٌ وأقلام، ففرحتُ بها أيّما فَرَح، وغَفَر له ذلك عندي بعضَ خيانته.

وصعدت الرّائحة الشّهيّة من اللّحم، فملأتْ مناخر المساجين، فمالتْ إليها أعناقُهم، ورأيتُ بعضَهم يزحفُ نحوي، فاقتربَ الأوّل متوجِّسًا منّي لِما عايَنه من أمري أمس، وتشجّع وهو يزحفُ على إليَتيه، ثُمّ مَدّ يدَه فأخذَ قِطعةَ لَحْمٍ فوضَعها في فمه، وراحَ يمضغها بِقُوّة وسُرعةٍ ولذّة، فلمّا رأى الآخرون أنّني لم أزجر الأوّل عن الطّعام، جاءَ الثّاني فالثّالث، ثُمّ تجمهروا على طبق الطّعام الواسع فتناهشَوه وتدافعوا إليه حتّى سقطَ بعضُهم فوقَ بعض، وأنا؟ لم أمدّ يدي إلى لقمةٍ منه على شهوتي إلى طعامٍ مثله، ولكنّني حضنتُ الرّقوق والمداد والأقلام واستنقذتُها من بين هؤلاء الهَمَج، وركضتُ بها كمن يركضُ بكنزٍ ثمين إلى زاويةٍ بعيدًا عن هذه الضوضاء.

فلمّا هدأتْ بالي، تفكّرتُ في أمر (أبي دلف)، هل جاءني تائبًا صادِقًا بالفعل؟ أمّ أنّه جاءِ ليتشَفّى بي؟ ولكنّه لو أرادَ التّشفّي، لجاء فحاورني بكلامه البارد هذا ولم يأتِ بهديّة الطّعام ولا بهديّة القراطيس؟ ثُمّ إنّه قد مضى على بقائي في السّجن ما يقربُ من عامٍ، فلو كانَ صادِقًا في دعواه، لسعى لدى الحاكم إلى إخراجي من هذا السّجن؟ لكنْ هل تغيّر لُؤلُؤ الغوريّ ولم يعدْ أميرًا على حمص، فلم تعدْ لأبي دلفٍ عنده حُظوة؟ لا أدري وأنا المعزول في هذه البقعة من السّجن عن أخبار الخارج شيئًا. لكنّني سمعتُ برجل يُدعَى (أبا إسحق بن كيغلغ) فهل صار الأمر إليه؟ فإنّنا نسمعُ في كلّ يوم أنّ أميرًا تولّى على مدينةٍ في كلّ شبرٍ من أنحاء هذه الأرض، وإنّ الأمراء صاروا من الكثرة بحيثُ لا تُعرَف لهم أسماء، ولا تُحفظَ لهم وجوه، ولا تُرعَى لهم ذِمَم؟ ولا يجلسُ أحدٌ على كرسيّ الحُكم سحابةَ النّهار، حتّى يأتيه غريمُه آخَر اللّيل فيُسقِطه ويجلسَ مكانه.

غيرَ أنّه لا يعنيني من حالةِ أبي دُلَفٍ وموقفه معي الكثير، فهو لا يملك من أمره شيئًا، وعلى الأرجح دُفِعَ من قِبَل مَنْ هو أعلى منه سُلطةً ليفعل ذلك، ولم يُحرّكْه الوفاء، ولا الشّعور بالذّنب، ولا أيّ شيءٍ من ذلك، وإنّه إذا كان يبغي أنْ يبرّني بهديّته هذه، فإنّه لا يملكُ قلبي بالطّعام، ولو كنتُ أعرفُ أنّها طعامٌ فحسبُ لفضضتُها فوقَ رأسِه، ولكنّ هذه القراطيس هي الّتي اضطُرّتْني إلى قَبول هذا التّشفّي المُستَّر.

ثُمّ إنّني خلوتُ آخر اللّيل إلى تلك القراطيس، والأقلام، والدّواة، فما فتِئتُ حتّى كتبتُ على أوّل ورقةٍ أوّل أبياتٍ لي في هذا السّجن البغيض:

أَهْـــونْ بِطُـــولِ الثَّـــواءِ وَالتَّلَـــفِ

وَالسِّـــجنِ وَالقَيْـــدِ يـــا أَبـــا دُلَـــفِ

غَـــيْرَ اخْتِيَـــارٍ قَبِلْـــتُ بِـــرَّكَ بِي

وَالجُـــوْعُ يُـــرْضِي الأُسُـــودَ بِالجِيَـــفِ

كُـــنْ أَيُّهـــا السِّـــجْنُ كَيْـــفَ شِـــئْتَ فَقَدْ

وَطَّنْـــتُ لِلْمَـــوْتِ نَفْـــسَ مُعْـــتَرِفِ

لَـــوْ كَانَ سُـــكْنَايَ فِيْـــكَ مَنْقَصَـــةً

لَمْ يَكُـــنِ الـــدُّرُّ سَـــاكِنَ الصَّـــدَفِ

ووقعّتُ تحتها: «لم يكنْ للسّجن أنْ ينالَ منّي لولا خِيانةُ مَنْ وثقتَ بهم، ولم يكنْ ليكون له أثرٌ فِيّ لولا مُماراة أهل الظُّلم وممالأتهم، وإنّ طعنةَ الرّمح، أخفّ بكثيرٍ من طعنة الصّديق، ذلك أنّ طعنة الرّمح لا تكون إلا في الجسد، وطعنة الصّديق لا تكون إلاّ في القلب.

ثُمّ إنّني بعثتُ بالأبيات مع حَرَس الطّعام الّذين جاؤوا بالجفنة العملاقة في صباح اليوم التالي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٨)

مَنْ لا يعرفُ المُتنبّي؟!

لقد مرّ عامٌ كَرِيتٌ، وها أنذا أدخل عامي الثّاني في هذا السّجن، ولقد انقطعتْ أخبار أبي دلفٍ بعدَ تلك الرّقعة، ولا أدري ما صنع الله به، ولا إنْ كان لا يزال حَيًّا أمّ أنّ تقلّبات الكراسيّ قد أصابَه من رَشَاشِها ما أصابه!

ثُمّ إنّ الرّقوق انتهتْ، والقراطيس امتلأتْ، والمداد نفد، ولمّا لمْ أجدْ شيئًا أكتبُه، صِرتُ أكتبُ بالرّيشة الجافّة على جدار السّجن، أبدأ من الصّباح، وبينما يتهافت السّجناء على جفنة الطّعام، كنتُ أقف على الجُدران، أُلصِقُ خَدّي الأيسر بها، وأمسك القلم بيُمناي وأكتبُ على الحائط، أكتبُ أشعارًا كثيرةً، كتبتُ في أربعةِ أشهرٍ أكثرَ من ألفِ بيتٍ، خططتُها على الجُدران بذلك القلم الأجوف الجافّ، لم تكنْ تَرى لِسواي، كان يظنّ المجانين أنّني انضممتُ إلى طائفتهم، مَنْ ظلّ به عقلٌ هنا فلْيَتَخَلّ عنه، فلا مكان للعقلاء في هذه الأقبية، لم أتوقّف بعدَ ذلك، ملأتُ الجدران كلّها بأشعارٍ لا يراها سِواي، بِحِكَمٍ لا يقرؤها غيري، بفلسفاتٍ لم تدر في عقل أرسطو طاليس ولا أفلاطو، بتعاليم لم تخطر على بال السّيّد المسيح، بوصايا لم تنبت في عقل موسى بن عمران، بِحِكَمٍ لم يتلفّظ بها لُقمان، وبدواءٍ لم يُنتِجه أبقراط... ثُمّ لمّا انتهيتُ في الشّهور

السّتة الأولى بعدَ عامي الأوّل من ملءِ تلك الجُدران بتلك الأشّعار، صعدتُ إلى سقفِ السّجن لأكتبَ فوقَه أشعاري، كان في عقلي عقلُ البشر كلّهم؛ مجانينهم ومخاليعهم وفلاسفتهم وشعرائهم وحُكمائهم وجبّاريهم وأمرائهم وعامّتهم... كان في عقلي كلّ عقلٍ، وكنتُ أشعرُ لو أنّني لم أفعل ما فعلتُ فسيتفجّر عقلي، ويتحوّل إلى شظايا، وسأنظر إليه دون أنْ اموت، ولكنّني سأكون حزينًا جِدًّا، لأنّني لم أقلْ كلّ شيءٍ.

قال لي أعقل المجانين في السّجن: «كيفَ ستكتبُ على السّقف؟! إنّكَ أعلى منه!». ولا أدري إنْ كان يقصدُ الكلمة، أم أنّه أراد أنّه أعلى منّي، ولكنّ عبارة هذا المجنون داعبتْ مشاعري؛ فلا شيءً أعلى منّي. قلتُ له: «إذا انحينتَ وركبتُكَ صرتُ أعلى من السّقف، وحينَها سأتمكنّ من الكتابة». وفعلَ راضِيًا مسرورًا، وانحنى بعدُ لي كلّ من أرادَ أنْ أقول له الحِكمة، فلم يبقَ أمام حكمتي مستقيمَ الظّلّ، ولقد ركبتُ الملوكَ من بعدُ كما ركبتُ هؤلاء المجانين. ثُمّ إنّه لما امتلأ السّقف، رُحتُ أفحصُ في الأرض فأملؤها بشعري كما ملأت الجدران والسّقف، كان جنونًا، ولكنّه جنونٌ أخضعَ لي الجهات السّتّ، فلمّا لم يبقَ شبرٌ ولا أنملةٌ أكتبُ فيها، ركنتُ بعدَ ستّة أشهرٍ من الكتابة المتواصلة الخافِية إلاّ عن ذوي البصائر، ظهري إلى الجدار، ومددتُ رِجلَيّ، وزفرتُ زفرةً طويلة، وقلتُ: «لو جاءَ الموتُ الآن، فسأرحّب به، فلقد قلتُ ما أريد».

ولقد خجل الموتُ فجاءتِ الحياة، كان ذلك يومًا من أيّامِ الشّتاء القارِسة، وكنتُ لا أقوى على الوقوف لشدّة نحولي وضعف قُوّتي، ولقد رأيتُ السّجنِ يأكلني على الحقيقة، ويرعى سنامي دون مجاز، فغارتْ عيناي، وشَحُبَ وجهي، وبرزتْ عِظام صدري، ورَقّ جِلْدي،

وتشعّثَ شَعري، واتّسختْ ملابسي، وأيقنْتُ أنّ النهايات تعرفُ موعدها فتأتي دون أنْ تستقدمَ أو تستأخر. كان وجه ذلك الصّبيّ من ذلك النّوع من النّهايات.

جاءني في الشّهر العاشر من سنتي الثّانية ولدٌ؛ ولد؟ صَبيّ لو رأيتُه في الشّارع لما أعرْتُه نظرةً ولو خاطِفة. فُتِحَ له الباب في الزّمهرير وأنا أتكوّر على نفسي، فنادَى بصوتٍ واثقٍ: «يا أحمدَ بن الحُسين». فنظرتُ من زاوية عيني اليُسرى ورأسي في صدري بينَ ذراعَيّ إلى صاحب الصّوت، فرأيتُ طفلاً في العاشرة، فقلتُ في نفسي: «أنتهى رِجالُهم حتّى يبعثوا إليّ صِبيانهم وسُفَهاءَهم ؟!».فأعرضتُ عن ذلك. ثُمّ إنّ الفتَى أعادَ النّداء: «يا أحمدَ بن الحُسين تَقَدّم إلَيّ». فأردتُ أنْ أشتُمَه فآثرتُ الصّمت، فلمّا لم أُجِبْه، عبرَ البوّابة ولم يمنعْه أحدٌ من الحرَس، فوقفَ فوق رأسي، وهتف: «أنتَ أحمدُ بن الحُسين». فلم أُجِبْ أوّل الأمر، فلمّا صَعّدَ النّظَرَ إليّ مرّة أخرى، أجبتُه بهزّةٍ من رأسي، فهتف: «أما والله إنّكَ لأحمق». فهزّتْني كلمتُه هذه هَزًّا ورَجّتْني رَجًّا، فمنْ يكونُ هذا الصّبيّ؟ وكيفَ يُخاطِبني بهذه الوقاحة؟ فهممتُ أنْ أقوم من تَكَوُّري فأصفعه، فلم أقوَ على ذلك، ثُمّ إنّه تابَعَ قوله: «تعرفُ كيفَ تخرجُ ولا تخرج؟». فرأيتُ في عبارته الأخيرة عدولاً عن الشّتيمة إلى المنطق، وكانَ منطقَ تحَدٍّ، فاعتدلتُ حينَها، ووجدُتني أمضي معه في الحِوار، فسألتُه: «وكيفَ يكونُ ذلك؟». «تكتبُ قصيدةً في الوالي». «أكتبُ قصيدةً فيه؟». «نعم». «ولكنْ... أنتَ هل تعرفني؟». «أعرفك.. بالطّبع أعرفُك... منْ لا يعرفُ أحمدَ بن الحُسين؟ مَنْ لا يعرفُ المتنبّي؟». ووقعتِ الكلمة الأخيرة من نفسي موقع الغرابة والعُجب، فسكتُّ برهةً سكوتَ إقرارٍ، ثُمّ سألتُه: «إذًا أكتبُ قصيدةً في الوالي؟». «نعم، هذا ما قلتُه». «ولكنّني

لا أعرفه؟». «وهل رأيتَ مادِحًا مَلِكًا يعرف، اكتبْ أيّها الأحمق ولا تسأل إنْ كنتَ تعرفُه أو لا». وهزّتْني الأحمق مرّة أخرى، وهممتُ أنْ أصفعَ هذا الصّبيّ المتعجرف أو أركله بقدمي، غيرَ أنّني شعرتُ أنّه يُمسِكُ في يديه بخيوطٍ من نورٍ وسطَ هذا الظّلام الماحق، فسألتُه: «وما أكتبُ فيه؟». «مثلما يكتبُ الشُّعراء الكذَبَة في الملوك الفَجَرة». فتبادر إلى ذهني أنّني أخاطبُ أبي أو جِنيًّا متخفّيًا في هيئة صبيٍّ بشريّ، غيرَ أنّني شعرتُ أنّ الحِوارَ يجري على ما أريدُ، فسألتُه أنْ يُتِمّ ما بدأه: «ولكنْ أيّ المعاني الّتي يُمكن أنْ تكون في والٍ لا أعرفه، هلاّ أخبرتني». «الولاةُ متشابِهون أيّها المتنبّي، فلو مدحتَ أحدهم، ثُمّ لم تُنشِدْها إيّاه ، فمات، فأتيتَ بقصيدتك إلى والٍ آخر فأنشدتَها إيّاه ما عرفَ أنّكَ تمدح والِيًا ميّتًا، وأنّ هذه القصيدة ليستْ له». فأقرَرْتُه، وسألتُه: «ومتى أكتبُها؟!». «الآن». «الآن؟!». «وكيفَ يُمكن أنْ نعرفَ عبقريّتكَ في الشّعر ما لم تقلْ على البديهة والارتجال؟!». «أهو تحَدٍّ؟!». «هو كذلك». وأشارَ إلى تلكَ الزاوية شبه الخالية، وأخرجَ من كُمّه قرطاسًا، وقلمًا، ودفَعَهما إليّ، وقال: «دونَكَ الزّاوية فإنّها لأهل القلوب». فنهضتُ لا أدري ما يعني، وانتحيتُ هناكَ كما قال لي، فلمّا مضى وقتٌ أقلّ من وقتِ صلاة العشاء فرضَها وسُنَنَها، دفعتُ إليه القرطاس، فأخذَه فأنشدَ بلسانٍ فصيح:

أَيــا خَــدَّدَ اللهُ وَردَ الخُــدودِ
وَقَــدَّ قُــدودَ الحِســانِ القُــدودِ

فَهُــنَّ أَسَــلنَ دَمًــا مُقلَتــي
وَعَذَّبــنَ قَلبــي بِطــولِ الصُدودِ

وَكَــم لِلهَوى مِــن فَتــىً مُدنَفٍ
وَكَــم لِلنَوى مِــن قَتيلٍ شَــهيدِ

فتوقّف عند هذه الأبيات، وتنهّدَ، وهتف: «صدقت». ثُمّ أكمل وهو يترنّم بِها يقرأ:

فَكانَـــت وَكُنّـــا فِــداءَ الأَمـــيرِ
وَلا زالَ مِـــن نِعمَـــةٍ في مَزيـــدِ
لَقَد حـــالَ بِالسَّـــيفِ دونَ الوَعيدِ
وَحالَـــت عَطايـــاهُ دونَ الوُعـــودِ
فَأَنجُـــمُ أَموالِـــهِ في النُحـــوسِ
وَأَنجُـــمُ سُـــؤّالِهِ في السُـــعودِ

فسألني: «فأينَ نجمُكَ منهما؟». فأجبْتُه: «في نحوسٍ» فردّ: «لو أحسنْتَ القول، لكان في سُعُود». فكأنّه شتمني، فبقيتُ صامِتًا فقفلَ ما كتبتُ وهو يُنشِد:

يُرَونَ مِـــنَ الذُعرِ صَـــوتَ الرِياحِ
صَهيـــلَ الجِيـــادِ وَخَفـــقَ البُنودِ
فَمَـــن كَالأَمـــيرِ اِبنِ بِنـــتِ الأَميـ
ـــرِ أَو مَـــن كَآبائِـــهِ وَالجُـــدودِ
سَـــعَوا لِلمَعـــالي وَهُـــم صِبيَـــةٌ
وَســـادوا وَجادوا وَهُـــم في المُهودِ

وهتف: «قفلةٌ جيّدة، غيرَ أنه غلبَ عليكَ التّغزُّل على الرّجاء، وإنَّ الملوكَ ليُعجِبهم رجاءُ شعرائِهم، واستِفالُهم عندَ أقدامهم وإنْ كانوا يعلمون أنّهم كاذِبون». «أفجِئتَ أيّها الصّبيّ لتحقرني؟ ثُمّ ما أنتَ وما

علمكَ بالشّعر حتّى تكونَ حَكَمًا عليه؟!». «ما يَهُمُّكَ من شأني أنّني أحفظُ لكَ كلّ ما تناقلَتْه الألسن، ولو شِئتَ لاستظهرتُه لكَ السّاعة؟». «ففيمَ تحفظُه؟». «لأنّني أراكَ غدًا». «ماذا تعني؟». «أراكَ وقد رَكِبْتَ الملوكَ كلّهم، إنّ هذا الشّعر على أوّليّته فيه نَفَسُ المُلُوكَ الحقيقيّين، إنني أراكَ أكثرَ ما ترى نفسَكَ.كيفَ بِكَ وقد تطاوَل مجدُكَ حتّى وقفَ الأنام تحتَ أخمصيك؟ هل أنتَ بشريّ؟ كلا». فسكتَ وهَوَّمَ ينظر في البعيد واضِعًا أصابِعه الرّقيقة تحتَ ذقنه المرداء، فسألتُه أنا بدوري: «وهل أنتَ بشريّ؟». «بالطّبع، ألا تراني؟!». ثُمّ هَزّ رأسَه، ونظَر في المساجين من حولي، وسأل وهو يبتسم: «هل تُعجِبُكَ الإقامةُ بينهم؟».«تُعجبني؟ أنتَ ترى أنهم مجانين؟». «وهل الشّعراء إلاّ مجانين؟! كلاكما به مَسٌّ من الجنون أيّها المتنبّي، غيرَ أنّ الذّي مَسّكَ وطافَ بِكَ غير الّذي مسَّهم وطافَ بهم، هذا جنون من جِهة العقل، وهذا جنون من جهة الرّأي». فسألتُه مُناكِفًا: «فمن أيّ جهةٍ جاءني؟!». «من الجهتَين يا صديقي». ثُمّ إنّه غلبَتْ عليّ الدّهشةُ في أمر هذا الصّبيّ، فلمّا رأى ذلك في وجهي، هتف: «اصبرْ كما صَبرَ أولو العَزْمِ من الرُّسُل ولا تحزنْ عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِمّا يمكرون، فإنَّ يعقوبَ صبر أربعينَ سنةً حتّى رأى مَن ابيضّتْ عيناه من الحُزنِ له». ولَمْ أدرِ ما أقولُ له بعدُ، ورأيتُه يلفّ القرطاس، ويأخذهُ في كُمّه ويمضي نحو الباب، فسألتُه: «القصيدة؟». فتوقّف، وأدار جذعه نحوي: «ما شأنُها؟!». «أريدُ أنْ أبعثَها إلى الوالي». «أنا أبعثُها له». «أنتَ؟!». «نعم، أنا، ما الغريب في ذلك؟». «أنتَ مَنْ تكون؟». «أنا ابنُه».

(٩)

لن يخرجَ هذا الزّنديقُ من السّجن وأنا حَيّ!

غابَ الصّبيّ الغريب مدّة طويلةً لم أسمعْ منه فيها شيئًا. ومرّ شهرٌ واثنان على ذلك اللّقاء ولم يعدْ إلى الوقوف بباب القبو الّذي أقبع فيه ليُنادي بصوتِه الرّفيع: «يا أحمد بن الحُسين». لعنةُ الله على الخيَال الّذي جاءَ به؛ بقيتُ طَوال ثلاثة أشهر أصحو في الفجر، أنتظر انفِتاح الباب لجفنة الطّعام لعلّه يكون معهم، أو لعلّه يأتي في أيّ وقتٍ فيقول لي ماذا حدثَ معه ومع أبيه بعدَ ذلك اللّقاء. ومضى الحال على انقطِاع الرّجاء، وانبتات الأمل، حتّى خُيِّلَ إليَّ أنّه ما كانَ صبيّ، ولا قصيدة، ولا استِعطاف، ولا أيّ من ذلك، وأنّ كلّ هذه خيالاتٌ اخترعها عقلي المريض، وبصقتُ على الحَظّ وعلى الدُّنيا وعلى النّاس، وعُدتُ للتّكوّر على نفسي.

وفي ليلةٍ من تلك اللّيالي الّتي راحَ فيها الشّتاء يُلملمُ أعراءَه، ويسحبُ أكفانَه البارِدة، رأيتُه على الباب، غيرَ أنّ الوقتَ لم يكنْ وقتَ الجفنة، ولا وقتَ مساء الزّيارات، كان هو، لا يُمكن أنْ أخطِئه، له ذات الهيئة، ذات العينَين الودودتَين، ذات الوجه الطُفوليّ النّحيل، وذات الذّقن المَرْداء المُستدِقّة، غيرَ أنّه لمْ يُنادِ عليّ هذه المرّة: «يا أحمد ابن الحسين». بل ظلّ واقِفًا صامِتًا، وانتظرتُ أنْ يتقدّم خُطوة أو يقول

كلمة، غيرَ أنّه لم يفعلْ شيئًا منهما، ودَقَّقْتُ النّظر فيه لأُبعِدَ وساوسي، وأنفي توهّماتي، فوجدتُه هو هو، وحرّكتُ رأسي لعلّه يراني، لكنْ لم تَصدرْ عنه أيّة ردّة فِعل، ثُمّ إنّني حَرّكْتُ يدَيّ مثلَ شراعَي سفينة مُهاجرة، فبقي على جُموده كأنّه صخرةٌ قارّة، وخُيِّل لي لحظَتها أنّني أَرى ما لا أَرى، فنفضتُ رأسي في محاولةٍ لإسقاطِ هذه الصّورة المُتخيَّلةِ أمامي، ولكنّها لم تسقط، وبقي الصّبيّ مكانه، ثُمّ إنّه أعيتْني الحِيَلُ في أنْ أنفيَ وجوده أو أنْ أشُكّ فيه، فقلتُ: لم يبقَ أمامي إلاّ أنّ أتقدّم فأحضنُه فأتأكّد حينَ تلتفّ عليه ذراعاي أنّه كائنٌ متحيِّزٌ في المكان، فإذا لم أفعلْ ذلك، فلأصفعْه على وجهه الأمرد وأنتظر صرخته الّتي تُعلِنُ وجودَه، ثُمّ آخُذَ بيدِه إلى زاويتي اللّعينة فنجلسُ، فنتحدّث في ما كان من أمر القصيدة، ورَدّ أبيه الوالي عليها. وهذا ما كان.

قمتُ أجرُّ رِجلَيّ أمشي نحوه ببطء شديد، ولشدّة وهني تراخَتْ قدَماي، فرحتُ أمشي كالأَفْكَل، وتقوّس ظهري حتّى ظَنّ من رآني في تلك اللّحظة أنّني أمشي إلى القبر، وتحاملتُ على ضعفي حتّى صرتُ على بُعدِ خُطوتَين منه، وأرسلتُ نظرةً فاحِصةً إليه، فرأيتُه هو، هو الّذي أعرفه، فهمستُ في نفسي: «فلماذا يقفُ أبله كالصّنم؟». ثُمّ ضيّقْتُ عيْنَيّ مُحِدًّا النّظر في وجهه وأنا أُقلِّصُ المسافةَ بيني وبينه خُطوةً أخرى، فتأكّدْتُ أنّه الّذي زارني في ذلك الزّمهرير، وبَثّ فِيّ ذلك الأمل الدّافِئ، حينئذٍ لم يبقَ لي غيرَ أنْ أحضنُه وأبكي على كتفَيه من مرارات السّنين وبالفعل فتحتُ ذراعَيّ مع الخطوة الأخيرة، ولففتُهما عليه لأحضنه، فلمْ أحضنْ غيرَ الفراغ، ثُمّ لففتُ الذّراعَين أكثر على ذلك الفراغ الحزين فحضنتُ نفسي، ثُمّ مالَ جذعي ناحية اليمين فسقطتُ على

الأرض كومةً من عِظام، وسُمِعَ لصوتِ عِظامي قرقعة، وتراجعتُ إلى الوراء وأنا ما زلتُ في سقوطي، فزحفتُ على باطنِ ذراعَيّ مُعتِمدًا على ما تبقّى من قُوّة في ساقَيّ، وانسحبتُ يائِسًا مذبوحًا، وأنا أهذي بكلماتٍ لا أدري ما أقول فيها، غيرَ أنّها كانتْ تقطُر دمًا.

فلمّا أتممتُ الرّجوع إلى زاويتي البئيسة سمعتُه يتحدّث، نعم سمعتُ صوته؟ هل كان ذلك حقيقيًّا؟ وَهمٌ ما أسمع؛ كيفَ يكونُ حقيقيًّا ولا وجودَ جثمانيَّ له؟! أيكونُ الصّوت ولا يكونُ الجسد؟ لكنّني أُقسِمُ أنّني سمعتُ صوتَه الّذي سمعتُه حينَ جاءَني أوّل مرّة، غيرَ أنّني لم أُصدِّقْ أنّ شبحًا يُمكن أنْ يتحدّث، فنفضتُ رأسي، ولعنتُ حَظّي، ودفنتُ رأسي بين ذراعَيّ، وراحَ جسدي يرتعش... في غمرة هذا الارتِعاش، سمعتُه مرّة أخرى... يا الله... ياربّ هذه الكائنات الغريبة... يا خالِق الأشباحِ ويا مُوجِدَ العَدَم... ويا مُنطِقَ الصّخر... ويا مُبرِئَ العِلَل... إنّه صوتُه، صوتُه لا يُمكنُ أنْ أُخطِئه... ثُمّ ها هو يتحدّث من جديد: «لم تُعجِبْه قصيدتُك». فسحبتُ ما في القبو من هواءٍ وتجرّأتُ لأقول بعدَ أنْ بلعتُ رِيقي: «ماذا؟». «قصيدتُكَ الأولى الّتي كتبْتَها له لم تُعجِبْه». «أيُّ جزءٍ لم يُعجِبْه فيها؟!». «البيت الّذي تقولُ فيه:

فَمَــن كَالأَمــيرِ ابنِ بِنــتِ الأَميـ

ــرِ أَو مَــنْ كَآبائِــهِ وَالجُــدودِ

«وما الّذي لم يُعجِبْه فيه»؟!. «أنّه يصلُح لكلّ أمير». «ولكنّكَ قلتَ لي: قُلْ فيه أيّ شيءٍ حتّى ولو لم تعرفْه، فكلّ المدح في الأمراء

والملوك يصلُحُ لهم جميعًا، وهو في أعلاهم وأدناهم سواء». «صحيح، ولكنّ بيتَكَ هذا بارِدٌ لا عاطِفَة فيه». «فكيفَ تكون العاطِفةُ الحارّة؟». «لقد قُلْتُ لكَ، ولكنّك عنيدٌ تركبُ رأسَك ولا ترى غير ما ترى». «ذَكّرْني فقد نسيت». «لم تنسَ ولكنّكَ لا تريدُ أنْ تقولُ إنَكَ أخطأت». «فقل أنت». «كانَ عليكَ أنْ تضعَ قلبَكَ في القصيدة، ليشعر الوالي بهذه العاطِفة فيعفوَ عنك، ثُمّ إنّ أبي غريبٌ عن هذه الدّيار جاءَ من بلاد التُّرك إلى بلادِ العَرَبِ فحَكَمها، فَانْقُرْ على وَترِ الغربة تُمِلْ إليكَ قلبَه». فهتفتُ وصوتي يختنق بوجعي: «فهمتُ يا سيّدي». فتابع: «ولقد فقدَ أُمّه الّتي هي جَدّتي في وقتٍ أشدّ ما يكونُ حاجةً إليها، فاذْكُرِ الأمّ، فما ذُكِرتِ الأمّ أمام الرّجال إلاّ رَقَّتْ لذِكرها قلوبُهم ولو كانتْ أقسى من الصخور الرّاسية». فهتفتُ بصوتٍ مجروح: «صدقتَ يا سيّدي». «ثُمّ إنّ مَنْ يُذنِبْ يعتذر، ولا يكابِرُ ويُماحِك، فاتركْ كبرياءَك حتّى تخرجَ من هذا السّجن واعترفْ له بذنبك». فقلت: «أفعلُ». «ثُمّ إنّه لا أحدَ يخلو من العيوب، فدَعِ الكمال لله، وأقرّ بعيوبِك، فإنّ الإقرار أمام السّادة يُشعِرهم بسُلطتهم، وبقدرتهم على العفو والزّيادة فيه». فصحتُ: «أفعلُ.. أفعلُ يا سيّدي». «والآن؟». «والآن ماذا؟!». «اكتبْ أبياتًا أخرى فيها ما قلتُه لك». «الآن؟». «نَعم الآن، لقد أعطيتُكَ أربعَ أفكارٍ فضَمِّنْها في أربعةِ أبياتٍ تسلَمْ، أربعةُ أبياتٍ فحسبُ ستُزحزحُ صخرة مشاعره قليلاً». «ولكنّ الشِّعر لا يُواتيني الآن». «المُتنبّي لو أرادَ لواتَاه الشّعرُ وهو في جهنّم». فهالتْني الكلمة الأخيرة، فأردف: «أنا أكتبُها عنك». «وأنتَ تقول الشّعر؟». «هاتِ القرطاسَ والقلَمَ واكتبْ». فرحتُ أبحثُ عمّا تبقّى لديّ من القراطيس والأقلام كالمجنون، فلمّا عثرتُ على شيءٍ من ذلك صالحٍ لأربعةِ أبيات، هتفتُ: «أنا أُصغي يا

سيّدي». فهتف: «اكتبْ

بِيَـــدِي أيُّهـــا الأمِـــيْرُ الأَرِيْـــبُ
لا لِـــشَيْءٍ إلّا لأنِّي غَرِيْـــبُ
أَوْ لأُمٍّ لَهَـــا إِذَا ذَكَرَتْنِـــي
دَمُ قَلْـــبٍ بِدَمْـــعِ عَيْنٍ سَـــكُوبُ
إِنْ أكُـــنْ قَبْـــلَ أَنْ رَأَيْتُـــكَ أَخْطَأْ
تُ فَـــإِنِّي عَـــلَى يَدَيْـــكَ أَتُـــوبُ
عَائِـــبٌ عَابَنِـــي لَدَيْـــكَ وَمِنْـــهُ
خُلِقَتْ فِي ذَوِي العُيُـــوبِ العُيُوبُ

فما أنهيتُ البيت الرّابع حتّى تملّكني العَجَب، فدفعتُها إليه بعدَ ذلك، فسقطتْ في يده، ثُمّ سَقطَ هو في العتمة، كأنّه ذابَ في الأرض.

ثُمّ إنّ الأيّام نهشَتْني حتّى رأيتُ الموتَ على الحقيقة، ولم أرَ الموتَ قريبًا منّي إلى هذا الحَدّ، وتمنّيتُ لو أنّ السّيّافَ يومَ الحُكْمِ قد هوى بسيفه على رقبتي فأطارها وأراحني مِمّا أنا فيه، فإنّ الموتَ في ذلك اليوم كان سيزورني مرّة واحدةً، ولكنّه اليوم يزورني في كلّ لحظة، إنّه موتٌ يُذيب النّفس، ويرحل كلّ يوم بجزءٍ منها معه. وفي لحظات الاستِسلام الّتي يبدو الهربُ منها مُستحِيلاً ظهرَ الصّبيّ مرّة أخرى، كان ذلك في أحد أيّام الصّيف، وقد تَمّ لي سنتان في هذا السّجن البغيض، رأيتُه في ذلك الصّباح الّذي يفتحُ في الحُرّاس الباب لجفنةِ الطّعام، فإنّهم بعدَ أنْ وضعوا الجفنة في مكانها وتهارشَ عليها المساجين تهارُشَ الكِلاب، ظَهَر هو في مدى الرُّؤية أمام الباب كما ظَهَر أوّل مرّة، ونادى بصوتِه

الواثق: «يا أحمد بن الحُسين». فقُمتُ أسعى إليه سعيًا هذه المرّة، فلمّا رآني مُقبِلاً نحوه نحو أقبلَ نحوي، فعانَقَني وقَبّلني، وشعرتُ بطراوة لحمه، وبنعومة الجُبّة الحريريّة الّتي يلبسُها، فمضيْنا إلى تلك الزّاوية، فجلسنا، فسألتُه: «ما خبرُ الأبيات وأبيك؟». فردّ مُستمهِلاً: «لقد مزّق أبي قصيدتَكَ الأولى ورماها في وجهي، وقال لي: لن يخرجَ هذا الزّنديقُ من السّجن وأنا حَيّ، لقد كان مَنْ قبلي حَكَم عليه بالموت، وإنّه لأحرى به من الحياة». فما زلتُ بأبي أستعطفه في أمرك، وأقول له: «إنّه شاعرٌ عظيمٌ، وإنّكَ لن تجلبَ منفعةً بقتله ولا تدفعَ مضرّة، ولكنّكَ ستخسرُ صوتًا يملأ الدُّنيا إذا حَيَّنْتَه». ثُمّ إنّه لم يُجبْني إلى ما قلتُ، حتّى بعثْتَ إليّ بالقصيدة الثّانية ذات الأبيات الأربعة.. فقاطعتُه قائلاً بعَجَب: «بعثتُ بها إليك؟». فسكتَ من اندفاعِه في الكلام واستِرسالِه، ونظرَ إليّ مُستغرِبًا ومُقِرًّا: «نعم الأبيات الّتي تبدأ فيها قولكَ: بيدي أيّها الأمير الأريبُ، والّتي تذكر فيها الغربة والأمّ وتعتذر وتعلنُ التّوبة وتُقِرّ بما فيكَ من العيوب». فأرسلتُ نظرةً مُتشكِّكَةً إليه، وسألتُه: «ألمْ تأخذْها أنتَ، وأنتَ الّذي قُلتَها وأمليْتَها عَلَيّ؟!». فضَحِكَ حتّى كاد يقعُ على ظهره من الضَّحِك، وقال: «أنا أُملِيها عليك؟! أنا لا أقول الشّعر أبدًا، ثُمّ إنّني لم آتِكَ إلا مرّة واحدة يتيمة، هي المرّة الأولى». وصمتَ قليلاً وهو ينظر في عينَيّ، وهتف وآثار ضحكته الطّويلة تسحبُ ذيولها على كلماته: «لا بُدّ أنّ طول المُقامِ في هذا السِّجن قد أتلفَ عقلَك، وهَيّأ لك الأوهام». فهززتُ رأسي دون أنْ أقول شيئًا، ثُمّ تابعَ حديثَه، فقال: «وما زلتُ أتشفّع لك عندَ أبي في القصيدة الثّانية، وأذكر له ذكرياته الّتي حكاها لنا مع جدّتي، وأُشوّقه وأرقّق قلبه بأبياتك حتّى حَنّ، فلمّا رأيتُ ذلك فيه، هتفتُ هذه المرّة وأنا واثقٌ من أنّ أبي سيستجيبُ لي:«إذا كتبَ لكَ قصيدةً يتبرأ فيها مِمّا فعلَ أو نُسِبَ إليه، فهل تعفو عنه؟». فزَمّ شفتَيه، وتردّدَ في

القول، ثُمّ هتف: «سأعفو عنه من أجلِكَ بشرطٍ واحدٍ، أنْ يمثلَ أمام قاضِي القُضاة فيقرّ بفعلته الشّنيعة، ويُستَتاب، ويكتبُ توبته ورجوعه عن خزعبلاته بيده، ويشهدُ على توبته أربعةُ شهودٍ عُدول... فحينئذٍ سأعفو عنه إكرامًا لك». وها أنا أيّها المتنبّي الّذي سيملأ صوتُه الدُّنيا، جِئتُكَ بهذا الطّلب، فلا تَرُدَّني كما رَدّني أبي أوّل مرّة، وإنّني لأعرفُ ما يحيكُ في صدرك، إنّكَ تقول: لماذا أُقِرّ بشيءٍ لم أفعله؟! ولماذا أذِلُّ لسلطانٍ مهما علتْ مكانتُه، وأنا العزيزُ الكريم؟! أَفهمُ كلّ ذلك منك، ولكنّني أريدُكَ أنْ تخرجَ من هذا السّجن بالفِعل، وألاّ يخسركَ العربُ والعَجَم، فإنّكَ إنْ بقيتَ هنا كنتَ دُرّةً في رَذْل التّراب، وجوهرةً في قذر المكان، وأحرى بالجواهر والدّرر حتّى وإنْ لم تُؤثّر فيها الدِّمَن أنْ تكون في شرف المكانة الّتي تليقُ بها. اقبلْ يا صديقي ليسَ من أجلي أو أجل أبي، أو حتّى أجلِك، بل من أجلِ ما ينتظر البشرَ من سِحرك الّذي ليس كمثله شيءٍ». ثُمّ تنهّد وسكتَ، ونظرَ في عينَيّ، فلم أجدْ حرفًا يُسعفني في الرّدّ عليه، فاكتفيتُ بالصّمتِ وهَزّةٍ في الرأس، فعرفَ أنّها إشارةُ الرِّضا، فهتف: «والآن اكتب القصيدة الأخيرة في هذا المكان، اكتب القصيدة الّتي تخرجكَ من هذا القبو، فلقد أشفيتَ على الموتِ حَقًّا، فاتّخذْ من كلماتِكَ معراجًا لنجاتِك». فسألتُه: «الآن؟!». «هل لديكَ قراطيس ودُويّ وأقلام؟». «كلاّ». «إذًا آتيكَ بها، وحَبِّرْها كما تشتهي، وغدًا أزوركَ في مثل هذا الصّباح مع أولئكَ الحُرّاس، وأمضي بها وبِكَ إلى الوالي». ثُمّ إنّه أشارَ بيده إلى حارسٍ على الباب، فجاءَه بالقراطيس والأقلام، فألقاها بينَ يدَيّ، ثُمّ نَظَر إليّ نظرةَ وداعٍ، ثُمّ ابتسم، وخرج.

(١٠)

أمامكَ سَفرٌ طويلٌ!

قضيتُ النّهار واللّيل كلّه وأنا أُحبِّر القصيدة. الملوك؟ أشقى النّاس. يشعرون أنّ مُلكَهم مشدودٌ إلى شعرةٍ يتربَّصُ بها سَيّاف، في أيّة لحظةٍ بنقرةٍ من إصبعٍ تنقطعُ تلك الشّعرة، فكيفَ والسّيفُ في يدٍ كلّ متربّصٍ ومُتحَيِّن. ثُمّ ستقولون: إنّني طلبْتُ الملك؟ وماذا في ذلك؟ شتّان بين مُلكٍ بُنِيَ على عدلٍ وآخَر على ظُلم، إنّ الأوّل ليقوم على طود، وإنّ الثّاني ليقومُ على ماء!

ثُمّ ماذا سأكتُبُ لأبيكَ أيّها الصّبي؟ ماذا سأكتبُ؟ أستطيعُ أنْ أكتبَ ما لا يقدر على كتابه إنسيٌّ أو جِنّي! أنا رَبُّ القوافي. غيرَ أنّ المعنى الّذي يمزجُ بين الاستِعطاف والاستِعلاء الّذي عَلَيّ أنْ أصوغَه لَهُو معنًى دقيقٌ يحتاجُ إلى يد صَناعٍ ماهرة!

أبدأ بالغزَل، أُميلَ إليه قلبَه، كلا، ابنُه قال: أبي لا يحتفي بذِكر النّساء. هذا ما يُعجبني فيه، إنّ عنقي بين يَدَيه، ستكون هذه البِداية:

أَمالِـــكَ رِقّـــي وَمَـــن شَـــأنُهُ

هِبـــاتُ اللُجَـــينِ وَعِتـــقُ العَبيدِ

أُفٍّ لِما أقول، جعلتُ نفسي عبدًا، إنّها الضّرورة، إذا نجوتُ من القتل بكلمة الله، فسأنجو من السّجن بكلمتي، سأقول له هذه المرّة ما يُريد، وحينَ أخرجُ من هُنا لن يكونَ على كلمتي سيادةٌ ولا رَقابةٌ إلاّ لي. هل أبدأ بالرّجاء، والاستِعطاف، بعدَ هذا البيت من فوري؟ هذا ما يجب، خذ ما قالَه ذلك الصّبي، ولْيكن:

دَعَوتُــــكَ عِنــــدَ اِنقِطـــاعِ الرَجا
ءِ وَالمَــــوتُ مِنّـــي كَحَبـــلِ الوَريدِ
دَعَوتُــــكَ لَمّـــا بَـــراني البَـــلاءُ
وَأَوهَـــنَ رِجــلَيَّ ثِقـــلُ الحَديـــدِ
وَقَـــد كانَ مَشـــيُهُما في النِعـــالِ
فَقَـــد صـــارَ مَشـــيُهُما في القُيودِ

وأعجبني هذا الإيقاع، ومَوْسَقْتُ الكلمات، فسمعها المجانين الّذين حولي، وراحُوا يهُزّون على نَغَماتِها رُؤوسهم كالقُرود، فكتبتُ بيتًا من وحيِ ما أرى:

وَكُنـــتُ مِـــنَ النـــاسِ في مَحفِـــلٍ
فَهــا أَنــا في مَحفِــلٍ مِــن قُرودِ

ثُمّ نظرتُ إليَّ وفِيّ، وأنا في السّابعة عسرة من عمري، فقلتُ إنّه عُمْرٌ يُمكن أنْ تنفذ من خِلاله لتُرَقِّق قلبَ هذا الملك، فإنّ القَلَمَ رُفِعَ عمّنْ لم يبلغُ الحُلم، غيرَ أنّه ارتسمتْ على شَفَتَيّ ابتِسامةُ هُزءٍ؛ كيفَ لا يجب الحَدّ عَلَيّ، وأنا قُدتُ الجيوش، وسَيّرتُ السّرايا، وعقدتُ

الرّايات... ثُمّ هاهي ابتسامةُ هُزءٍ أخرى تلوحُ على تلك الشّفاه، فأهتف: «إنّما هو كلام، يُوجِبه مقام الرّجاء، وليكنْ». فكتبت:

تُعَجِّـلُ فِيَّ وُجـوبَ الحُـدودِ
وَحَـدّي قُبَيـلَ وُجـوبِ السُـجودِ

ومضتِ القصيدة على ذلك، أنظرُ حولي، وأتأمّل حالي، وأقفُ على الرّجاء، وأقول، حتّى أتيتُ على آخر بيتٍ:

وَفي جـودِ كَفَّيـكَ مـا جُـدتَ لي
بِنَفـسي وَلَـو كُنـتُ أَشـقى ثَمـودِ

فلم يكنْ في سِواه من الرّجاء والتّوسّل ما فيه. ونَحَّيْتُ القرطاس والقلم والدّواة، ونمتُ من لحظتي تلك مرتاحًا آمِلاً.

فلـمّا مَـزّق الفجـر أردية اللّيـل، وضَوّأ عتمتـه، ورَحّـب بالنّور، جـاءَ الحـرسُ ومعهـم الجِفـان، فوضعوهـا في مكانهـا، وتهارَشَـتِ الـكلابُ كالعـادة، ثُـمّ انجلَى الحـرسُ عنـه، فـإذا هـو المُنتظَـر، فتقدَّم إليّ، وطلـبَ من الحُـرّاس أنْ يفُكُّـوا قُيودي، وسرتْ موجـةٌ غامرةٌ من الفرح في ضلوعي، وانتعشـتْ كأنّ سـنتَين من الـذّلّ والوَهن والقلق لم تُؤثّـرا فيهـا، وقـال لي الصّبيّ وهم يحلّـون تلك السّلاسـل: «هل كتبْتَ القصيـدة؟». فهتفـتُ مـن الفـرح: «نعم». «فأيـنَ هي؟». فـأشرتُ إلى الزّاويـة، فمـضى إلى هنـاك، وتناولَها ودَسّـها في جيبِ جُبّتـه، وانطلقْنا، كانـتْ هـذه المـرّة الأولى الّتـي أجلـسُ فيهـا حُـرًّا في العربـة، في هـذه العربـة المُقصّبـة المُذهّبـة، وظننـتُ أنّنا سـنمضي إلى دار القضـاء، وتبيّن أنّ السّـائس قـد سـاقَ العربـة إلى قـصر الوالي.

ودخلْنا أنا والصّبيّ الرّياض الغَنّاء، وطلبَ منّي أنْ ننتظر في دار الضّيافة ريثما يجتمع أهل الرّأي، فما زالَ الصّباحُ في أوّله، وجَلَسَ إليَّ يُسامرني، ثُمّ دَعا لي بثيابٍ نظيفةٍ فلبستُها فكأنّني حُلْتُ خلقًا آخر، ثُمّ جاءَ إليّ بالشّراب وببعض الطّعام، فنهستُ نهسَات، ولم آكُل كثيرًا لشدّة فرحي وقلقي معًا. ثُمّ لّما مضى على ذلك زمنٌ، جاءَ أحدُ الخدَمَ فقادني في أبهاءَ طويلة، نمرّ فيها على رياضٍ خميلة، حتّى دخلْنا القصر، فإذا الوالي على كرسيّه، وإذا حولَه عددٌ من الوزراء والقُضاة وأهل الرّأي، فلمّا صِرْتُ بين أيديهم، تهيّأتُ أنْ أقول القصيدة، فرفعَ الوالي يده، فأوقفني، ثُمّ تقدّم إليّ قاضٍ عرفتُه من لِباسِه، فأخذَ القصيدة، ودَفَعَ بها إلى الوالي، ففتَحها، وبدأ يقرأ فيها، وأساريره تنفرجُ شيئًا فشيئًا، حتّى إذا أتمّها، قال شفعَ لكَ بيتٌ واحدٌ في هذه القصيدة، البيت الّذي تقول فيه:

وَكُــــن فارِقًـــا بَينَ دَعــــوى أَرَدتُ
وَدَعــــوى فَعَلـــتُ بِشَـــأوٍ بَعيـــدِ

ثُمّ أَذِنَ للقاضي، فسألني القاضي: «أمُسلِمُ أنت؟». فأجبتُ: «نعم». فردّ «قد كنت، وإنّ ما قلتَه أخرجَكَ من الإسلام، وإنّنا في هذا المجلسِ سنُعيدُكَ إليه». وهمستُ في نفسي: «ما على الإسلام مثلي يا قُضاة السّلاطين، ولكنّه المال». ثُمّ أكمل: «فردّدْ ورائي الشّهادتَين». فردّدْتُهما كما طلب. ثُمّ قال: «عليكَ أنْ تغتسل». فأردتُ أنْ أقول: «إنّني صلّيتُ الفجر اليوم، ففيم الاغتسال، ونطقتُ بالشّهادَتين في الصّلاة ففيمَ أردّدهما وراءك». غيرَ أنّ المُضطرّ يركب العَقَبة، فأخذني الصّبيّ فدلّني على الحمّامات، فاستحممتُ وأنا أغنّي ببعض الأبيات

الّتي أُهيِّئها شكرًا للوالي، فلمّا قضيتُ من الحَمّام والصّابون والمناشف والصندل ولبستُ الثّياب المُعطّرة دخلتُ إليهم، فعُقِدَ لي المجلسُ من جديد، فهتفَ القاضي الّذي اتّخذ موقعه مُجدّدًا: «فتتبرّأ من دعوى النُّبّوّة؟». «أتبرّأ منها». «فتقرّ بخروجكَ على الحاكم؟». «أُقِرّ». «فتتوبَ عن ذلك». «أفعل». «وتعود إلى الإسلام؟». «لم أخرجْ منه حتّى أعودَ إليه». فصمتَ القاضي ونظَرَ في عينَيّ قلقًا. فلكزني الصّبيّ الّذي كان يقفُ إلى جِواري، فتراجعتُ وهتفتُ: «أعودُ إليه».

ثُمّ إنّ القاضي طلبَ من الكاتب، أنْ يكتبَ ما دار، وأنْ أخطّ في نهاية ذلك بيدي: «سعمتهُ وأجبتُ عنه وجاهًا، وبه أُقِرّ»، ففعلتُ، ووقّعتُ في ذيل الكتاب: «والله على ما أقولُ شهيد». ثُمّ حضنني الصّبيّ، وأمرَ الوالي بإطلاقِ سراحي، على أنْ أخرجَ من هذه الدّيار ولا أعودَ إليها، ولا أُساكِنَ فيها أحدًا. فوقفتُ أهُزّ رأسي، ثُمّ قلتُ: «ليأذنَ لي الأمير بكلمة». فأشارَ بيده، فبدأتُ أُنشِد:

حاشى الرَقيبَ فَخانَتْهُ ضَمائِرُهُ
وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانْهَلَّتْ بَوادِرُهُ
وَكاتِمُ الحُبِّ يَومَ البَيْنِ مُنهَتِكٌ
وَصاحِبُ الدَّمْعِ لا تَخْفَى سَرائِرُهُ

ونزلتْ دمعتان على خَدّيّ وتهدّجَ صوتي، فأوقفني الأمير قائِلاً: «لا أريدُ أنْ أرى الدّموع، ولا أنْ أسمعَ مدحًا فِيّ، ألم تحصل على العفو، فماذا تريدُ؟ اغربْ عن وجهي السّاعة».

وخرجتُ، فتبعني الصّبيّ، ومشى معي الرّدهات المتبقّيات في القصر، وهو يقول: «لا تتأثّر بما قاله أبي في قصيدتك، إنّه يفرّ أنْ يرى وجه مَنْ نقلوا إليه أنّه كافرٌ وزنديق، لا عليكَ يا أبا...» وتوقّف فنظر إليّ وهتف: «أما كَنّيْتَ نفسَك». فقلتُ من فوري: «الطّيّب، أبو الطّيّب». فأكمل: «لا عليكَ يا أبا الطّيّب، إنّ مطلعكَ هذا سِحر، وإنّني وددتُ لو أنّ أبي سمَحَ لك بإتمامها، ولكنْ لم يفتْ كلّ شيءٍ، فهلاّ جلسْنا معًا في دار الضّيافة، فقرأتَها عليّ». فقلتُ: «إنّما هو مطلع فحسب، ولم أكنْ لأتمّه، وإنّهما خَطَرا لي وأنا في الحَمّام، وأنتَ تعلمُ أنّني قضيتُ ليلتي أمسِ أنظمُ القصيدة الّتي لم يدعُني أبوكَ لقولِها اليوم». وهتف الصّبيّ كمن يعتذر: «لا عليكَ يا أبا الطّيّب، إنّ أبي رقيقُ القلب على غِلظةَ ما بدا منه اليوم، وقد صَرفَكَ بأسرع ما يكون حتّى لا يقع في سِحرك... أنتَ الشّاعر الّذي ستطوفُ قوافيه البُلدان كُلّها، لا تختصّ دارًا دون دار، ولا بحرًا عن بحر». ثُمّ ظلّ يمشي معي حتّى عبرْنا ما تبقّى من الرّدهات والسّرادقات، ونحنُ نعبر الشّا إلى الشذا، والخُزامى إلى العنبر، والورد إلى الصّندل، فلمّا صِرْنا على بوّابة القصر، احتضنني، وسمعتُ صوتًا له فيه أنّة، فخُيِّلَ إليّ أنّه يبكي، فربّتُّ على كتفِه شاكرًا وممتنًّا ومُطيّبًا له، ثُمّ نظرتُ في عينَيه فإذا هما تهمِلان حَقّا، ولم أشأ أنْ أسأله، ولا أنْ أستخبره، فمضيتُ، فلمّا صارتْ لي خطوةٌ أو اثنتان، هتف بي: «يا أبا الطّيّب؟». فانتبهتُ إليه، فمَدّ إليّ صُرّة من المال، وقال: «استعنْ بِها على حوائِجك. أمامكَ سَفرٌ طويل». ثُمّ نادَى الحُوذيّ فأمره أنْ يوصلني إلى السّوق حتّى أتدبّر أمري.

فلمّا طارت الخيل، وصارتِ العَجَلات تنهبُ الأرضَ من تحتِ قدَمّي، بكيتُ بحرقة كما لم أبكِ من قبلُ!

المرحلة الرّابعة

٣٢٣ - ٣٣٦ هـ

الخُروج إلى العالَم
العَودةُ إِلى الأُمّ

لَــــوْ كَانَ عِلْمُــــكَ بِالإِلَهِ مُقَسَّـــمًا
في النَّاسِ مَـــا بَعَثَ الإِلَهُ رَسُـــولا
لَــــوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيْهِمِ مَـــا أَنْزَلَ الـ
ـــــــقُرْآنَ وَالتَّـــوْرَاةَ وَالإِنْجِيـــلا
فَلَقَـــدْ عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْـــتَ حَقِيْقَةً
وَلَقَـــدْ جُهِلْتَ وَمَـــا جُهِلْتَ خُمُولا

(١)

فلا مَجْدَ في الدُّنْيا لمنْ قَلَّ مالُهُ

مضيتُ أجرُّ أحزان الدُّهور، وأحملُ أثقال الهُموم، وما أدري ما يُفعَل بي، وحيدًا طريدًا، غريبًا في دِيارٍ تنكَّر له فيها كلّ أحدٍ، ورماه بالكُفر كلّ ذي لِسان. ولم أجدْ على الضّرّاءِ عونًا، والتفتّ عن يميني فرأيتُ الفراغ، وعن يساري فوجدتُ السّراب، وأمامي فوجدتُ البحر، وورائي فوجدتُ اللّيل، لا صديق، ولا خليل، ولا أنيسَ، ولا رفيق، ولا معين... وحدي كما جِئت، وهو ما سأموتُ عليه.

وتذكّرتُ أيّامَ (سَلَمْية)، وغصّ حلقي بذكر الغادرين، وأدركتُ أنّ النّاس لا كما تظنّ ولا كما تُحبّ، فإنّ النّاس إبلُ مئة لا تكادُ تجدُ فيها راحلة، فأخذتُ نفسي ألاّ أثقَ بأحدٍ، وألا أُصاحِبَ أحدًا، ولا أستشير في أمري كائِنًا، ولا أعتمدُ في سيري على مخلوقٍ سواي، وبدا لي أنّ النّاسَ فُطِروا على الغدر والخِيانة، وجُبِلوا على الجُبْن والخَور، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون، ويُظهرون ما لا يُبطنون، وأنّهم شُجعان في السّلم خَوّارون في الحرب، فنفضتُ يدي منهم جميعًا، وجعلتُ أمري معهم تحتَ قَدَميّ... وها أنذا... صار السّجن ورائي... أيّامُه المريرةُ كُلّها ورائي، ولستُ مِمّن يبكي على الأطلال، ولا ينوح على الغابرات، ولا تُشجيه المرارات، فتركتُ كلّ ذلك خلفَ ظهري، وقلتُ: لا بُدّ أنْ

أمضي، فإنّ الغايةَ لم تختلفْ وإنِ اختلفتِ الوسيلة، وإنّ الآمال لم تتبدّلْ وإنْ تبدّلت الطّريقة. وأنْ تجمَعَ النّاسَ على السّيف مثلَ أنْ تجمَعهم على الموت، فلا أحدَ يريدُ أنْ يموت، وإنْ كانتِ الغايةُ الّتي يموت في سبيلها شريفة، ولا أحدَ يريدُ أنْ يُقاتِل، وإنْ كان الهدف الّذي يُقاتل من أجله سامِيًا، النّاس - كلّ النّاس إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك - تريدُ أنْ تأكل وتشرب وتتناكح وتنام، ثُمّ تموت مثلما تموتُ البُعران. وأنا لم أُخلَقْ لذلك، ولم أُولد لأعيشَ عاجِزًا.

وأقمتُ في (حمصَ) أيّامًا على خوفٍ، آكلُ في الأسواق البعيدة عن جمهرة النّاس، وأنام في الخانات المُطرِفة، وأتوجّس من كلّ عينٍ تُحدِّقُ بي، فإنّ الأمير أخذَ على الشُّرَطة الميثاق الّذي واثقتُه به؛ ألاّ أُساكِنه في المدينة.

ثُمّ تذكّرتُ ما للتّنوخيّين عَلَيّ مِنْ يَدٍ، فقلتُ في نفسي: «أمضي إليهم، ولعلّني أجِدُ عندهم ما أداوي به بعضَ جراحاتي». فلمّا عَزَمْتُ على ذلك، نظرتُ ما في يدي مِمّا تبقّى من مالٍ، فلم أجدْ ما أشتري به دابّةً ولو كانتْ حِمارًا فأركبَها إلى التّنوخيّين في اللاّذقيّة، فمضيتُ إلى هنالكَ مشْيًا على قَدَمَيّ.

وكلّما قطعتُ فرسَخا من هذه الفراسخ تخثّرتْ في روحي الأحزان، ولم تكن الذّكرى لتعينَ على النّسيان، كانتْ عونًا على الآلام، فإنّ ما ابتُلِيتُ به من الوشايات والتُّهَم لَيَنشِبُ في رُوحي نشوبَ السّهم في الحلق، وإنّ أيّامَ السّجن الّتي تحزّ القلب كما يحزُّ المِبضَعُ العُنُق لتتأوّبني، فأفرّ منها فتتلقّاني، وما ذلكَ أسًى على وجعٍ في الجسد، ولكنّه أسًى على عُمرٍ يضيع، وصُحبةٍ مُتعذِّرة، وأيّامٍ مهدورةٍ.

وصلتُ إلى (اللاذقيّة) مكسور البال، موفور البلبال، فدخلتُها كأنّني لم أكنْ فيها، وتوجّسْتُ مِمّن تبعني فيها من فتيانها أنْ يراني أحدُهم فيعرفني، فيُلقِي بي إلى أحدِ عُتاتِها فيتلّني للجبين، وتلثّمْتُ حتّى خفيتُ عن نفسي، فلمّا وصلتُ إلى محمّد بن إسحق التّنوخيّ أكرمني وعرفَ منزلتي، وسَكَّنَ ثائرتي، وأجزلَ لي العَطاء، فما عتَمَ أنْ ماتَ، فرثيتُه، فلمّا عَلِمَ العلويّون وجودي، وخافوا أنْ أعودَ فأُظهر نسبي أو يلتفّ حولي النّاس، دَبّجوا قصيدةً على لسانِ أحدهم، وزعموا أنّها لي أهجو بها الحُسينَ ابنَ إسحقٍ أخا المُتوَفّى، فعلمتُ أنّ الحسدَ لا يُداوَى، وأنّ الكيدَ لي لا ينتهي، وأنّ الغيظَ منّي بلغَ منهم مبلغًا حتّى بانَ في أقوالهم وأفعالهم، وعلمتُ أنّني مقتولٌ لا محالةَ إنْ بقيتُ في (اللاذقيّة)، فنطَقَ غضبي عن قلبي، فعاتبتُ الحُسَين لتصديقِه أمر القصيدة المنحولة عليّ، عتابًا مَشُوبًا بالهِجاء، فقلت:

أَتُنكِـــرُ يا ابْـــنَ إِســـحاقٍ إِخائي

وَتَحسَـــبُ مـــاءَ غَيري مِـــن إِنائي

وَهَبنـــي قُلـــتُ هَذا الصُبـــحُ لَيلٌ

أَيَعمـــى العالَمـــونَ عَـــنِ الضِياءِ

ثُمّ أخبرَ الشّعرُ في هؤلاء الحَسَدة الكائدين عن رأيي، فقلت:

وَهاجـــي نَفسِـــهِ مَـــن لَم يُمَيِّـــز

كَلامـــي مِـــن كَلامِهِـــمِ الهُـــراءِ

وَإِنَّ مِـــنَ العَجائِـــبِ أَنْ تَـــراني

فَتَعْـــدِلَ بِي أَقَـــلَّ مِـــنَ الهَبـــاءِ

وَتُنْكِــرَ مَوْتَهُــمْ وَأَنَــا سُــهَيْلٌ
طَلَعْــتُ بِمَــوْتِ أَوْلادِ الزِّنَــاءِ

ثُـمّ تركـتُ اللاذقيّة غيرَ آسـفٍ عليهـا ولا على أمرائهـا ولا على عَلَوِيِّيهـا ولا عـلى عامّـة أهلِها، ووجـدتُ حموضةً في القلبَ لا تُشـفَى إلاّ بثـلاثٍ: إمّـا السّـيف، وإمّـا الرّحيل، وإمّـا الاعتِزال. فأمّا السّـيف فلـم يعـدْ لـه - بعدَ ما حَـدَثَ من أمـر سـلميةَ - مـكان، وكان عليّ أنْ أُشْـهِرَ سـيفَ الكلمـة، وأتّكـئ عليـه. وأمّـا الرّحيـل، فما اسـتقرّتْ بي بلـدٌ، ولا قبـلَ بي وَطَـن، ولا لاقنـي رَبْـع. وأمّـا الاعتِـزال فلـم أجِـئْ لأعيـشَ في كهـفٍ وأمـوت في كهـف، وإنّ مـا في نفسي لتتقـاصر دونه الكبـار وتفنى فيـه الأعـمار. ومضيتُ.

ولم يعـدْ في جيبـي دينـارٌ واحِـدٌ أسـتعينُ بـه عـلى مـا أنـا فيه من الفقـر والوحـدة والغُربـة، فلـم يكـنْ لي إلاّ أنْ أقـول في الأمـراء مـا لا يسـتحقّون جلبًـا للمال، وقـد علمتُ منـذُ أنْ تركني أبي للذّئـاب أنّ لا أصـدقَ مـن قولي:

فلا مَجْــدَ فِي الدُّنْيَــا لِمَنْ قَــلَّ مَالُهُ
وَلا مَــالَ فِي الدُّنْيَــا لِمَنْ قَــلَّ مَجْدُهُ

ولم يكنْ أحدٌ يُعطي على الشّعر غيرُ الأمراء، وليتهم يُعطون، فإنّي وجدتُ بعضهم أبخلَ من مادرٍ. إنّ الثقوب الّتي في جيبي، والثّقوب الّتي في قلبي مِمّا وجدتُ من النّاس والحياة دَفَعاني إلى أبواب السّلاطين، ويشهدُ الله أنّ أصدقَ ما قلتُه فيهم:

وَجَنَّبَنِي قُـــرْبَ السَّـــلاطِينِ مَقْتُهَا
وَمَـــا يَقْتَضِيْنِي مِـــنْ جَمَاجِمِها النَّسْرُ
وَإِنِّي رَأَيْـــتُ الضُّرَّ أَحْسَـــنَ مَنْظَرًا
وَأَهْوَنَ مِـــنْ مَرْأى صَغِـــيْرٍ بِهِ كِبرُ

غير أنّني أموتُ من الجوع والوحشة ولا أريدُ أنْ أموت، بل إنّني أريدُ أنْ يُخلَّدَ ذِكري في العالَمين، وعلى هذا المقصد مضيتُ إلى (طَرسُوس).

وهل من دابّة أركبُها فأصل بها إلى دُورها، فأتوسّل بأعيانها إلى أمرائِها؟ كلاّ. إنّما هي نعلي، أسيرُ بها حتّى تتقطّع، فإذا تقطّعتْ رميتُها ومشيتُ حافِيا حتّى تتشقَّقَ قدماي، فإذا تشقّقتا حتّى أصابهما الوجى، أرحتُ على الماء، فردمتُ فجواتِهما بالعُشبِ والطّين، وأتركَ الجَوَلان حتّى تبرآ، فإذا بَرِئَتا عُدتُ إلى سابقِ عهدي.

وصلتُ إلى (طرسوس) بعدَ عشرةِ أيّامٍ لاقيتُ فيها من الأهوال ما لا تسعُ الرّقوق أنْ تحويه، وكنتُ أعلمُ أنّ أميرها محمّد بن زريق يحبّ الفلسفة والطّبّ والتّاريخ، فجهدتُ أنْ أكتبَ قصيدةً تُدغدِغُ فيه هذه المعارف، فيمنحني ما أنا قادرٌ به على العودة إلى جَدّتي، فإنّني منذُ خمسةِ أعوامٍ لم أرَها، ولا أدري ما حَلّ بها.

وبقيتُ أنتظرُ الإذن بالدّخول على الأمير محمّدٍ هذا شهرًا، فلمّا دخلتُ وجدتُ حاشِيتَه من الأصنام الّتي تُسبّح بحمده، ذات الأصنام الّتي رأيتُها في كلّ بلدٍ جُبْتُه، غيرَ أنّهم ليسوا هدفي، ولا هم مرماي، وإنّما

المال الّذي أستعينُ به، فتهيّأتُ للقول بعدَ أنْ أُذِنَ لي، فبدأتُ سينيّتي الّتي تُرقِّصُ الحجارة:

هَذِي بَـــرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيْسَـــا
ثُـــمَّ انْثَنَيْتِ وَمَا شَـــفَيْتِ نَسِيْسَـــا
وَجَعَلْتِ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي فِي الكَرَى
وَتَرَكْتِنِـــي لِلْفَرْقَدَيْـــنِ جَلِيْسَـــا

فنظرتُ إلى عينَيه، فرأيتُه استحسنَ المطلع، واستروَح له، فشجّعني ذلك على أنْ أُتِمّ الوزن:

قَطَّعْـــتِ ذَيَّاكِ الخُـــمَارَ بِسَـــكْرَةٍ
وَأَدَرْتِ مِـــنْ خَمْرِ الفِرَاقِ كُؤُوسَـــا

فدارتْ رأسُهُ طَرَبًا، فأيقنتُ أنّني تمكّنْتُ من فؤاده، ولم يبقَ إلا أنْ أتمكّن من عقلِه، فأورِدَ له موارد المعرفة الّتي تجمع العقلاء، فقلتُ:

لَـــو كانَ ذُو القَرْنَيْنِ أَعْمَـــلَ رَأْيَهُ
لَمَّا أَتَـــى الظُّلُماتِ صِرْنَ شُمُوسَـــا
أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَـــيْفُهُ
فِي يَـــوْمِ مَعْرَكَـــةٍ لَأَعْيَا عِيْسَـــى
أَوْ كَانَ لُـــجُّ البَحْـــرِ مِثْـــلَ يَمِيْنِهِ
مَا انْشَـــقَّ حَتَّى جَازَ فِيْهِ مُوْسَـــى

أَوْ كَانَ لِلنِّــيْرَانِ ضَــوْءُ جَبِيْنِـهِ

عُبِــدَتْ فَصَــارَ العَالَمُونَ مَجُوْسَـــا

فرأيتُه قامَ عن كُرسيّه ووقفَ، وظلّ واقِفًا حتّى قفلتُ القصيدة، فرقص، فقلتُ في نفسي: «اغتنيتُ، فهذا يومُ سَعْدٍ ولا شَكّ». ولأوّل مرّة أشعرُ أنّني قابَ قوسين من حَظٍّ عظيم، ورفعتُ عنقي أنظر إلى الأمير فرأيتُه قد مَدّ يده إلى جِرابٍ في جِواره، فأخذَ منها عشرةَ دراهم فأعطاها لحاجِبه، فأعطاني إيّاها، فظننتُ أنّه يمزح، أو أنّه يريدُ الهُزْء بي، ووقفتُ كالتّمثال جامِدًا لا أتحرّك، ولا أَحُول، ولا أدري ما أقول، حتّى شَفَعَ لي الحاجب الكلب، فأعطاني من عنده عشرة دراهم أخرى، فأخذتُها أمامهم تُقيةً وأنا أقولُ في نفسي: «فعلامَ رَقَصْتَ طربًا أيّها الدّابّة... آه ما أهونَ الشِّعرَ في بلاطِ البِغال؟!». فلمّا صِرْتُ على الباب أَهُمُّ بالخروج، رميتُ الدّراهم العشرين في حديقة القصر، وخرجتُ أركضُ وأنا أُحاول جاهِدًا ألاّ ينشقّ قلبي غيظًا وَكَمَدًا، وألاّ تنفثِئ الدّموع من عينَيّ قهرًا وبُؤسًا.

(٢)

لستُ لِصًّا!!

وماذا أفعل؟! أصعدُ أعلى قِمّةٍ في هذه البلاد، فأرتقيها حتّى لا يكونَ هناكَ مُرتقًى، فأتردّى من هذا الشّاهق، فأموتُ من لحظتي؟! أمْ أرتمي بين أحضان الغواني فأُداعبهنّ، وأفرغُ لكؤوس الخمر فأُقارعهنّ، وأسكُبُ حُمرتهنّ في حمرةِ دمي حتّى أنسى؟! أمْ أتصعلَكُ فأجمعُ اللُّصوصَ وشُذَّاذ الآفاق، فأُغِيرَ معهم على القوافل فأنهبَ ما يسدّ جوعي وشظفَ معيشتي؟! كلاّ، لا هذا ولا ذاك ولا هذاك! فما أنا باليائِس من الحياة، وإنّ عِرْقًا فِيّ ينبضُ ليهوى الحياة من أجل الخلودُ وما زلتُ - رغم الآلام الّتي تشيبُ لها نواصي الوِلدان - قادِرًا على أصنعَ مجدي بنفسي. ثُمّ ما أنا باللاّهي السّاقط الّذي يبتذل نفسَه ومروءته بين أحضان المُومِسات. ثُمّ إنّني لستُ لِصًّا، فإنّ فِيّ أخلاقَ الملوك، وهِمّة العُظَماء، وإنّ أمامي طريقًا كلّما أمعنتْ في صَدّي أمعنتُ في شَقِّ صخورها بأظافري. ومضيت.

قلتُ لنفسي، بُغيتي (منبج)، فإنّ الدَّم إذا تحرّك في العروق نَما، وألهبَ الوُجدان، وإنّ لي بهم رابطةَ القحطانيّين. وسعيتُ أنْ أعملَ في سوق (طرسوس) شهرًا كامِلاً أحمل جوالات الدّقيق على ظهري مقابل أجرةٍ زهيدةٍ، وأتحيّن فرصة القافلة الذّاهبة إلى (منبج) مُكترِيًا ركوبةً تُوصلني إلى هناك.

فلـمّا وصلـتُ إلى (منبـج) بعـدَ شـهرٍ آخـر، سـعيتُ إلى أميرهـا (عُبيـد الله بـن يحيـى)، فوطّـأ لي المِهـاد، وأدخلنـي قـصره، وأنشْـدتُهُ قصيـدتي الّتـي أوّلهـا:

بَكَيْتُ يَا رَبْعُ حَتَّى كِـــدْتُ أُبْكِيْكَا

وَجُـــدْتُ بِي وَبِدَمْعِـــي فِي مَغَانِيْكَا

فَعِمْ صَبَاحًا لَقَدْ هَيَّجْتَ لِي شَـــجَنًا

وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَـــا إِنَّـــا مُحَيُّـــوكا

فأحنى رأسه إجلالاً للمطلع الجليل، واستمعَ إليّ استماع الأديب الأريب، فلمّا وصلتُ في القصيدة إلى قولي:

نَجَـــا امْرُؤٌ يَا ابْنَ يَحْيَـــى كُنتَ بُغْيَتَهُ

وَخَـــابَ رَكْـــبُ رِكَابٍ لَمْ يَأُمُّوكَا

أَحيَيْتَ لِلشُّعَراءِ الشِّـــعْرَ فَامْتَدَحُوا

جَمِيـــعَ مَنْ مَدَحُـــوهُ بِالَّـــذِي فِيْكَا

قامَ عن كرسيّه فاعتنقني، فوجدتُ في عِناقه هدأة الزّمن الّذي قلقلني، وطمأنينة الدّهر الّذي رَوَّعني، ونظرَ في عينَيّ، وابتسم: «لقد وصلتَ أيّها الكريم». فلمّا قفلتُ القصيدةَ بقولي:

ما زِلْـــتَ تُتْبِعُ مـــا تُولِي يَـــدًا بِيَدٍ

حَتّى ظَنَنـــتُ حَيَاتي مِـــنْ أَيادِيكا

فَإِنْ تَقُل: ها، فَعـــاداتٌ عُرِفْتَ بِهَا

أَو: لا، فَإِنَّـــكَ لا يَسْـــخُو بِها فُوكا

شعَرَ أنّني على توجُّسٍ من أنْ يَردّني، وأنْ يخيبَ فيه رجائي، فقال: «يا أبا الطّيّب، إنّ لقولك سحرًا، وإنّكَ لشاعر، وما أنا مَنْ يُخيّبُ سائِلَه، فسَلْ تُعطَ». فأنعشتْني عِبارتُه، وقلتُ: «ليسَ على الكريم شرط». فأمرَ حاجِبَه فأجزلَ لِيَ العطَاء، وقال: «تُقيم بيننا، وتُعلِّمُ أبناءَنا شِعر الفُحول من أهل الجاهليّة، وأهل القُرون الأولى». فهتفتُ: «سمعًا وطاعةً أيّها الأمير».

فأقمتُ عندَه على ما ذَكر، واخضرّ عيشي عنده وأينع، ثُمّ مدحتُهُ بثلاث قصائد، فلمّا سَمِع في أحداهنّ قولي:

قَد كُنتُ أَحسَبُ أَنَّ المَجدَ مِنْ مُضَرٍ
حَتّى تَبَحْتَرَ فَهوَ اليَومَ مِن أُدَدِ
قَومٌ إِذا أَمطَرَتْ مَوتًا سُيوفُهُمُ
حَسِبتَها سُحُبًا جادَتْ عَلى بَلَدِ

قال: «أنتَ فينا واحِدٌ منّا». فتابعتُ دروسي للصّبيان في خاصّته، فوجدتُهم أضعفَ النّاسِ عقولاً، ووجدتُ حياةَ اللّهو قد صرفتْهم عن أنْ تَميلَ نحوي قلوبُهم ويأخذوا عنّي من العِلم أحسنَه، فمللتُ الإقامة بينهم، فما لم تكن الرّغبةُ في التّعلم نابِعةً من حُبّهم العِلم فلا حاجةَ بي إلى تملّقهم، وكدتُ مرّة أنْ أضربَ أحدَ الصّبيان فخفتُ عقوبةَ الأمير، ثُمّ إنّه انصرفَ عنّي، وانشغل بتدبير أمور الدّولة، الدّولة الّتي هِيَ حَيٌّ صغيرٌ انتحاه كما انتحاه أسلافُه، وكما هي حالُ الدُّول القائمة يومئذٍ، فعرفتُ أنّه الرّحيل، فرحلت.

وكان معي من المال الّذي جمعتُه عنده ما يُخوّلني شِراءَ ركوبةٍ تُبلّغني مقاصدي، فهويتُ إلى قاضٍ مالِكيّ، وألجأني الدّهر والخيبةُ إليه، ولا أدري ما أفعل، أعرفُ أنّني أتملّق هذه الطُّبُول الجوفاء، بيدَ أنّه لا مفرّ من ذلك، لقد بدا أنّني أُجرّب حَظّي في الملوك حتّى أقعَ على ملكٍ يرى ما أرى، فأُجدّد معه العهد على إقامة الخلافة في أرضٍ مزّقَتْها النّزاعات بين أولاد العُمومة، إنّ أكبرَ ناحيةٍ - يحكمها أميرٌ من الأمراء الّذين ينضوون اسمًا تحتَ راية الخلافة الهزيلة - أصغرُ من أصغر مملكةٍ يحكمها الرّوم أو علوجُ بيزنطة، وإنّ تَفَرُّقَنا جَعَلَنا شِياهًا تنفردُ بها الذّئاب، بل بدونا كأنّنا «حُمُرٌ مُستنفرة فرّتْ من قَسْورة».

ولقد تلقّاني القاضي هذا، كما يتلقّى القُضاةُ المُتّهمين، ولعلّه بَلَغَهُ من سُلالته من القُضاة ما رُميتُ به من النُّبّوة فكان مِنّي على حَذَر، فلمّا وقفتُ بينَ يدَيه، أنشدتُه قصيدتي الّتي أوّلها:

لِجنِيَّـــةٍ أَم غـــادَةٍ رُفِعَ السَّـــجْفُ

لِوَحْشِـــيَّةٍ لا ما لِوَحْشِـــيَّةٍ شَنْفُ

فما رفع رأسَه نحوي، فارتختْ حنجرة الشّعر في حلقي، واضطربَ وُجداني، غيرَ أنّ الأمل يُغري اليائس بالاستمرار، وتابعتُ القصيدة، حتّى لمستُ الضّعفَ فِيّ، وأنا في خواتيمها حينَ قلتُ:

وَلا الضِّعْفَ حَتَّى يَتْبَعَ الضِّعفَ ضِعْفُهُ

وَلا ضِعْفَ ضِعْفِ الضِّعْفِ بَلْ مِثلَهُ أَلْفُ

فما حرّكَ ساكِنًا، فلمّا أنهيتُها بقولي:

أَقاضِيَنـــا هَـــذا الَّـــذي أَنـــتَ أَهلُهُ
غَلِطْـــتُ وَلا الثُّلْثانِ هَـــذا وَلا النِّصْفُ

وَذَنبِيَ تَقصـــيري وَما جِئـــتُ مادِحًا
بِذَنبي وَلَكِـــن جِئتُ أَســـأَلُ أَن تَعفُو

قـال: «قـد عفونـا عنـك». وخرجـتُ بهـذه الكلمـة أُجرجِـر بهـا مِـرطَ ثـوبي. وبصقـتُ عـلى الأرضِ كأنّني أبصـقُ عـلى نفـسي، وعـلى مـا ألجأتهُـا إليـه.

وبقيتُ مُعتكِفًا في ظاهر البلدة، في خيمةٍ صغيرةٍ أقمْتُها، لا ألوي على شيء، ولا أرى أحدًا. وأنا أرعى النُّجومَ في اللّيالي البُهْم، وأبثُّها همومي وأحزاني، وجُرأة الأمراء على الاستِهانة بي وبشعري.

وخلـوتُ إلى روحـي، أناجيها، وهـي تعلوني بسـوطٍ من عتابٍ مُـرّ، وتسـألني أنْ أتوقّـف عـن مدح هـذه الشّرذمة مـن العَجَـم الّذين لا يفهمـون العربيّـة، ولا يُحسـنونها، ولا يعرفـون شـيئًا مـن الشّـعر وأعاريضـه، حتّـى عضّني الجـوع، وأخرجنـي العِوز مـن عُزلتي. وقد أنشـبَ الدّهـر أنيابـه في أوداجي.

ثُمّ قوّضتُ الخيمة، ومزّقتُ قماشَها، وأخذتُ من أوتادِها ما يصلُحُ للعون، وركبتُ جوادي، ثُمّ دخلتُ السُّوق، فبِعتُه بثمنٍ بخسٍ كِفاءَ حياتي، فلقد كان الموتُ جوعًا أقربَ إليّ من شِراكِ نعلي.

وقصدتُ بعدَها (عليّ بن منصورٍ) الحاجب أشكو إليه حال الزّمان لعله يقوم بحاجتي، ويَسُدُّ من خلّتي، ويُصلح من حالي، فلمّا صِرْتُ بينَ يدَيه، وجدتُ القومَ سُجودًا على الأرض ينتظرون أنْ يأذن لهم بالقِيام، فلم يفعلْ وأبطأَهُ الشّراب، فصَفّقَ أحدُ الوزراء السُّفهاء، فقاموا، فلمّا استَووا قِيامًا، وأخذَ كلّ راكعٍ ذليلٍ منهم مجلسه، بدأتُ بقولي:

بِأَبِي الشُّـــمُوسُ الجَانِحَاتُ غَوَارِبَا
اللاّبِسَـــاتُ مِـــنَ الحَرِيْـــرِ جَلابِبَا

ودَعَا بالقِيانِ يُغنّين، فوقفتُ من فوري، فنَظَر إليّ ولم يقلْ شيئًا، ثُمّ إنّه فَهِمَ أنّني لا أريدُ لهذه الجواري أنْ تقومَ بيننا، فالشِّعر لا يُنشَد في حضرتهنّ، فأشارَ إليهنّ، فانتحينَ جانِبًا، وأخلَين الفراغ الّذي بيني وبينَه، ورُحنَ يتمايَلْنَ في طَرَف المجلس، ودارتْ عليه كُؤوسُ الخمر، فصارَ يَعُبّ منها عَبًّا، فإذا أفرغَ الكأسَ كامِلةً في جوفِه رفَعها أمامه عاليًا حتّى صارتْ أعلى من رأسه، وهتف: «ألا تشربُ معنا يا أبا الطّيّب؟!». فقلتُ: «لا أشربُ الخمر، ولم أشربْها». فيضحك: «إنّها فرصتك الآن لتفعل، دائِمًا هناكَ مرّةٌ أُولى، أنتَ تعرف هذا؛ القُبلة الأولى، الرّشفة الأولى، السّكرة الأولى... فلتكنْ هذه الأولى بينَ أجسادِ هاته الجميلات البَضّات». فأعرضتُ عن قوله، وتابعتُ:

كَيفَ الرَّجاءُ مِـــنَ الخُطُوبِ تَخَلُّصًا
مِـــنْ بَعْـــدِ مَـــا أَنْشَـــبْنَ فِيَّ مَخَالِبا

وصَعّدَ فِيّ النّظر، فتجاهلْتُه، وأنا في حالةٍ من الأسى والبُؤس تنفي عنّي القصيدة، وتُلعثمني بها، غيرَ أنّ الأمل الّذي قتلني في المرّات السّابِقة، دفعني إلى مذبحه من جديد، فأكملتُ أستحثُّه على سَداد خَلّتي:

حــالٌ مَتــى عَلِـمَ ابْــنُ مَنصـورٍ بِهـا

جــاءَ الزَّمــانُ إِلَيَّ مِنْهــا تائِبــا

فلمّا ختمتُ هذه الدُّرّة النّضيدة بقولي:

خُــذْ مِــنْ ثَنـايَ عَلَيْـكَ مـا أَسْـطِيعُهُ

لا تُلْزِمَنِّــي في الثَّنــاءِ الواجِبــا

فَلَقَــد دَهِشْـــتُ لِمـا فَعَلْــتَ وَدُونَــهُ

مــا يُدْهِـشُ المَلَـكَ الحَفِيـظَ الكاتِبـا

قامَ من كُرسيّه يترنّح من سُكرٍ كأنّه جَمَلٌ مذبوح، وقال: «أصدُقكَ القول أيّها الفتى؟!». فصمتُّ على خوفٍ مِمّا سيقول؛ فإنّني رأيتُ البَلَه في وجهه وهو صاحٍ فكيفَ وهو سكران؟! فأردف: «لم أفهم مِمّا قُلتَ شيئًا، غير أنّني أحتاطُ لذلك، فهاك». ومَدّ يده فأخرجَ من جيبه دينارًا واحِدًا ودَفَعه إليّ، وهتف: «تَنَعَّمْ بِما أعطاكَ مولاك». وقهقه وارتجّ جسدُه من قهقهاته حتّى كادَ يسقط.

فخرجتُ من عندِ هذا الفاجر (ابن منصور) لا نَصَرَه الله وأنا أعضُّ على شَفَتَيّ ندمًا، ومن يومِها سُمّيتْ هذه القصيدة بالدّيناريّة. وحلفتُ ألاّ أغشى قصور الفَجَرةِ مرّة أخرى، وعلمتُ أنّه حان الوقتُ لكي أعودَ إلى الكوفة وأرى جَدّتي.

(٣)

دِيارُ النّشأة الأُولى

ليسَ بين المصائب مسافة، وأمّا الأحبّة فدونهم الفَلَوات والدّياميم والموامي:

فيَــا لَيْت مَــا بَيْني وبَــيْنَ أحِبَّتِي
مِــنَ البُعْدِ مَا بَيْنِي وبَــيْنَ المَصَائِبِ

ركبتُ قدَمَيّ، وأنّى لي بالكُوفة وهي بعيدةٌ بعيدة!! وإنّني إنْ لم أجدْ راحلةً فلن أصلَ إليها على هاتَين القدَمَين في أقلّ من ستّة أشهر، وقد أهلكَ دونَ ذلك. فما الرّأي؟ وشعرتُ بالعَجْز، وبرغبةٍ شديدةٍ في البُكاء، وتلفّتُّ حولي أبحثُ عمّنْ يُعينني على عودة هذا الغريب إلى دِياره، فلم أجدْ أحدًا.

وأويتُ إلى كهفٍ من وحشة الطّريق في إحدى اللّيالي، وخفتُ أنْ تهاجمني الذّئاب أو الوحوش، فسددتُ باب الكهفِ بشجرةٍ مقطوعة، ثُمّ عادَني مِمّا مضى في حياتي كلّ ذكرى بائِسة، فأسيتُ أسًى كادَ يذهبُ بروحي، وأسندتُ ظهري إلى جدار الكهفِ المليء بالنّتوءات والتّجاويف والعفن وأنا طاوي الكَشْحِ ضامرُ البطنِ من الجوع، ورحتُ أنظر إلى الشِّعر الّذي كتبْتُه حتّى ساعتي هذه، عشرات القصائد

المُدبّجات في غيبيّات مُتخيّلة، وأحلام مُجنّحة، وملوكٍ اخترعتُهم، وممالكَ أوجدتُها، وأحداثٍ أنبَتُّها، وكنتُ قد كتبتُ تلك القصائد على قراطيس جمعتُها في كلّ بلدةٍ مررتُ بها، ووطنٍ عبرْتُه، فلمّا نظرتُ إلى هذه الأوراق المُتراكمة، ونظرتُ إلى ما في يدي من مال فوجدْتُها صِفرًا، حنقتُ على ما آلتْ إليه حالتي، فخرجتُ من الكهف، جمعتُ حطبًا من الأرض، وأوقدتُ عليه النّار، ثُمّ عمدتُ إلى الرّقوق أريدُ أنْ أسجرها في تلك النّار، فسمعتُ صوتًا يقول لي: «لا تفعلْ، هذه القصائد مُلكُكَ الّذي تبحثُ عنه»، فاضطربْتُ، وخُيِّلَ إليّ أنّه صوتُ أبي. فكففتُ برهة، ثُمّ لم أعدْ أسمعُ الصّوت ثانِية، فأخذتُ رزمةً من هذه الرّقوق، فألقمْتُها النّار، فراحتْ تتلوّى تحتَ اللّهب، ثُمّ تنذوي ببطء، وأنا أنظرُ إليها مُتحسِّرًا مألومًا، ثُمّ رأيتُ اللَّهبَ يصعد بالرّقوق المحترقة، فيحول الرّقّ إلى كلماتٍ من شُواظ، وسمعتُ ألسنتها تقول: «لِمَ أحرقْتنا، تالله ما كان في الخَلْق أوفى لكَ ذِمّةً منّا!». فارتعشَتْ جوارحي، ثُمّ رأيتُ القصائد أفواهًا مفغورة، وعيونًا مُحملِقة، وأشداقًا سائِخة، فارتعبْتُ، ورأيتَ فمًا يهتف: «توقّف أيّها المجنون، لا تقتلْ نفسَك». فصرختُ فيه من الذّعر: «بل إنّني بذلك أُنقِذها، فما رأيتُ أقتلَ لي مِمّا قلت». ثُمّ شعرتُ أنّ يدًا خشنةً جذبَتْني بعيدًا عن النّار، وأنّ سحابةً أو ماءً هطلَ عليها فأطفأها في لَحَظاتٍ وخمدتْ. وكنتُ قد ألقمتُ النّار أكثرَ من نصفِ تلك الرّقوق، فدخلتُ الكهفَ وأنا في هلع أضمّ يدَيّ على جذعي اتّقاء البرد والمطر، ونمتُ ليلتي تلك وأنا أسمعُ أصواتًا لم تكفّ عن طرقِ جمجمتي حتّى طلعَ الفجر.

فلمّا عادَ إليّ عقلي في الصّباح، نظرتُ إلى موضع النّار فاستعبرتُ، وشعرتُ بالنّدم على ما فعلتُ، ونظرتُ إلى ما تبقّى من هذه الرّقوق، فجمعتُها إليّ واحتضَنْتُها، وهتفتُ: «سامحيني، لم أكنْ أقصِدُ إيذاءَكِ».

وخرجتُ من الكهفِ إلى الله، فالطّريق، فالنّاس، فالسّوق، ولم يكنْ فيه منْ يريدُ أنْ يأخذَ ما في عقلي، ومَنْ يستطيعُ يومئذٍ؟! لقد كان في عقلي ما لو أردتُ أنْ أقولَه لما كفتْه أمواهُ دجلة والفُرات مدادًا. ولكنّهم يريدُون هذه الأذرع لِتَرفَع، وهذه الظّهور لِتَحمل، فعملتُ حَمّالاً من جديدٍ، حتّى أجمعَ مالاً لأشتري حصانًا أستعينُ به على السّير إلى الكوفة، فلمّا مضتْ شهورٌ أربعٌ على ذلك، تَمّ لي الشّراء، فركبْتُه مُيَمِّمًا ديار النّشأة الأولى.

كان ذلك في العام السّادس والعشرين بعد المئة الثّالثة للهجرة. وكانَ حصاني عُرْيًا، لا أحلاسَ ولا سُروجَ ولا جِلال، ولمْ يكنْ له غيرُ اللّجام. وأنا؟ لا شيءَ معي غيرَ هذا القلبِ الّذي خاضَ كلّ هذه المَخاضات، ودخل كلّ هذه الحَوْبات، وتلقّى كلّ هذه الطَّعنات، وما زالَ حَيًّا، فيه بقيّةٌ من أملٍ قادرةٌ على متابعةِ المسير.

فلمّا جَنّ عليّ اللّيل لبضعة أيّامٍ مضتْ على هذا السّير، دخلتُ غابةً كثيفة، وأَجَماتٍ مُلتفّة، وكان العَمى فيها هو الدّليل، فتشابُكُ الأغصان والأوراق، وتداخل الجذوع والسّيقان جعلَ معرفةَ ما أنا فيه هذيانًا، فكيفَ واللّيل قد جمعَ إلى هذا العمى عمًى، وكيفَ والغِياض تحجبُ النّجوم الّتي أهتدي بها في ظلمات هذا البرّ؟! غيرَ أنّني قلتُ لنفسي: «أمضي باتّجاه القلب، إنْ كانت النّجوم قد غارتْ أو حُجِبَتْ، فإنّ لي

قلبًا يهزأ بكلّ مَخوف، ويُشيّعني في هذه الغابة اللّفّاء». فلمّا وصلتُ في هذا إلى موضعٍ يُقال له (الفراديس)، توقّف حِصاني، فتحفّزتُ، فإنّني أعرفُ أنّه لا أسمعَ منه، وأدركتُ أنّ هناكَ وحشًا ما قريبًا مِنّا. وكتمتُ أنفاسي في هذا اللّيل المُمعِن في السّواد، وأرهفتُ أُذُنَيّ، فما سمعتُ غيرَ الصّمت، وبقيتُ على حالي تلكَ مُتحفِّزًا مُتأهّبًا لأيّ طارِئٍ، وكانَ جناحا قلبي يصطفقان بينَ ضلوعي، حتّى سمعتُ خفقَهما جَلِيًّا. ثُمّ شعرتُ بشيءٍ من الطّمأنينة، فهمزتُ الحِصانَ، فأبى أنْ يسير خُطوةً واحدة، فنظرتُ عن يميني محاوِلاً أنْ أرى شيئًا، فلم أرَ إلاّ خيالات الأشجار، وحفيفَ أوراقِها خفيفًا على سُكون الهواء، ثُمّ إنّني بغتةً شعرتُ أنّني رأيتُ في المدى القريب خيالاً ضخمًا، يعبرُ من شِمالي إلى يميني، بسرعةٍ، حتّى تحرّكتْ له أوراق الأشجار، وتماوجتْ له ليّناتُ الجُذوع، فدخَلَ الفَزَعُ آنئذٍ فؤادي، فنهرتُه وهدّأتُه: « أنتَ أحمدُ بن الحسين، مَنْ جابَ الأرضَ مَشرِقَها ومَغرِبَها، حُزُونَها وسُهولَها بقلبِ فريقٍ مُشَيَّع». ثُمّ لم يمهلْني الوحشُ كثيرًا، فسمعتُ زئيره... إنّه أسدٌ إذًا، ثُمّ مرّ وحشٌ ثانٍ، إنّه أسدٌ ثانٍ، ورأيتُهما أمامي يجمعُ بعضُهما بعضَهما ويبدآن السَّيْرَ نَحوي، ثُمّ تقاطرتْ أسودٌ أخرى إليهما لا أدري من أينَ جاءتْ ولا كيفَ نبتَتْ، فعرفتُ أنّني في مَأْسَدة، وأنّني هالِكٌ لا محالة، ثُمّ راحت هذه الأسودُ تزأر، فترتجّ لزئيرها الأشجار كُلّها. وكنتُ أعرفُ أنّني لو أطلقتُ ساقَيّ حِصاني للرّيح فلن أسلم. وكان هو يعرفُ ذلك، فلم يبرحْ مكانه، وأَمَلْتُ عُنُقي إلى عنقِ الحصان قليلاً، وهمستُ في أذنَيه بصوتٍ خفيضٍ هادِئ: «ما ترى يا حِصاني في ما نحنُ فيه؟». فرفعَ رأسَهُ إلَيّ، وصهلَ بصوتٍ مجروح كأنّ فيه صَحْلة، فهزتُ رأسِي مُقِرًّا له بأنّنا سنصير في جوفِ هذه الأسود خلال اللّحظات القادِمة. وبقينا

أنا وحصاني زمنًا على جمودنا، فقد أدركَ كلانا أنّه من الجنون الفِرار، وأنّه لا فائِدة من محاولة النّجاة من خلال أنْ تعطي ظهركَ لهذه الأسودِ الجائِعة، فإنّ موتَكَ في أفواهها مبتدِئةً بصدرك خيرٌ ألفَ مرّة من ابتِدائها بإستك. وعليه أرخيتُ اللّجام، وأرحتُ الذّراع، وانتظرْتُ الموت. غيرَ أنّ هذا القطيع من الأسود ائتمر بأمر سَيِّدَيه؛ ثَبَتا فثبتَ خلفهما، وأقعيا فأقعتْ بعدَهما، ونظرتُ في عيونِها وأنا أشكُّ أنّ هذا يحدثُ أمامي بالفِعل. وشعرتُ أنّها جلسَتْ لتسمع منّي، وقلتُ في نفسي: «وما العَجَبُ في ذلك؟! لقد هوتْ إليّ الجّن من سُتُراتها لتسمع منّي وأنا في سنّ أصغرَ من هذه، فليس مستغربًا بعدَ الجنّ أنْ تهوي إليّ الوحوشَ لتسمعَ سِحري، فأنا والله الشّاعر». ولا أدري كيفَ جاءتْني هذه الخواطر الهادِئة في هذا الموقف المُريع، غيرَ أنّني هيأتُ نفسي، وأصلحتُ ما تناثَر من شَعرِي تحتَ عِمامتي، وضربتُ بيُمنايَ على صدري أُهدِّئ قلبي، وأعُدّه للقول، ثُمّ أنشدتُ:

أَجارُكِ يا أُسْـــدَ الفَراديـــسِ مُكْرَمُ
فَتَســكُنَ نَفسي أَم مُهانٌ فَمُسْلَمُ؟!
وَرائـــي وَقُدّامـــي عُـــداةٌ كَثيرَةٌ
أُحاذِرُ مِن لِـــصٍّ وَمِنـــكِ وَمِنهُمُ

فكأنّني سمعتُها تقول: « بل أنتَ أهلٌ لكلّ إكرام، وإنْ نَكِرَك سفلةُ البشر من الملوكِ والأمراء فإنّنا نعرفك، وإنْ كانوا أعداءً لكَ فإنّنا أصدقاؤك». فهدأتُ واطمأننتُ وصدّقتُ ما سَمِعَه قلبي منها، وشعرتُ مع هذه الوحوشِ براحةٍ وأنسٍ أكثر من الرّاحة والأُنس مع

البشر، فأردفتُ:

فَهَل لَـــكِ في حِلْفي عَلى مـــا أُريدُهُ
فَـــإِنّي بِأَسْـــبابِ المَعيشَـــةِ أَعلَمُ
إِذاً لَأَتـــاكِ الخَيْرُ مِـــن كُلِّ وِجهَةٍ
وَأَثرَيْـــتِ مِمّـــا تَغنَمـــينَ وَأَغنَـــمُ

فكأنّني سمعتُها تقول: «نعم. لنا في حلفك، وإنّنا لنغنمُ ونُثري، وسنجدُ سعةً في رزقنا، وسندعو الله أنْ تجدَ سعَتكَ». ثُمّ كأنّها صمتتْ، وتحدّثَ أيمنُ الأَسَدَين اللّذين تقدّما هذا الجمع، فقال: «أمامكَ سَفَرٌ طويل، وعقباتٌ كأداء، فاحملْ ما تجدُ على الصّبر والعِناد يكنْ لكَ ما تريد، وإيّاكَ واليأس فإنّه كُفْر، وإنّ الصُّعود من الوديان إلى الذّرا شاقّ، وأنتَ فيه. وإنّ الهبوط من الذّرا إلى الوديان سهلٌ فلا تكنْ فيه، ألم تسمع ما جاءَ في كتابنا: «ذو المُروءة ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرَّفيعة، والذي لا مُروءةَ له يَحُطُّ نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة، والارتفاع من ضعة المنزلة إلى شَرَفها شديدُ المَؤُونة، والانحطاطُ منها إلى الضَّعة هيِّنٌ يسير». ثُمّ إنّه لمّا ختَمَ مقالتَه، هَزّ رأسه كأنّه يُسلِّم بالودَاع، ومضى. فما رأيتُ على كثرةِ ما رأيتُ أعجَب من هذا.

ثُمّ إنّني نمتُ تلك اللّيلة في تلك الغيضة بين تلك الوحوش في مأمنٍ وبُلَهْنِيَة. فلمّا أسفرَ ضوء الصّباح شيّعتْني إلى طرفِ الغابة فودّعتْني وعادتْ إلى عُرُنِها.

ثُمّ ألقتْ بي النّوى - بعد ذلك - في مجاهل الصّحارى المُهلكات، ولقد رأيتُ فيها ما لم يَرَه بشريٌّ مثلي، وعاينتْ فيها ما لم تعاينْه الجنّ، حتّى لاحتْ لي الكوفة بعدَ شهرَين من الإرقال والأَيْن، فرجّني الشّوقُ رَجًّا، وبَسَّني الحُبُّ بَسًّا، وهويتُ بحصاني إليها، وأنا أحلمُ بلحظة اللقاء بجدّتي.

(٤)

الحربُ خُدعة!

كان طاق الباب الّذي غادرتُه مع أبي منذُ ما يقرب من عشر سنواتٍ على حالِه لم يتغيّر، غيرَ أنّ حجارتَه بهتَتْ قليلاً، والطّاق تقوّس أكثر، أمّا تاجُه فقد تَثَلّم، ولا أدري كيفَ يحدثُ ذلك إذا غابَ النّاسُ عن بيوتهم، فهل تَحِنّ هذه البيوتُ إلى سُكّانها؟! أمَا والله فقد حَنَنْت، لا كما حَنّ الصّمّة إلى رَيّا، بل كما حَنّ القطا إلى الوِرد، بل أكثرَ من ذلك.

ودخلتُ الدّارَ، فوجدْتُها هادِئةً ساكنة، قد غَيّرها مرّ السّنين، وأبلاها تقادُمُ الأيّام، وكانتْ جُدران الفناء حزينة، والنّوافذ الّتي تُطلّ منها على جيراننا وحيدة، لم تنفتح لتدخل إليها الشّمسُ منذُ زمنٍ طويل، وهممتُ أنْ أحضنَ الأبواب وأعتنق النّوافذ وأُقبّل الجُدْران، فرأيت وحشتها منّي فلم أجرُؤ على أنْ أُقبّلَ مَنْ أنكرني، والتفتّ إلى الرّواق الّذي يُدخَل منه إلى البيت، وتمنّيتُ أنْ أرى جَدّتي هناكَ في استقبالي، غيرَ أنّ الرّواق كان هو الآخر حزينًا شاحِبًا فارِغًا، فأخذتُ إذ ذاكَ شهيقًا طويلاً، وهتفتُ وأنا أكادُ أبكي: «جدّتي»، فلم يُجِبْني غيرُ الصّمت، ثُمّ ناديتُ بصوتٍ أعلى: «جَدّتي... جَدّتي... ها أنا قد عُدتُ يا جدّتي...». فكأنّني سمعتُ صوتَ حركةٍ في الغرفة الّتي اعتادتْ أنْ تنامَ فيها، الغرفة الّتي تجاور أختَها حيثُ كانتْ ترتّب لي الرّقوق،

وتُهيِّئ لي دُرجًا أقرأ عليه وأكتب. وأسرعتُ الخُطا إلى الرّواق، فعبرتُه، حتّى أشفيتُ على غرفتها، وأرسلتُ نظرةً متشوّفة إلى المكان، فرأيتُها... كانتْ تضطجعُ من تعبٍ، وقد هرمتْ كثيرًا، وضَعُفَ جسدُها ونَحُل، فلم تعدْ تقوى على الحركة، فلمّا رأتْني دَبّتْ فيها القّوة، ونَشِطَت من الفرحة، فقامتْ من فِراشَها، وأقبلتْ نحوي تُجاهِدُ وَهَن السّاقَين، وتُحدِّقُ فِيّ كأنّها تتعرّف إليّ، وتصيح: «أحمد... هذا أنتَ يا أحمد...؟!!». «أنا هو يا جدّتي». ولمْ تتمالكَ نفسَها فاحتضنَتْني وأجهشتْ بالبُكاء.

وظلّتْ على حالها هذه، تحضنني تارةً، وتقبّل وجهي تارةً أخرى، وتمسحُ بأكفٍّ حانيةٍ صفحةَ وجهي، وتنظر في عينَيّ كأنّها غيرُ مُصدّقة، فلمّا هدَأتْ بعد وقتٍ راحتْ تعاتبني: «أهكذا تتركني وحدي يا بُنَيّ...؟!». «يا جَدّتي ليتَني ألازِمُكِ الحياة كُلّها، غيرَ أنّني سعيتُ في بلادِ الله من أجلِ حياةٍ كريمةٍ لي ولك، فما وجدتُ غيرَ الذّلّ والهَوان». «لا تقلْ ذلك يا أحمد.. لا تقلْ ذلك. نحنُ أعِزّاء رغم أنفِ كلّ ظالمٍ وجَبّار». وأخذتْني من يدي، وأجلستْني في فراشها، ثُمّ راحتْ تقول: «لقد كنتُ أخرجُ إلى ظاهر الكوفةَ كلّ يومٍ لأراك، ثلاثَ سنواتٍ ما أخطأتُ يومًا، أقول: اليومَ يعودُ حبيبي... اليومَ يعودُ حبيبي... ولكنّكَ لا تعود، فلمّا نكَّسني الهَرَم، صرتُ أمضي إلى الباب، فأجلسُ تحتَ الطّاق في كلّ ليلةٍ أنتظرُ أوبتك ثلاثَ سَنواتٍ أخريات... ثُمّ لمّا عَلِمْتُ أنّكَ خرجْتَ في بَنِي عَدِيّ وبني كلب، وسُجِنْتَ بعدَ ذلك، صرتُ أدعو الله في كلّ ليلةٍ أنْ يخرجك من السّجن سالِمًا ويُعيدَكَ إليّ... ثُمّ لَمّا طال انتِظاري لكَ من بعدُ فأيِسْتُ، صرتُ أدعو الله ألاّ يُميتني حتّى أراك، وها قد استجاب الله دعوتي». ثُمّ إنّها سألتْني عن أحوالي كثيرًا،

فقصصتُ عليها شيئًا وتركتُ أشياء، وحدّثْتُها بأمور الولاة والأمراء وما كان من شأني معهم، فقالتْ: «يا بُنَيّ، إنّما أنتَ تنفُخُ في رماد، وإنّ الثّأر الّذي غَذَوْتُكَ بلَبانِه جَرّ عليّ وعليك الويلات». ثُمّ قامتْ فهيّأتْ لنا الطّعام بِما تجد. ونمتُ من بعدُ يومًا كامِلاً!

فلمّا صحوتُ، رأيتُها تجلسُ عند رأسي، وقد هيّأتْ لي ثيابًا جديدة، وطعامًا ساخِنًا، فلمّا جلسْتُ معها إلى المائدة، فَحَصَتْ بنظراتِها الحازمة الودودة معًا وجهي، وأمالتْ جذعها نحوي، وهتفتْ: «اسمعْ يا بُنَيّ، أنتَ تعرفُ ما صار من أمر العلويّين، إنّهم لن يسكتوا عنك، وإنّ نسبَكَ هو الموتُ الزُّؤام عندهم، غيرَ أنّني لا أريدُ أنّ تتنكّب عن ما رَبَّيْتُكَ عليه، ولذا أرضيتُ هؤلاء العلويّة الّذين هنا، فأعطوني الأمان لك، وألاّ يقتلوك أو يُخفوكَ كما قتلوا مَنْ قبلك، وطلبْتُ منهم أنْ يُفشُوا ذلك إلى قادتهم ومُريدِيهم في كلّ أصقاع الأرض، وأخذوا علَيّ مقابل الأمان عهدًا أنْ تُقلِعَ عمّا تَهَوّرْتَ به في بادية الشّام من إظهار نَسَبِك و...». وتردّدَتْ قليلاً كأنّها كانتْ تريدُ أنْ تقول شيئًا آخر، ولكنّها صمتَتْ، ونظرتْ في عَيَنَيّ تستنطقني رَدّا على ما فعلتْ. فهتفتُ: «يا جَدّتي، يا حبيبتي، لقد واجهتُ الموتَ ألفَ مرّة في هذه السّنوات الطّويلة الّتي غبتُها عنك، واجهتُه في السّجن الكريه، وفي الصّحارى المُهلِكات، وفي الأسواق المزدحمات، وفي الحرب، والإغارة، وفي العدوّ الظّاهر والباطن، وبين أيدي الوُلاة وأنا أُلقي قصائدي اليتيمة على مسامعهم، وفي مكائد الحُسّاد، وفي تدبير الكُيّاد، وفي ما لا يُظَنّ فيه إلاّ الأمن كان الموتُ يبرزُ لي، ولقد نمتُ عاريًا سنينَ، وظامِئًا، وجائِعًا، وشريدًا، وغريبًا، تصفعني الدّروب، وتتقحّمني العيون، وتشتمني الأفواه... ولقد عانَيْتُ أمورًا

لو رَكِبَتْ ظهورَ الشّواهق لخرّتْ، ومتون البِحار لَسُجِّرت... أفبَعْدَ هذا كلّه أخافُ من شرذمةٍ من العلويّين الوُشاة؟! أفرأيتِ أقذر مِمّن يدّعي أنّه معكَ في العلن ويطعنك في السّرّ؟! لا والله يا جَدّتي». فلمّا أنهيتُ ذلك، نظرتُ في عينَيها، فإذا هي تبكي دون أنْ تقول كلمةً واحدة. ثُمّ قامتْ فغسلتْ وجهها، وعادَتْ إلى المائدة، فبادرتُها: «أنا أعتذر يا جدّتي إنْ كنتُ قد قسوتُ في كلامي، ولكنّ هذه النّفس الّتي نطقتْ بهذه الكلمات هي نِتاجُ تربيتك أنتِ يا حبيبتي». فردّت وهي تمسحُ ما تبقّى من ماءِ الدّموع: «لا يا حبيبي، أنا معكَ في كلّ ما قلت، ولا أريدُ منكَ إلاّ أنْ تكون كما عوّدْتَك، ذا مروءةً وشجاعة وعِزّة لا تُدانَى... ولكنّها الحرب يا بُنيّ.. وإنّ الحرب خُدْعة، فاسمَعْ منّي من أجلِنا معًا». «أسمعُ يا جدّتي». «سنغلقُ أنا وأنتَ الباب على الماضي لأجَلٍ، وسنتركُ الشِّعر إلى حين، أعني قُلْ ما شِئت، واصدرْ عمّا في قلبك، ولكنْ أبقِه بيني وبينك، ولا تُعْلِنْ به. ثُمّ تغتدي فتتقوّى من العِلم، فإنّ الحرفَ الّذي معك ليسَ مع أحدٍ مثلك، ولا بُدّ له حتّى يكونَ على ما نريدُ ونهوى أنْ يُمتّن، وأنتَ تعرفُ كيفَ يكون ذلك. سنعودُ إلى حلقات الدّرس، لغةً وبيانًا، وفلكًا، وطبًّا، وبحورها الأخرى. وإنّني من غدٍ ساعٍ معك إلى هذه الحلقات». فهززتُ رأسي إكرامًا لمودّتها.

ومضيْنا إلى جامع الكوفة، وهو يومئذٍ موئل العُلماء في كلّ فَنّ، وكان مسجدًا عظيمًا، له قُبّتان مُذهّبتان تلمعان تحتَ رأد الضُّحى، وله مئذنتان ضخْمتان، تقوم كلّ واحدةٍ منهما على قاعدةٍ عظيمةٍ، ترتكزُ عليها قاعدةٌ أصغر منها، وترتكز عليها القاعدة الثّالثة الأصغر، وفوق هذه الأخيرة بناء المِئذنة، بقُبّتها الصّغيرة الّتي ينفتحُ محيطها على ستّ

نوافذَ صغيرةٍ تجعل المشهد أكثرَ روعةً، وكلّ قاعدة من الأولى حتّى الثالثة ترتفعُ بما لا يقلّ عن خمسةٍ وعشرين ذراعًا.

فإذا دخلتَ بَهْوَه الفسيح، فستجدُ له أربعة أضلاعٍ، كلّ ضلعٍ فيه ما يقربُ من عشرةِ مداخل وسيعة عالية تنتهي بقوسٍ حجريّ، وبين دَفّتَي كلّ باب ما يقربُ من عشرة أذرع. فإذا جعلتَ هذه الأبواب عن يمينكَ ومضيتُ إلى الدّاخل بضعَة أذرع، إلى حيثُ الأعمدة الرّخامية الملساء ذات التّيجان المُنَمْنَمة، فستجد أنّكَ في رواقٍ يمتدّ طولُه بطول كلّ ضلعٍ من الأضلاع الأربع، وهذا الرّواق يعبرُ منه المُصلّون والتّلاميذ إلى مواضع الصّلاة والدّروس، فإذا صعّدْتَ بصركَ إلى سقف هذا الرّواق، فستجدُه من خَشبٍ صلبٍ أحمر فيه سواد، والخشب مُرتّبٌ بشكلٍ طوليّ عبر مسافة الرّواق، وتقطعه بشكلٍ عَرضيّ جسورٌ يزيدُ عددُها عن عشرين، وعلى هذه الجُسور العرضيّة عُلّقتْ قناديل ضخمة، وسُروجٌ تتدلّى هاويةً في الفراغ، من البلّور الحليبيّ، منقوشٌ فوقَها بخطّ الثّلث آياتٌ من القرآن الكريم.

فإذا خرجْتَ من الرّواق إلى السّاحة الكُبرى، ونظرتُ إلى حوافّ الأضلاع الأربع من الأعلى، فستجدُ أنّه قد زُيّن بآياتٍ شاهِدات على العَظَمة، بخطّ الثّلث المُذهّب، فإذا أردْتَ أنْ تقرأ بعضَ هذه الآيات، فستجدُ قوله تعالى: «وترى الشّمس إذا طلعتْ تَزاوَرُ عن كَهفِهمْ ذاتَ اليَمينِ وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهم ذاتَ الشّمال وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله». فإذا أَتيْتَ هذه السّاحةَ في اللّيل، وعاينْتَ المكان حينَ تُضاء أرجاؤه كلّها وأروقته بالقناديل، وينتشر هذا الضّوء الحنون مُبدِّدًا العَتَمات، فسترى أثرًا آخَرَ من آثار العَظَمة.

اختلفْتُ أوّل الأمر إلى حلقةِ (أبي العبّاس النّاشِئ)، وكان يجلِسُ إلى أسطوانة في المسجد بعدَ العصر، فنقرأ عليه نحو (أبي الأسود الدُّؤلي)، وأدبَ (ابن قُتيبة)، وطرفًا من جمهرة (ابن دُرَيد)، وكان (النّاشِئُ) شاعِرًا، غيرَ أنّه إكرامًا لعمله كتبتُ خلفَه - مثلَ بقيّة مَنْ حضروا مجلسه - شِعرَه، ولم يُعجبْني منه شيءٌ غيرَ بيتَين، رأيتُ أنّهما يصلحان أنْ أقولَهما أو أقولَ مثلهما، وهما:

إِذَا أَنَــا عَاتَبْــتُ المُلُــوكَ فَإِنَّــما
أَخُطُّ بِأَقْلامِــي عَلَى المَــاءِ أَحْرُفَا
وَهَبْهُ ارْعَوَى بَعْــدَ العِتابِ، أَلَمْ يَكُنْ
تَــوَدُّدُهُ طَبْعًــا فَصــارَ تَكَلُّفَا؟!

ثُمّ مضتِ الأيّام والشُّهور، وأنا عندَ رغبةِ جَدّتي، لا أُفارق مسجد الكوفة، ولا أتّصل بغير أهل العِلم والدّرس، ولا أخرجُ مع أحدٍ، ليسَ لي من صديقٍ إلاّ كراريسي وقراطيسي، وليسَ لي من خلوةٍ مع أحدٍ سواهما.

وكانتْ جدّتي دائمة الخوفِ عليّ، كلّما طرقَ طارقٌ الباب طار لُبُّها، وكلّما صدَح طيرٌ على كُوّة في البعيد طاشَ سهمُها، ولا أدري إنْ كان وعيدُ العلويّين هو ما يُقلِقها، فإنّني لا أخافُ غيرَ الله ما دامَ هذا السّيفُ في عاتقي.

ولمّا طال بي المقام، فغبرتْ سنتان على إقامتي في الكوفة دَخَلَني المَلَل، فإنّ حياةً مثلَ هذه لا تُناسبني، فقد وُلِدتُ ثائِرًا، أقلّب رَحْلي في البلاد وسيفي في العباد، غَنِيٌّ عن الأوطان، كافرٌ بالأوثان.

وأفصحتْ لي جدّتي ذات مرّة: «أخافُ أنْ يقتلوك». «لقد عاهدوكِ!». «إنّهم لا عَهْدَ لهم». «فأرحلُ إذًا؟!». «كلاّ.. كلاّ». «أفتريدين منّي البقاء أم الرِّحيل؟». «أخافُ من بقائِكَ أنْ يقتلك، وأخافُ من رحيلكَ أنْ يقتلني!».

(٥)

أنتَ زينُ الشّبابِ

الحياةُ دون ثَورةٍ موت. الوجودُ دون مَرامٍ يثقبُ أفئدة النّجوم عَدَم. كَرُّ الأيّام دون أنْ تُغبّرِ في السَّرايا مَلَل. ماذاً أريدُ من الكوفة بعدُ وماذا تريدُ منّي؟ أَسَمِعْتَها تقول: إنّها وطنُ هذا الشّاعر المُجنِّح؟! كلاَ. أنا لا وطنَ لي. متى يعرفُ البشر أنّ وطني هو حرفي، وأنّ بلادي هي أبياتي، وأنّ هذه الأُكُم والأطُم ليستْ سِوى حجارة، وأنّ هذه العروش ليستْ سِوى وضارة.

لا وطنَ لي، أنا وطني. ولا خليلَ لي، أنا خليلي. ومُذْ ولدَتْني هذه الجنّ كتبَ الله أنّ وطني هو كلّ وطن، وأنّ حياتي هي كلّ حياة. وأنّ وجودي لا يُحصيه حساب، وأنّ عُمري لا يُقاس بالسّنين. وأنّني أنا الصّائح المحكيّ والآخَر الصّدى.

قلتُ لجدّتي: «لا مُقامَ لي هنا». ضيَّقتْ عينَيها، وبدا على وجهها أنّها كانتْ تنتظر أنْ أقول مثل هذه الكلمة وتخافُها أيضًا، فردّتْ: «ولكنْ أين تذهب؟». «إلى حيثُ أَجِدُني». «وماذا تريدُ؟». «أنا أبحثُ في هذا التّرحال يا جدّتي عمّا أريدُ، لو كنتُ أعرفه يقينًا لقلتُه لك، ولكنْ مَنْ يعرفُ ما يريد؟ كلّنا نحن الّذين هبطْنا من عليائِنا لا أحدَ مِنّا يعرفُ ما يريد، لو كان يعرفُ لكان مَلَكًا، أو نبيًّا على الأقلّ، وأنا لستُ

بأحدهما». «يا بُنَيّ رحيلُكَ يقتلني». «ربّما يا جدّتي، ولكنّ بقائي غيرُ آمن، ثُمّ إنّني مللتُ المُكْثَ هنا، لا أفعل شيئًا غير الرّواح والغدوّ إلى جامع الكوفة. إنّ علماءَها لم يعودوا يُضيفون من العلوم إلى ما عندي شيئًا. ألستِ نشّأتِني على ألاّ تفوتني شاردةٌ من علمٍ مُذ كنتُ صغيرًا؟». «بلى يا حبيبي». «فدعيني أرتحلْ أعرفْ ما أريد». ولم تردّ، وصمتْنا معًا لحظاتٍ قبل أنْ تهتف بحماسٍ مَشُوبٍ بتهدُّج: «سأتركك ترتحل إذا أطعْتني وتزوّجت». «أتزوّج؟ كلا. لا رغبةَ لي بالنّساء». «لا تقلْ ذلك، لا يوجدُ رجلٌ لا رغبة له بالنّساء، فكيفَ إذا كانَ فارِسًا مثلك». «أقصدُ أنّني لن أستطيع تحمّل أنْ أرتحل بامرأةٍ معي وأجوبَ بها بِيدًا لا يعرفُ غيرُ الله ما يكتنفها من المخاطر والنّوائب». «ستكونُ رَجُلَها وستحميها، وسيحميكما الله». «لا يا جدّتي. لا». ووقفتُ على قدَمَيّ لأُنهي الجِدال بيننا، غيرَ أنّها رفعتْ في جلستها رأسَها ونظرت إليّ بعينَين يكادُ نورُهما ينطفِئ من وهن، وهمستْ بصوتٍ جريح: «أتريدُني أنْ أموت غاضِبةً منك؟!». «حاشا لله يا جَدّتي». «فلا تخرجْ من الكوفة حتّى تتزوّج». وصمتَتْ مرّة أخرى وازداد صوتُها انجِراحًا، وأردفتْ: «قد أموتُ اليوم قبل غدٍ، لا أريدُ أنْ أموت ولا تكونُ لكَ زوجةٌ تُعينُكَ على الخُطوب». ولم أقلْ بعدَ ذلك كلمةً واحدة.

ثُمّ خرجتُ من الكوفة عام ٣٢٧هـ ومعي زوجتي، ولم تكنْ لتكون امرأةً لي لولا أنّ جدّتي أرادتْ ذلك. بنيتُ بها في ذلك العام، وسِرتُ بأهلي بعدَ أسبوعٍ من ذلك البِناء، ولم أكنْ أشعرْ تُجاهها بأيّ شعورٍ، لا أحبّها ولا أكرهها، لا أُجِلّها ولا أحتقرها. كانتْ مجرّد امرأةً اختارتْها جدّتي لي، ولولا أنّني أردتُ بِرّها لما رضيتُ بها ولا بسِواها زوجة.

اشترتْ لها جدّتي ناقةً قويّة، ولي مثلُها، وأعدّتْ لها هودجًا يسترُها عن عيون النّاس، وجهّزتْ لها جهازها من الثّياب والأردية والخفاف، وزوّدَتْنا بطعامٍ ومالٍ، وبكتْ وهي تُودّعنا، ولمّا غابتْ خلفَ الطّاق شعرتُ أنّني لنْ أراها مرّة أخرى.

ولمّا صِرْنا في ظاهر الكوفة متوجّهين إلى الشّام، إلى حيثُ تُلقي بنا المقادير، حانتْ منّي التفاتةٌ إليها، فرأيتُها شابّة صغيرةً انتُزِعتْ من بين أهلها وأُلقِيتْ بينَ يدَي هذا الغريب، وأوّل عهده بِها أركبَها المفاوز، وألجأها السّفر والمشاقّ. ولم تكنْ لتنظر في وجهه طويلاً حياءً ومهابةً، فرأيتُ أنّني ظلمْتُها بزواجي منها، وشعرتُ أنّ جدّتي أخطأتْ في حَقّنا معًا.

فلمّا صِرْنا في خلاءٍ بدونا كأنّنا دمعتان تنزلقان على خَدّ هذا الثّرى المُترامي، نظرتُ إليها فرأيتُ الخوفَ في عينيَها، فأردتُ أنْ أُطمئِنها: «لا تخافي. أنا معك. كلّ ما في هذه المدى هيّن؛ السّماء، والنّجوم، والجِبال، والوديان، والسّهول، والحُزون، والوحوش، والنّاس... إذا وثقتِ بالّذي خلَقَ كلّ هذا فسيزول عنكَ ما أراه على وجهك». كانتْ تعابير وجهها تتلّون على إيقاع كلماتي، فتخاف وتشهق وتتعجّب وتسكنُ مع كلّ كلمةٍ بحسبِ ما وراءَها. وأردفْتُ: «لقد صرنا صاحِبَين على اضطرار». وابتسمتْ ابتسامة الخجل، ثُمّ همستْ: «أنا خادمتك». فهتفت: «كلا. أنتِ زوجتي، وأنا لا أقبلُ أنْ يخدمني أحدٌ ولو كانَ مَلِكًا. فهوّني عليكِ يا صغيرتي. أنا أحمدُ بن الحسين، وفي الحقيقة أحمدُ بن محمّد، لُقِّبْتُ بالمُتنبّي، وكُنّيتِ بأبي الطّيّب، وأنا رفيقُكِ في هذه الرّحلة

الّتي لا يدري غيرُ الله متى تنتهي، وقد حَمَلَكِ القَبولُ بي على هذه الرّفقة، فدَعِيْنا نمضِ والله الرّاعي». وسكتتْ وأطرقتْ بعدَ أنْ رأيتُ العِشق والفخر في عينيَها.

فلمّا جَنّتْ علينا اللّيلة الأولى، سمعْنا صوتَ وحشٍ في أجمةٍ قد نزلْناها، فارتعبتْ فلم تكنْ قد رأتْ أجمةً من قبلُ ولا سمعتْ بصوتٍ كهذا في حياتها، كان الصّوت يشقّ أجواء الفضاء، ويتتابَعُ عميقًا كأنّه أردام زَلزال، ورأيتُها لّما تكرّر الصّوت تهربُ إليّ، وتغوصُ في صدري، وتدفنُ رأسَها بين كَتِفَيّ، وتهمس: «أنا خائفة..». فحضنتُها، وقبّلتُ جبينَها، ومسحتُ على رأسِها ثُمّ نظرتُ في عينيَها، وهتفتُ: «لا تخافي يا صغيرتي.. لا تخافي.. ها أنذا معك، لن يمسَّكِ سُوء». وسكنَ اضطرابُها، ثُمّ لحقتْ بي نطوفُ في الأرجاء حتّى جمَعْنا حَطَبًا، وأشعلْنا نارًا، ولم يكنْ لي من غايةٍ من النّار سوِى أنْ أُزيل وحشة المكان وبُهمة اللّيل، وأطردَ عنها شيئًا من خوفِها، غيرَ أنّها عمدتْ إلى الطّعام الّذي زَوّدَتْنا به جَدّتي، فأفردتْ منه شيئًا، وأعدّتْه، ووضعتْ في صحفة، وطبخَتْه على النّار، ثُمّ لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى نَضَجَ، فقدّمَتْه إليّ، وهتفتْ: «كُلْ يا سيّدي». فقلت: «لا تقولي سيّدي». فردّتْ بدلالٍ: «كُلْ يا حبيبي»، وسرتْ الكلمة هذه المرّة في جَسَدِي سَرَيانًا غريبًا، وشعرتُ لأوّل مرّة بعاطفةٍ تُجاه هذه الصّغيرة، وبشيءٍ لا يُفسّر من المودّة، ثُمّ إنّها لم تمدّ يدَها قبلي، وانتظرتْ حتّى أبدأ أنا، فلمّا مضغتُ اللُّقمة الأولى شعرتُ من جديدٍ أنّ هذه الصّغيرة الّتي صارتْ قدرًا زوجتي تذوبُ في وِجداني شيئًا فشيئًا. وأكلْنا، وضحكْنا معًا، ولا أذكرُ أنّني ضحكتُ في حياتي من قبلُ، ولا أنّ سرورًا كهذا الّذي أعيشُه معها قد زارني فيما مضى.

ثُمّ أينَ كانتْ هذه الفتاة الصّغيرة الخَجولة الجميلة الطّاهرة النّقيّة الودودة البَشوشةُ الرّائعة النّاعمة الحريريّة النّاهبة... من قبلُ؟ أينَ كانتْ حَقًّا؟ أنا لم أرها إلاّ يومَ بنيتُ بها، أفكانتْ في اللّوح عند الله يومَ ولدَتْني أمّي، أمْ أنّ جدّتي كانتْ تعرفُ أنّ كلّ هذا الجمال واللُّطف سيكون من نصيبي؟ أمْ أنّ ترحّلي في الفلوات وعيشي على السّبخات وأكلي من المَدِرات هو الّذي جمّلَها في عينَيّ، وأنّ حرماني من النّساء كلّ النّساء في كلّ ما انقضى من حياتي جعلني أقعُ في حبّ أوّل امرأةٍ حقيقيّة تنظرُ هذه النّظراتِ الوَدودةِ إليّ؟! أم أنّ قساوة الحياة الّتي مرّتْ جعلتْ رفقتها لي أقلّ قساوةً وأخفّ بلاءً؟! أمْ أنّ الرّجال مهما بلغَ عُنفوانُهم، ومهما اشتطّ استغناؤهم، واعتدّوا بكبريائهم يسقطون في أوّل اختبار مع النّساء؟! أمْ أنّني كنتُ أشقى النّاس لأنّني كنتُ أعيشُ بالنّصفِ من كلّ شيءٍ، فلمّا جاءتْ هذه المَصُونة جلعتْ لكلّ نصفٍ نصفًا، ولكلّ نُقصانٍ كَمالا؟!

ليسَ لديّ الكثيرُ لأقوله عنها. بيدَ أنّني واثِقٌ أنّ حياتي بعدَها غيرَ حياتي قبلَها! وما ذاك؟ أكنتَ تعني أنّ وُجودَها إلى جانِبكَ خَفّف من حِدّة ثَوَرانِك؟ ربّما. أو أنّ التّفكير بحمايتها جعلكَ تتروّى قبل أنْ تُقدِمَ على أيّ فعلٍ يجلبُ لها الخطر؟! ربّما. لم تعدْ وحدَك، ولم يعدْ بوسعِكَ أنْ تركبَ رأسَكَ كما كنتَ تفعل في السّابق؟

غيرَ أنّ هذا الهُدوء الّذي أصابني بعدَ أنْ صارتِ الصّاحبَ بالجَنْب، لم يكنْ دليلَ ضعفٍ ولا تخاذلٍ ولا تراجعٍ عمّا يتهارشُ في فضاء جُمجمتي، ولكنّه سَلكَني في سبيل الحِكمة، وأخَذَني بالتّأنّي والتّرفُّق، وليسَ كالأنثى تُعيدُ ترتيب فوضى الرّجال.

ومضيْنا على ذلك في تلك الدّروبَ شهرَين أو يزيد، نسلكُ إنْ استطعنا طريقَ القوافل، أو نسلكُ الطّريق الّتي أحفظُها في رأسي، فما عالِمٌ بهذه البلاد من البحر إلى البحر أكثرَ منّي. ووصلْنا بعد شهرٍ آخر إلى بلدةٍ تُدعَى (اللاّمس) على شطّ بحر الرّوم من ناحية ثغر (طرسوس)، وكان عليها (عمر بن سليمان الشّرابيّ)، وكان يتولّى الفِداء بين العرب والرّوم، كُنّا نُشاهد أنا وزوجتي سُفُنَ الرُّوم وهي تحطّ على الشّاطئ، والمُسلِمون على البرّ فيجري تبادُل الأسرى هناك، فلمّا خلوتُ بزوجتي في تلك اللّيلة، نظرتُ إلى وجهها فإذا هو بدرُ التّمام، فأخذتُ القرطاس والقلم، فأجريتُ المطلع:

وَلَمّـــا الْتَقَيْنـــا وَالنَّـــوَى وَرَقِيبُنـــا
غَفُـــولانِ عَنّا ظَلْتُ أَبْكِي وَتَبْسِـــمُ
فَلَمْ أَرَ بَدرًا ضاحِـــكًا قَبلَ وَجْهِها
وَلَمْ تَـــرَ قَبـــلي مَيِّتًـــا يَتكَلَّـــمُ

فضحكتْ فبشرْتُها بالخير من عند الأمير. ثُمَّ أتيتُ الأمير بعد أيّامٍ أنا وزوجتي، وقبلَ أنْ أدخل عليه، قالتْ لي: «أنتَ زينُ الشّباب، وفتى الفتيان، وما في الأرضِ من رجلٍ أحرى بالفَخْر منك، فإذا وقفتَ ببابه فلا يرى منكَ ضعفًا ولا تذلُّلاً، واعلمْ أنّ الأمر كلّه لله». وأعجبني منها هذه الثّقة، بعدَ أنْ كانتْ لا تكادُ تقول الكلمة الواحدة في اليوم واليومين؛ الحُبُّ أنطقَ لسانَها، والسَّفر فَصّحَ عباراتِها. فدخلتُ عليه الباب بالنّفس الّتي قالتْ، وذهبتْ هي إلى دار الضّيافة تنتظرُ ما يكونُ من أمري، فقلتُ:

مَحَلُّـــكَ مَقْصُودٌ وَشَـــانِيكَ مُفْحَمُ
وَمِثْلُـــكَ مَفْقُودٌ وَنَيْلُـــكَ خِضْرِمُ
وَزارَكَ بي دونَ المُلـــوكِ تَحَرُّجـــي
إِذا عَـــنَّ بَحْـــرٌ لَمْ يَجُـــزْ لي التَّيَمُّمُ

فأرضَتْه، فأرضاني. فلمّا خرجْتُ من عندي تلقّتْني زوجتي على باب دار الضّيافة، فدفعتُ إليها الجِراب وأنا لم أفتحه بعد، وركبْنا النّوق، فلمّا وصلْنا إلى كِرائِنا، فضّتْ رِباطَ الجِراب، وفتحَتْه فوجدتْ فيه ألفَ دينار، وابتسمَ لنا السَّعْدُ مُذْ ذاك، ولا أدري هل كان لوجودها إلى جانبي علاقةٌ بذلك، أمْ أنّها الأقدار تفعل ما تشاء؟ فإنّني والله قبل أنْ تكونَ معي صُفِعْتُ على وجهي، وجُلِدْتُ على ظهري، وأُلقِيتُ في السّجن، وجُثِّيتُ على النّطع، ومُدتْ عنقي لتُقطَع، ولم أُثَبْ على قصائدي غير الدرّهم والدّرهمين والدّينار والدّينارَين، وأمّا اليوم فقد حلّت البركة في رِكابي بعدَ أنْ صارتْ هذه صاحبةً لي!!

(٦)

شِتاءُ لُبنان

وانتفخَ بطنُها، وثقلتْ حركتُها، وظلّتْ جميلةً أنيسةً في عيني، ولم يمنعها الجنين الّذي في بطنها عن الاهتِمام بي، حتّى كدتُ أشعرُ أنّها تُبالِغ في ذلك وتُحاصِرني بحبّها. وأنا رجلٌ طَوّافٌ جَوّاب. عشتُ حياتي قبلَها وحدي دون أن أحتاجَ أحدًا، ولكنّ وجودَها إلى جانبي خفّف وحدتي، وحمَلَ شيئًا من ثقل الحياة الّتي تنوء بها غاياتي.

وجاء ابنُنا (مُحسّد) عامَ ٣٢٨ هـ، وصَرخَ صرخته الأولى على هذه الأرض الغريبة، وصرخْنا معه، أمّا أُمّه فمن آلام الوَضْع، وأمّا أنا فمن أحلام الفَرَح. واعتنتْ به أُمُّه أيّما اعتِناء، وختنّاه في اليوم السّابع. واستبشرْنا بقدومه الخير، وبدا هذا الّذي كان ورقةً وحيدةً تلعبُ بها رِياح الشّؤم قد صار غُصنًا وجذعًا وساقًا، وصار شجرةً طيّبة مُثمرة، لقد صارتْ لي عائلة.

ثُمّ قالتْ لي: «إذا أردتْ المسير من هذا الشّمال عن هذا البحر، فإلى دمشقَ ونواحيها، فإنّ فيهم ملوكًا لا يزال في عروقهم دَمُ العربيّة». وأعجبني رأيُها، ونزلتُ على ما رأتْ، فشدَدنْا رِحالنا إلى هناك، ودخلنا الفلاةَ بعدَ الماء، ونكّبْنا الشّمال كلّه، وسِرنا في المجاهل إلى الجنوب، وامرأتي صابرةٌ لم يمضِ على ولادتها غيرُ شهرٍ، وابنُنا يوقِظنا من النّوم في اللّيالي المُتعِبة، كأنّه لا يريد لنا إلاّ أنْ نسير. وسِرْنا.

ومرّتْ بنا اللّيلة تِلو اللّيلة، والفلاة تلو الفلاة، فلمّا خلا منّا كلّ شيءٍ، ولم يبقَ في هذي الموامي غيرُنا، وقد ذهبتِ الصّحراء بأنصافِ أجسادِنا، وكادَ الصّغير يهلك من قلّة الزّاد، ومن جفاف ثدي أُمّه، صعدتُ على نَشَزٍ أريدُ أنْ أرى لبحر الرّمال نهاية، فوجدتُ رملاً يتلوه رمل، ونظرتُ إلينا، فقلتُ:

نَحْنُ رَكْــبٌ مِلْجِــنٍّ فِي زَيٍّ نَاسٍ
فَــوْقَ طَــيْرٍ لَهَا شُــخُوصِ الجِمَالِ
مِن بَنَــاتِ الجَدِيلِ تَمْــشِي بِنَا فِي الْـ
ـــبِيْدِ مَــشْيَ الأَيَّــامِ في الآجالِ
كُلُّ هَوْجَــاءَ لِلدَّيَامِيــمِ فِيهــا
أَثَــرُ النَّــارِ فِي سَــلِيطِ الذُّبَــالِ

ولم أُجانِبِ الحقيقة في كلمة، فلقد نَحُلَ جسدُ زوجتي من الولادة، ومن التّعب، واستمرار جَوْبنا الآفاق حتّى صارَ رفيعًا كالذُّبالة قُبيل الانطِفاء، وحدثَ مثلُ هذا للصّبيّ ولي وللنّاقتَين، غيرَ أنّ هذه الرّقيقة الأنيسة كانتْ أشدَّنا تأثُّرًا.

فلمّا نجوْنا من الموت، لقيتُ الأمير (عبد الرحمن بن المُبارك الأنطاكيّ) في بعضِ سفره، فقلتُ القصيدة الّتي أوّلها:

صِلَةُ الهَجْــرِ لِي وَهَجْــرُ الوِصَالِ
نَكَسَــانِي في السُّــقْمِ نُكْسَ الهِلالِ

فَغَدا الجِسْـــمُ ناقِصًا وَالَّـــذِي يَنْـ
ـــــقُصُ مِنْـــهُ يَزِيـــدُ فِي بَلْبـــالِي

وما عنيتُ بالسُّقم إلاّ ما حَلّ بزوجتي الحبيبة، فأفدْنا منه بعضَ المال، فملتُ بالرّكب إلى آسٍ فعرضتُ عليه حال زوجتي، فوصفَ لنا بعضَ الدّواء، فاشتريْناه، ومضينا في طريقنا.

ونظرتُ إلى عينَيْ زوجتي فإذا هما قد ذهبَ نورُهما، وانطفأ بريقُهما، وإذا وجهها شاحبٌ، فسألتُها عن حالها وكيفَ تجد، فهتفتْ بصوتٍ واهنٍ: «أنا مُتعَبةٌ يا أبا مُحسّد». وضَمَمْتُها إليّ، وأخذتُ الماءَ البارِدَ فمسحتُ به جبينَها، أُبرّد به الحرارة، ولم يكنِ الوقتُ صيفًا، بل كان شِتاء، غيرَ أنّها كانتْ تذوي أمامي كما يذوي الغُصنُ انقطَع عنه الماء. ومكثتُ في المُقام لا أبرحه، حتّى تبلّ زوجتي من مرضها، وابنُنا إلى جانِبها يثغو من الجوع، وهي لا تكادُ تجدُ في ضرعها لبنًا، حتّى فكّرنا أنْ نجدَ له مُرضِعة. وفِعلاً دفعْناه إلى مُرضِعةٍ من بنات الشّام، وكُنّا نُرسِلُه لها في الصّباح كلّ يومٍ ونعود به مساءً طَوال شهرين لِقاء بعضِ المال، حتّى اخضوضر عُودُه، وعادتْ له بعضُ عافيته.

وهربْنا من الشّتاء إلى (لبنان)، وما كُنّا ندري أنّ الشّتاء سيكون أشدّ قسوةً هناك. وقطعْنا الدُّروب المُلتوية، وصعدْنا النُّجود الوَعِرة، وعَرَضَ لنا جبلٌ لا يقطعه الرّجال الأشدّاء، ولا الجِمال المُدرّبة، فكيفَ ومعي هذا الصّبيّ الصّغير وهذه الفتاة اللّيّنة، وناقتانا هزيلتان، وكادتْ تهلك هذه المرّة، وأنزلتُها في ليلةٍ باردةٍ من هودِجها، وحملْتُها بينَ ذِراعَيّ، فمضيتُ بها أتّقي الزّمهرير إلى كهفٍ في ذلك الجبل، وجمعتُ شيئًا من

الحطب، وكان قد أصابَ أكثره البَلَل، وجهدتُ حتّى أُشعِلَ النّار وأُدفِّئ بها صغيرَيّ المسكينَين، ثُمّ غطّيتُها وقد ازرقّ وجهها، وانخطفَ لونُها، وصغيرُها يبكي!

ولمْ يكنْ أمامي إلاّ أنْ أهربَ بهما إلى الأمام، وأنْ أقطَع ما تبقّى من هذه الجبال القاتِلة إلى (أبي عليّ الأوراجيّ)، وسآتيه خِلوًا من كلّ شيءٍ إلاّ الأمل، وما أدري إنْ كنتُ سأسعدُ في جِواره أمْ لا؟ غيرَ أنّ البقَاء هنا دون الإسراع إلى دوحته سيكون موتًا مُحتَّما.

واحتملتُ زوجتي إلى هودجها، وأضجعتُ الصّغير إلى جانبها، وشددتُ على ناقتي، ومضينا نهربُ من الموت، ونأمل بالحياة عندَ الأمير. فما وصلْنا إليه إلاّ وأرواحنا قد كادتْ تسيل من بين أصابعنا، فلمّا أُذِنَ لي بالدّخول عليه، هتفتُ بقصيدتي الّتي أوّلها:

أَمِنَ ازْدَيــــارَكِ في الدُّجــــى الرُّقَبَاءُ
إِذْ حَيْــــثُ أَنْتِ مِنَ الظَّــــلامِ ضِياءُ

هَشَّ وبَشّ، فلمّا وصلتُ إلى قولي:

أَنا صَخْرَةُ الــــوادي إِذَا ما زُوحِمَتْ
وَإِذا نَطَقْــــتُ فَإِنَّنــــي الجَــــوْزاءُ
وَإِذا خَفِيــــتُ عَــــلى الغَبِــــيِّ فَعاذِرٌ
أَنْ لا تَــــرَاني مُقْلَــــةٌ عَمْيَــــاءُ

قال بعضُ جلسائه: «ما ينبغي أنْ تقول هذا في حضرة الأمير».
فرفعَ يده، وقال: «لا تُقاطِعوه، إنّه لاقَى من العَنَت ما يجعله يقول مقالته هذه، ولو كان أحدُنا مكانه لتمنّى أنْ يقول كما قال، ولكنْ أنّى له ذلك».
وأشار أنْ أُتِمّ، فقلت:

بَيْنِـــي وَبَـــيْنَ أَبي عَـــلِيٍّ مِثلُـــهُ
شُـــمُّ الجِبَـــالِ وَمِثْلُهُـــنَّ رَجَـــاءُ
وَعُقَابُ لُبْنَـــانٍ وَكَيْـــفَ بِقَطْعِها
وَهُـــوَ الشِّـــتاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِـــتاءُ
لَبَسَ الثُّلُـــوجُ بِها عَلَيَّ مَسَـــالِكي
فَكَأَنَّهَـــا بِبَياضِهـــا سَـــــوْداءُ

فقامَ من موضعه، واعتنقني، وقال: «نَجوتَ من كلّ سوء».
فأقامَنا في قصره في أحسنِ موضع، وبعثَ لنا جاريةً تعتني بزوجتي، وتطبخ لها، وتسقيها الدّواء، وتأتيها بما تشتهي وترغب، حتّى أبلّتْ من المرض، وعادتْ لها عافيتُها، ودَرّ ضرعها، فعادتْ بذلك عافيةُ الصّغير، وبقيتُ في جِوار أبي عليّ زمنًا ليس بالقصير، فأجممتُ من مشقّة سفري أنا وعائلتي، ودخل الرّبيع بعدَ الشّتاء ونحن في هذه الرّبوع، فرأينا من الجَمال أبدعه، وقوي عودُ زوجتي، وأَنِسَت بنساءِ القصر وجواريه.

وبقينا في نعمة أبي عليٍّ إلى الصّيف، فكنتُ أخرجُ معه إلى الصّيد والطَّرْد، وكان يُحِبّ مجالستي والحديثَ إلَيّ، فأوغر ذلك صدور مَنْ حوله، وعدُّوا استِئثارَه بمُنادمتي خَطَرًا عليهم، فراحوا يكيدون على عادتهم المكائد لي، ويُوغِرون صدر الأمير نحوي، ويكذبون عليَّ عنده،

ولا أحسبُ أنّه تغيّر، غير أنّ استمراء الأكاذيب قد يصنع منها وقودًا للعداوة.

وطَرَدَ الأمير صيدًا مرّةً وأنا معه، ومعنا عددٌ غيرُ قليل، فأطلقَ كلبًا في غِياضٍ تقطرُ ندًى، فأتى الطّرد فصاده، فطلبَ منّي أنْ أقول في ما رأيتُ، فقال أحدُهم: «إنّه لا يُحسن أنْ يقول أيّها الأمير، حتّى يجلسَ إلى دُرجٍ في غرفةٍ وثيرةٍ من قصرك، وأمامه الشّراب، أمّا هنا في هذه الغابة فلا يُحسِنُ شيئًا». فضحك الأمير، فارتجلتُ من فوري أرجوزةً من ستّة وخمسين شطرًا، كلّ شطرٍ يوقفُ أنفاسَ الحاسدين من الغيظ لدقّة الوصف وسعة المُعجم، فمن ذلك:

وَمَنْـــزِلٍ لَيْـــسَ لَنـــا بِمَنْـــزِلِ
وَلا لِغَـــيْرِ الغَادِيـــاتِ الهُطَّـــلِ
نَـــدِي الخُزَامَـــى ذَفِـــرِ القَرَنْفُلِ
مُحَلَّـــلٍ مِلْوَحْـــشِ لَمْ يُحَلَّـــلِ

وَرَقصَ لها قلبُ الأمير طربًا من إيقاعها الرّاجز، ورقصَ قلبُ الحاسدين غيظًا من جَمالِها الأخّاذ، فلمّا أنهيتُها بقولي:

إِذا بَقيـــتَ ســـالِمًا أَبـــا عَـــلِي
فَالمُلْـــكُ للهِ العَزِيـــزِ ثُـــمَّ لِي

هتفَ أحدُهم كأنّما وقع على ما يُحنِقُ به قلبَ الأمير، فقال: «إنّه يدعو على مُلكِكَ بالزّوال أيّها الأمير، ويضعُ نفسَه مكانَك». ولم تُعجِب الأميرُ القفلة، ولا أعجبه كذلك تعقيبُ هذا الحاسد المَغِيظ.

وعرفتُ أنّ القلبَ إذا ألقَى فيه أهلُ الحسدِ ظُلمةَ القولِ أنكرَ ما كان فيه من سرور، وأيقنْتُ أنّ عهد المودّة الّتي كنتُ أحظَى بها هنا قد وَلّى، فشكرتُ الأمير على ما أولاني، ومضيتُ بعائلتي وقد اشتدّ عودُ ابني وكبر، وصحّتْ زوجتي وقويت، إلى (فلسطين)، وقيل إنّ فيها أميرًا عربيًّا على (طبريّة) هو أهلٌ لما تُؤمّل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٧)

لا افْتِخارٌ إلاّ لِمَن لا يُضامُ

صارَ لي صوتٌ، صوتٌ مسموع. بدأتْ حروفي تصعدُ إلى السّماء، فمن كان ذا قلبٍ بصيرٍ هطلتْ عليه صيّبًا طيّبًا نافِعًا خصيبًا، ومن كان ذا قلبٍ حقودٍ كنودٍ هطلتْ عليه حجارةً من سجّيلٍ منضود. وكَثُر الحاسِدون وقَلّ الشّاكِرون.

وهبطتُ إلى (طبريّة) حيثُ الأمير (بدر بن عمّار)، فلمّا أتيتُه استخبرني، فوجدني فارِسًا مُغيرًا، وشاعرًا فريدًا، فقرّبني، ثُمّ لقينا أنا وأهلي عنده ما لقينا عند الأوراجيّ، ولكنّي خشيتُ على نفسي من الحُسّاد ما خشيتُ من قبل.

غيرَ أنّ النِّعمة تُنسي ما كان من جِراح. وكان بدرُ مهيبًا، طُوالاً، عريضَ المنكبين، كبير الوجه، أقنى الأنف، مُخيفَ الحَدَقات، غليظَ الشّفتَين، وكان - مثلَ كثيرٍ من أمراء ذلك الزّمان - يُغير على ما يلي ولايته من المُدُنِ ليضمّها إليه، وهكذا كان كُلُّ كلبٍ منهم يتهارشُ مع الكلب الّذي في جِواره حتّى تمزّقتِ الخلافة إلى دولٍ وَضِيعةٍ، وإلى دُويلاتٍ مُتناحِرة، عليها قرودٌ تحكم، ونِساءٌ ترسم.

وضَمّ إلى (طبريّة) بعدَ قدومي إليه بقليلٍ بعضَ مُدُن السّاحل، فقلتُ أهنِّئه:

تُهَنَّا بِصُورٍ أَمْ نُهَنِّئُها بِكَا
وَقَلَّ الَّذِي صُورٌ وَأَنْتَ لَهُ لَكَا
وَما صَغُرَ الأُرْدُنُّ وَالسَّاحِلُ الَّذي
حُبِيْتَ بِهِ إِلّا إِلى جَنْبِ قَدْرِكا
تَحاسَدَتِ البُلْدانُ حَتّى لَوَ انَّهَا
نُفُوسٌ لَسارَ الشَّرْقُ وَالغَرْبُ نَحْوَكا
وَأَصْبَحَ مِصرٌ لا تَكُونُ أَمِيرَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ ذُو مُقْلَةٍ وَفَمٍ بَكَى

فلمّا سَمِعَتْها منّي زوجتي، قالتْ لي: «ماذا تريد؟». فنكرتُ السُّؤال، وقلت: «عفوًا». «ماذا تبتغي من وراءِ كلّ ذلك؟! لقد جَشّمْتَنا كلّ صعب، وألقيتَ بنا في كلّ مهلكة، ثُمّ ماذا، تأتي لتنافق هذا الطّاغية؟!». وفاجأني قولُها الّذي لم أعتدْه، وحيّرني سؤالها، ودخلني الغضبُ منها، فصرخت: «وماذا تعرفين مِمّا أريدُ أيّتها الصغيرة؟! بل ماذا تعرفين عنّي أيّتها الجاهلة؟!». غير أنّها لم تسكتْ، وتعجّبْتُ من جرأتها وهي تقول: «أنتَ أعلى من أنْ تنافق من أجل لُعاعة». «لُعاعة؟ هذه اللُّعاعة هي الّتي أبقتْنا أحياء إلى اليوم». «لا أريدُ أنْ أعيشَ إنّ كانتْ هي سببَ حياتنا». ثُمّ انسحبْتُ إلى الوراء قليلاً، وجلستُ أفكّر في أنّني أسمعُ هذه الكلمات من زوجتي حَقًّا، وهدأتْ هِيَ، ثُمّ جثتْ عندَ قَدَمَيّ، وقالتْ بيأس: «اغفرْ لي يا سيّدي، قد تعبتُ من التّرحال معك، وأردتُ أنْ أقول ما

يختلجُ في خاطري فخانني القول، إنّ هذا الرّحيل المُستمرّ يذبحني، انظرْ إلى صغيرنا، إنّه كَبُر فوقَ ظهور النّياق، لم يعرفْ حياةً هادِئة هانِئة، أنا أريدُ فقط أنْ أعيشَ بهدوء». ثُمّ ألقتْ برأسِها على فَخذي، وأجهشتْ بالبُكاء.

وقضيتُ ذلك اليومَ مُحتارًا، هذه المرأة ستحُدّ من طموحي، وستعوقني عن السَّيْر، لم يكنِ الزّواج ولا هي غايتي يومًا، ولم أفكّر في الإنجاب منها أو من سِواها، كنتُ فقط أريدُ أنْ أعيشَ حياتي بلا عائلةٍ تُبطِّئ ركضي إلى ما أريد. ولكنّها مُحِقّةٌ أيضًا، ما ذنبُها لتعيشَ هذه الحياة المُضطرِبة المُتأرجِحة معي؟! إنّها لا تريدُ أكثر مِمّا تريدُ أيّة امرأة؛ الاستقرار. ولكنْ ألمْ تكنْ تعرف أنّ حياتي لا استقرار فيها ألبتّة؟ شَقِيّان نحن يا زوجتي معًا، أنتِ بي، وأنا بما أريد، ولكنْ ماذا يملكُ أحدُنا للآخر؟ لا شيءَ سِوى أنْ يُلقِي كلٌّ مِنّا نفسَه في عوالِمِ قَرِينِه.

ثُمّ دعانا الأمير إليه مُحتفِلاً بِضمّ السّاحل إليه، فعرفتُ في مجلسه (علي بن أحمد المُرّي) أمير (جَرَش) و(عجلون)، فلمّا خَلَونا تصادَقْنا، وعرفَ لي قَدْري، وقال لي: «إذا أردْتَ أنْ تزورنا في جرش، فنحنُ وأهلُها وآثارُها وعُيونُها وجِنانُها نرحّب بك».

وخرجْنا إلى صيدٍ في يوم صائف. فوجدْنا في طريقنا بقرةً مقتولةً، قد بُقِرَ بطنُها، فقال بدر بن عمّار: « لقد مَرّ بها أسَدٌ فأكلَها، وإنّه لَمُثقَلٌ، وهو في الجِوار» ، فأصابتِ الرّهبةُ القوم، وهتفتُ: «إنْ ظهر فأنا أكفيكَ إيّاه، فقد صِحبْتُه في الفلوات ولقيتُه في الفراديس». فضَحِكَ، وهتف: «وتجرُؤ على أنْ تتقدّم بشجاعتك على الأمير». ثُمّ إنّه لم يكدْ يُتِمَّ تهكّمه

حتّى برز الأسد بغتةً، فوثبَ على كفل الفرس الّتي يركبها الأمير، فكادَ يلتقمه، ولم يستطع أنْ يسلّ السّيف من قِرابه، فعاجَله بالسّوط الّذي في يده فأرجأه قليلاً، ثُمّ هجمَ عليه الجيشُ الّذي معنا فخلّصه منه. فكنتُ أنظر إلى الأمير وأنا أضحكُ في أعماقي، فهؤلاء من أصحاب البِطنة لا يعرفون كيفَ يقاتِلون الأُسُود، ومضينا إلى نهر الأردنّ فشوَيْنا ما كان معنا من الصّيد على ضِفافه، وتروّحْنا نسائِمه. فلمّا عُدْنا من رحلة الصّيد تلك، ودارتْ كؤوس الشّراب على القوم، قال لي الأمير: «ألا تشربُ يا أبا الطّيّب؟». «فلْيعذرني سيّدي، أنا يُزعجني قَرْعُ الكؤوس». فضَحِكَ، ونَكِرَ عليّ ذلك وزيرُهُ الأعور الّذي في مجلسه، وكان يُدعى (ابن كَرَوّس)، فقال: «أيدعوكَ الأمير إلى منادمته وتأبى؟! أُفٍّ لك!!». فتجاهلْتُه، فإنّه أحمق، وأعور، وقذر. وأنا تجاهلْتُ مَنْ هو أعظم منه. ثُمّ قال الأمير: «ألا تقولُ شيئًا في ما رأيتَ اليوم؟!». فصمتُّ، وتذكّرتُ قولَ زوجتي، وعرفتُ صِدْقَه، وأنّها لا تريد أنْ أتوسّل بهؤلاء الأمراء إلى غايتي، ولكنّهم ليسوا غايتي، إنّهم الجسر الّذي أخطو فوقه من ضِفّة إلى ضِفّة. فلمّا أبطأتُ في الإجابة، تدخّل الأعور، فقال: «يا سيّدي إنّه لا يصلُحُ للشّعر لا على البديهة ولا على النَّظْم، وإنّ في بلاطِكَ شعراءَ يُحسِنون القول خيرًا من هذا المُتشاعِر». وقبضتُ على قائِم سيفي، وتخيّلتُ نفسي أُشهِرُ السّيف، وأُطيح بعنقِه دفعةً واحدة، وتذكّرتُ زوجتي وابني، وقَيّدَني حُبُّها عن أنْ أفعل، فكتمتُ غيظي، وهتفتُ والوزير الأعور ينظر إليّ شامِتًا: «أكتبُ يا سيّدي، أكتبُ إنْ شاء الله».
وخرجتُ وأنا أنهبُ الأرضَ غضبًا.

فلمّا دخلتُ إلى زوجتي، خلعتُ العِمامةَ ورميتُها، وعلّقتُ السّيف حانِقًا، وتخفّفتُ عَجِلاً من الجُبّة، وسألتُ: «ما أخبار مُحسّد؟». وعرفتْ زوجتي ذلك منّي، وأنّني أُداري حنقي بالسّؤال الّذي لا أعنيه، فاقتربتْ منّي واعتنقَتْني، وألقتْ برأسِها على صدري، وهمستْ: «ستقتلُ نفسَك». ولم أعقّبْ على ما قالتْ، وكان صدري يعلو ويهبط، ثُمّ أردفتْ: «لن ينتهي حاسِدُوكَ يا حبيبي، إنّهم يعرفون قَدْرَكَ ولذلك يحسدونك، فإذا اشتدّ الحسدُ والغيظُ فاعلمْ أنّ شِعْرَكَ العظيم هو السّبب، أنتَ عبقريّ يا حبيبي، وأنا أرى غَدَك، سيكثرُ حاسِدوك ولن يهنأ لهم بالٌ إلاّ بالتّخلّص منك، وستعلو رغمَ ذلك فوقهم حتّى لا تجدَ فوقَ نفسَكَ من مزيد». وهدأتُ بالفِعل، كانتْ كلماتُها تعنيني تمامًا، كان كلّ حرفٍ يضجّ بالصّدق والوهج والدّفء.

وسهرتُ اللّيلة أُنمّق القصيدة، وهي تبتسم، لعلّها تخلّتْ عن مطالبها بالاستقرار! هل تتخلّى الأنثى عن ذلك؟ مُحال! فماذا أفعل لها؟! أنا أُحبّها ولكنّني أحبّ نفسي وغايتي أكثرَ من أيّ كائنٍ. سأفعل ما تقوله لي هذه النّفسُ العظيمةُ الّتي تنطوي عليها جوانحي، ورأيتُها تبتسم وكأنّها سمعتْ ما دار في خاطري.

فلمّا غدونا إلى مجلسِ الأمير، رَكَعَ النّاس كلّهم بين يديه ولم أركع، جَثَوا ولم أَجْثُ، وتخيّلتُهم في جُثُوّهم شِياهًا تمدّ رأسَها للجزّار كي يجُزّها، وأنِفتُ هذه الشّياه الثّاغية، وشددتُ صدري ورفعتُ رأسي، فلمّا قاموا من ركوعهم، أنشدْتُه القصيدة الّتي تذوب لروعتها قلوب الحُسّاد كمدًا:

فِي الخَــدِّ أَنْ عَزَمَ الخَلِيــطُ رَحِيلا
مَطَــرٌ تَزِيــدُ بِــهِ الخُــدُودُ مُحُولا

فأصغَى البيتُ إليه الأعناقَ، فمن مائلٍ طربًا ومن مائلٍ غيظًا. ومضيتُ على ما في القصيدة من غزلٍ ووصفٍ وحِكمة، حتّى وصلتُ إلى القول:

أَمُعَفِّــرَ اللَّيْــثِ الهِزَبْرِ بِسَــوْطِهِ
لِمَنِ ادَّخَــرْتَ الصَّــارِمَ المَصْقُولا

فقال الأمير: «لأمثالك مِمّن يسرقون القلوب بسِحر بيانهم». فقلت:

وَقَعَــتْ عَــلَى الأُرْدُنِّ مِنْــهُ بَلِيَّةٌ
نُضِــدَتْ بِها هــامُ الرِّفــاقِ تُلُولا
وَرْدٌ إِذا وَرَدَ البُحَــيْرَةَ شــارِبًا
وَرَدَ الفُــراتَ زَئِــيرُهُ وَالنِّيــلا

فما أتمَمْتُها حتّى طاشَ لها عقلُ كلّ ذي ضغينةٍ من أصحاب المجلس، وكان أشدّهم على ذاك، الأعور، فلمّا لمْ يجدْ ما ينفذُ إليّ فيه من جهة القصيدة، سعى بالوِشاية والافتراء، فقال إنّني أخلو بجواري القصر، وأتحسّسُ خُدُورهن، وأتلصّصُ على مناماتهنّ، وأُحادِثهنّ بغِيبة، وأنّني أغمزُ أعكان النّساء... وما علموا أنّني ما أولِعتُ بشيءٍ مثل أنْ أغمزَ القَنا فما لي وللنّساء؟! ثُمّ إنّه بعثَ من جواري القصر إلى زوجتي من تقول لها مثل هذا الكذب حتّى كادتْ تُصدّقه، والنّساء يُصدّقن

في أخبار النّساء هذه كلّ لامّة وهامّة، ويذهبُ بهنّ الخَيالُ إلى اجتراح غيرِ موجود، وكادت الوِشايةُ تهدم ما بيني وبينها بالفِعل، وفكّرتُ في أنْ أتلثّمَ وأقتحم عليه بيتَه، فأصرعه بيدَيّ، لأنّه لا يستحقّ أنْ يُصرَع بالسّيف، ولكنّني عدلتُ حتّى لا يُقال إنّه لم يرْعَ حُرمة الأمير، ولكنّه لم يتوقّفْ عن السّعاية والكذب عليّ، ووصل الأمر إلى بدر، فقلبَ عليه قلبه، وأيقنْتُ أنّني سأصحو ذاتَ يومٍ على مَنْ يقتحمُ عليّ بابي ليقودني إلى السّجن بتهمة الخروج على وليّ الأمر، فغضبْتُ وفرّغتُ غضبي في قصيدةٍ عرّضتُ فيها بابن كروّس وَمن معه:

أَرى المُتَشَـــاعِرِينَ غَـــرُوا بِذَمّـــي
وَمَـــنْ ذَا يَحْمَـــدُ الـــدَّاءَ العُضَالا

وَمَـــنْ يَـــكُ ذَا فَـــمٍ مُـــرٍّ مَرِيضٍ
يَجِـــدْ مُـــرًّا بِـــهِ المَـــاءَ الـــزُّلالا

ثُمّ لم يكنْ لبدر بن عمّار أذُنٌ تسمع لي مثلما تسمع للجوقة الفارغة الّتي عنده، فصرختُ في أُذُنِه من جديدٍ، بقولي عن هؤلاء الشّرذمة:

فَاغْفِـرْ فِدًى لَـكَ وَاحْبُنِي مِـنْ بَعدِها
لِتَخُصَّنـــي بِعَطِيَّـــةٍ مِنْهـــا أَنـــا

وَانْـــهَ المُشِـــيرَ عَلَيْـــكَ فِيَّ بِضَلَّةٍ
فَالحُـــرُّ مُمْتَحِـــنٌ بِـــأَوْلادِ الزِّنَـــا

وَإِذَا الفَتَـــى طَرَحَ الـــكَلامَ مُعَرِّضًا
في مَجْلِسٍ أَخَـــذَ الـــكَلامَ اللَّذْعَنَا

وَمَكايِـــدُ السُّـــفَهاءِ واقِعَـــةٌ بِهِمْ
وَعَدَاوَةُ الشُّـــعَراءِ بِئْـــسَ المُقْتَنى

فما سَمِع، وأثّرتْ فيه مكائدُ السّفهاء، ولم يجبُني إلاّ بالإعراض والتّجاهل، وأنا لا يتجاهلني أحدٌ مهما علتْ مرتبتُه، فحدّثْتُ زوجتي، فأشارتْ عليّ بالرحيل، فحمدتُ الله أنّها هي الّتي دعَتْني إليه هذه المرّة، إنّ الرّحيل قدري يا حبيبتي.

وفكّرْتُ في وجهتي، فتذكّرت ما قاله حاكمُ (جرش)، فهويتُ إليه من (طبريّة)، فقطعْنا ما قطَعْنا من الأُكُم، وهبّتْ علينا الرّايح السّوافي فكادَتْ تعمى لها أبصار الصّغير الغَضّ، وأعرفُ يا زوجتي أنّني:

أَوانًـــا فِي بُيُـــوتِ البَـــدْوِ رَحْـــلِي
وَآوِنَـــةً عَـــلَى قَتَـــدِ البَعِـــيرِ
أُعَرِّضُ لِلرِّمـــاحِ الصُّـــمِّ نَحْرِي
وَأَنْصِـــبُ حُـــرَّ وَجْهِـــي لِلْهَجيرِ

غـيرَ أنّ غايتـي تُعذّبنـي، ولـو وجدْتُها لهـدأتُ على النّحـو الّذي تريديـن، ولجعلتُـكِ ملكـةً في مُلْـكٍ لم تحظَ بـه بلقيسُ في زمانهـا. غير أنّـه الحَـظّ، وقالـوا إنّ الأقـدار تأتي بـه، ولا أرى مَـنْ يأتي به خـيرًا من الهِمّة والسّـيف.

وقبلَ أنْ أرحل بأهلي في ذلك اليوم المشؤوم انتزعتُ أبياتًا في رُقعةٍ، وطلبْتُ من أحدِ خدمِ القصر أنْ يُسلِّمَها (ابنَ كروّسٍ) هديّةً منّي

على ما كان بيننا، فيها أقول:

فَلَــوْ أَنّي حُسِــدْتُ عَــلى نَفِيسٍ
لَجُدْتَ بِــهِ لِــذِي الجَــدِّ العَثُورِ

وَلَكِنِّــي حُسِــدْتُ عَــلى حَياتي
وَمَــا خَــيْرُ الحَيــاةِ بِــلا سُرُورِ

فَيَا ابْــنَ كَرَوَّسٍ يا نِصْــفَ أَعْمَى
وَإِنْ تَفخَــرْ فَيَــا نِصْــفَ البَصِيرِ

تُعَادِينــا لِأَنّــا غَــيْرُ لُكْــنٍ
وَتُبْغِضُنــا لِأَنّــا غَــيْرُ عُــورِ

ومشيْنا بالإبل أنا وزوجتي و(مُحسَّد) الّذي كَبُر حتّى صارَ يحكي حِذاءَ نهر الأردنّ، وجَهِدْنا ألاّ يغيبَ الماء عن أنظارِنا حتّى لا نهلك، ثُمّ اضطررنا أنْ نصعد الجبال ونهبط الوديان حتّى نصل إلى (جرش) عند (علي بن أحمد المُرّي)، فلمّا ألقَيْنا فيها رِحالَنا، رَحّب بنا صاحبُها على أحسن ما يكون التّرحيب، ونزلْنا في ضيافته أسبوعًا، ثُمّ لَحِقَتْنا عداوة (ابن كروّس) هذا، فإنّ الأبيات طعنتْه في رُوحِه، فصَمّم أنْ ينتقمَ منّي، وما يدري أنّه ذبابةٌ لا تحتاجُ منّي أكثر مِنْ مِذَبّة، وعلمتُ من أحدِ جنود المُريّ، أنّه أرسلَ من (طبريّة) مَنْ يقتلني، فأصبحتُ، فأنشدتُ المُرّي، القصيدة الّتي أوّلها:

لا افْتِخــارٌ إِلاّ لِمَــن لا يُضَــامُ
مُــدْرِكٍ أَو مُحــارِبٍ لا يَنَــامُ

فلمّا أتممْتُها جزاني عليها ما يكفيني ما نويتُ عليه. فلمّا دخلتُ على زوجتي، قلت لها: «إنّنا مُرتِلحون اللّيلة». «اللّيلة؟». «اللّيلة، وإلاّ فإنّ رُسُلَ الموتِ بانتظارنا». «ومتى لم يكونوا بانتِظارك؟!». وعرفتُ أنّها نغمة التّأفُّف، لكنّ زوجتي لا تُقدّر ما أنا فيه من المخاطر، ولا تُدرِكُ أنّني بهذا أحميها وأحمي ابنَنا، فأردفتُ بصوتٍ فيه غِلظة: «قلتُ لكِ جهّزي ما يُعيننا على الرّحيل اللّيلة، بعدَ أنْ يأوي النّاس إلى فُرُشِهم، إذا طلَعَ الصّباحُ علينا هنا، فلن يبقى أحدٌ منّا حَيًّا».

وتركتُ للأمير عندِ رأسي رقعةً، أعتذرُ لها فيها لمسيري عنه دون أنْ أُعلِمَه حتّى لا يفشو خبري قبل أنْ آمنَ على عائلتي، قلتُ فيها:

لا تُنكِــرَنَّ رَحِيلِي عَنْــكَ في عَجَلٍ
فَإِنَّنــي لِرَحِيــلي غَــيْرُ مُخْتــارِ
وَرُبَّــما فــارَقَ الإِنْســانُ مُهجَتَهُ
يَــوْمَ الوَغَى غيْرَ قَالٍ خَشْــيَةَ العَارِ
وَقَــدْ مُنِيْــتُ بِحُسَّــادٍ أُحارِبُهُمْ
فَاجْعَـلْ نَداكَ عَلَيهِـم بَعْضَ أَنْصَارِي

ومضتْ بنا النّوقُ تضربُ في الأرض لا تدري ولا ندري إلى أين، فقلتُ في نفسي دون أنْ أخبرَ زوجتي،: «أضربُ وجه هذه الإبل إلى أبعدِ مكانٍ عن الأردنّ، إلى أقصى شمال الشّام، أعودُ إلى (أنطاكيّة) فلعلّني أجدُ فيها عونًا على المُهلِكات»، واستسلمتْ زوجتي لِما أنا فيه من القلق والاضطراب والرّحيل الدّائم، وبدَّلتْ حُنقَها على حياتي وما أُسبِّبُه لها من عَنَتٍ بحنانٍ عجيب، وفرّغتْ حياتَها لي ولُمحسَّد، فكانتْ تقسِمُ أحزاننا نصفَين، وتأخذ الحُزنَ كلّه.

(٨)

لَنْ تَدخُلَ الكُوفةَ إلاّ مَقطُوعَ الرّأسِ؟

ومِلْنا إلى (دمشق)، لنلقِي رِحالَنا قليلاً من سفرٍ طويل، وغايةٍ بعيدة، فما عتمتْ لنا فيها عشرةُ أيّام نستريحُ أنا وعائلتي من وعثاء السّفر، حتّى هاجَمَتْنا كآبةُ المنظر، فإنّ الإخشيديّين منذُ جمادَى الأولى من عام ٣٣٣هـ بقيادة عبدٍ أسودَ جاءَ من الحبشة يُشرَى ويُباع، هو اليوم على رأسِ هذا الجيش، يُقاتِلُ شابًّا يُدعَى (عليّ بن حمدان)، ويُلقّب بـ (سيف الدّولة)، واستحرّ القِتال بينهم طَوال ثلاثة أشهرٍ حتّى تغلّب العبد على سيف الدّولة، وطرَدَه منها، فولّى بأتباعه إلى حلب.

وكرهتْ زوجتي - لمّا رأتِ الحربَ - كلّ يومٍ عاشتْه معي، وندمتْ على قبولها بي زوجًا، غيرَ أنّها تفطّنَتْ أنّه لم يكنْ لها ولا لي في هذا الأمر خيار أو قرار. أمّا كُرهها حياتي فأتفهّم ذلك، وأمّا كرهها إيّاي فعند القلب إجابة، وإنّما بَغّضَ إليها العيش ما رأتْ من تَطايُرِ الرُّؤوس، وتَدحرُجِ الهامات، وإراقة الدّماء، واستيلاء الرّعاع على كلّ شيءٍ، ولقد رأتْ أثناء قِتال الإخشيديّين للحمدانيّين الأسواق تُنهَب، والقمحَ يُحمَل في العربات الّتي يقودُها اللّصوص، ودكاكين المُؤن تُهدّم على رؤوس أصحابِها.

وقالتْ بعدَ أنْ أفزَعها لون الدّماء الّذي صَبَغ الحواري حتّى عتبة دارِنا الّتي اكتريناها هنا: «لن أبقَى هنا أكثرَ من ذلك؟». «ها أنتِ تدعيننا للرّحيل لا أنا!». «إنّ الاقتران بمثلك يدعو إلى الموت، فلو كان رحيلُنا هروبًا، فإنّه لن يكوَ أكثرَ من تأجيلٍ للموتِ المُحتَّم». وبكتْ. فأوحتْ لي عبارتُها الحكيمة بالبيت الّذي أقول فيه:

وَإِنَّ رَحِيــــلاً وَاحِــــدًا حَـــالَ بَيْنَنَا

وفِي المَوْتِ مِنْ بَعْـــدِ الرَّحِيلِ رَحِيلُ

فأخذتُها بين ذراعَيّ، وحاولتُ تهدئتها، وفيما نحنُ كذلك، عثرَ (مُحسّد) الصّغير بدرجِ الكُعوب، فسقطَ على وجه فأخذ الدّمُ يسيل من أنفه وفمه، فراحتْ هي تضربُ بعصبيّة بكلتا ذراعَيها على صدري: «لن أبقى في هذه المدينة المشؤومة يومًا آخر». وأمسكتُها بقوّة، وحضنتُها وهي تنشجُ، حتّى هدأتْ قليلاً، ثُمّ مَسَحْنا ما سالَ من دِمائِنا ودموعنا. وفي المساء، حينَ مدّتْ لنا أنا و(مُحسَّد) مائدة الطّعام، هتفتُ وأنا أمضغُ لقمةً مِمّا صنعتْ لنا: «معك حقّ، لا مُقامَ لنا هنا». ثُمّ صمتّ، فخَيّم جَوٌّ من الحُزن والهدوء على البيت، قَطَعه تقافز الصّغير، وأردفتُ: «فإلى أينَ نسير؟». «أكانَ هذا السُّؤال صعبًا عليكَ وأنَت تسيرُ في كلّ مرّةٍ إلى بلد؟!». «لا. ليسَ صعبًا. غيرَ أنّ الحيرة كلّ مرّة تكتنفني وأنا لا أدري أيَّ البِلادِ خير؟!». «كلّ البلاد خيرٌ من هذه البِلاد، فأيّما بلدٍ وجدْتَ فيه مُؤنِسَك، وبلّغَكَ عِزَّك فهو طَيّب». فأوحتْ لي حِكمتُها من جديدٍ، بأنْ أقول:

وكُلُّ امْــــرِئٍ يُوْلِي الجَمِيـــلَ مُحَبَّبٌ

وَكُلُّ مَـــكَانٍ يُنْبِـــتُ العِـــزَّ طَيِّبُ

غير أنّني أُخبِّئ دُرَرها الّتي تُهديني إيّاها للقصائد الّتي لا يليقُ بها إلاّ كِبار السّلاطين، وقلتُ بعدَ ذلك: «فإلى أنطاكيّة، ما ترين؟». فقالتْ: «كلّها معكَ سواء». فما عرفتُ تمدحُني أم تذمّني، وخَطَر ببالي أنّني أتعلّم منها ما يُمكن أنْ يُحمَل في المعنى على الوجهَين. ثُمّ سمعتُها تزفر: «وهل أنطاكيّة إلاّ بلد؟!».

وتركْنا ابن طُغج والإخشيديّين وولاة الشّام وفلسطين، ومضينا شمالاً مُصعِدين. فوصلْنا إلى (أنطاكيّة) بعدَ شهرٍ، فسبقَ إلى النّاس في هذه البِلادِ ثناي، وكان اسمي يشيعُ في البلاد، ووثبتْ قَوافِيّ الجِبال وجُبْنَ البِحار. فصار كلّ من في البِلاد الّتي نمرّ فيها يدعوني إليه، فعرفتُ أنّه زمانُ كلمتي، وأنّ عَلَيّ أنْ أُوشِّيَ الحَبِرةَ قبل أنْ أعرضها، وبعثَ إليّ القاضي (أبو الفضل الأنطاكيّ) رُسُلَه يستقدمني، وكُنّا لم ندخل (أنطاكيّةَ) بعد، فملتُ بمن معي إليه، فلمّا صار لي عنده أيّامٌ ثلاثةٌ من الهناءة، قلتُ فيه قصيدتي الّتي أوّلها:

لَكِ يا مَنَـــازِلُ فِي القُلُـــوبِ مَنازِلُ

أَقْفَـــرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْـــكِ أَواهِلُ

وما أقفرتْ إلاّ إذا خلتْ من حبيبتي الّتي احتملتْ معي كلّ هذا العَناء، ومضتِ القصيدة، وفيها لي أنا وزوجتي أكثر مِمّا للقاضي، ذلك أنّه كان بُلَغَةً أتبلّغ بها في المسير الّذي يكلّ، وما القاضي وما الوالي وما الخليفة يومئذٍ عندي بمكانٍ، فلمّا وصلتُ إلى قولي:

يا افْخَرْ فَـــإِنَّ النَّاسِ فِيـــكَ ثَلاثَةٌ

مُسْـــتَعظِمٌ أَوْ حَاسِـــدٌ أَوْ جَاهِـــلُ

ظَنّ القاضي أنّني أقصده، وما قصدتُ غيرَ نفسي، ثُمّ تنطّع كلّ ذي حَسَدٍ، فإنّهم يدورون معي حيثُما أدور، فقال أمثلُهم: «كيفَ تقول: يا افخرْ... فهل يُنادَى الفعل أمِ الاسم؟». وكيفَ يُمكن أنْ تُجيبَ جاهِلاً مثل هذا يقيسُ على ما يعرفُ من العربيّة، وما معه منها شيءٌ، فالتّجاهل خيرٌ من الرّد، فتركتُه دون أنْ ألتفتَ نحوه، وأتممتُ:

لا تَجْــسُرُ الفُصَحاءُ تُنْشِــدُ هَهُنا
بَيْتًــا وَلَكِنِّــي الهِزَبْــرُ البَاسِــلُ
مَا نـــالَ أَهْـــلُ الجَاهِلِيَّـــةِ كُلُّهُمْ
شِعْرِي وَلا سَــمِعَتْ بِسِحْرِيَ بَابِلُ
وَإِذَا أَتَتْــكَ مَذَمَّتِــي مِــنْ نَاقِصٍ
فَهِــيَ الشَّــهادَةُ لِي بِــأَنِّيَ كامِلُ

فشعر أنّني أعنيه في البيت الأخير فخنس. ولكنّه حتّى في هذه ضَلّ، فمنْ هذا النّكرةُ حتّى أعنيه بقولي (ناقص)، إنّما عنيتُ كلّ مُدّعٍ ينتقص من شعري وما بلغَ مهما ارتقى شِسع نعله.

وبقِينا أنا وزوجتي و(مُحسّد) أشهرًا في (أنطاكيّة)، وقد كبر (مُحسّد)، وصرتُ آخذه إلى كلّ مكانٍ أذهبُ إليه، فإنّ الابن يتعلّم مِمّا يراه من أبيه أكثرُ مِمّا يقوله، كنتُ آخذُه في الجَوَلان في الصّحارى كما كان أبي يأخذني، وكنتُ أعدو به الخيل، وأمضي بها إلى حَلَباتِ الفروسيّة ليتعلّم، وهو بعدُ في السّادسة.

وفي يومٍ من أيّام عام ٣٣٥ هـ وردَ من ديوان المدينة بريدٌ إليّ استلمتْه زوجتي، ولم أكنْ في البيت لا أنا ولا (مُحسَّد)، فلمّا عُدْنا فتحتُ الكتاب، فإذا هو من جدّتي، وإذا فيه: «ابني أحمد، لقد جفَيْتَني، وطالتْ غيبتُكَ عنّي، وما عهدتُكَ عاقًّا. وقد نزلَ بي من الهرم والمرض ما ينزل بكلّ من هو في مثلِ سنّي، وإنّني هامةٌ اليومَ أو غدًا، فإلاّ تلحَقْ بي أمتْ وفي نفسي حاجةٌ لرُؤيتك. وإنْ أسمَحَكَ الزّمان، وقرأتَ كتابي هذا إليكَ فوافني إلى الكوفةِ في الحال، وإنّني أوصِيكَ قبل أنْ أموت بما نَشّأتُكَ عليه؛ الثّأر وأنْ تموتَ دونَه». وطويتُ الكتاب وقد ضاقتْ بِيَ الدُّنيا، وصمّمتُ على أنْ أُجيبَ نِداءَها، غيرَ أنّ هذين المرأة والولد يمنعانني من الإسراع في الإجابة، فشاورتُهما، فقالت لي: «امضِ إلى جَدّتك، فإنّها كانتْ بِكَ وبي بَرّة». «وأنتما؟!». «سنبقى هنا، ولن يُضيّعنا الله». وتركتُ لهما مالاً، ودفعتُ كِراءَ الدّار ستّة أشهر، وأوصيتُ بهما أحدَ أصدقائي في (أنطاكيّة)، وركبتُ جوادًا إلى بُغيتي.

لم يكنْ لي مِنْ هَمٍّ في الطّريق سِوى أنْ أصلَ إلى (الكوفة) قبل أنْ تموتَ جدّتي، ومن أجل ذلك لم أُرِحْ في الخانات إلاّ قليلاً، وكنتُ أقطعُ بهذا الأشهب اللّيلة واللّيلتَين دون إراحة، وكان يحدثُ أنْ أنامَ على ظهر خيلي، إذا لم تسعْني الطّريق لأجدَ نُزُلاً أبيتُ فيه.

وكان عليَّ في هذه الرّحلة العجيبة أنْ أقطع بلادَ الشّامِ كلّها من أقصى غربها إلى أقصى شرقها، ثُمّ أُشَرِّق أكثر إلى العراقَين حتّى أصلَ إلى (الكوفة)، وأخذتُ من جسدي عونًا على تمام غايتي، والطّريق الّتي تُقطَع في شهرين أخذتْ منّي شهرًا واحِدًا لاقيتُ فيها - على عادتي - الوحوشَ واللّصوص والذّئاب والصّعاليك والأفاعي والهوامّ والمخلوقات الغريبة... ونجوتُ منها جميعًا.

فلمّا صِرْتُ على باب (الكوفة)، تلقّاني نفرٌ من العلويّين شاكي السّلاح، وقامَ على رأسهم أشدّهم حِقدًا، وهتف: «لن تدخل الكوفةَ إلاّ مقطوع الرّأس؟». فسألتُ: «ففيم؟». «تعرف فيم!». فهتفتُ شادًّا على الكلمات: «لا أعرفُ غيرَ هذا الرّمح وهذا السّيف». فهاجت السُّربة من الخيل بمن فوقَها من الفُرسانِ، وتهيّأتُ للقِتال، فوضعتُ يدي على قائِم السّيف، فكَفَّهم العلويّ بإشارةٍ من يده، وأردف: «لن تقدر اليوم على دخول الكوفة». «إنّ جدّتي تنتظرني». «نعرفُك ونعرفُ جَدّتك. ونعرفُ ما يدور بينكما». «أكنتَ الله حتّى تعرفَ كلّ شيءٍ؟!». فَهَمّ أقربهم إليَّ أنْ يعتقل الصّعدة، فكَفّه زعميُهم من جديد، وهتفَ بلهجة أَلْين: «مِلْ إلى (بغداد) اليوم، وحينَ نُسوّي الأمر مع جَدّتك يُمكنك أنْ تدخل (الكوفة)». فوجدتُ أنْ أعيشَ على الوعد الممكن التّحقيق خيرٌ من أنْ أخوضَ غِمار القِتال معهم المتُحقّق الهلاك. فانحدرتُ إلى (بغداد).

فلمّا صِرْتُ فيها، جاءني علويٌّ من مشيختهم، وكان يُصافيني الوُدّ، أو هكذا بدَا، فطلبَ منّي أنْ يخلو بي إلى ظاهر المدينة، فخرجتُ معه على حَذَر، فلمّا صرْنا بحيثُ لا يرانا أحدٌ غير الله أسَرّ لي: «لقد ذهبَ شيخُنا إلى جَدّتك لمّا عَلِمَ بقدومكَ من الشّام إلى الكوفة، وعَنَّفَها، وأبانَ لها سوء عاقبة أمرها حينَ استَدْعَتكَ إليها، وَنَهَوْها أنْ تُفكِّرَ بأنّه ستقدر على لِقائها، وقالوا لها إنّ العلويّين كُلّهم مُجمِعون على منع ولدك من الوصولِ إليك، فلمّا عرفوا أنّكَ صرتَ قريبًا من الكوفة، ذهبوا إليها مرّة ثانية، وقالوا لها: إنّ تلاميذنا الطّوّافين نقلوا إلينا أنّ أحمد بن الحُسين قد مات، وأنّه افترسَه وحشٌ في مسبعة من المسابع الّتي مَرّ بها». ثُمّ مضى العلويّ عائِدًا للكوفة قائِلاً: «السّرّ الّذي بيننا لا يطّلع عليه أحدٌ».

وأردتُ أنْ أسأله: «وهل صَدّقتْ جَدّتي هذا الكلام عن موتي؟!». ولكنّه غابَ في أستار اللّيل.

فقضيتُ ليلتَين أُفَكِّر في أمري وجدّتي، وخِفتُ أنْ يكونَ خبرُ موتي الكاذب قد أيأسَها، وأحزَنَها أمرّ الحُزن في ضعفها الجسديّ هذا، فوجدتُ أنّ أسلَمَ شيءٍ أنْ أدعوها إلى (بغداد) عندي، فكتبْتُ إليها: «جدّتي الغالية.. أنا هنا على مقربة منك، ما زلتُ حَيًّا لا أنفكّ في التّفكير بحالك، وإنّ هؤلاء الّذين تعرفينهم حالوا بيني وبينك، وإنّني لن أعودَ إلى الشّامِ إلاّ بِك، فإذا كان في الجسد ما يُعين فسِيري إلى بغداد، فأنا هناك».

فلمّا وصلَ الكتابَ إليها، فَرِحَتْ فرحًا شديدًا، وقبّلتِ الكتاب، ودَسَّتْهُ في صَدْرها، واختلجَ فرحُها مع حُزنها، فلم تستطعْ تحمّلهما معًا، فهوتْ من لحظتها وماتت.

وما أدري حينَ نقلَ إليَ الخبرَ الرّسولُ الّذي أرسلْتُه، أماتتْ من الحُزن أم من الفرح؟! وهل استسلمتْ للموت بعدَ أنِ اطمأنّتْ إلى أنّني لا أزال حَيّا، وهذا غايةُ ما تريد؟!

ورحلتْ جدّتي دون أنْ أراها، ودون أنْ أُقبّل وجهها ويدَيها، وأحضنها فأبكي على صدرها كِفاء كلّ النّازلات الّتي نزَلَتْ بي طَوال عشرينَ عامًا من البُعد والهجر والتّرقّب والرّحيل والموت والمرض والخوف. وأحاطَ العلويّون بالكوفة، وحفروا لها قبرًا في بيتها، وحرسوا البيت من أنْ يدخله أحدٌ أو يدري بما يجري فيه، وسارَعوا إلى دَفْنها في الظّلام، ولم يسمحوا لي أنْ ألقي عليها نظرة الوداع!

(٩)

ماذا تبقّى لي؟!

عُدتُ إلى (أنطاكية) كسيرًا، أزدادُ همًّا، وأذوبُ حُزنًا، وتتضاعف وحدتي، شعرتُ أنّه لم يعدْ لي في الدُّنيا كلّها صوتٌ يُشعرني بالحياة بعدَها. وفي (كربلاء) في اللّيلة الثّانية من خروجي من (بغداد)، جلستُ وحرُّ أنفاسي يُذيب الصّخر، وسرحتُ ببصري بعيدًا في الفضاء، أتذكّر كلّ ما مرّ بي معها، وأُحاوِلُ أنْ أُفسِّر كلّ ما قالتْه لي، وكلّ ما لم تقلْه، فلقدْ أفصحتْ فيما لم تقلْ أكثر مِمّا أفصحتْ فيما قالت.

وسالتِ العبَراتُ على وَجْنَتَيّ، وسمحتُ أنْ تسيل كما تشاء، وبكيتُ كطفل، وأمكنني خِلوي من النّاس أنْ أنتحب، وامتلأتُ غيظًا على هؤلاء الّذين حرموني رُؤيَتها، وقَرّرْتُ أنْ أُكمل الطّريقَ الّتي بدأتُها بنفسٍ أشدَّ ثَوَرانًا من قبلُ، ولكنّها اليوم صارتْ أكثرَ حِكمة، فما آتي إلاّ بعدَ أنْ أقيس، وما أُقدِم إلاّ بعدَ أنْ أُدرِك، ثُمّ إنّ العاطفة الجَموح أملتْ عَلَيّ بُكائيّة من بكائيّاتي ستكون دُرّةً في جبين الدّهر، ورحتُ أنشُج:

أَلا لا أُرِي الأَحْـــداثَ حَمْدًا وَلا ذَمَّا

فَمَا بَطْشُـــها جَهْــلاً وَلا كَفُّها حِلْمَا

إِلَى مِثْلِ مَـــا كانَ الفَتَى مَرْجِعُ الفَتى

يَعُودُ كَمَا أُبْدِي وَيُكْــرِي كَمَا أَرْمَى

لَـــكِ اللهُ مِـــنْ مَفْجُوعَـــةٍ بِحَبِيبِها

قَتِيلَةِ شَــوْقٍ غَــيْرِ مُلْحِقِها وَصْمَا

أَحِـــنُّ إِلَى الكَأْسِ الَّتِـــي شَرِبَتْ بِهَا

وَأَهْــوَى لِمَثْوَاها الــتُّرَابَ وَمَا ضَمَّا

بَكَيْـــتُ عَلَيْهَـــا خِيْفَـــةً فِي حَيَاتِها

وَذَاقَ كِلانَـــا ثُكْلَ صَاحِبِـــهِ قِدْمَا

وإنّها اللّيالي الّتي لن تكفّ عن أنْ تنهشني، وإذًا فإنّها المُقارَعة والمُنازَلة، وأنا فتاها، وابنُ لَبُونها، واستبدّ بي غَضبٌ لم يستبدّ بي مثلُه من قبل، وشِيْبَ بالحُزن والأسف والأسى، فكان كذلك الّذي أصابَ قلبَ النّبيّ: «فَرَجَعَ مُوسَى إلى قَومِهِ غَضبانَ أَسِفًا».

وَكُنْتُ قُبَيْلَ المَوْتِ أَسْتَعْظِمُ النَّوَى

فَقَدْ صَارَتِ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتِ العُظْمَى

وانسدَّتْ الدُّنيا في وجهي، فقمتُ أجري كالمجنون، وتركتُ ناقتي خلفي، فلمّا مضَى وقتٌ قطعتُ فيها مسافةً كبيرةً مُبتعِدًا عنها، توقّفتُ وأنا ألهثُ، يكادُ قلبي يفرّ من بين أضالِعي، فتذكّرتُ أنّي تركتُ ناقتي خلفي، فعُدتُ إليها وأنا أصيح:

وَمَا انْسَـــدَّتِ الدُّنْيَا عَــلَيَّ لِضِيْقِها

وَلَكِـــنَّ طَرْفًـــا لا أَرَاكِ بِـــهِ أَعْمَى

ثُمّ رَكبْتُها، وحَثَثْتُها إلى (أنطاكيّة)، وهي يومئذٍ بعيدةٌ، ولي فيها

قلبان، ولكنّني أفرّ من فقدٍ إلى هذا القلبِ لعلّه يُطفِئُ نار حُزني وغضبي، وشعرتُ في المَهامِهِ الّتي أخوضُها بوحدةٍ قاتِلة، وتراءى لي الأفق يسخر منّي، وحجارة الأرض تنفرُ من تحتَ أخفاف ناقتي، وشتمتُ ما أرى، وقفزتُ من فوقِ النّاقة، وركضتُ أهجمُ على اللّيل الجاثم على الأفق كأنّ لي عنده وِترًا، وأشهرتُ سيفي، وطعنتُ فيه عَدوًّا لم يكن إلاّ الهَواء، وتنبّهتُ إلى نفسي وأنا أفعل هذا فشعرتُ بأنّني فقدتُ عقلي، فجثوتُ على الأرض، وناديتُ النّاقة فأقبلتْ وهي تُرغي، وكدتُ أنحرها: «اصمتي، لا أريدُ أنْ أسمعَ همسًا». وماذا؟ أأقتلُ مَنْ يسير بي إلى أهلي؛ إذًا أقتلُ نفسي، فسحبتُها من خِطامها، وبقيتُ ثلثَ اللّيل أمشي وأبكي، وما في الوجودُ حُزنٌ في قلبِ مفؤودٍ إلاّ جذَبَه إلَيّ حُزني، فلجّ بي حتّى أثقلني، فهويتُ إلى مُنعرَج هناك واللّيل يسجو، فأويتُ إلى صخرة، فربطتُ بها ناقتي، ثُمّ هِمْتُ في النّجوم البعيدة تتلألأ على ما تبقّى من اللّيل في رحيله الدّوريّ، وسرحتُ بخيالي إلى أيّامي مع جدّتي، فهتفتُ:

فَـــوَا أَسَــفَا أَنْ لا أُكِـــبَّ مُقَبِّلاً
لِرَأْسِـــكِ وَالصَّدْرِ اللَّذَيْ مُلِئَا حَزْمَا
وَأَنْ لا أُلاقِـــي رُوحَكِ الطَّيِّبَ الَّذِي
كَأَنَّ ذَكِيَّ المِسْـــكِ كانَ لَهُ جِسْـــمَا

ثُمّ نمتُ وأنا أهذي بالأبيات، فما أيقظتْني إلاّ حرارةُ الشّمس، فلمّا فتحتُ عينَيّ، جُلتُ بهما حولي، فلمَ أرَ النّاقة، فأصابني الجزع: «لا

أريدُ أنْ أموتَ هنا، مع كلّ هذه الأحزان». ففركتُ عينَيّ لأتأكّد من أنّها موجودةٌ فلم أرها، فقمتُ كالملسوع، وجريتُ كالمجنون أبحثُ عنها، فوجدْتُها قد أوتْ إلى نَبْعِ ماءٍ قريبٍ تشرب، فلعنْتُها، ولعنتُ الماء، والشَّرْب، ثُمّ نُكِسْتُ على رأسي: «عَلَيّ أنْ ألومَ نفسي، فأنا لم أعقلْها أمس في وسطِ ذهولي».

ثُمّ ركبْتُها وقد تخفّفتُ قليلاً من أثقال الحُزن، وضربتُ كفلَها: «هَيّا لن نستريحَ إلاّ في (أنطاكيّة) أو على مشارفها». ثُمّ لسببٍ لا يعلمه إلاّ الله كتبتُ إلى زوجتي أنْ توافيني إلى (الرّملة)، لعلّني بأميرها أنسى ما كان من حُزني على جَدّتي.

واحتملتْ زوجتي راحلة هي وابني، وأدري أنّها لعنتْ في الطّريق حَظّها معي ألفَ مرّة، وهي تتساءَل بعدَ كلّ فرسخٍ تقطعه: «ما الّذي يُجبرني على أنْ أمتثل لهذا الرّجل المجنون؟! وأنا لا حولَ لي ولا قُوّة، وليسَ معي إلاّ هذا الصّبيّ الّذي لم يبلغ السّابعة من عمره، أتدبّر أمري وأمره وحدنا في المفاوز المُهلِكة، الّتي يُكشّر لنا فيها الموتُ والمرضُ عن أنيابه في كلّ ذرةٍ رملٍ من رماله؟!».

وانعطفتُ بالنّاقة إلى طريق الرّملة، في المدى تذكّرتُ ما رَبّتْني عليه جدّتي من المروءة والرّجولة والكبرياء، ثُمّ نظرتُ حولي فوجدتُ أنّني والوحوشَ سواء، وأنّني أقطعُ الفيافي كما تقطعها الفهود، وأصبرُ على الشّمس كما تصبرُ الضِّباب، وأنسلُّ من الموت كما تنسلّ الأفاعي، ولا تُشيّعني إلاّ عَظَمةٌ في فؤادي ليستْ لأحدٍ سِواي، ورحتُ أهتف:

تَغَــرَّبَ لا مُسْــتَعظِمًا غيْرَ نَفْسِــهِ

وَلا قَابِــلاً إِلّا لِخَالِقِــهِ حُكْــمَا

وَلا سَــالِكًا إِلّا فُــؤَادَ عَجَاجَــةٍ

وَلا وَاجِــدًا إِلّا لِمَكْرُمَــةٍ طَعْــمَا

يَقُولُونَ لِي: مَا أَنْــتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ؟!

وَمَا تَبْتَغي؟! ما أَبْتَغِي جَلَّ أَن يُسْـمَى

ووصلتُ أخيرًا إلى (الرّملة)، فأعجلتُ النّاقةَ أمضي إلى الموضع الّذي اتّفقتُ فيه مع زوجتي على اللّقاء، فلمّا رأتْني مُقبِلاً قامتْ من فورِها، فاعتنقتْني، وركضَ إليّ (مُحسَّد) فاحتَضَنْتُه، وبكَيْنا جميعًا؛ شوقًا وألمًا وغيابًا يتلوه غياب.

ثُمّ مضتْ أيّامٌ وأنا أغرقُ في حزني، وقد تغيّرَ لوني وذُهِلتُ به عن زوجتي، فلم أكنْ أدري ما يحدثُ معها، ذلك أنّني رأيتُها في إحدى اللّيالي تقوم من فراشِها تقصدُ الماء، فتهوي كأنّها جذعٌ قُدّ بالفأس، ودَوَّى صوتُ ارتطامها بالأرض في سكون اللّيل، فقمتُ إليها، فرأيتُها محمومة، فسألتُها: «أأنتِ مريضة؟». فهتفتْ: «مُذْ غادَرْتنا، ثُمّ هذه المَسِير المُبير». ففزعتُ. وأخذتُها على أحسنِ نطاسيّ، فوصفَ لها أعشابًا وأدوية، فلم ينفعْ معها شيء.

وصارتْ زوجتي لا تقوم من الفِراش إلاّ لِمامًا، وسألتْني أنْ أقرأ عليها ما رثيتُ بها جدّتي، ففعلتُ، فكانتْ تبكي مع كلّ بيتٍ، يعلو صدرُها ويهبطُ بنشيجٍ صامتٍ، ثُمّ همستْ بصوتٍ لا يكادُ يسمَع:

«أشعرُ أنّك قلتَ هذا فِيّ كما قُلتَه في جدّتك». فأردتُ أنْ أُسرّي عنها، فقلت: «لم يبقَ لي في الدُّنيا سِواك». فشهقتْ كأنّ روحَها خرجتْ مع شهقتها، ثُمّ همستْ: «كأنّكَ في مرثيّتكَ جَدّتَك تَعنيني». فسألتُها: «وأينَ ذلك؟». فقالتْ في قولك:

هَبِيْنِي أَخَذْتُ الثَّـــأْرَ فِيْكِ مِنَ العِدَا
فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّـأْرِ فِيْكِ مِنَ الحُمَّى؟!

ثُمّ أردفتْ: «إذا مِتُّ فهل سترثيني برائعةٍ مثلِ هذه؟». فتشاءمَتْ وتشاءمتُ، فقلتُ لها: «لا أراكَ الله مكروهًا، ستَبرَئين من هذه الحُمّى وستعودين إليّ». ثُمّ رَقَدَتْ وأغمضتْ عينَيها، وهتفتْ وهي تُغمِضهما: «أُحِبّك، وسأبقى أُحبّك». فلمّا طلعَ الصّبح لم تقمْ من رَقْدَتِها تلك.

وماذا تبقّى لي؟! لا أحدَ ولا شيء. ذهبَتْ جدّتي بنصفي، وذهبتْ زوجتي بنصفي الثّاني، وكان (مُحسّد) جاثِيًا عندَ رأسِها، يهزُّها ويصيح: «أمّي... أمّي.. قُومي... قُومي». ولكنّها كانتْ قد اجتازت البوّابة الّتي لا تعودُ منها أبدًا إلى عالَمنا البَئيس.

ولم أدرِ ما أفعل. وصرتُ أحيرَ من صغيري «مُحَسّد» الّذي ظلّ ملازِمًا للجُثمان، مُحتَضِنًا له دون أنْ يُفارِقه.

ثُمّ حمَلْتُها بينَ ذراعَيّ، فأركبْتُها في هودجها، ومضيتُ بها خارجَ (الرّملة) جهةَ الشّمال، فلمّا لم يعدْ غيرُ ثلاثتنا في هذا المدى المُترامي، رُحتُ أحفر القبر، و(مُحسّد) لا يكفّ عن البُكاء وعن مناداة أُمّه، وهي مُسجّاة تنتظرُ أنْ تنزلَ في الحفرة الّتي تنتظرُ كلّ حَيّ. فلمّا أتممتُ ما

بدأت، حملتُها ثانِيةً، ونظرتُ إلى وجهها فرأيتُها تبتسم كأنّها ما زالتْ حَيّة، فلم أتمالك نفسي، فرحتُ أنتحب، ثُمّ سَجَّيْتُها في الثّرى، وأهلتُ عليها التُّرابَ أمام مرأى من ابننا، ثُمّ وقفتُ على القبر: «لم يكنْ لكِ أنْ تخرجي من بيتِ أهلك وقد نشأتِ فيه مُطمئنّةً ناعمة فتأتي معي إلى هذه البلادِ الغريبة القاتِلة، فتموتي دونَ أنْ يعرفَ بموتكِ سواي، لماذا كان عليكِ أنْ ترتبطي برجلٍ تأوي إليه المصائب من كلّ صوبٍ...؟! أُشهِدُ الله أنّكِ كنتِ نِعمَ الزّوجة، ونِعمَ الرّفيقة، وقد ملأتِ حياتي بهجةً وأملاً، وقلبي وَرْدًا وعِطْرًا، وإنّه لا يدَ لي في فراقك، ولو كنتُ مختارًا لافتديتُكِ بنفسي... وها أنذا أُهِيل التّراب على بَضعةٍ منّي، ولا أملكُ لكِ إلاّ الدّعاء...» ثُمّ صمّتُ ورحتُ أبكي، وأنا أمنعُ صوتَ بكائي من أنْ يسمعه ابني فيزدادُ نشيجُه، وتمثّلْتُ بأبيات جرير في رثاء زوجته:

لَــوْلا الحَيَــاءُ لَهَاجَنِي اسْــتِعْبَارُ
وَلَــزُرْتُ قَــبْرَكِ وَالحَبِيْــبُ يُزَارُ
وَلَقَــدْ نَظَرْتُ وَمَــا تَمَتُّــعُ نَظرَةٍ
فِي اللَّحْــدِ حَيْــثُ تَمَكَّــنَ المِحْفَارُ
فَجَزَاكِ رَبُّــكِ فِي عَشِــيْرِكِ نَظْرَةً
وَسَــقى صَــدَاكِ مُجَلْجِلٌ مِــدْرَارُ
وَلَهَــتِ قَلْبِــي إِذْ عَلَتْنِــي كَبْرَةٌ
وَذَوُو التَّمَائِــمِ مِــنْ بَنِيــكِ صِغَارُ

وتذكّرتُ وأنا آخذُ بيد (محسّد) تاركين قبرًا غريبًا وحيدًا لا يعرفُ بموضعه أحدٌ سوانا، قبرَ (امرئ القيس) وقد ماتَ دون أنْ يفوز ببغيته،

في تلك الدّيار الغريبة عن كلّ ما هو عربيّ، في (أنقرة)، وتذكّرتُ ما قاله حينَ رأى قبرَ امرأةٍ غريبةٍ كقبر زوجتي هذه، فهتف وهو يموت:

أَجَارَتَنَـــا إِنَّ الخُطُـــوبَ تَنُـــوبُ
وَإِنِّي مُقِيـــمٌ مَـــا أَقَـــامَ عَسِـــيبُ
أَجَارَتَنَـــا إِنَّـــا غَرِيبَـــانِ هَـــا هُنَا
وَكُلُّ غَرِيـــبٍ لِلغَرِيـــبِ نَسِـــيبُ

وقفلتُ مع الصّبيّ عائِدَين إلى (الرّملة) لا ندري كيفَ سنتدبّر أحوالنَا بعدَها!

(١٠)

أنطاكيّة وَحدَها صَغِيرةٌ عليك

لقد كان عام ٣٣٥هـ وعام ٣٣٦هـ عامَي الحُزن عندي، فقد فقدتُ فيهما أهمّ امرأتَين في حياتي. وزهدتُ في النّساء بعدَ حليلتي؛ فلم أتزوّج بغيرها. وشَبّ معي (مُحسّد) في الرّملة، ثُمّ رأيتُ أميرها على خُلُقٍ لكنّه لا يُريدُ أنْ يُعيد للعربِ مجدهم، ولا أنْ يأخذ المُلك من التُّركِ والحبش الّذين تمركزوا بمصر، فأردْتُ التوّجه إلى الشّمال إلى (أنطاكية) من جديد، فمضيت، فلمّا صِرتُ في (طرابلس) أقمتُ أيّامًا أستريحُ قبلَ المسير ثانيةً إلى الشّمال، فتلقّاني أميرُها (إسحق بن كيغلغ) الّذي كان سَجّاني يوم سُجِنتُ في (حمص) قبل خمسةَ عشر عامًا، وأهانني وأهانَ قصائدي، ولم يعفُ عنّي حتّى تذلّلتُ في طلب العفو، أقول تلقّاني لأمدحه، وهل يُعقَل أنْ أستجيبَ إلى طلبه بعدَ كلّ هذا، فإذا كان يُقدِّر الشّعر اليوم، ويريدُ لنفسه أنْ يدومَ ذِكرُه من خلال قصائدي، فَلِمَ نكرني في ذلك العهد، وحبسني، وكادَ أنْ يُتلفني؟! إنّه الغرور والذّات والكذب والتّعالي.

وألحفَ (ابن كيغلغ) في السّؤال، فسبحان مُغيِّر الأحوال، صرتُ مطلوبًا بعدَ أنْ كنتُ طالِبًا. وأغراه أحدُ جلسائِه العلويّون قديمو الحقد علَيّ، بألاّ يتركني حتّى أمدحه، وإلاّ فالسّيفُ أولى بي. وراح العلويّ

الحقود لا يكفّ عن الدّسائس إليه، يُرغّبه بقتلي، ويُزوّر في نفسِه ذلك. وأخرجني فَقدي لجدّتي ثُمّ فقدي لزوجتي عن كلّ ما أخذتُ به نفسي من التّروّي عن هِجاء مَنْ يُشرِعون سيوفَ أحقادهم في وجهي، فلمّحتُ للأمير ليفهم، فقلت:

بَـــلَا اللهُ حُسَّـــادَ الأَمِـــيرِ بِحِلْمِهِ
وَأَجْلَسَـــهُ مِنْهُـــم مَـــكَانَ العَمائِمِ
فَإِنَّ لَهُـــم فِي سُرْعَةِ المَـــوْتِ راحَةً
وَإِنَّ لَهُـــمْ فِي العَيْشِ حَـــزَّ الغَلاصِمِ

فلمْ يفهمْ إشارتي، فامتلأتْ نفسي غيظًا، وتجنّبْتُ لِقاءَه، ولقاء السّلاطين، فلمّا اضطُرّني إلى ذلك، ودعاني إلى مدحه، ابتدأتُه بقصيدةٍ أمدحُ فيها نفسي قبله، فقلتُ:

أَقَـــلُّ فَعَـــالي بَلْـــهَ أَكْثَـــرَهُ مَجْدُ
وَذَا الجِدُّ فِيْـــهِ نِلْـــتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ جَدُّ
سَـــأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَـــايِخٍ
كَأَنَّهُمُ مِـــنْ طُولِ مَـــا الْتَثَموا مُرْدُ

فَرَعش، ولم يسكنْ رَوعُه إلاّ في آخر القصيدة، ثُمّ هاله ما أراه فِيّ وفيه وفي النّاس مِنْ حوله، وكنتُ أعني ذلك العلويّ الّذي يتربّص بي، فقلت:

أَذُمُّ إِلى هَــذَا الزَّمــانِ أُهَيْلَــهُ
فَأَعْلَمُهُمْ فَــدْمٌ وَأَحْزَمُهُــمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُــم كَلْــبٌ وَأَبْصَرُهُم عَمٍ
وَأَسْــهَدُهُم فَهْدٌ وَأَشْــجَعُهُم قِرْدُ

فانتفَخَ سَحرُه، وصَدّقَ عليه إبليسُ ظَنّه، فاتّبع العَلويّ، ومالأه على أنْ يقتلني أو يُهدّدني بالقتل، فسخرتُ من تهديده، وفخرتُ بفعالي كما كانتْ زوجتي تحثُّني، وأتيتهما بقصيدتي البائيّة الّتي أقول فيها:

أَتــانِي وَعِيــدُ الأَدْعِيــاءِ وَأَنَّهُمْ
أَعَدُّوا لِيَ السُّــوْدانَ في كَفْرِ عَاقِبِ
وَلَــوْ صَدَقُوا في جَدِّهِــمْ لَحَذِرْتُهُمْ
فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَولُهُــمْ غَيْرُ كاذِبِ
إِلَيَّ لَعَمْــرِي قَصْــدُ كُلِّ عَجِيْبَــةٍ
كَأَنِّي عَجِيْــبٌ فِي عُيُــونِ العَجَائِبِ
بِــأَيِّ بِــلادٍ لَم أَجُــرَّ ذُؤابَتِــي
وَأَيُّ مَــكَانٍ لَم تَطَــأْهُ رَكَائِبِــي

ثُمّ لم يكنْ أمامهما إلاّ قتلي، ولم يكنْ أمامي إلا الخُروجَ من هذه البلاد المُدنّسة بدنسهما، فكتبتُ الميميّة الّتي لو عَقِلَها، لسَخّر الجِنّ كي تأتيه برأسي، وقلتُ ناعِيًا عليه حمقه:

وَمِــنَ البَلِيَّةِ عَذْلُ مَــنْ لا يَرْعَوِي
عَنْ غَيِّــهِ وَخِطَابُ مَــنْ لا يَفْهَمُ

ولقد غامرتُ بكلّ شيءٍ بعدَ موتِ العزيزتَين، ولم أفكّر في أيّة عاقبةٍ تطالُني أو تطال ابني، فغاليتُ في هَجْوِه، وجعلتُه أضحوكة الزّمان، يتندّر بصفاته الذّميمة النّاسُ طَوال الدّهر:

وَتَـــراهُ أَصْغَـــرَ مَـــا تَـــراهُ ناطِقًا
وَيَكُـــونُ أَكذَبَ ما يَكُونُ وَيُقْسِـــمُ
وَالـــذُّلُّ يُظْهِـــرُ في الذَّلِيـــلِ مَوَدَّةً
وَأَوَدُّ مِنْـــهُ لِمَـــنْ يَـــوَدُّ الأَرْقَـــمُ
وَمِـــنَ العَدَاوَةِ مـــا يَنَالُـــكَ نَفْعُهُ
وَمِـــنَ الصَّداقَةِ مـــا يَـــضُرُّ وَيُؤْلِمُ
أَرْسَـــلْتَ تَسْـــأَلُني المَدِيحَ سَفَاهَةً
صَفْـــرَاءُ أَضْيَقُ مِنْكَ مَـــاذَا أَزعُمُ

وعرفتُ أنّني لو بقيتُ بعدَ هذا القصيدة، فإنّني مذبوحٌ لا محالة أنا وابني ذَبْحَ الشِّياه، فشددتُ عِمامتي، وعِمامة هذا الصّبي، وأخذتُه في حِضني على نَجِيّة تُفيت كلّ طالبٍ، وكان (أبو العشائر الحَمْدانيّ) قد سَمِعَ بما حاقَ بي من المصائب، فبعثَ إليّ يُعزّيني، ويطلبُ منّي أنْ أقدمَ عليه، فوافقَ ذلكَ هوًى في نفسي، وشددتُ الرّحال إليه، فوصلتُ إليه ناجِيًا بنفسي وبابني من كلّ قوارع الفَزَع حتّى حللتُ في قصره المُنِيف، وداره العليّة، فقرّبني لِمَا سَمِعَ من مروءتي وشجاعتي وفصاحتي وعروبتي.

فلمّا مرّتْ عليّ فترةٌ أستجِمُّ بها في ربوعه، عدا (بانس المُؤنسي) قائد الإخشيديّين أعداء الحمدانيّين فباغتَهُ بجيشٍ عرمرمٍ وأنا في أنطاكيّة،

وكادوا يستولون عليها منه، ونشروا جُيُوشَهم في أرجائِها حتّى كادوا يبلغون (حلبَ) قلب الدّولة بهذا الجيش، فكانت الصّدمة كبيرةً أوّل الأمر، ثُمّ إنّ أبا العشائر نَهَدَ إلى قتالهم، فكُنتُ في جَيْشِه، فقاتلْتُهم معه حتّى دَحَرَهم واستعادَ (أنطاكيّة) منهم، فلمّا جَمَعنا حفلُ النّصر مثلتُ بين يدَيه مُكرَّمًا مُنَعّمًا، فكان أوّل ما قلتُ فيه:

أَتُرَاهـــا لِكَثْـــرَةِ العُشّـــاقِ
تَحْسَـــبُ الدَّمْـــعَ خِلْقَـــةً فِي المَآقِي

وكان (أبو العشائر) فارِسًا شاعِرًا، وأنا الّذي طُفتُ العالَمَ كلّه أبحثُ عمّنْ يفهم عنّي، ومَنْ يُدركُ مرامِيّ، ومنْ يشعر معي بوهجِ الحرف، فكان يُنصِتُ إلَيّ بقلبه وعقله إنصاتَ الشّاعر الأريب، وكانَ ينظرُ إليَ عَجَبًا بعدَ كلّ بيتٍ، فلمّا وصلتُ في القصيدة إلى قولي:

يا بَنِي الحَـــارِثِ ابْنِ لُقْـــمَانَ لا تَعْـ
دَمْكُـــمُ فِي الوَغَـــى مُتُـــونُ العِتَاقِ
بَعَثُـــوا الرُّعْبَ فِي قُلُـــوبِ الأَعادِيْـ
ـــي فَكَانَ القِتَـــالُ قَبْـــلَ التَّلاقِي

اهتزّ طربًا، وخلتُ أنّه سيقوم من مجلسِه فيُقبّلني بينَ عينَيّ، وهتف: «بهذا يكون الشّعر، وعلى هذا يكون المدح، وإلاّ فلا شعر ولا مَدْح». فلمّا قلتُ:

إِلْـــفُ هَذَا الهَـــوَاءِ أَوْقَـــعَ فِي الأَنْـ
ـــفُسِ أَنَّ الحِـــمَامَ مُـــرُّ المَـــذَاقِ

وَالأَسَـــى قَبْلَ فُرْقَةِ الــرُّوْحِ عَجْزٌ

وَالأَسَـــى لا يَكُـــونُ بَعْــــدَ الفِرَاقِ

هتفَ: شاعرٌ وفيلسوف. فلمّا أتممتُ القصيدةَ قامَ فعانقني، وقبّلني على جبيني، وهتف: «لم أسمعْ مثل هذا من قبل، ولا يقدر على قوله أحدٌ، إنّكَ والله لأفرسُ الشّعراء، وأشعر الفُرسان، أنتَ منذُ اليوم مِنّا، وإنّه لتليقُ بِكَ المنزلة الّتي تستحقُّها في قلوبنا، وإنّا مُنزِلوك إيّاها»، وأغدَقَ عليّ مالاً كثيرًا، ووهبني ضيعةً فيها بيتٌ لا يكونُ إلاّ للأعيان، وأجرى عليّ الهدايا.

وعشتُ ناعِمًا في بلاطه، لا يمسُّني سوء، ونما خبري في البُلدان، وسارَ بشعري الرُّكبان، وهفتْ إليّ القلوب، وصارتْ أبياتي تدور على كلّ لسانٍ، ونابتْ عنّي في التّرحال، فكأنّها كانتْ مِذودي الّذي يسيرُ إلى مسامع النّاس، فأفرحَ ذلك طائفةً وأحزنَ أُخرى، وكلاهما عَلِمَ أنّ الكون يستعدّ لنبوغ شاعرٍ لم تعرفِ البشريّة له نظيرًا.

وولّى زمنُ الفقر إلى غيرِ رجعة، ونَكّبْتُ ورائي أمداح الأعاجم، ورأيتُ في هذا العربيّ ضوءًا في عتمة، وسِراجًا في ظُلمة، ولمستُ عنده المعالي الّتي سعيتُ لها طَوال ما مضى من حياتي، وعرفتُ له فضله في رَفْعِهِ مِن قَدْري وقَدْر شِعري، وفي سَدّ أُذُنَيه عن كلام الوُشاة، فأنشدتُه القصيدة الّتي أقول فيها:

أَأَصْـــبِرُ عَنْــكَ لَمْ تَبْخَـــل بِشَيْءٍ

وَلَمْ تَقْبَــلْ عَــلَيَّ كَلامَ واشِ

فقال: أنتَ عندي في المحلّ الأرفع، واهتزّ اهتزاز الكريم، فلمّا قلتُ:

وَمَــا وُجِدَ اشْــتِيَاقٌ كَاشْــتِيَاقِي
وَلا عُــرِفَ انْكِــمَاشٌ كَانْكِــمَاشِي
فَــسِرْتُ إِلَيْــكَ فِي طَلَــبِ المَعَالِي
وَسَــارَ سِــوَايَ فِي طَلَبِ المَعَاشِ

قامَ وصاحَ: «لا عدمْنا مثلَ هذا يا أبا الطّيّب. إنّكَ لشاعِرٌ وأيُّ شاعرٍ، وإنّ أنطاكيّة وحدها صغيرةٌ عليك، وإنّي عاقِدٌ العَزم على أنْ تحلّ في القلب، قلبِ دولتنا الّتي بنيناها على الأسل والرّماح، وإنّ ابنَ عَمّي أولى بكَ مِنّي، وإنْ كُنتُ بِكَ ضنينًا، غيرَ أنّ هذه الدُّرَر لا تُجلى في طرفٍ من أطراف الدّولة، بل يجب أنْ توطّد أركانها في رايةِ أميرِنا ابنِ عمّي، وإنّني حَدّثْتُه عنكَ في بعضِ لقاءاتنا، فشاقَه ما قلتُه فيك، وتشوّفَ إلى لقائك، وإنّكَ ستَجِدُ منه مثل ما تَجِدُ منّي وزيادة، فإذا كان أوانُ رحيلي إلى (حلب) غرّة الشّهر القادِمُ فسنسير أنا وأنتَ إليه».

وشعرتُ أنّ الدُّنيا كُلُّها تفتحُ ذراعَيْها لهذا الشّاعر الّذي كُنتُه، وأنّ الحَظّ والجَدّ قد ابتسما لي. فلمّا كانتْ غُرّة الشّهر، رافقتُه إلى الأمير العربيّ التّغلبيّ سيف الدّولة الحمدانيّ أمير (حلب)، وفارِسها المُفرَد.

المَرحلةُ الخامِسة

السّيفيّات

٣٣٧ - ٣٤٦ هـ

لَقَد وَرَدُوا وِرْدَ القَطَا شَفَرَاتِها
وَمَرُّوا عَلَيْهَا زَرْدَقًا بَعْدَ زَرْدَقِ
بَلَغْتُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ النُّوْرِ رُتْبَةً
أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ
إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ
أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِ
وَمَا كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ
وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ البَحْرَ يَغْرَقِ

(١)

ليسَ عَلَى الحَبِيبِ شَرْط

إذًا ها نحن... ها نحنُ حَقًّا في الطّريق إليه، إلى سيف الدّولة في (حلب)، رُغاء الجِمال القادم من آخر القافلة يزيدُ المشهدَ جمالاً، السّبسب الّذي اختلطتْ حُمرته بحمرة الشّمس مُودّعةً نصيبَها من هذا النّهار جعَلَنِي أهيمُ في خيالاتي، ماذا لو كانتْ زوجتي معي؟ ماذا لو بدأتُ عهد الاستقرار في (حلب)؟ ماذا لو أنّ هذا الزّمان البخيل سَمَحَ بمثل هذا اللّقاء قبلَ سنةٍ أو اثنتَين، ألم يكنْ لي ولها شأنٌ غيرَ ما يشعر به هذا الشّاعر البائس الوحيد الأرمل اليتيم الّذي يبحثُ عن أملٍ في بحيرة اليأس الّتي يغرقُ فيها؟! ماذا لو، ثُمّ ماذا لو، ثُمّ ماذا لو؟!

خَدَرٌ لذيذٌ يسري في أوصالي. وحُزنٌ شفيف. أمّا الخدر فلهذا المجهول الجميل القادم، وأمّا الحُزن فلذكرى حبيبَتَيّ، غيرَ أنّ ولدي (مُحسّد) الّذي يمتطي صهوةَ جَواد إلى جانبي بدا وكأنّه يكبرُ سريعًا، وأنّ الفروسيّة فينا جِبِلّة.

وصلْنا أخيرًا إلى (حلب)، استشرفَتْنا قلعتُها الّتي شمختْ في وجه التّاريخ قرونًا سحيقة، تذكّرتُ زيارتي الأولى لها قبل ما يقربُ من عشرين عامًا، غيرَ أنّها اليوم (حلب) أخرى، إنّ فيها أميرًا هو فوقَ

مفرقها تاجٌ مُرصَّعٌ بالعروبة والمروءة، الصّفتَين اللّتَين قضيتُ ما مضى من حياتي أبحثُ عنهما في أميرٍ فعَيِيت.

قال لي (أبو العشائر): «إنّ ابنَ عَمّي هذا بنى المكان والإنسان، وإنّه ليعمل عمل الأباطرة في الاهتِمام بالفنّ، وعمل الخُلفاء في الاهتمام بالعِلم، وآمُل أنْ يرى منكَ ما يُعجِبه». وهتفتُ في نفسي: «ليسَ مُهِمًّا أنْ يرى منّي ما يُعجبه، الأهمّ أنْ أرى منه ما يُعجِبني. وإنّي على خَوفٍ وقلقٍ حتّى أرى».

فلمّا أصبْحنا، مضيتُ إلى جانب (أبي العشائر) نتقدّم الرّكب، ومعنا لفيفٌ من خاصّته وأعوانه، وعلمْنا أنّ الفتى الحمدانيّ ينتظرنا في قصر (الدّارَين)، كان قَصْرًا مُنيفًا عالي الجُدران، حجارتُه البُنيّة تبدو كعوبًا كأنّما سَطّر عليها الفلاسفةُ حِكَمَهم، والشّعراء الخالِدون دُرَرَهم، فلمّا فُتِحَتْ لنا البّوابات، ودخلْنا من الباب العالي، المصنوع من خشبٍ صلدٍ، حُفّ حتّى صارَ يلمع، مُوشًّى بالنّمنمات، وولجْنا إلى الحدائق رأيتُ عَجَبًا، كانتِ الورود تحفّ أطراف الحديقة الفسيحة وتملأ الأجواءَ بالشّذى، وكانتْ أرضُ الحديقة مُعشِبة، تخفسُ فيها أقدامُنا من طرواتها، وقد جعلها على مسارب عشرةٍ، كلّ مسربٍ عرضه أكثر من عشرين ذراعًا، تفصلُ بين كلّ مسربٍ ومسربٍ بَنِيّة على طول هذه الحديقة، قاعِدتُها من الحجر الأحمر، كأنّه العنبر، وفوقَها تيجانٌ من الذّهب، وبين كلّ تاجٍ وتاجٍ تمثالٌ آخر من الذّهب أو الفضّة، كان كلّ صَفٍّ من الصّفوف العشرة يرتكزُ على قواعده صنفٌ من الطّيور أو الحيوانات؛ فصَفٌّ للأسود والسِّباع، وقد صُنِعَتْ تماثيلها بإحكامٍ، ووُضِعت على هيئتها في خيال نَحّاتِها أو صائِغها، حتّى لتشعر حينَ ترى أسدًا فاغِرًا فاه

مُسوجِرًا صدره أنّه هاجِمٌ عليك يكادُ يزدردُك، وتسمعُ زئيره في أُذنَيك حتّى تتوجّس منه خِيفة... وصَفٌّ للطّيور، سُكِبَ الذّهبُ في تصاويرها المُجوّفة، ثُمّ وُضِعَ مكان عيونها يواقيت من الزُّمُرُّد... وتذكّرتُ قولة البحتري:

تَصِــفُ العَــيْنُ أَنَّهُم جِــدُّ أَحياءٍ
لَهُــمْ بَيْنَهُــم إِشَــارَةُ خُــرْسِ
يَغْتَــلِي فِيْهِــمُ ارْتِيَــابِيَ حَتَّــى
تَتَقَرّاهُــمُ يَــدَايَ بِلَمْــسِ

ورأى (أبو العشائر) الدّهشةَ على وجهي، فراحَ يبتسمُ، وتتّسع ابتسامته ببطءٍ كأنّه يقول: «إنّكَ لم ترَ شيئًا أيّها الشّاعر». ثُمّ تركْنا خلفْنا الحديقة الغَنّاء السّاحرة، ودخلْنا بَهو القصر، فإذا هو قائمٌ على أعمدةٍ من الرّخام تعلوها تيجانٌ من الذّهب، وإذا جُدرانه تخطفُ البصر لجمالها ولروعة النّقوش فوقَها، كانتْ هذه النّقوشُ آياتٍ من القرآن الكريم قد زُيِّنَ حرفُها وذُهِّب، وكان الخطّ مُحقّقًا دقيقًا واضِحًا خلاّبًا، وجَمَح بي الخيال فتأمّلتُ أنْ أدخل قلبَ هذا الفتى الحمدانيّ، فيأمر بنقشِ قصائدي على جدران قصره كما فعل مع الآيات.

وفي غمرة اندهاشي، مال عَلَيَّ (أبو العشائرِ) وهمسَ في أذني: «أتعرفُ من شادَ أكثرَ هذا البناء، ونقشَ أكثرَ هذه النّقوش؟». فأجبتُ وأنا أهزّ رأسي: «وكيفَ لي أنْ أعرف؟!». فضحك قائِلاً: «إنّهم فَنّانو أوروبّا الّذين طردتْهم الكنيسة. استقدمهم ابنُ عمّي، وأغدقَ عليهم الأموال، وأخرجَ أجملَ ما فيهم».

ثُمّ حانت ساعةُ اللّقاء، فأتينا المجلس، فإذا هو عالي الأبّهة، فسيح الأنحاء، وثير الأرائك، طيّب الرّائحة، شديد الرّاحة، وإذا عن يمين الأمير أريكةٌ أُعدّتْ ربّما لنائبه أو قائد جيشه، وأريكةٌ أخرى فارغةٌ عن يساره، وقد وُضِعَتا مع سرير المُلك على مرقاةٍ واحدة، وحولهما أرائك كثيرةٌ أدنى منها منزلة تُشكّل حول سرير الأمير حلقةً أشبه بحدوة الفرس. فلمّا صارَ رَكْبُنا بينَ يدَيه، ركعوا كلّهم وجَثا أكثرهم على رُكبته، ولم يسلم من ذلك أحدٌ سِواي، حتّى الأمير (أبو العشائرِ) حنَا رأسَه وإنْ لم يركع، فَصَعّد (سيفُ الدّولة) النّظر فِيّ، فتلقّيتُ نَظَراته الخابِرات السّابرات، وأنا أشعرُ بها تغوصُ في أعمقِ أعماقي، ولم أتزَحزح. فلمّا قاموا من جُثُوِّهم، أخذَ مَنْ أُذِنَ له مجلسَه، وخرجَ الباقون، ثُمّ رأيتُ (أبا العشائر) يجلس عن يمين ابن عَمّه، ويبقى يسارُه فارِغًا، فقلتُ في نفسي: «لا بُدّ أنّه لي، وإنْ كنتُ أُفضِّلُ اليمين على اليسار، غيرَ أنّني بلا شَكٍّ لستُ أقلَّ من الأمير». فلمّا هممتُ أنْ أذرع الخُطوات إلى هناك، رفَع (أبو العشائر) يده ووقفَ وراحَ يقول: «أصلح الله الأمير، هذا أبو الطّيّب الشّاعر، لا بُدّ أنّكَ سمعتَ به وعنه، لقد سارَ بشِعره الرُّكبان، وامتلأتْ مجالسُ العلم في تحقيق ما قال، وإنّه في المحلّة الّتي ترفعه عندنا، فقد قاتلَ الرّوم معنا في (أنطاكيّة) كأنّه واحدٌ منّا، وإنّكَ إن استعجَمْتَ عُودَه وقعتَ منه على الخير الّذي تريد». فكانتْ هذه أوّل خُطبة تعريفٍ تقع بيني وبينَ (سيف الدّولة)، وكانتْ هذه أولى العبارات الّتي غرستْ بذرة الحسد في قلوب أهل هذا البلاط، وستنمو حتّى تُصبِحَ شجرةً كبيرةً يصعبُ اقتِلاعُها حتى على أهل السُّلطة.

ثُمّ إنّ (أبا العشائر) راحَ يُعرّف بمن حضر ذلك المجلس: «هذا ابنُ عمّنا زينُ الشّباب أبو فراس، وهو شاعرٌ بدأَ شِعرُه في النّبوغ، وهذا ابن خالويه إمام هذا البلاط في النّحو واللّغة، وهذا الفارابي إمام أهل الفلسفة، الشّارح أقوال المعلّم الأوّل أرسطو، وهذا الشّاعر أبو العبّاس النّاشِئ وحُدّثْتُ أنّكَ تعرفه، فقد أملى شعره على مَنْ كنتَ فيهم في الكُوفة، وهذا الشّاعر أبو العباس النّامي كان جَزّارًا يبيعُ اللّحم في باب الشّام، وهذا الشّاب الّذي هنا هو أبو الفرج الببغاء شاعرٌ مُجيدٌ، وهذا... ». وما لي ولهذه الحِفنة مِمّن أجهل ويجهلون؟! وغابَ صوتُه في وسطِ تخيّلاتي، فكأنّني سمعتُه يذكر مَنْ تبقّى من الجلوس: «وهذا السَّرِيّ الرّفاء الشّاعر الّذي كان يرفو الثّياب بالموصل واليوم يرفو القصائد في رِحابنا، وهذا كُشاجم الرّمليّ كان شاعرَ عمّي أبي سيف الدّولة، ثُمّ هو اليوم شاعره. وهذا الصّنوبريّ أحسنَ من وصفَ الرّياضَ والحدائق من الشُّعراء، وهو القائم على مكتبة القصر، وهذان الخالِديّان أبو بكرٍ وأبو عُثمان يقولان الشّعر من عقلٍ واحدٍ، فإذا سمعتَ لأحدهما كأنّما سمعتَ للآخَر ـ وهذا الوأواء الدّمشقيّ كان يبيع الفاكهة، فصار يقول الشّعر، وهذا...» وغَبَر على ذلك مُدّة، وأنا لا أفكّر في شيءٍ إلاّ في هؤلاء الشّعراء الّذين يُمكن أنْ ينطبق فيهم ما قُلته في (ابن كَرّوس)، وهو يُحرّض الأمير (بدر بن عمّارٍ) عَلَيّ، قائِلاً إنّني تخلّفتُ عنه رغبةً بنفسي عن المسير معه، وأنفةً منّي لمُصاحبته:

وَمَكَايِـــدُ السُّـــفَهَاءِ واقِعَـــةٌ بِهِمْ
وَعَدَاوَةُ الشُّـــعَرَاءِ بِئْـــسَ المُقْتَنَى

وصحوتُ من غمرتي على صوتِ (سيفِ الدّولة): «مرحبًا بأبي الطّيّب، لكَ فوقَ ما تُحِبّ إذا علا بك شِعرُكَ، فإنّني أَعْرَفُ بالشّعر من كثيرين، ولا يعجبني منه إلاّ ما كان جائع اللّفظ شَبعَ المعنى، وما وافقَ الصّواب، وما طَرِبَ له الفؤاد، والتذّ له العقل، وأمّا قولُ الشّعر فإنّه يقولُه كلّ منْ في هذا المجلس، بفلاسفته وعلمائه...». ثُمّ صمتَ كأنّما يستنطقني، فتمهّلتُ أُزوِّرُ الكلام الّذي سأقوله في نفسي، فلمّا استبطأ عليّ الرّدّ، نظرَ إلى يمنيه حيثُ (أبو العشائر) مُتعجِّبًا، فهتف (أبو العشائر): «نريدُ أنْ نسمعَ منكَ في هذا الموقف يا أبا الطّيّب». فتهيّأتُ للقول، وشدَدْتُ عِمامتي على رأسي، وأصلحتُ من هندامي، وقلتُ: «أبقى الله الأمير، إنّ لي شروطًا قبل أنْ أُنشِد»، فسرتْ همهمةٌ في المجلس حتّى علتْ، فسمعتُ دون أنْ أعرف صوتَ القائل: «يشترطُ على الأمير وما لَقِيه من قبلُ، هذا مُتغطرِس». فلم ألتفتْ لما قال، وتابعتُ: «إنْ قبلْتَ بها أنشدتُك، وإلاّ فإنّني في حِلّ». فصرخَ أحدُهم: «مَهْ... كيفَ تجرُؤ أنْ تقول ذلك؟!». فتجاهلتُه، ورأيتُ العَجَب والإعجاب في وجه (سيف الدّولة)، وإنْ كان العَجبُ إلى قَسَماته أقرب. وتابعتُ وقد خفضتُ نبرةَ صوتي قليلاً كأنّني أُفسّر ما لا يحتاجُ إلى تفسير: «أيّها الأمير، لقد مدحتُ قبلكَ ثلاثين أميرًا بأكثرَ من أربعين قصيدةً، فما أمسكَ ما قلتُه إلاّ الهَواء، ولا أريدُ أنْ يكونَ الأميرُ مثلهم، فيكون الرّقم الواحد والثّلاثين عابرًا إيّاه إلى الأمير الثّاني والثّلاثين، لا لشيءٍ إلاّ لأنّه يسمع لكلّ ناعقٍ وناغق، وإنّي يَئِسْتُ من الأمراء وبَئِسْت، فلا أريدُ أنْ أزيدَ يأسي وبُؤسي». فسرتْ صرَخاتٌ في المجلس، فنظرتُ إليهم وإلى الأمير، وهتفتُ: «هؤلاء لا يحترمون هيبة المكان، ولا يوقّرون حرمة

الأمير». ثُمّ تابعتُ: «وإنّه لمن أحسنِ ما يصدُقُ في هؤلاء الأمراء، البيت الّذي قلتُه من قبلُ:

أَرَى أُنَاسًــــا وَمَحْصُولِي عَــــلَى غَنَمٍ

وَذِكْرَ جُودٍ وَمَحْصُــــولِي عَلَى الكَلِمِ

ثُمّ صَمَتُّ، وصمتَ الوزراء وقادة الجيش والعلماء والشّعراء صمتَ مهابةٍ وخوف، وصمتَ الأميرُ صَمْتَ تَفَكُّرٍ وتدبّر، وقال بعدَ أنْ رفعَ رأسَه من إطراقته، وهو يَزُمُّ شفتَيه من عَجَب: «تشترط؟». «اشتراطَ مُحبّ». «ليسَ على الحبيب شرط». «إلاّ ما كان في مثلي ومثلك». «فقُلْ يا أبا الطّيّب». فنَفّسَ المجلسُ عن غضبتهم بسماح الأمير لي بالقول بزفرةٍ طويلةٍ شعرتُ بحرّها في صفحة وجهي. فتنحنحْتُ قبلَ أنْ أهتفَ بهدوء وثقةٍ وقُوّة: «ألاّ تُكلّفني تقبيل الأرض بين يدَيك حينَ أدخل مجلسك». «وَلِمَ لا تريدُ ذلك فقد رأيتَ هؤلاء يفعلون ما لا تريدُ أنْ تفعله؟!». فهتفتُ: «لأمرين: الأوّل أنّني لستُ مثلَ هؤلاء. والثّاني: أنّني لم أفعلْ ذلك لأميرٍ من قبلك، ولستَ بِدْعًا منهم». فسرتْ همهمةُ غضبٍ في الجالسين سَرَيان موجة الماء الطّامّ، وما كان ذلك ابتِداءً لإنكارهم عليّ المقالة، وإنّما لإنكارهم على أنفسهم جُبنَهم وعدمَ جرأتُهم في قول ما أقول، ولا فِعْلِ ما أفعلُ وإنْ كانوا يَتمنَّوْنَه، فتركتُ موجتهم الطّاغية تلك لهم، وأردفتُ كأنّني لم أسمعْ شيئًا: «ثُمّ إنّ الله خَلَقَ الرأسَ أعلى من كلّ مكانةٍ في الجَسَد، وكرّمه، وجعله رمزًا للعِزّة، وإنّ العربَ إنْ ذَلّتْ ذلّ بذلّها كلّ عزيز، وإنّني لَعَربِيٌّ قُحٌّ آنفُ أنْ أركعَ لغير الله، وإنّكَ لتعرفُ ما للهامة عندَ العرب من قيمة». فخنسَ القوم، وأُعْجِبَ الأمير، وهتفَ: «هل لكَ من شرطٍ غير هذا؟». «نعم». «فقلْ». «ألاّ

أُنشدَ الشّعر بين يدَيك واقِفًا». «أما رأيتَ الشّعراء يُنشِدون شِعرَهم واقِفين؟». «أنا لستُ مثلهم». فنَخَرَ القوم. فاسترسل: «فكيفَ تُنشِده إذًا؟!». «جالِسًا عن يمينك؟». «عن يميني؟!». «نعم فإنّكَ مِلكُ المجد وأنا مَلِكُ القول، وأنتَ رَبُّ الحرب وأنا رَبُّ الحرف». فعلتْ صيحاتٌ كثيرةٌ، وتداخلَ بعضُها في بعضٍ: «مجنون... مُتكبّر... مَغرور... وَقِح... رَذْل... كيفَ تُواتيه الجرأة على هذا...». والأميرُ مُنشَدٌّ إليّ آخِذةٌ شجاعتي بلُبّه، وهتفَ وسط ذهول المجلسِ كلّه: «قبلتُ. فهل لك من شروطٍ أخرى؟». وأسكتت العبارة الأخيرة همهمات القوم أو خَفّضَتْها حتّى صارَ نخيرُهم نَخير الضّباع المجروحة، فقلت: «شرطٌ واحدٌ فحسب، ألاّ يُكرهني الأمير على القول، فأقول متى أشاء لا متى يشاء». وكادَ القوم يتقطّعون غيظًا وينفجرون حَسدًا، غيرَ أنّ صوتَ الأمير ذبح أصواتهم: «وأنا قبلتُ. فهل عندكَ بعدَ هذه الزّوبعة ما تُنشِدنا إيّاه؟!». فقلت: «نعم». فأشارَ أنْ أبدَأ، فأشرتُ إلى يمينه، فقام عنه (أبو العشائر)، وجلسَ عن يمين اليمين، فأتيتُ محلّي أمشي إليه واثق الخطوة، فلمّا استقر بي الموضع، أشرتُ إلى الأمير الّذي يجلسُ عن يساري، والأمير الّذي يجلسُ عن يميني، وهتفتُ:

وَفاؤُكُما كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ
بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ
وَمَا أَنا إِلّا عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ
أَعَقُّ خَلِيْلَيْهِ الصَفِيَّيْنِ لائِمُهْ

فأطرقَ القوم، وعرفتُ أنّ أكثرهم لا يفقهون ما أقول، وخَطَر ببالي أنْ أسأل الأمير أنْ يسألهم ما قصدتُ في المطلع، غير أنّني عدلتُ عن ذلك، حتّى لا أكون صخرةً في مجرى النهر الّذي تَدَفَّقَ للتَّوّ، وأردفتُ وأنا أشير إلى الأصوات الّتي كانتْ تنعقُ قبلَ قليل:

وَقَـــدْ يَتَزَيَّا بِالهَـــوَى غَـــيْرُ أَهْلِهِ
وَيَسْـــتَصْحِبُ الإِنْسَانُ مَنْ لا يُلائِمُهْ

فلم يقدرْ أحدٌ منهم أنْ ينبسَ بحرف. فلمّا قلتُ:

بَلِيْـــتُ بِلَى الأَطْـــلالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِها
وُقُوفَ شَـحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ

همَسَ غيرُ واحدٍ منهم همسًا مسموعًا: «إنّه لبخيل، أقرّ على ذلك بنفسه». فجعلتُ همسهم تحتَ قدَميّ، وتابعتُ إنشادي، فلم أرَ أميرًا طرب على رزانةٍ طربَ هذا الأمير ورزانته، فإنّه كان يُصغي كأنّما يشربُ ما أقول، فلمّا وصلتُ إلى قولي:

سَـــلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيْتُهُ
عَلَى ظَهْرِ عَـــزْمٍ مُؤْيَـــدَاتٍ قَوائِمُهْ
مَهَالِكَ لَمْ تَصْحَبْ بِها الذِّئْبَ نَفْسُـــهُ
وَلا حَمَلَـــتْ فِيْها الغُـــرَابَ قَوادِمُهْ
فَأَبْصَرْتُ بَدْرًا لا يَـــرَى البَدْرُ مِثْلَهُ
وَخَاطَبْتُ بَحْرًا لا يَرَى العِبْرَ عَائِمُهْ

أوقفني، وصاحَ من طربٍ وعَجَب: «لكَ كلّ ما تَمَنّى، إنّ هذا القول يأسرُ سامِعه، وإنّه لا كِفاء له عندنا إلاّ أنْ تسَألنا ما تشاء فنُعطيك». فابتسمتُ دون أنْ أسأل شيئًا، وأشرتُ إلى كلّ الشّعراء الّذين قَدّمهم لي (أبو العشائر)، وهتفتُ بالقاصِمة:

غَضِبْتُ لَـــهُ لَمَّـــا رَأَيْـــتُ صِفَاتِهِ
بِلا وَاصِفٍ وَالشِّـــعْرُ تَهْذِي طَمَاطِمُهْ

فَهَمُّوا أن يقوموا ويتركوا المجلس، وتحرّكتْ كلماتُهم في أجوافهم، غيرَ أنّها ظلّتْ حبيسةً في أفواههم، وأشار لهم (سيفُ الدّولة) أنْ يجلسوا، وقد أعجبه أنْ أستفزّهم بذلك، وهَزّ رأسه موافِقًا، وكادَ يقول: «صدَق، أيُّكم قال فِيّ شِعرًا مثلَ هذا قبله؟! وها أنتم عشرون شاعرًا في بلاطي أو أكثر، لم تأتوا بِعُشْر ما قاله أبو الطّيّب». فلمّا ختمتُ القصيدة بقولي:

وَإِنَّ الَّذِي سَـــمَّى عَلِيًّـــا لَمُنْصِفٌ
وَإِنَّ الَّـــذِي سَـــمَّاهُ سَـــيْفًا لَظالِمُهْ
وَمَا كُلُّ سَـــيْفٍ يَقْطَعُ الهَـــامَ حَدُّهُ
وَتَقْطَعُ لَزْبَـــاتِ الزَّمَـــانِ مَكَارِمُهْ

قال وهو يتمايلُ من سُكْر: «لك المكارمُ كُلّها». والتفتَ إلى (أبي العشائر)، وسأله: «هل سمعتَ مثلَ هذا من قبلُ؟!». فضحك (أبو العشائر) وقال: «سمعتُ، لقد قال مثلَه حينَ كان في بلاطي، أمّا من سِواه فما سمعتُ، ولا أظنّني سأسمع». «فما ترى؟». «فيم؟». «في إكرامه». «يكون شاعرَك الأثير...»، وقاطعْتُه في خيالي: «لستُ لأحدٍ»،

وتابع: «وينزلُ ميادين قتالك فيزداد فروسيّة، ويتعلّم فنون القتال مع الرّوم، فقد قاتل العربَ من قبلُ..» وضحك قبل أنْ يُردِف: «ولكنّه لم يقاتل العلوج إلاّ عن هَبَّةٍ كريمةٍ منه قبل أنْ نَفِدَ إليك». «والمال؟». «أسْكِنْه أحسنَ بيوت حلب». «سنفعل، وسنهبه الهِبات السّنيّة على الوجه الّذي يُرضيه عَنّا». وسكتا.

وأمّا القوم، فقد نفخَ الحَسَدُ والغيظُ صدورهم فتقبّبَتْ، وملأ عروقهم فانتفختْ، وضاقتْ به شرايينُهم فتقطّعتْ. وأمّا أنا فقلتُ: «لا بأس ببدايةٍ كهذه!».

(٢)

سُؤال الوُجود!!

وقامَ (سيفُ الدّولة)، وقام كُلُّ من في المجلس، فخلا إلاّ منّي ومن قائدٍ من قادته، وانتظر حتّى لم يكنْ في المجلسِ سِوانا، ثُمّ نَهَبَ المسافةَ بينى وبينه بخُطا الفارس المَكِين، فلمّا لم يعدْ بيني وبينه ذراع، هتفَ: «أتعرفُ مَنْ كَلَّمْتَ اليوم؟!». فتظاهرتُ بالجهل: «وَمَنْ يكون؟!». فأسرعَ القول: «هذا الّذي دَوَّخ الرّوم، وغزاهم في عُقْر دارهم قبلَ أكثر من عشرة أعوامٍ وأنزلَ بهم هَزائِم حتّى فكّروا في أنْ يتركوا له القُسطنطينيّة، ونَهَبَ سرير الدُّمُستق وكُرسيّه، ثُمّ غَزاهم بعدَ ذلك بعامٍ حتّى وصل إلى (قاليقلا) واكتسح (هَفْجيج)، ووَطِئَ مواضع من أرض الرّوم لم يطَأها المُسلِمون من قبله...» فقاطَعْتُه في غمرة استرساله، وأكملتُ عنه: «ومَضى إلى (قُلونية) الحصينة المتأبّية فنقبَ سورَها، وأحرقَ رساتِيقَها، وأسقطَ من مدنها أكثرها تحصينًا، ومن حصونها أشدّها مناعةً، ثُمّ كتَبَ من هناكَ إلى ملك الرّوم يستهزئُ به وبجيشِه وبقِلاعِه...» ثُمّ سكتُّ وهو ينظرُ إليَّ دَهَشًا، قبل أنْ أُردف: «أعرف أيّها القائد عنه أكثرَ مِمّا تعرف». فسألَ مَغِيظًا: «فإنّ كنتَ تعرفُ كلّ هذا، فَلِمَ خاطَبْتَه خِطاب المُتعجرف، ولستَ بشيءٍ أمامه؟». فأردتُ أن أناكفه أكثر، فسألتُه: «أتعرفُ عندما انتصرَ أميرُكَ هذا على (أبي عبد الله البريديّ) عامَ ٣٣٠هـ ما كَتَبَ إليه الخليفة المُستكفي؟». «أنا أعرفُ أنّه

هَنّأه بالنّصر». «يعرفُ ذلك كلّ حاشيته وجنده وشعبه، فما الّذي تعرفُه من الكتابِ نفسِه... أدري أنَكَ لا تعرف، وأنا أحفظهُ عن ظهر قلب، فإنْ شِئتَ استظهرْتُه لك». فصمتَّ وصمتَ، ولم يقلْ شيئًا، فعاجَلْتُه أُشعره بعجزه، أتلو أمامه نَصّ الكتاب: «بسم الله الرّحمن الرّحيم... عرفتُ لا أخلاني الله منك ما تقرّر عليه العزمُ في رَواحك، قَرَنه الله بالخِيرة التّامّة والمعونة الشّاملة والكفاية الجامِعة، ووصله بالنّصر والفَلْح، والظّفر والفَتْح، فتعَجّلْتُ الاستِيحاشَ لِبُعدك والتّحسّر لِما يفوتُ من قُربكَ - لا خلوتُ منك - وكنتُ أُحِبّ أنْ ألقاكَ وَأُسَرُّ برؤيتك قبلَ نُفوذِك. ولَمّا تعذّر ذلكَ دعوتُ الله لكَ بجميل الصّحابة، ولي عليكَ بحُسن الخِلافة، وأنْ يُسعدَنا الله بذلك سعادةً محمودةَ البدء والعاقبة، إنّه سميع الدُّعاء، لطيفٌ لِما يشاء، ولا يزال قلبي مُتطلِّعًا لمعرفة خبرك، إلى أنْ يَرِدَ عَلَيّ من مُستقرِّكَ بما تُريه وتُمضيه وتُدبّره وتَمْشيه، فتعمل - لا أخلاني الله منك - على ملاحظتي من ذلك في كلّ وقتٍ وساعةٍ بما تعلم حُسْنَ موقعه منّي، والسّلام». وسألتُه: «هل تعرفُ هذا؟! أشكّ أنَكّ تعرفه!! ثُمّ أين هو الخليفة اليوم أيّها القائدُ المُتعجرف؟! لقد خُلِعَ وها هو مسجونٌ ينتظر الموت. وها هو سيفُ الدّولة يتركه لمصيره لأنّه يريدُ كما أريدُ أنا أنْ يكونَ هو الخليفةَ... هل تعرفُ شيئًا من ذلك.. كلاّ». ونفختُ ما احتبس في صدري من الهواء، فرأيتُه قد حَزَبَه الغيظُ حتّى كادَ يتميّز، وهتف ساخِرًا حانِقًا: «فإنْ كنتَ تعرفُ هذا أيّها المُتعالِمُ، فَلِمَ إذًا فَعلْتَ ما فعلتَ؟!». فأجبتُه: «هَوّنْ عليك، فإنّني أدرى بالقول وجِهته منك، فدع عنكَ هذا، والآن قُلْ لي هل عرفَ ببطولاته أحدٌ سِوى نفرٍ قليلٍ من النّاس؟!». «ما تقول؟!». «إنَّ بطولاته العظيمة هذه تحتاجُ إلى مَنْ يُخلّدها شِعرًا؛ فهل وجدْت في زعنفة الشّعراء المُتحلّقين حوله مَنْ قال

فيه ما يدور على الألسنة؟ أنا أُجيبك: كَلاّ، إنّ بطولاته هذه قد تعيشُ قليلاً في أذهانِ مَنْ قاتلَ معه، ولكنّها ستموتُ بعدَ عامٍ أو اثنين، أمّا ما سأشهده أنا معه من المعارك وما سأكتبه عنه وعنها فإنّه سيعيشُ أبدًا.. إنّ معاركه وانتصاراته ليسَ لها وجودٌ خارج شِعري... فهل فَهِمْتَ الآن لِمَ قلتُ ما قلتُ؟!» فرأيتُ يده تَشُدُّ على مقبض سيفه، وشعرتُ أنّه يريد أنْ يُخرِجه من غِمْدِه، ويقطَع به عنقي، غيرَ أنّه خرجَ مُحنَقًا دون أنْ يقول شيئًا بعدُ.

ثُمّ لمّا خرَجْتُ بدوري تلقّاني رئيس الخَدَم، وقدْ هَيّأ لي عَرَبةً، مُذهّبة العَجلات مُخنفسَة الأرائك، يجرّها جوادان مُطهَّمان، وانحنى وهو يقول: «تفضّلْ يا سيّدي». فسألتُه: «إلى أينَ؟!». فهتف: «إلى الدّار الّتي وَهَبَها لكَ الأمير». فقلتُ: «الفتى مُحسّد». فابتسم: «إنّه في العَرَبة». فركبتُ ومضينا.

قَطَعتْ بي العربة الطّريقَ حتّى مرّتْ على دربٍ بين مساربِ الورد والتّماثيل الّتي رأيتُها أوّل دخولي إلى هنا، ثُمّ خرجْنا من البوّابة البُنّيّة الصّقيلة الثّقيلة، ونَكَّبْنا القصر وراءَنا، ثُمّ صعدت وهوتْ ثُمّ صعدتْ حَيًّا يُسمّى (سويقة علي) خلفَ (خان الوزير) حتّى وقفْنا أمامَ دارٍ ليسَ مثلها دار، فنزلْنا من العربة، وتقدّمَنا رئيس الخدم يدلّنا على الطّريق، فأَتينا ما أُعطِينا، فإذا أنا في نعيم. دخلْنا أوّل الأمر من الباب إلى فِناءٍ وسيع، قد أقيمت في وسطه بركةٌ يسبح فيها السّمك، خمسُ أذرعٍ بخمسةٍ، ماؤها الفيروز، وخريرُها البلابل الّتي تنفي البلابل، وللفناء أربعةُ حيطانٍ مُنضّدة الحجارة، يقف في كلّ جدارٍ ثلاثةُ

أبوابٍ تعلوها أقواسٌ حجريّة، يُفضي كلّ بابٍ إلى غرفةٍ نظيفةٍ مُجهّزةٍ للمبيت، تُطلّ شبابيكُها من الجهة الغربيّة على الدّرب الّذي يهوي إلى قصرِ (سيف الدّولة)، من هذا الدّرب كنتُ أغدو إليه كلّما دعاني هو أو دعاني الشّوق. وفي الجهة الّتي يكون فيها الباب، تُفضي الأبوابُ إلى ثلاث، واحدةٌ للمطبخ جُهِّز بالصّحاف والجِفان والملاعق والسّكاكين والصّحون وغيرها، وغرفةٌ للخزين، تُخَزّن فيها الحُبُوبُ والأطعمة المُجفّفة، والدّقيق، وما حُمِلَ من الهندِ من البَهار والتّوابل، وحَمّامٌ فيه ماءٌ ساخِنٌ وباردٌ، ومواضعُ للاستجمام. وكان في كلّ جهةٍ نوافذُ تُطلّ على الفِناء الّذي فيه النّافورة، إذا فتحتَ مصاريعها من الدّاخل رأيتَ النّافورة وسمعتَ خريرَها. وكانتْ مُزجّجةً بزجاجٍ قاتمٍ لا يكشفُ الجالس أو المُضطجع في داخلها، وقد شُبّكتْ بتقاطعاتٍ من الحديدِ المُذَهّب.

أمّا الجهة الشّرقيّة ففيها درجٌ أنيقٌ على درابزينه جُصصٍ للورود المعلّقة ذات الألوان المتعدّدة الزّاهية، فإذا ارتقيتَ هذا الدّرج إلى الطّابق العلويّ، وجدتَ فيه ثلاثةَ جدرانٍ، والرّابع مفتوحًا على ساحةٍ صغيرةٍ قد زُيّنَتْ بُشجيراتٍ ناضرة، وبطُفٍّ في الجهة الغربيّة يُمكنكَ منه أنْ ترى الدّرب ذاته المُفضي إلى قلبِ القصر. وفي الجهتَين الشّماليّة غرفتان، كلاهما للمبيت، بينهما حَمّامٌ، وفي الجهة الجنوبيّة غرفةٌ واحدةٌ عميقةٌ وسيعةٌ بحجم غرفتَين قد جُهّزتْ للكتابة، فيها دُرجٌ من خشبٍ هنديّ، مزُخرفٍ بزخارفَ ذهبيّة، وعلى يمينه خزانةٌ ذاتُ رفوفٍ أربعةٍ، كلّ رفٍّ يمتلِئ بما يخدمُ الكتابة، فرفٌّ للدُّويّ بألوانِ حبرٍ متنوّعة، فالأسود والأزرق والأحمر والمُذهّب، ورَفٌّ للرّيشات والأقلام، وكان

رأسُ كلّ قلمٍ يختلفُ في حجمه عن القلم الآخر، فأحدهما للعناوين الكبيرة، وأخرى للعناوين الأصغر منها، وأقلامٌ للكتابة العاديّة. وهناكَ رَفٌّ للرّقوق والأوراق، وقد نُضِّدتْ وُرتّبتْ على أحجامٍ هي الأخرى وأعدّت للتّحبير. وفي الجهة المُقابلة كانتْ هناك مكتبةٌ ضخمةٌ تضمّ نفائس الكتب، من كتب النّحو واللّغة والمنطق والفلك والحَيوان والشّعر والسِّيَر والطّب والقانون والفلسفة، وقدّرتُ أنّ فيها أكثرُ من ألفِ مجُلّدة في شتّى العلوم والمعارف.

كانت الدّار كبيرةً جِدًّا عليّ وعلى (مُحَسّد)، لكنّه فضلُ أهل الفضل. تركتُ لمحسّد أنْ يختار أيّ الغرف الّتي يبلغُ عددهُا تسعَ غُرَفٍ من أجل أنْ يبيتَ فيها، واخترتُ الغرفة المقابلة لغرفة المكتبة في الطّابق العلويّ.

إنّه الاستقرار يا (مُحسّد). وسألني وهو يركضُ في الفِناء الفسيح ويُشير إلى الغُرَف الّتي تُحيطُ به: «أكلّ هذا لي؟!». «اخترْ منها ما ترتاحُ له. وأمّا ما يتبقّى، فسنُخصّصه لمعلّميك. سآتيكَ بمن يُعلّمك الحساب، فتترك بعدَ الدّرس رقوقَك فيها، وبِمنْ يعلّمك اللّغة، وغرفةٌ ثالثةٌ لمن يُعلّمك المنطق». «ولكنْ يا أبي ستتبقّى غُرَفٌ أخرى». «دَعْها للجنّ تسكُنها فلا حاجةَ لنا بها». وضحكْنا معًا.

ثُمّ لمْ تمضِ مُدّة على تطوافنا في الدّار، حتّى سمعْنا بابَها يُطرَق، ففتحتُ، فإذا هو رئيس الخدم قد عاد، حامِلاً لنا من سوق حلبَ الثّيابَ، وشيئًا من الطّنافس، وإلى ذلك طعامًا قد أُنضِجَ للتّوّ من لحمٍ مشويّ وخبزٍ ساخنٍ. ثُمّ أمرَ خادمةً وخادِمًا أنْ يدخلا بها، وهتف:

«أمّا هذا الخادم فمن أجل أنْ يُلبّي لكَ كُلّ ما تطلبه منه، وأمّا هذه الخادمة فمن أجل أنْ تطبخَ لكَ طعامَك، وتكنسَ لكَ فناءَك، وتغسل لَكَ ثيابَك». وَدَخلا فاختار لهما رئيس الخَدَم غرفتين قريبتَين من الجهة الّتي يكون فيها المطبخ والخزين.

أمّا خارجَ هذا البيت، فمبنًى صغيرٌ أقربُ إلى الخان في سقفه الواطِئ، وكان إسطبلاً مُكوّنًا من غرفتين، إحداهما للخيل أمامها المعلف ولقن الماء، وفي الأخرى جوالاتٌ من التّبن والشّعير. وقد وُكِلَ بالإسطبل سائسٌ يقومُ على رعاية الخيل، والتّأكّد من إطعامها وسقايتها، وتنظيف المكان.

وأَوَيْنا آخِرَ اللّيل إلى فُرُشِنا، فعادَني من الذّكرى ما عادني على عادتي، وتذكّرتُ أيّام كنتُ أنامُ في الطّرقات، وآوي إلى السَّبِخات، وآكُلُ من خشاش الأرض، وأفيءُ إلى ظَلال الأشجار من الحَرّ، وإلى الكهوف المهجورة من البرد، وتقلّبتُ على الخنافس من الحرير، فتذكّرتُ التّراب الّذي كان فراشي والصّخر الّذي كان مِهادي. ثُمّ النّعال الّتي كانتْ إذا تقطّعتْ في مشيي الطّويل رميتُها ورحتُ أعدو حافِيًا.

ثُمّ غالبتُ السُّهادَ فغلبني، وتحسّستُ الفراشَ عن جنبي فلم أمسك إلاّ الفراغ، وترحّمْتُ على زوجتي، ودعوتُ لها، وشعرتُ بموجةٍ حارّةٍ تصعدُ من أعماقي فتُسيل الدّموعَ سخينةً على عَينَيّ، وقلتُ: «ألا أبحثُ عن مؤنسةٍ لي في هذا الفراغ المُوحِش؟!». وطردْتُ الخاطِرَ من ذهني، فلم يكنْ لي أنْ أتزوّج بعدَها أبدًا، ولا أريدُ لامرأةٍ أنْ ترى ما أرى، فإنّ ما أحتمله يشقّ على النّساء، وإنّ ما أريدُه مِمّا لا يُطيقُ له مخلوقٌ صبرًا.

فلمّا كان الغد، هوينا في درب السّويقة إلى القصر، راكبين جوادَنا وقد أردفتُ (مُحسّدًا) خلفي، ووعدتُه أنْ أسأل رئيس الخدم أنْ يأتيه بجوادٍ خاصٍّ له. فلمّا أشرفْنا على البوّابة الكبيرة، فُتِحَتْ لنا كأنّنا من أهلِ هذا القصر، وبعثتُ بمُحسّدٍ إلى مدرسةٍ يتعلّم فيها الفتيان، ودخلتُ إلى القاعة الّتي يجتمع فيها أهلُ العِلم، وكان (سيفُ الدّولة) قد أحدثَ مكتبةً كبيرةً في قصره، ذات حجراتٍ كثيرة، وفي كلّ حجرةٍ عِلمٌ من العلوم، وقد رفدها بأدراجٍ وكراسيّ لمنْ أرادَ الدّرس فيها، وأقامَ على رعاية هذه المكتبة العظيمة الشّاعرَ (أبا بكرٍ الصّنوبريّ). ومررتُ بالغُرفِ كلّها أرى فيها الثلاثة والأربعة من أهلِها، حتّى أتيتُ حجرة الفلسفةِ فرأيتُ فيها (أبا نصرٍ الفارابيّ).مكتبة سُر مَن قرأ

كان (الفارابيّ) صبيح الوجه، طويل اللّحية عند الذّقن، خفيفةً عند الفَودَين، مشوبةً ببياضٍ يزيدُه وقارًا، وكان يلبسُ جُبّة من الصّوف بسيطةً وخشنة، وكان يعتمر عمامةً تَلُوثُ رأسه، ويعتمر على جُمع رأسه تحتها قلنسوةً خفيفةً ذات لونٍ قرمزيّ. وكان نحيلاً، مستدقّ العَظم، وكان هادِئًا قليل الكلام، إذا نَظَرَ في كتابٍ أطال النّظر فيها، ولم يشعرْ بدخولي الغرفة، وظلّ مُكبًّا على الكتاب الّذي بينَ يدَيه، ولم أدرِ ما هو، غيرَ أنّني رجّحتُ أنّه لأرسطو، فأنا أعلم أنّه شرحَ تعاليمه.

اقتربْتُ منه، وتنحنَحْتُ حتّى يشعر بوجودي، رفعَ رأسَه باتّجاهي بهدوء، وابتسمَ ابتِسامة خفيفةً أبانَتْ زوايا فمه الرّفيع، كانَ بالفِعل يقرأ كتابًا لأرسطو في المنطق، ويضع بقلمٍ معه بعضَ عباراته على هامِشِه، ووضعَ الرّيشة في المحبرة، وأغلقَ الكتاب بهدوء، وهتفَ بلطف: «الشّاعر أبو الطّيّب. أهلاً بك». «أهلاً بكَ يا سيّدي». «ما

تصنع في حياتكَ هنا؟». «لم أدرِ بعدُ». فضيّق عينَيه، وقرنَ ما بينَ حاجِبَيه: «فهكذا لا تدري؟!». «وَمَنْ يدري يا سيّدي؟». «فأينَ أنتَ من الفلسفة؟!». «لكلّ واحدٍ منّا في الحياة فلسفته يا سيّدي». «وما أدراكَ ما الفلسفة؟!». «قرأتُ بعضَ كتبها». «فماذا رأيتَ؟». «رأيتُ الفلسفة سؤال الوجود، الوجود الّذي هو عدمٌ، العدم الّذي يجعل من كلّ شيءٍ تُقدِمُ عليه عبثًا». فهَزّ رأسَه، وبانتْ على شفتَيه ابتسامةٌ، وهتف: «إنّما أخذتَ منها ما لا يُوصلك إلى غايتك، فما معنى قيامي وقيامي في هذه الدُّنيا؟». «فما ترى فيها أنتَ يا سيّدي؟!». «اعلمْ أنّ اسم الفلسفة يونانيّ، وهو دخيلٌ في العربيّة، وهو على مذهب لِسانهم فيلسوفيا، ومعناه إيثار الحِكمة، والفيلسوف مُشتَقٌّ من الفلسفة، وهو على مذهب لسانهم فيلسوفوس، فإنّ هذا التّغيير هو تغييرُ كثيرٍ من الاشتقاقات عندهم، ومعناه المُؤثِر للحكمة، هو الّذي يجعل الوُكْدَ من حياته وغرضه من عمره الحِكمة». «فالحِكْمَةَ أُريد». «فعليكَ أنْ تأخذ بطريقها». «وما طريقُها؟!». «الخلوة، وطولُ التّأمّل، والتّخفّف من الأعراض، واحتِمال الأذى، وإيجاد العلّة، وإيثار الرّضى». فأخذتُ منه اعتزال الأذى، فقلت، هل يصلح قولي:

وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيـ
ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ

إلى أنْ يكون قولاً فلسفيًّا». فردّ وهو يمسح ذقنَه: «هو قولٌ حكيمٌ، ولكنّه ليسَ فلسفيًا، وليسَ الأذى في قولك ما عنيتُه بالأذى في قولي، وبيتُكَ فيه خُرُوم، وتحتاج أنتَ إلى تمتينٍ قبل أنْ تقول». «فكيفَ ذلك؟!». «أتريدُ أنْ أُعلّمك؟!». «بالطّبع يا سيّدي، فهل

من سبيل إليها؟». «لقد رأيتُ موقفكَ أوّل لِقائكَ بالأمير». «فكيفَ رأيته؟». «فيه رعونةٌ، لكنّه إلى ذلك ينُمّ عن ذكاءٍ وشجاعةٍ، وهما صِفتان لازمتان للفلاسفة». «فأينَ أجلسُ إليكَ من أجلِ هذا العِلم؟! أفي هذه الغرفة؟!». «كلاّ، هنا يكثرُ الصّخب والهَرْجُ ودخول أهل العَرَض، وصياحُ أهل السّيف، وإنّكَ إنْ أردتَ أنْ تتعلّمها ففي غير هذا الموضع». «فأينَ يكونُ ذلك؟!». «لي كوخٌ على نهر قُوَيق في آخر هذا العمران، في خَلاءٍ من الأرض، أخلو فيه كلّ ثلاثاءٍ بعدَ العِشاء الأولى».

ثُمّ إنّه مَرّ بنا الشّاعر (كُشاجم) الرّمليّ يتهادَى، فهتف: «أينَ أنتما؟! إنّ مجلس الأمير على وشك أنْ ينعقد، وهما ينتظران ألاّ يتخلّف أحدٌ، فَهَيّا بنا». فتَبِعناه نعبر الغرف، حتّى خرجْنا من المكتبةِ، فضرَبَتْنا الشّمسُ بعدَ أنْ كُنّا في سترٍ وظلّ، فاتّقيناها بأيدينا نسترُ عيونَنا عُن فُجاءة الضّوء، ثُمّ انتهَيْنا إلى حيثُ اتّخذَ كُلٌّ موضعه من مجلسِ الأمير، ثُمّ أقبل وحده، ولم يكنْ معه (أبو العشائر)، وعلمتُ أنّه لَحِقَ بولايته في (أنطاكيّة).

فلمّا تَمّ العِقْدُ، دخَلَ شاعرٌ أراه أوّل مرّة، لَهِجًا مُضطرِبًا كأنّه يُساقُ إلى الموت من رهبته الأمير، وأرادَ الأمير أنْ يُهَدِّئ مِن رَوْعه، فعاجَلَه بالجُثُوّ بين يدَيه، فاحتقرتُه، وهتفتُ في نفسي دون أنْ يسمعني أحدٌ: «انهضْ أيّها المسخ، فإنّه لا يُقعِي غير الكلب، ولا يركعُ غيرُ العَيْر، ولا يدفنُ رأسَه في الرّمال غيرُ النّعامة، كلّ رأسٍ محنيّة أولى بها السّيف، ومن قوّس صُلبه تشبّه بالحيوان، أما فيك بقيّة من مروءة؟!». فلمّا رَفَعَ رأسه كان قد ذهبَ بماء وجهه كلّه، فلم يستعدْ منه شيئًا بحُسْنِ شِعره!

وانفضّ الجمعُ كلّه، وأبقى (سيفُ الدّولة) عَلَيّ، وعلى (الفارابيّ)، وعلى (ابن خالَوَيه). وهتفَ: «أنتم أئمّة أهمّ العلوم، فأمّا أَنت يا أبا الطّيّب فإمام الشِّعر، وأنتَ يا أبا نصرٍ فإمام الفلسفة، وأمّا أنتَ يا أبا عبد الله فإمام النّحو»، ثُمّ أردفَ يُخاطب ابن خالَوَيه: «وقد سَلّمْناك ابنَينا أبي المكارم وأبي المعالي تُؤدّبهما، فتأخذهما بالعلوم الوافرة، وبالفلسفة الباصرة، وبالأشعار النّاضرة، ولا أريدُهما أنْ يحفظا من الشّعر إلاّ لأبي الطّيّب». ثُمّ انفضّ المجلس. فنظَر (ابنُ خالَوَيْه) إلَيّ، وقال: «لقد قَصَر على ألاّ يحفظا من الشّعر إلا لك، وأنتَ تعلم أنّ في طبقات الجاهليّة ما هو أعلى مِمّا تقول، ولكنّه الحَظّ، وقد يقع للغافل ما لا يقع للمُتحيِّن، وإنَّ قدركَ عنده لا يعني قدركَ عندنا». فأعدتُ عليه ما قلتُه من قبل:

مَا نَـــالَ أَهْـــلُ الجَاهِلِيَّـــةِ كُلُّهُمْ
شِعْرِي وَلا سَـــمِعَتْ بِسِحْرِيَ بَابِلُ

وَإِذَا أَتَتْـــكَ مَذَمَّتِـــي مِـــنْ نَاقِصٍ
فَهِـــيَ الشَّـــهَادَةُ لِي بِـــأَنِّي كَامِلُ

فأوغرَ ذلك صدره وأغاظَه، وأرادَ أنْ يقول شيئًا، ولكنّ (الفارابيّ) نَظَر إليه فَلان، وخرجَ وخرجْنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٣)

إذا أَردَتْ لِشِعْركَ الخلود فزَيِّنْه بالحِكمة

تركتُ كلّ شيءٍ من أثقال هذا القلبِ وأرحتُه هناك. مضيتُ على فَرَسي، اجتزتُ قصر (الدّارَين) ثُمّ قصر (الحَلَبة) الّذي أعدّ سيفُ الدّولة أكثرَ أجزائه ميادينَ للتّدريب على الفروسيّة، سِرتُ بمحاذاة نهرِ (قُوَيق)، سمعتُ صوتًا في أعماقي يقول لي: «إنَّ هناك في ضِفّةٍ ما على هذا النّهر زُبدةَ ما تعلّمْتَ في سنواتك الغابرات كلّها».

كانتِ الشّمسُ ترحل في الأفق، برودةٌ هانِئة مع نسائِمَ عليلة، خُيوطها وهي تُحتضَر تقلبُ فِضّةَ الماءِ ذهبًا، وقد ألقتْ أشجار الحُور العالية ظِلالَها المُتراقِصة على الماء، فصار الذّهب يتراقص، وعلى مدى الطّريق الّذي قطعتُه إلى (الفارابيّ) كنتُ أسمعُ خرير الماء، مع حفيف الأوراق، إلى تغريد الطّيور، قِطعةً مريحةً من النّغَم العَذْب.

وصلتُ إلى الكوخِ الّذي طلبَ منّي أن أوافِيه عنده، كان الكوخ كما قال في خَلاءٍ من الأرض، لا يُوجد حوله بشرٌ ولا بِناء، وبدا كُتلةً من الغموض بعدَ أنْ هبطَ اللّيل، طرقتُ الباب فلم يأذنْ لي أحدٌ بالدّخول ولم أسمعْ صوتًا، طرقتُ ثانية، وبعد الثّالثة دفعتُ الباب بهدوء، ونقلتُ أولى خُطُواتي إلى الدّاخل، كان الكوخ يتكوّن من حجرةٍ واحدةٍ وسيعة، فيه فراشٌ للنّوم في زاوية من زواياه، ودرجٌ ومكتبةٌ في الزّاوية المُقابلة، وما بين الزّاويتين نوافذ عالية وعريضة تُطلّ على النّهر.

خطوتُ بضع خُطوات، وأنا أنادي: «يا أبا نصر... أيّها المُعلِّم...». ولكنّني لم أجدْ أيّة استِجابة، تقدّمتُ إلى الدُّرج، وعلى ضوء شبح النّور المُتوارِي في السّماء رأيتُ رقوقًا مُتفرِّقةً على سطحه عليها رسوماتٌ لآلاتٍ متنوّعة، وتحتها شروحات، لا بُدّ أنّه هو الّذي رسَمها وأنّ هذا خَطّه. حاولتُ أنْ أقرأ، على ما تبقّى من نورٍ في المكان، فقرأتُ شيئًا وغابَتْ عنّي أشياء، ثُمّ تركتُ الرّقوق والرُّسومات، ومضيتُ أذرع الأرض بخطواتٍ واسعةٍ في أنحاء الكوخ وأنادي: «يا أبا نصر... يا أبا نصر». ولم أسمع شيئًا، غيرَ أنّني شعرتُ من خلال النّافذة الواسعة المُطلّة على النّهر أنّ شيئًا ما تحرّك حركةً خفيفة، أو ربُّما خُيّل إليّ وهمًا!!

خرجتُ من الكوخ، وطُفتُ حوله أنادي على المُعلّم، فلمّا صرتُ عندَ النّهر، رأيتُه، إنّه هو، أعرفُه من العِمامة المُلتاثة على القلنسوة القرمزيّة، بدا رجلاً من القرون الأولى يجلسُ كأنّه يهيم في سُبُحات الكون، كان يُعطيني ظهره، وكان اللّيل قد سحبَ رداءَه على المكانِ فأظلم، ولم يتحرّكْ من مكانه، ظلّ على هيئته مُسنِدًا ظهره إلى جذع شجرةٍ عتيقة هناك، ولم أسمعْ له صوتًا، ومَدّ الصّمتُ ثوبَه الشّفيف على المكان، ولم يكنْ ليُسمع في ذلك الهُدوء التّام غير خرير النّهر وهو ينسابُ بحركةٍ هادِئة في مجراه. فلمّا وقفتُ فوقَ رأسه، ودُرتُ حتّى صرتُ في مرمى عينَيه، لم يقلْ شيئًا، غيرَ أنّه أشارَ بيُمناه إلى يمينه كأنّه يقول لي: «اجلسْ بجانبي». حللتُ نِجادَ السّيف، وعلّقتُه على جذع الشّجرة، وجلستُ إلى جانبه، وكان الظّلامُ آنئذٍ قد غَطّى على ما تبقّى في النّور من مَفحَص.

ومرّتْ مُدّةٌ من الصّمت، لا نرى فيها غيرَ ضوء النّجوم المتراقصة في الآفاق المفتوحة أمامنا، وغيرَ خرير النّهر الوادع، وبعض أصواتِ

الطّيور في آخرِ لحظاتها قبل أنْ تأوي إلى وُكُناتِها. فلمّا استقرّتْ روحي وهدأتْ، واستسلمتْ إلى سِحْر المكان، قال: «ألا تسمع؟ أصِخْ سمعكَ أيّها الشّاعر جيّدًا، إنّ للكونِ موسيقى». وسكتّ، ورُحتُ أُحِدّ السّمع فعبرتْ أُذُنَيَّ موجةٌ خفيفةٌ من اللّحن الّذي كنتُ أسمعه في طفولتي وأنا أطوفُ بلادَ الشّمال مع الجنّ وأبي، ولا أدري إنْ كانَ صوتًا حقيقيًّا، أمْ أنّه ما توهّمْتُه مع هدوء المكان وخِفّة الكلمات والنّظرات الّتي تنبعث من هذا الفيلسوف الجميل!!

ثُمّ هتفَ دون أنْ ينظر إِلَيّ، كأنّه يُخاطِبُ النّسمات الّتي تتهادَى أمامنا: «إنّ لموسيقى الكون لحَنَين، لحنًا إذا سمعتَه بكيت، ولحنًا إذا سمعتَه ضحكت». وخُيِّلَ إِلَيّ أنّني ما سمعتُ من ألحان الكون إلاّ ما يُبكي. ثُمّ هتف وقد ثنى رجله اليُمنى تحتَه: «لقد أخطأ فيثاغورس فيما تخيّله من أصوات الكواكب وأُلفة الأنغام السّماويّة... أتعرفُ لماذا يا أبا الطّيّب؟!». وباغتني السّؤال، وبقيتُ جامِدًا كأنّني صخرة، وأردف: «لأنّه كان يستمع إلى الموسيقى بعقله، يُنشِئ لها قوانين رياضيّة، والموسيقى يُستَمَع إليها بالقلب، وقانونُها الذّوق».

ثُمّ قامَ من تحتِ الشّجرة فقُمتُ وراءَه، ومضى بخطواتٍ رزينةٍ إلى الكوخ فمضيتُ خلفه، فلمّا صار في داخله عمد إلى مِصباحَين من الزّيت فأضاءَهما، ثُمّ أضاء الثّالث وتقدّم به إلى دُرجه، فجلسَ إلى كُرسيّه، وجلستُ أمامه، فقال: «يا أبا الطّيّب إذا أَردتَ لِشِعركَ الخلود فزَيِّنْه بالحِكمة». فأقررتُ دون أنْ أقدر على القول، وهززتُ رأسي كالعاجز. «إنّ الشّجاعة وحدها لا تكفي، والجرأة لا تبلغ بك، وإنّما يبلغُ بك إلى ما تريدُ معهما حُسْنُ الرّأي» فكأنّني حوّلتُ قوله الفلسفيّ

إلى قولي الّذي سأجعله في قصيدةٍ يومًا ما:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَــــجَاعَةِ الشُّـــجْعَانِ
هُـــوَ أَوَّلٌ وَهْـــيَ المَحَـــلُّ الثَّـــانِي

«يا أبا الطّيّب. اقرأ تجدْ. فإنّ الشّعراء يتساوون في النّظم ويفترقون في المعرفة. وإنّهم يتساوون في الصّورة، ويختلفون في العين الّتي رأتْ بها تلك الصّورة. يا أبا الطّيّب استغناؤك عن النّاس عِزّة، واحتياجُكَ إليهم ذُلّ. فإذا زَهِدْتَ بما يملكون أحبُّوك، فلا تطمع فيما أيديهم فإنّما هو عَرَضٌ زائل. وانظرْ إليّ، أنا في بلاطِ سيف الدّولة اليوم، ولكنّني أتيتُ لأعلّمه، فإذا تَمّ لي ما أردتُ تركتُه. وإنّني فاعلٌ ذلك متى رأيتُ أنّه أخذَ عنّي. وإنّي تارِكُك متى رأيتُ أنّكَ أخذتَ كذلك». ثُمّ سكتَ وأطرق، وبلعتُ ريقي، قبل أنْ أقول: «سيّدي». «في صدركَ شَكٌّ؟». «يكادُ يقتلني!». «في الله». «أليسَ أحقَّ بالشّكِّ من سِواه؟!». «أنتَ على الطّريق». «فكيفَ أنجو؟!». «لن تنجو». «فكيفَ أعرفُ أنّه هو هو». «انظرْ إليكَ. أأنتَ وجودٌ أم عدم؟!». «وجود». «واجب الوجود عقلٌ محْض، يُعلّل ذاته بذاته، فهو عاقلٌ ومَعقولٌ في آنٍ واحد». «لم أفهمْ يا سيّدي». «الموجود الأوّل هو السبب الأوّل لوجود سائر الموجودات كلها». ثُمّ صمت، وبقينا صامِتَين زمنًا، قبل أنْ يُرتّب الرّقوق الّتي أمامه، ويغمس الرّيشة في الدّواة، ويقول لي: «يكفي اليوم».

ركبتُ فَرَسِي، وانطلقتُ عائِدًا إلى البيت. قطعتُ الطّريق كلّه في الظّلام وأنا أفكّر بكلّ كلمةٍ سمعتُها من الفيلسوف، وعزمتُ ألاّ أُفيتَ درسًا من دروسه.

ثُمّ رُحتُ أقلّب في الكتب الّتي في مكتبة داري، أقرأ موضوعاتها، وأبحثُ إنْ كان فيها شيءٌ للفارابيّ، فعثرتُ على كتابه (فصوص الحِكَم)، فانكبَبْتُ عليه أقرؤه. وفي غمرةِ ذلك، طرَقَ الباب طارق ففتحَ له (مُحَسّد)، وناداني من تحت: «أبتاه، هذا رَسول سيف الدّولة». «ماذا يُريد؟!» «إنّه يقول إنّ سيف الدّولة يطلب منك مُوافاتَه في قصر الحَلَبة». وهبطتُ من الطّابق الثّاني على عَجَل، وتركتُ الكتاب على الدّرج، وكان الوقتُ ليلاً، وركبتُ فرَسي، وهويتُ درب (سُويقة عليّ) إلى القصر، فأتيتُه، فإذا المشاعل قد أوقدتْ، والجيشُ قد تجَهّز، والفرسان قد تأهّبوا، وإذا على رأسهم (سيفُ الدّولة)، فلمّا رآني أقبلَ إليَّ بوجهه، وهتفَ بقائد الجيش: «أدُّوا إلى أبي الطّيّب عُدّته». ثُمّ هتف: «تسيرُ معنا؟!». «إلى أينَ أيّها الأمير؟!». «إلى المَوصل؟!». «المَوْصل؟!». «نعم». «ففيمَ؟!». «إنّ أخي ناصر الدّولة قد طلبَ منّي النّجدة ليستعين بي على قِتال (أحمد بن بُويه) الدّيلميّ، فأنا أُجيبه حتّى أقمع معه هؤلاء». فقلتُ: «أنا مع الأمير لولا العِيال». فابتسم. فسار يقطعُ الفيافي سيرًا طويلاً، ويُريحُ في الواحات راحةً قصيرة حتّى وصلَ إلى أخيه، فقاتلَ معه البُويهيّين، فأخَذَاهم. ورأى منّي الأمير حُسْنَ الصُّحبة، فحمله ذلك على الزّيادة في الوُدّ. وعادَت الكتيبة إلى (حلب)، فلمّا صارتْ على مشارفِها، ضرَبَ الجنود لنا خيمةً كبيرةً، ودعا إلى المجلس القادة والأطبّاء ومنْ حضر وطرفًا من الجُند، فقال لي: «تقاتل اليوم بالكلمة، وستُقاتل المرّة القابلة بالسّيف» «حُبًّا وكرامة». «ألم تقلْ في ما جرى شيئًا؟!». فأجبتُ: «قلتُ». فهتف: «أسمِعْنا، فدَتْكَ أسماعُنا». فأنشدتُ:

أَعْلَى المَمالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ

وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالقُبَلِ

فهتف: «صدقتَ». فتابعتُ:

وَمــا تَقَــرُّ سُــيُوفٌ في مَمالِكِهــا
حَتّى تَقَلْقَــلَ دَهْرًا قَبْــلُ في القُلَلِ
مِثلُ الأَمِــيرِ بَغَــى أَمْــرًا فَقَرَّبَهُ
طُوْلُ الرِّمَاحِ وَأَيْــدِي الخَيْلِ وَالإِبِلِ

فصاح: «الله... الله». فسرى مع إعجابه الغيظُ في الآخَرين.

عَلى الفُــرَاتِ أَعَاصِــيرٌ وَفِي حَلَبٍ
تَوَحُّــشٌ لِمُلَقَّــى النَّــصْرِ مُقْتَبَلِ
تَتْلُو أَسِــنَّتُهُ الكُتْبَ الَّتِــي نَفَذَت
وَيَجْعَــلُ الخَيْلَ أَبْدَالاً مِنَ الرُّسُــلِ

فصاح: «كأنّكَ كُنتَ معنا يا أبا الطّيّب».

فلمّا أتمَمْتُها. قال لقائد الجيش: «أَعْطِهِ خُمسَ ما غَنِمْنا». فأخذتُ المال وأخذَ الشّعراء الآخَرون الكَمد. فقفلتُ بالمال إلى (مُحسّد)، وأنا أتنهّد قائِلاً: «أوّاه لو كانتْ زوجتي حَيّة فترى النّعيم الّذي صِرتُ إليه».

ثُمّ لم أتنكّبْ عن دروس (الفارابيّ) في الفلسفة كلّ ثلاثاء بعدَ العشاء الأولى، على نهر (قُويق). قال لي مرّة: «إنّ للرؤساء هِمَمًا ينفردون بها عمّن سواهم من الناس، وهي أنّهم يعتقدون في جميع مَنْ دُونَهم الاستخدام والاستعباد، وفي أنفسهم الإصابة في جميع ما يأتونه». فسألتُه: «وهل يدخل سيف الدّولة في جملتهم؟!». فردّ كأنّه لا يُريد

الإجابة: « ليس شيءٌ من الأمور في العالم إلا وله وجهان أحدهما جميل والآخر قبيح». فسألتُه: «فأيّ وجهٍ هو سيف الدّولة؟»». فنَظَرَ إليّ مُعاتِبًا: «هُو في جُملتهم». فرأيتُ في قولته ما وافقَ رأيي، وإنّكَ إنْ صحبْتَ بعضَهم زمنًا، فإنّكَ لا تأمن أنْ يتغيّروا عليكَ في لحظة، فهم بذلك أغدرُ النّاس. ثُمّ أردف: « فما الدّارُ دارُ خلودٍ لنا، ولا المَرْءُ في الأرضِ بالمُعجزِ». فتشرَّبْتُ ذلك.

ومرّت سنةٌ في صحبةِ هذا الفيلسوف، وأخذتُ عنه فيها ما لم آخذه في سنين طويلةٍ سابقة عن سِواه، وقُدِّر لي أنْ أقرأ له عشرةَ كتبٍ، طَوّفَ فيها على جمهرةٍ من الفلاسفة شرقًا وغربًا، فقرّب إليّ وأبعد، إلاّ أنّ مرافقته حَلّتْ لي كثيرًا من المُعضِلات.

ثُمّ إنّ ابن (سيف الدّولة) تُوفّي في ميّافارقين، وهو يومئذٍ صغير، وكان أبوه يُؤمّل أنْ يكبرَ فيَرِثَ عنه المُلك، والموتُ يقصِمُ كلّ أمنية، ويهدمُ كلّ لَذّة، فلمّا عادَ اجتمعْنا لِعزَائِه، فقلتُ أذكر ذلك:

بِنَـا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَـا بِكَ فِي الرَّمْلِ
وَهَـذَا الَّـذِي يُضْنِي كَذَاكَ الَّـذِي يُبْلِي

إلى أنْ قلت:

فَـإِنْ تَـكُ فِي قَـبْرٍ فَإِنَّـكَ فِي الحَشَـى
وَإِنْ تَـكُ طِفْلاً فَالأَسَـى لَيْسَ بِالطِّفْلِ

فلمّا قفلْتُها بقولي:

هَـــلِ الوَلَـــدُ المَحْبُـــوبُ إلّا تَعِلَّةٌ
وَهَلْ خَلْوَةُ الحَسْـــنَاءِ إلّا أذَى البَعْلِ
وَقَدْ ذُقْتُ حَلْـــوَاءَ البَنِينَ عَلَى الصِّبا
فَـلا تَحْسَـبَنِّي قُلْتُ مَا قُلْـتُ عَنْ جَهْلِ
وَمَا تَسَـــعُ الأَزْمَانُ عِلْمِـــي بِأَمْرِهَا
وَلا تُحْسِـــنُ الأَيَّامُ تَكْتُـــبُ مَا أُمْلِي
وَما الدَّهْـــرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّـــلَ عِنْدَهُ
حَيَاةٌ وَأَنْ يُشْـــتَاقَ فِيْهِ إِلَى النَّسْـــلِ

بَكَى سيفُ الدّولة، وأمر لي بألف دينار، ولمّا خرجتُ عانقني. وانفردَ بي (الفارابيُّ) بعدَ انقِضاء المجلس، فقال: «ظَهَر في القصيدةِ أثرُ الفلسفة». فسَعِدْت، وسألته: «أين؟!». فقال: «في أكثر مواضعها، ولكن انظر إلى المطلع، كأنّك تريد أن تقول: الحَدّ بين الموت والحياة هو الحَدّ الّذي يسمح لي بأنْ أقول ولا يسمح له بذلك؛ تلك حقيقةٌ ظاهرةٌ ولكنّها ناقِصة، فنحنُ أيضًا موتى مثله؛ موتى يسيرون فوق الأرض فيتنقّلون، وهو مَيْتٌ مُستقرٌّ في مكانه؛ فنحن وإيّاه في حال واحدةٍ لولا الحركة والسُّكون».

وصارتِ الهدايا والأُعطيات بعدَ ذلك تأتيني من الأمير تِباعًا، وكان يأنسُ إلى محادثتي، ويلتذّ بسماع أشعاري، وكان ذلك ذلك يُوقِد النّار في الصّدور، ووصل ذلك الحسد إلى ابن عمّه الأمير (أبو فراس)،

وكانَ أولى به أنْ يكون بمنأًى عن ذلك. وعرفتُ المنزلة التي أنزلَني فيها الأمير، فكان ذلك مدعاةً للطمّأنينة والفرح من جهة، ولكنّه كان كذلك يُوجِب الحيطة والحذر.

وقال لي (سيفُ الدّولة) وهو يقود في ميدانٍ من ميادين قصر الحلبة فرَسَين دَهماءَ وكُمَيتًا: «اخترْ يا أبا الطّيّب ما تشاءُ منهما». وابتسم قبل أنْ يُردف: «على أنْ تُسمعني بيتًا واحِدًا». فهتفتُ وأنا أضحكُ وأجذبُ الدّهماءَ إليّ:

اخْتَرْتُ دَهْمَاءَتَيْنِ يَا مَطَرُ
وَمَنْ لَهُ فِي الفَضَائِلِ الخِيَرُ

وفي مرّة أخرى بعثَ إليّ مع رئيس الخَدَم خِلَعًا وثيابًا مُوشّاة ومُطرّزة من الحرير والدّيباج، وشَفَعها برقعة، يقول فيها، اكتبْ عن هذا في هذه الرّقعة، فكتبتُ:

فَعَلَتْ بِنَا فِعْلَ السَّمَاءِ بِأَرْضِهِ
خِلَعُ الأَمِيْرِ وَحَقَّهُ لَمْ نَقْضِهِ
فَكَأَنَّ صِحَّةَ نَسْجِها مِنْ لَفْظِهِ
وَكَأَنَّ حُسْنَ نَقَائِها مِنْ عِرضِهِ

ثُمّ لمّا انقضى على ذلك مُدّة ليستْ بالطّويلة، أولانِي نِعَمًا جديدةً، فبعثَ إِلَيّ فرسًا وجارية، وسأل: «يكفيني منكَ بيتٌ للفرس وآخَرُ للجارية». فكتبتُ: «لا أقولُ إلاّ في مجلس». فردّ: «لكَ ذلك». فجمَعَ الشّعراء والخُطباء والعُلماء والفلاسفة والأطبّاء في يومٍ ربيعيّ، ولمّا

استقرّ بنا الرّوض، هتفتُ بقصيدتي الّتي أوّلها:

أَيَــدْرِي الرَّبْــعُ أَيَّ دَمٍ أَرَاقَــا
وَأَيَّ قُلُــوبِ هَذَا الرَّكْبِ شَــاقَا
لَنَــا وَلِأَهْلِــهِ أَبَــدًا قُلُــوبٌ
تَلاقَــى فِي جُسُــومٍ مَــا تَلاقَــى

وطَرِبَ الأمير كأنّه يطربُ لأوّل مرّة، واهتزّ، وتميّزتْ قلوب الشّعراء غيظًا، وأردفتُ وأنا أكادُ أرقصُ طربًا لطرب الأمير ولغيظهم:

وَخَــصْرٌ تَثْبُــتُ الأَبْصَــارُ فِيْــهِ
كَأَنَّ عَلَيْــهِ مِــنْ حَــدَقٍ نِطَاقَــا

فشَهَقَ بعضُ العارفين شهقةً كادتْ تذهبُ بهواء الرّوض. فزادني ذلك طربًا والأمير معي، فوجدتُ أنّ أفضل مدحٍ أفعله هو أنْ أمدح نفسي، ثُمّ أُعرّج من بعدُ على سيف الدّولة، فهتفت:

سَــلِي عَنْ سِــيْرَتِي فَرَسِي وَسَيْفِي
وَرُمْحِــي وَالهَمَلَّعَــةَ الدِّفَاقَــا
تَرَكْنَــا مِــنْ وَرَاءِ العِيْــسِ نَجْدًا
وَنكَّبْنَــا السَّــمَاوَةَ وَالعِرَاقَــا
فَــمَا زالَــتْ تَــرَى وَاللَّيْــلُ دَاجٍ
لِسَــيْفِ الدَّوْلَــةِ المَلِــكِ ائْتِلاقَا

فأرادَ أحدُهم أنْ يقول: «لقد قَدّمَ نفسَه عليك». فكأنّني سمعتُ سيف الدّولة ينهره بظاهر كَفّه منزعجًا من مقاطعته، ويقول: «إنّه يستحقّ». فأردتُ بعدَها أنْ تكون القاصِمة لهؤلاء المُتشاعِرين، فهتفت:

فَأَبلِــغْ حاسِـــدِيَّ عَلَيْـــكَ أَنِّي
كَبَـــا بَـــرْقٌ يُحَـــاوِلُ بِي لَحَاقَـــا

فضحِكَ سيفُ الدّولة، وعَضُّوا هم على شفاههم. فأجهزتُ عليهم:

إِذَا مَـــا النَّـــاسُ جَرَّبَهُـــمْ لَبِيْـــبٌ
فَـــإِنِّي قَـــدْ أَكَلْتُهُـــمُ وَذَاقَـــا
فَلَـــمْ أَرَ وُدَّهُـــمْ إِلّا خِداعًـــا
وَلَمْ أَرَ دِيْنَهُـــم إِلّا نِفَاقَـــا

فلمّا أتممتُها، وقفَ (ابن خالويه) وهتف وهو غيرُ مُصدِّق: «أصلح الله الأمير، إنّ فينا شعراءَ يقولون أحسنَ من هذا». فهَزّ سيفُ الدّولة رأسه، وقال: «أحسنَ من هذا؟! فَلْنَسْمَعْ إذًا»، فما جَرُؤ أحدٌ أنْ يقول حرفًا. فلمّا رأى أنّ غضبته لم تَعُدْ عليه بخير، هتف: «سَلْه أيّها الأمير، بِمَ لُقّب؟!». فلم يسلْني الأمير، وبقيتُ صامِتًا أستمتع بالغيظ الّذي يمور في قلب (ابن خالويه)، فلمّا أبطأنا عليه، قال كأنّه قد أصابني في مقتل: «إنّه يُدعى المُتنبّي، وإنّه لا يرضى بهذا اللّقب إلاّ جاهل، ذلك أنّه يعني الكاذب، ومَنْ يقبل على نفسه أنْ يُنعَتَ بالكاذب». فقلتُ: «الشّيطان يَعِظ». فردّ مُحنقًا: «فإذا كنتَ نَبِيًّا فعلى مَنْ تنبأتَ؟». فقلتُ بسخرية: «على الشّعراء». وأشرتُ إليهم، فقال: «وما مُعجِزتُك؟».

فقلتُ وأنا أضحك ضحكةً خفيفةً، البيتُ:

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا عَــلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى
عَــدُوًّا لَــهُ مَا مِــنْ صَداقَتِــهِ بُدُّ

وأشرتُ إليه. فضحك سيفُ الدّولة يومها حتّى ارتجّتْ لضحكاته العالية قلوب الحاسدين، وضحكتُ معه!

(٤)

وَفي التّجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ

وجَمَع (أبو فراسٍ) من اتّفقوا على عداوتي، فهتفَ فيهم يَعنيني بقوله: «حصرمٌ يتزَبّب». فقال أحدُهم: «نأتي بخيرٍ مِمّا يأتي». وقال ثانٍ يقصدُ (أبا فِراس): «أنتَ أشعرُ منه». وقال ثالث: «لقد خدع الأمير». وقال رابع: «بل سَحَره». وقال (ابن خالَوَيه): «إنّ في شِعره هَناتٍ لا يقعُ فيها المُبتدِئون». وهتفَ أمْثلُهم: «فماذا نفعل؟». فرَدّ (أبو فراس): «نُوقِعُ به. السّكوتُ سيزيدُه وقاحةً، وسيتسفحل أمرُه عند ابنَ عمّي»، فوافقه أحدُهم: «الأفعى إذا أغراكَ ملمسُها فلا تدعها حتّى تقطعَ رأسَها».

فدَخل عليهم (سيفُ الدّولة)، وباغَتَهم بدخوله، فلمّا رآهم، ابتسم وقال: «علامَ اجتمعتُم؟». فردّ (ابن خالَوَيه): «على الخير إنْ شاء الله». فحنق (أبو فراس)، وهتف: «بل على هذا الشّرّ». فجفل سيف الدّولة من قوله، وسأل: «ماذا تعني يا ابن عمّي؟!». «إذا لم تلتفتْ إلى مَنْ يحفر السّراديبَ تحتَ القصر، فسينهار على رؤوسنا جميعًا». فظهر الجِدّ على وجه (سيف الدّولة)، وسأل مُحتَدًّا: «أفصِحْ، وإلاّ جعلتُها سُبّةً عليك». «إنّه المُتنبّي». «المُتنبّي؟ ما شأنُه؟». «سَرَقَ قلبَك». فضحكَ الأمير، وهتف: «سَرَقَ قلبي؟! بِمَ؟!». «بشِعره البارد». «فتُحسِنون أنْ تقولوا ما يقول؟». «بل أحسنَ مِمّا يقول». «فهاتوا فأنا سامِع».

فتَلجْلُجوا، غيرَ أنّ إقدام أبي فراسٍ شَجّعهم، فهتفَ: أنا أقول:

لَئِــــنْ خُلِقَ الأَنَــــامُ لحَسْــــوِ كَأسٍ
وَمِزْمَــــارٍ وَطُنْبُــــورٍ وَعُــــودِ
فَلَــــم يُخلَــــقْ بَنُــــو حَمْــــدَانَ إِلّا
لمَجْــــدٍ أَو لِبَــــأْسٍ أَو لجُــــودِ

فَهَزّ سيفُ الدّولة رأسَه ورضي له ذلك، وتقدّم الببّغاء فأنشد:

جَيْشٌ يَفُوتُ الطَّــــرْفَ حَتَّى لا يُرَى
مَا غَــــابَ مِــــنْ أَطْرافِهِ مَحْــــدُودَا
وَيَجِيْــــشُ حَتَّــــى لا يَظُــــنَّ عَدِيدَهُ
أَحَــــدٌ لِكَثْــــرَةِ جَمْعِــــهِ مَعْــــدُودَا

فابتسم الأمير، ونظَر إلى الشّاعر النّامي، وأنتَ ماذا تقول:

أَمَرْنَــــا هَوَانَــــا أَنْ يَصِحَّ لِنَسْــــقَمَا
فَأَدْمَــــى قُلُوبًا صَادِيَــــاتٍ إِلَى الدِّمَا
أَرَتْنا جَنَــــى العُنَّابِ لِلْــــوَرْدِ ظَالِمًا
وَمِــــنْ أُقْحُــــوانٍ مُرْمِــــضٍ مُتَظَلِّمَا

وخَطا الأمير إلى الصّنوبريّ، وحَثّه على القول، فأنشدَ:

أَجْرَتْ عَلَى مَجْــــرَى الخَلُوقِ خَلُوقَا
وأَتَتْــــكَ تَلْطِمُ بِالشَّــــقِيْقِ شَــــقِيْقَا

لَمَّــا أُرِيْــقَ الدَّمْــعُ فِي وَجَنَاتِهَــا
أَيْقَنْــتُ أنَّ دَمِــي هُنَــاكَ أُرِيقَــا

وكانتْ (خولةُ) أختُ (سيف الدّولة) في جانبِ الموضع، في سِتْرٍ منه، فلمّا مرّتْ عليهم لحَظات سُكُوتٍ بَرَزَتْ من خِباءَها، وتقدّمَتْ إليهم، وهتفتْ: «والله ما قولُكم إلى قوله بشيءٍ، وما تُحسِنون أنْ تكتبوا مثلَ ما كتب، اسمعوا إلى الجَمالِ في شِعره كأنّه يعنيكم:

إِذَا كَانَ مَــدْحٌ فَالنَّسِــيْبُ المُقَــدَّمُ
أَكُلُّ فَصِيْــحٍ قَــالَ شِــعْرًا مُتَيَّمُ
لَحُــبُّ ابْــنِ عَبْــدِ الله أَوْلَى فَإِنَّهُ
بِهِ يُبْــدَأُ الذِّكْــرُ الجَمِيْــلُ وَيُخْتَمُ
أَطَعْتُ الغَــوَانِي قَبْلَ مَطْمَحِ نَاظِرِي
إِلَى مَنْظَــرٍ يَصْغُرْنَ عَنْــهُ وَيَعْظُمُ

فدُهِشوا من بروزها وجرأتها، ومن حُكمِها القاسي على أشعارهم. وضَحِكَ أخوها (سيفُ الدّولة)، واغتاظ ابنُ عمّها (أبو فراس). وسألها سُؤال النّاهر: «فما أخرجكِ مِن خِبائِكِ وأدخلكِ مجلِسَنا؟!». فردّتْ بكبرياء: «أخرجُ متى أشاءَ وأدخلُ متى أشاء، أنا أميرةُ بني حمدان». ونظر (أبو فراسٍ) إلى ابن عَمّه يستقوي به عليها، فهتف: «لقد كانتْ مُحِقّة، إنّها أميرةُ بني حمدان!».

ثُمّ أمرهم (سيفُ الدّولة) بالانصرافِ جميعًا واستبقى أخته (خولة)، واقتربَ منها وهو لا يكادُ يُخفي ابتسامته: «لقد صرتِ ناقدة».

«أنتَ أعلمُ بالشّعر منّي، وتعرفُ أنّهم لا يستوون مع أبي الطّيّب». «وتحفظين من شعره؟». «بل أحفظُ كلّ ما قاله من قبلُ، ونتناشدُ أشعاره أنا وبنات العَمّ وبعض جوارينا، وإنّي لأرجو أنْ يُطيل الله بقاءَه بيننا حتّى يظلّ لهذا الشّعر هذا الجمال».

ووصلَ خبرُها وموقفها إليّ، نَقَلتْه لي إحدى الجَواري الّتي حَدَّثَتْها الحادثة، فوقعَ ذلك في قلبي، وكأنّ قلبي الّذي ظلّ فارِغًا بعد موتِ زوجتي، قد تحرّك، يستخبرُ فراغَه عمَنّ تملؤه، فهل هي تلك؟!

ولمّا قَدِمَ العيدُ، خرجَ أهلُ (حلبَ) إلى الخَلاء للصّلاة، وخرجَ الرّجال والنّساء والأطفال والصّبيان، وكان لنا نحنُ خاصّةَ الأمير وجلساءَه وأهل بيتِه موضعٌ مُعَيّن من هذه الصّلاة، فقيل لي: «هذه خولة». فلمّا رأيْتها زادَتْ إلَيّ محبّة، كانتْ أجملَ النّساء، وأوفرهنّ خُلُقًا، تحفظُ الشّعر، وتنقده، وتعرفُ اللّغة وأهلها. فزانَها ذلك في قلبي وفي عقلي. وعُدتُ من ليلتي تلكَ أُفكّر فيها، وأقلّب الأمر على وجوهه كلّها، فما قدرتُ على النّوم.

ثُمّ لقيتُها في مناسبةٍ أخرى، فحدّثْتُها، فوجدتُها أملحَ النّساء حديثًا. ونمتْ إلَيّ أنّ الوُشاة لن يتركوني، وأنّ أشدّهم بُغضًا لي (أبو فراس)، من جهة الشّعر، ومن جهتي يغارُ ولا يُريدُ لي أنْ أتّصل بِكَ، فكُنْ على حَذر، فقلتُ في نفسي: «إنّها تهتمّ لشأني، فلا بُدّ أنّ شيئًا مِمّا في قلبي في قلبِها. واطمأنَنْتُ إلى ذلك الخاطر. وإنّ القلبَ إذا أحبّ حَجَب العقل».

وللجدران آذان. وللعيون عيون. وعلى ما تأتي رقيب. وما ذاك حتّى دخلَ (أبو فراسٍ) على الأمير هائِجًا مُغتاظًا: «إنّ هذا اللّص يريدُ أنْ يسرقنا». فأجهدَ (سيفُ الدّولة) نفسه في تهدئته، وسأله: «أقطعُ رأسه لا يدَه، ولكنْ مَنْ هذا اللّصّ؟!». «أبو الطّيّب المتنبّي». «المتنبّي؟!». «يتلصّصُ على نسائِنا، ويبعثُ جارِيَتَيه لتوصل رسائله وقصائد عشقه في ابنة عَمّي، أما لهذا البيت من بني حمدان حرمة؟!». وصرخَ وهاج. فاهتاجَ (سيفُ الدّولة) لهياجه: «انظرْ ما تقول؟!». «ليسَ هذا فحسب، بل إنّه يُمنّي نفسَه أنْ يتزوّجها فيكون شريكَكَ في المُلك، ثُمّ ينقلبُ عليكَ ويستأثر بالمُلكِ لنفسه». وخفّف (سيفُ الدّولة) من غضبته الأولى، وهتف: «إنّه مجرّد شاعر». «إنّه أفعى صغيرة، تُطلّ برأسِها، وإنْ لم تقطعه على الفور، نهشَتْكَ ونَهَشَتْنا». «هَوّنْ عليكَ يا ابن عمَي». «شرفُنا ومُلكنا قَبْضُ الرّيح». «دَعْ عنكَ أوهامَك، وتَحَلَّ ببعض الصّدق». «وهي تُحبّه». «خولة؟». «وَمَنْ غيرُها، وتردّ عليه رَسائله، وتقول فيه الشّعر، إنّها مُتيّمةٌ به أكثرَ مِمّا هو مُتَيَّمٌ بها». ووقفَ آنئذٍ (سيفُ الدّولة) من كرسيّه، وأشهرَ سيفَه في وجه ابن عَمّه، وصرخ: «صَهْ، وإلاّ قطَعتُ لسانك». «اقطعْ لساني يا ابن عمَي كما تشاء، ولكنْ اقطع معه عنق هذا العاشق الخائن». وخرجَ وهو يُرغي ويُزبد.

وخَلا (سيفُ الدّولة) إلى نفسه، وراحَ يُقلّب ما سَمِعَ على وجوهٍ كثيرةٍ، وما عرفَ أينَ يستقرّ، ولا كيفَ يرى الرّأي. فإذا اطمأنّ إلى سخافة ما سَمِعَ ساعةً، هَزّه القلق مِمّا سَمِعَ ساعاتٍ، وبدأ مجرى الدّم في قلبه يحولُ إلى سَواد، ومضتْ على تلك الحادثة أسابيع.

ثُمّ أرسلَ (الفارابيّ) أحدَ خدم القصر إلى داري يطلبني، فجِئتُه في غرفة الفلسفة في مكتبة القصر على ما اعتاده من الجلوس الطّويل فيها، وقال: «يا أبا الطّيب، صُحبة الملوك شَرُّها أكثرُ من خيرها، وضررُها أشدُّ من نفعها». وساورني القلق من عبارته هذه، وسألتُه: «هل تعرف...؟!». وتردّدتُ، وهممتُ أنْ أُكمِلَ فقاطعني: «لا أحدَ يعرف». واختلطَ عليّ قولُه، هل كان يعني المعنى الحقيقيّ أم المعنى الفلسفيّ؟! وزادني ذلك حيرةً، ثُمّ انتشلني من حيرتي صوتُه السّاحر: «لا سعادَة لأحدٍ في هذه الدّار، السّعادةُ في ما تُعطي، لذّة العطاء تجلبُ طُمأنينة النّفس. والنّفوس مُركّب فيها نَهشُ الآخَر كأنّها سِباعٌ تتهارَش». وصمت، فخطر ببالي أنْ أصوغ ما قاله بيتًا، فقلتُ دون أنْ يسمع:

إِنَّمَا أَنْفُسُ الأَنِيْسِ سِبَاعٌ
يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاغْتِيَالا
مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ غِلابًا
وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالا

وسمع منّي البيت الأخير، فقال: «غلبَتْكَ طينِيّتُك. يا بُنَيّ الحُبّ ليسَ ما هاجَ في الفُؤاد، فإنّه كثيرٌ فاسد، بل ما قَرّ في العقل فإنّه قليلٌ صالح». فوجدْتُني أهمسُ لنفسي: «هذا الشّيخ كُشِفَ له عمّا في خاطري، وصُغتُ قوله شِعرًا:

فَإِنَّ قَلِيْـــلَ الحُبِّ بِالعَقْـــلِ صالِحٌ
وَإِنَّ كَثِـــيْرَ الحُبَّ بالجَهْلِ فَاسِـــدُ

ثُمّ إنّه تنهّد تنهيدةً طويلة: «يا أبا الطّيّب، إنّها آخرُ ساعاتي في هذا القصر، ولقد أخذتُ منه حاجتي كما أخذَ منّي حاجته، وإنّي غادٍ إلى كوخي، فلازِمٌ حِلْسَه حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولا». ودَفَعَ إليَّ بكتابٍ خَطّه بيده من أجلي، ضَمّنه زُبدةَ تجاربه، وقال: «إذا خلوتَ إلى نفسِك، وصَفَتْ لكَ نفسُك، فاقرأْ كتابي هذا». وكان ذلك آخر عهدي وعهد القصر به.

****

ثُمّ صاحَ مُنادٍ: «يا خيلَ الله اركبي». وكان ذلك في أواخر الصّيف من عام ٣٣٩هـ. ودَعَا سيفُ الدّولة كلّ قادرٍ على السَّيْر أنْ يسير في جيشِه، وبعثَ إليّ: «فلبّيْتُ مُسرِعًا مُتشوّقًا».

وسارَ الجيشُ بثلاثين ألفَ فارسٍ تارِكًا قصر الحَلَبة، وسِرْتُ في رِكاب الأمير في المُقدِّمة، وبدا على وجهه بعضُ النّفور منّي، فعلمتُ أنّ ما قالتْه (خولةُ) كانَ حَقًّا، وأَرَدْتُ أنْ أُبرِّدَ حَرّ ظَنّه، وأنْ أُرِيَه من نفسي كلّ خيرٍ، فكنتُ لا أفارقه؛ إذا نادَى كنتُ أوّلَ مُلَبٍّ، وإذا سأل كنتُ أوّل مُجيب. ومضينا نقطعُ القِفار، والجيشُ يهُزّ حوله جانِبَيه، ونحنُ في الرّأس، وفينا من الشّعراء ابنا عَمّه؛ أبو فراسٍ وأبو زُهير مهلهل بن حمدان التّغلبيّ.

وقصَدْنا أراضي (بيزنطة)، وانضَمّ إلينا في الطّريق أربعةُ آلافٍ أخرى من (طرسوس) بِقيادة القاضي (أبي حصين)، فصرنا أربعة وثلاثين ألفَ مُقاتِلٍ، فقلتُ للأمير مقولة ابن الخَطّاب: «لن يُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلّة. وكيفَ وفينا مَنْ فينا؟!».

ثُمّ هاجمْنا إقليم (قباذق) واستولينا على كثيرٍ من مُدُنه، وقتلْنا وسبَيْنا كثيرًا من البيزنطيين، ثُمّ أخذَتْنا حَمِيّة النّصر، فاخترقْنا بالجيش مُدُنَ (قيصريَّة) و(سَمَنْدُو) و(خرشنة)، وأحرقْنا رَبَضَها، ثُمّ عَبَرْنا نهر (آلس) وهو نهرٌ عظيمٌ مَهول تغرقُ فيه كلّ عائِمة، ووصلْنا إلى (صارخة) فأحرقْنا نُجودَها وَمَنْ خرجَ من الجنودِ فيها علينا، وكانتْ على بُعد سبعة أيّام من (القُسطنطينيَّة)، وصار جيشُنا يُشكّل تهديدًا لأسوارها، وتذاكرْنا قولة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في فاتِحها، فرجونا أنْ يكون المُبشَّر بها (سيفُ الدّولة)، وأنْ يكون الجيشُ المعنيّ جيشَنا، وانتصرْنا قريبًا من القُسطنطينيّة على قُوَّةٍ عسكريَّةٍ بِقيادة (الدُّمُسْتق)، وأسرْنا عددًا من قادتها وكثيرًا من جُنودها، وغنمْنا أموالًا طائلة.

استمرّتْ هذه الغَزَوات شهرَين، ودخل الشّتاء، فرأى الأمير عند هذا الموضع أن نتوقّف ونعود أدراجنا إلى (حلب)، فإنّه إذا طالَ علينا الوقتُ وتغوّل الشّتاء فلا يُمكن مُواصلة التّقدُّم، وسنكون في فَخٍّ صعب. فرحلْنا حتى عبرْنا نهر (آلس) ثانيةً راجعين. فلما أمسيْنا نزل السواد وأكثر الجيش، وانتهيْنا إلى (بطن لقان) فلقينا (الدُّمُسْتُق) به ظهرًا. وكان (الدُّمُستق) في ألوفٍ من الخيل، فلما نظر إلى أوائل خيلنا ظَنَّها سَرِيّةً واحدةً فثَبَتَ لها وقاتل أوّلَ النّاس حتى هزمهم. وأشرفْنا عليه

مع (سيف الدولة) فانهزم، وقتلْنا من فرسانه خلقًا وأسرْنا من بطارقته وزَرازِرَتِه ووجوه رجاله نيّفًا على ثمانين، وأفلتَ (الدُّمُسْتُق). وعُدْنا مع (سيف الدَّوْلة) إلى عسكرنا وسواده وقفلْنا غانمين. فلما وصلْنا إلى عقبة تعرف بمقطعة (الأشفار) صافَّ العدوُّ جيشَنا على رأسها. وأخذْنا ساقةَ الناس نحميهم ليمرّوا. فلما انحدرْنا بعد عبور الناس ركبَ العدوُّ وشَنّ علينا الإغارة فهربَ من الفرسان جماعةٌ منّا، ونزل (سيف الدَّولةِ) على نهر (بُراد)، وَحَصَر العدوُّ عَقبة السَّير، وهي عَقَبةٌ طويلة فلم نقدرْ على صعودها لضيقها وكثرة العدوّ بها، فعدلَ بِمَنْ تبقّى من الجيشِ معه، وتياسَرْنا في طريقٍ وَصَفَهُ للأميرِ بعضُ الأَدِلّة. وحُصِرتُ مع (سيف الدّولة) في هذه الدرب الصّعبة والعَقَبة الضّيّقة، وعزلْنا الرّوم عن مُقدِّمة الجيش؛ وتخلَّى عنّا عددٌ آخَرُ من جُند الثُّغُور، واقتلع جُنُود الرُّوم الأشجار وسدُّوا بها الطُرُق، وألقَوا الحجارة الضَّخْمة من قمم الجبال علينا فزادَ هَلَعُ مَنْ معنا، وكانتْ مقتلةً عظيمة، وفرّ كثيرٌ من جُنُودنا، في الوقت الذي كان فيه (الدُّمُسْتقُ) يضرب ما تبقّى من ساقة جيشنا بِعُنف، ووجد (سيف الدَّولة) نفسَهُ ووجَدْنا نحن الّذين ثَبّتْنا معه أنفُسَنا في مأزقٍ حرجٍ وخطير. وجاءنا العدو آخر النهار من خلفنا، وقاتَلَنا إلى العشاء، وأظلم اللَّيْل، وتَسلَّلَ بعضُ جُنودِنا يَطلُبون سَوادَهم، فلمّا خَفَّ عنه أصحابُه سارَ حتَّى لَحِق بالسَّوَاد تحتَ عقبةٍ قريبةٍ من بحر (الحَدَث)، فوقف وقد أخذ العدوُّ الجَبَلَين من الجانِبَيْن وجعل (سيف الدَّولة) يستنفر الناس فلا ينفر أحد. ومن نجا بنفسِه من العقبة نهارًا لم يرجع. ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة. وتخاذل النَّاسُ وكانوا قد مَلُّوا السَّفَر. فأمرَ (سيفُ الدَّولة) بقتل البطارقة والزَّرازِرَةِ وكُلِّ مَنْ

كان في السَّلاسِل، وكان فيها مئات. وانصرف (سيفُ الدَّولة). وكان جيشُ الرّومِ قد اجتازَ بجماعةٍ مِنَّا بعضُهم نيامٌ بينَ القتلى من التَّعب فينحرونهم، وبعضُهم يُحرِّكونهم فإذا تحرّكوا أو نظروا وهم مُلقَون على الأرضِ أجهزوا عليهم، وعُدْنا إلى (حَلَبَ) ولم يثبتْ مع (سيف الدّولة) إلا أنا وسبعةٌ آخرون، وقُتِل ابنُ عمّه الشّاعرُ المُهلهِل، فما نجا يومَها سِوانا من جيشنا.

فلمّا أَمِنَ (سيفُ الدّولة) في (حلب)، واجتمعْنا في المجلس بعدَ بضعةِ أيّامٍ عرفَ لي قَدْري، وعرفَ الفرسان من مُدّعي الفروسيّة، وكان يومَ غَضبٍ وحُزن، وكنتُ قد كتبتُ قصيدةً أصفُ فيها ما رأيتُ وعاينتُ، وأنشدْتُها إيّاه:

غَـــيْري بِأَكْثَرِ هَذَا النَّـــاسِ يَنْخَدِعُ
إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثوا شَـــجُعُوا
أَهْـــلُ الحَفِيْظَـــةِ إِلّا أَنْ تُجَرِّبَهُـــمْ
وَفِي التَّجَـــارِبِ بَعْدَ الغَـــيِّ مَا يَزَعُ
وَمَـــا الحَيَاةُ وَنَفْسِي بَعْـــدَ مَا عَلِمَتْ
أَنَّ الحَيَـــاةَ كَـــمَا لا تَشْـــتَهِي طَبَعُ

ونفى ثباتي مع سيف الدّولة حينَ فرّ النّاس وَسواسَه مِمّا حَدّثه به (أبو فراس)، وعادَ إلى مودّته، ولمّا قلتُ في القصيدة:

وَفارِسُ الخَيْلِ مَنْ خَفَّـــت فَوَقَّرَهَا
فِي الدَّرْبِ وَالـــدَّمُ فِي أَعْطَافِهَا دَفَعُ

هتفَ: أشهدُ أنّكَ فارس. ولمّا قلتُ:

لَقَــدْ أَباحَــكَ غِشًّــا في مُعامَلَةٍ

مَــنْ كُنْتَ مِنْهُ بِغَيْرِ الصِّـــدْقِ تَنْتَفِعُ

قال: عرفْنا مَنْ ثبتَ مِمّنْ فرّ، وقد شَهِدَ لك السّنانُ كما يشهدُ لك الآن اللّسان. فلمّا ختمتُ القصيدة بقولي:

إِنَّ السِّــلاحَ جَمِيْعُ النَّــاسِ تَحْمِلُهُ

وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّــبُعُ

أحنى رأسَه، وقَرّ قلبُه، وزالَ ظَنُّه، وعُدت إلى ما كانَ لي عنده من المكانة، ولكنّ الماء الّذي يتفجّر في الشّتاء، سيغيض في الأرض أوان الصّيف، وسيُصبح الماءُ غورًا.

(٥)

خَيالُ خَوْلَة

وعكفتُ عامًا كَرِيتًا أقرأ في المكتبة الّتي وَهبني إيّاها الأمير، ووصلَ إلينا خبرُ وفاة (الفارابيّ) بعدَ رحيله عنا بستّة أشهر. فحزنتُ على فَقْدِ عظيمٍ في معرفة النّفس البشريّة، ومضى (سيف الدّولة) إلى (دمشقَ) ليشهدَ دفنَه، ومضيتُ معه أنا وعشرةٌ انتخبهم لأجل ذلك، وهوى الأمير فسَجّى الجسد في التّراب، ورأيتُه يبكي، ثُمّ قام من القبر وهو يحار ما يفعل، فتلقَّيناه، فقال: «لقد كان أهلاً لكلّ فضل». وبكينا عليه معه، ثُمّ أخذَ العَزاء عنه لأهل الشّام، وكان (الفارابيّ) مُتنسِّكًا زاهِدًا في الدُّنيا، يعيشُ على أربعةِ دراهم في اليوم كتبها له الأمير، وطلبَ منه ألاّ يزيدَ عليها.

وعُدْنا إلى (حلب)، فما استطعنا أنْ نُكلّم (سيف الدّولة) في الطّريق كلمةً واحدةً لشدّة حُزنه. فلمّا أشرفْنا على ميادين قصر الحلبة، أمرَ (سيفُ الدّولة) لي بأحسنِ جياده، وهو (السّابح)، فقال: «هُو لك، تُقاتِلُ فوقه معي في سبيل الله».

غير أنّ (السّابح) الّذي كان مهوى أفئدة الأمراء قبل الأعيان والوزراء قد أحفظَهم عَلَيّ. ثُمّ إنّني تعبتُ لكثرةِ من يتقافزون حولي يريدون أنْ يُطامنوا من كبريائي، وما علموا أنّهم جِراءٌ تُطاوِلُ جَبَلاً.

ودخل عليه (أبو فراس) في عُدّة الشّرّ، هو ومجموعة من المُتشاعِرين وأهل اللّغة المُتحاملين، فحمل اللّواء (أبو فراسٍ) فقال: «إنّه لا يمدحك حتّى تُعطيه». «وهل يكون مدحٌ دون عَطاء؟». «بالطّبع يا مولاي، إنّ مدح الحُبّ هو الّذي يكون دون عَطاء، وأما مدح العَطاء فهو مدحُ الجيب. فانظر إلى حال هذا الدّعِيّ، إنّه طامِعٌ بما في خزائنك، شَرِهٌ إلى المال لا إلى المجد، يتكسّب بشعره منافِقًا». وسكت. فأردف (ابنُ خالَوَيْه): «إنّه لا يلتفتُ إلى إقامة حدود النّحو واللّغة في شِعره، فهو يسلقُ البيت سلقًا دون أنْ يُنضِجه، ولقد وقفتُ على عشرات المواقف الّتي أخطأ فيها لغةً، وهذا ما لحظتُه فيما سَمعته فما بالك فيما خَفِي عنّا؟! سمعتُه يقول في مطلع قصيدته الّتي مدح بها التّنوخيّين:

أُحَـــادٌ أَم سُـــدَاسٌ فِي أُحَـــادِ
لُيَيْلَتُنَـــا المَنُوطَـــةُ بِالتَّنَـــادِي

فما سُداسُ هذه؟ لقد رُوي عن العرب أُحادٌ وثُناء وثُلاث ورُباع وعُشار، وأمّا سُداس فلا. ثُمّ إنّه صَغّر (ليلة) فصارتْ (لُيَيْلة)، فإذا كانت اللّيلة واحدة قصيرة، واللُّيَيْلة أقصرُ منها، فكيف تطول إلى يوم التّنادِي وهو يوم القيامة؟! إنّ استخدام اللّفظ في غير موضعه أفسد المعنى». فقال (سيفُ الدّولة): «أنتَ أعلمُ بالنّحو مِنّي، ولكنْ لا بُدّ أنْ نسمعَ المتنبّي، ولا تُهمةَ حتّى نسمع قائلها ورادَّها، هذا من باب العدل». ثُمّ قام شاعرٌ فقال: «إنّه لا يكتبُ على السّجيّة ولا يدفعه إلاّ الطّمع». فردّ عليه: «وأنتَ تكتبُ على السّجيّة ويدفعك الزُّهد!!». فخنس. ثُمّ قامَ غيرُه فقال: «إنّه يُبطِئُ في مدحك، ويطول به الأمر». «أمّا هذه فصدقت، غير أنّه اشترطَ في شروطه الثّلاثة أوّل ما لقيناه علينا

ذلك، فقال: ألاّ يُكرهني الأمير على القول، فأقول متى أشاء لا متى يشاء». فردّوا بصوتٍ واحدٍ: «ومَنْ هو حتّى يشترط عليكَ شرطًا مُهينًا مثل هذا؟!». فدارتِ العبارةُ الأخيرةُ في رأس (سيف الدّولة).

ثُمّ إنّ الأمير قرّر أنْ يسير شَمالاً فيُؤدّب الرّوم، ويبني قاعدةً له في (مرعش)، فكان أوّل ما يفعله قبل أنْ يغزو بلادَ الرّوم، أنْ يأتي بالعُلماء والخُطباء فيُحمّسوا النّاس على أنْ يسيروا إلى قِتال عدُوّهم، فيقف الخطيبُ هادِرًا في الجيش: «إن للجنّةِ بابًا حدودُه تطهير الأعمال، وتشييدُه إنفاقُ الأموال، وساحتُه زَحفُ الرِّجال إلى الرّجال، وطريقُه غَمْغَمةُ الأبطال، ومِفتاحُه الثَّباتُ في مُعترَكِ القتال، ومَدخلُه مِن مَشْرَعَةِ الصَّوارم والنِّبال». فترى الجيش يهيج ويموج، ثُمّ كان (سيف الدّولة) يستصحبُ بعضَهم إلى تلك الثّغور.

فمضيْنا شمالاً نتوغل في بلاد الرّوم، فلمّا صار الجيشُ على نَشزٍ مُوفٍ على (مرعش)، نَزَل المطر، فكانَ شارة وكان بِشارة، ثُمّ انهزم (الدُّمُستق) وجيشُه أمام (سيف الدّولة)، فلمّا تَمّ النّصر، أقامَ فيها الأمير شهرَين، فأعادَ بناء قلعتها، ولم ينتظر التّمام، فارتحل، وتركَ مُهندسيه ومِعماريّيه يُتمّونها، وعُدْنا إلى (حلب). فأمر بالمجلس فالتأم، ونادَى بالشّعراء فقالوا، ثُمّ صمَت عنهم، ونادَى: «يا أبا الطّيّب، ما قلت؟!». فأتيتُ وأنا سيّد الشّعراء إلى سيّد السّلاطين، فجلستُ عن يمينه في الموضع الّذي أقررتُ عليه وأَشهَدت، فما أَعْجَبَ جُلُوسي في الموضع أحدًا، فما أثّر ذلك في إقبالي على ما أريدُ من القول شيئًا، ومتى كُنت أحفل بهم؟! فقلت:

فَدَيْنَاكَ مِــنْ رَبْــعٍ وَإِنْ زِدْتَنا كَرْبَا
فَإِنَّــكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّــمْسِ وَالغَرْبَا

ثُمّ سَرى الصّمتُ التّامّ في المجلس، فأمّا الأمير فليطرب، وأمّا الحُسّاد فليبحثوا عن مدخلٍ ينتقصون من خلاله دُرَرِي. فما وجدوا إلاّ ما يزيدُهم غيظًا، فلمّا وصلتُ إلى قولي:

وَفَتّانَــةَ العَيْنَــيْنِ قَتّالَــةَ الهَــوَى
إِذَا نَفَحَتْ شَــيْخًا رَوائِحُها شَــبَّا
لَها بَــشَرُ الــدُّرِّ الَّذي قُلِّــدَتْ بِهِ
وَلَمْ أَرَ بَــدْرًا قَبْلَهَــا قُلِّدَ الشُّــهْبَا
فَيا شَــوْقِ مَا أَبْقَى وَيَا لي مِنَ النَّوَى
وَيَـا دَمْعِ مَا أَجْـرَى وَيَا قَلْبِ مَا أَصْبَى

نظرتُ إلى وجه (أبي فراس) فرأيتُه يتمعّر، ونظرتُ إلى وجه (سيف الدّولة) فرأيتُه يتبسّم. وما أدري إذا كان غيرُهما يرى أنّ هذه الأبيات ما عُنِيَ بها إلاّ (خولة).

ثُمّ تابعتُ ترنّمي، أضعُ سنان الحرف في آذان الحَسَدة:

إِذا الدَّوْلَةُ اسْــتَكفَتْ بِــهِ في مُلِمَّةٍ
كَفَاهَا فَكَانَ السَّــيْفَ وَالكَــفَّ وَالقَلْبَا
تُهَابُ سُــيُوفُ الهِنْدِ وَهْــيَ حَدَائِدٌ
فَكَيْــفَ إِذَا كانَتْ نِزارِيَّــةً عُرْبا؟!

فاهتزّت العروبة والعربيّة فيه، فأزال البيت كلّ شَكٍّ في نفسه تُجاه ما يهدمونه من وُدٍّ بيني وبينه. فصرخَ: «وهَبْتُكَ لهذَين البيتَين ضيعةً بـ (بَصِّفْ)». وكانت (بَصِّف) من ضياع (معرّة النّعمان) في طريق الذّاهب من (حلبَ) إلى (دمشق)، وكانت أمرع ضياع (سيف الدّولة)، ولم تلفتْني هذه الهِبةُ العظيمةُ عن سِحر الشِّعر، فتابعتُ:

أَرَى كُلَّنَـــا يَبْغِـــي الحَيَاةَ لِنَفْسِـــهِ
حَرِيْصًا عَلَيْها، مُسْـــتَهامًا بِها، صَبَّا
فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْـــسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى
وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الحَرْبَا

فكأنّني رأيتُ (الفارابيَّ) قد قام من قبره، وجاءتْ هَيُولاه إلى المجلس، والتقتْ عيناي بعينَيه، وابتسم مُقِرًّا، بما في البيت من تعاليمه.

فنقّلْتُ الخُطا على ما أرسمُ، فهتفتُ:

كَفَـــى عَجَبًا أَنْ يَعْجَـــبَ النَّاسُ أَنَّهُ
بَنَـــى مَرْعَشًـــا، تَبًّا لآرائِهِـــمْ تَبًّا!
وَمَـــا الفَرْقُ مَا بَـــيْنَ الأَنَـــامِ وَبَيْنَهُ
إِذَا حَذِرَ المَحْذُورَ وَاسْتَصْعَبَ الصَّعْبَا؟!
لِأَمْـــرٍ أَعَدَّتْـــهُ الخِلافَـــةُ لِلعِـــدَا
وَسَـــمَّتْهُ دُونَ العَالَمِ الصَّارِمَ العَضْبَا

فكادَ يخلعُ وقاره، ويرمي عِمامته طربًا. فلمّا أتممتُها قائِلاً:

فَمَـنْ كَانَ يُرْضِي اللُّـؤْمَ وَالكُفْرَ مُلكُهُ

فَهَـــذا الَّذي يُرضي المَـــكارِمَ وَالرَّبَّا

فكأنّه أقرّ أنّ المعركة هي معركة بين لُؤمٍ وكرم، وبين كُفْرٍ وإيمان. وانفَضّ المجلس. فماذا يفعل الحاسِدون بعد أنْ رأوا أنّ القصيدة هدَمَتْ كلّ ما نَكَتُوه في قلب الأمير من نُكَتٍ سوداء؟! هل يسكتون؟! كلا. سيسعَون من جديدٍ في ذلك، حتّى لو اضطرّهم ذلك إلى أنْ يُصبِصوا كالكلاب.

وأويتُ إلى الدّار. وقد كَبُرَ (مُحسَّد)، وبعثتُ به إلى ميادين الفروسيّة في قصر الحَلَبة. وأردْتُه أنْ يَشِبَّ كما شَبّ أبوه، وهيهات إذا لم يرتحل، ومنْ يُمكن أنْ يُطيق التّرحّل الّذي أطَقْتُه. وخلوتُ إلى نفسي، واضطجعتُ في فِراشي، ووضعتُ راحَتَيّ تَحتَ رأسي، ورحتُ أُبحلِقُ في السَّقْف، وأغوص في الذّكريات، وعادَني خَيال زوجتي، ورأيتُها في الغَمام ناضرةَ الوجه مُبتسمة، وكان لها جناحان كأجنحة الملائكة، هبطتْ إلى الأرض، ومشتْ بخفّة في درب سُويقة عليّ، وسمعتُ حفيف أقدامها تحتَ نوافذ الدّار، وهممتُ أنْ أقومَ لأراها من النّافذة، وفعلتُ، فرأيتُها هناك، وسمعتُها تقول: «الوحدة الطّريقُ الأقصر إلى الموت. لا تكنْ وحيدًا». ونزلتْ دمعةٌ من عينَيّ على وجهها فنبتتْ وردة، فأردتُ أنْ أمدّ يدي لتصعدَ إليّ، ولكنّها اختفتْ.

ثُمّ عُدتُ إلى وحدتي، فقمت إلى مكتبتي، فأخذتُ أقرأ أشعار الغابرين من العاشقين، فما أسعفني مثل (ابنِ الدُّمينة) و(عُروة بن حِزام)، ورُحتُ أكرّر أشعارهما حتّى حفظتُ أكثرها، ثُمّ رجعتُ إلى

فراشي، وهامتْ بي الخيالات من جديد، وعادني خاطرُ (خولة)، فرأيتُها تتنقّل كأنّها فراشةٌ بين لِداتِها، وهي تُغنّي أشعاري، كانَ صوتُها نهرًا من الموسيقى، وهُنّ يتمايلن على إيقاع أبياتي:

فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَــــهْمًا إِلَى قَلْبِي
وَأَقْتَلَهُـــم لِلدَّارِعِـــينَ بِـــلا حَرْبِ
تَفَرَّدَ بِالأَحْـــكامِ فِي أَهلِـــهِ الهَوَى
فَأَنْتَ جَمِيْلُ الخُلْفِ مُسْتَحْسَنُ الكِذْبِ
وَإِنِّي لَمَنْـــوعُ المَقَاتِـــلِ فِي الوَغَـــى
وَإِنْ كُنْتُ مَبْــذُولَ المَقَاتِلِ فِي الحُبِّ

ثُمّ جمَح بي الخيال، فوجدتُ أنّها ستصحبني الدّهر إلى الغاية، وسأكسر بها شوكة الحاسدين، وأفقأ عيون الشّامتين. ثُمّ لماذا (لخولةَ) كلّ هذا الحضور في قلبي، أكانت حكمتي في تدبّر أسرار نفسي قد تحوّلتْ بظهور هذه الفاتنة إلى تدبّر أسرار قلبي؟! هل لهذا الحُبّ غايةٌ خلفَ الحُبّ؟! أمْ أنّه حبُّ التوسّل ليكون سبيل الوصول؟! أأنا أُحِبُّها لِذاتِها، أم لذاتِ أخيها، أم لِذات المُلك الّذي أحلمُ به من ورائها؟! أمْ أنّني أحبّها مكايدةً في ابن عَمّها الّذي حَمَلَ عليّ كلّ محَمَل؟! ثُمّ ماذا أريدُ من سيف الدّولة إذا صارتْ لي؟! أمُلْكًا؟! أنّى يكون؟! إنّه ربّما لا يراني أكثرَ من شاعرٍ جَوّال؟! ولْيكن، إنَّ غَضَّ النّاس من شأني - وأنا عندَ نفسي فوقَ كلّ محلّ - ينطوي على ضَعَةٍ وجُبنٍ وفراغٍ في أنفسهم. وأنا؟ سيّد العقل في قصائدي، وسيّد القلب فيها إذا أردت، والحِكمة الّتي

تأتي من جهة القلب ألذّ وأسلسُ من الحِكمة الّتي تأتي من جهة العقل. وإنّ خولة لتفيضُ بها حِكمةُ القلب.

وهل أجرؤُ على فَعْلةٍ هي في نفسي تُوازي الموت؟! أجل. إنّها توازي الموتَ عندَ غيري، أمّا أنا فلا. وقلتُ في نفسي: «سأغدو إلى أخيها الأمير، وسأُخبره بما في القلب، وسأقول له إنّني الفارس الّذي يليقُ بالأميرة، ولا رجلَ أجدر بها منّي». وتخيّلْتُ ما سيقول: «سيندهش، سيُوسِّع عينَيه، ثُمّ يُضيّقهما، سيغضب، سيقوم من كرسيّه، سيضع يده على السّيف، سيُعيده إلى مكانه، ذلك حجاب الهوى للعقل، ثُمّ سيَفِيءُ إلى نفسه، سيَهدأ، سيتسعيد الكلمات الّتي قلتُها له، يُفكّر فيها، يسترجع المواقف الّتي تُثبِتُ صِحَّتَها، فيرى فيها جانِبًا كبيرًا من المنطق، سيُفكّر في أنْ يستجيب، لكنّه سيتراجعُ إلى الوراء خُطوة، قبل أنْ يهتفَ بصوتٍ فيه بحّة استِسلام: «سأسألها». «عِذْني». «الوعدُ نافذٌ، فأنّى لي به قبل السّؤال». «فإنْ سكتتْ راضِية». «فهي لك وأنتَ لها».

(٦)

سَحَرَةُ فِرعون

لقد كان يَدخلُ في السّنة الواحدة إلى بلاط (سيف الدّولة) ويخرج منه أكثرُ من مئة عالمٍ ونَحويّ وشاعرٍ وفيلسوف، لقد كنتُ أرى النَّحْويّ فأجلس إليه مرّة فيسمع منّي وأسمع منه، ثُمّ لا أراه مرّة أخرى، فقد كان بعضُهم تطيبُ له الإقامة، وآخرون لا يحتملون ما في البلاط من دسائس ووشايات وحسدٍ وتباغضٍ بين أهل الصّنعة الواحدة، ولقد كانوا على جلالة قَدْرهم يتهارشون أمامي تهارش الدِّيكة، ولقد سمعتُ (السَّرِيَّ الرّفّاء) يهجو (النّاميّ)، وينعته بالجَزّار، كأنّ مهنتَه عيبُه، ويقول له:

أَجزَّارَ بَابِ الشَّـــامِ كَيْفَ وَجَدْتَنِي
وَأَنْـــتَ جَـــزُورٌ بَيْنَ نَـــابِي ومِخْلَبِي
أَرَاكَ انْتَهَبْـــتَ الشِّـــعْرَ ثُـــمَّ خَبَأْتَهُ
عَـــنِ النَّاسِ فِعْلَ الخَائِـــفِ المُتَرَقِّبِ

و(النّاميّ) كذلك يُعيِّر (السَّرِيّ الرَّفّاء) بمهنة الحِياكة، ثُمّ بمهنة صيد السّمك. ولقد تَعوّدوا استخفافًا بالحَقّ أنْ يضربَ بعضُهم بعضًا، بما يَجِدُ في ما تحتَ يده، وهذا لا ينفي ثِقَل عقولهم، غيرَ أنّ الحسد والبغضاء كانتْ تُخرجهم إلى الطّيش.

في عام ٣٤١هـ وفدَ إلينا عددٌ من النُّحاة النّحارير، أحدُهم رجلٌ حَدَث لكنّه شديد الذّكاء قيل لي إنّه (أبو الفتح عُثمان بنُ جنّي)، ووفد كذلك (أبو الطّيّب عبد الواحد بنُ عليّ العسكريّ اللّغويّ)، وسمعتُ أنّ (أبا عليّ الفارسيّ) النّحويّ المعروف قد وفد مع تلميذه (ابن جنّي) هذا، ولا أدري إنْ كان قد حضر إلى هنا (أبو الفرج الأصفهانيّ) الّذي سمعتُ أنّه ألّف كتابًا ضخمًا من خمسين مُجلّدة في فنّ الغناء والموسيقى وفي الشّعراء وأخبارهم وأنّه كَتَبَه لسيف الدّولة، ولا أدري هل حضر الكاتب أم الكِتاب، أم كلاهما؟!

وفي مجلسٍ من المجالس الّتي كانتْ في ذلك العام، استنشدني الأمير على عادته، فقلتُ أبياتًا خرجَتْ على السّجيّة، أوّلها:

ثِيابُ كَريـــمٍ ما يَصُونُ حِســـانَها
إِذَا نُــشِرَتْ كانَ الهِبَـــاتُ صِوانَها
تُرِيْنَا صَنَـــاعُ الرُّومِ فِيْهَـــا مُلُوكَها
وَتَجْلُـــو عَلَيْنَـــا نَفْسَـــها وَقِيَانَهـــا

فدار نِقاشٌ في المجلس بين العالِم القديم في النّحو (ابن خالويه)، وبين العالِم الوافدِ جديدًا على البلاط (أبي الطّيّب اللّغوي)، واختلفا في إعراب كلمة (ثياب)، فقال أحدُهم: هي مبتدأ، وخبره (ما). وقال الآخر: هي خبرٌ ومبتدؤه محذوف. وقال ثالثٌ هذا على الرّفع قد يكون مأنوسًا، ولكنْ ماذا لو رُوِيَتْ بالنّصب، فقلْنا: «ثيابَ». وأنا أستمع إلى النّقاش الدّائر مسرورًا دون أنْ أقولَ شيئًا. واحتدمَ النّقاش، وأنا كلّما ازدادتْ حِدّته ازددتُ سرورًا، فعلى توجيه المعنى يكون النّحو.

ثُمّ لمّا طال النّقاش، نظرَ إليّ (سيفُ الدّولة)، فقال: «ألا تتكلّم يا أبا الطّيّب؟!». فتكلّمْتُ ووقفتُ مع حُجّة أبي الطّيّب اللّغويّ، وضعّفْتُ حُجّة (ابن خالَوَيْه)، فَحِرَد، كأنّه يريدُ أنْ يقول لي: إنّني أسبقُ منه إلى هذا المجلس، وإنّ لنا فيه معًا صُحبةً فقِفْ معي دونه. ولكنّه نَسِيَ ما كان يفعلُ من قبل، ونَسِي ما كان يُحرّضُ به الأمير ويدُسُّه عَليّ. فنظرَ نظرةً أخيرةً إليّ لعلّني أنصُرُه، فما أعرتُه اهتِمامًا. فاشتعلَ غَضَبًا، وأخرجَ من كُمِّه مفتاحًا لِبَيْتِه، وأرادَ أنْ يضربني به، فعلمتُ أنّه استفل، وأنّ عقله لم يُعِنْه، فنظرتُ إلَيْه شَزْرًا حتّى أدخلتْ نظَراتي الرُّعبَ في كِيانه، ثُمّ هتفتُ مُوبِّخًا مُستهزِئًا: «اسكُتْ وَيحك! فإنّكَ عَجَميٌّ، وأصلُكَ خُوزِيٌّ، وصَنْعَتُكَ الحِياكةُ، فما لَكَ وللعربيّة!». وقد أذهلَه ردّي، وأبْكَتَه، فحار، وارتختْ يدُه وغادر المجلس. وهمستُ: «أنا لا أهينُ نفسي بأنْ أحطّ من شأنها فأتهارش معك، ليسَ لكَ ولكلّ منْ يريدُ الإساءة إلَيّ سوى السّيف، والفارسُ تكشفه السُّوح».

ولم يستطع (ابنُ خالوَيهَ) تحمّل الإهانة على مسمعٍ من الأمير، فذهب إلى (أبي فراس) وشَكَا له ما كان، فحنق له، ثُمّ شَكَا ذلك إلى جمهرةٍ من الشّعراء، فجمعتْهم عداوتي، وإنْ كان بعضُهم يودّ لو يقتلُ أخاه. وتمالؤوا على أنْ يعضدَ بعضُهم بعضًا في محاربتي. فلمّا دَعانا الأميرُ بعدَ تلك الحادثة بشهرَين أو ثلاثة إلى مجلسه طار رَوْعُ (أبي فراس)، فبعثَ مَنْ يطوف على الزّبانية واحِدًا واحِدًا، وبلغهم: «إنّ الأمير قد جَمَعنا كلّنا، وإنّ هذا الدّعيّ سيقول قصيدةً في مجلس الأمير، كان الأمير قد طلبها منه منذُ أكثر من شهرين وهو يُماطله، ولا يستجيبُ له، كأنّه يرى أنّ أوامر سيف الدّولة مثل طلبات دابّته. فإذا حَضَر، وتكلّمتُ

في أمره أمام الأمير، فلْتكنْ كلمتُنا واحدةً في إسقاطِه. فهذه فرصتنا الكُبرى».

وبقيتُ أنا ليلتَين قبلَ يوم اللّقاء المشهود، أُدَبِّجُ القصيدة، وأُقدّم فيها وأؤّخر، وأذكر ما كان من سَوْءَاتِهم معي دون أنْ أُصرّح بأسمائهم، فإنّ التّلميح في هذا الشّأن أَغْيَظ، ثُمّ إنّهم دون أنْ يخلّدهم شعري بهذا الذِّكر».

وجاؤوا كأنّهم سَحرةُ فِرعون، وجئتُ بالسّحر الحقّ. واتَّخذُوا مَجالسَهم مُتجاوِرين حتّى يسدّ كلُّ واحدٍ ثَلْمَة أخيه. وكان في نفسي من شأنهم أسًى، فإنّ الحَسَد قد حَمَلَهم على ألاّ يروا لي حَسَنة، وما أهلكَ الحسد! قاتِلٌ على أيّة حال. ووقفتُ وقد ثقبَ اليأسُ من النّاس صلابتي، وألجأني إلى أنْ أكتمَ عاطفةً تكادُ تقتلعُ ثباتي، وتؤرجحني ورقةً في مهبّ الرّيح، غيرَ أنّ اعتِدادي بما أملك، وقُوّة عزيمتي، وهوان الدُّنيا في نَظَري أعادَ لي بعضَ الجأش. ولّما أَذِنَ لي الأمير بالإنشاد، هتفتُ:

واحـــرَّ قَلْبَــاهُ مِمَّــنْ قَلْبُهُ شَـبِمُ
وَمَنْ بِجِسْـــمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَــقَمُ
مَـــا لِي أُكَتِّمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَــدِي
وتَدَّعِي حُبَّ سَــيْفِ الدَّوْلَةِ الأُمَمُ

فما خامرهم شَكٌّ في أنّني أقصدهم في ادّعاء الحُبّ لسيف الدّولة، فماجَ المجلسُ لهذا التّعريض، ولكنّني - على عادتي - كان هياجهم في أذنيّ أحطّ من طنين الذُّباب، فتابعتُ:

إِنْ كَانَ يَجْمَعُنَـــا حُـــبٌّ لِغُرَّتِـــهِ
فَلَيْـــتَ أَنَّا بِقَـــدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِـــمُ
قَدْ زُرْتُهُ وَسُـــيُوفُ الهِنْـــدِ مُغْمَدَةٌ
وَقَدْ نَظَـــرْتُ إِلَيْهِ وَالسُّـــيُوفُ دَمُ

فهَمّ قومٌ من الحمقى أنْ يقتلوني، واندفعَ أحدُهم لم أكنْ قد رأيتُه من قبلُ ولو رأيتُه ما عرفتُه، وأشهرَ سيفَه يريدُ أنْ يقاتلني، فعاجله (أبو فراس) فكادَ يبصق في وجهه: «أهَنْتَ مجلسَ الأمير، ترفعُ السّيف في حضرته يا أحمق». ثُمّ سكتَ للحظةٍ قبل أنْ يهمس في أذنه: «نحنُ إلى قَتْلِه أشوقُ منك، ولكنّنا سنقتله بالكلمة الّتي استخدمها هو في قَتْلنا، عُدْ إلى مجلسك ولا تتحرّك. قُبحًا لوجهك». فعادَ ولم أكلّف نفسي حتّى أنْ أنظرَ إليه، فلمّا سَرى الهُدوء في المجلس الّذي كان يغلي دون نار، ويفور دون حِمَم، عُدتُ فتابعتُ الإنشادَ وأنا أشدّ هدوءًا وثِقةً مِمّا مضى، فقلتُ:

قَدْنَابَعَنْكَشَدِيْدُالخَوْفِوَاصْطَنَعَتْ
لَـــكَ المَهَابَةُ مَـــا لا تَصْنَـــعُ البُهَمُ

فاعتَرَض (أبو فراس)، وقال: «يا مولاي، إنّه لا يمدحك بهذا البيت؟». فطلبَ منه الأمير الإبانة. فقال: «إنّه يمدح نفسه، فلسْتَ أَنتَ المَخُوف المَهيب، إنّما هو. وليسَ عدُوّك هو الّذي يخافُك. إنّما عنانا نحنُ جمهرةَ الشّعراء». فوقعتِ الكلمةُ في نفس الأمير، ثُمّ أردفَ: «إنّ هذا المُتشدِّق كثيرُ الإدلال عليك، وأنتَ تُعطيه كلّ سنةٍ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ

على ثلاثِ قصائد، ويُمكن أنْ تُفرِّقَ مِئَتَي دينارٍ على عشرين شاعِرًا يأتون بِما هو خيرٌ من شِعره. هذا غيرُ ما تهبُه من الضّياع والخِلَع والأفراس والنّشَب. أفكان يأتي بما نعجزُ نحنُ عنه حتّى يكون له من نفسِكَ ما كان؟! وانظر إلى هؤلاء المجتمعين هنا، إنْ كان في قولي ما يَشِين أو أنّني كذبتُ في كلمةٍ واحدة». فسرتْ همهماتٌ: «بل صَدَقْتَ وبَرَرْت...»، وتأثّر (سيف الدّولة) بما سَمِعَ، وعرفتُ ذلك في وجهه، ثُمّ عادَ (أبو فراسٍ) إلى موضعه. وعُدتُ أنا إلى إنشادي وعيونُ الحاسدين تتقحّمني من كلِّ جهة، حتّى إذا وصلتُ إلى قولي:

يَا أَعْـــدَلَ النَّـــاسِ إلاَّ فِي مُعَامَلَتِي

فِيْـكَ الخِصَامُ وَأَنْتَ الخَصْـمُ والحَكَمُ

صرخَ (أبو فراس): «بيتٌ مسروقٌ وربِّ الكعبة، لقد مسخْتَ قول دعبل الخُزاعيّ وادّعَيْته، وهو:

وَلَسْــتُ أَرْجُو انْتِصَافًا مِنْكَ مَا ذَرَفَتْ

عَيْنِي دُمُوعًــا وَأَنْتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ

فرميتُ ما رماني به تحتَ قدَميّ، وتابعتُ وأنا أشِيرُ إلى مَنْ يُقاطِعني:

أُعِيْذُهَـــا نَظَـــرَاتٍ مِنْــكَ صَادِقَةً

أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيْمَن شَحْمُهُ وَرَمُ

فعلمَ (أبو فراسٍ) أنّني أَعْنيه، فثارتْ ثائرتُه، ولم يحتمل ما سَمِعَ، فصرخ وهو يشير إليّ بيدٍ مرتجفةٍ غَضبًا، وأنا لم أتحرّك ولو فترًا من مكاني:

«ومَنْ أنتَ يا دَعِيَّ كندةَ حتّى تأخذَ أعراضَ الأمير في مجلسه». فكأنّه لم يقلْ شيئًا، وكأنّني ما سمعت، فأكملتُ:

وَمَـــا انْتِفَـــاعُ أَخِي الدُّنْيَـــا بِنَاظِرِهِ
إِذَا اسْـــتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ والظُّلَمُ

فصرخ: «إنّه يتّهمكَ يا مولاي بالعَمَى». فاهتزّ وجدان الأمير، وأردفَ (أبو فراس): «ثُمّ إنّكَ لَصَصْتَه من قول مَعْقِل العجليّ:

إِذَا لَمْ أُمَيِّــزْ بَـــيْنَ نُـــورٍ وَظُلْمَـــةٍ
بِعَيْنَـــيَّ، فَالعَيْنَـــانِ زُوْرٌ وَبَاطِـــلُ

وتابعتُ هادِئًا:

سَـــيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُـــنَا
بِأَنَّنِـــي خَيْرُ مَنْ تَسْـــعَى بِـــهِ قَدَمُ

وهذه المرّة، حَجَلَ على رِجلَيه، وقفزَ على ساقَيه، وتوسّط المجلس، وقد بانتْ عروقُ عارِضَيه، وصرخ: «لقد جعلَ نفسَه خيرًا منكَ أيّها الأمير؟». وبدا الضّيقُ على وجه الأمير. وأردفَ (أبو فراس): «أهذه جرأةٌ في غير موضعها أم وقاحةٌ أم جنون؟ أمْ كلّ هذا؟ إنّي لأعجبُ أنْ تسمَعَ هذا ونسمعُ نحن كُلُّنا هذا، ولا تفعل شيئًا يا سيّدي!!». ولانتْ صرختُه في آخر كلمتَين من عبارته، وتحوّلتْ إلى رَجاء، فتركتُه هو وما يرجو، وتابعتُ مُنشِدًا وأنا عن يمين الأمير لا يفصل بيني وبينه إلاّ ذراعٌ أو ذراعان:

أَنَا الَّذِي نَظَـرَ الأَعْمَـى إِلَى أَدَبِي
وَأَسْـمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِـهِ صَمَمُ
أَنَامُ مِـلْءَ جُفُونِي عَنْ شَـوَارِدِهَا
وَيَسْـهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَـا وَيَخْتَصِمُ

فعَرّضَ (أبو فراسٍ) مَنكِبَيه من جديد، وصرَخَ وهو مُمْسِكٌ رأسه بكلتا يَدَيه: «أيّها اللّصّ، تظنّ أننّا لا نعلمُ عِلْمَك، وأنّ سَرِقاتك ستمرّ علينا، إنّما تمرّ على الجَهَلة أمثالِك، لقد سطَوْتَ على بيتَي عمرة بن عروة بن العبد، في قوله:

أَوْضَحْتَ مِنْ طُرُقِ الآدَابِ مَا اشْتَكَلَتْ
دَهْـرًا، وَأَظْهَرْتَ إِغْرَابًـا وَإِبْدَاعَا
حَتَّى فَتَحْـتَ بِإِعْجَازٍ خُصِصْتَ بِهِ
لِلْعُمْـيِ وَالصُّمِّ أَبْصَارًا وَأَسْـمَاعَا

فتركتُه يهذي، ويُرعِشه الغيظ، وتابعتُ كأنّه غيرُ موجود، وكأنّ اللّغط الّذي دار في المجلس لم يكنْ يعنيني، حتّى قلتُ:

وَجَاهِلٍ مَـدَّهُ فِي جَهْلِـهِ ضَحِكِي
حَتَّـى أَتَتْـهُ يَـدٌ فَرَّاسَـةٌ وَفَمُ
إِذَا رَأَيْـتَ نُيُـوبَ اللَّيْـثِ بَارِزَةً
فَـلا تَظُنَّـنَّ أَنَّ اللَّيْـثَ يَبْتَسِـمُ

فتخيّلني الجمع أسدًا فاغرًا فاه يهمّ بالْتِهام كلّ المُتشاعرين الّذين شهدوا المجلس، وتخيَّلْتُهم بالفِعل ذُبابًا مُزعِجًا غيرَ أنّه يَصْعُبُ أنْ يُوطأ بالأقدام أو يُزدرد بالأفواه، لأنّه أقلُّ مِن الوَطْءِ والازدِراد. غيرَ أنّ البيتَين فَرَضَا صمْتًا يُشبه صمت الأعزل رأى أسدًا فأخفى نفسه خلفَ جذع شجرةٍ، وكتَمَ أنفاسَه حتّى لا يسمعها السَّبُع. فأخذتُ أقول:

الخَيْلُ واللَّيْــلُ والبَيْــدَاءُ تَعْرِفُني
وَالسَّـيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ
صَحِبْتُ فِي الفَلَـوَاتِ الوَحْشَ مُنْفَرِدًا
حَتَّـى تَعَجَّـبَ مِنِّي القُـوْرُ وَالأكَـمُ

فشَدّ (أبو فراسٍ) على جُبّته، ونثَر يَدَيه، وقال: «وماذا أبقيتَ للأمير أيّها المُتعجرف؟! إذا وصفْتَ نفسَكَ بالشّجاعة والفصاحة والرّياسة والسّماحة، تمدح نفسَكَ بما سَرَقْتَه من كلامِ غيرِك، ثُمّ تأخذُ جوائز الأمير؟ والله لا يكون هذا وأنا حَيّ». وكبرت الجملة الأخير في وجدان (سيف الدّولة)، وتأفّف، وزفرَ زفرةً طويلة. وكان لا بُدّ من أنْ أُتِمّ ما بدأتُ، فتابعتُ:

يا مَــن يَعِــزُّ عَلَيْنَـا أَنْ نُفَارِقَهُمْ
وِجْدَانُنَــا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُــمْ عَدَمُ
مَــا كَانَ أَخْلَقَنَــا مِنْكُــمْ بِتَكْرِمَةٍ
لَــوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِــنْ أَمْرِنــا أَمَمُ

ووجدَ (سيفُ الدّولة) العتابَ في هذين البيتَين القَشّةَ الّتي قَصَمَتْ ظهر البعير، وقبل أنْ يتنطّع (أبو فراسٍ) ليردّ عَلَيّ، كان الأمير قد ضاقَ ذرعًا بما يسمع من المُناكفات، وكان يُمكن أنْ يكون الأمر على غير هذا لو سكَتَ هذا المُتنطّع فتركني أُكمل القصيدة، وقد أحفظتْ كلماتُه الأمير وأغيَظَتْه، ولم يعدْ يُطيقُ صبرًا، فتناول دَواةً للحبر من حديد، فرماني بها، فأصابتْ عارضَ وجهي من جهته، فسالَ دمي بين لِحيتي وعِمامتي، وأحزنني أنْ يُقدِمَ الأمير على ذلك، ونظرتُ في وجه (أبي فراس) فرأيتُه يبتسمُ، ونظرتُ إلى وجوه مَنْ جَمَعَهم عَلَيّ من الشّعراء والنُّحاة فرأيتُهم يضحكون مسرورين، فعلمتُ أنّ مُقامي هنا لن يطول، وارتجلتُ بيتًا أدخَلْتُه في القصيدة، ليُلائِمَ الموقف، فقلت:

إِنْ كَانَ سَرَّكُـــمُ مَا قَالَ حَاسِــدُنَا
فَــمَا لِجُــرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُـــمُ أَلَمُ

ثُمّ تابعتُ:

وَبَيْنَنَـــا لَـــوْ رَعَيْتُـــمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ
إِنَّ المَعَــارِفَ فِي أَهْـــلِ النُّهَى ذِمَمُ
كَمْ تَطْلُبُـــونَ لَنَا عَيْبًـــا فَيُعْجِزُكُم
وَيَكْـــرَهُ اللهُ مَـــا تَأْتُـــونَ وَالكَرَمُ

فرأيتُ الأمير قد هَزّ رأسه، وشعرتُ أنّه يريدُ أنْ يعتذر عمّا بدر منه في لحظة ضيق وغضب، وما يُقبَل من العامّة والدّهماء لا يُقبَل من الأمراء، فأراحَه البيت، وأعاده إلى شيءٍ من قبول ما أقول، وهمستُ في نفسي: «والله لولا الحُبّ الذي ملأتْ به عليّ تلك المُطَهَّرة خولة أركانَ قلبي لتركتُ هذا المجلس الذي ينضح بالكراهية... ما قيمة البقاء بين

هذه الرّخم المُتيبِّسة وهذه الخُشُب المُسنّدة لو لا ذلك القلب المُعذِّب؟!».
وتابعتُ:

أرى النَّوى يَقْتَضِيْنِـــي كُلَّ مَرْحَلَةٍ
لا تَسْـــتَقِلُّ بِهَـــا الوَخَّادَةُ الرُّسُـــمُ
لَئِـــنْ تَرَكْـــنَ ضُمَيْرًا عَـــنْ مَيَامِنِنَا
لَيَحْدُثَـــنَّ لِمَـــنْ وَدَّعْتُهـــمْ نَـــدَمُ

فصرخَ جمهرةٌ من الشّعراء وقد جرّأتْهم دواة الحِبر: «إنّه يتهَدّد الأمير بالرّحيل. ومن هو؟ إنّما يرحل طريدًا غريبًا كما جاء!». فأشرتُ إليهم وإلى الأمير معهم:

إِذَا تَرَحَّلْـــتَ عَنْ قَـــوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
أَلاَّ تُفَارِقَهُـــمْ فَالرَّاحِلُـــونَ هُـــمُ
شَرُّ البِـــلادِ مَـــكَانٌ لا صَدِيْـــقَ بِهِ
وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الإِنْسَـــانُ مَا يَصِمُ

وعلمْتُ وعَلِمَ كُلّ مَنْ حضَر، أنّ هذا المجلس لن يكونَ عابِرًا، وأنّه له ما بَعدَه. فلمّا أنهيتُ القصيدة، قامَ نَبَطِيٌّ من كُتّاب الأمير اسمُه (أبو الفرج السّامُرِّيّ) يريدُ أنْ يصنَعَ له يدًا عندَ الأمير، فوقفَ بين يدَيه والمجلسُ يُهَمهِم قد تبلبلَ وتقلقَل، وركع، ثُمّ قام فقال: «دَعْني أسعى في دَمِه». فأطرفَ له سيفُ الدّولة، فكأنّه أقرّه على ذلك. فما هَزَّ ذلك شعرةً في جسدي، وهَزِئتُ بهما، وهتفتُ:

أَسَـــامُرِّيٌّ ضُحْكَـــةَ كُلِّ رَاءٍ
فَطِنْـــتَ وَأَنْـــتَ أَغْبَـــى الأَغْبِياءِ
وَمَـــا فَكَّـــرْتُ قَبْلَـــكَ فِي مُحَـــالٍ
وَلا جَرَّبْـــتُ سَـــيْفِي فِي هَبَـــاءِ

ثُمّ خرجتُ وأنا أَلُفُّ عباءَتي على جسدي، وتركتُ القومَ يتضاغَون غير مُصدّقين، وكان ذلك زلزالاً تزلزَلتْ له أركان القصر وساكنيه.

(٧)

المُصالحة

«وما يَعني بِضُمَير؟!». «هو جبلٌ أشمّ». «وأينَ يكونُ هذا الجبل الأشمّ؟». «يكونُ عن يمين المُرتحِل إلى الشّام». «وأيّ وجهةٍ تكون وجهتَه إذا جعله عن يمينه؟». «مصر». «وَمَنْ في مصر؟!». «الإخشيديّون؟». «وَمَنْ هؤلاء؟». «أعداءُ سيف الدّولة الألدّاء». كان هذا حِوارًا مُتخَيَّلا بين الأميرَين ابنَي العمّ. وكنتُ أسمعُه وأنا خارجٌ من القصر قد شفيتُ غليل نفسي، وأرحتُ الكبت الّذي تراكمَ في قلبي من هؤلاء المُتشاعِرين سنواتٍ طويلة، بل ومن سيف الدّولة نفسِه.

وسمعتُ أصواتًا خلفي تدعو علَيّ بالموت، وأُخرى تتهدّدني بالقتل. وآخرون يتراكضون في الفِناء، فما حَوّلتُ رحلي، وما أدرتُ ظهري، وبقيتُ أمشي بخطواتٍ قويّة واثقة، وقد اعتقلتُ صَعْدتي، وركزتُ سيفي، ومضيتُ خارجَ القصر أقصدُ فرسي (السّابح) أركبه عائِدًا إلى داري، وأهدأ والأفكار فِيّ تجول، وأرى ما يُمكن أنْ أصنع بعد هذه العاصفة.

ومضيتُ أجتاز الحدائق وأنا أشعر أنّها تودّعني. وأجتاب الأبهاء، وأقطع الأروقة، حتّى صِرْتُ إلى الباب الخارِجيّ، فركبتُ فرسي، فما كدتُ أجري به مسافةً قصيرةً حتّى أحاطَ بي عشرةٌ من المُلثَّمين، لا تبدو

من وجوههم غيرُ حِلَقِ عُيونهم، وقد أخفَوا أسلحتهم في ثيابهم، فعرفتُ أنّ (سيفَ الدّولة) أو ابن عَمّه قد بعثَهم ليقتلوني، فما غيرُهما أجرأ على أنْ يفعل ذلك بي. وأمّا ذلك النّبطِيّ فبعيدةٌ عن مُنّته، فوضعتُ يدي على قائِم السّيف، وحَدَّقْتُ فيهم تحديق الضّرغام في جُنّة اللّيل، فأَعْجَلَني أحدُهم فرماني بسهمٍ، فوقعَ في لَبّة (السّابح) فجَرَحَه، فشددُت عليهم، ورميتُ أحدهم بالرُّمح فسقطَ من فوره يتضرّج في دمائه، وشَدَدْتُ على مَنْ تبقّى، فلمّا رأوا إقبالي عليهم، وكَرّي دون أنْ أحسبَ لهم حِسابًا، وما شَهِدوه من مصرعِ أخيهم، عبروا القنطرة وهربوا، فما تركتُهم يهربون ويفرّون بجلودهم، فلحقتُهم، حتّى تركْنا القصر، والمدينة حولَنا، وأنا أُطاردهم وأهتف: «يا جُبناء، إذا كنتم تودّون قتلي، فارجعوا فقاتِلوني».

وهم يُجْرُون الخيلَ مع الرّيح، فلمّا صِرْنا في نَشَزٍ بعدَ ظاهر (حَلَب)، تَعِبوا وتَعِبَتْ خُيُولهم، فَقَصَّرَتْ في جَرْيِها، فلحقتُ بآخرهم، فصرعتُه، فلمّا سَقَطَ عن جَواده، كَشَفَ اللّثامِ عن وجهه، وهتفَ: «لا تقتلْنا، نحن غلمانُ حبيبِك». فوضعتُ الرّمح في مجمع عنقه وصرختُ والآخرون قد هربوا وتركوه وحده: «ومَنْ حبيبي هذا؟». فردّ: «نحنُ غِلمانُ أبي العشائر. أليسَ حبيبَك؟!». فهتفت في نفسي: «إنّه لَحبيبي والله، ولكنْ لماذا يفعل ذلك؟». وصرختُ بالصّريع: «أَأَبو العشائر مَنْ دَفَعكم إلى ما فعلْتُم حَقًّا؟! أم هو سيفُ الدّولة أم أبو فراسٍ، أم ذلك الكاتب الأخرق أم غير هؤلاء؟». فتوسَّلَ: «أرجوك لا تَحْمِلْني على أنْ أُجيبك؛ فإنّني لا آمَنُ على نفسي. أُقسِمُ عليكَ بمودّة أبي العشائر عندكَ إلاّ تركتَنا».

فرفعتُ الرُّمح عن عنقه، وعفوتُ عنه، وتركتُهم يهربون، وعدوتُ بالسّابح إلى الدّار، وأنا أهتف:

وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أُحِبُّهُ
وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيْفُ
فَهَيَّجَ مِنْ شَوْقِي، وَما مِن مَذَلَّةٍ
حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الكَرِيمَ أَلُوفُ
فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذي سَاءَ واحِدًا
فَأَفْعَالُهُ اللاَّئِي سَرَرْنَ أُلُوفُ
وَنَفْسِي لَهُ نَفْسِي الفِدَاءُ لِنَفْسِهِ
وَلَكِنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنِيفُ

ثُمّ عرفْتُ أنّ الإقامة في (حلب) ستجلبُ عَلَيّ المصائب، وأنّه لا بُدّ من الرّحيل من هنا حتّى تهدَأ الأمور، وكنتُ أعلمُ أنّ أمر تدبير قتلي لن يتوقّف، وأنّهم سيَسعَوْن إلى ذلك بكلّ ما يستطيعون. فلمّا وصلتُ إلى الدّار، دعوتُ (مُحسَّدًا) فركبَ خيله، وأخذتُ بعضَ الكُتُب فجلعتُها في الرّحل، وبعضَ الطّعام، وركبتُ خيلي، ومضينا في جُنح اللّيل إلى ضيعة (بَصِّف) الّتي أقطَعَني إيّاها (سيفُ الدّولة) في (مَعرّة النّعمان)، فوصلْنا إليها الفجر. فهيّأتُ المنام في دارِها لي ولمُحسَّد، ونمتُ وأنا أُفكِّر في كلّ ما حدث.

كانت الضّيعة مُمرِعة، بعيدةً عن العُمران، هادِئة، وكانتْ فرصةً سانِحةً للتّخفّف من كلّ ما عَلِقَ بي من كلام الحاسِدين والوُشاة. وفرصة أخرى ليقرأ (مُحسّد) في ما أتيتُه به بعيدًا عن كلّ شاغلٍ. وهَيَّأَتْ لي الإقامة الوادعةُ هنا أنْ أقرأ في الفلسفة. فلمّا مرّ على ذلك ثلاثةُ أيّامٍ،

بعثَ إليَّ (سيف الدّولة) بكتابٍ يدعوني فيه إليه، ويعاتبني على تَرْكه في (حلبَ) دون أنْ أستأذنه، ولم يكنْ يدري أنّني أشرتُ بالرّحيل عنه هذه المرّة، وحذّرْتُه من أنْ أفعله في المرّة القادمة، ولو أنّني رحلتُ عن نعيمه كلّه فماذا سأخسر؟ بعضَ لُعاعاتٍ من الدُّنيا. أمّا هو فسيخسر الذِّكْر الخالد، وشَتّان ما بينهما، إنّ رحيلي سيكون مُصيبةً خالِصةً فيما لو تَمّ.

وذَيّلْتُ الكتاب: «إنّ دعوتكَ لا تُردّ، وإنّ في القلب حاجة».
فبعثَ لي كتابًا يُنكِرُ فيه أنْ يكونَ قد أمرَ الفرسان العشرة باغتيالي، وما طلبتُ منه اعترافًا بذلك، ولا سألتُه عنه، ولكنّه قالَه من تلقاء نفسه، ولقد كاد المُريب أنْ يقول خُذوني. ثُمّ أنفذَ إليّ موكبًا بعدَ أسبوعٍ من ذلك، فركبْتُ معهم مُعزّزًا مُكرَّمًا. فلمّا جَمَعنا رُواقٌ واحِدٌ، وقد قَدّر هو ذلك حتّى لا يرانا سِوانا، أعرضَ عنّي إعراض المُحبّ العاتب لا إعراض القالي الكاره، فقلتُ له:

أَلا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ اليَوْمَ عاتِبَا
فَدَاهُ الوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضارِبَا

فنَظَرَ إليّ وقد رَقّ قلبُه. ثُمّ إنّني أكملتُ:

وَمَا لِي إِذَا مَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَهُ
تَنائِفَ لا أَشْتَاقُها وَسَباسِبا؟!
وَقَدْ كَانَ يُدْنِي مَجْلِسِي مِنْ سَمَائِهِ
أُحَادِثُ فِيْهَا بَدْرَهَا وَالكَوَاكِبَا
حَنَانَيْكَ مَسْؤُولاً وَلَبَّيْكَ داعِيًا
وَحَسْبِيَ مَوْهُوبًا وَحَسْبُكَ وَاهِبا

فسعى نَحوي واعتنقني، وقال: «لقد أوقَع كلامُهم في قلبي ما لا يجب أنْ يقع». وتصالحْنا، ثُمّ طلبَ أنْ أكتبَ قصيدةً للمُصالحة أوافيه فيها في جمعٍ مثل الجمع الّذي شَهِدَ المجلس السّابق حتّى يدفعَ عنّي مساءَتهم، ويُشهِدهم على عودة الأمور بيننا على ما يُحبّ.

وأتيتُه بعدَ تسعَ عشرة ليلةً من ذلك المجلس المشؤوم، فدخلتُ القصر، فتلقّاني رئيسُ الخدم، وأدخلني إلى خزانة الكُسوة، فأُلبِست الخِلَع المُوشّاة، وطُيِّبْتَ الغالية، ثُمّ مضيتُ فدخلتُ إلى بهوٍ كان فيه سيف الدّولة وحده لا يريدُ أنْ يرانا أحدٌ، فلمّا رآني أطرق، وسألني وهو مُستحٍ: «كيفَ حالُكَ يا أبا الطّيّب؟». فأردْتُ أنْ أرفعَ الحَرَجَ عنه، فأجبْتُه: «رأيتُ الموتَ عِنْدَكَ أَحَبَّ إلَيَّ من الحياةِ دُونَك». فزال عنه ما به من الحَرَجِ ونظر إلَيّ مُمتَنًّا: «بل يُطيل الله بقاءك، ويكبتَ شانِئيك، ويرفعَ قَدْرَك». فمضى هو إلى المجلس، ومضيتُ، ومضى معنا خَلْقٌ كثيرٌ جاؤوا ليشهدوا هذه المُصالحة. فلمّا استتبّ الأمر، واتّخذ كلّ واحدٍ موقعه، هتفتُ قائِلاً:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ
دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ
ظَلِلْتُ بَيْنَ أُصَيْحَابِي أُكَفْكِفُهُ
وَظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ العُذْرِ وَالعَذَلِ

فهمس الأمير: «لا سَخّن الله لكَ عينًا». ثُمّ عطفتُ البيتين، فقلتُ:

وَمَـا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلَى أَمَلٍ
مِنَ اللِّقاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلا أَمَلِ

فقال (أبو فراسٍ): «يشتاق إلى خولة لا إلى الأمير». وقال شاعر: «كَنّى عن عشقه». وقال ثالث: «ذكر الأمل مرّتين والاشتياق مرّتين، فواحدةٌ من كلّ منهما لخولة، والأخرى لأخيها». فقلتُ:

مَتَى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيَارَتَها
لا يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ البِيْضِ وَالأَسَلِ

فهَزّ (أبو فراسٍ) رأسه، وهتف: «بهذه صدقت، وأَنْ تبلغ الشّعرى أسهلُ عليك من أنْ تبلغها». فتابعتُ:

لا أَكْسِبُ الذِّكْرَ إلّا مِنْ مَضارِبِهِ
أَوْ مِنْ سِنَانٍ أَصَمِّ الكَعْبِ مُعْتَدِلِ

فتأفّف (أبو فراسٍ)، وتأفّف معه غير واحدٍ، وهمسوا: «عادَ إلى الفخر بنفسِه». فلمّا وصلتُ إلى قولي:

لَيْتَ المَدَائِحَ تَسْتَوفِي مَنَاقِبَهُ
فَمَا كُلَيْبٌ وَأَهْلُ الأَعْصُرِ الأُوَلِ
خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

عَدَلُوا عن تُهمتهم، واهتزّ للأبيات قلبُ (سيف الدّولة) رَقَصَ القَلُوص الواخِدة، فلمّا هتفتُ بالبيتِ المُعجِز:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَـــلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّـــلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

نظرتُ في وجوههم، وأملتُ رأسي وأنا أَحدِجُهم جميعًا بطرف طَرْفي، كأنّني أتحدّاهم أنْ يفهموه أو يقرؤوه قراءةً صحيحةً، عِوَضَ أنْ يأتوا بمثله، فما حَرّك واحِدٌ منهم ساكِنًا، ثُمّ شفعتُه بقولي:

لَعَـــلَّ عَتْبَـــكَ مَحْمُـــودٌ عَوَاقِبُـــهُ
فَرُبَّما صَحَّـــتِ الأَجْسَـــامُ بِالعِلَلِ

فارتاحَ قلبُ الأمير. فلمّا أنهيتُ طلبَ الأميرُ القصيدةَ، فأدّيتُها إليه في رَقّ، فوقّع تحتَ كلمة: «أَقِلْ: أقلْنا عثرتك». وتحت كلمة: «أَنِلْ: يُحمَل إليه عشرة آلاف دينار». وتحتَ كلمة: «أَقْطِعْ: أقطعناك الضّيعة الأخصب في باب حلب». وتحت كلمة: «احملْ: يُقادُ لأبي الطّيّب فَرَس ومركب». وتحت كلمة: «عَلّ: قد فَعلْنا». وتحتَ كلمة: «سَلِّ: قد أذهبْنا حُزنَك فاسألْ ما تشاء». وتحت كلمة: «أَعِدْ: أعدناك إلى حالك من حُسن رأينا فيك ومن ثقتنا بمقامك». وتحت كلمة: «زِدْ: يُزاد لأبي الطّيّب في ما فرضْناه له من مالٍ كلّ شهر». وتحت كلمة: «تَفضّل: قد فعلْنا». وتحت كلمة: «أَدْنِ: قد أدنيناك حتى ليس بيننا وبينك إلاّ ذراع». وتحت كلمة: «سُرَّ: قد سررْناك». وتحتَ كلمة: «صِلِ: قد وصلْناكَ بما تُحبّ وزيادة». كان كلّ ذلك يحدث تحتَ بصر المجلس كلّه وسَمْعهم، وكلّما وقَّع تحتَ كلمةٍ، طعنَ بها صدرًا مَغِيظًا. فلمّا انتهى، قامَ حاسِدٌ يتظارفُ فقال لسيف الدّولة: «قد فعلتَ به كلّ شيءٍ سَألكَ، فهلاّ

وَقَّعْتَ لمّا قال: «هِشَّ بِشَّ: هههه يحكي الضَّحِك». فضحك (سيف الدّولة)، وقال: «اذهبْ يا ملعون».

وتناخر مَنْ همس في أُذُنِ جاره من الشّعراء: «إنّه أتى بأربعة عشرَ فعل أمرٍ في بيتٍ واحدٍ، وبعضُنا يُحسِنُ ذلك، فأين المُعجِز فيما أتى؟!». فارتجلتُ من فوري:

عِشِ ابْقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نَلْ
غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثْنِ نُلْ

فأتيتُ باثنين وعشرين فعلَ أمرٍ في بيتٍ واحد. فلمّا سمعوه خَرّوا، وخاروا، وحاروا، ونظر بعضُهم في وجوه بعضٍ، فقلتُ بكلّ برودٍ:

وَهَـــذَا دُعاءٌ لَـــوْ سَـــكَتُّ كُفِيْتَهُ
لِأَنّي سَـــأَلْتُ اللهَ فِيْكَ وَقَـــدْ فَعَلْ

وأتاني ابنُ جنّي بعدَ المجلس، فقال: «إنّك لمجنون، وشاعرٌ عظيم، وإنّ هذا الكلامَ لَمُعجِز، وما أظنّ في العرب من هو مِثلك». ثُمّ لَزِمني يروي شِعري عنّي ويكتب في رقوقه وكُعُوبه مدّة خمس سنين.

ووجدتُ فيه مع طول لزومه إيّاي عقلاً وازنًا، وذكاءً وقّادًا، وكنتُ أقول لسيف الدّولة عنه: «هذا رجل لا يعرفُ قَدْرَه كثيرٌ من الناس، فلا تتركْه لهم». وكنتُ إذا سُئِلْتُ عن شيء من دقائق النَّحْو والتَّصريف في شِعري أقول: «سَلُوا صاحِبَنا أبا الفتح». وإذا ما أشكلَتْ على الرّواة شاردةٌ من شواردي، كنتُ أُوجِّهُهم إليه قائِلاً: «ابن جنّي أعلمُ بشِعري منّي».

ثُمّ ركبتُ مع (سيف الدّولة) إلى «المِصّيصة» وهي من الثّغور الّتي بين (حلبَ) و(أنطاكيّة)، وكانتْ تُرابطُ فيها جيوشُنا إذا ما أرادتْ غزو الشّمال، فأتيتُها معه نتفقّد الجيش، فلمّا كان يدور بينهم يمتحن الفُرسان، أُتِيَ بِطَلْعٍ ونارنج، فقال (لابن جَشّ) وهو شيخُ المِصِّيْصَة وكان عالِمًا ليدفع ما يُمكن أنْ يتبادر إليه من سوء الظّنّ: «لا يُتوَهَّمُ أنّ هذا للشّرب». فارتجلتُ من فوري:

شَـــدِيْدُ البُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّـــمُولِ
تُرُنْـــجُ الهِنْـــدِ أَوْ طَلْـــعُ النَّخِيلِ
وَمَيْـــدَانُ الفَصَاحَـــةِ وَالقَـــوَافِي
وَمُمْتَحَـــنُ الفَـــوَارِسِ وَالخُيُـــولِ

فنقرَ الجمال نَحْويٌّ لم أره من قبلُ، يظنّ أنّه أبو اللغة وابنُ بَجْدَتِها، فقال: «المعروف يا مولاي أنّه الأترُجّ أو الأُترُجّة، ولم أسمعْ بأنها تُرُنج». فعلمتُ أنّ الحسدَ لن يتركني، وأنّ كلّ ذي نعمةٍ محسود، وأنّني لن أسلم ولو ابتغيتُ نفقًا في الأرض أو سُلمًا في السّماء فآتيهم بآية. فأهملتُه، ومضيتُ أتفقّد بقيّة الفرسان مع الأمير. ثُمّ ما لبثْنا أنْ عُدْنا إلى (حلب).

(٨)

ليلٌ طويل

وماذا يُريدُ مِنّي سَيفُ الدَّولة بعد هذا كُلِّه، وماذا أريد منه؟! لقد احتار كُلٌّ مِنَّا بصاحبه. بلى وحقّ مَنْ رفعَ السّماء إنّنا لنعرف؛ أريدُ المُلك ويريدُ الشِّعر، أريدُ ما يَفنى ويُريدُ ما يَبقى. أريدُ (خولةَ) فِتْنتي، ويريدُ القصيدةَ فِتْنتَه. وشتّان ما بيننا!

وهدأ البال. وقرّ البَلْبال. وعادَتْ ليالي الصّفاء. وصرتُ أخلو إلى الكوخ الّذي كان يخلو إليه (الفارابيّ)، فأجلس على ضِفّة نهر (قُوَيق) أسمعُ موسيقى الكون كلّ ثلاثاء من العشاء الأولى إلى الفجر. ودأبْتُ على ذلك أَزْيدَ عن سنة.

وحاولتُ هناك أنْ أنسى أنّه يُمكن أنْ تكون (خولة) لي. وكانتْ كلّما جهدتُ أنْ أُولّي وجهي عنها، رأيتُها في صفحة السّماء الصّافية، وسمعتُ صوتَها في خرير النّهر، وهمسَها في غناء البلابل. وحدّثْتُ نفسي: «أيُّ جنونٍ أُبقي نفسي فيه؟! إنّها ليستْ بعيدةَ المنال من جهةِ أخيها، إنّها بعيدةُ المنال من جهتي أنا، فلقد وَطّنْتُ نفسي منذُ أنْ تُوفّيت زوجتي على أنْ أنسى النّساء، ورأيتُ أنّهن يُوقِعن في التّهلكة كما يُوقِعْن في الحُبّ». غيرَ أنّ القلبَ الّذي كنتُ أحرفُه إلى القنا والسّيوف كان يَحرِفني إليها، ويهتف: «أما لهذا القلبِ من حَقّ؟!». فأقول: «بلى». فيقول: «أعطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه».

ومكثتُ شهرًا من عام ٣٤٢هـ في الكوخ لا أبرحه. أُفكّر فيما مضى من حياتي، وفيما سيأتي. وكلّما ظهرتْ لي نجمةُ سعودٍ في السّماء غَطّتْها غيمةٌ داكنةٌ فأخفتْ ضوءَها. وكلّما قلتُ إنّني أسيرُ في الدّرب الّتي خَطَّتْها لي جَدّتي ونشّأتْني عليها، وجدتُ أنّني أهوي في حُفرٍ لا تنتهي على هذه الدّرب، أقومُ وأسقط، وأسقطُ وأقوم، ولا شيءَ معي غير هذه الكلمات الّتي جِئتُ بها إلى هذه الدُّنيا نَبِيًّا!

ثُمّ عُدتُ إلى (حلب)، فرَكِبَني الهَمّ، وأوقعني في شِراكه، وإذا نَشِبَ في القلب تذرذرتُ نُتَفًا مذبوحًا على قوارع الحُبّ. وعادَني خيالُ (خولة). وزادَ في ذلك الخيال ما أسمعه من أنّها تحفظُ كلّ ما كتبتُ، وأنّها وكّلتْ مَنْ يكتُبُه لها، وأنّها كانتْ تُغنّيه بين صُويحباتها. وماذا تريدُ هي أيضًا منّي؟! هل أصابَها ما أصابني، أمْ أنّ الوَهْمَ وسّع دائرة الأمل، وفي النّهاية سأسقطُ فيه وحدي. فكيفَ السّبيل إلى النّسيان؟! وقد قلتُ:

إِلامَ طَمَاعِيَــةُ العَــاذِلِ
وَلا رَأْيَ فِي الحُــبِّ لِلْعاقِــلِ
يُــرادُ مِــنَ القَلْــبِ نِسْــيانُكُمْ
وَتَأْبَــى الطِّبَــاعُ عَــلَى النَّاقِــلِ
وَإِنّي لَأَعْشَــقُ مِــنْ عِشْــقِكُمْ
نُحُــولِي وَكُلَّ امْــرِئٍ نَاحِــلِ
وَلَــوْ زُلْتُــمُ ثُــمَّ لَمْ أَبْكِكُــمْ
بَكَيْــتُ عَــلَى حُبِّــيَ الزَّائِــلِ

وأنا الآن أسمُعها تُغنّيه في حُبُور بين القِيان، وتحثّ كلّ مَنْ تقدرُ على الحضور أنْ تشهدَ مجلسها، ثُمّ هي تبقى عند البيت الثّاني وتأبى أنْ تُفارقه، وتُغنّيه حتّى تُذهَل عن نفسها.

مَنْ يدري بعدَ ذلك أنّ كلّ مطالع الغزل في شِعري لم تكنْ إلاّ لها، كلّ مطلعٍ كانَ طيفُها يأتي، فيأخذُ الرّيشةَ عنّي، ويغمسُها في مِداد الفُؤاد، بالدّم؟ نعم بالدّم ويكتب:

لِعَيْنَيْــكِ مَا يَلْقَى الفُــؤادُ وَمَا لَقِي
وَلِلْحُبِّ مَــا لَمْ يَبْقَ مِنِّــي وَمَا بَقِي
وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْــقُ قَلْبَهُ
وَلَكِــنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَــقِ

ثُمّ أراها تسمحُ فيفرح القلب، ثُمّ تأبى وتتمنّع، وتميسُ في دلالها فيغتمّ، وإذا أنا بين الرّجاء والخوف، وبين الوَصْل والهَجْر، وبين المَنْع والمَنْح، وما دَرَتْ أنّ لذلك لذّة، وأنّ العطاء الكامل فرحٌ ناقص، وأنّ الهجر الكامل غَمٌّ ناقص، فإذا أرادتِ الكمال جمَعَتْ بين النَّقصَين، فأهتفُ كأنّها تسمعني:

وَبَيْنَ الرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى
مَجَــالٌ لِدَمْــعِ المُقْلَــةِ المُتَرَقْــرِقِ
وَأَحْــلَى الهَوَى مَا شَــكَّ فِي الوَصْلِ رَبُّهُ
وَفِي الهَجْرِ فَهْــوَ الدَّهْرَ يَرْجُو وَيَتَّقِي

ثُمّ تسحبُ يدها من يدي في حَرَكةٍ راقِصة، وتقفُ على حافّة القلب، وأنا أمدُّ يدي إليها عبدًا يتوسّل سيّده وأهتف:

وَغَضْبَى مِنَ الإِدْلالِ سَكْرَى مِنَ الصِّبَا
شَفَعْتُ إِلَيْهَا مِنْ شَبَابِي بِرَيِّقِ

وماذا بَعْدُ ماذا بعدُ يا أَمَلِي؟! سَرَى في القلب تذكارٌ على السُّلُوّ، وسقى جديبَ القلب فأينع، فهل أنا قد جُنِنتُ بِك أمّ أنّ جنوني أجهزَ على ما تبقّى فِيّ من عقل؟! مَنْ يدري اليوم أنّني ما صُغتُ قصيدةً من الشّكوى إلاّ كانتْ شكوى الحرمان من امرأةٍ مثلك؟ وما تعتّبْتُ إلاّ تعتّب المشتاق إلى نَظرةٍ من عينَين ساحِرتَين كعينَيك. فوا أسفى على ما آلتْ إليه حالتي!!

ثُمّ طال اللّيل أو وَهِمْتُ أنّه فعل، فكان أطول من ليل النّابغة، وأظلمَ من ليل امرئ القيس، وأَحْيَرَ من ليل جرير، وأَعْسرَ من ليل حَسّان، وأَثْبتَ من ليل بَشّار. وها أنا في هذه اللّيالي الّتي لم أعدْ أعدّها لكثرتها، فتشابهت أو تشاكهتْ لبُعد شُقّة الأمل، أهتف:

لَيَالِيّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ
طِوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ
يُبِنَّ لِيَ البَدْرَ الَّذِي لا أُرِيدُهُ
وَيُخْفِينَ بَدْرًا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
وَمَا عِشْتُ مِنْ بَعْدِ الأَحِبَّةِ سَلْوَةً
وَلَكِنَّنِي لِلنَّائِبَاتِ حَمُولُ

ثُمّ سقطتُ في بئر النّوم حزينًا كسيرًا كأنّ الفارس الّذي هابته العربُ كلّها، ودانتْ له مُدُن الشّام فَقَدَ رُمحَه وثَلَمَ سيفَه، وكسرَ قوسَه، واستسلم لليّأس.

ثُمّ هَلَّ عيدُ الأضحى من عام ٣٤٢هـ ، والأمير - لا بُدّ - سيجمع الكُبَرَاء ويطلبُ منّي أنْ أهنِّئه بالعيد، فمَنْ يُهنّأ إذا لم يكنْ هو. وأنا؟ لا شيءَ يدعوني إلى أنْ أقول من بعدُ إلاّ (خولة). أمّا هذا الأمير فقد نَسَلتْ مملكته أو بدأتْ، الرُّوم من جهة، والبدو والقبائل العربيّة من جهة ثانِية، وأبناء عمّه الطّامعين في المُلك النّاقمين على انفراده به من جهة ثالِثة. فإذا كان يُقاتل هؤلاء كُلَّهم، ولا يهنأ بنومٍ وهو يُفكّر كيفَ يتخلّص منهم جميعًا، فأنّى له أنْ يؤسّس مَمْلكتَه أو خِلافته؟ وأنا؟ ما جِئتُ إليه، وانتهى بي الطّواف عنده إلاّ من أجل أنْ أكون شريكَه في هذه الخِلافة وذلك المُلْك. أمّا والحال على ما ذكرتُ فنحن كالّتي تنقضُ غَزلها من بعدِ قُوّة أنكاثًا!

وها هي تكبيرات العيد تملأ حَيّ سويقة علي، وتنطلق من المآذن الصّادحة بعدَ العِشاء الأخيرة. فلمّا كان الصّباح، ركبتُ (السّابح) وأتيتُه. فدخلتُ فإذا المجلس على أتمّ ما يكون، قد حشَدَ لسماع القصيدة أكثرَ من مئةٍ من العلماء والنُّحاة والشّعراء، ومئة من قادة الجند وكِبارهم، ومئة من أهل الخاصّة والأعيان وكِبار التُّجّار. فمضيتُ لا آبَه لأحدٍ، واتّخذتُ طريقي والعيون كلّها تتقحّمني، أمّا الشّعراء والنُّحاة وأهل اللّغة فحسدًا. وأمّا الكُبراء فمهابةً، وأمّا قادةُ الجيش فتعجُّبًا. فلمّا وصلتُ إلى كرسيّ (سيف الدّولة)، سلّمتُ عليه دون أنْ ينحني من

قامتي شيءٌ وجلستُ عن يمينه والعيون كلّها إليّ عَجبًا ودَهَشًا ومهابة، وابتدأتُ مُنشِدًا:

لِـــكُلِّ امْرِئٍ مِـــنْ دَهْرِهِ مَـــا تَعَوَّدَا
وَعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي العِدا

فاعترضَ أحدُهم وأنا ما أزال في هذا المطلع، فقال بصوتٍ عالٍ والنّاس قد أصغتْ: «لو أنشدَها وهو واقفٌ لكان أفضل». فقطعتُ إنشادي من أجل هذا الأحمق، وهتفتُ به بصوتٍ حادٍ: «اسكتْ يا رجل، أما سَمِعْتَ المِصراع الأوّل من البيت؟». ثُمّ تابعتُ إنشادَها، والأمير يهزّ رأسَه وقلبَه ويطرب، فلمّا مضيتُ بمدحه حتّى وصلتُ إلى قِصّة هروب الدُّمُستق من أمامه في المعركة وتخلّيه عن ابنه الّذي سقطَ في أيدينا أسيرًا، وتنكّره بمسوح الرّهبان والهروب إلى الدَّير حتّى لا يُعرَف فيُؤسَر:

فَـــوَلَّى وَأَعْطَـــاكَ ابْنَهُ وَجُيُوشَـــهُ
جَمِيعًـــا وَلَمْ يُعْطِ الجَمِيـــعَ لِيُحْمَدَا
عَرَضْتَ لَـــهُ دُونَ الحَيَـــاةِ وَطَرْفِهِ
وَأَبْـــصَرَ سَـــيْفَ اللهِ مِنْـــكَ مُجَرَّدَا
وَمـــا طَلَبَـــتْ زُرْقُ الأَسِـــنَّةِ غَيْرَهُ
وَلَكِنَّ قُسْـــطَنْطِينَ كانَ لَـــهُ الفِدَا
فَأَصْبَـــحَ يَجْتَـــابُ المُسُـــوحَ مَخَافَةً
وَقَدْ كَانَ يَجْتَابُ الـــدِّلاصَ المُسَرَّدَا

وَيَمْشِي بِـــهِ العُكَّازُ فِي الدَّيْـــرِ تَائِبًا

وَمَا كانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْـــقَرَ أَجْرَدَا

ضَحِكَ واستبشر وهلّل. فمضيتُ آخذُ حقّي من قصيدتي، فأذكر هؤلاء الّذين يسمعون هذا السّحر ولا يملكون منه هروبًا ولا منه نجاةً، وأنا أذبحهم بمُديته واحِدًا واحِدًا، وكلٌّ منهم ينظر دماءَه تسيلُ على مرأى منه، ويرى أخاه الشّاعر يُذبح بِسكّين حرفي أمامه كذلك، ولا يملك واحدٌ منهم لِما يَرى دفعًا، وها أنذا أوجّه لهم هذه الطّعنات:

أَزِلْ حَسَـــدَ الحُسَّـــادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ

فَأَنْتَ الَّـــذِي صَيَّرْتَهُم لِيَ حُسَّـــدَا

فتناخروا. فأردفتُ:

إِذا شَـــدَّ زَنْدِي حُسْـــنُ رَأْيِكَ فِيْهِمُ

ضَرَبْتُ بِسَـــيفٍ يَقْطَعُ الهَامَ مُغْمَدَا

فهابُوا، واتّقى كلّ واحدٍ عُنُقَه بدفنها في صدره. فأردفت:

وَمَـــا أَنَـــا إِلّا سَـــمْهَرِيٌّ حَمَلْتَـــهُ

فَزَيَّـــنَ مَعْرُوضًـــا وَرَاعَ مُسَـــدَّدَا

فكادَ بعضُهم يسقطُ على الأرض لا تحمله رِجلاه. فأجهرتُ:

وَما الدَّهْرُ إِلّا مِـــنْ رُواةِ قَصائِدي

إِذا قُلْتُ شِـــعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

فَسَــارَ بِهِ مَنْ لا يَسِــيرُ مُشَــمِّرًا
وَغَنّى بِــهِ مَــنْ لا يُغَنّــي مُغَرِّدَا
أَجِــزْنِي إِذَا أُنْشِــدْتَ شِــعْرًا فَإِنَّما
بِشِــعْرِي أَتَــاكَ المَادِحُــونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَــيْرَ صَوْتِي فَإِنَّني
أَنَــا الصَّائِحُ المَحْكِـيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

وتردّدَ الصّدى في القاعة، وكان يومَ إعلان وفاة الشّعراء أمام هذا السّحر. وخرجتُ، فما كدتُ أجاوز القاعة حتّى سارَ بشعري مَنْ لا يسيرُ كما قلت، فطارتْ نسخةٌ من القصيدة إلى الهند، وثانيةٌ إلى العراق، وثالثةٌ إلى مصر، ورابعةٌ إلى المغرب، وانكبّ عليها شيوخ اللّغة يُفسِّرون ويُبيّنون ويَستشهدون ويختَصِمون، ويرون فيها أقول أنفسهم، فلقد كان شِعري ينطقُ عن خواطر النّاس. وما من قصيدةٍ قلتُها من بعدُ أو من قبلُ إلاّ اجتمع حولَها فريقان، فريقٌ شديدُ الحميّة لي، وفريقٌ شديدُ الحمِيّة عليّ، وما يعنيني من الفريقَين سِوى أنّهما يتصارعان عَلَيّ ومن أجلي وبسببٍ منّي!

وبعثَ (سيفُ الدّولة) في طَلَبي، وماذا يُريدُ منّي وقد أخذَ منّي أثمنَ ما فِي الوُجود؛ هذه المُضغة الّتي نفثَتْ هذا السِّحر كلّه، هذه الدُّرر الّتي تبقى على مَرّ الزّمان؟! وماذا يُريدُ منّي وأنا الّذي أُريدُ منه، فهل كان يدري أنّ كلّ ما أعطانيه لا يُساوي ذَرّة في بحر ما أعطيتَه؟! وأنّه لو شَفَع لِي عندَها لهَوّنَ عَلَيَّ بعضَ الأسى، ولردّ شيئًا من جميلي عنده!

وأتيتُه، فجلستُ عن يمينيه مجلسي الّذي لا يُنازعني فيه أحدٌ، فقال: «أهلاً بأبي الطّيّب، لقد أتاني رسول ملك الرّوم، وقد أخَّرْتُه في دار الضّيافة، ولم أُدخِلْه عَلَيّ حتّى تأتي فتشهد حُضُورَه». فلم أقلْ شيئًا. وأمرَ به (سيفُ الدّولة) فَدَخل، فإذا هو يعثرُ في مشيته الفَكلاء، ويفحصُ الأرضَ بنظراته الزّائغة قد تملّكَتْهُ الهيبةُ من الأمير، فلمّا صار في وسط البَهو من المجلس، جَثَا على رُكبتَيه ثُمّ سجد، ولم يرفعْ رأسَه حتّى أُذِنَ له، فلمّا رَفَع، أرادَ أنْ يقول ما جاءَ من أجله فأُرتِجَ عليه، فمَدّ يدَه بالكتاب من الدُّمُستق، ولم يخطُ نحونا خُطوةً واحدةً، فأشار الأمير إلى أحدِ حرسه، فأخذ الكتاب منه، وأعطاه لسيف الدّولة، فلمّا فَضّه أعطاني إيّاه لأقرأه، فإذا فيه طلبٌ من الدُّمُسْتق أنْ يأذن الأميرُ بإرجاء الحروب وإنْساء الغَزَوات من أجل أعياد النّصارَى، وأنّه يُريدُ التقاط الأنفاس له ولجيشه ورعاياه من الحروب، لمداواة الجرحى، والعودة إلى الحياة. فنظرَ إليّ الأمير يستشيرني، فقلت: «هذه الرّسائل الّتي جاء بها هذا الرّسول دُروع لملك الرّوم؛ يريدُ بها تأجيل الموت مع أنّه قادمٌ بِكَ إليهم لا محالة، فكأنّه يحمي نفسه بها كما يَحمي الدِّرعُ المُقاتِلَ من الموت أو من الطّعن. وإنّما هو يُشاغلك عن أن تأتي الحرب سريعًا؛ فيطيل مدّة الإرجاء؛ كلّ مُدّةٍ يبعث إليك رسولاً، ليخبرك أنّه يُقدّر عظمتك وجلالتك وفخامتك وشجاعتك وفروسيّتك، وأنّه يريد لهذه الحرب أن تتوقّف قليلاً، وعلينا أن نلتقط أنفاسنا ليس من أجلنا نحن الملوك إنّما من أجل شعوبنا الّتي رزحتْ تحت بنود هذه الحرب القاسية الشّديدة الكريهة». فأعجَبَه ما قُلت. فهتف: «هل لهذا النّثر الجميل من شعرٍ يكونُ أجمَل منه». وما رأيتُ أنّني أقول في كلّ مرّةٍ يطلبُ منّي الأمير، فالشّعر ليس حاجةً تُقضَى، ولا عَرَضًا يُشترى، وليس غَرَضًا

يُباع في الحوانيت، فيُرسِلَ إليه مَنْ يأتيه به، فأردتُ أن أعتذر، فخفتُ هَبوته وسرعة غَضَبِه، فإنّ الملوك أسرعُ النّاس غَضبًا، وإذا ما غضبوا هم يفتكون. فهَزَزْتُ رأسي دون أنْ أردّ عليه. وحلفَ ألاّ يُعيدَ الرّسول إلى الرّوم حتّى أقول.

فلمّا أبطأتُ عليه، بعثَ إليّ سَقَط الشّعراء وسُفهاءَهم يُناكفونني، ويُسمعونني قبيح القول، وما أحطّها من أداةٍ، أنْ يستخدم هؤلاء الحمقى في الشّغبِ عَلَيّ!! فبالغتُ في الإعراض عنه وتلبية طَلَبِه إلى القصيدة. فلمّا يَئِس منّي أتيتُه فأنشدْتُه:

دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرُّوْمِ هَذِي الرَّسَائِلُ
يَرُدُّ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيُشَاغِلُ
هِيَ الزَّرَدُ الضَّافِي عَلَيْهِ وَلَفْظُها
عَلَيْكَ ثَنَاءٌ سَابِغٌ وَفَضَائِلُ
وَأَنَّى اهْتَدَى هَذَا الرَّسُولُ بِأَرْضِهِ
وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيْهَا القَسَاطِلُ

فعادَ إلى طربه وسالِفِ عهدِه، ولعمري إنّ جليسَ الملوك لفي شَقاء، يُلِحّون في الطّلب كالأطفال، ويغضبون مثلهم، ويرضون مثلهم، وما لي قِبَلٌ بدوام مُجالستِهم وهم على هذا النّحو. فلمّا وصلْتُ إلى قولي:

أَرَى كُلَّ ذِي مُلْكٍ إِلَيْكَ مَصِيْرُهُ
كَأَنَّكَ بَحْرٌ وَالْمُلُوكُ جَدَاوِلُ

اهتزّ واهتاج كما اهتزّ عبد الملك بن مروان لمّا سَمِعَ جريرًا يُنشِده:

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا
وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ؟!

ولمّا أوقعتِ القبائلُ النّزاريّة واليمانيّة بعامل (سيف الدّولة) في قِنِّسْرين عام ٣٤٣هـ جَهّزَ سيفُ الدّولة جيشًا لقتالهم، فما أقاموا لمسيره وزنًا، وأحدثَ بنو كلاب شَغَبًا بنواحي (بالس)، فسار (سيفُ الدّولة) في جيشه خلفهم وأنا معه، فأدركهم بعد ليالٍ بين ماءَين يُعرَفان بـ (الغبارات) و(الخرارات) من (جبل النَّسر)، فأوقعْنا بهم ليلاً، فقتلْنا منهم عددًا كبيرًا، ولمّا هَمَمْتُ بأنْ أُنفِذَ الحربة في بطنِ واحدٍ منهم لتخرجَ من ظهره عَرَفني، فهتفَ مُستغِيثًا مُستمهِلاً: «أتُقاتِلنا وقد كُنّا تَبِعناك يومَ تنبَّأتَ؟». فقلتُ: «ذلك عَهْدٌ مَضى، ولئن كنتُ نبيًّا فلقدُ كنتُ نبيًّا على الحمقى». فقال: «ألسنا صحبكَ وأصدقاءَك وكُنّا نُفدّيكَ بأنفسنا؟!». فقلت: «لا صاحب لي إلاّ السّيف، ولا صديق لي غير الرُّمح». فاستيأس الرّجل أنْ أعفو عنه أو أتركه، فهتف: «إذا قَتَلْتَني فترفّقْ بمن بعدي... الله الله في النّساء والحريم». فقلتُ له: «شُفِّعْتَ». وطعنتُه طعنةً نجلاءَ نتقَ فيها الدّمُ من فمه، وجحظتْ بها عيناه. فلمّا عُدْنا. استنشدني الأمير أنْ أصِفَ ما عاينتُ، فقلت:

بِغَيْرِكَ راعِيًا عَبَثَ الذِّئابُ
وَغَيْرَكَ صَارِمًا ثَلَمَ الضِّرَابُ
وَتَمْلِكُ أَنْفُسَ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا

فَكَيْفَ تَحُـــوزُ أَنْفُسَـــها كِلابُ؟!

طَلَبْتَهُـــم عَـــلَى الأَمْـــواهِ حَتَّـــى

تَخَـــوَّفَ أَنْ تُفَتِّشَـــهُ السَّـــحَابُ

ثُمّ تذكّرْتُ ما وعدتُ به الطّعين من التّشَفُّع في الحريم والنّساء، فقلتُ للأمير: «النّساءَ وحُرمتهنّ». فقال: «يَعُدْن إلى بلادهنّ كريماتٍ مُحمّلاتٍ بالمال والطّعام، ويخرجْن في خفارةٍ حتّى يبلغْنَ مأمنهنّ». فهتفتُ للتّوّ:

فَعُـــدْنَ كَـــمَا أُخِـــذْنَ مُكَرَّماتٍ

عَلَيْهِـــنَّ القَلائِـــدُ وَالمَـــلابُ

يُثِبْنَـــكَ بِالَّـــذي أَوْلَيْتَ شُـــكْرًا

وَأَيْنَ مِـــنَ الَّذِي تُـــولِي الثَّوَابُ؟!

ثُـــمّ تشـــفّعتُ بمـــن سُـــقناه مـــن تلـــك الدّيـــار أسرى مـــن الرّجـــال، فهتفـــت:

تَرَفَّـــقْ أَيُّهَـــا المَـــوْلَى عَلَيْهِـــمْ

فَـــإِنَّ الرِّفْـــقَ بِالجَـــانِي عِتَـــابُ

وَإِنَّهُـــمُ عَبِيـــدُكَ حَيْـــثُ كَانُـــوا

إِذَا تَدْعُـــو لِحَادِثَـــةٍ أَجَابُـــوا

وَعَـــيْنُ المُخْطِئِـــينَ هُمُ وَلَيْسُـــوا

بِـــأَوَّلِ مَعْـــشَرٍ خَطِئُـــوا فَتَابُـــوا

فقال: «عفونا عنهم لأجلك، وسنُعيدهم إلى أزواجهم وذراريهم لا يمسّهم السّوء ولا هم يحزنون».

وعادت الحياة تجري دون أنْ تعبأ بمن عاش أو مات، أو تحفل بمن حلّ أو ارتحل. وعُدتُ إلى الانغِماس في الكتب، فما تركتُ في الألف كتابٍ الّتي جعلها الأمير في مكتبتي كتابًا واحِدًا إلاّ وقرأتُه، وشرحتُ على هوامشه بخطّ يدي.

وسألتُ (مُحسّدًا): «أيطول بنا البقاء هنا؟!». فقال: «ما عهدتُك إلاّ مرتحِلاً. وإنّني تعجّبْتُ من أنّكَ أطلتَ في ظِلّ هذا الأمير البقاء. وأرى كلّ مَنْ في مجلسه لا يُطيقك، ولا يريدُ بكَ إلاّ السّوء، وإنّكَ إذا صبرتَ عليهم فكأنّما صبرتَ على الذُّلّ». فقلتُ وقد رأيتُ صدق لهجته: «فإلى أين وقد ضاقتْ بِنا الدُّنيا؟!». فقال: «لا تضيقُ وبينَ ضُلُوعِكَ هذا القلب».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٩)

تَذَكَّرتُ ما بَينَ العُذَيبِ وَبارِقِ

وبثّ (سيفُ الدّولة) الخُطباء في المُدن والقُرى يحثّونهم على الجِهادِ في سبيل الله، فعلمتُ أنّه يتجهّزُ لغزوةٍ جديدة، وكان لا يُخبرنا بوُجهته إلاّ إذا اكتملت العُدّة، وقطعَ نصفَ الطّريق. وكان إذا غَزا غزوةً كبيرةً طلبَ منّي أنْ أُقاتِل فيها إلى جانبه، ولم يكنْ يبغي من ذلك إلاّ أنْ أَصِفَ ما أرى، فكأنّه كان يُؤرّخ لنفسه، ويُريد لمن يأتي من بعده أنْ يذكر حَسَناته، وقد وَهَبْتُه ذلك طَوْعًا.

وسارَ (سيفُ الدّولة) أوّلاً شمالاً، فلمّا مضى على ذلك عشرةُ أيّام، سار بالجيش غربًا، وبقينا على ذلك لا ندري أين نمضي عشرة أيّامٍ أخرى، فلمّا صار ماءُ بحرِ الرّوم يتلألأ مع مغافرنا على أشعّة الشّمس الّتي تهوي في القُبّة، أرحْنا، وعرفْنا أنّنا نقصد الحدث الحمراء وقلْعَتها.

ثُمّ عقدْنا العزم على المسير إليها، فوصلْنا إلى مشارفها في السّابع عشر من جُمادَى الآخرة من عام ٣٤٣هـ، وكانَ (سيفُ الدّولة) قد عَزَم على بنائِها من جديدٍ رغم أنف الرّوم، وقد كانتْ قلعةً حصينةً واقعةً بين (مَلَطْية) و(سُميساط) و(مرعش) من الثّغور، وقد سُمّيت بالحدث الحمراء لأنّ تربتها كلّها حمراء، وتقعُ قلعتُها على جبل (الأُحَيْدِب).

فلمّا عَلِمَ (الدُّمُسْتُقُ) بقدومنا ضَرَبَ الحِصار على المدينة في نحوِ خمسين ألفَ مُقاتل بين فارسٍ وراجلٍ، ومعه ابنه (نقفور) وعددٌ من البطارقة والزّرازِرة. ثُمّ عسكرْنا هناك، وقرّر (سيفُ الدّولة) أنْ نُصبِّحَهم يوم الاثنين في نهاية ذلك الشّهر من تلك السّنة، ودارتِ المعركة ودار معها الموت. وكانتْ معركةً حامية الوطيس جمَع فيها الرّوم كلّ ما يقدرون عليها من آلات الحرب، وسَانَدَهم كلّ ذي ملّة، ووقفَ إلى جانبهم كلّ ذي لسانٍ، فكان فيها أكثر من عشرين لغةً، لا يُفهِم المُحدِّثُ مُحدِّثَه. وكان صوتُ ارتطام الحديد بالحديد يُجاوِزُ أعنان السّماء، وقد غَطّى الحديدُ جُسُوم المُقاتِلين فلا يُرى منهم شيء، وغَطّى جُسوم الخيل، فلا تُعرَفُ أيديها من أرجلها.

ووقفَ (سيفُ الدّولة) صائِحًا: «مَنْ يُبايع على الموت؟!». فبايعه خمسمئةٍ من فرسانه وبايعتُ معهم، فشَنّ بهم على العَدُوّ، وقتلَ ثلاثة آلافٍ من رِجاله في يومٍ واحدٍ، وأسَرَ عددًا كبيرًا منهم. ولم ينجُ (الدُّمُسْتُقُ) إلاّ بالاختِباء في سردابٍ تحتَ الأرض. وأمّا ابنُه الشّابّ فَقُتِل، وَأُسِرَ صِهرُه وابنُ عمّه وزوجُ أخته. ثُمّ لم يُمهلهم (سيفُ الدّولة) فذبَحَهم جميعًا.

وتناثرتْ جُثث القتلى على السُوح حولها والنُّشُوز، وتبعثرتْ أشلاؤهم في كلّ مكان، فما حَلّ اللّيل حتّى راحتِ النُّسور والغِربان تحومُ فوقَ الجُثث، تنهشُ من لحومهم وتطير وفي مناقيرها بعضٌ من تلك الجثث.

ثُمّ أقامَ (سيفُ الدّولة) في القلعة حتّى أتمّ بناءَها. وأمّنَ أهلَها. وتركَ فيها حاميةً تقذف الرُّعبَ في قلوب الرّوم كلّما حاولوا الاعتداء على ديار المُسلمين. وعُدْنا معه إلى (حلب). فلمّا آذنَ بالاحتفال بالنّصر في آخر رجب من ذلك العام، مَثُلَ الشّعراء بين يَدَيه، فأنشدوه، فلمّا أتمّوا، جئِتُ لأقول ما لم يكنْ أحدٌ منهم ليقوله، فابتدأتُ خالِدتي:

عَلَى قَــدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَــأْتِي العَزائِمُ
وَتَــأْتِي عَلى قَــدْرِ الكِــرَامِ المَكارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِــيرِ صِغَارُها
وَتَصْغُــرُ فِي عَيْنِ العَظِيــمِ العَظائِمُ

ووصفتُ الجيش الجرّار الّذي فاق عديدُه خمسين ألفًا، وما التفّ فيه من الألسنة الغريبة الأعجميّة، فقلت:

أَتَــوْكَ يَجُــرُّونَ الحَدِيــدَ كَأَنَّهُمْ
سَرَوْا بِجِيَــادٍ مَــا لَهُــنَّ قَوَائِــمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبِ زَحْفُهُ
وَفِي أُذُنِ الجَــوْزاءِ مِنْــهُ زَمَــازِمُ
تَجَمَّــعَ فيــهِ كُلُّ لَسْــنٍ وَأُمَّــةٍ
فَــمَا تُفْهِــمُ الحُــدّاثَ إِلّا التَّرَاجِمُ

فلمّا أتيتُ على البيتَين اللّذين أقول فيهما:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

هَزّ رأسه، وقال: «لي فيهما رأي». وأشار لي أنْ أكمل، فذكرتُ شِدّة القتال، وما أعمله فيهم من تردّي جُثثهم من حالقٍ وهي تسقطُ مُتدحرِجةً على النَّشَز:

نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً
كَمَا نُثِّرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ

فأعجبه، وأعجبَ كلّ ذي بصر. وذكرتُ هيئة الطّيور الجوارح وهي تحومُ فوقَ الجُثث، تبحثُ عن طعامٍ لصغارها:

تَدُوسُ بِكَ الخَيْلُ الوُكُورَ عَلَى الذُّرا
وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكُورِ المَطَاعِمُ
تَظُنُّ فِرَاخُ الفُتْخِ أَنَّكَ زُرْتَهَا
بِأُمَّاتِهَا وَهْيَ العِتَاقُ الصَّلادِمُ

ولمّا قلتُ:

وَلَسْتَ مَلِيكًا هازِمًا لِنَظِيرِهِ
وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشِّرْكِ هَازِمُ

كَبّرَ وكَبّر من في المجلس، وهتف: «صدقت». فلمّا قفلْتُها:

أَلا أَيُّها السَّـــيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغْمَدًا

وَلا فِيـــهِ مُرْتَابٌ وَلا مِنْـــهُ عاصِمُ

هَنِيْئًا لِضَرْبِ الهَـــامِ وَالمَجْدِ وَالعُلَى

وَرَاجِيْكَ وَالإِسْـــلامِ أَنَّكَ سَـــالِمُ

أمَرَ لي أنْ يطوفَ بي خازن بيت المال، فيعرضَ عَلَيّ الغنائم الّتي غنمها من المعركة، وأختار منها ما أشاء. فأرجأتُ ذلك حتّى أسمع رأيه فيها أو قفني عنده، فاستعادَ القصيدة أو أكثرها، وتوقّف عند قولي:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَـــكٌّ لِواقِفٍ

كَأَنَّـــكَ فِي جَفْنِ الـــرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطـــالُ كَلْمَـــى هَزِيْمَةً

وَوَجْهُـــكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِـــمُ

قال: «القصيدة كلّها حِبَرٌ مُحكَمة، إلاّ هذين البيتَين، قد انتقدتُهما عليك، كما انْتُقِد على امرئ القيس قوله:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَـــبْ جَـــوَادًا لِلَـــذَّةٍ

وَلَمْ أَتَبَطَّـــنْ كَاعِبًـــا ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْـــبَأِ الـــزِّقَّ الـــرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ

لِخَيْـــلِيَ كُرِّي كَـــرَّةً بَعْـــدَ إِجْفَالِ

فكما كان ينبغي لامرئ القيس أنْ يُركِّب القسم الأخير من بيته الأوّل على القسم الأخير من بيته الثّاني فيقول:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَــبْ جَــوَادًا لِلَــذَّةٍ

لِخَيْــلِيَ كُرِّي كَــرَّةً بَعْــدَ إِجْفَالِ

وَلَمْ أَسْــبَأِ الــزِّقَّ الــرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ

وَلَمْ أَتَبَطَّــنْ كَاعِبًــا ذَاتَ خَلْخَالِ

فيقْرِنَ لذَّةَ الشُّرْب بِلذَّةِ النّكاح، ورُكوبَه الجواد بأمرِه خَيلَه بالكَرِّ، فكذلك كان ينبغي أن تركب البيتين فتقول:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَــكٌّ لِوَاقِفٍ

وَوَجْهُــكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِــمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَــالُ كَلْمَــى هَزِيْمَةً

كَأَنَّــكَ فِي جَفْنِ الــرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

حتّى يأتِلفَ المَدْح بتيقُّن المَوْت مع تَوَضُّح الوجه وتَبسُّم الثغر. فأقررتُ للأمير حُسْنَ رأيه، وصلاحَ ذوقه، غير أنّني قلتُ له: «إنْ صَحَّ أَنَّ الّذِي اسْتدرك على امرئ القيس هذا أعْلَمُ منه بالشِّعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطَأْتُ أنا، ومولانا الأمير يعلَمُ أنّ الثوب لا يَعْرفُه البزّاز معرفة الحائك، لأنَّ البزّاز لا يعرف إلاَ جُملته، والحائك يعْرِفُ جُمْلَتَهُ وتفْصيله، لأنّه أخْرجه من الغزْليّة إلى الثَّوْبيّة، وإنَّما قَرَنَ امْرُؤُ القيس لذّة النساء بلذّةِ الرُّكُوب للصَّيْد، وقَرَنَ السَّماحة في شِراء الخَمْر للأضياف بالشَّجاعة في مُنازلة الأعداء. وأنَا لمّا ذكَرْتُ الموتَ في أوّل البيت أتبعتُهُ بذكْرِ الرَّدَى لتَجانُسِه، ولمّا كان وجْهُ المنهزم لا يَخْلُو من أن يكونَ عَبُوسًا، وعينُهُ من أن تكون باكية، قُلْتُ: (وَوَجْهُكَ وضّاحٌ

وثَغْرُكَ باسِمُ) لأجْمَعَ بَيْنَ الأضداد في المعنى». ووافقني بعدَ هذا (سيفُ الدّولة) على ما قلتُ، وأمر بالزّيادة لي في الهديّة على ما أعطى.

وسارتِ القصيدة في القصر، فحفظها الأمير، وحفظها كلّ حاسِدٍ راغِمًا. وحفظتْها (خولة)، وانتشرت في البُلدان، وطارَ بها الرُّكبان، فوصلتْ إلى مشارق الأرض ومغاربها. وصارَ شعري شُعاعَ شمسٍ يُشرق على كلّ أرضٍ، وريحَ صَبا تهبّ على كلّ بلدٍ، ونجمةً تروي عطش الحائرين في اللّيل.

وصَمتُّ بعدَها ستّة أشهر. وصار (سيفُ الدّولة) يستجدي أنْ أقول فيه. فمللتُ هذا الإلحاف، ورأيتُ أنّ طول الإقامة سيُحوّلني إلى عَبدِ رَغْبتِهِ، وما أنا بذاك، وإنّني لأُكرم نفسي عن أنْ أقول الشّعر ما لم تهزّني إليه غايةٌ أو شرف.

وأردتُ للملل الّذي أصابني أنْ أتفكّه مع الشّعراء الّذين لم يسكتوا عن دسائسهم رغم أنّهم لم يبلغوا في تقافزهم حولي أعلى من نَعْلي، فلقد رأيتُ الشّاعر (الصّنوبريّ) ذاتَ صباحٍ عندَ سور القلعة في (حلب)، فقلتُ ألهو معه قليلاً، فلبستُ المغفر والدّرع وتلثّمْتُ حتّى لا يُرى من وجهي شيءٌ، واعتقلتُ الرُّمح في يدي، وأهويتُ بالسّابح يُسابِقُ الرّيح نحو (الصّنوبريّ)، فلمّا رآني مقِبلاً مُسرِعًا وأنا أُسَدِّدُ الرُّمح نحوه ارتاع، وكاد يطرح نفسَه عن دابّته لِمَا رأى، فلمّا صرتُ قريبًا منه، ثَنَيْتُ عنه الرُّمح، وأمطْتُ اللّثام، وأنشدْتُ:

نَثَرْتَهُـــمُ فَــوْقَ الأُحَيْــدِبِ نَثْرَةً
كَمَا نُثِّرَتْ فَوْقَ العَــرُوسِ الدَّرَاهِمُ

وسألتُه: «كيفَ ترى هذا القول؟ أَحَسَنٌ هو؟». فقال وهو يبلع ريقَه: «ويحكَ! قد أفزَعْتَني يا رجل. لعنة الله عليك». وضحكتُ ضحكًا شديدًا، ثُمّ شددتُ على (السّابح) وتركتُه خلفي لا يدري ما يصنع!

ثُمّ مرّتْ شهورٌ أربعةٌ أخرى، وأنا لا أجيبُ الأمير إلى ما يطلبُه منّي. وتجهّزَ (سيفُ الدّولة) - الّذي لم يهدأ من معركةٍ ولا هَنِئَ بِمُلْكه من شَغَبِ العَرَب - لقتال بني كلاب وقُشَيْر وعُقَيل وبني العجلان الّذين عاثوا في البلادِ خرابًا وفَسَادًا بعدَ أنْ كان قد عفا عنهم في خروجهم السّابق وأكرمَ حرائرهم. ولم أخرجْ معه. وغاب في هذا الخروج شهورًا فلمّا عادَ، أرسَلَ في طلبي، فأتيتُه مُتملمِلاً، فطلبَ من أحدِ قادته أنْ يذكر لي ما حدث جُملةً وتفصيلاً حتّى كأنّني أراه، فراحَ القائدُ يقول: «خرجْنا بالجيشِ من حلب، فقدّم مولاي مقدّمة إلى (قنّسرين) في يوم السّبت لليلةٍ خلتْ مِن صَفَرَ سنة ٣٤٥هـ. فأقامتِ المُقدِّمةُ أحدَ عَشَرَ يومًا أملاً أنْ ترعوي القبائل عن فسادهم فلم يَرعَوُوا. فسارَ مولاي بالجيش إلى ضيعة يقال لها (الرّامُوسة) على بعد فرسخَين من (حلب)، ثُمّ نكّبَها خلفه، فنزل (تلّ ماسح) وراح منه فاجتاز بمياه (الحيار) في بني القعقاع فطواها، ثُمّ تَلَقَّتْه مشيخةٌ من (بني كلاب) وغيرهم فطرحوا نُفُوسَهم بين يَدَيه واستسلموا برجالهم ونسائهم وذراريهم.

ثُمّ قصد مولاي (سَلَمْيَة) فتجمّعتْ لقتاله الأعراب، قبيلة (كَعب) ومن ضامَّها من (اليَمَن)، في عددها وعدّتها، وحبسوا ظُعُنَهم بماء يقال له (حيران)، على نحو مرحلة من (سَلَمْية)، وبعضهم بماء يقال له (القرقلس) وراءه. ووافتْ خُيولُهم مُشرِفةً على عسكر الأمير

من كلّ ناحية. فرَكِبَ لهم ووقعَ الطِّراد، فلم تَمضِ إلا ساعاتٌ حتى ركب أكتافهم وولّوا، واستحرّ القتل والأَسْر بآل (المهيا) ووجوه بني (عقيل) وقادتها، وقتل من جمعهم نيّفًا وخمسين رجلاً، وأخذ منهم نحو مِئتَي فرَس، وسلبَ دُروعَهم.

ثُمّ رحل مولايَ ضَحْوةً نَهارَ الجُمُعة ليُدرِكهم، فأسرعوا الترحيل بيوتهم فوافى ماء (حيران) بعد الظُّهر فوجد آثارَ جَفْلَتِهم، وسار إلى ماء (القرقلس) وأمر بالنُّزول عليه. ثم عنّ له رأيٌ في اتّباعهمْ، فرحلَ لِوَقْتِه إلى ماء (الغنثر)، فنزل عليه قبلَ نصفِ اللّيل، وقد امتلأتِ الأرضُ من الأغنام والجمال والهوادج والرِّحال، وقد تفرَّقتْ خُيولُهم واشتبهتْ عليهمُ الطُّرُق، فوقع أصحابُنا على عِدَّةٍ منهم فقتلوهم. وسار مولاي وقتَ السَّحَر إلى (تَدمُر) فنزل ماء (الجباه) على تسعة فراسخ من (الغنثر)، وتفرَّقتْ خيلُه في طلب الفُلُولِ فساقَتِ الماشِيةَ وقَتلتْ كثيرًا منهم، وسار مولاي من (تدمر) نحو (السَّماوة) فَقَتَلَ وأَسَر، ثُمّ صَفَحَ عمّا مَلَكه من الحريم، ثُمَّ رَجَعَ من (السّماوة) شفقةً عليهم من الاستئصال؛ لأنَّ الكثير منهم كانوا يموتون عطشًا وجوعًا. وقد قصد فريقٌ منهم جِهَةَ (القَلَمُون) مِمَّا يلي (دمشق). ثم عاد الأميرُ إلى مُعَسكره، ومرَّ بطريقه على جماعةٍ من تلك الجموعِ أُسِروا وَعَجِزوا عن الهربِ فبَرَّهم وزَوَّدهم. وأقام (بتدمر) يومَين وبثّ الخيل ليتعرَّفَ أخبارَهم، فظفرتْ خُيولُه بمالٍ مُنقطعٍ وأقوام جرحى وعَطْشى، فصَفَحَ عنهم، ورَحَلَ نحو (أَرْكة) ثُمَّ نَحوَ (السُّخْنة) ثُمَّ نحو (عَرَض) و(الرُّصَافة) و(الرَّقَّة) فتلقَّاه أهلُها، ثُمَّ نحوَ (حلب) عائدًا فوصلْنا إليها يوم الجمعة لِستٍّ خَلَون من شهر ربيع الأول من سنة ٣٤٥هـ».

ولمّـا أنهـى قائـدُ الجيشِ حديثـه، لم أكـنْ قـد وعيـتُ كثـيرًا مِمّـا قـال، لكثـرةِ الأمكنـة، ثُـمّ طلـبَ منّـي (سـيفُ الدَّولـة) بعـد أنْ أنهى قائـدُ الجيـش سرده المُمِـلّ أنْ أقـول في ذلـك شِـعرًا. فخرجـتُ مـن عنـده دون أنْ أقـولَ شـيئًا. وأردتُ أنْ أنـصرفَ عنـه، فدعـوتُ (أبـا سـعيدٍ) الّـذي كان يتـوكّل لي داري فيُنظّفهـا، فقلـتُ لـه: «أرأيـتَ الغُـلام الوسـيم ذَا الأصـداغِ الجالـسَ إلى الحانُـوتِ في أوّل الـدّرب في السّـوق في هذا الحـيّ؟!». فقال: «نعم رأيتُـهُ». فقلتُ: «فَامْـضِ وَأْتِني بـه، واتَّخِـذْ دعوةً، وأَنفِـقْ ثلاثةَ ألـوانٍ مـن الأطعمة، وعِـدَّةَ صَفَحات مـن الحلـوى». فمضى فدعـاه وجـاء، فصادفْتُهـما أوّل عـودتي من عند (سـيف الدّولـة). فـأكل الغُـلام معـي، وأكل معنـا (أبو سـعيد).

فلمّا جَنَّ اللَّيل، قدّم لي (أبو سعيدٍ) سراجًا، ومرفعَ دفاتري، وكانت تلك عادتي في كلّ ليلة، ثُمّ قلتُ له: «أحضِرْ لضيفِكَ شرابًا، واقْعُدْ إلى جانبه ونادِمْه». ففعل ما أمرتُه به. وأنا مُنكبٌّ على دفاتري أكتبُ قصيدتي. فلمّا مضى على ذلك زمنٌ أنهيتُ فيه ما ابتدأت. قلتُ لأبي سعيد: «افرشْ لِضَيفِك، وافرشْ لِنفسِك، وبِتْ ثالِثَنا». فتركتُهما ينامان، وأنا أُعدّل في قصيدتي، حتى مَضَى من اللَّيل أكثرُه، ثُمَّ أويتُ إلى فراشي ونمت. فلما أصبحنا قال لي (أبو سعيد): «ما يصنع؟». يقصد الغُلام. فقلتُ: «أُحْبُه وَاصْرِفْه» فقال لي: «وكم أعطيه؟». فقلتُ: «أَعْطِهِ ثلاثمئة درهم». فتعجّب من ذلك، ثم تجرّأ على ما حاكَ في نفسِه، فدنا منّي، وهمس: «إنه مِمَّنْ يُجيبُ بِالشَّيْء اليسير، وأنتَ لمْ تَنَلْ مِنهُ حظًّا». فغضبْتُ غَضبًا شديدًا، ثُمّ هتفتُ: «أتظُنُّني من أولئك الفَسَقَة؟ والله ما لمستُ يدًا لا تحلّ لي في حياتي، أَعْطِهِ ثلاثمئة درهم، وَلْيَنصرِفْ راشدًا». ففعل

ما أمرتُه به. ثُمّ إنّني أتيتُ (سيف الدّولة) في قصر الدّارَين، وأنشدتُه القصيدة الّتي سهرتُ لها أمس أذكر فيها غَزَواته الأخيرة، وبدأتُ (بالعُذَيب) و(بارِق)، وما أدري إنْ كان (سيفُ الدّولة) يعرفهما، فإنّهما من بقايا ذكريات طُفولتي في (الكوفة):

تَذَكَّرْتُ مَــا بَيْنَ العُذَيْــبِ وَبَارِقِ
مَجَــرَّ عَوَالِيْنَــا وَمَجْرَى السَّــوَابِقِ
وَصُحْبَةَ قَــوْمٍ يَذْبَحُــونَ قَنِيْصَهُمْ
بِفَضْلَةِ مَــا قَدْ كَــسَّرُوا فِي المَفَارِقِ

فلمّا وصلتُ إلى قولي الّذي أذكر فيه ما رأيتُ أمسِ من الغلام:

وَأَغْيَــدُ يَهْــوَى نَفْسَــهُ كُلُّ عَاقِلٍ
عَفِيْفٍ، وَيَهْوَى جِسْــمَهُ كُلُّ فَاسِقِ
أَدِيْبٌ إِذَا مَــا جَسَّ أَوْتَــارَ مِزْهَرٍ
بَلا كُلَّ سَــمْعٍ عَنْ سِــوَاها بِعَائِقِ
يُحَــدِّثُ عَــمَّا بَــيْنَ عَــادٍ وَبَيْنَهُ
وَصُدْغَــاهُ فِي خَدَّيْ غُــلامٍ مُراهِقِ
وَمَا الحُسْــنُ فِي وَجْهِ الفَتَى شَرَفًا لَهُ
إِذا لَمْ يَكُــنْ فِي فِعْلِــهِ وَالخَلائِــقِ

زَمّ شفتَيه كأنّه رشفَ حامِضًا من الشّراب. ولم يتغيّرْ وجهُه فيَظهرَ فيه بعضُ السّرور إلاّ حينَ قلتُ:

وَلَمَّا كَسَا كَعْبًا ثِيابًا طَغَوْا بِها
رَمَى كُلَّ ثَوْبٍ مِنْ سِنانٍ بِخَارِقِ
وَلَمَّا سَقَى الغَيْثَ الَّذِي كَفَرُوا بِهِ
سَقَى غَيْرَهُ فِي غَيْرِ تِلْكَ البَوَارِقِ
وَمَا يُوجِعُ الحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ
كَمَا يُوجِعُ الحِرْمانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ

فلمّا أتيتُ على آخرها، نظر عن يمينه أسفلَ ساقِه، وهمسَ بشيءٍ لا أعرفه، فعلمتُ أنّها لمْ تُعجِبْه، وكأنّه ملّ هو الآخر منّي. وطلبَ منّي أنْ أكتبَ غيرها تَصِفُ وقائعَه كما ينبغي. ولم يَجْزِني عليها شيئًا ذا بال كأنّه يسخر منّي. ثُمّ لويتُ عِنانَ نفسي، وأعطيتُه ظهري، ومررتُ بالأروقة العالية فرأيتُ سقوفَها كأنّها تهوي فوقَ رأسي، ومررتُ بالرّياض يقطرُ ماؤها في حدائقه فشعرتُ كأنَّ ماءها يغلي كالحميم، وأدركتُ أنّه الفِراقُ لا محالة، فلقد ضِجرتُ من هذا الملك الطّفل أيّما ضَجر!

(١٠)

لقد صارتْ (حَلَبُ) بَعِيدةً!!

بعثَ (أبو فراسٍ) أحدَ خَدَمِه يطلبني. ماذا يُريدُ منّي هذا؟! ليس بيننا ما يدعو لأنْ أراه. هممتُ أنْ أقول للخادم إنّني لن آتي، ولكنّني خشيتُ أنْ يسمع (سيفُ الدّولة) بالأمر فيُعاتِبَني وأنا لا أريدُ أنْ أُلجِئه إلى العِتاب. قلتُ للخادم: «سألحق بك».

حينَ دخلتُ القصر، تلقّاني رئيس الخدم، تقدّمني، ومضيتُ خلفه حتّى وصلْنا إلى غرفةٍ مُذهّبة لم أدخلها من قبل، حينَ ولجتُ من الباب بهتَتْني التّماثيل والتّصاوير والرّسومات على الجدران والسُّرُج المُتدلّية. كانت التّماثيل تقفُ في بَهو الغرفة المُمتدّة حتّى إنّني حينَ استعدتُ بصري بعدَ البهتة خُيّل إليّ أنّني لا أرى أحدًا من النّاس. سمعتُ صوتَ (أبو فراس) يُنادي، تقدّمتُ إلى آخر الغرفة باتّجاه الصّوت، ففوجِئتُ به وبابن عمّه الأمير.

أشارَ (أبو فراس) بسبّابته إليّ حتّى أتقدّم، كان يبدو في حركته الاشمِئزاز، وفي تعابير وجهه الاحتقار. أردتُ أنْ أَبْصُقَ في وجهه، لو لا أنّني قدّرتُ بُؤس الموقف. تقدّمتُ وأنا أبادله نَظَرات الاحتقار. كان سيفُ الدّولة يجلسُ على عرشٍ من الدّيباج الأحمر يعلوه الرّيش. وكان (أبو فراسٍ) واقفًا عنده.

قال (أبو فراس): «ما سنقوله هنا يبقى هنا، ولا نقوله مرّة أخرى، كلام الملوك لا يُعاد». كانتْ نَبْرتُه تَشِي بالغضب والحِقد معًا. بقيتُ صامِتًا، إذ إنّ عبارته لا تستدعي منّي لا رَدًّا ولا تعقيبًا. نظرتُ إلى (سيف الدّولة)، كانَتْ يده تتحرّك ببطء على مسند الكرسيّ. يبدو أنّه قَلِقٌ أو مُضطرِب. سمحتُ لهما أنْ يتبادلا النّظرات، قبل أنْ يأخذ (أبو فراس) الإذن من سيّده بالبدء. قال: «لا تحلمْ بما لا يُمكنك أنْ تناله». «لا أحدَ يمنعني من الحلم». «إذا تكلّمتُ فاصمتْ». «لا أحدَ يمنعني من الكلام». «وَقِح». «أُنزّه سَمْعَ الأمير عن أنْ أقول كلمة مُسِفّةً مثل هذه». فاشتعلَ غضبًا. رَمَى بكأسٍ كانتْ في يده على رأسِ تمثالٍ من البلّور فتَحطّمتا معًا. تابع: «أيّها الكافر بما أولاه مولاه من نِعَم». «لم أكفر نِعَم مولاي. حاشاي. بل شكرتُه عليها شُكرًا يفوقُ عَطاءَه». أحدثتْ عبارتي الأخيرةُ غضبًا لديهما معًا. صرخَ (أبو فراس): «مولاي، هذا لسانُه يحتاجُ إلى قَطْع». بقيتُ صامتًا. مرّتْ عبارتُه على أذني مثلَ طنين ذُبابة. عقدتُ يدَيّ بلا مبالاة. فأردف: «إيّاكَ أنْ تُفكّر أنّ صعلوكًا مثلكَ يُمكن أنْ يتزوّج بأميرةٍ مِنّا. النّاس مَقامات أيّها الأخرق». «صدقت. النّاس مَقامات. وما منّا إلاّ له مقامٌ مَعلُوم». هَزّتْه العبارة، شعرَ أنّها تحطّ منه، هتف: «ماذا تعني؟!». «لستُ مضطرًّا لتفسير المُفَسَّر». ازداد حنقه، ورأيتُ وجه (سيف الدّولة) قد تمعّر هو الآخر. رفعَ (أبو فراس) يَدَه يُريدُ أنْ يَلطِمَني، تراجعتُ إلى الوراء قليلاً، ووضعتُ يدي على مقبض السّيف، وهتفتُ: «لا تُهِنْ مَقامَ الأمير». «خولة ليستْ لكَ. ألا تفهم؟!». «دَعْها تُقرّر. لستَ أنتَ خولة. إلا إذا كنت تعتقدُ أنّه لا عقل لها ولا رأي». ثُمّ أرسلتُ نظرةً إلى (سيف الدّولة) فرأيتُه جامِدًا بارِدًا حائرًا. فتقدّمتُ إليه حتّى صار وجهي في وجهه، وصرختُ: «قلْ شيئًا

يا سيّدي، لا تبقَ صامِتًا، قلْ شيئًا. ألم تعدْني؟! ألمْ يكنْ بيننا على ذلك وعدٌ واتّفاق». وأخذ (أبو فراسٍ) – بمنكبي وأبعدَني عن الأمير الّذي ظلّ مُطرِقًا كأنّه لا يقوى على فِعل شيءٍ– وقال: «مَنْ تظنّ نفسك أيّها النَّكِرة؟!». «أنا أحمدُ بن محمّد. أبو الطّيّب المتنبّي. سيّد شعراء الأرضِ؛ مَنْ جاء ومن سيجيء ولا فخر. ولي لسانٌ سيتمنّى كلّ ملكٍ لو أنّني قلتُ فيه حرفًا، حتّى أولئك الّذين لم يعيشوا في زماني. ومَنْ أنت؟! أميرٌ؟! لقد جاءتْكَ الإمارة بالولادة. فارسٌ؟ ففي جند سيف الدّولة من هو أَفْرَسُ منك. شاعر؟ فعلى غيري من الشّعراء. أمّا أنا فواقفٌ تحتَ أخمَصيّ الأنام». وأغضبتْ عباراتي هذه (أبا فراس) و(سيف الدولة) وجدران الغرفة وأغضبتْني، ذلك أنّني لهثتُ بعد أنْ لفظتُ آخر حرفٍ فيها لُهاث المَحموم، ولا بُدّ أنّها نفثات مَصدور.

تقلقلَ (أبو فراس)، هاجَ، اضطربَ، تكوّر، تقبقَب... ثُمّ سَلَّ سيفه، وراحَ يهدر وهو يُشهره في وجهي: «خولةُ ليستْ لك. نحنُ لا نُزوّج نساءَنا للصّعاليك. قبحًا لوجهكَ يا لئيم». واندفعَ نحوي، فتلقّيتُ سيفَه بسيفي، فأسقطتُه، ودرتُ حتّى صِرْتُ عن يمين (سيف الدّولة)، وهتفتُ فيه: «قُلْ شيئًا أيّها الأمير. إنّ ابنَ عمّكَ هذا أذهبتِ الحَمِيَّةُ عقله. أنجِزْ وعدكَ يا سيّدي». وظلّ (سيفُ الدّولة) صامِتًا لا ينبسُ بحرف، وكان مُطرِقًا كأنّ البِساطَ قد سُحِبَ من تحت أقدامه، ولمّا رأيتُ نُكوصُه، عرفتُ غدر الملوكَ آنئذٍ، وخرجتُ وصياح (أبي فراس) من خلفي يهدر: «سأقتلك، سأعلّقك على باب حلب، وأقطع رجلَيك ويدَيك من خِلاف».

وركبتُ (السّابح) وأطلقتُه يسبح مع الرّيح، وابتعدتُ عن القصر، ولعنتُ حَظّي والنّاس والملوك والدُّنيا. وعزمتُ على أمرٍ لا مفرّ منه. إنّ الشّعراء لا يرحبّون بي في هذا البلاط، ولا العُلماء، ولا أهل اللّغة، والخُطباء يعدّونني زنديقًا. وأبو فراس يتربّص بي لقتلي، والحُسّاد عدد الرّمل، والوشاة عدد الماء، والحاقدون والنّاقمون عدد النّجوم، ولا أحدَ في هذا القصر يُحبّني، وأنا أيضًا لا أحبّ أحدًا، باستثناء (خولة). (خولة)؟ ربّما. مَنْ يدري؟! وضربتُ السّابح بالسّوط وهمزتُه، فطار يُسابق ريح الشّمال.

تغيَّر الأميرُ بعدها، وتغيّرْتُ أنا. لم أثبتْ على حالٍ يومًا واحِدًا. لا شيءَ هنا يدعوني للبقاء. لا شيءَ إلا (خولة)، و(خولة) لو لم يكنْ في طريقها (أبو فراس) لكان لها موقفٌ غيرُ هذا الصّمت القاتل معي. ولكنْ رُبّما لا تعرف، ربّما لا يقول لها شيئًا! كلاّ، إنّهم يقولون لها: «كيفَ تُحبّين مجنونًا مثل هذا؟! إنّه لا حياةَ لكِ معه؟! إنّه يعيشُ عيش الصّعاليك ويأكل أكل الصّعاليك وينامُ نومَ الصّعاليك، وأنتِ أميرةٌ من سلالة أمراء مُعرِقين في الشّرف والنّسب، فما لك وهذا المقطوع عن كلّ شرفٍ، المبتوت عن كلّ نسب؟!!».

ثُمّ دخل (سيف الدّولة) في غزوةٍ في شهر صفر فقتل من الرّوم سبعينَ ألفًا، فقلتُ إرضاءً لها لا إرضاءً له:

كُلُّ ابْـــنِ سَـــابِقَةٍ يُغِيْرُ بِحُسْـــنِهِ
فِي قَلْـــبِ صَاحِبِهِ عَـــلَى الأَحْزانِ
إِنْ خُلِّيَـــتْ رُبِطَتْ بِـــآدَابِ الوَغَى

فَدُعَاؤُهــا يُغْنِــي عَنِ الأَرْسَــانِ

فِي جَحْفَــلٍ سَــتَرَ العُيُــونَ غُبارُهُ

فَكَأَنَّمــا يُبْـصِرْنَ بِــالآذانِ

ثُمّ لمّا عاد من هذه الغزوة المُظفّرة إلى (حلب)، أقسم (البِطريق) أمام مَلِكِه بأنّه سيتصدّى له في الدّرب، وسأله أنْ يُنجِده ببطارقته وعَدَدِه وعُدَدِه، فأعطاه ما أراد، وتصدّى لسيف الدّولة فمَحَقه ومَحَقَ مَنْ معه، فقلتُ:

عُقْبَى اليَمِيْنِ عَلَى عُقْبَى الوَغَى نَدَمُ

مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ القَسَــمُ؟!

فلم يهتزّ لها اهتزازه على عادته، فعرفتُ أنّ الأمور كلّها تتّجه إلى ما عَزَمْتُ عليه، وكان يُمكن أنْ أغفر له كلّ ما مضى، وأتناساه لحقّ صُحبته عَلَيّ، وللسّنوات التّسع الّتي قضيتُها في رحابه، فلمّا جَمَعنا مجلسٌ، وكان مجلسَنا الأخير، دار نِقاشٌ بين أهل اللّغة، وأنا صامتٌ، فطلبَ منّي سيف الدّولة الرّأي، فهوّنْتُ من رأي (ابن خالَوَيْه) لأنّني أعلم باللّغة منه، وهو يظنّ أنّه لا يتقدّمه فيها أحدٌ، وكم بيّنْتُ أخطاءَه في مواقفَ كثيرة سابِقة، فكان يأخذُ عَلَيّ استخدامي بعضَ الجموع، مثل جمع (بوق) على بوقات في قولي:

إذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَــيْفًا لدَوْلَةٍ

فَفِي النَّــاسِ بُوْقَاتٌ لَهَــا وطُبُولُ

فلمّا رأى منّي ذلك في هذا المجلس، أخذَ مفتاحًا من حديدٍ ثقيلٍ من كُمّه، فلم أقلْ ما قلتُه له من قبلُ، فلمّا رأى سُكوتي أغراه ذلك بالتّجَرُّؤ عَلَيّ، فرماني بمفتاح الحديد ذاك على وجهي، فشَجّه، وأسال دمي، ولم أشأ أنْ أجعل رأسَه تتدحرج بين ساقي (سيف الدّولة) احترامًا للأمير، وأنا على قتله قدير وبإبارته جدير، ولكنّها عِزّة النّفس الّتي تحملها على ما لا يُطاق، ونظرتُ إلى الأمير لأرى إنْ كان سينتصر لي، فلمْ يُحرّكْ ساكِنًا وكأنّه أقرّ هذا اللّئيم على فعلته، أو كأنّه اتّفق معه عليها. فخرجتُ في ذلك اليوم من عام ٣٤٦هـ خروجي الأخير من مجلسه، وهتفتُ: «هنيئًا لكَ بهذه الثُّلّة من الحمقى والحاسِدين». ونهبتُ الأرض. وبعثتُ إلى (سيف الدّولة) أستأذنه في المسير إلى ضيعتي بِـ (بَصِّف)، فلم أكنْ أستطيع الخروج إلى (حمص) أو غيرها من تلك المدن الّتي عليها عُمّالُه. وكنتُ قد أخذتُ معي ولدي (مُحَسّدًا) وما استطعتُ حَمْلَه من الكتب من مكتبتي الّتي في داري. وسِرْتُ إليها، عاقِدًا العَزم على فراقه دون أيّ تفكيرٍ بالعودة.

ولّما هبطَ اللّيل عَلَيّ في الطّريق رحتُ أستعيدُ تسع سنواتٍ من الإقامة بين يدَيه، ورحتُ أقول لنفسي: «لا أسفَ عليكَ يا سيفَ الدّولة. لقد أحسنْتَ إليّ ولكنْ على دَخَلٍ، كان جُودُكَ مَشُوبًا بالتّعالي لما في يدكَ من سُلطة، كأنّكَ أمِنْتَ أنْ يأخذ عليك هذا أحدٌ، وما نفع الجود إذا رافقَه المَنّ والأذى:

إذا الجُودُ لم يُرْزَق خَلاصًا مِنَ الأذَى
فَلا الحَمْدُ مَكْسُــــوبًا ولا المَالُ بَاقِيا

واحسْرتا على هذه السّنين الطّوال الّتي وهبْتُكَ فيها ذوب فؤادي، وفتحتُ لك شرايين قلبي بسيف محبّتي، وقلتُ فيك من الشُّرّد السّائرات ما لم أقلْه في أحدٍ سِواك!! سنرى مَنْ سيندمُ على فراق صاحِبه، كان يُمكن أنْ أكونَ يمينَك لو أنّكَ كنتَ يميني، ستعرفُ أنّ ألفَ شاعرٍ لو جاؤوا بألفِ قصيدةٍ لن يُغنوا عن بيتٍ واحدٍ مِمّا أقول». وهاجَ في نفسي ما فعل، فصعدتْ حرارة الألم من أعماقي إلى عَينَيّ فبكيت.

لم يكنْ حُزنًا يعبر الفُؤاد، كنتُ أنا الحُزن، ولم يكنْ رحيلاً يُمكن من بعده اللّقاء، لقد كنتُ أنا الرّحيل ذاته، وما كان لِما انثلم أنْ يلتئم، ولما تَشعّب أنْ ينسجم، ولِما تبدّد أنْ يجتمع.

لقد صارتْ (حلب) بعيدة، وصارتْ (خولة) أبعد. لو أنّ الأقدار قرنَتْ بيننا لكان يُمكن أنْ تكونَ هناكَ خِلافة. أعرفُ أنّكَ يا (سيفَ الدّولة) كنت تَسعى إليها، غيرَ أنّه عاقكَ عنها حَظُّك في الوجود، وُجودك في الشّمال على حدود الرّوم الّذين لم يتركوكَ تهدَأ يومًا. وحظّك في رعيّتك من مَرَدة البدو الّذين شَغَبوا عليك، ولم يَدَعُوك تهنأ يومًا. وأعرفُ أنّ الخلافة الّتي كنتَ ترنو إليها صارتْ بعيدةً كبُعدي عنك، وأدركُ أنّكَ فقَدْتَها كما فقَدْتَني.

فلمّا استقرّ بي الأمر أيّامًا في ضَيعة (بَصّف)، عرفتُ أنّه سيبعثُ جنوده لكي يأتوا بي إليه مُقَيّدًا بالسّلاسل، أو مغفورًا. فأعلَمْتُ (مُحسَّدًا) أنّ إقامتنا فيها لن تطول أكثرَ من ثلاثةِ أيّام أخرى، وأنّنا سنتوجّه إلى (دمشق)، تلك الّتي كانتْ في يد أعداء سيف الدّولة، في يد (الإخشيديّين).

وخفتُ من الأمير بعدَ أنْ كنتُ آمَنُه، فاليوم كأنّ كلّ روضٍ أخافُه أنْ يدلّ سيف الدّولة عليّ. وهِبْتُه بعد أنْ كنتُ أطمئنّ إليه، وها أنا الآن على كُرهٍ بعدَ حُبّ، كأنّ فَعَلاته الكثيرات سوءاتٌ أحرقتْ كلّ مودّة.

وها أنا في الضّيعة أُفكّر في سبيلٍ للخروج من هذا المأزق، وفكَّرتُ حتّى أُشعِرَ الأمير بأنّني لا أزال تحتَ عينيه، وفي مجال مُراقبتِه، أنْ أبعثَ له قبل أنْ أهوي إلى (دمشق)، قصيدةً تُطمْئِنه ريثما أُتمّ الإفلات من قبضته، وكتبتُ على عَجَلٍ أبياتًا يبدو فيها إلى المدحِ الخوفُ والرّهبة وتبلدّ المشاعر، تذكرُ عطاياه كي لا يشكّ بما عقدتُ العزم عليه، قلتُ فيها:

أَيَا رامِيًا يُصْمِي فُؤَادَ مَرامِهِ
تُرَبِّي عِدَاهُ رِيْشَهَا لِسِهامِهِ
أَسِيْرُ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ
عَلَى طِرْفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ

ثُمّ شَدَدْنا السُّروج أنا و(مُحسّد)، وجهّزْنا المِيرة، وأخذنا ما يُعِيننا على الدّرب، وسِرنا إلى (دمشق)، وقد نكَّبْنا خلفَنا (حلب) وكلّ مَنْ فيها.

المرحلة السّادسة

الكافوريّات

٣٤٦ - ٣٥٠ هـ

يَــا رَجَــاءَ العُيُــونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ
لَمْ يَكُــنْ غَــيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِــي
وَلَقَــدْ أَفْنَــتِ المَفَــاوِزُ خَيْــلِي
قَبْــلَ أَنْ نَلْتَقِــي وَزَادِي وَمَائِــي
فَــارْمِ بِي مَــا أَرَدْتَ مِنِّــي فَــإِنِّي
أَسَــدُ القَلْــبِ آدَمِــيُّ الــرُّوَاءِ
وَفُــؤَادِي مِــنَ المُلُــوكِ وَإِنْ كَا
نَ لِسَــانِي يُــرَى مِــنَ الشُّــعَراءِ

(١)

وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ استقَلَّ السَّواقِيا!

كيف يُمكن للكلمات أنْ تُعبِّر عن الحزن؟! لا تملك الكلمات ما يملكه الحُزن من صدق، الكلمات صورة والحُزن أصل، الكلماتُ صدى والحُزن صوت.

لم أحزن كثيرًا على فراق (سيف الدولة) كما حزنتُ على فراق (خولة)، كيف يمكن أن يتصل ما انقطع بيني وبينها بعد هذا كُلّه؟!

ونَهَبْنا الطّريق أنا و(مُحَسّد) إلى (دمشق)، وكانت الطّريق بعيدةً على قرب، وشعرتُ بأنّني أدور حول الأرض كلّها، ما الّذي تُحدِثه مسافةٌ قصيرة في هذه الرّحلة فِيّ، وأنا الّذي لم أترك شبرًا من الأرض إلاَ وَطِئَتْه أقدامي، وما أسيتُ على شيءٍ من قبل، فَلِمَ يجتاحني الأسى في هذا الرّحيل، وأنا لم أبلُ بعدُ خيرَ القادم أو شَرّه؟! أكان ذلك سببُه ما كان بيني وبين (سيف الدّولة)، أو بيني وبين (خولة)، أو بيني وبين المكان؟ أكان (سيفُ الدّولة) جِسري الّذي أعبرُه إلى ما أريدُ، فلمّا تقطّع تقطّعتْ بعده الدّروب والجسور؟ أم كانتْ (خولة) هي القلبَ الّذي أطوي به المراحل غيرَ هَيّاب ولا نَكِس، فلمّا خلا منها القلبُ بالرّحيل هِبْتُ كلّ رحيل، وتأبّتْ عَلَيّ كلّ غاية؟!

وصلتُ إلى (دمشق) منهوبًا، لا أرى أمامي غيرَ أسًى يصرخ، ولا خلفي إلاّ جُرحًا يَسيل، ولا عن يميني سِوى بؤسٍ يندب، ولا عن يساري إلاّ شَجًى يعلقُ بالرّوح. فلمّا مضى عَلَيّ فيها بضعةُ أيّامٍ، سرى خبري في البلادِ كلّها، فجاءَني رسول حاكمها (ابن مَلَك) اليهوديّ، يطلبُ منّي أنْ أمثلَ بينَ يدَيه، وأنْ أمدحه. فقلتُ لرسوله: «خُذْ معك صاعًا من التّمر أو مِمّا تجد في هذا الرّحل فقُلْ له هذه من المُتنبّي، فإنّني أعلمُ أنّه جائع». فلمّا عادَ الرّسول إلى (ابن مَلَك) بهذا الكلام غَضِب، وعرفَ أنّني أسخرُ منه، ولكنّ وَلَعَه وتَوْقَه إلى أنْ أمدحَه بَرَّدَا غَضَبَه، فسارَ إلَيّ هذه المرّة بنفسه، فلمّا صار بباب البيت، وعرفتُ أنّه هو، تباطأتُ في استقباله، فلمّا جلسَ في داري، قال: «أما تَجِدُني صالِحًا للمدح؟!». فصمتُّ، غير أنّ إجابتي كانتْ في خاطري: «أنتَ صالحٌ للسَّلْح لا للمَدْح». ولمّا لم يسمعْ خاطري، أردف: «أأنا أقلّ مِمّن مدحتَهم؟!». «أنتَ أقلّ من الهَباء». «أم لأنّني يهوديّ؟!». «اليهودُ أقلّ من أنْ يُلعنوا، لأنّكَ إذا لعنتهم فقد مدَحْتَهم». «ألا تقول شيئًا؟!». «خُذْ هذا المُجلّد، فقد أملاه أحدُ كُتّاب (سيف الدّولة)، وفيه جَمَعَ مئة قصيدة من قصائدي، فمُرْ بِنَسْخِها ألفَ نُسخة، ووزّعها على مَنْ يريدُ أنْ يتعلّم العربيّة الأصيلة». وخرجَ يتهادَى بكِرشه ويُرغي بفمه، وهو يصيح: «لقد مدحتَ قبل عشر سنواتٍ والي دمشق الّذي حكمها قبلي». فرددتُ: «لم يكنْ يهوديًّا».

فلمّا صارَ في دار حُكمِه، بعثَ إلى (كافور الإخشيديّ): «إنّ المتنبّي في دمشق، وقد تركَ (سيفَ الدّولة) مُغضَبًا، وإنّ الملوك لتتشوّف إليه».

فردّ عليه (كافور): «أرْسِلْه إِلَيّ». فردّ: «إنّني سمعتُ أبا الطّيّب يقول لي: إنّني لا أقصدُ العبدَ الأسودَ الجالس على الكرسيّ وإنّما أقصد ابن سيّده (أنوجور)». وقد كذب عَلَيّ، وإنّما قال له ذلك ليحملَه ضِدّي، فيأخُذَ بدمي، بعدما رفضتُ أنْ أمدحه واستهزأتُ به.

وضاقتْ عَلَيّ (دمشق)، وخفتُ أنْ يُرسِلَ (كافور) جُنده فيسوقوني إليه، وهو على هذه الحال الّتي تخيَّلْتُها من غضبه بعدَ رسالة واليه في دمشق، يقول فيها إنّني أصفهُ بالعبد، وهو يومئذٍ يملكُ أكثر مِمّا يملك (سيف الدّولة)، ويُحبّه من النّاس أكثر مِمّا يُحبّون (سيفَ الدّولة)، وينتصر في معارك أكثر بكثيرٍ من تلك الّتي ينتصر فيها (سيفُ الدّولة)، وتتّسع دولته أضعاف ما تتّسع به دولةُ الحمدانيّين. فعلامَ أنا مُوكّلٍ بمدح كلّ من ينكسر، والتّعلّق بكلّ ذي أملٍ يائس!!

ومضيتُ من (دمشق) إلى (الرّملة)، وكانت (الرّملة) من قبل قد مهّدتْ لي الدّروب الّتي سلكْتُها من بعد، وكأنّني أعودُ إلى الموضع الّذي بدأتُ منه، وكأنّ القِمّة الّتي كانتْ عند (سيف الدّولة)، وأشرفتُ منها على الكون قد نُسِفَتْ في لحظةِ غدرٍ واحدةٍ نَسْفًا، غَدْرِ مَنْ لا يَفِي بما يَعِد، وإنّ غدرة المَلِكِ النّاكِث لَغَدْرةٌ بلقاء!

فتلقّاني أميرُها (ابن طُغج) الّذي تلقّاني من قبلُ، وأحسنَ وِفادتي ورَحّبَ بعودتي، وأزال عن منكبَيّ غُبار السّنين الماضيات الثّقيلات، وعزّاني بالرّحيل عن (سيف الدّولة) وإنْ كانا عدُوَّين لا يفتآن، وإنّما كانت التّعزية لي، وما حصل معي بسببه، وحَمَلَني في خِفارةٍ من الجُندِ والحَرَسِ على جوادٍ أصيل، وفي مركبٍ ثقيل، وموكبٍ كبير، وقلّدني

سيفًا مُحلًّى بالذّهب والجواهر، واحتفى بي حفاوةَ المُلُوك. وعرفتُ أنّ هذا من جهة إغاظة الحمدانيّين، كأنّه يقول: «إذا أداروا لكَ ظهورهم فإنّنا نفتح لكَ قلوبَنا». وعلى كلِّ مَنْ حضر الاستقبال العظيم أنْ ينقل الصّورة عبر العيون إلى بني حمدان، ليعرفوا أيّ شاعرٍ فَقَدوا!!

فلـمّا قَـرّ بي المـكان، وأَمِنْـتُ ما تُحـدِّثُ نفـسُ كافور كافـورًا بعد كذبـة اليهوديّ عَلَيّ. سـألني (ابنُ طُغـج) أنْ أمدحـه، وكُلُّ فَلْسٍ يُنفِقه الملـوك والأمـراء لا ينفقونـه عَبَثًـا، وإنّما ليسـتردّوه قناطـير. فاعتذرتُ قائِـلاً: «إنّـي أخـافُ أنْ أُغضِـبَ بذلك سـيّدك كافورًا، بـأنْ أمدحكَ قبلـه». فأقـرّ حُجّتي.

ثُمّ وَردَ إلى (ابن طُغجٍ) كتابٌ من (كافور)، يقول فيه: «أتراهُ يبلغ الرّملة ولا يأتينا؟ ترفَّقْ به حتّى يسيرَ إلينا، فإنّنا إليه لَمُشتاقون، وإنّ ما في القلب لا يبردُ إلاّ برؤيته، وإنّه لينزل عندنا في المحلّ الّذي يُحِبّ».

وقضيتُ لِياليَّ في (الرّملة) حائرًا، قَلِقًا، لا يستقرّ لي بلبال، كأنّني عنيتُ نفسي حينَ قلتُ قبل ما يقربُ من ثلاثين عامًا:

فَقَلقَلْـــتُ بِالهَمِّ الَّذِي قَلْقَلَ الحَشَـــا
قَلاقِـــلَ عِيْـــسٍ كُلُّهُـــنَّ قَلاقِـــلُ

وأينَ (كافور) من (سيف الدّولة)؟ شَتّان. وأينَ (سيفُ الدّولة) مِّني؟ شّتان. وها أنا أرضى بمنزلتَين في الدُّون، لآتي هذا العَبْدَ الخَصِيّ فأمدحه، أيّ أقدارٍ تلعنني الآن إنْ أنا أقبلتُ على ذلك ورضيتُ به؟! غيرَ أنّ وعدَ الأَسْود صريحٌ، ووعدُ (سيف الدّولة) خَفِيّ. لقد وعدني

الخَصِيّ بولايةٍ. قال ذلك صراحةً عبر رُسُلِه الّتي لا يكفّ عن بَعْثِها كلّ يوم، أو كلّ يومَين. ولكنْ إذا سَلّمْتُ لكافورٍ عُنُقَ هذا الشّعر فهل يصدُقُ فيه الوعد؟ أمّ أنّ الملوك اعتادوا على أنْ يَعِدوا ويَنقُضوا الوعد، ويُقسِموا ويَحنِثوا بالقسم؟!

ولكنْ ماذا أملكُ غيرَ أنْ أُجرّب؟! وفي التّجاربِ بعدَ الغَيِّ ما يزَعُ كما قلت! ولكنّني جرّبتُ ألفَ مرّة وخِبْتُ ألفَ مرّةٍ وما ارعويت! فماذا بعدَ الحَقِّ إلاّ الضّلال؟ ولقد خبرتُ أخلاق الملوك، وما أحدٌ أدرى بأخلاقهم مثلي، ولو أردتُ أنْ أُذهَل عن الشّعر فأكتبَ في ذلك كتابًا، لَكان شريعةً فيهم أخلدَ من شريعة (حمورابي).

وبِتُّ ليالي لا نَومَ فيها. تخبُّ بي سوابحُ الأفكار، وسوانحُ الذّكريات، حتّى إذا كان يومٌ، قال لي (ابن طُغج): «إنّه مَلِكٌ عادل، وإنّه صادق، وإنّكَ إذا أتيتَه حباكَ ما شِئت، فإنّ المُلْك بيده إسورة، يَخلَع ويُخلَع». فكان أنْ مالَ قلبي إلى قوله، وقلتُ في نفسي: «ليكنْ هذا سهمي الأخير في قوسه، فإنْ لم يُصِب، فإنّني أُقسِمَ لأَكْسِرنَّه، ولا رميتُ بعده بسهم».

فمضيتُ إلى (مِصر) وفي نفسي من الشّام أشياء، ومضيتُ أعبرُ عيونَ موسى وفي عيوني دِماء، ولم يكنْ لي حافِظٌ مِمّا أنا مُقبِلٌ عليه إلاّ الله. وما عادَ أحدٌ يعرفُ ما تنطوي عليه نفسي، وقد ضِقتُ بمرادها كما ضاقتْ بها أُحمّلها في سبيله. وركبتُ إلى (كافور) على قلق!

ووصلتُ إلى (مصر) أواخر عام ٣٤٦ هـ، وقد كان إقدامًا لا تراجع بعده، ومَنْ صار بين شِدقَي الأسد أعجزَه الهرب، فقلتُ في

نفسي: «اشترطتُ على (سيفَ الدّولة)، أفلا أشترطُ على كافور لكي أحمي نفسي؟».

ثُمّ مَنْ هذا الّذي أنا مُقبِلٌ عليه؟! إنه مَلِكٌ داهِية، مُدبِّرٌ في الحروب، هَزَم نصفَ مَنْ مدحتُهم قبلَه، هزَم أمير الأمراء (ابن رائق) في البرّ والبحر، ولولا أنّه نفذَ بريشه لَقَتَله، وهزمَ أميرَ العرب (سيف الدّولة) في قِنّسرين، وكادَ ينزع منه (حلب). فأيّ عَبثٍ هذا الّذي أنا مُقدِمٌ عليه؟! مَنْ يُصدِّقُ أنّني أمدحُ عدوّ (سيف الدّولة)، أو أمدح عدوّ مَنْ أنا مُقبلٌ عليه؟! لا بُدّ أنّ أحدَ المَدْحَين كاذب؟ فإذا كان أحدهما كاذِبًا، فما الّذي يحملني عليه؟ الهَوَس بالمُلك؟ ربّما. الهوسُ بأنْ ابتدِئ بـ (أنا)؟ ربّما. الهَوَس بالثّأر؟ ربّما. إنّه الهَوَسُ على أيّة حال.

فلمّا دخلتُ على (كافورٍ) في ذلك اليومِ الّذي كان كُلُّ ما فِيّ ينوحُ فيه، رأيتُه فوقَ ما صُوّر لي. أسودَ، غليظَ المِشفرَين، ضَخمَ الرّأس، عَرِيضَ الجثّة، بطينًا، ساقاه تصلحان للدّمالج، وعيناه بيضاوان، يلمع بقايا الزّيتِ في وجنتيه، تبرُقُ عيناه مكرًا ودهاءً، وتنطقُ جوارحه عن مُتغابٍ يصل إلى ما يريد بالتّمسكُن كالأطفال. فتنهّدتُ طويلاً، وقلتُ: «أشترطُ على الأمير». فردّ وهو يبتسم ابتسامةً خفيفةً فتظهر نواجذُه صفراء، كأنّني شممتُ رِيحَها وأنا من مكاني هذا: «اشترطتَ على (سيفِ الدّولة) الّذي تُحِبّ، أفلا تشترطُ عَلَيّ؟ بلى. قُلْ أيّها المُتنبّي». «لا أُنشِدُكَ الشِّعرَ إلاّ والسّيف في عاتقي، فإذا دخلتُ مجلسكَ فلا يسألني حَرَسُك بالباب عن سلاحي». فضحك ضحكةً مُجلجلة، وهتف: «لماذا يا أبا الطّيّب، أتريدُ أنْ تقتلني؟!». وشعرتُ أنّه وقع على ما

نفسي، فاستدركتُ مُعجِلاً: «بل أقتلُ كلّ مَنْ يتطاول من جُلسائِكَ من الوزراء والشّعراء». «ولكنّهم جُلَسائي، وحُلُول مجلسي وأَمْني». «إذًا فمُرهم أنْ يحفظوا حَقّ المجلس». فتنهّد، وأراحَ بطَنه، وسأل: «وهل من شرطٍ آخَر؟». «ألاّ تستقدمني حتّى أُقدِم». «تقصد...؟». «أقصد لا أقول إلاّ حينَ أشاء، فأنا شاعرٌ لا يُواتيني الشّعر إلاّ إذا جُنّ جُنونُه». «ثُمّ». «أرحلُ متى أشاء؟». «كيفَ وأنا ملك مصر؟! أفرأيتَ إنْ كنتَ في ضِيافةِ أحدهم، أتغادر بيتَه دون أنْ تستأذنه؟! دَعْ هذه، وسأقبلُ بشَرطَيك السّابِقَين». فهززتُ رأسي، وهتفتُ: «بقي شرطٌ أخير». قُلْ». «لا أسيرُ إليكَ إلاّ في خفارةٍ وموكب، يحفُّ بي الخَدَم والحُجّاب والحَرَسُ وهم يتمنطقون سيوفهم ويَخطِرون معي حتّى أصلَ إليك». «وأنا قبلت».

ثُمّ إنّني خرجتُ، فأنزلنى دارًا على النّيل واسعة، مُطلّة على الماء، تجري من تحتها العُيون، مُورقة مُونعة، حدائقها غَنَّاء، وارفة الظّلال، تسمعُ من هنا شَدو البلابل، وتغريد الحساسين، طيّبة الهواء، تنعشُ الصّدر، وتشفي العِلل... وبعثَ معي الموكب الّذي اشترطتُه، وجعل في هذه الحدائق البُستانيّ الّذي يقوم على تزيينها ودوام اخضرارها، وأوقف على الخارج حَرَسًا يركبون معي كلّما ركبت. وخُدّامًا وحُجّابًا ينتظرون إشارةً منّي.

ولا أدري لماذا زادتْني هذه السّعة ضيقًا، وهذا الهواء الطّيّب اختناقًا. وبدل أنْ أجدَ نفسي سعيدًا بما أُولِيت وجدتُها تغرق في الحزن، فَلَعَمْري ماذا أريد؟ وهل أكفرُ نِعَم هذا العَبْد بعدَ كلّ هذا؟ غيرَ أنّني أشعرُ مع كلّ هذا الامتِلاء أنّ هناكَ شيئًا ناقِصًا، شيئًا يُحيلُ هذا البياض

وهذه الألوان الزّاهية إلى سَوادٍ قاتم، أشدّ قتامةً من جلدِ هذا السّيّد الّذي يجلسُ على الكرسيّ هناك!!

ثُمّ إنّ للأشياء حقائقَ لا يُمكن أنْ يتجاوزها الإنسان، ولها دلائل ليسَ بمقدوره أنْ يتخَطّاها. فمَنْ هذا الّذي جَلَبَني إليه بعدَ يأسٍ وترحةٍ، فزادني مع نِعَمِه يأسًا أشدَّ وترحة أنْكَى؟! إنّه عبدٌ حَبَشِيٌّ، سوادُه أحلكُ من سواد اللّيل البهيم، وإنّما سُمّي كافورًا لشدّة هذا السّواد، جُلِبَ من الحبشة أو النُّوبة وهو في العاشرة من عُمره، وبِيع في (مصر) في سوق النّخاسة بثمانية عشر دينارًا، اشتراه أحدُ تُجّار الزّيوت، وقد وَجَدَه دميمًا مثقوبَ الشَّفةِ السُّفْلى، مُشوّه القدمَين، بطيئًا ثقيلَ القَدَم، فسَخَّرَه في شُؤونٍ شَتَّى، وقاسى من سيّده الأمَرَّيْن ولقي الكثير من العنت، وهو يحمل جِرار الزّيت على ظهره العاري حتّى أثَّرتِ الحِبال في جِلده، وحتّى لَمَع سُواده مع الزّيت الّذي ينسكبُ من الجرار كلّما حَمَلها. حتى إذا خرج من تحت قبضة سَيِّده هذا، ووقع في يد محمود بن وهبٍ الكاتب، تعلّم عنده القراءة والكتابة، ولم يعدْ يحمل الجرار ولا يُجلَد بالسّوط إذا قَصّر، فتركَ المِعصَرة وأدران الزَّيْت وراءه، وصار كاتبًا عن ابن وهبٍ هذا، وهذا وصلَه بمحمد بن طغج. فحمل الكاتبُ ابنُ وهبٍ (كافورًا) هديةً إلى مولاه كما تُؤدَّى الهدايا، فعَيَّنه (الإخشيد) مُشرِفًا على التعاليم الأميرية لأبنائه، ورَشَّحَه ضابِطًا في جيشه لحُسْن عِلمه. وعندما رأى (ابن طُغجٍ) ذكاءَه وموهبته وإخلاصه أَعْتَقَه، ثُمّ صارَ قائِدًا لجيوشه، وتغلّب بالجيوش الّتي قادَها على (ابن رائقٍ) و(سيف الدّولة) وغيرهما، ووطّد أركان دولة (الإخشيد) بمصر، وصارَ هو حاكمها الفعليّ بعدَ أنْ مات ذلك (الإخشيد).

وها هو بعدَ هذه المسيرة صار من عبدٍ بيع، وثُقِبتْ أُذُنُه وهي في يد النّخّاس، يَجُرُّه من سوقٍ إلى سوقٍ ليباع، وثقبتْ شفتُه السُّفلى إهانةً له، وخُصِيَ حتّى لا يشتهي النّساء إذا دخل على حريم الأمير، صار بعدَ ذلك كُلِّه سيّد مصر الأوّل والشّام والحجاز وفلسطين، صار العبدُ هو الآمرَ النّاهي. وأنا؟ واحِدٌ من شعرائه العابرين، يريدُ منّي أنّ أُفتِّشَ في هذا السّواد كلّه عن شيءٍ أبيضَ من أجل أنْ أمدحه!!

ومضتْ أسابيع في هذه الدّار وأنا ذاهِلٌ عن نفسي، لا أفعل شيئًا سِوى أنْ أُسرِّحَ ناظِرَيَّ في زُرْقةِ النّيل، وأرقبُ السّفن الشّراعيّة الّتي تروح وتجيءُ على ضِفّتَيه، وأسمعُ من حينٍ إلى حينٍ ألحانًا قادِمةً من مزامير شَجِيّة لا أدري مصدرها. ورُسُلُ (أبي المِسْك) تترى، كلّ رسولٍ يسأل: «متى ستمدحُ مولاي؟ متى ستجودُ قريحتُك بدرّةٍ تخصُّه بها؟!» وأنا أهتفُ في أعماقي: «ألمْ أشترطْ على هذا العَبْد ألا يستقدمني حتّى أُقدم». ولو كنتُ أريدُ أنْ أقولَ الشّعر لقُلتُه، ولكنّه لا يجيشُ به صدري، فما كان يجيشُ فيه يومئذٍ إلاّ الحُزن واللّوعة وحرقة الذّكريات. وما والله غابَتْ مجالس (سيف الدّولة) على نَكَدٍ فيها عن بالي.

فلمّا طارت الحيلة من اليد، صارَ لا بُدّ من أنْ أقول. فأتيتُه بارًّا بشروطي، وقد تمنطقتُ السّيفَ الجُراز، واجتمَع نُحاة (مصر) وأهل لُغتِه، ولا أدري أين هم من نُحاة الشّام وأهل لُغتها. وتكأكأ شعراء (مصر)، ولا أدري أين هم من شعراء الشّام، وعلى الحالَين، فإنّما شعراء الشّام ليسوا للشّام، وشعراء مصر ليسوا لمصر، وليس للشّعراء الحقيقيّين وطن، ولهم كلّ الأوطان. فابتدأتُ النّشيج:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شــافِيا

وَحَسْـــبُ المَنَايَـا أَنْ يَكُـــنَّ أَمَانِيَا

فقاطعني (كافور): «أهذا مدحٌ أم رثاء؟»، فنغّصَ عليّ المطلع، ولو أنّه كان ذا عقلٍ لوجدَ فيه من الحِكمة ما يُخرِسُ لسانه، ولكنّ الله كتبَ عَلَيّ أنْ أُبتَلى في كلّ مِصْرٍ بمنْ لا يفقهون الشّعر ولا ما هو، ولو كان أحدَ جلسائه قال قولته، لصبغتُ ظُبَة سيفي بنجيع دمه. فزهّدني بما سأقول من بعدُ، ولكنّني تحاملتُ على جراحي، وعلى غَصّةٍ في قلبي، وتابعتُ:

تَمَنَّيْتَهـــا لَمَّـــا تَمَنَّيْـــتَ أَنْ تَـــرَى

صَدِيْقًا فَأَعْيَـــا أَوْ عَـــدُوًّا مُدَاجِيا

وتهَدَّجَ صوتي وأنا أتلوه، وزعزعتْني الذّكرى، غيرَ أنّني تماسكْتُ، وأردفتُ:

إِذَا كُنْتَ تَـــرْضَى أَنْ تَعِيْـــشَ بِذِلَّةٍ

فَـــلا تَسْـــتَعِدَّنَّ الحُسَـــامَ اليَمانِيَا

وَلا تَسْـــتَطِيْلَنَّ الرِّمَـــاحَ لِغَـــارَةٍ

وَلا تَسْـــتَجِيْدَنَّ العِتَـــاقَ المَذاكِيَا

هَزّ رأسه دون أنْ يقول شيئًا، وكان ابنُ حِنْزابة (جعفر بن الفُرات) حاضِرًا، فكأنّه قال: «ما جِئنا لنسمعَ سَيْرك من الشّام إلينا، ولا ما وجدتَ في الطّريق من عَقَبات، ولكنّنا جِئْنا لنسمعَ مدحًا في سيّدنا». ولولا أنّه خاطرٌ خَطَرَ في ذهني، لا يُؤكّده اليقين، لجرى عليه السّيفُ

بالقَدَر، فلمّا قلتُ:

إِذَا الجُودُ لَمْ يُرْزَق خَلاصًا مِنَ الأَذَى

فَلا الحَمْدُ مَكْسُـــوبًا وَلا المَالُ باقِيا

وَلِلنَّفْـــسِ أَخْلاقٌ تَــدُلُّ عَلَى الفَتَى

أَكَانَ سَــخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَســاخِيَا

انفرجتْ أساريرُ كافور، فقد وجد في هذين البيتين تعريضًا بعدوّه، وفَهِمَ أنّني أقصدُ أنّ أخلاقَ (سيف الدّولة) كانت تطبّعًا لا طبعًا، ولا أدري لماذا لا يفهم أنّني أعنيه هو، أو أعنيهما معًا؟! فلمّا قلتُ:

وَلَكِــنَّ بِالفُسْــطَاطِ بَحْــرًا أَزَرْتُهُ

حَيَاتِي وَنُصْحِي وَالهَــوَى وَالقَوَافِيا

تهلّلَ وجهه، واستبشر. وشعرَ أنّ مُلكه اليوم قد تَمّ. فلمّا قلتُ:

أَبَــا كُلِّ طِيْبٍ لا أَبَا المِسْــكِ وَحْدَهُ

وَكُلَّ سَــحَابٍ لا أَخَــصُّ الغَوَادِيَا

ازداد وجهُه تَهلُّلاً واستِبشارًا، فلمّا هتفتُ بقولي الّذي عِشْتُ حياتي له:

وَغَــيْرُ كَثِــيرٍ أَنْ يَــزُورَكَ رَاجِلٌ

فَيَرْجِــعَ مَلْــكًا لِلْعِراقَــيْنِ وَالِيَا

فَقَدْ تَهَبُ الجَيْشَ الَّــذِي جَاءَ غَازِيًا

لِسَــائِلِكَ الفَرْدِ الَّذي جَــاءَ عَافِيَا

قَطّب جبينه، وتغضّنَ وجهه، وعبس، فعرفتُ الغدر في وجهه، فلو كان صادِقًا لزاده البيتُ بِشْرًا، فأنا أستنجزُ وعده، وأَهَبُه الفرصة المواتية كي يُنجزه! فلمّا قلت:

وَمَا كُنْــتَ مِمَّــنْ أَدْرَكَ المُلْكَ بِالمُنَى

وَلَكِــنْ بِأَيَّــامٍ أَشَــبْنَ النَّواصِيَا

تنهّدَ تنهيدةً تُساوي كلّ التّنهيدات الّتي عاشَها أيّام عُبوديّته وما قاساه فيها، ثُمّ أطلقَ مع الزّفير صوتَه: «إي والله، صدقت!».

ثُمّ تركتُ السّاقية والبحر، وعُدتُ إلى الدّار فاعتكفتُ فيها شهرًا، لا أرى أحدًا ولا أُكلِّمَ إنسيًّا، وصرفتُ الخدم، وتركتُ ابني (مُحسّد) يجوب في عجائب (مصر)، وخلوتُ إلى نفسي، فشعرتُ أنّني يجب أنْ أتصدقّ بمئة دينارٍ عن كلّ بيتٍ قلتُه من القصيدة، ثُمّ بَرِمتُ بالجلوس، ولم تشفعْ لي الكتب الّتي جُلِبَتْ إليّ من دور العِلم هنا أو تلك الّتي جِئْت بها من (حلب) معي، كانت الكتب تُبعد شبح الملل فترفعه إلى سقف الدّار، فإذا انتهيتُ منها، هبطَ الشّبح فخَيّم على كلّ شيءٍ من جديد!

جاءني شاعرٌ في أحد هذه الأيّام الّتي تمرّ مرورًا بطيئًا، يُدعَى (ابن أبي الجوع)، وقال: «إنّ علماء جامع عمرو ابن العاص يتدارَسون أشعارَك، وإنّهم قالوا لي: لو جاءنا أبو الطّيّب ولو يومًا واحِدًا فأنشدَنا أشعاره أو وهبنا بعضَ ما آتاه الله من العِلم». فوقعت الكلمة منّي موقعًا، فما لبثتُ حتّى تجهّزتُ، وركبْنا إلى جامع (عمرو بن العاص).

(٢)

وأتعبُ خَلْقِ الله مَنْ زادَ هَمَّهُ!

و(الفُسطاط) مدينة (مِصر) الأولى، ومهوى أفئدة الزّائرين. وإنّ فيها شيئًا من كلّ شيء، وشيئًا هو كلّ شيء. أمّا ما كان من كلّ شيءٍ فألسنة النّاس ووجوههم الّتي هوتْ إليها من كلّ فَجٍّ عميق، فكأنّها كانت قلبَ الأرض السّابحة في هذا الفَضاء، يمينُها المشرق، ويسارُها المغرب. وأمّا ما كان كلّ شيءٍ فيها فهو جامِعها الكبير، جامع (عمرو ابن العاص).

و(الفُسطاط) على شمال النّيل لأنّه يجري في نَحْرِها، وهي مدينةٌ عُظمَى تتقاصَر عنها اليوم (دمشق)، و(بغداد)، و(الكوفة)، و(حلب)... وإنّما كانتْ لتكونَ مهوايَ لولا أنّه صرَفَني عنها أمران، الأوّل: أنّني لا أستقرّ إلاّ على غاية أنْ أرحل، فوطني الرّحيل، والأوطان إنّما هي دروبٌ يسلكها هذا الرّحيل الّذي لا يتوقّف. والثّاني: أنّ فؤادي ذاقَ من الدّنيا حلاوتَها ومُرّها، فما عادَ يعبأ بأيّة حلاوةٍ ولا بأيّة مرارة، وهي بهذا الأمر الثّاني تُعَدّ - كما عُدّ غيرُها قبلَها - وطنًا عابِرًا.

و(الفُسطاط) إذْ يقسمها النّيل قِسمَين، يُعدَّى منها إلى عدوةٍ أولى فيها أبنيةٌ حَسَنةٌ، ومساكنُ جليلةٌ تُعرَف بالجزيرة، قد أترفَها

الإخشيديّون وهندسوها حتّى صارتْ جَنّة، ويُعبَر إليها بِجِسْرٍ فيه نحو ثلاثين سفينةً، ويُعبَر من هذه الجزيرة على جسرٍ آخر إلى القسم الثّاني، لا يقلّ بناؤها وخُطّتها في الرّوعة عن القسم الأوّل. فإذا تركتَ هذا الجسر الثّاني، فإنّكَ تحلّ في (الجِيزة)، الموضع الّذي يشهدُ على عَظَمة الإنسان في الأهرامات الثّلاثة الكبيرة.

وفي (الفُسطاط) الرُّومُ والصّقالبةُ والأتراكُ والعربُ وقبائلها، والمُسلِمون واليهود والنّصارى وعُبّاد كلِّ شيءٍ لا يمتّ إلى السّماء بسبب. وقد خَطّ العرب لأنفسهم خُططًا كتلك الّتي اختطّوها في (البصرة) و(الكوفة) و(بغداد)، والدُّور الّتي للعرب فيها طوابق تصل إلى ستّةٍ أو سبعة. ولم يكنْ في معمور الأرض بهذا العُلوّ مثلها، وفيها دار (عبد العزيز بن مروان) أبي عمر أشجّ بني أميّة، وكان أبوه يسقي لأهل مصر من جهته أربعمئة راوية ماء.

و(الفُسطاطُ) يومَ جِئتُها جَنّة، وما أذكرنيها موضعٌ يوم رأيتُها - على كثرة ما رأيتُ - غير (بابل) الّتي كشفَ لي أبي بقدرة الجنّ عن حدائقها المُعلّقة يومَ صَحِبَني وأنا ابنُ ثماني سنواتٍ أو تسع. وفيها من البذخ والتّرف والأمن والرّاحة ما لم أره من قبلُ. غير أنّ هذا الّذي يبدو لغيري مُريحًا كان مُقلِقًا لي أشدّ القلق، ذلك أنّ الأمن داعيةُ الخوف، والرّاحة داعيةُ الخمول، والبذخُ داعيةُ الكَسَل، وكلّ ذلك داعيةُ الكوارث والمصائب.

وها أنذا أدخُلُ جامع (عمرو بن العاص)، أمثولةً في العَجَب، يقف على أربعةٍ وعشرين ألفَ ذراعٍ معماريّ، وفيه أربعةُ مآذن، وفناؤه

واسع، ومسجده أوسع، فإذا دخَلْتَه غمَرَتْكَ السّكينة، وأخذَ بلُبِّكَ كثرةُ حلقات الدّرس الّتي فيه، يُسنِدُ العُلماء ظهورهم إلى أساطينه، ويجلسون على كراسيّ من خشبٍ محفورٍ حفرًا أنيقًا، وإليهم آلافُ طلبة العِلم وسَدَنَتِه، وكانتْ فيها حلقاتٌ لمعارف الإنسان كلّها، فيها حلقات الشّعر والأدب، وحلقات النّحو واللّغة، وحلقات الطّبّ والهندسة، وحَلَقات المنطق والفلسفة... وكُلُّ عالمٍ له تلاميذُ ومُريدوه، وما يَجُور أُسْطُونٌ على أُسْطون.

وعلمتُ أنّه مَرّ بهذه الجامعة من سنواتٍ ليستْ بالبعيدة في مقياس الزّمن جمهرةٌ من أفذاذ العِلم، فمن هنا مرّ مَنْ حَفِظْتُ ديوانه وأنا ابن عشر سنين، أبو تمّام حبيبُ بن أوس، وجلسَ إلى هذا الأسطون دِعبل الخُزاعيّ، وافترشَ هذا الصّحن أو ذاك أبو نواس الّذي قال في (الخَصيبِ) أمير مصر يومَ أنْ جاءَها:

ذَرِينِـــي أُكَثِّرْ حَاسِـــدِيكِ بِـــزَوْرَةٍ
إِلَى بَلَـــدٍ فِيـــهِ الخَصِيـــبُ أَمِـــيرُ
إِذا لَمْ تَـــزُرْ أَرضَ الخَصِيـــبِ رِكَابُنا
فَـــأَيَّ فَتًى بَعْـــدَ الخَصِيـــبِ تَزُورُ
فَمَا جَـــازَهُ جُـــودٌ وَلا حَـــلَّ دُونَهُ
وَلَكِـــنْ يَصِيرُ الجُودُ حَيْـــثُ يَصِيرُ

وتذكّرْتُ أنّ (أبا تمّام) قد نال الولاية حينَ طَلَبَها، فوَلِيَ (المَوْصل)، ولكنّه لم يسعدْ بها ولا قرّتْ عينُه، إذْ إنّه ماتَ بعدَ عامٍ واحدٍ من تلك الولاية. وأنّ (دعبل الخُزاعيّ) وَلِيَ (أسْوان) من هذه الدّيار، غيرَ أنّه لمّا

هجا (المُطّلب بن عبد الله) الّذي أعطاه هذه الولاية عَزَله، فلم يهنأ بها وكانتْ عليه وَبالاً، فلَعَمْري أيكون سعيي إلى الولاية سَعْيَ غافلٍ يجلبُ إليه الموتَ أو السّجن. غيرَ أنّ زماني غيرُ زمانهم، وشِعري غيرُ شِعرِهم.

فدخلتُ أجتازُ أنا و(ابنُ ابي الجوع) الجموعَ المُتحلّقة حتّى أتينا على حَلَقات الشّعر والأدب، فإذا فيها جمهرةٌ من الكُتّاب مُقبلون على دراسة أشعاري، ونَسْخها، وتعهُّدها وحِفظِها، وإذا القومُ في كلّ حرفٍ كتبتُه مشغولون، وقدَ جاءَ يقصدهم إلى هذه الحلَقاتِ دارِسون آخرون من (مِصر) وخارِجها.

غيرَ أنّ هذا الرّضى الّذي أعيشُه بدراسةِ شِعري، وتناقُلِه في الرّقوق، وإقبال النّاشِئة على حِفظه لم يمنع شعوري بالسُّخط على أنّني اضطُررتُ إلى مدحِ هذا العَبْد. وفي النّفس من إغاظة (سيف الدّولة) ومناكفته في سَماحِه لِسَقِط الشّعراء والنُّحاة بالتّسَوُّر على مجدي ما لستُ له بِمُنكِر.

ولو أنّني تغاضيتُ عن هذا العبدِ ولونه وأصله وعُجمته وأمورٍ أخرى كثيرةٍ فيكيفَ أقفُ موقفَ الصِّدق أمام مَنْ هَجَوْتُهم لهذه الأسباب قبلَه، وقلتُ فيهم:

بِــــكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهـــا أُمَـــمٌ
تُرْعَـــى لِعَبْـــدٍ كَأَنَّهَـــا غَنَـــمُ
يَسْتَخْشِـــنُ الخَـــزَّ حِيْنَ يَلْمَسُـــهُ
وَكَانَ يُـــبْرَى بِظُفْـــرِهِ القَلَـــمُ

و(مصرُ) يومئذٍ مصرُ أمنٍ وسلام، فلا حُروبَ ولا غَزَوات ولا معارك، فمع مَن أغزو، وهذا العبد قد استتبّ له الأمر في كلّ ما يحكمُ من البلدان؟ وأنا فارسٌ يهوى النّزالات، ويعشق خوض المعامع، وما وجدتُ ذلك إلاّ عندَ الأمير الحمدانيّ؟!

وبدلَ أنّ أهنِّئَ ممدوحي الّذي آمُل عنده ما آمُلِ في نفسي، ها أنذا مُضطرّ إلى مدح (كافور) لأنّه بنى دارًا، لا لأنّه خاضَ معركةً، ولأنّه أحكمَ بناءَها في دياره الآمنة بالآجُرّ والطّين لا لأنّه أحكمَ بناءَها في قلب بلاد العدوّ بالبِيضِ والأسل! فأيّ مُصيبةٍ حلّتْ بي عن رأيٍ خاذلٍ منّي. وانظرْ كيفَ حالَ شِعري من القُوّة إلى الضّعف، وأنا أسمع صرير القلم على الورق يهتف بي لا تكذب، في قولي:

مُسْـــتَقِلٌّ لَــكَ الدِّيَــارَ وَلَــوْ كَا
نَ نُجُومًــا آجُــرُّ هَــذَا البِنَــاءِ
وَلَــوَ انَّ الَّــذي يَخِــرُّ مِــنَ الأَمْـ
وَاهِ فِيهــا مِــن فِضَّــةٍ بَيْضَاءِ؟!

ولمّا أتممتُ القصيدة أمامه، حلفَ (كافور): «لأبلّغنّك جميعَ ما في نفسك». وأنا أعرفُ أنّه أكذبُ ما يكونُ إذا حَلَف. وزادَ يقينُ ذلك في نفسي ابن حنزابة (جعفر بن الفُرات) وزير (كافورٍ)، حينَ قال على مسمعِ شهودِ المجلس: «ما أراه إلاّ هَزِئَ بمولاي، وحَسّن في مسامع النّاس لونَكَ وهو ينتقصُ منك». فلعمري كيفَ يكون صادقًا وهو مثلُ سيّده كذوب!! وكان يقصدُ قولي في هذه القصيدة الهمزيّة:

تَفْضَحُ الشَّــــمْسَ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْـ

ــــسُ بِشَــمْسٍ مُنِــيرَةٍ سَــوْدَاءِ

إِنَّ فِي ثَوْبِــكَ الَّــذِي المَجْــدُ فِيهِ

لَضِيَــاءً يُــزْرِي بِــكُلِّ ضِيَــاءِ

إِنَّمَا الجِلْــدُ مَلْبَــسٌ وَابْيِضَاضُ الـ

ــــنَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ ابْيِضَــاضِ القَبَاءِ

وتنطّع رجلٌ آخَر في الشّاهدين، فأسرّ إلى ابن حنزابة: «كان المتنبّي يعلم أنّ ذِكْرَ السّواد على مسامع مولانا أمرُّ عليه من الموت، فإذا ذكر لونه بعد ذلك، فقد أساءَ لنفسِه وعَرّضها للقتل والحرمان، وكان من إحسان الصّنعة، وإجمال الطّلب ألاّ يذكر لونَه، وله عنه مندوحة، ولكنّه كان سيِّئ الرّأي، وسُوء رأيه أخرجه من عند سيف الدّولة، وشِدّةُ تعرّضه للنّاس، وقد ذكر السّواد في غير موضعٍ، وكان من اللائِقِ ألاّ يذكره». فعلمتُ أنّه لا مناصَ من أنْ أُغالَبَ في كلّ مكانٍ، وسادَ هرجٌ ومرجٌ في المجلس، فخرجتُ دون أن أستأذن، وأنا أُصبّر نفسي ألاّ أقول مقالةً ينفيها حسنُ رأيي من بعدُ.

وجاء عيد الفِطر في تلك السّنة، وأرسلَ (كافورٌ) يطلبُ منّي أنْ أهنِّئه، وعلامَ أهنِّئه قبل أنْ يُعطيني ما وَعَدني، غيرَ أنّني توسّلتُ بهذه القصيدة من أجل أنْ أُبقي للأمل في استجابته موضِعًا ولمّا أردتُ أنْ أبدأها، بدأتُها بالنّسيب على عادتي، غيرَ أنّ خيال (خولة) فرضَ ذلك، فقلتُ:

مَـــنِ الجَــآذِرُ فِي زِيِّ الأَعَارِيـــبِ

حُمْـــرَ الحُـــلَى وَالمَطَايَـــا وَالجَلابِيبِ

إِنْ كُنْتَ تَسْـــأَلُ شَـــكًّا فِي مَعَارِفِهَا

فَمَـــنْ بَـــلاكَ بِتَسْـــهِيدٍ وَتَعْذِيبِ

ثُمّ بعدَ أنْ أفرغتُ ما في القلب من شكوى، دلفتُ إلى مدحه رجاء الوعد الّذي طال إنجازُهُ فقلتُ:

تَرَعْرَعَ المَلِـــكُ الأُسْـــتاذُ مُكْتَهِلاً

قَبْـــلَ اكْتِهَـــالٍ أَدِيْبًا قَبْـــلَ تَأْدِيبِ

مُجَرَّبًـــا فَهِـــمًا مِـــنْ قَبـــلِ تَجْرِبَةٍ

مُهَذَّبًـــا كَرَمًا مِـــنْ غَـــيْرِ تَهْذِيبِ

حَتَّى أَصَـــابَ مِنَ الدُّنْيَـــا نِهايَتَها

وَهَمُّـــهُ فِي ابْتِـــداءَاتٍ وَتَشْـــبِيبِ

يُدَبِّـــرُ المُلْـــكَ مِنْ مِـــصْرٍ إِلَى عَدَنٍ

إِلى العِراقِ فَأَرْضِ الـــرُّوْمِ فَالنُّوْبِ

وظلّ الأمرُ وعدًا في هواءٍ لا يُمتسَك. وفي بحرٍ عميق الغور لا يُصاد، وفي نجومٍ لا تُرى، فلم أجدْ غيرَ الشّعر يجلو ما في صدري، وأنا أنتقلُ من مدحٍ إلى مدحٍ رجاءَ أنْ يقول ها قد أنجزْنا وعدَنا، وهيهات:

أَوَدُّ مِـــنَ الأَيَّـــامِ مـــا لا تَـــوَدُّهُ

وَأَشْـــكُو إِلَيْها بَيْنَنا وَهْـــيَ جُنْدُهُ

يُباعِــدْنَ حِبًّــا يَجْتَمِعْــنَ وَوَصْلُهُ

فَكَيْــفَ بِحِــبٍّ يَجْتَمِعْــنَ وَصَدُّهُ

فقد صَدّ، ونَسِيَ العهد أو تناساه، وكذب بعدَ أنْ أقسم، فما مُقامي في دياره إذًا؟ ولا كرامةَ لمن يُقيم على الضّيم. وظلّ شقائي آخِذًا بتلابيب روحي، يبعثرني في كلّ جِهة!

وما كنتُ أرضى أنْ يَعْلِفَني علفَ الدّوابّ، فما كان الطّعام والشّراب والملبسُ والمسكنُ يومًا من غايتي، ولقد غبرتْ عليَّ أيّامٌ وليالٍ ما ذقتُ فيها طعامًا، ولا شربتُ فيها ماء، وكنتُ أنام فيها على الحَفِرات، فأنّى لي أنْ أصبرَ بعدَ هذا!!

(٣)

كُلُّ بَعِيدِ الهَمّ مُعَذَّب

هل كنتُ أريدُ بسؤالي (كافورًا) الولاية أنْ أعوّضَ ما خسرتُه عند (سيف الدّولة)؟ وأيّ ولاية تمحو تلك الخسارة أو تُخفّف من آلامِها وتَبِعاتها؟! وما الولاية وأنا أكبر من كلِّ ولاية؟! أمْ أنّني كنتُ أريدُ بذلك أنْ أقول (لسيف الدّولة) إنّني قد صِرتُ حاكِمًا وأميرًا مثلك؟ وها نحنُ مُتكافِئان، فلماذا تُغري بي السّفَلة، وأنتَ تدري أنّني مَلِكٌ في ثيابِ شاعر؟! أمْ أنّني لمّا ضاقتْ عَلَيّ الدُّنيا بما رَحُبت، ألجأني ذلك الضّيق إلى أنْ أخبطَ خبطَ عشواء، وأن أرضَى بأيّ شيء، وما في طبعي الرّضا باليسير؟!

وأيّ شيءٍ فيما أقوله بين يدي (كافور)؟! إنّه أناقةٌ لفظيّة وصنعةٌ بديعيّة، خالِيةٌ من كلّ إحساس، ذلك أنّني لو كذبتُ شِعري فما أستطيعُ أنْ أكذبَ قلبي. وما أحدٌ يدري أنّني حينَ أخلو مع نفسي في لياليّ على ضِفّة النّيل يغرسُ النَّدم أظافره في صدري، ويُطبِق الوهم بذراعَين من حديدٍ على عنقي؟!

وأخذتُ أنهبُ الأرضَ على جَوادي، قاطِعًا كلّ مرحلةٍ من المراحل على النّيل، شادًّا عليه، حتّى جاز الجِيزة، وخرجَ إلى ظاهر (الفُسطاط)، فلمّا صرتُ تحتَ الهرمِ الأكبر، عثرَ بي، فسقطتُ عنه حتى

كادَتْ أنْ تُدَقّ عنقي، وتردّى جوادي، فدخلتْ في بطنه حديدةٌ هناك فَجُرِح، فاستنهَضْتُه فما استطاع أنْ يقوم من موضعه، فهممتُ أنْ أنحره، وأُمزّق أحشاءه. غيرَ أنّني تركتُه ورائي ودُرتُ بوجهي إلى الهرم فطامَنْتُ من بصري، حتّى بلغتُ قِمّتَه، فرأيتُ على قِمّته الشّمس، وبقيتُ مُحدِّقًا فيها مُتحدِّيا حتّى كادتْ عيناي تعمَيان، ثُمّ نُكِسْتُ على رأسي، وعُدتُ أمشي وفِي عينَيّ لعنةُ المكان، وأنا لا أكادُ أُبصِرُ بهما لِشِدّة ما أصابهما، فما دخلتُ داري إلاّ والشّمسُ قد مالتْ إلى المغيب، وأعارتْ لونَها الذّهبيّ النّاعم المائل إلى الحمرة لمياه النّيل، فراحَ يتراقَصُ في عينَيّ، وهما تَريان فيهما كلّ ما مرّ من حياتي ولا تَريان.

وتلقّاني أحدُ الخدم على باب الدّار، فسأل: «وأين جوادُكَ يا سيّدي؟!»، فأخبرتُه خبره وأنا مُحنَق، فبعثَ بالخبر إلى (كافور)، فأرسلَ في طلبي، فقلتُ للرّسول: «إنّني مُتعَب، وسأراه غدًا».

وصحوتُ على الفجر، فإذا هو نذيرُ أسًى بدل أنْ يكون بشيرَ فَرَح. وعرفتُ أنّ الأَسْود لن يرضَى أنْ أراه دون أنْ أُنشِده، فجهدتُ أنْ أكتبَ من فوري، حتّى ارتفعتِ الشّمس، فسمعتُ من الخادم أنّه بعثَ إليّ بجوادٍ أَدهَمَ بدل جوادي الّذي لقي حتفه بين يدي (خوفو). فغدوتُ الضُّحى إليه، فلمّا رآني، جَمَع لي النّاس، وأنشدتُه:

فِـــرَاقٌ وَمَـــنْ فارَقْتُ غَـــيْرُ مُذَمَّمِ
وَأَمٌّ وَمَـــنْ يَمَّمْـــتُ خَـــيْرُ مُيَمَّمِ
وَما مَنْـــزِلُ اللَذّاتِ عِنْـــدي بِمَنْزِلٍ
إِذا لَمْ أُبَجَّـــلْ عِنْـــدَهُ وَأُكَـــرَّمِ

فهتفَ (كافور): «أنزلْناكَ المنزلة الّتي تُحِبّ، وأجللْناكَ وكَرّمْناك».
فقلتُ في نفسي: «كذبتَ». ثُمّ تابعتُ إنشادي أُقِرّ على نفسي بما بيني وبين (كافور):

إِذَا سَـــاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَـــاءَتْ ظُنُونُهُ
وَصَدَّقَ مَـــا يَعْتَـــادُهُ مِـــنْ تَوَهُّمِ
وَعَـــادَى مُحِبِّيْـــهِ بِقَـــوْلِ عُدَاتِـــهِ
وَأَصْبَـــحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّـــكِّ مُظْلِمِ

وما من شَكٍّ أكبرَ مِمّا أوقعتُ فيه (كافورًا) تُجاهي، وماذا أفعلُ إذا كان يلهو بي، ويستبقيني ليحظَى بمدائحي، وهو في كلّ قصيدةٍ يُجدّد الوعد، ثُمّ يُرجِئه؟! وألجأني طُول انتظاري ومُماطلته إلى التّذلُّل، ولو أنَّ إنسانًا جَمَع الحُزنَ كُلّه في الكون، وجعلَ منه حبرًا ثُمّ كتبَ به، لما جاءَ بأشجى مِمّا قلتُ:

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حَيَاتِي قَسَـــمْتُها
وَصَـــيَّرْتُ ثُلْثَيْهَا انْتِظَـــارَكَ فَاعْلَمِ
وَلَكِـــنَّ مَا يَمْضِي مِـــنَ العُمْرِ فائِتٌ
فَجُـــدْ لِي بِحَـــظِّ البَـــادِرِ الْمُتَغَنِّمِ
رَضِيـــتُ بِمَا تَـــرْضَى بِـــهِ لِي مَحَبَّةً
وَقُـــدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ الْمُسَـــلِّمِ

غيرَ أنّه كان عن حُزني في منأى، وكان عن بُؤسي في شُغُل. وماذا بعد؟! إنّ كلّ قصيدةٍ أقولُها فيه تذهبُ بجزءٍ منّي، وتسيلُ فيها فُيُوضُ

من دمي، وما أدري كم تبقّى في عُروقي من دمٍ لأقول في وجه هذا العبد الكاذب.

وصار (كافور) يبعثُ لي جُنودًا يسألون عن أخباري، ويتفقّدون أحوالي، ويقولون: «إنّما بَعَثَنا مولانا من أجل أنْ يطمئنّ قلبُه عليك». وكذبَ وكذبوا، فما بعثهم إلاّ جواسيس، وما أرسلهم إلاّ عيونًا تتربّص بي، وما كان قلبُه ليطمئنّ سوى أنْ يَحبِسَني، ويَسُومَني الخَسْف، ويجعلني عبدًا له، وما يدري هذا العبدُ أنّني كنتُ سيّدًا أرى نفسي فوق الملوك وأنا في المهد، وأيّام لم تنبتْ في ذقني شعرة، أفأذلّ له اليوم وقد جرى عليَّ القدرُ بكلّ نائبة؟!

بقيتُ ستّة أشهر لا أغشى قصر (كافورٍ) ولا أذهبُ إليه، لكنّه لم يتركْني وشأني، إذ إنّه أحاطني بكلّ مَنْ ينقلُ أخباري وتحرّكاتي إليه، وقد غَيّر الخدَم السّابقين في داري، وأبدل بهم آخرين كان واضِحًا أنّهم لا يتركون همسةً أهمسُها، ولا حركةً ولا نأمة إلاّ وينقلونها إليه. وبدا أنّ كَفَّي العَبْد الأسود الضَّخمتَين المُشَقّقَتَين تُحيطان بِعُنقِي وتلتفّان عليها، وتخنقانني فلا أجدُ لنسمةٍ واحدةٍ مسلكًا.

وحينَ أردتُ أنْ أخرجَ من البيتِ ذاتَ مرّة قاصِدًا جامع (عمرو بن العاص)، أوقفني الحارسُ القائمُ بباب الدّار، وسألني بغلظة: «إلى أين؟». فعجبتُ منه يسألني، فكرّر السّؤال بغلظةٍ أشدّ من السّابقة، فعلمتُ أنّه مُوكّل بذلك، فهتفتُ مُستسلِمًا: «إلى جامع عمرو بن العاص». فردّ ناهِرًا: «ارجعْ، فلن تبرحَ دارك». وسُقِطَ في يدَيّ، وخطوتُ راجِعًا من الباب، ثُمّ التفتُّ إليه: «ألا يُمكن أنْ تستأذِنَ

سَيِّدَك؟!». فردّ: «ارجعْ، وسنرى». وبقيتُ ثلاثةَ أيّامٍ حبيسًا حتّى جاءني الإذن.

ولّما مضيتُ لَزِمَني اثنان من حُرّاس القصر، يمشون معي حيثُ أمشي، ويقفون حيثُ أقف، فدبّ في قلبي يأسٌ لم أعشْه منذُ وُلِدت، وصِرتُ أشعر بقلبي يصّعد في صدري اختناقًا، فكيفَ يكونُ الخَلاص؟!

وفي مسجد (عمرو بن العاص)، اختلفتُ إلى حِلَق الفلسفة، فكنتُ أجلسُ إليها من أوّل النّهار إلى آخره، ولا أقوم إلاّ إلى الدّار من أجل أنْ أنام، فما كان من عَمَلٍ لي غير هذا.

وإنّني وجدتُ في الجامع فُسحةً لذهاب الهموم، ذلك أنّه التفّ حولي عددٌ من الفِتيان مأخوذون بشِعري، فكنتُ أجلسُ إليهم أُنشِدهم فيحفظون عنّي ويكتبون، وكان بعضُهم قد وفد من بلاد المغرب والأندلس، فلمّا أخذوا حَظّهم من العِلم عادوا به إلى بلادهم فكانوا خيرَ سُفراءَ لي، ولقد عُرِفتُ في الأندلس منهم، فكأنّ ما حَجَبه (كافور) عنّي بالعُيون بَسَطه الله في هؤلاء المُريدين.

وكان أحدُ هؤلاء رجلاً يُدعى (أبا الوليد)، قد قدم من الأندلس إلى الحجاز حاجًّا، فلمّا أتمّ نُسُكَه، سعى إلى (مِصر) ليراني، فلمّا دَخَلها سأل عنّي، فقيل له: «إنه مُقيمٌ في جامع عمرو بن العاص» فأتاني، فأخبرني خَبَره، واستنشدني، وأنشَدْتُه، ثُمّ سألتُه أنْ يُسمِعني مِمّا قاله مَلِيحُ الأندلسيّ، أعني ابنَ عبدِ ربّه، فأنشد:

يا لُؤْلُـــؤًا يَسْــبِي العُقُــولَ أَنِيْقَا
وَرَشًـــا بِتَقْطِيــعِ القُلُــوبِ رَفِيْقَا

مَا إِنْ رأَيْــتُ وَلا سَــمِعْتُ بِمِثْلِهِ
دُرًّا يَعُــودُ مِــنَ الحَيَــاءِ عَقِيقَــا
وإِذَا نَظَــرْتَ إِلَى مَحَاسِــنِ وَجْهِــهِ
أَبْــصَرْتَ وَجْهَكَ فِي سَــنَاهُ غَرِيْقَا

فحفظتُ عنه ما أنشد، وقلتُ: «يا ابن عبد ربّه، لقد تأتيكَ العراق حبوًا».

وصارَ خروجي من داري لا يكون إلاّ بورقةٍ فيها خَتْمُ (كافور)، فعوّضتُ ما يُنزِله ذلك في قلبي من الغيظ والحقد، بما ألقى وأسمع في جامع عَمْرٍ، ثُمّ كان (كافور) يأخذُ الورقة ميزانًا وهوًى، فيطالبُ بها حينًا، ويتغاضَى عنها أحيانًا.

وكان عددٌ غيرُ قليلٍ مِمّن يرتادون الجامع يَفِدون من (الشّام) أو من (حلب)، ويأتون - دون أنْ أسألهم - بأخبارِ الأمير هناك، أو طرفًا منها، وسمعتُ منهم أنّ (أبا الفرج الأصفهانيّ) سأل الجائزة على كتابه (الأغاني) الّذي أهداهُ (لسيف الدّولة)، فأعطاه ألف دينارٍ، وهي جائزةٌ قليلةٌ إلى الجُهد الّذي بذله (الأصفهانيّ) في كتابه الّذي قيل لي إنّه خمسون مُجلّدة، ما من سطرٍ إلاّ وفيه فائدةٌ أو حكمةٌ أو خبرٌ أو شِعرٌ، فلمّا سألتُهم عن ذلك، قالوا إنّ الأمير لمّا عَلِمَ أنّه ترجمَ لعددٍ ينفلتُ من الحصر من الشّعراء، ولم يترجم لكَ، ولا ذكرَ بيتًا واحِدًا من شِعرك، استقلّه، وقال: «كِتابُ شِعر ليس فيه لأبي الطّيّب مكان، لا مكان له عندنا»، ولم يُعطِه عليه إلاّ هذه الجائزة القليلة!

وها أنذا. حبيسٌ. أو مُراقَبٌ. أو منبوذٌ. أو وحيدٌ في هذه الدّار. ونَكْبتي (بكافورٍ) لا تُعادلها نَكْبة، ولولا ما ذكرتُ من أمر الجامع ما قدرتُ على الحياة، غيرَ أنّني كلّما أردتُ أنْ أنسى عَزّني النّسيان، فخرجتْ لي غدرتُه مع كلّ نَفَس، فرحتُ في ليلةٍ من تلك اللّيالي، أخطّ هذه الأبيات:

قَطَعْتُ بِسَــيْرِي كُلَّ يَهْـمَاءَ مَفْزَعٍ
وَجُبْـتُ بِخَيْلِي كُلَّ صَرْمَــاءَ بَلْقَعِ
وَثَلَّمْتُ سَــيْفِي فِي رُؤُوسٍ وَأَذْرُعٍ
وَحَطَّمْتُ رُمْحِي فِي نُحُــورٍ وَأَضْلُعِ

فقلتُ: استهلالٌ جيّد، ثُمّ غلبني الحقدُ عليه، فأخرجني من الحِفاظ إلى التّهتُّك، فقلتُ:

أَبَــا النَّتْنِ كَــمْ قَيَّدْتَنِــي بِمَوَاعِدٍ
مَخَافَــةَ نَظْــمٍ لِلْفُــؤادِ مُــرَوِّعِ
وَقَدَّرْتَ مِــنْ فَرْطِ الجَهَالَــةِ أَنّني
أُقِيمُ عَــلَى كَذْبٍ رَصِيْــفٍ مُضَيَّعِ
أُقِيمُ عَــلَى عَبْــدٍ خَــصِيٍّ مُنَافِقٍ
لَئِيْــمٍ رَدِيْءِ الفِعْــلِ لِلْجُودِ مُدَّعِي

ثُمّ إنّني لمّا أتممتُها، رُحتُ أعيدُ النّظر فيها، فما وجدتُ خيرًا من أنْ أمزّقها، وأُلقِمها النّار، وذلك أنّ دافعها الكُره لا الموهبة، ثُمّ هذه الرّداءة الّتي لا تليقُ بمقامِ شِعري!

(٤)

القَصِيدةُ الباكِية

بَثّ (كافور) رِجالَه وجُنده وجواسيسه في (مِصْر) كلّها يُشيعون في النّاس أنّه: «أعطى (المتنبي) ولايةً في الصّعيد، وأنّ هذه العطيّة إنجازُ وعدٍ منه، ومكافأة لمدائحه فيه». وكان هؤلاء ما يلقون أحدًا إلاّ قالوا له: «أما عرفتَ ما فعلَ حاكِمُ مصر العظيم؟». فيردّ السّامع: «ما فعل؟». فيقول: «لقد وهبَ شاعرًا عظيمًا أحسنَ مدن مصر يكون عامِلاً عليها». وصدّقتِ النّاس، والنّاسُ في مِصر على بَياضٍ من نِيّاتها، يُصدّقون كلّ ما يسمعون.

- وشاع الخبر، وسخرتُ منه، ومن نفسي، وكدتُ أبكي على الحظّ الّذي رماني إلى هذا الخَصِيّ. وها أنذا كما ترون، حاكمٌ كبيرٌ لا يستطيعُ أنْ يخرج من داره، يملكُ ولايةً عظيمة، ولكنّه لا يملك أنْ يشتريَ من الحانوت نَعْلاً إلاّ بإذن!!

ثُمّ مضى رمضان، وأنا مُعتكفٌ إكراهًا في داري، أضحك ضَحِكًا مريرًا من هذا الحاكم الّذي أنا هو، ينتقلُ خبرُ حُكمه في البلاد انتقال السّحاب في السّماء، وهو لا يقدر أنْ ينتقلَ من غرفةٍ إلى أخرى.

وأحسّ (كافور) أنّني يُمكن أنْ أفعل شيئًا لا يقدر على معرفته، أو يتنبّأ به، فحمله الخوفُ من ذلك، على أنْ يبعثَ لي ليلة العيد ستّمئة دينارٍ، من أجل أنْ أقول فيه قصيدةً، وما كان ذلك إلاّ استظهارًا لِما انطوتْ عليه نفسي، لكي يتأكّد مِمّا قَرّ في ذهنه من أنّني لا أحبّه، ولا أحبّ الإقامة في جِواره، وأنّني أكرهه وأكره اليوم الّذي ساقني إليه، وأنّ قصائدي فيه ظاهرها مدحٌ، وباطنها من قبلها الهجاء النّاقع.

فاتّخذتُ كتابةَ قصيدةٍ له في العيد سببًا للخروج من هذا الإقامة الجبريّة، وهذا الحبس الكريه. فجهدتُ تلك اللّيلة أنْ أكتبَ ما أريدُ، وأنْ أتّخذ من قدرتي على قلب المعاني وسيلةً للتندّر به فيما لو أرادَ خبيرٌ بالشِّعر أنْ يفعل. ولمّا وقفتُ بين يدَيه، وقد جمَعَ النّاس ضُحًى كأنّه يومُ الزّينة، أنشدتُ:

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّـوْقَ وَالشَّـوْقُ أَغْلَبُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَالوَصْلُ أَعْجَبُ

ووقفتُ برهةً أنظر في وجه الوزراء، فرأيتُها جامدةً كالشّمع، ونظرتُ إلى وجه (كافور) فوجدتُه مُرتاعًا تنوصُ عيناه، فعرفتُ أنّه فَهِمَ ما أرمي إليه، في الضّمير الكاف في (فيك)، فالمقصود هو (سيف الدّولة)، وأنا أُغالبُ شوقي في العودة إليه، وتَرْك (كافورٍ)، وقد عجبتُ من أنّه دعاني إلى هجر (سيف الدّولة)، والأعجب منه أنّه دعاني إلى وصل (كافور) هذا الملك العبد!

وكان (كافور) يعرفُ ما أقول، ويُدركه خيرًا من وزرائه الّذين عرّضوا صدورهم لكي أمدحهم، كأنّني أمدحُ كلّ دابّة. وكان يُحِسّ أنّني

أزداد له مع الأيّام بُغضًا، ولكنّ هذا الإحساس لا يعضده نَصٌّ واضِحٌ، فالأبيات قد تعضد إحساسه، لكنّ فيها دائِمًا مخرجًا يذهب إلى العكس تمامًا، فلو فَهِمَ سامعٌ أنّني أهجو في هذا البيت، وجاء فيه بما يعضدُ رأيه، لانبرى له سامِعٌ آخر فرأى في البيت مدحًا وجاء فيه بما يعضدُ رأيه هو الآخر. وهكذا كانتْ قصائدي في (كافور)، وهي القصائد الّتي كانتْ أولى من كلّ قصيدةٍ سبقتْها بأنْ تجعل الخلقَ يسهرون في اسْتِدرار معانيها، ويختصمون في بيان مراميها.

فلمّا قلتُ:

عَشِـــيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ
وَأَهْـــدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتـــي أَتَجَنَّبُ

قال قائلٌ منهم إنّ أحفى النّاس به (سيفُ الدّولة) لا (كافور)، وقد جفاه مع أنّ حقّه أنْ يصله، وأمّا الشّطر الثّاني فهو بيانٌ عن النّوازع الّتي تنازعتْه ومزّقتْه وهو يقول: «لن أذهبَ إلى مصر، إنّ في الّذهاب إليها ضلالاً، ولا هداية إلاّ بالرّجوع إلى مَنْ تتجنّبه».

ومضيتُ أصف حصاني، ورِحلتي الطّويلة، وفروسيّتي، وصبري على الرّمضاء، لا أذكر فيها العبد أبدًا، ولا أرفعُ إلاّ من قيمتي في عيني قبل أنْ تكون في عيون النّاس، حتّى إذا وصلتُ إلى ما دعاني إلى أنْ أُقدِم على هذه البلاد، هتفتُ:

وَأَخْـــلاقُ كَافُورٍ إِذَا شِـــئْتُ مَدْحَهُ
وَإِنْ لَمْ أَشَـــأْ تُمْـــلَى عَـــلَيَّ وَأَكْتُبُ

فهل بعدَ هذا الوُضوحِ وُضوح؟! وهل بعد هذه الجرأة جرأة؟! وماذا سيفعل (كافور)؟ هل سيحبسني؟! إنّه قد فعل. هل سيطردني من مصر؟ إنّها الأمنية الكُبرى الّتي أتوقُ إليها اليوم خلاصًا من هذا العذاب الّذي تتقطّع له نفسي. هل سيقتلني؟ فلْيَفْعل؛ متى كنتُ أخشى الموت؟! إنّه أهونُ وأكرمُ من هذا الذّلّ الّذي أعيشُه.

ثُمّ إنّني استنفدتُ كلّ السّبل في التّلميح، ولم يبقَ إلاّ أنْ تكون طِلبتي بَلْقاء، إنّ هذا الفاجر قد أكل البلادَ كلّها، وشَرِبَها، ومَنّاني بِفَضْلة شَرابِه، ولكنّه حتّى في هذه الفَضْلة كَذَب، فحينها هتفتُ هُتافَ صارخٍ يائسٍ ذبيح:

أَبَا المِسْكِ هَلْ فِي الكَأْسِ فَضْلٌ أَنالُهُ
فَإِنِّي أُغَنِّي مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ
وَهَبْتَ عَلَى مِقْدارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا
وَنَفْسِي عَلَى مِقْدارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ
إِذَا لَمْ تُنِطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلايَةً
فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

ثُمّ ها أنذا، البُعد عمّن أحبّ، الغربة، السّجن، الذّكريات، الأسى كلّها تدعوني إلى هذا اليأس. وها أنذا أنظر في وجهه فأراه يبتسِم ابتسامة القاتِل حاصرَ ضَحِيّتَه، والغادر تمكّن من غدرته. ووقفتُ عندَ البيت الأخير، أريدُ منكَ جوابًا أيُّها الثّور الجالسُ على الكرسيّ، لقد لَمّحتُ لكَ ألفَ مرّة، وصرّحتُ لكَ ألفَيْ مرّة، وهذه هي الأخيرة الّتي أفعلها، فإنّني مُحتاجٌ منكَ جوابًا. وحردتُ بالفعل، ولم أقُلْ بعدَها بيتًا، واحِدًا،

فنظر كافور في وجوه مَنْ حوله كأنّه يتعجّب من توقّفي عن الإنشاد، وهو يعرفُ لِمَ توقّفْتُ، ثُمّ لمّا لم أكمل سألني: «أهذا كلّ شيء؟!». فأجبتُ مُحنَقًا: «لا». فقال: «أَكْمِلْ إذًا». فقلتُ: «حتى أرى رأيكَ». فتغابَى: «فِيْمَ؟». «فيما قلتُه في البيت الأخير». وتغابى مرّة أخرى: «ماذا قلتَ في البيت الأخير؟». وكدتُ أنفلتُ من موقعي فأهجم عليه هجوم اللّيث على الثّور فأُنشِبَ مخالبي في غَبَبِ رَقَبَتِه، وتحاملتُ على نفسي، فأعدتُ البيت على مسامعه:

إِذَا لَمْ تُنِـــطْ بِي ضَيْعَـــةً أَوْ وِلايَـــةً
فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُـــغْلُكَ يَسْلُبُ

فتنهّد: «آآآه...»، واستوى في جِلسته المُبتَذَلة، وتصنّع الجِدّ، ثُمّ سأل وهو يحكّ ذقنه الّتي لم ينبتْ فيها سِوى شعراتٍ قلائل: «ولاية... أمم... أيّ ولايةٍ تريد؟». فقلتُ له دون تردّد: «صيدا». فنظر إلى مَنْ حوله وابتسم، ثُمّ اتّسعتِ ابتسامته: «صيدا؟!»، ثُمّ تحولتِ ابتسامته إلى قهقهة: «صيدا... آآآه... صيدا». ثُمّ خفتت القهقهة تدريجيًّا حتّى تحوّلتْ إلى جِدٍّ وعبوسٍ في الوجه، ثُمّ أمال جِذعه إلى الأمام نحوي، ومَدّ ذراعه نحوي، وهتفَ بازدراء: «أنتَ...؟!» وتوقفّ قليلاً، ورأيتُ في أنتَ هذه وهو يُشير بإصبعه نحوي كلّ احتقارٍ في الكون مجموعًا فيها، قبل أنْ يُردِف: «أنتَ في حال الفقر وسُوء الحال وعَدَم القُوت والمُعين قد سَمَتْ نفسُك إلى النُّبُوّة، فإنّ أصبْتَ ولايةً صار لكَ أتباع، فمن يُطيقكَ؟!». ولم أندهشْ مِمَا قال، وإنْ كان مؤلِمًا جِدًّا، وأردتُ أنْ أجيبه عن سؤاله الأخير: «لا أحدَ، لا أحد. حتّى أنا لا أُطيق نفسي».

هكذا إذًا، لقد صَرّح كلّ واحدٍ منّا بشعوره تُجاه الآخر، وأبان عمّا يعتمل في أعماقه، ومع أنّ العبارة كانتْ ثقيلةً جِدًّا فقد أراحتْني، ذلك أنّها كانتْ صادقةً جِدًّا، بل إنّها أوّلُ عبارةٍ صادقةٍ أسمعها منه في هذا المدّ المُتتابع من الكذبات الكبيرة!

ثُمّ تأكّدَ له أنّني أمام أمرين أحلاهما مُرّ: الموتُ أو الهرب. فعزمتُ على الثّانية ولو لقيتُ في سبيلها الأولى. وعُدتُ إلى الدّار مغفورًا. صحبني إليها عشرةٌ من حُرّاسه. ولزمتُ بيتي مُدّة ثُمّ كان يسمحُ لي بالذّهاب إلى جامع (عمرو ابن العاص) بين حينٍ وآخَر، وكان هذا نافذتي الّتي تُطلّ على العالَم، ومنه انطلقتْ أبياتي أشِعّة تَضْحَى لها العيون، وتناقلَ النّاسُ أخباري حيثُ سارتِ المطايا.

وصحوتُ أحدَ الأيّام على أصواتٍ مُتداخِلَةٍ في حديقة الدّار، وجَلَبَةٍ كبيرةٍ، فلمّا نظرتُ من النّافذة رأيتُ (كافورًا) وموكبه قد حطّوا بالباب، وفوجِئتُ يأتيني بنفسه، ولكنّه لا يُمكن أنْ يفعل ذلك إلاّ لغاية، وراحتْ خواطري تحومُ في رأسي؛ هل رأى منّي ما يدعوه إلى أنْ يأتي بشحمه ولحمه؟ ماذا يبغي من ذلك؟ هل جاءَ من أجل أنْ يُحدّثني في أمر الولاية، ويُعلِنَ لي عزمه على تحقيق رغبتي بأسرع ما يُمكن؟! ثُمّ ضحكتُ في أعماقي من الخاطر الأخير؛ لا بُدّ أنّني مريض. أو ربّما جاءَ ليستشيرني في أمر ما. أو جاءَ من أجل أنْ ينقلني من شِبه السّجن في هذه الدّار إلى سجنٍ حقيقيّ؟! لكنّني لم أتوصّلْ إلى خاطرٍ أراه قريبًا مِمّا دار في رأسي.

وفُوجِئتُ به يدخل غرفتي دون استئذان. وهل يستأذن الملوكُ على السُّوقة؟! وهتف: «عِمْ صباحًا أيّها الشّاعر العظيم». وتوجَّسْتُ خِيفةً من تحيّته، ورددتُها قَلِقًا: «عِمْتَ صباحًا أيّها المَلِك». ثُمّ نَظَر إِلَيّ وضحك: «تبدو كأنّكَ خارجٌ من القبر للتّوّ». وأردتُ أنْ أقول له: «إنّني في قبرٍ بالفعل». وأكمل: «اغسلْ وجهك، ورَجِّلْ شَعْرَك، ودعَنا نركَ في مظهرٍ حسنٍ أيّها الوسيم».

وغسلتُ وجهي، ورَجّلتُ شعري، ولبستُ ثيابي، وتطيَّبْتُ، ثُمّ بحثتُ عنه فوجدتُه في الحديقة، يمرّ على شجرةٍ شجرةٍ، ونبتةٍ نبتةٍ، يُقلّب أوراقَها، ويتفحّص جُذوعَها وأغصانَها، ويُلقي ببعضِ تفاهاته على مَنْ حوله من حاشيته، ثُمّ رأيتُه يدخل الدّار من جديدٍ، فتبعتُه، حتّى دخل غرفةَ السّلاح، فوجد فيها سُيوفًا ورماحًا كثيرة، وراحَ يُقلّب السّيوف بين يديه، ويُشهرها من أغمادِها، وينظر في ظُباتها، ويُمرّر عليها إظفره الخَشِن من أجل أنْ يقيسَ رهافتها، ثُمّ يُعيدها إلى أغمادها، ثُمّ أتى الرّماح، فأخذَ أحدَها وسَدّده نحوي، فرجعتُ برأسي للوراء، وضَحِك: «لا تخفْ، كنتُ أمزح معك». وهتفتُ في نفسي: «مِمّن أخاف، من الهُراء المحشوّ تِبنًا؟!». وأردف وهو يُعيد الرّمح إلى أخواته: «لِمَ كلّ هذا السّلاح؟!». «لا لشيءٍ». «هذه ليستْ إجابة؛ فيمَ تُعِدُّها؟!» فأجبتُه وأنا أحاول أنْ أُخفّف ما يمور في وجداني من قلقٍ وغضبٍ: «لقد كانَ أكثرُها هديّةً منك؟ وأنا أتباهى بها أمام القوم، فأنتَ تعلمُ أنّه في مصر لا قتال ولا نِزال، إنّما نحنُ نصفّ هذه العوالي والسّيوف للزّينة». وتمتمَ بكلامٍ لم أسمعه جيّدًا، ثُمّ طاف بالبيت كلّه والحاشية تتبعه، فما تركَ فيه شبرًا إلاّ ووطئته قدماه، وهو يدرج من ثقله كالفيل، وظلّ يطوف حتّى

إذا أنهكتْه قدماه جلسَ على شرفة البيت، ومَدّ رِجلَيه، وبقي على هذه الحال حتّى الظّهر، وأنا أحتمله وأحتمل ظِلّه الثقيل وحاشيته؛ لقد جاءَ إذًا لكي أظلّ منه على خوفٍ فلا آتي ما يراه حماقةً. ولقد أحسنَ بهذا، فصرتُ أحسبُ للنملة حسابًا.

ثُمّ قامَ فدَخَل المطبخ، فطاشتْ يده في كلّ موضعٍ فيه، يتحسّس الأطعمة، ثُمّ قال: «ألا يوجد لديكَ طعامٌ اليوم، فإنّني جائع». ثُمّ قهقه، ونظرَ مِن خلفه، وسألني: «أينَ طَبّاخُك؟!». فقلتُ: «أدعوه لكَ؟». فردّ: «كلا»، وهتفَ بحرسِه: «أَعْفُوا الطّبّاخ من مَهمّته، وأرسلوه إلى أهله، وكافِئوه على خدمة أبي الطّيّب أربعمئة دينار». ثُمّ سكتَ، والتفتَ إلى رئيس حَرَسه: «وأنتَ، أرسِلْ إلينا الطّبّاخ الّذي أعدَدْناه للشّاعر، إنّه أمهر من طَبّاخه السّابق».

وجاؤوا بعدَ فترةٍ وجيزةٍ بالطّبّاخ الجديد فعلاً، وانهمكَ يبحثُ في المطبخ عن طعامٍ مناسبٍ يصنعه لنا، وصنَع لنا طعامًا شهِيًّا، وطاشتْ يدُ كافور في الصّحفة، فأكل كلّ ما فيها، ونقرتُ أنا من الطّعام كما ينقر العصفور من الماء. ثُمّ خرجَ في العصر، فانزاح بخروجه عن صدري هَمٌّ ثقيل.

ولقيني (ابن أبي الجوع) بعدها في درسٍ من دروس جامع (عمرو بن العاص)، فاقتربَ منّي وهمس: «سمعتُ أنّ كافورًا بعثَ لكَ طبّاخًا جديدًا؟». فقلتُ: «نعم». فردّ بهمسٍ أشدّ خفوتًا: «احذرْ منه، فقد يُسمّم الطّعام الّذي يطبخه لك، فهذه عادةُ كافور، قتلَ بالسُّمّ كثيرًا من القادة الّذين أرادَ التّخلّص منهم، إنّها طريقةٌ ذكيّة خبيثة، فهي

سريعةٌ ولا يُمكن لأحدٍ أنْ يكتشفها». وسألتُه: «هل حَقًّا يُمكن أنْ يقوم بذلك؟». «لقد قام بذلك لابن وليّ نعمته الإخشيد، وأنتَ تعرفُ ما فعل، إنّه لا يتورّع عن الإقدام على كلّ ما يراه من مصلحة الدّولة، ولو أدّى ذلك إلى قتلِ أقربِ النّاس إليه، فكيفَ وأنتَ تعلم أنّه يعلم أنّك تكرهه، وأنّكَ تُعرّضُ به في كلّ قصيدةٍ وتهجوه؟!».

وعلى هذا لم أعدْ آكُل في البيت، فإمّا أنْ آكُلَ من طعام التّلاميذ في الجامع، أو آكل عندَ من أثقُ به، أو أشتري طعامي من الحوانيت، أو آكُلُ من مطبخي ما أصنعه أنا لنفسي، وأمّا ما كان يُعدّ الطّبّاخ من وجباتٍ، فإنّني كنتُ أتظاهر أمامه بالشّبع، أو آخذُ الطّعام فأرميه في التّراب تحتَ شجرةٍ بعيدةٍ من أشجار الحديقة، أو أضعُ منه لقمة قربَ فمي فإذا اطمأنّ أنّني بدأتُ الأكل، ألفِظُها بعيدًا... وبقيتُ على ذلك نحوًا من خمسة شهورٍ، حتّى تغيّر الطّبّاخ!

ثُمّ لقيني بعد هذه الشّهور الخمسة فتًى قادمٌ من (حلب)، فقال: «شهدتُ قبلَ شهرٍ مجلسَ (سيف الدّولة)، وقد قامَ جماعةٌ منهم بنَعْيِك بين يدَيه، فقالوا له: إنّ شاعركَ قد ماتَ بالسُّمّ، وإنّ الّذي سَمَّه كافور نفسه». فأطرقتُ لمّا سمعتُ قولَه، وهتفتُ: «يحسدونني على الموت، وها أنذا بعيدٌ عنهم كلّ هذه المسافات، وبيني وبينهم مفاوز ونُجُود، ولا أسلمُ منهم، إنّهم لم ينقلوا الخبر إلاّ لأنّهم يتمنّونه.. ثُمّ عَبرَتْني موجوةٌ من الغضب والكبرياء، فهتفُ: «أنا لن أموت، وستموتون أنتم، وسأعيشُ خالِدًا، وسأبقى دُرّة في جبين الدّهر، وغرسةً مونعةً في روضة العِزّ... المجدُ لي، والموتُ لكم». ثُمّ تركتُ المجلسَ فورَ سماعي ذلك الخبر، وركبني الهَمّ والحُزن، وعدتُ إلى البيت، فلزمْتُ غرفتي

أسبوعًا لا أخرجُ منها ألبتّة، أُفكّر فيما جرّته عَلَيّ كلماتي من ويلات، وما سبّبَتْه لي أَنَفَتِي من حَوْبات، يريدون منّي أنّ أظلّ صامِتًا حتّى أكونَ عاقِلاً في نظرهم، لن يقبلوني إلاّ إذا صرتُ نسخةً منهم، أو صورةً عمّا يُفكّرون، أَمَا وأنا أنا، ينطقُ لساني عن وجداني، فأنا عدوُّهم اللّدود.

ثُمّ عَنّ لي أنْ أخرجَ من كآبتي وعُزلتي، ففكّرتُ أنْ أعودَ إلى الجامع، ثُمّ نكصت. وماذا أريدُ إذًا؟ أريدُ منزلةً لم تَدُرْ في بال الزّمن من قبل، لا فكّر فيها إنسيّ، ولا بَلغها جِنّي، ورحتُ من هذه الرّوح أنزفُ قصيدتي:

بِــمَ التَّعَلُّــلُ لا أَهْــلٌ وَلا وَطَنُ
وَلا نَدِيــمٌ وَلا كَأْسٌ وَلا سَــكَنُ
أُرِيْــدُ مِــنْ زَمَنِــي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي
مَا لَيْسَ يَبْلُغُــهُ مِنْ نَفْسِــهِ الزَّمَنُ

وضَجّتْ نفسي بالتّعالي على كلّ ما لاقيتُ، وشددتُ من قُوّة عزمي، وشعرتُ بأنّ كلّ شيءٍ يُمكن أنْ تركله بقدمك، وأنّ كلّ مصيبة يُمكن أنْ تُواجهها بقلّة الاكتراث، وأنّ كلّ صعبٍ يُمكن أنْ يُسفَكَ دمُه بسيف العزيمة، وأنّ الحُزن مثل السّرور عابر، وأنّ اليأسَ مثلُ الأمل مُؤقّت، وأنّ الموتَ مثل الحياة جميلٌ، وهتفتُ بأعلى صوتٍ ممكن:

لا تَلْقَ دَهْــرَكَ إِلّا غَــيْرَ مُكتَرِثٍ
مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيــهِ رُوحَكَ البَدَنُ
فَــمَا يَــدُومُ سُرُورٌ مَــا سُرِرْتَ بِهِ
وَلا يَــرُدُّ عَلَيْــكَ الفَائِــتَ الحَزَنُ

ثُمّ عبَرَتْ في خيالي صُور الرّمم وهي تجتمع حول الأمير، أَغْرِبةً حول نَسْر، وضباعًا حولَ لَيْث، وهم يَلُوكون ألسنتهم في أفواههم وينقلون إليه خبر وفاتي، كأنّ ذلك يُسعده، وما يُحزنه أكثر من فراقي، لأنّه عَلِمَ - وقد كان يعلمُ من قبلُ - أنّه ما عَوّض غيابي عنه شاعرٌ مثلي. وهتفتُ كأنّي أنتقُ جرحي دمًا أبصقُه في وجوههم:

يَا مَنْ نُعِيــــتُ عَلَى بُعْدٍ بِمَجْلِسِـــهِ
كُلٌّ بِـــمَا زَعَـــمَ النَّاعُـــونَ مُرْتَهَنُ
كَمْ قَدْ قُتِلْتُ وَكَـــمْ قَدْ مُتُّ عِنْدَكُمُ
ثُـــمَّ انْتَفَضْتُ فَزَالَ القَـــبْرُ وَالكَفَنُ
قَدْ كَانَ شَـــاهَدَ دَفْنِي قَبْـــلَ قَوْلِهِمِ
جَمَاعَـــةٌ ثُمَّ مَاتُـــوا قَبْلَ مَـــنْ دَفَنُوا

وها قد مضت سنون، وانطوتْ أحلامٌ، وعاشَ قوم، وماتَ آخرون، وحَلُمَ فتًى كان يأكلُ التّراب في الكوفة، ثُمّ ماذا تبقّى من حُلْمه غير أنْ يقول:

مَــــا كُلُّ مَا يَتَمَنَّـــى المَـــرْءُ يُدْرِكُهُ
تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لا تَشْـــتَهِي السُّفُنُ

ثُمّ سقطتُ على الأرضِ مَغشيًّا عَلَيّ!!

(٥)

وماذا في هذه الدُّنيا غيرُ الهَمّ؟

صحوتُ مع الشّمس، لسعتْني أشعّتها بعدَ أنِ اشتدّتْ حرارتُها قليلاً. نهضتُ مُتثاقِلاً نظرتُ حولي فإذا أنا ساقطٌ بين الأقلام والأوراق، وقد سالَ حِبْرُ الدّواة على الأرض، ولوّث ثيابي. رفعتُ يدَيّ إلى وجهي ورأيتُ السّواد يُغطّيها؛ فشعرتُ أنّ السّوادَ يُغطّي كلّ شيءٍ، هتفتُ في نفسي: «ستقتلُ نفسَك إنْ بقيتَ هكذا. عليكَ أنْ تخرجَ من هذه اللَّوْثة. إنّ هذا الموت الّذي تسير إليه بقدمَيك هو ما يريدُه (كافورٌ) منك، إنّه يريدُ أنْ تقتل نفسك، ليقول للنّاس: «انظروا إليه، لقد أكرمْناه أيّما إكرام وأعطيناه ما لم نُعطِ أحدًا، وأَجْرَينا عليه الأموال والحدائق والقُصور... ثُمّ انظروا بعدَ هذا كلّه ما فعل؟! لقد انتحر!!».

ونفضتُ يدي، ووقفتُ على قَدَمَيّ، وخلعتُ ثيابي، ورميتُها بعيدًا، واغتسلتُ، ثُمّ لبستُ أحسنَ حُللِي، وخرجتُ أقصدُ (كافورًا). تلقّاني بوجهٍ كاذبٍ ضاحك: «سَلْ تُعطَ». «لا أريدُ سوى شيئَين». «قلْ، أنا أحسنُ مَنْ يستمع إليك». «أن تجعلني أروح وأغدو إلى جامع عمرو بن العاص دون أنْ آخذَ إذنًا منك في كلّ مرّة، فأنا - كما تعلم - لا أفعلُ شيئًا سوى أنّني أجلسُ إلى أهل العِلم، فهذا ما تبقّى لي في هذه البلاد». وضحك (كافور)،

وهتـفَ بتشَـفٍّ وَمَنّ: «لـكَ هـذه. والثّانيـة؟». «أنْ تسـمحَ لي بمقابلة فاتـكٍ أبي شُـجاع». وصرخ: «المجنـون؟!». «المجنـون؟! ولكنّـه أحدُ قادتـك». «امـم ومـاذا تريـدُ منـه؟!». «مجـرّد لقـاء ببطـلٍ مـن أبطـال الدّولـة». «هُـراء». ثُـمّ صمتْنا، وتابعَ هـو: «أتعرفُ أينَ هـو اليوم؟!». «إنّـه في الفَيُّـوم». «كيـفَ تعـرفُ ذلـك، لا بُـدّ أنّـكَ على علاقـةٍ به؟». «لا يـا سـيّدي، ولكـنْ أنْ تعـرفَ أنّـه في الفيّـوم فـكلّ النّـاس تعرفـه، أهـذا سِرّ؟!». «ولكنْ مـاذا تريدُ منـه؟ أتريدُ أن تتآمر معـه ضدّي؟!». «كلاّ... كلاّ يـا سـيّدي، كيـفَ أتآمـر معـه عليك وأنـا مجرّد شـاعر... حاشـاي يـا مـولاي!». «فـماذا تريـدُ منـه إذًا؟!». «أريـدُ أنْ أمدحـه». «تمدحـه؟ لمـاذا؟». «لِمـا سـمعتُ مـن بطولاتـه في الحـرب». وحَـكّ الأَسْـود ذقنـه، ولا بُـدّ أنّه فكّـر إنْ هو منعنـي أنْ يتحقّق لدَيّ الشّـكّ، وإنْ سـمَحَ لي سَـهّلَ طريق التّآمر ضِـدّه، فأرادَ منزلةً بـين المنزلتين يُبعد فيهـا الشّـكّ، ولا يسـمح للتآمـر أنْ يتمّ، فهتـف: «تزوره مـرّة واحدة، وتقـول في مدحـه قصيـدةً واحـدة». فهتفـتُ مـن فـوري: «أطـال الله بقـاءَ مـولاي». وخرجـت، فكأنّنـي خرجـتُ مـن فم الأسـد.

وبقيتُ أيّامًا في الدّار أُفكّر في ما يُمكن أنْ أصنعه مع (فاتكٍ أبي شُجاع)، فمنذُ حَمَلَ إلَيّ رسالةً من أحدِ جنوده السّرّيين الّذي تزيّا بزي أحد طلبة العلم، وسلّمها لي بجامع (عمرو بن العاص) وأنا في حيرةٍ من أمري. أعرفُ أنّ كافورًا يبغض فاتِكًا أشدّ ما يكون البغض، وأنّه يتمنّى أنْ يظفر به فيقتله، وأنّ فاتِكًا الّذي ملكَ (الرّملةَ) من قبلُ، ويملك اليوم (الفيّوم)، ومعه جيشٌ قويّ، قادِرٌ على أنْ يزحفَ باتّجاه (الفُسطاط) فيقضي على هذا الجالس على سُدّة الحكم فيها. وكان (كافورٌ) يعرفُ

هذا ويبحثُ عن وسيلةٍ للتّخلّص من هذا العدوّ الباطن، فهو لا يَدِين لدولة (الإخشيد) إلاّ في الظّاهر.

وفكّرتُ لِمَ يُريدني (فاتكٌ) إلى جانبه، وأنا مجرّد شاعرٍ من شُعراءَ كثيرين؟! هل يُريد أنْ أمدحه لذات المدح وحده؟! لا أظنّ ذلك، فهو روميٌّ لقيطٌ، تلك مشكلتي الّتي لا تنتهي؛ أنْ أعثرَ بالأعاجم والعبيد واللُّقَطاء. و(فاتكٌ) هذا أُسِرَ في إحدى معارك (الإخشيد) مع الرّوم، وصارَ حرًّا لِما رأى منه (ابنُ طُغج)، وهذا هو ذاته ما حدث مع (كافور) تمامًا، فكلاهما صنيعة الإخشيد (محمّد بن طُغج)، وهما اليوم بعدَ وفاته، وتدبّر أمر أبنائه من ورثة مُلكه، يتصارعان على هذا الكرسيّ، وقد صارا عَدُوَّين لدودَين بعدَ أنْ كانا صديقَين حميمَين!!

وإذًا؛ ماذا تريدُ منّي يا (فاتكُ) بتلك الرّسالة الغامضة؟! ليسَ لكَ إلى المدح سبيل، أغلبُ الظّن أنّك تريدُ من كلماتي أنْ تُثوّر جنود (كافورٍ) ضِدّه، وأنْ تحمسَ جنودَك معك، فأنتَ تعرفُ دور الكلمة، فهي تقاتل كما يُقاتل السّيف، وإذًا فأنتَ أيضًا تريدُ أنْ تستخدمني أداةً لكَ كما فعل من قبلكَ (كافور)، وكما فعل كلّ ملكٍ وأمير، وفي هذا الموقف يجب أنْ أبصق عليكَ وعلى (كافور) وأرفضَ طلبًا قذرًا كهذا! ولكنْ يبدو أنّني سأقبل به دون تردّد، أتعرفُ لماذا؟ لأنّني أتمنّى أنْ يثور شعبُ مصر ضِدّ كافوره اليوم قبل غدٍ، وأنْ يمزّق مُلكَه وأنا حَيّ، ليشفي صدري من هذا الأفّاق الكذّاب. ثُمّ إنّه إذا أعانني على قهر عدوّي عدوٌّ آخر، فلا ضير، فإنّ عَدوَّ عَدُوّي صديقي!!

ورحتُ أغدو وأروح إلى جامع (عمرو بن العاص) دون إذنٍ ورقيّ مكتوبٍ من العبد، غير أنّه مع هذه الحرّيّة الّتي تبدو مكتسبةً مع

أنّها حَقٌّ لي، وجامع النّفايات في الشّوارع يتمتّع بها أكثر منّي – فقد ظلّتْ جواسيسُه وعيونه لا ترفعُ عيونها عن كلّ حركةٍ آتيها أو خطوةٍ أمشيها.

وكان جامع (عمرو بن العاص) منارةً، لم أشهد مثلها في (جامع الكوفة) ولا في (جوامع حلب)، وكان مدرسةً كبيرةً حفلتْ بأهل العِلم والنُّهى والحِجى، ووجدتُ فيها راحةً من الحروب الّتي لا تنتهي، وبقي أكثر اختلافي فيها إلى أهل الفلسفة، وأتممتُ على يدِ أساتذتها ما تبقّى من كتب (الفارابيّ)، وطرفًا كبيرًا من كتب فلاسفة اليونان.

وها أنذا، أعودُ إلى شيءٍ من الهدوء، أجلسُ على شرفة داري، وهي اليوم سجني، أتأمّل نهر النّيل على ضوء المشاعل البعيدة، يحملها أهل المِلاحة، وأقول كيفَ يُمكن أنْ يقول الإنسان شيئًا، وهو في مثل هذا الحبس، وتذكّرتُ أنّ كثيرًا من الفلاسفة أَمْلَوا فلسفتهم وهم في سجونهم، وكثيرًا من الشّعراء كتبوا أحسنَ قصائدهم وهم في قيودهم، فأمّا الفلاسفة (فإبكيتيتوس) الّذي أملى كتابه (المُختصَر) على أحد تلامذته، ولمّا خرجَ كتَبَه، وأمّا الشّعراء (فعليّ بن الجَهْم) الّذي قال فيه:

قالَتْ: حُبِسْتَ؟! فَقُلْتُ: لَيْسَ بِضائِرٍ
حَبْسِي، وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغْمَدُ؟!
أَوَمَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ
كِبْرًا وَأَوْبَاشُ السِّبَاعِ تَرَدَّدُ
وَالشَّمْسُ لَوْلا أَنَّها مَحْجُوبَةٌ
عَنْ نَاظِرَيْكِ لمَا أَضَاءَ الفَرْقَدُ

وعلى أيّة حالٍ فأنا في حبسٍ أشدّ وطأةً مِمّا عانوه، غيرَ أنّ عذاباتي بسبب هذا العَبد أمَرُّ مِمّا لو كانتْ قتلاً واحِدًا لا أُعاني بعده شيئًا.

وماذا في هذه الدُّنيا غير الهمّ؟ وأيّ شيءٍ رُكِّب فيها غير الغَمّ؟ وهل خُلِقَ الإنسان إلاّ مِن كَبَد؟ ثُمّ ماذا يُريدُ بعدَ أنْ عَلِمَ، أنْ يتجاهل فيركبَ مركب الدُّنيا، فيسير به في أمواجها الطّامّة، فتقذفه في كلّ اتّجاه؟! الأمر كذلك تمامًا. وهل ينجو من الغرق أحدٌ؟! لا أحد. لو كان ينجو منه نجَا مَنْ قبلَنا، فأين هُم الآن؟ غابُوا في بحر الموت الّذي يَرِدُه كُلُّ وارِد.

وهل حَقّقَ بُغاة الدُّنيا شيئًا؟ نعم. فماذا حَقّقوا؟! غَصّةً في القلب لا تزول، وطعنةً في الصَّدْر لا تُشفَى، وإنْ ناله والطّعنةُ تهوي إليه بعضُ فتاتها، والإنسان يرى الفُتات، ولا يرى الطّعنة، لأنّ الفُتاتَ هو العاجل الّذي يذوق طَعمه تحتَ لسانه، وأمّا الطّعنة فالموت الّذي لا يعودُ منه ليقول كيفَ كان طعمُه.

وما أعطتْ إلا كدّرتْ. وما سقتْ إلاّ رَنّقتْ، وما زلنا نقول للدُّنيا مع كلّ هذا: «هَلاّ زِدْتنا كدرًا، وأوليتنا عَكَرًا!». ونحنُ فيها؟ مُتهارِشون على مُتِعها، مُتقاتِلون على لُعاعاتِها، فإذا رأينا شجرةً فينانةً يُمكن للجائع أنْ يأكل من ثمرها، وللعَطِش أنْ يُسقَى بمائِها، أو للمُتعَب أنْ يفيءَ إلى ظلّها، قطعْنا تلك الشّجرة، وأخذْنا أصلبَ عودٍ فيها فجلعناه قناةً لرُمح، ثُمّ قتلْنا بهذا الرُّمح إخوتنا وبني أبينا!!

فلمّا دارتْ هذه الأفكار في عقلي، رأيتَني أخطّ على رَقّ، هذه الأبيات:

صَحِبَ النَّـــاسُ قَبْلَنـــا ذَا الزَّمَانا
وَعَنَاهُـــمْ مِـــنْ شَـــأْنِهِ مَـــا عَنَانَا
وَتَوَلَّـــوا بِغُصَّـــةٍ كُلُّهُـــم مِنْـــ
ـــهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُـــم أَحْيَانَـــا
كُلَّـــمَا أَنْبَـــتَ الزَّمَـــانُ قَنَـــاةً
رَكَّـــبَ المَـــرْءُ في القَنَـــاةِ سِـــنَانَا

ثُمّ لِمَ يقتلُ بعضُنا بعضًا، وفي هذا الكون ما يسعُ الجميع، ولكلٍّ مَندوحةٌ من أنْ يؤذيَ أخاه؟! لأنّنا يَلَذُّ لنا أنْ ننهشَ لحمَ الآخرين، ونَلَغَ في دمائهم، والموت يتربّص ساخِرًا بنا، فإذا أتمّ كلٌّ عداوة أخيه، فغر الموتُ فاه فابتلع الجميع:

وَمُـــرَادُ النُّفُـــوسِ أَصْغَـــرُ مِنْ أَنْ
نَتَعَـــادَى فِيْـــهِ وَأَنْ نَتَفَانَـــى

وها أنذا على ما أُريدَ لي من هوانٍ، وما حُمِلْتُ عليه من ضيمٍ، آبى هذا الذّلّ، وأُواجه الموتَ دون عِرضي وكرامتي، وأقبلُ أنْ تجرّ عليّ أَنَفَتي ما تجرّه من أذى، فإنّ أعظم الأذى الرّضى بالهوان:

غَـــيْرَ أَنَّ الفَتَـــى يُلاقِـــي المَنَايَـــا
كَالِحَـــاتٍ وَلا يُلاقِـــي الهَوَانَـــا

إنّها حياةٌ واحدة، طويلةٌ أو قصيرة، عابرةٌ عبور الشّهاب اللامع في السّماء الدّاجية، وإذا كانتْ نهايةُ هذه الحياة القصيرة موتًا، فإنّه من العار أنْ يأتيك الموت وأنت في سَبِخات الذّلّ، فإنّ الموت هو الموت، وإنّه أنْ يأتيكَ رافِعًا رأسك، مُقبِلاً بصدرك خيرٌ من أنْ يأيتك وأنتَ راكعٌ ذليلٌ تستجدي الرّحمة:

وَإِذَا لَمْ يَكُـــنْ مِـــنَ المَـــوْتِ بُـــدٌّ

فَمِـــنَ العَجْـــزِ أَنْ تَمُـــوتَ جَبَانَا

وعلى هذا عقدتُ العزم أنْ ألتقي (فاتِكًا المجنون)، وأنْ أرى ما يُمكن أنْ نفعله من أجل التّخلّص من هذا العبد المأفون.

ونمتُ على هذا الرّأيّ، فلمّا أصبحتُ سمعتُ جلبةً كبيرًا وصياحًا فعرفتُ أنّه (كافور)، فإذا هو ببابي، وأنا أفركُ عيوني لم أستيقظْ بعد، ودارَ في الدّار وطاف كما فعل المرّة السّابقة، وفرضَ ظِلّه الثّقيل حتّى طعام الغَداء، وأمرّ الطّبّاخ أنْ يطبخ ما في بيتي في زاد، ولم يأتِ خَدَمُه وحَشَمُه بكسرة خُبزٍ واحدةٍ من القصر، فقلتُ في نفسي: «أهو أحمقُ أم يتحامق، أَبَخِيلٌ أم يتظاهر بالبُخل؟!».

وبَسَطَ كِرْشَه على الخِوان، ومدّ رِجلَه مِن سِمَن بطنه، وشحوم عُكنته، وطاشتْ يده في الصّحفة، فلمّا فرغ، قامَ آيِدًا يتمايل من ثِقَله حتّى كادَ يسقطُ، فنظرتُ في قدَميه فإذا فيهما شقوقٌ قبيحة. ونظر إليّ فابتسم، وابتسمتُ مداجاةً، فلمّا ولّى من عندي بعدَ أينٍ، قلتُ:

أُرِيكَ الرِّضَا لَـوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا
وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلا عَنْكَ رَاضِيا
أَمَيْنًا وَإِخْلافاً وَغَدْرًا وَخِسَّةً
وَجُبْنًا؟! أَشَخْصًا لُحتَ لِي أَمْ مَخَازِيا؟!
تَظُنُّ ابْتِسَاماتي رَجَاءً وَغِبْطَةً
وَمَا أَنَا إِلّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا
وَتُعْجِبُنِي رِجْلاكَ فِي النَّعْلِ إِنَّني
رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلادٍ بَعِيدَةٍ
لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الحِدادِ البَوَاكِيَا

ثُمّ خبأتُها. ولم أُظهِرْها لأحدٍ. فقد بدا أنّني لن أنجو منه إلاّ بأعجوبة. فلقد أصبحتُ أعيشُ في دولة البَصّاصين.

دَسَسْتُ القصيدة في الوِساد، ولم يكدْ ينشفُ حِبْرُها حتّى طرق بابي أحد حرّاس (كافور): «مولاي يطلبك». «لقد خرجَ من عندي قبل قليل». «العربة الّتي ستنقلك إليه تنتظرك على الباب». كدتُ أُجنّ، خرجتُ معه مُرغَمًا. وصلتُ وأنا ألفظُ أنفاسي وأشعر أنّني لن أعيشَ طويلاً. أشار بيده لأجلس على مبعدةٍ، ولم يقلْ شيئًا. مرّتْ لحظاتٌ بطيئةٌ ثقيلةٌ قبل أنْ يدخل ثلاثةٌ من الفُقهاء يُجرجَرون بالسّلاسل من أعناقهم، وقد جُمِعَتْ أيديهم إلى أرجلهم. هالني المنظر، لم يكنْ أيّ أميرٍ مررتُ به من قبلُ ليُهين الفُقهاء أو يُذلّهم بهذه الطّريقة، شعرتُ بالاحتقار له

والخوف منه معًا. كان أحدُهم قد قاربَ الثّمانين، والآخران قدّرتُ أنهما في السّبعين من عمرهم، كانوا لا يكادون يَقْوُون على الوقوف، حينَ أمر (كافور) أكبرهم بأنْ يعترف بما يقوله في خُطَبه. هَزّ الشّيخ رأسه ولم يقلْ حرفًا. غضب (كافور). صرخ: « أنتَ تُنكِر عليّ في خُطَبِك وتقول إنّني لستُ أهلاً للقيام بأمر الرّعيّة، وأنّ عُمّالي وأتباعي يقومون بسرقة أموال الشّعب، ونَهْبِ أموال المُسلِمين؟!». سكتَ كافور وصوتُ لهاثه وشهيقه في أذني. ردّ الشّيخ بوقار: «نعم، وهذا أيضًا ما يقوله النّاس». أمر (كافور) الحرس بأخذهم إلى الحبس حتّى ينظر في أمرهم. ثُمّ خرجَ وتركنَا وحدنا. مرّتْ ساعة. لماذا جِئتَ بي يا (كافور)؟! مرّتْ ساعةٌ أخرى. لماذا أردْتَ أنْ تُرِيَني هذا المشهد؟ أكنتَ تُخيفني؟! مرّت ساعةٌ ثالثة. لم يقلْ لي أحدٌ: ابقَ أو انصرف. تلفّتُّ حولي، لم يكنْ معي في البهو أحدٌ، جرّبتُ أنْ أقوم، وأمشي في الفراغ، فعلتُ، لم يُوقفْني أحدٌ، ولم يسألني ماذا تفعل هنا. خرجتُ من باب المجلس دون أنْ يعترضَ طريقي أحدٌ، تلفّتّ مرّة أخرى عن يميني ويساري وورائي لأرى إنْ كان هناك أحدٌ سيطلبُ منّي شيئًا. لم يكنْ في مرمى بصري بشر. خرجتُ وأنا أتخبّط في أسئلتي: ماذا كنتَ تريدُ منّي يا (كافور)؟!

عُدتُ للبيتِ كالمخبول. شعرتُ في الطّريق أنّ كلّ منْ مررتُ به هو جاسوسٌ من جواسيس العبد، تملّكَتْني الرّهبة، حينَ دخلتُ البيت ناديتُ على (مُحسّد)، جاءني، همستُ في أذنه: «اخرجْ من (الفُسطاط)، واتّجهْ شرقًا، وانتظرني أنتَ وخادمنا (مسعود) في أوّل البادية حتّى أوافيكما». «لماذا يا أبي؟!». «إنّ (كافورًا) لن يتركني أخرجُ من هنا حَيًّا، وأخافُ أنْ يفعل ذلك معك، فاخرجْ قبل أنْ يقرّر حبسكَ معي،

فأنا أحتاجُ إليك في الخارج. لكنْ لا تُخبِرْ أحدًا». «سنفعل يا أبي». «قد أوافيكم بعدَ يوم أو بعدَ أسبوع أو بعدَ أشهر. لا أدري ما سيحدثُ معي، ولكنِ ابقَ مُتحفِّزًا وانتظرْ خَبَري»أ«سنفعل يا أبي». «أمرٌ آخَر مُهِمّ» اقتربتُ منه، وووضعتُ فمي بالقرب من أذنه: «الرّماح والسّيوف الّتي في غرفة السّلاح». «ما شأنُها؟!». «خُذْها أنتَ و(مسعود)، وادفناها في الرّمال قريبًا من بَلْبِيس». «كيفَ سنخرجُ بها وهي كثيرة، سيشكّ حُرّاس أبواب المدينة في الأمر؟!». «تَنكَّرَا بزيّ تُجّار الأسلحة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٦)

الحُمّى

«إلى أين؟». «إلى الفَيّوم». «لن تخرج». «لقد سمح لي سَيِّدُك». «ما لم يكنْ لديكَ رَقّ فيه خَتْمُ مولاي فلن تخرج». انفجرتُ من الغضب، صرخت: «وهل أنا صاحبُ الخَتْم؟! اذهبْ إلى رئيس الحرس فَاسْأَلْه، لقد كان شاهِدًا على الإذن الّذي أخذتُه من كافور». ردّ بهدوء، وهو يحملقُ فِيّ، وقد أفزعتْه غضبتي: «انتظرْ حتّى أتأكّد من الأمر». لم يأتِ الإذن إلاّ بعدَ أسبوع.

وصلتُ إلى (الفَيّوم) بعدَ أنْ وصلَ إلَيّ خبرُ (مُحسّد) و(مسعود)، وأنّهما حَلاً آمِنَين في البادية، وأنّهم دفنوا الرّماح والسّيوف في الرّمال هناك. استقبلني (فاتكٌ) بموكبٍ ملكيّ، في أربعة آلافِ فرسٍ مُجَنّبة، يركبها فرسان لا تبدو من الحِلَق إلاّ عيونهم، وقد صَفّ الجَيش مُدَجَّجًا بالبِيْضِ، والقنا، والمناصل، والدّروق، والجُحُوف، والجواشن، والمجانيق، والزّرديات، والقِسِيّ، والمغافر... فهالني ما رأيتُ، ولم أكنْ من قبلُ أدري أنّ (فاتِكًا) يملك جيشًا عظيمًا كهذا.

ولّما انتهى استعراض الخيل والسّلاح، مضَينا إلى خيمةٍ، فجاءنا الطّعام والشّراب، فكان فيه العجول والغزلان المَشويّة، وفيه

من الأصناف ما لمْ أرَ عند (كافور)، فلمّا انتهينا من ذلك، قال لي (أبو شُجاع): «لقد توثَّقْتُ من عددٍ كبيرٍ من القبائل العربيّة، وسأجمعُها في الفَيّوم، وأريدُكَ أنْ تبثّ فيهم الحماسة لقتال هذا الّذي اغتصبَ السُّلطة من الإخشيد، ودبّر اغتيال أحدَ ابنَيه، وأغرقَ الثّاني في اللّهو والمُجون حتّى يَنسى مُلك أبيه. سنُشكِّلُ جيشًا لَهَامًا لَهّابًا من هذه القبائل، وسنزحفُ أنا وأنتَ به إلى الفُسطاط، ونخلع كافور، ونُحاكمه، ونُريح البلادَ والعِباد من شَرّه، ونحكم أنا وأنتَ مُناوبة». هالَني ما أسمع، وإنْ كان قلبي يرقص له طربًا، وسألتُه: «وهل وثقتَ من القبائل العربيّة؟!». «العربيّ الأصيل إذا وَعَد وَفَى، وهؤلاء الّذين لجأتُ إليهم كلّه عربٌ أقحاح وبدوٌ صِحاح». فقلتُ: «هم كذلك ما لمْ يدخلْ إليهم النّفاق والمُداجنة». «لا تقلقْ سيكون الأمر على ما تحبّ».

وهمتُ بخاطري بعيدًا؛ أأكون مَلِكَ مصر حَقًّا؟! وَلِمَ لا؟ لقد قلتُ لهذا العبد ولغيره من قبله: إنّني أحمل لسانَ شاعر وقلبَ ملك، وقلتُ له كذلك: إنّني إنْ أرجِعْ من عندك ملكًا على العراقَين فهو غيرُ كثير عَلَيّ». ثُمّ غاصَ بي الخيال أكثر فرحتُ أسأل نفسي: «وَهَبْ أنّني صِرتُ مَلِكًا حقيقيًّا، فماذا يُمكن أنْ يكون قد زادني المُلك؟! أشَرَفًا؟ فأنا به وبدونه شريفٌ عزيزٌ جليل. قِيمةً لي عند النّاس؟ ومتى كانتْ نظرة النّاسِ إلَيّ تهمّني، لقد قضيتُ حياتي وأنا أتعالى على سخافاتهم، وأتمرّد على حماقاتهم، ولا أعدّ نفسي واحِدًا منهم، فلماذا سأبحثُ عن قيمتي في عيونهم؟! ثُمّ ها أنذا مَلِكٌ مُتوَّج، فإلامَ أسعى؟ أَإلَى الخلافة؟ فإنّها مُمَزَّقةٌ في البلاد شرّ مُمزّق! وإنّ مَنْ هو أفرسُ منّي وأعلم منّي بالحروب سيفُ الدّولة قد صارِ مَلِكًا وسعى إلى الخلافة، ولكنّ الرّوم هارَشوا

رأسه، والعربُ بقروا بطنه، والتّركُ بتروا رجلَيه، والإخشيد كاد يهدم كِفله، وها أنذا أراه إلى اليوم ما حَقّقَ له المُلكُ ما سَعى إليه، بل كانَ وبالاً وخيمًا عليه! ثُمّ هَبْني صرتُ مَلِكًا مُطاعًا في الأدنَين منّي، فلا آمَنُ شغَبَ مَنْ نامتْ عنهم عيوني، إنّ الملك يجبُ أنْ يفتحَ ستّين عينًا على سِتّين جِهةً حتّى يستقرّ مُلكه، وكيفَ يُمكن أنْ يستقرّ مُلكه وعينُه لا تستقرّ؟! وها هو كافورٌ نفسُه، يُدير عيونه السّتّين ويبثّ الجواسيس في كلّ دربٍ وكلّ زُقاق، حتّى صارتْ دولتُه هي دولةَ البَصّاصين، ومع ذلك مَنْ قال إنّ ملكه قد استقرّ وإنّه هانِئٌ به، لو كان كذلك، ما خافَ من شاعرٍ فردٍ ليسَ معه أحد، فراح يزروه في كلّ يومٍ ويبعثَ خلفَه العيون تلو العيون حتّى لا يأتيه الخوفُ من جهته....؟! أَبَعْدَ هذا كُلّه أسعى إلى مُلكٍ كهذا؟ أيّ مُلكٍ هذا الّذي يبدو أنّكَ تملك فيه كلّ شيءٍ، وفي الحقيقة أنتَ عبدٌ فيه لكلّ شيءٍ؟! يَستعبِدُكَ الخوف، ويَسترِقُّكَ القَلَق، وإذا سددَتْ ثغرةً تسلّل منها إليك غادِرٌ، انفتحتْ عليكَ ثغُورٌ كثيرة، وصرتَ تُرسل هذه الكتيبة لإخمادِ تلك الثّورة الّتي جاءتْ من تلك الثّغرة، وترسل كتيبةً أخرى لإخمادِ ثورةٍ من ثغرةٍ ثانية، وتقضي حياتك في الدَّوْسِ على الأفاعي الّتي تتسلّل إليك من كلّ جهة، وتقتحم عليكَ راحتَكَ في قصرِكَ المُنيف من كلّ صوبٍ. أيُّ مُلْكٍ هذا؟! إنّه أنْ أكون شاعِرًا حُرًّا أنتقدُ الملوك من على صهوة حروفي خيرٌ لي ألفَ مرّة من أنْ أجلس على كرسيّ أحاول إطفاء النّيران الّتي راحتْ تأكل ثوبي من أطرافي وأنا أنظر إليها ولا أستطيع أنْ أفعل شيئًا!!

وأيقظني (فاتِكٌ) من تخيّلاتي، وهتف: «الشّرابَ يا أبا الطّيّب». «إنّني لا أشربُ يا سيّدي». «فليأتِكَ الخدم بما شِئت». وشربتُ على ذِكر

الحبيب، فأقامني بهذه الذّكرى على الصّليب. ثُمّ ودّعتُ (فاتِكًا)، على أنْ ألقاه ضُحَى الغدِ.

واستبطأ (كافورٌ) مقامي في (الفيّوم)، وأرسلَ مَنْ يسأل عنّي، ويُخبرني أنّه مُشتاقٌ إليّ. ونمتُ تلك اللّيلة كأنّني أنام على سريرٍ من حلم، وللحُلم جناحان، جناحٌ من نور وجناحٌ من نار.

ولم تكنْ ليلتي تلك في (الفَيُّوم) وعلى مشارفها هانِئة من جهتين، الأولى هذا الّذي سمعتُ في النّهار من (فاتك)، وهو جنون، وجديرٌ بصاحب الفكرة أنْ يُدعَى (المجنون)، والثّانية أنّ اللّيل كان طويل الهَمّ وفي الجوّ رائحةٌ غريبة، كثيرَ الذّباب والبعوض، قليلَ النّظافة، وشعرتُ بأنّني أكادُ أختنق.

فلمّا مرّ على ذلك بضعة أيّام، فأتيتُ (فاتكًا)، فاستعرضَ من أجلِيَ الجيش، وحملني على مركبٍ مُذهّب، وضربَ خيمةً كبيرةً، فلمّا دخلتُها، بدأتُه بقولي:

لا خَيْلَ عِنْـــدَكَ تُهْدِيهـــا وَلا مَالُ
فَلْيُسْـــعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْـــعِدِ الحَالُ
وَاجْزِ الأَمِـــيْرَ الَّذِي نُعْـــمَاهُ فَاجِئَةٌ
بِغَيْرِ قَـــوْلٍ، وَنُعْمَى النَّـــاسِ أَقْوَالُ

فَهَشّ وبَشّ، وما جِئتُكَ يا (فاتكُ) طامِعًا، فقد غسلتُ من الدُّنيا يَدَيّ ولكنّني جِئتُ مُبتهِلاً، وقد أحببتُ فيكَ هذه الرّوح التّوّاقة:

وَمَا شَـــكَرْتُ لِأَنَّ المَـــالَ فَرَّحَنِي
سِـــيَّانِ عِنْـــدِيَ إِكْثَـــارٌ وَإِقْلالُ

ثُمّ رحتُ أحثّ على الثّورة فبدأتُ به، وعَرّضْتُ بالعبد الأسود أمير مملكة البَصّاصين، فقلت:

لا يُـــدْرِكُ المَجْـــدَ إِلاَّ سَـــيِّدٌ فَطِنٌ
لِمَا يَشُـــقُّ عَـــلى السَّـــاداتِ فَعَّالُ
لا وَارِثٌ جَهِلَتْ يُمْنـــاهُ مَا وَهَبَتْ
وَلا كَسُـــوبٌ بِغَيْرِ السَّـــيْفِ سَئَّالُ

ولقد أشرتُ، وما تدري إذا تنفعُ إشارتي إلى أنّ الحَقّ لا بُدّ له من قُوّة، وأنّ القوّة لا بُدّ لها من رجال، وأنّني أرى في رجال (فاتكٍ) آخِرَ ما تبقّى لي من أملٍ في هذه الدّيار، الدّيار الّتي إذا ما فشلتْ فيها ثورة المجنون، فإنّني منذُ اليوم أُعِدّ للهربّ منها العُدّة، وإنّ العبدَ الأسود ليلتفّ حبلُه حول عنقي رويدًا رويدًا، وها أنذا أحسّ بخشونة الحبل قد جرحتْ لَبَّة هذا العنق، وأنّ عُقدته تمضي في إحكامها.

وهتفـتُ وأنا أستنقذُ نفسي مـن تساؤلاتي، أرى في (فاتكٍ) ما لا أراه في سِـواه، ولا أدري إنْ كان مبعـثُ ذلـك مـوتَ الملـك المِثـال الّـذي رَسـمْتُه في خيـالي، غـير أنّنـي هتفـتُ وأنـا أراه ذلك المِثـال، بل نُسـخةً فريـدةً منه:

كَفَاتِـــكٍ وَدُخُولُ الـــكَافِ مَنْقَصَةٌ
كَالشَّـمْسِ قُلْتُ، وَمَا لِلشَّـمْسِ أَمْثَالُ

القَائِـــدِ الأُسْـــدَ غَذَّتْهـــا بَرَاثِنُـــهُ
بِمِثْلِهـــا مِنْ عِـــداهُ وَهْيَ أَشْـــبَالُ
القَاتِلِ السَّيْفَ فِي جِسْـــمِ القَتِيلِ بِهِ
وَلِلسُّـــيُوفِ كَـــمَا لِلنَّـــاسِ آجَالُ

ومضيتُ على ذلك، وما أدري إنْ كنتُ مدحتُ (فاتِكًا) المُعين

على الثّورة، أم مدحتُ فاتِكًا المِثال، أمْ أنّني لم أمدح (فاتِكًا) هذا ولا (فاتِكًا) ذاك، بل مدحتُ نفسي، فلمّا قفلتُ القصيدة قائِلاً:

ذِكْـــرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّـــانِي وَحَاجَتُهُ
مَا قَاتَـــهُ وَفُضُولُ العَيْشِ أَشْـــغَالُ

وَهَبَنِي ألفَ دينارٍ ذهبًا، وأقمتُ أسبوعًا آخر في رِحابه، و(كافور) يبعثُ الرّسل تلو الرّسل لكي أعود، فخفتُ أنْ أوغر صدره بإبطائي عنه، فيغضبَ أو يرسل أحدًا بمصيبةٍ إليّ، فعزمتُ على العودة.

فلمّا ضوّأ الصُّبح، شددتُ الرّحال، فقلتُ أمرّ بالميادين أودّع (فاتِكًا) وفرسانه، فبينما أنا على فرسي في أحد تلك الميادين، دارتْ بي الأرض ومادت، وغامت، ثُمّ سقطتُ على الأرض مَغشيًّا عليّ، فهُرِعَ إليّ الجنود، وحملوني إلى خيمة الطّبيب. فقاسَ النّبض والحرارة، ثُمّ هتف: «محموم». وسألتُه وأنا أشعرُ بالغَلَيان في رأسي: «محموم؟! ما الّذي جَلَبَ إلَيّ الحُمّى». «إنّ هواء هذه الأرض مُنتِن، ولم يكنْ كذلك أوّل ما دخلْنا إليها، ولا أدري ما حصل فيها، ربّما هو قطيعٌ من الأبقار نفقتْ بسبب قلّة المياه ولم تُدفَن، بل رُميت في التّرع الطّينيّة، فلمّا تحلّلتْ لوّثتْ

هذا الهواء، وربّما الجِيَفُ الأُخرى من الكلاب والضّباع والثّعالب الّتي تنفق، وربّما الماء الّذي يجد فيه البعوض مرتعًا، ويشرب منه النّاس دون أيّ اكتراثٍ لما فيه من مُسبّبات للأمراض... ربّما هذا و غيرُه هو سبب ما أصابَكَ يا سيّدي». وبقيتُ صامِتًا مُنهار القُوى، مُرتخي العَضلات لا أستطيع القيام، وسمعتُ الطبيب، يُردف: «ولستَ وحدَكَ يا سيّدي مَنْ أُصيب بهذا، فهناك مِئاتٌ من الجُندِ هنا قد أصيبوا به، وأرى الأعداد تزداد كلّ يومٍ، وأخشى أنْ يكون...». وصمتَ دون أنْ يُكمِل، وانتظرتُ أنْ يُنهي جُملته، فأردف: «أخشى أنْ يكون طاعونًا». ثُمّ إنّه طلبَ من مُساعديه أنْ يسقوني بعضَ الأدوية، وأنْ يستمرّوا في بَلِّ الخِرَق بالماء البارد، ووَضْعِها على جبهتي.

لم تخفّ حرارتي، ولا بَردَ لهيبُ النّار في جسدي، أخبرتُ الجنود أنْ يحملوني على محفّة، ويُعيدوني إلى (الفُسطاط) في خفارةِ الحرس، فما عُدتُ آمَنُ بطشَ الأَسْود. وبالفعل حُمِلتُ جُثّة تكادُ تكون هامِدةً إلى (الفُسطاط)، فلمّا دخلتُها بعثوا بي إلى الدّار، وبعثوا بالخبر إلى (كافور)، فأُلقيتُ في الدّار وأنا لا أكادُ أرى من شِدّة ما أنا فيه، ووُكِّل الحارس الّذي على الباب بمنع أحدٍ من الدّخول أو الخُروج. وبقيتُ وحدي في الدّار، فلم يَزُرْني العبدُ في مَرضي، ولا بعثَ لي طبيبًا. ولقد أشفيتُ من الحُمّى على الموت، وكنتُ أراه في كلّ لحظة، يخرجُ من شقوق الجدران، وفي هواء الغرفة، واستوى عندي اللّيل والنّهار، فلا النّهار جلبَ لي الإبلال من حُمّاي، ولا اللّيل منحني بعضَ الرّاحة والهدوء، وبقيتُ أتأرجحُ بين الموت والحياة أكثر من عشرة أيّام.

ثُمّ جاءني في اليوم السّابع من هذه الأيّام خبرُ موت (فاتك)، فزادَ ذلك إلى الحُمّى حُمّى جديدة، ومات بموته الأمل الّذي كنتُ أعرفُ أنَّ بيني وبينَه حربًا عَوانًا، وأنّني سأقضي دون أنْ أرى قليلاً من الفرح في نهاية كؤوس الأحزان. ورحتُ أبتدِئ كتابة قصيدةٍ أرثي فيها فاتِكًا وأرثي الحلم الّذي تُقْنا إليه معًا، وأرثي نفسي، فقلتُ:

الحُــــزْنُ يُقْلِــقُ وَالتَّجَمُّـــلُ يَرْدَعُ
وَالدَّمْـــعُ بَيْنَهُـــما عَـــصِيٌّ طَيِّـــعُ
يَتَنازَعـــانِ دُمُـــوعَ عَيْنِ مُسَـــهَّدٍ
هَـــذا يَجِـــيْءُ بِهَـــا وَهَـــذَا يَرْجِعُ
النَّـــوْمُ بَعْـــدَ أَبِي شُـــجَاعٍ نافِـــرٌ
وَاللَّيْلُ مُعْـــيٍ وَالكَوَاكِـــبُ ظُلَّعُ

ثُمّ ألجأتْني الحُمّى الشّديدة إلى الصّمْت. فتركْتُها لا أبيات فيها سِوى هذه الثّلاثة في مطلعها.

وها أنذا في فراشي مثلُ الأجرب، ليسَ لديّ إلا خَدَمٌ موكّلون بمُراقبتي كي لا أهرب، لا من أجل رعاية صِحّتي، وأمّا ابني (مُحَسّد) وخادمي (مسعود)، فقد خرَجا من الفُسطاط كما أمرتُهما، وأقامَا في بيداء (مصر) ينتظران قُدومي، وكيفَ يكونُ القُدوم عليهما، وأنا في هذه الحالة الّتي هي أقربُ إلى الموت والعجز؟!

ها أنذا طريح الفراش موهون القُوى، ضعيف المُنّة، يتراقص الموت في مدى رؤيتي، لا أكادُ أقدر على القِيام من أجل قضاء حاجتي، فما الّذي أقعدني هكذا، وقد كنتُ لا أتركُ موماةً إلاّ جُبتُها، ولا ماءً إلاّ وردتُه، ولا معركةً إلاّ خُضتُها؟!

والطّبيبُ الّذي وصفَ لي الدّواء قال إنّ داءَكَ في طَعامِك، أنا قليلُ الطّعام أيّها الحكيم، إذا كنتَ تعرفني جيّدًا فستُدرِك أنّ دائي هو هذا القُعود بسبب هذه الحُمّى اللّعينة الّتي أثقلَتْ جسدي، وأتخمَتْ رُوحي.

أَقَمْتُ بِــأَرْضِ مِصْرَ فَــلا وَرَائِي
تَخُــبُّ بِيَ المَطِــيُّ وَلا أَمَامِــي
وَمَلَّنِــيَ الفِــرَاشُ وَكانَ جَنْبِــي
يَمَــلُّ لِقَــاءَهُ فِي كُلِّ عَــامِ
قَلِيْــلٌ عَائِــدِي سَــقِمٌ فُــؤَادِي
كَثِــيرٌ حاسِــدي صَعْــبٌ مَرامي

لم أرَ وجه (كافور) طَوال هذه الحُمّى، إنّ غيابَ وجهه الثّقيل أمرٌ حَسَن، غيرَ أنّه لو كان عاقِلاً، لبعثَ مَنْ يَعُودُني من أجلِ أنْ يُريَني ولو كذبًا أنّه يريدُ بي خيرًا لا شَرًّا، أما وقد حَدَثَ ما حَدَث فلم أعدْ أكترثُ لصداقة صديق، ولا لعداوة عدوّ، ولم يعدْ يهمّني، أطال عمري قرنًا، أمْ حانَ أجلي فورًا؟ فإنّ كثير حياتي اليوم كقليلها زائلٌ لا محالة.

ثُم جاءَتْني بعضُ الرّاحة مع بعضِ النّسيم القادم من النّيل، فقلتُ إنّ الحُمّى تريدُ أنْ ترحل، وإنّه موعدُ بدايتي مع الصّحّة، فلمّا أتى اللّيل، لبستِ الحُمّى أوقى دروعها، وحملتْ أعتى أسلحتها، فهبطتْ ساحتي، فطعنَتْني كلّ مطعن، وضربَتْني في كلّ مَوضِع، وأنشبتْ جحيمها في حلقي فكان لا يُسيغ الرّيق حتّى اختنقْتُ، وصار الموتُ أمنية، فلمّا طعنتْ وأصمتْ وفتكتْ وأكلتْ وشربَتْ من دمي، قامتْ عنّي وهي تتوعّدني بالمزيد في اللّيلة القادمة، ونظرتُ إلى جسمي فإذا العرَقُ يسيل من كلّ أنملةٍ، وإذا أنا أسبحُ في مائه وأغرق:

وَزائِــرَتِي كَأَنَّ بِهَــا حَيَــاءً
فَلَيْــسَ تَــزُورُ إِلّا فِي الظَّــلامِ
بَذَلْــتُ لَهَا المَطَــارِفَ وَالحَشَــايَا
فَعَافَتْهــا وَبَاتَــتْ فِي عِظَامــي
يَضِيْقُ الجِلْــدُ عَن نَفَــسِي وَعَنْها
فَتُوسِــعُهُ بِأَنْــواعِ السَّــقَامِ
إِذَا مَــا فارَقَتْنِــي غَسَّــلَتْني
كَأَنَّــا عَاكِفَــانِ عَــلَى حَــرَامِ

ثُمّ ماذا؟! لا طعنةَ تقتلُ فتريح، ولا ضربةَ تُصيب فتسكن، ولا أنا هنا ولا هناك، أموتُ بين حلمٍ وأُمنية، وأقضي بين ذكرى وفِكرة.

(٧)

كُلُّ الَّذي فَوقَ التُّرَابِ تُرَابُ

مات (فاتك) فماذا ظلّ؟! بقي الخوف و(كافورٌ) وهذا الهواء المحبوسُ في صدري. كان من الممُكن أنْ يكون المَنْعِيُّ (كافورًا)، ولكنّه يتأبّى على كلّ موت، ويُفلِت من كلّ ثورة، ويُصِمّ أُذُنَيه عن كلّ صوتٍ يقول له: «لم تعدْ هذه الحياةُ لِتُطاق، إنّ زبانيتَك يزيدون في المكوس، ويُبالِغون في الضّرائب، ويُغلوُن في الأسعار، وينهبون كلّ شيءٍ. انظرْ إلى الوزراء ستجدُ خزائنهم تفيضُ بأموال الشّعب، انظرْ إلى قُضاتِك، ستجد أوراقهم تضجّ بأحكام القتل والحَبْس على النّاس البُسَطاء مِمّن زَيّنوا لك أنّهم يثورون ضِدّك، وما ثاروا إلاّ ضِدّ الفقر والبُؤس. انظرْ إلى الشّعب نفسِه ستجدُ كلّ مذبوحٍ يلعقُ دماءَه ولا يستطيع السّير، فينتظر رحمة الموت أنْ تنزل عليه من السّماء اليوم قبلَ غَدٍ».

وماذا تبقّى منّي أو تبقّى لي؟! ها هي آمالي كلّها تتضاءل وتضمحلّ، وكلّ يومٍ يمضي عَلَيّ في (مصر) أفقدُ فيه شيئًا منّي، كرامتي، ماء وجهي، حُرّيّتي، أملي، سيفي، جوادي، و... روحي!!

لقدْ ذهبَ الفتى الّذي كان يجوب الفَلَوات يتحدّى الجنّ، لقد ماتَ الفتى الّذي كان يأنفُ أنْ يقول قصيدةَ شكوى أو تعتُّب، فصار هو نفسُه الشّكوى والتّعتّب، لقد رحل الفتى الّذي كانت الدُّنيا تُوسِعه

شَمًّا وضَمّا، وتفتح له ذارعَيها، وجاء الكهل الّذي تدوسه النّكبات بكلّ خفّ، وتعلوه بكلّ مَنسِم!!

والآن؟! ها أنذا أسقطُ في تِيْه الغربة وحيدًا، ماتتْ جدّتي فماتَ جزءٌ منّي بموتها، وماتت زوجتي فماتَ جزءٌ آخر، وكذبَ سيفُ الدّولة وعده بشأنِ (خولة) فماتَ كلّ شيء! أنا هنا لا رفيقَ، لا صاحبةَ، لا ولدَ، ولا حبيبةَ، ولا قصيدةَ تعرفني، حتّى حروفي صارتْ تُنكِرني.

لقد خرجتُ من (بغداد) قبل ثلاثين عامًا عندما سمعتُ أنّ أعجميًّا قادَ النّاس، وتربّع على العَرْشِ وقد وضع تاجَ الذّهب على مفرِقه مُرصَّعا بالجواهر واليواقيت، ونظر حوله فازدرى العرب وازدرى كلّ شيءٍ، وقال بصلفِ جَبّار وغرورِ طاغية: «أنا أردّ دولة العَجَم، وأُبطِل دولة العرب». ولقد وقفتُ وأنا ابن السابعة عشرة يومَها، وصرختُ فيه وفي دولته بأركانها مُجتمعةً:

سَـــيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
وَيَنْجَلي خَبَرِي عَـــنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ
قَدْ كَلَّمَتْهَـــا العَوَالِي فَهْـــيَ كَالِحَةٌ
كَأَنَّما الصَّـــابُ مَعْصُوبٌ عَلَى اللُّجُمِ
بِكُلِّ مُنْصَلِـــتٍ مَـــا زَالَ مُنْتَظِري
حَتَّـــى أَدَلْتُ لَهُ مِـــنْ (دَولَةِ الخَدَمِ)

واليوم ها أنذا - شاءتْ هِمّتي أم أبتْ، بلغَ بي مطلبي أمْ قَصّر - أعيشُ في دولة الخدم الّتي ثُرتُ ضِدّها، كأنّ ثلاثين عامًا من حياتي ذهبتْ هدرًا وهباءً!!

والله ما جِئتُ لأمدح (كافورًا)، ومَنْ يمدح مَنْ صرفتُ حياتي للثّورةِ عليهم؟! إنّما أغراني حُلُمٌ لا زال يُغريني، ولا زال يُورِدُني الهَلُكات، وقد هجوتُه من أوّل يومٍ رأيتُ فيه وجهه النَّحِس، وما كان مدحي إلاّ هِجَاءً، غيرَ أنّ ذلك يخفى على العالِمِ البصير، وأنّى لي به!!

واليومَ ها أنذا سجينُ هذه الدار الفارهة، وحبيسُ هذه الحدائق الغنّاء، وأسيرُ هذه الطُّغمة الفاسدة، ورهينُ هؤلاء الفَسَدة الفَسَقة القَتَلة المأجورين، وها هو (كافورٌ) يزيدُ البَصَّاصين الّذين تلاحقني عُيُونهم، ويبعث الجواسيس تلو الجواسيس يُحصون عَلَيّ حركاتي، ويَعُدُّون عَلَيّ أنفاسي. وماذا تريدُ منّي بعدَ ذلك كلّه يا (كافور)؟! اشبَعْ بِمُلْكٍ عمّا قريبٍ سينتهي، واملأ بطنكَ من التّراب فإنّه أولى بك، ودَعْني أغادرْ هذه المحلّة الموبوءة، وهذه الدّيارَ المَلْعُونة. دَعْني أرحلْ وخُذْ كلّ مالي، دَعْني أُنكّب (الفُسطاط) خلفي وخُذْ كلّ ما أملك. غير أنّكَ لن تتركني حتّى تشفي غليلكَ من إذلالي، وما تريدُ مالي بل تريدُ كرامتي، ولكنّكَ لا تعلم ولا تتعلّم، لقد كانتْ كرامتي أغلى من حياتي، ودونها حَدُّ الظُّبات.

لم أعدْ أملك الإذن بالخروج من البيت، ولا حتّى بالذّهاب إلى جامع (عمرو بن العاص)، فإنْ كان ما يزال يا (كافور) في كِنانِتك سهمٌ جديدٌ ترميني به أيّها العبْد فافعلْ، اقتلْني وأرِحْ نفسكَ منّي وأرِحْني منك، فإنّني قد مللتُ كُلّ شيء!!

ومع أنّني حُبِسْتُ في داري ومُنِعت، إلاّ أنّ قصائدي كانت حديث النّاس في المجالس والمساجد وحلقات الدَّرْس، بل كانتْ حديثَ النّاس في الأسواق، يستشهدون بها، ويتندّرون على ما فَهِموه

منها (بكافور)، ولمّا بلَغَ ذلك (كافورًا)، وكان قد جعل على كلّ نَفْسٍ نَفْسًا تُراقبها عَزَم على ألاّ يُفلتني مهما كلّفه ذلك من ثمن، وعَقَدَ النِّيَّة على قتلي، فقد جعلتْ قصائدي منه أضحوكةً تمضغُها الأفواه، ونادرةً تَلوكُها الألسُن.

وبعثَ إلَيّ (كافور) يطلبُ منّي أنْ أمدحه؟ ولَعَمْري كيفَ يُفكّر هذا العَبْد، أكان يطلب مَدحه بعدَ أنْ هَجوتُه؟! إنّ آلاف القصائد في مدحه لتذوب أمام بيتٍ واحدٍ في هِجائه أو في التّعريضِ به، ولكنّه عقل المُغَفّل الّذي أرادَ أنْ يمحو الصّورة السّاخرة الّتي رَسَمْتُها له فيما مضى من قصائد، فظَنّ أنّ مِدحةً قد تفي بهذا الغرض، فطلَبَها منّي. ولقد شعرتُ أنّ حرفًا أكتُبُه فيه أَشَقُّ عَلَيّ من أنْ أنقضَ الجبال حجرًا حجرًا وأنقلها من (الفُسطاط) إلى الصّعيد، ولكنّني قلتُ في نفسي: «أفعل ما كُنتُ أفعله فيما مضَى، أهجوه في مدح، وأمدحه في هجاء، فيظلّ من فَهْم مرادي في حيرةٍ وريبةٍ حتّى يتصّدع لهما رأسُه». وقلتُ: «أتّخذ من هذا المديح نقبًا أحفرُ فيه كُوّةً في هذا الجدار الشّاهق المُحكَم الّذي ضَرَبه حولي، فأنفذ من ذلك النّقب إلى ما عَقَدْتُ النّيّة عليه؛ وهو الهَرب!».

واستجبْتُ راغِمًا لرغبة (كافور)، فدبّجْتُ له القصيدة الّتي أوّلها:

مُنًى كُـــنَّ لِي أَنَّ البَيَـــاضَ خِضَابُ
فَيَخْفَـــى بِتَبْيِيضِ القُرُونِ شَـــبَابُ
لَيَـــالِيَ عِنْـــدَ البِيْضِ فَـــوْدَايَ فِتنَةٌ
وَفَخْـــرٌ وَذَاكَ الفَخْـــرُ عِنْدِيَ عَابُ

ولقد نعيتُ في هذا المطلع الشّبابَ كُلّه، وأسِفْتُ على ما فاتَ من عمري، وما ضاع في هذه البلادِ الأسفَ كُلّه، وإنّني ما أقمتُ في بلدٍ إلاّ على غاية الرّحيل عنه، فلا وطنَ لي غيرُ ما في رأسي، ولا يعلمُ ما في رأسي غيرُ الله:

غَنِيٌّ عَــنِ الأَوْطانِ لا يَسْــتَفِزُّنِي

إِلى بَلَــدٍ ســافَرْتُ عَنْــهُ إِيــابُ

وأعرفُ أنّني إذا رحلتُ فوحدي، ووحدي سوفَ أواجه الموتَ في التّيه عَطَشًا، ولكنّ الإبل المُدرّبة على هذا العطش ستموت ولن أموت، لأنّ الإبل أخذتْ من صحرائها الّتي تعيشُ فيها صبرَها على الظَّمَأ، وأما أنا فأخذتُ من كلّ صحراء قطعْتُها صبري على الظَّمأ فأنا كلّ إبل الله في كلّ بلادِ الله:

وَأَصْدَى فَلا أُبْــدِي إِلَى المَاءِ حَاجَةً

وَلِلشَّــمْسِ فَوْقَ اليَعْمُلاتِ لُعَابُ

وكيفَ يعرفُ النّاس أنّي ما طُفتُ هذه المَهامِهَ من أجل الماء، ولا ركضتُ نُوقي في هذه المجاهل من أجل النُّغَب، ولا سَيّرْتُ هذه الرّكائب من أجل العَرَض؛ بل كان ذلك من أجلي، من أجل القنا والرّماح الّتي تُنبِئ عن فروسيّتي، ومن أجل القراطيس والأقلام الّتي تُنبِئ عن ثقافتي، وتُخبِر عن عظمة عقلي:

تَرَكْنا لِأَطْــرافِ القَنَا كُلَّ شَــهْوَةٍ

فَلَيْــسَ لَنَــا إِلّا بِهِــنَّ لِعَــابُ

نُصَرِّفُــهُ لِلطَّعْــنِ فَوْقَ حَــوَادِرٍ
قَدِ انْقَصَفَــتْ فيهِنَّ مِنْــهُ كِعابُ
أَعَزُّ مَــكَانٍ فِي الدُّنا سَرْجُ سَــابِحٍ
وَخَيْرُ جَلِيــسٍ فِي الزَّمَــانِ كِتابُ

وهل يفهم أهل الأدب عِوضَ صاحب هذا القفا العريض أنّني ما أحبَبْتُه يومًا، ولا سعيتُ من أجله لحظة، لا هو ولا كلّ الملوك، وإنّه ليبلوني ويبلوهم قولي:

أَرَى لِي بِقُــرْبِي مِنْكَ عَيْنًــا قَرِيرَةً
وَإِنْ كانَ قُرْبًــا بِالبِعَــادِ يُشَــابُ
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَــعَ الحُجْبُ بَيْنَنا
وَدُونَ الَّذِي أَمَّلْــتُ مِنْكَ حِجَابُ

ولم يكنْ في الحقيقة حجابًا واحِدًا، كان حُجُبًا كثيرة، وأستارًا عديدة، فقد كان الفهم حجابًا، وكان البين في الغاية حجابًا، وكان لقاءُ الأُسُودِ بالضّباع حجابًا، وكان من جسدي على روحي حجابًا.

وَمــا أَنَا بِالبَاغِي عَلَى الحُبِّ رِشْــوَةً
ضَعِيفُ هَــوًى يُبْغَى عَلَيْــهِ ثَوَابُ

فما الّذي أردْتُه إذًا؟ أردتُ أنْ أكذبَه، وأكذبَ التّاريخ، وأكذبَ الحقيقة، وأكذبَ النّاس، وأكذب نفسي... ومن أجل ماذا؟ من أجل أنْ أستعيد حُرّيتي، أو ما تبقّى منها، وعليه، فإنّ ما قلتُه لن يكونَ إلاّ طبقةً جديدةً في هذا الكذب المُتواصِل القاتل لي قبل أنْ يقتل أيّ أحدٍ:

وَمَـــا شِـــئْتُ إِلّا أَنْ أَدُلَّ عَـــوَاذِلِي
عَـــلى أَنَّ رَأْيِي في هَـــواكَ صَوَابُ
وَأُعْلِمَ قَوْمًـــا خَالَفُـــونِي فَشَرَّقُوا
وَغَرَّبْـــتُ أَنِّي قَدْ ظَفِـــرْتُ وَخَابُوا
وَإِنَّ مَدِيـــحَ النَّاسِ حَـــقٌّ وَباطِلٌ
وَمَدْحُكَ حَـــقٌّ لَيسَ فِيـــهِ كِذابُ

وسقطتُ؟ نعم سقطتُ. سقطتُ لأقوم. ولكنّني لا أدري، ولا يدري غيرُ الله إنْ كنتُ سأقومُ بعدها، أمْ أنّني سأواصل السُّقوط إلى غيرِ قَرار!

وسُرَّ (كافور) بالقصيدة، أو هو أظهر ذلك. فإنّ له عقلاً يُنجيه حينًا، ويُهلِكه أحيانًا! وأطمعني سُرورُه، أنْ أطلبَ منه صراحةً طلبًا هو محاولةٌ أولى في الهروب، أو قُلْ هو جَسُّ النّبْضِ لِما سيُسفِر عنه، فكتبتُ له بعدَها: «أيُّها الملك المُفَدَّى إنْ قليلَ عطائِكَ عندي كثير، وإنّ يسير إجابتِكَ دعواي وفير، وإنّني أستأذِنُكَ أنْ أسيرَ إلى (الرّملة) لأُنجِز بها مالاً، وأقضي بها بعضَ شؤوني وأعود. والسّلام». فرَدّ من فوره دون أنْ يتلكّا مُبَطِّنًا خُبثَه بجليل خِدمتي: «لا والله. أطال اللهُ بقاءك. لا نُكلّفكَ المسير، ولا نُجشّمك التّعب، ولكنْ نُنفِذُ رسولاً يأتيك به ويقضي حاجتك». ومتى كان الأَسْودُ يقول لأحدٍ: «أطال الله بقاءَك»؟ وإذًا فكلّ مِنّا يعرفُ ما يُبيّته تُجاه الآخر، وحَكَمَنا الخوفُ معًا، فبات كلُّ منا شَقِيٌّ بصاحِبه.

فلمّا كان من (كافور) ما كان، بدأتُ أخطّط للرّحيل بطريقةٍ مُغايرة، وكنتُ أجلِسُ إلى نفسي أفعل ذلك سِرًّا، لا يطّلع على ما يدور فيها أحدٌ ألبَتّة! وكتبتُ إليه وفي روحي منه ما فيها من سُخريةٍ به، وهُزءٍ بما ألجأتْني إليه الأقدار:

أَتَحْلِـــفُ لا تُكَلِّفُنِـــي مَسِـــيْرًا
إِلَى بَلَـــدٍ أُحَـــاوِلُ فِيـــهِ مَـــالا
وَأَنْـــتَ مُكَلِّفِـــي أَنْبَـــى مَكَانًـــا
وَأَبْعَـــدَ شُـــقَّةً وَأَشَـــدَّ حَـــالا
إِذَا سِرْنَـــا عَـــلى الفُسْـــطَاطِ يَوْمًا
فَلَقِّنِّـــي الفَـــوَارِسَ وَالرِّجَـــالا
لِتَعْلَـــمَ قَدْرَ مَـــنْ فارَقـــتَ مِنِّي
وَأَنَّـــكَ رُمْـــتَ مِنْ ضَيْمِـــي مُحَالا

(٨)

الهُرُوبُ الكَبِير

وبقيتُ شهرَين أتدبّرُ أمر الرّحيل. أبعثُ برسائل اطمِئنان إلى (كافور): «أنا خادِمَك المُطيع. إنّ بقائي عندكَ ألذّ لي من الرّحيل عنك. وماذا سأجدُ عندَ الملوك مِمّا لم أجِدْه عندك، وفاءَ جِبِلّة، وطيبَ محتِدٍ، ونسبًا في العالَمِين مُعرِقًا، ولسانًا دافِئًا، ونَعِيمَ حياة». ولم يكنْ أحدٌ من الحَرَسِ المُوكّلين بي يعرفُ من نَيّتي شيئًا. وعَمّيتُها حتّى على نَفْسِي، فرُحتُ منها على خوفٍ ورجاء، وكُرْهٍ وَطَمَع.

ثُمّ وَقّتُّ لحظة الهرب، إنّها ليلة النّحر في عيد الأضحى من عام ٣٥٠ هـ، ففيها ينشغل العَبْد بأُعطيات الجُند، وتقسيم الأموال، وتوزيع الهِبات والهدايا، يكتبُ لكلّ مُوالٍ نصيبًا، يزيدُ فيمن يريدُ شِراء ولائه، ويُنقِص مِمّن لا يرجو عنده أكثرَ من سُكُوتِه، وينثر الذّهبَ والفِضّة تحتَ أقدام قادة جيشِه، وشعبُه يرزح تحتَ وطأة الفقر والظُّلم. وأمّا أولئك الّذين تفوقُ قُدراتهم قُدْرتَه، فأهونُ ما يفعله بهم هو القَتْل، يقتل بالسُّمّ، ويقتل بالسَّجْن، ويقتل بالنّفي، ويقتلُ بالنِّطْع، ويقتلُ بالمرض. وهل كان (فاتِكٌ) مِمّن شَمِلَهم نوعٌ من أنواع القتل هذه، أم أنّه اخترع لأجله نوعًا فريدًا؟! وهل كادتْ يدُه تطالني بالحُمّى كما طالتْ سِواي، أمْ أنّها أقدار السّماء؟!

كانتْ ليلةُ العيدِ أطْولَ ليلةٍ تمُرُّ عَلَيّ، وما مرّ مثلُها عَلَيّ على كثرة ما مرّ، ولا بقيتُ أرقبُ الموتَ لحظةً لحظةً كما رَقِبْتُه حينَها. وقبل ليلتَين من اللّيلة المشهودة، كتبتُ القصيدة الّتي لو كان يدري بها لوضع عُنُقَه تحتَ رحمةِ سيفي من أجل ألا أَقُولَها أو أُذيعها، ولكنّه كان أحمقَ من أنْ يُدرِكَ أنّها ستبقى سُبّةً في جبينِه أبدَ الدّهر، سُبّةً لا يعادِلها موتٌ واحدٌ ولا ألفُ موت.

أوقفني الحارسُ على باب داري: «إلى أين؟». «إلى كافور». «وأينَ رُقعة الإذن؟». «إنّها ليلةُ العيد، ولا إذن في الفرح». «أنا لا أفهم إلاّ بها، أبرِزْها، وإلاّ فعُدْ إلى دارِك». «لا تقلق، أليستِ اللّيلةُ ليلةَ التّكبير في جامع عمرو بن العاص؟!». «هي كذلك. وإذًا؟!». «أريدُ أنْ أشهدَ هذه الشَّعِيرة وهذه السُّنّةَ مع الجماعة، ولدَيّ رسالةٌ إلى (كافور)، كنتُ أريدُ أنْ أوصلها له بنفسي، ولكنّني أخافُ أنْ أتأخّر عليه، فأريدُكَ أنْ توصلها له». «قلتُ لك لن تخرجَ إلاّ بورقة الإذن». اقترَبْتُ منه، وهمستُ: «إنّها مجرّد ورقة، وهذه الرّسالة إذا أوصلْتها له، سينالُكَ من أعطياته أكثرَ مِمّا ينالُ سِواكَ». «وهل فيها ورقة الإذن؟!». «هي فيها، ولكنْ لا تفتَحْها حتى تُوافِيَه من غدٍ بعدَ أنْ يكون قد قَسَمَ أعطياته في قصره في الجمع المشهود». تراجَعَ الحارسُ عَنْ موقفه قليلاً، لكنّه ظلّ يخبطُ في بحرٍ من الشّكّ. مددتُ يدي إلى جِرابٍ فيه أموالي، ودفعتُ إليه مئة دينار، وقلتُ وأنا أتلفّتُ حولي كأنّني أحرص ألاّ يرانا أحد، وهمستُ بدفءٍ: «هي لَكَ، اشترِ بها لأهلك طعامًا، ولعِيالِكَ هدايا، الصّغار يفرحون، ولا بُدّ أنّهم ينتظرون منكَ في العيدِ ذلك». تلفّتَ حوله هو الآخَر، ودَسّ المئة دينار في جيبِه، وقال بصوتٍ خفيض: «وهذه الرّسالة؟!». «على

ما اتّفقْنا عليه، لا تُسلّمها له إلاّ بعدَ أنْ ينفضّ مجلسُ توزيع الكرامات من غدٍ، وأنا مُتأكّد أنّه سيُعطيكَ أكثرَ مِمّا يُعطيني... والآنَ هل ستَدَعُني أمُرّ؟!». انزاحَ عن الطّريق الّتي سَدّها في وجهي، وهتفتُ له كأنّني صديقه القديم: «هاتِ لي جوادي من الإسطبل». ركبتُ الجَواد، وهمزتُه، وعدوتُ به إلى الباب الشّرقيّ للفُسطاط.

كان (كافور) قد أغلقَ أبوابَ (الفُسطاط) كلّها، ومنعَ أيّ داخلٍ إليها أو خارجٍ منها أنْ يعبرها. ولمّا مررتُ من جانب مسجد العسكر، كان كلّ شيءٍ في المدينة هادِئًا هدوءًا تامًّا، غيرَ أنّني رأيتُ مؤذّن المسجد من بابه المفتوح يتوضّأ ويتهَيّأ ليُؤذّن الفجر، فلمّا لَمَحني دَبّ الرُّعبُ في قلبه، وظَنّ أنّني جِنّيّ، وتعوّذ بالله من الشيطان الرّجيم، ثُمّ دفنَ وجهه بين كَفّيه وهو يرشقُ عليه الماء.

وصلتُ إلى الباب الشّرقيّ، فوجدتُ حارِسَه أطولَ منه، ضَخمًا كأنّه جماعةٌ في واحد، وقد صاحَ لَمّا رآني أقترب منه: «قِفْ مكانَكَ. قِفْ مكانك. مَنْ أنتَ؟!». شددتُ عنان جَوادي، وأمطتُ اللّثام عن وجهي، وحَيَّيْتُه مُسلِّمًا، وهتفتُ: «أنا مُؤنِس العزيزيّ صاحبُ دار الصّك». «إلى أين؟!». «أريدُ أنْ أوصِلَ العملة الجديدة الّتي سَكَكْناها في الدّار إلى عامل المَلِك على الرّملة». «لكنّ الأوامر الّتي عندي تقضي بألاّ أُدخِلَ إلى المدينة ولا أُخرِجَ منها أحدًا». «أفهم ألاّ تُدخِلَ إليها أحدًا لأنّ الدّاخل قد يكون من اللّصوص فيُثير الفزع في المدينة، وأمّا أنا فخارجٌ». «ولكنْ...». شددتُ على الكلمة وتصنّعتُ الجِدّ، وقلتُ بلهجةٍ آمرة: «قلتُ لك أنا خازنُ دار النّقود، وعندي مهمّة مُقدّسةٌ يجب أنْ أؤدّيها،

هَيّا افتحْ لِيَ الباب». أسقطتْ كلماتي القويّة جزءًا من تردّده، نفد صبري، أردتُ أنْ أختصر الوقتَ والطّريق، نزلتُ عن جوادي، وتناولتُ من الجِراب دينارًا ذهبيًّا، ومددتُه إليه: «انظرْ، إنّه من المسكوكات الجديدة. انظرْ إلى لونه الذّهبيّ يلمع على ضوء هذا السّراج». أخذه الحارس، وقلّبه، فأزالَ بريقُه ما تبقّى في صدره من شَكٍّ وتردّد، وأردتُ أنْ أنهي النّقاشَ بأسرع الطّرق وأيسرها، فهتفتُ: «هو لك. إنّها ليلةُ العيد. وهو يساوي أكثر من ألفِ درهم. اعتبرْه هديّة منّي ومن مولاي (كافور) لِقاء تعبِكَ في هذه اللّيلة الّتي كان يجب أنْ تكون فيها بين أهلك». دَسّه في جيبه، وراحَ يفتح الباب، صَرّ الباب الثّقيل العالي حتّى خشيتُ أنْ يوقِظَ سُكّان (الفُسطاط) النّائمين جميعًا. ركبتُ جوادي وانطلقتُ أعدو به. اختلطَ في صدري وأنا أُسابِقُ الرّيح مبتعِدًا عن السّجن الكبير ألفُ شعورٍ وشعور، هَمٌّ ثقيلٌ انزاحَ عن كاهِلَيّ، ها أنذا أخطو أولى خُطواتي إلى الحُرّيّة، شعور الحرّيّة لا يُمكن وصفه، غيرَ أنّني أنهيتُ جزءًا يسيرًا من الطّريق الغادية إليه.

صارَ الباب الشّرقيّ في ظهري، أخذَ يبتعدُ بسرعةٍ. أخذَ الخوف الذّاهب يَصغُر، وصار الخوف القادم يَكبُر. ومضيتُ لا ألوي على شيءٍ.

كان جوادي يطير. وصلتُ إلى أوّل البادية من جهة الشّرق. توجّهتُ إلى المكان الّذي يجب أنْ ألتقي فيها بابني (مُحَسّد) وبالخادم (مسعود). وجدتُهم نائِمين، أيقظتُهم، فصَحوا فَزِعين، أمطتُ اللّثام: «أنا هو». سرعان ما استيقظا. قال (مُحسّد): «خِفتُ أنْ يقتلوك يا أبي». «أبوك لا يموت يا مُحَسّد. أينَ الرّماح والسّيوف؟!». «في مكانها الّذي

طلَبْتَ مِنّا أنْ نخفيها فيه». «لماذا لم تستخرجوها؟!». «خِفنا ألا تأتي». «هَيّا. استخرجوها. هل التّاجر البدويّ الّذي اتّفقْتَ معه في هذه النّاحية جاهزٌ؟!». «هو جاهِزٌ في أيّة لحظة، حالَما نطلبُ منه ذلك سيلبّي طلَبنا هو ينتظر ذلك منّا منذُ زمنٍ». «إذًا ابعثوا من يشتري لنا منه الآنَ عشرَ نُوقٍ، واحملوا فوقَ كلّ ناقةٍ قربتَين كبيرتَين من الماء، نريدُ أنْ نتزوّد لعشرين أو ثلاثين يومًا، لا أحدَ يدري كم سنبقى في الصّحراء، واشتروا طعامًا يستمرّ معنا هذه الفترة». «سمعًا وطاعةً يا أبي».

اشترينا النّوق والطّعام والماء، واستخرَجْنا الرّماح والسُّيُوف، كان لا يزال بهاؤها هو هو كأنّنا قد دفنّاها من لحظتنا، ذلك أنّنا لفَفْناها بخيشٍ وأرديةٍ تمنع أنْ يتسلّل إليها الصدّأ أو العفن أو تتآكل من معادن الأرض. ثُمّ استأجرنا خمسةً من العبيد الأشدّاء من أجل أنْ يركبوا الإبل ويسوقوها مع أمتعتنا، وانطلَقْنا.

قال مُحسّد: «والآن، إلى أينَ يا أبي؟!». «إلى التّيه». «أخافُ أنْ نتيه فيه كما تاه قومُ موسى!». «لا تقلقْ، أعرفُ فيه أكثر مِمّا يعرفُ أدِلاّؤه، سنسير على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل والمناهل والأواجن». ومضينا.

واقتربْتُ من (مُحسّد) حينَ قطَعْنا بعضَ الطّريق، وهمستُ في أُذنه: «اكتب إلى صديقي عبد العزيز الخُزاعيّ في (بلبيس) أنّني أريدُ منه دليلاً يعضدنا في التّيه، واحملْ إليه هذه الأبيات:

جَزَى عَرَبًا أَمْسَتْ بِبُلْبَيْسَ رَبُّها
بِمَسْعاتِها تَقْرَرْ بِذَاكَ عُيُونُها

وَخُصَّ بِهِ عَبْدَ العَزِيْزِ بْنَ يُوسُـــفٍ
فَـــمَا هُـــوَ إِلّا غَيْثُهَـــا وَمَعِينُهَـــا
فَتًـــى زانَ فِي عَيْنَـــيَّ أَقْـــصَى قَبِيْلِهِ
وَكَـــمْ سَـــيِّدٍ في حِلَّـــةٍ لا يَزِينُها

ولكنْ يا (مُحَسّد) أَشِعْ في العبيد الّذين معنا أنّنا نريدُ أنْ ننزل عنده في (بلبيس). أريدُ أنْ يصلَ الخبَرُ إلى (كافور)، فإذا عَلِمَ ذلك بعثَ في طلبنا هناك، ونكون نحنُ قد فُتْناه، وسلَكْنا طريقًا آخر». «أفعلُ يا أبي، ولكنْ أيّ طريقٍ ستسلُك؟!». «الطّريقَ غيرَ المطروقة». «لم أفهم». «الطّريق الّتي لا تمرّ بها القوافل ولا ركاب السّيّارة، فإنّها قاتِلة، سنصنع نحنُ طريقَنا الخاصّة».

كان الخوفُ والتّرقّبُ ما زالا يُلهِبان ظهري بسياطهما، إنّ (كافورًا) حينَ يعلمُ أنّني هربُت لن يتركَ وسيلةً يقبضُ بها عَلَيّ حتّى يفعلها. كان الفجر قد لاحَ في الأفق، وراحَ النّهار يقدمُ على هذه الأرض، ومن خلفِي كنتُ أتخيّل المُلبّين والمُكبّرين في جامع (عمرو بن العاص) يرفعون أصواتهم يستقبلون عيدًا ليسَ كأيّ عيد.

وأقبَلْنا على (نُجّة الطّير) تتهادَى إبلنا وخُيُولنا في قافلةِ النّجاة الّتي نرجوها وما ندري أنّنا سوفَ نُدركها. وما ذهبْنا إلى (بلبيس)، وصدقَ ظَنّي، فإنّ عيونَ (كافور) لَحِقَتْ بنا إلى هناك، فتلقّاها صديقي عبد العزيز وهو يضحك.

و(نُجّة الطّير) هذه في طريق الوادي الّذي يهوي إلى (السُّوَيس)، وهو طريقٌ تغوصُ فيه أقدام الإبل في الرّمال، فكيفَ ومعنا بعضُ

الخيول. ولاحَ لنا من بعيدٍ جبلُ (عتاقة)، وما أحدٌ رآه إلاّ الجنّ وأنا، فعرفتُ أنّني أسلكُ الطّريق البعيدة عن العيون وهي المأمولة بتمكيننا من الإفلات. ورأيتُ بعضَ الطّيور الجارحة تُحوّم فوق شماريخ الجبال البعيدة، وشعرتُ أنّني أحلّق مثلها هناك، وأرقبُ الطّريق من ذلك الارتفاع لأوجّه القافلة العجيبة أينَ تسير.

ثُمّ صلّى العَبْدُ العيدَ في طائفة كبيرةٍ من جُنده ووزرائه وأعيانه وحاشيته ومساكينه، فلمّا سَلّم عن يمينه نظر فلم يَرَني، ثُمّ لمّا سَلّمَ عن يساره نظرَ فلم يرني، فتوجّس خِيفة، وهتفَ هتاف الضّبع الجريح: «أينَ أنتَ أيّها الجِنّيّ؟!».

ثُمّ توجّه إلى مجلس الأعطيات، يمشي وفي رِكابه القلق: «أينَ أَنت أيّها اللّعين. أتكون قد هربتَ؟! كلا. لقد أقمتُ على بابِكَ حارِسًا، وعلى أبواب الفُسطاط حُرّاسًا لا يسمحون لنملةٍ أنْ تدخلَ أو تخرج. وعلى كلّ بابٍ من دور الفُسطاط حارِسًا كذلك. إذا كنتَ لا تزال في بيتك، فسأبعثُ إليكَ مَنْ يَتُلُّكَ من جبينِك ويأتي بِكَ إِلَيّ». وجلسَ على عرشِه المنخور، وراحَ كأنّه ربّ السّماوات والأرض يبعثر أموال الدّولة يشتري بها ذِمَم شانِئيه. «هذا لك. أنتَ يكفيكَ هذا. وأنتَ زِدْناكَ على ما رَتّبْنا لكَ كذا وكذا. وأنتَ تستأهل أكثرَ...». ثُمّ لمّا انفضّ المجلس، جاءه أحدُهم بالرّقعة الطّامّة، ففتَحها فوجدَ فيها:

عِيْـــدٌ بِأَيَّةِ حَـــالٍ عُدْتَ يَـــا عِيْدُ
بِمَا مَـــضَى أَمْ بِأَمْـــرٍ فِيْـــكَ تَجْدِيْدُ
أَمَّـــا الأَحِبَّـــةُ فَالبَيْـــدَاءُ دُوْنَهُـــمُ
فَلَيْـــتَ دُونَكَ بِيْـــدًا دُوْنَهَـــا بِيْدُ

فنفرَ ونَخر. وأدركَ أنّ الأنكى لم يأتِ. وأنّى لمُتبلّدِ إحساسٍ مثله أنْ يشعر بأنّه كان يقتلني في كلّ يومٍ ألفَ مرّة؟ هل كان يشعر بي إذْ ذاك؟ أمْ أنّ نفسَه المريضة كانتْ تُصوِّر له أنّه أعاشني في النّعيم المُقِيم في تلك الدّار المُطِلّة على النّيل، وقد مَنَع عنّي الهَواء أنْ يمرّ بها؟! هل حَقًّا لديه إحساسٌ بمجرّات الآلام الّتي كانتْ تحُزّني من الوريد إلى الوريد؟! أمْ أنّه كان يستمتع بذبحي، ويرقصُ كلّما رأى دمًا يسيل من عروقي؟! هل كان إنسانًا حَقًّا؟ ماذا سيتراءى له حينَ يقرأ:

يا سَـــاقِيَيَّ أَخَمْــرٌ فِي كُؤُوسِــكُمَا
أَمْ فِي كُؤُوسِــكُمَا هَــمٌّ وَتَسْــهِيدُ
أَصَخْــرَةٌ أَنَــا مَــا لِي لا تُحَرِّكُنِي
هَذِي المُدَامُ وَلا هَــذِي الأَغَارِيدُ؟!
مَــاذَا لَقِيْتُ مِــنَ الدُّنْيَــا وَأَعْجَبُهُ
أَنِّي بِــمَا أَنَــا بَــاكٍ مِنْهُ مَحْسُــودُ

لقد كان يأتي كُلَّ يومٍ فيأكل من طعامي كأنّ ما فاضَ من طعامه في قصوره لا يُشبِعه، كان لا يُماطل في الوعد، لأنّه لم يكنْ لديه وعدٌ صادِقٌ من الأساس:

أَمْسَــيتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِنًــا وَيَدًا
أَنَــا الغَنِــيُّ وَأَمْــوَالِي المَوَاعِيــدُ
إِنِّي نَزَلْــتُ بِكَذَّابِــينَ ضَيْفُهُــمُ
عَــنِ القِرَى وَعَنِ التَّرْحَــالِ مَحْدُودُ

جُودُ الرِّجَالِ مِــــنَ الأَيْدِي وَجُودُهُمُ

مِنَ اللِّسَـــانِ فَلا كَانُـــوا وَلا الجُودُ

لقد سهرتُ الّليالي وأنا أحاول أنْ أرسمَ له صورةً تليقُ به، صورةً هي حقيقيّة حَدّ الخَيال، وخياليّةً حَدّ الحقيقة، أعترفُ أنّني عَيِيتُ وأنا أرسم تلك الصّورة الّتي أريدُ للكون أنْ يضحك عليها، وأنْ يستمرّ هذا الضّحك إلى آخر بشريّ. أردتُ أنْ أُلوِّنَها بألوان الخِزْي، كانت نتانته من السّوء لو أنّ قطرةً منها مُزِجَتْ بماء البحر لحوّلَتْه إلى سواد. هل كان رَجُلاً؟! أم امرأةً لها بطنُ خُنثى، ووجه عبدِ سُوء، لقد حَيّرني والله، وحيّرني الشِّعر وأنا أحاول أنْ أقبضَ على الوصفِ فأصوغه في قولي:

ما يَقْبِضُ المَوْتُ نَفْسًـــا مِنْ نُفُوسِهِمُ

إلّا وَفِي يَـــدِهِ مِـــنْ نَتْنِهــا عُــوْدُ

مِـــنْ كُلِّ رِخْوٍ وِكَاءِ البَطْـــنِ مُنْفَتِقٍ

لا فِي الرِّجَالِ وَلا النِّسْـــوَانِ مَعْدُودُ

كيفَ لعبدٍ أثّر الحبل في عاتقه وهو يحمل جِرار الزّيت، وظلّ لمعان الزّيت في عارضَيه يُذكّره بأيّامه الماضِيات، أنْ يُصبِحَ سَيِّدًا؟! هل يُمكن أنْ يملك مصرَ عبدٌ لا يساوي ثمانيةَ عشرَ دينارًا؟! كيفَ هانتْ مِصْرُ على نفسِها إلى هذا الحَدّ:

صَـــارَ الخَصِيُّ إِمَـــامَ الآبِقِـــينَ بِهَا

فَالحُـــرُّ مُسْـــتَعْبَدٌ وَالعَبْـــدُ مَعْبُودُ

نامَتْ نَواطِـــيرُ مِصْرٍ عَـــنْ ثَعَالِبِهَا

فَقَـــدْ بَشِـــمْنَ وَمَا تَفْنَـــى العَنَاقِيدُ

غيرَ أنّ العَبْد سيظلّ عبدًا، ولو لبس مسوحَ ألفِ ملك. والخَصِيّ يبقى خَصِيًّا ولو حاول أنْ يكون ألفَ رجل. فكيفَ وهو إذا دخل على النّساء كأنّما دخل على نفسه، فلا تقوم له قائِمة، ولا تكيلُ له النّساء صاعًا. غيرَ أنّه كان على (فاتكٍ) أو أمثاله أنْ يُعيدُوه إلى سوق النّخاسة، ويبيعوه هناك، على أنْ يبعوا معه لسيّده عصًا حتّى يسلسَ له حَرَنُه إذا حَرن، وينقاد له عِصيانه إذا عَصَى:

العَبْـــدُ لَيْسَ لِحُـــرٍّ صَالِـــحٍ بِأَخٍ
لَـــوْ أَنَّـــهُ فِي ثِيـــابِ الحُـــرِّ مَوْلُودُ
لا تَشْـــتَرِ العَبْـــدَ إِلّا وَالعَصَا مَعَهُ
إِنَّ العَبِيـــدَ لَأَنجـــاسٌ مَنَاكِيـــدُ

وأيّ طارقةٍ تطرق الحرّ أنْ يعيشَ في زمنٍ يخضع لهذا العبد؟ أيّ نكبةٍ تحلّ به إذا انقاد له، وأيّ ذنبٍ تورّط فيه الحُرّ حتّى يُبتلَى بكلبٍ ينبحه صباحَ مساءَ، ويُسمعه العُواء في كلّ حين، ويرمي له بالعِظام أمام كلّ لِقاء؟! واسَوْءَتاه على ما حلّ بِكَ أيّها المتنبّي:

ما كُنْتُ أَحسَـــبُنِي أَحْيَـــا إِلَى زَمَنٍ
يُسِيْءُ بِي فِيْـــهِ كَلْبٌ وَهْـــوَ مَحْمُودُ

أتريدُ أيّها الكون أنْ أصفه لك؟ إنّه لأمرٌ مُعيٍ حَقًّا. غيرَ أنّني أمانةً للتّاريخ وللشّعر أجهدتُ عقلي، وأتعبتُ خيالي وأنا أُزوّر ذلك في نفسي، فلم يخرجْ معي أبلغ من هذا الوصف:

وَأَنَّ ذا الأَسْــــوَدَ المَثْقُوبَ مِشْــــفَرُهُ
تُطِيْعُـــــهُ ذِي العَضَارِيـــطُ الرَّعَادِيدُ
مَنْ عَلَّمَ الأَسْــــوَدَ المَخْـــصِيَّ مَكْرُمَةً
أَقَوْمُــــهُ البِيْـــضُ أَمْ آبَـــاؤُهُ الصِّيْدُ
أَمْ أُذْنُـــــهُ فِي يَـــدِ النَّخَّـــاسِ دَامِيَةً
أَمْ قَدْرُهُ وَهْـــوَ بِالفَلْسَـــيْنِ مَرْدُودُ

غيرَ أنّ أعظمَ ما يُمكن أنْ أفعله في حياتي، ليسَ أنْ أُصبِحَ مَلِكًا، ولا أنْ أقودَ الجيوش وأنتصر في المعامع، ولا أنْ أبلغ بمجدي عنان السّماء، ولا أنْ أصبح قِبلة أهل العِلم في الشِّعر... بل، بل هو في النّجاة من هذه الكارثة الماثلة في هذا العبد!!

(٩)

التِّيه

جُنّ جُنونه. وانقدح الشّرر من جَمرَتَي عينَيه. وصرخ. فذهبتْ صرختُه في فضاء المجلسِ سُدًى. وأتاه الخَدم مُلبِّين، وهم لا يدرون ما حصل له، فلقد كان وحيدًا، فعلامَ يصرخ؟! والتفتوا حولهم ليعرفوا سببَ هذه الصّراخ فما عرفوا. وسَمِعوا منه هديرًا مُتتابِعًا لا شيءَ فيه سِوى الشّتائم، ولم يعرفوا ماذا يُريدُ منهم؟!

فلمّا مرّ وقتٌ طويلٌ على ذلك الهَيَجان، تبيّنوا أخيرًا كلمةً من كلماته خرجَتْ من بين شفتيه وهما ترتجفان، وصوتُ أنفاسه يتقطّع من اللّهاث: «اجلبُوه لي». وسأل كبير الحرس: «سيّدي... مَنْ؟!». فصرخَ به: «اجلبوه لي ولو كان في السّماء». وتفرّس الحرس في وجهه، في إشفاق على حالته، وهم يحاولون أنْ يعرفوا الشّخص الّذي طلبَ منهم أنْ يجلبوه. وسمعوا: «المتنبّي... اجلبوا لي هذا الخائن... سأقتله بيدَيّ، وسأشرب من دمه على الملأ».

وهُرِعَ رئيس الحرس ليُلبّي رغبة سيّده، فأوقفه (كافور) شاتِمًا: «أحمق. أتظنّ أنّه في داره. لن يكون في الفُسطاط كلّها اليوم». «فمن أينَ سنجلبه يا سيّدي؟!». وصرخ كافور: «هذه مهمّتك، فتّش عنه الأرضَ كلّها». وهَمّ أنْ يمضي ليُنفّذ أوامره، فأوقفه (كافور) ثانيةً وهو

يُؤكّد من خلال لُهاثه الّذي لم ينقطع: «ابذلوا الأموال في سبيل ذلك، كلّ خزائن مصر اليوم لكَ كِفاءَ أنْ تأتيني به. وسَرّحِ الطّيور، الحَمام، والصّقور، وكلّ مَا يُمكن أنْ يُساعِدَ في العثور عليه، وابعثِ الجُند والخُيُول والأسلحة والجواسيس والعيون، وارشِ النّاس، واستملْ قلوب سادات العرب... ابذلْ كلّ شيءٍ نقدر عليه في سبيل أنْ أراه اليوم عندي...» وصمتَ وخطوط العَرَق تسيل على وجهه، وراحَ يمسحها بعصبيّة، ومَضى رئيس الحرس للغاية، فما كاد يصل باب المجلس، حتى أوقفه مرّة ثالثة وصاح: «ستكونُ أنتَ مكانه إنْ لم تأتِ به». ومضى مرعوبًا.

فلمّا غابَ ظِلّه خلفَ الباب، قامَ (كافور) وبيده الرّقعة الّتي فيها القصيدة إلى شمعدانٍ كبيرٍ هناك، فألقمها الشُّواظ، فسُجِّرَتْ، وراحتْ تحترق وقلبُه يحترقُ معها، وعَلا دُخانها فوقَ رأسه، ثُمّ ملأ جوّ الغرفة، ثُمّ خرج من الباب فملأ جَوّ القصر، ثُمّ انتشر الدُخان الأسود مادًّا سُحُبَه خارجَ القصر حتّى غَطّى (الفسطاط) فاستطال حتّى غَطّى (مِصرَ) كلّها، ثُمّ تمادَى حتّى غَطّى العالَم، فما بقي من وَبَرٍ ولا مَدَرٍ، ولا بَدْوٍ ولا حَضَر، ولا شَجَرٍ ولا بَشَر، ولا ماءٍ ولا يابِسة إلاّ أصابه من ذلك الدُّخان شيء!

وسارتْ قافلتُنا باتّجاه النّجاة ولا نجاة. وجعلتُها تأخذُ طريقًا وَعْرًا لم يمرّ فيه سالِكٌ من قبل. وكانت الرّيح تُخفي آثارَنا في دربٍ لم تقعْ عليه عينا بشريٍّ من قبل، وتملّكَ الخوفُ من كان معي، فقَسَرتُهم على طاعتي: «لن ننجو إلاّ إذا نفّذتُم ما أقول دون جِدال. والله ما

على الأرض بشريٌّ يعرفُ النّجع، والمفاوز، والموامي، ومساقط الماء، ومهالك الرّمل مثلي. فإنْ أردتم أنْ تعيشوا فاعملوا بما أقول، وإنْ أردتم أنْ تهلكوا فاتّبعوا الطّرق الّتي تريدون، إنّكم لترون الجبل فتقولون إنّ خلفَه النّاس، وإنّ عنده الحياة، وأنا أراه فأقول لكم إنّ خلفَه الموت، فإنْ أخذتُم برأيكم هلكتُم وهلكتُ معكم، وإنْ أخذتُم برأيي نجونا معًا».

ومضينا. فوصلْتُ بهم بعدَ يومَين إلى (الدّثْنة) وكنتُ أعلكمُ أنّ فيها ماءً لبني فِزارة، فأتيتُ الموضع فلم أجدْه، فوُهِمَ عليّ، وهمستُ لنفسي: «أَأَضَلّتِ الصّحراء عقلي. إنّ الماء هُنا. وإنّني لأَعْرَفُ به مِن أهله». وكان أهلُه قد تركوا فيه أثافِيّ، ورسومًا دارِسة. فنظر مَنْ معي من العبيد في وجوه بعضِهم بعضًا، وسمعتُهم يقولون دون أنْ يقولوا: «لقد أهلكَنا المجنون». فرددتُ عليهم: «لن تهلكوا، ما زال معنا من الماء ما يكفي، وإنّما وردتُ هذا المكان من أجلِ أنْ نتزوّد بما شربْنا في اللّيالي السّابقة». فلم يطمئنّوا إلى قولي كثيرًا. فوضعتُ يدي على قائِم السّيف: «إنْ نهلكْ فمعًا، وإنّ ننجُ فلن أنجو وحدي. فدعوا عنكم الرّيبة وسوء الظّن، ونَحُّوا الخوف، فما دُمتُ معكم فلن تضلّوا».

وسخّر (كافور) في طلبنا كلّ ما يقدر عليه، فلحق بنا أدلاؤّه وجنوده ومُقاتِلوه وممالِئوه من البدو الطّامعين في بعضِ الجوائز السّنيّة، وأعلن فيهم وفي الجُند: «مَنْ يأتيني به أو برأسِه فلهُ عشرة آلاف دينارٍ ذهبًا». فَجَدّ القوم في طلبي، وحَذِرتُ - حينَ سرى هذا الإعلانُ في الصّحراء وفشا في أهلها - أنْ يعرفه العبيدُ الّذين معي، وإنّهم ليرضون أنْ يأتوا (كافورًا) بمعشار هذا المبلغ، فما حللتُ السّيفَ عن عاتقي من أجل ذلك في يقظةٍ أو منام.

وانتشر ملأُ (كافور) في السّويس وما كان من شرقها وغربها وشمالها انتشار النّمل، ومضوا يسألون عنّي طريق القوافل، وما دَرَوا أنّني نكّبْتُ هذه الطّرق كلّها. واستخبروا كلّ إنسيّ، وعادوا إلى (كافور) بعدَ يومَين، فقالوا له: «لم نقدرْ عليه». فصرخ في وجوههم: «هَبُوه اتّخذ طريقًا غير الطّريق الّتي يعرفها كلّ مُرتحلٍ من مصر إلى الشّام أو العراق، فهل تُرى مَحا أثره؟! أليسَ لكلّ سائرٍ أثر، فهل قصصتُم أثره؟! هل تَتَبَّعْتم مواقع أقدامه؟! هل شممتُم رائحة ثيابه؟! هل فتَّتُّم بَعَرَ إبله...؟! افعلوا أيّ شيءٍ. أكان عَلَيّ أنْ أدلّكم كيفَ تصنعون؟!». وهتفَ قَصّاص أثر: «فعلْنا يا سيّدي، وأرسلنا الكلاب، ومَنْ يعرفون عدد حَبّات الرّمل في الصحراء، فلم نعثر على أثرٍ له». فصرخ (كافور): «أيكون قد تحوّل إلى طيرٍ فطار في السّحاب وأفلتَ منكم؟!». وردّ القصّاص بهدوء: «إنّ هناكَ احتِمالاً واحِدًا لتفسير هذا كلّه». فاستعجله (كافور): «قلْ... هيّا...». فقال بيأس: «أنْ يكون قد عِمَلَ نفقًا في الأرض فَسَلَكه». وكادَ (كافور) يسقطُ من فوق عرشِه غيظًا وحنقًا.

وأمّا نحنُ فأخذْنا طريقنا مُبتعِدِين، وقال لي (مُحسّد) وقد مضى على رحلتنا هذه أربعُ ليالٍ: «أنكون قد نجونا؟!». «لا. ما زلتُ على حذر. أعرفُ أنّ كافورًا لن يتركني ولو بعدَ شهرٍ. ستأتيه ولو أخبارٌ مُعمّاة عن أناسٍ شُوهِدوا خلفَ أكمةٍ أو جبلٍ يعبرون وحدهم، فسيتبعني، ولن يرتاح حتّى يراني بين يدَيه. ولِذا لن أرتاح أنا حتّى أرى الكوفة... الكوفة الّتي سقطتُ فيها بين أحضان أمّي».

ثُمّ لمّا كانت اللّيلة الخامسة دخلْنا «التّيه»، ولا أَدَلَّ عليه من اسمه، التّيه الّذي تاه فيه بنو إسرائيل أربعين سنةً، وإنّني لأرجو ألا أتيه فيه أنا

وقافلتي أكثرَ من أربعين يومًا، وإذا لم نجدْ موئلاً نُريح فيه على أطرافه، فلن نقيم فيه إلاّ ريثما نتحوّل عنه، وقدّرت أنّها ستكون عشرة أيّام.

وكتبَ (كافور) إلى عُمّاله بالجوفين والجفار وغزّة والشّام وجميع البوادي: «إذا مرّ بكم هذا الدّعيّ أو مَرّ بكم ظِلّه، فألقوا القبضَ على ظِلّه وائتوني به، وأنا ضامنٌ لكم جائزةً فوق الجائزة». وبدا بعدَ هذا الكتاب المشحون بغيظٍ وغضبٍ كبيرَين أنّ الأرضَ كلّها صارتْ تَطلُبني، لكنّ ما غفل عنه (كافور) أنّ الأرض الّتي كانتْ تطلبني هي أرضُه الّتي يعرفُها هو وَوُلاتُه، وأمّا الأرض الّتي كنتُ أسلكها فهي الأرض الّتي تَعرِفُني وأعرفها منذُ كنتُ صَبِيًّا، وشتّان بين الأرضَين!

واجتزتُ بالقافلة مغارب صحراء التّيه، التّيه الّذي ضلّ فيه موسى بن عمران وقومه، التّيه الّذي لو صعدتَ إلى السّماء فسترى أنّه بين (أيلة) و(مصر) و(بحر القلزم)، مُثلّثٌ من الرُّعب والموت الحتميّ لمن لا يعرفه، وَمَنْ دَخلَه كان خائِفًا، فكلّ شيءٍ فيه قاتل!!

ومرّت اللّيلة الأولى في التّيه بسلامٍ، أظلّنا اللّيل بسرعةٍ من حرّ الشّمس، وآنسَتْنا النُّجومُ في اللّيل، وسَهِرَ العبيد، وتناسَوا بعضِ همومهم بالغِناء والرّقص، وأمّا أنا فلا يزال السّيف على عاتقي حتّى ولو أردتُ النّوم، ثُمّ إنّني لم أكن أنام إلاّ وظهري إلى النّاقة أو الجواد، وعيناي أُغمِضُ واحدةً وأفتح الأخرى.

فلمّا صارَ لنا أربعُ ليالٍ في هذا التّيه كُنّا قد أنفقنا أكثر ما معنا من الماء، ولم يبقَ إلاّ ناقتان فوقَهما القِرَب، فعرفتُ أنّنا سنتقاتل على

الماء، فوضعتُ قانونًا: «لكلّ واحدٍ منا شربتان بمقدار الكّفّ، واحدة في الصّباح وأخرى في المساء، ومَنْ زادَ ضربْتُ عُنُقَه». ولولا العبارة الأخيرة لفقدْنا نِصفَنا جَشعًا، كُلٌّ يبغي الحياةَ لنفسِه.

فلمّا كُنّا في نهار اليوم السّادس في ذلك التّيه، هَبّتْ عاصِفةٌ رمليّة شديدة، وهي على القافلة أخطر من قلّة الماء. وبدأتِ العاصِفة تُثير زوابع من الرّمل الأحمر في الفضاء، فعَمّتْه علينا، وصاح العبيد وصاحَ كلّ مَنْ معي، ورحتُ أنظر إلى الإبل وهي تهيجُ، وتُسرِع الرّكض في العاصفة، وكان الرّمل قد غَطّى بعضَ العيون فكدْنا نَعمى، ودخل الرّمل في عينَيّ، فصرتُ أشاهِدُ الإبل الهائجة والعبيد خيالاتٍ كأنّهم من بني الجنّ، فصرختُ بهم: «ارْبِطوا الإبل إلى حاديها». وضاع صوتي في العاصِفة، كان صوتُها أعلى من كلّ شيءٍ، وكُنّا في وسط النّهار كأنّنا في جَوز اللّيل، وصِحتُ: «يا مُحَسّد... يا مسعود... اربطوا الإبل بحبلٍ واحدٍ حتّى لا تضيع». ورأيتُ (مُحَسّدًا) هو و(مسعود) يغالِبان الرّمالَ الّتي أخذا يغوصان بأقدامهما فيها... ومرّتْ ساعةٌ من الموت المُعايَن، ومن الرّيح العاصفة، ومن الرّمل المذرور في العيون، ومن الإبل الهائجة، والعبيد الفَزِعين، فلمّا انجلى ذلك كلّه، كُنّا قد فقدنا ثلاثة أَبْعِرة، إحداها الّذي كانتْ عليه قِرَب الماء، وفقدْنا عبدَين من هؤلاء العبيد.

فلمّا عادَ إلينا بعضُ الأمن وذهبَ الرّوع، قامَ أحدُ العبيد فتجرّأ قائلاً: «قتلْتَنا». «أنا لستُ رَبّ السّماء أجري العواصف بإرادتي، هذا قَدَر الله». «لكنّك أدخلْتنا في هذه الصّحراء كي نموت». «لو سلكْنا طريق القوافل لمُتْنا كُلّنا على الحقيقة». «لقد ماتَ اثنان مِنّا». « أفضل من أن تموتوا جميعًا». «لن أُكمِل هذه الطّريق معك». «شأنُك». وفكّر العبدُ

قليلاً، وهتف: «ولكنْ كيفَ سأعود؟!». فرددتُ هازِئًا: «من الطّريق الّتي جِئنا منها». وأيقنَ العَبْد أنّ أخفّ احتِمالٍ للموت هو أنْ يبقى مع الجماعة، لأنّه لو عادَ وحده للقي الحتفَ بلا شَكّ.

فلمّا صِرنا في اللّيلة العاشرة، قرأتُ الكلام على وجوه العبيد، وحتّى على وجهَي (مُحسّد) و(مسعود): «هل يُمكن أنْ ننجو؟! إنَّ يقيننا في أنّكَ تقتلُنا يتأكّد مع كلّ ليلةٍ». كانتْ عيونهم منتفخة متورّمة، وشِفاههم مُشَقّقة من العطش، وكانوا في غاية الوهن والضّعف، ولم يكنْ قد بقي معنا إلاّ قربةٌ واحدةٌ، لا تكفي لنصف ليلةٍ ولو اقتصدْنا في الشّرب منها، وهمس (مُحسّد) في أذني: «هل سننجو أم سنموت هنا ولا أحدَ يدري بنا؟!». «ثِقْ بأبيك». «إنّني أثقُ به، ولكنّني أرى الموت يحوم حولنا يُفتّش في رحالنا وينظر في وجوهنا، وهناك ذلك العبد لن يُكمل معنا الطّريق، سيموت اليوم، لن يطلع عليه النّهار حَيًّا». «لِيَمُتْ يا مُحسّد، إنَّ مَنْ لا يستطيع النّجاة يستحقّ الموت، إنّ الإفلات منه فكرةٌ قبل أنْ تكون خُطّة، إنّها وَعْيٌ بالقدرة قبل أنْ تكون هي القدرة. ضَعْ في عقلِكَ أنّنا سَنَنْجو وسَنَنْجو». وخفضَ (مُحسّد) رأسه الحاسر الأشعث المُلبّد، ومسَحَ على شفتَيه الجافّتين، ودفنَ رأسَه في صدري وهمسَ كأنّه طِفل: «هل يُمكن أنْ أشرب نُغبةً من الماء؟!». «ليس دَورَكَ ولا هو وقتها، ولن يغفر لك أنّك ابني، ولو متّ دونها فلن يكون ذلك إلاّ في سبيل النّظام الصّارم الّذي يجبُ أنْ آخذ به نفسي ومَنْ معي في هذه القافلة». «فهل من أملٍ؟!». «أيّ نوعٍ من الأمل؟». «الأمل بالنّجاة». «يُشبِه خيطًا رفيعًا جِدًّا عليكَ أنْ تُدخِلَه في سَمّ الخياط في ظلامٍ لا نور

فيه». فردّ بيأسٍ: «هَلَكْنا إذاً». فابتسمتُ ابتسامةً شاحبة، وهتفتُ بيقين: «ماءُ (نخلٍ) على بُعدِ فرسَخين فقط، وسنصل إليه ظهر الغد».

وسِرْنا في الغَدِ لا من طاعةٍ لي، ولكنْ من أملٍ في نجاةٍ غَطّاها الوَهم واليأس حتّى لم تعدْ تُرى. فلمّا صار الظّهر أشرفنا على ماء (نخل)، وكانَ عليه خيلٌ وقومٌ يسقون، فلمّا رأوه كادوا ينسَون أنفسهم من الفرحة ويهووا نَحوه، فأخذتُ خِطام الإبل الحادِية، وهتفت: «قِفوا أيّها المجانين. إنّ هؤلاء السّاقية أحدُ أمرَين: إمّا لُصوصٌ، وإمّا جُند (كافور)، وعلى الحالَين سندخل معهم في قِتال. فاستعدّوا، تأكّدوا من سيوفكم وخناجركم، وليشربْ كلّ واحدٍ منكم نصيبَه مِمّا تبقّى من الماء، ثُمّ لننزلْ، كأنّنا قومٌ عابرون مَرَرْنا بهذا الماء نريدُ أنْ نسقي مثلهم، وضعوا عيُونكم على قوائم سيوفهم، فإنْ لمسوها فبادِروا إلى قِتالهم». وهبطنْا النّشز، فلمّا صِرنا في مرمى نظرهم، التفتوا فرأوا القافلة، وكُنّا نراقبُ مقابضَ سيوفهم، فلمّا وضعوا أيديهم عليها، صِحتُ بمن معي: «القِتال». فقاتَلْناهم، فهزمْناهم، وأسرْناهم ووضعْناهم إلى جانب الرّحال، وكانوا سبعة رجال. ثُمّ راحَ مَنْ معي يعبّ الماء، ويغتسل فيه، وينظّف به ثيابه، ونظر بعضُهم إليّ فقالوا دون القول: «هل كنتَ تعرفُ أنّ هنا ماءً؟!». فابتسمتُ، وزادتْ ثقتهم بي.

فلمّا أردْنا أنْ نرتحل في ليل ذلك اليوم، قال لي (مُحَسّد): «وماذا نفعل بهؤلاء الّذين أسرْناهم؟». فقال أحدُ العبيد: «نقتلهم». وأردفَ (مُحسَّد): «نقتلهم ونسلبُ أموالهم». فقلتُ: «خذوا سلاحهم، واتركوا لهم أموالهم، وأطلِقوا سراحهم». ومضينا.

فلمّا كانتْ ليلةٌ هادِئة، والقومُ رَيّا، خلوتُ إلى نفسي، فبدأتُ مطلع قصيدةٍ أُأَرِّخُ فيها لهذه الرّحلة:

أَلا كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى
فِدَى كُلِّ ماشِيَةِ الهَيْذَبى
وَكُلِّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ
خَنُوفٍ وَمَا بِيَ حُسْنُ المِشَى
وَلَكِنَّهُنَّ حِبَالُ الحَيَاةِ
وَكَيْدُ العُدَاةِ وَمَيْطُ الأَذَى
ضَرَبْتُ بِهَا التِّيْهَ ضَرْبَ القِمَا
رِ إِمَّا لِهَذَا وَإِمَّا لِذَا

ثُمّ سَلَكْنا التّيه في أواخر مراحله، حتّى وصلْنا بعدَ ثلاث ليالٍ إلى (النِّقاب) وكان قد مضى على خروجنا من (مصر) ما يقرب من أسبوعَين. وقد صارتْ سيناء خلفنَا، وتركنا الجِبال الّتي هناك، جبل (الحمار) وجبل (سُويقة) وجبل (طوبار)، ووصلْنا إلى المنطقة الّتي انتهي فيه التّيه إلى جنوب (فلسطين). وكانت (النّقابُ) الّتي قد أشرَفْنا عليها (نقبُ شتار) و(نقبُ عازب) و(نقب القُويرة). فلمّا دخلْنا في تلك الدّيار رأيتُ رَجُلَين على قلوصَين يسيران بهما، فعدوتُ نحوهما والعبيدُ ومن معي ينظرون لفَجاءة حركتي، حتّى أتيتُهما، فضربتُ بالسّيف أعكان الإبل، وأوساط اللّجُم، فسقطَا عن الجَملَين، واستجارا. فهتفتُ والسّيف في وجهيهما: «مَنْ أنتما؟!». فقالا: «نحنُ رائِدان لبني سُلَيم، نرودُ هذه الأماكن لأهلنا». فأمرتُ من معي أنْ يأخذوا سلاحَيهما

ويُقيّدوهما، ويحملاهما على الدّوابّ الّتي معنا، فقد خِفتُ أنْ يكونا من رجال (كافور)، وأنا لا آمنُ أحدًا حتّى العبيد الّذين معي. وسِرنا.

فلمّا أشرَفْنا على بيوت بني سُلَيم الّذِين ذَكَرَاهم هذان الرّجلان، أردتُ أنْ تكون لي يدٌ عندهم زيادةً على ما كان لي عندهم من قبلُ، فأطلقتُ سراحَ الرّجلَين، وأعدتُ لهما سِلاحهما، وقَلُوصَيهما، وسرتُ معهما حتّى توسّطتُ بيوت بني سُلَيم، فتلقّاني سيّدهم (مُلاعب بن أبي النّجم)، فبنى لي خيمةً بيضاء، وذبحَ شياهًا، وأَوْلَمَ، وأكلْنا عنده، وشَبعَ مَنْ معي، فلمّا صارتِ العشاء الأولى صحتُ بركبي: «جِدُّوا السّير». فقال بعضُ العبيد: «نرتاح اللّيلة في بيوت بني سُلَيم. ونمضي غدًا». فنهرْتُه: «إذا بقيتَ هنا فلن يطلع عليكَ النّهار. إنّ خبرنا سيكون عند (كافور) من جواسيسه المُقِيمين هنا، وإنْ لم نرحل السّاعةَ هلكْنا». ومضينا. فلمّا مرّ علينا ليلةٌ أخرى من هذه اللّيالي الّتي طالتْ وزادَتْ، فكّرتُ فيما مضى من أهوال، وما جَرى من أقدار، فأكملتُ المطلع، فقلت:

إذا فَزِعَــتْ قَدَّمَتْهـا الجِيَـادُ
وَبِيْـضُ السُّـيُوفِ وَسُـمْرُ القَنَا
فَمَــرَّتْ بِنَخْــلٍ وَفِي رَكْبِهـا
عَــنِ العَالَمِـيْنَ وَعَنْــهُ غِنَــى
وَأَمْسَــتْ تُخَيِّرُنَــا بِالنِّقَــابِ
وادِي المِيَــاهِ وَوَادي القُــرَى

وارتحلْنا وقد صارت (الفُسطاط) بعيدة، وصارَ صوتُ الأمن أرجى من صوتِ الخوف. وصارَتْ (مصرُ) وصحراؤُها كلّها خلفَنا، وأقبلنا على جنوب الأردنّ، تتشمّم الإبل بأقدامها الطّريق، وتلمس بأخفافها الدّروب، وكانتْ أفرحَ لي من عبيدي، وكانتَ أحفى بي منهم. وإنّ العَبْدَ إذا شَبعَ طَغى، وإذا جاع تَبع، وإنّني معهم على الحالَين، أُجوِّعُ الكلبَ ليتبعني، وأُشبِعُه ليكون قادرًا على أنْ يُتِمّ الطّريق، وإنّني منه على الحالَيْن في حذر، ما حللتُ السَّيْف مرّة عن عاتقي.

(١٠)

الفتى الّذي دَوّخَ الدُّنيا

أُطارِدُ شيئًا لستُ أدريه، ولا أدري أنّه يُطاردني. أمضي، وهناك حيثُ أمضي حتفي. وأَرِدُ الماء الّذي شَطرهُ دمٌ، وأستصحبُ منْ لا يُلائمني، وأدفنُ - وأنا الذّهبُ - نفسي في التّراب، وأرضى بالعيش بين الطّغام، فلو أنّني تمرّدتُ على ذلك كلّه، فما الّذي سيكون؟! لا شيءَ. لا شيءَ غير الموت.

ومضينا إلى بادية من (معن) و(سُنبُس)، ولعلّه ورد خبري إلى (كافور) فوجّه إليّ مَنْ يأتيه بي، ولم يتعب هذا الرّجل طَوال شهرٍ في مُلاحقتي، ولو درى رِجالُه ما أدري من المَهامِه لأخذوني ولكنْ أنّى لهم ذلك!

فلمّا دخلتُ تلكَ البادية، عرفني فيها (عفيف المُعنّي)، فرَحّب، ونزلْنا في ضِيافته، وذبحَ لنا غنَمًا فأكلْنا وأشبعَ عبيدي، وقد طالَ فيهم الشِّبَع، ثُمّ سألتُه أنْ يبعثَ معي دلَيلَين من (جُذام) يدلاّنني على الطّريق، فبعثَ معي لِصَّين.

وصعدْنا من (النّقيع) حتّى أطّت الإبل، وتعبتْ، ورَغَتْ رُغاء الحَزانَى الثّكالى، فلمّا وصلْنا بها إلى (تِرْبان) استراحَتْ، كأنّها عرفتْ

شيئًا، فسألتُها والطريق لا تزال بعيدة: «أين العراقُ إذًا أيّتها الحبيبة؟».
فأمالتْ أعناقَها، وأشارتْ برأسِها أمامنا، فذلك قولي:

وَقُلْنَـــا لَهَـــا: أَيْـــنَ أَرْضُ العِرَاقِ
فَقالَـــت وَنَحـــنُ بِتِربـــانَ: هَـــا

وكانتْ أشدَّ منّا جَلَدًا، كأنّها تُقرّب ما كان بعيدًا بنجابتها وسُرعتها، وها نحنُ في جنوب الأردنّ نمضي إلى حيثُ يشاء الله. وكانَ العَبْد لا يزال يَجِدّ في طلبنا، ولكنّه لم يبقَ له أنّ يلحقَ إلا بذيل الثّوب، الثّوب الّذي سحَبناه من وسطِ (الفُسطاط) حتّى حلّ بنا هذه الدّيار.

فلمّا تركْنا (تِربان) وصلْنا إلى (حِسْمى)، وهواؤها رَخِيّ، فلمّا استروحَتْه الإبل نَشِطَتْ، وصارتْ ترمل، وتَخِد، ونحن نضحكُ فوقَها، فهذا قولي:

وَهَبَّتْ بِحِسْـــمَى هُبُـــوبَ الدَّبُورِ
مُسْـــتَقبِلاتٍ مَهَـــبَّ الصَّبَـــا

وكانتِ الصَّبا القادمة من الشّرق حيثُ العراق في وجهنا، وقد دخلْنا (حِسْمَى) هذه أواخر الشّتاء، وكانتْ طيّبةً في هذا الوقت، وشعرتُ أنّ قبضةَ (كافورٍ) تتراخَى، فأردتُ أنْ أريحَ مَنْ معي بالإقامة فيها بعضَ الوقت، نتزوّد من الطّعام والماء، ونُعِيد لأجسامنا بعضَ القُوّة الّتي فقدْناها طَوال شهرٍ من التّرحال في التّيه والرّمال.

و(حِسْمى) هذه الطّيّبة في جنوب الأردنّ، وفيها من شمالها سلسلة من الجبال الشّاهقة الحمراء المنحوتة كأنّها تماثيل عملاقة وتُدعَى جِبال (أَرَّم). فإذا تركْتَها كان عليكَ أنْ تبحثَ عن الماء، فجبال أرّم وسطَ

كثيبٍ ممتدّ من الرّمال الحمراء، وهي قليلةُ الآبار، فإنْ لم يكنْ لك فيها بِئرٌ تعرفه هلَكْت.

فلمّا دخلْنا ديار (حِسْمى) قصدتُ أمير بني فِزارة فيها (حَسّان بن حِكمة)، وأنا لا أقصده حَقًّا، وإنّما أُوهِم العبيد معي على ذلك وأُوهِم معهم ابني (مُحسّدًا) وخادمي (مسعودًا)، وأقول معلنًا: «إنّ لي بحسّان صداقةً قديمةً، أيّام كنتُ شاعر بدر بن عمّار فيما مضى، ولهذا سنقصده». وكان بنو فِزارة مع أميرهم هذا شاتِين هناك.

فلمّا شارفْنا على مضاربه، مِلتُ بالقوم الّذين معي عنه، ولم يملِ الخبر إليه عنه. فنزلتُ على جارٍ لحَسّان، هو (وَرْدان بن ربيعة) الطّائيّ. وكان (وَرْدان) هذا قَوّادًا لعينًا، فلمّا رأى ما معي من المال، وما في القافلة من سيوفٍ ورِماح، واطّلع على السّيف المُرَصَّع بالذّهب واليواقيت طَمِعَ في ذلك كلّه، ولمْ يكنْ لهذا المارق أنْ يصل إلى ما يريد إلاّ بأنْ يُغويَ العبيد الّذين معي، ويُؤلّبهم ضِدّي، ولم يكنْ من وسيلةٍ لهذا الفاسق إلاّ أنْ يستخدم امرأته من أجل ذلك، فكان يُدخلها على العبيد تُجالسهم ويأكلون معها ومنها. ولعلّه لمّا كان في ظاهر البيداء، سمع بخبر الجائزة الّتي رَصَدها (كافور) لقتلي، فَطَمِعَ في ذلك أيضًا. وسكَتُّ على بعضِ ما سَرَقه العبيد من مالي فأكل به هو وعِرْسُه، وكان سكوتي على عِلم، وعلى حذر، وعلى غايةٍ في نفسي، فما كنتُ لأقدر عليه بين قومه، وأنا أَزِن الأمور حتّى أجدَ الفرصة السّانحة، واستمرّ هو يستخدمُ جسد امرأته من أجل الحصول على ما يريد.

ومضى (وَرْدان) اللّئيم هذا يتقرّب إليَّ، وأنا أعرفُ طويّته أكثرَ منه، وأنا أُظْهِرُ له الأمن من جهتي، وكان يريدُ أنْ يصل إلى السّيف المُذَهّب، فيسألني أنْ أُرِيَه له، فلا أفعل، وأتعلّل بأنّه سيفي الخاصّ، وأنّني يُمكن أنْ أُرِيَه غَيرَه من السّيوف، وهو مُصِرّ. فلمّا لم يقدر عليه من جهتي، أدخلَ على أحدِ عبيدي امرأتَه من جديدٍ، فنال منها، وعرفَ من العبد موضعه، وأقرّه على أنْ يُبيّتوا أمرهم في قتلي. فلمّا عرفتُ ذلك في وجوههم، ومن رِيبة نظراتهم، أدركتُ أنّني إنْ لم أستَبِقْ ضربتهم كانت الضّربةُ لي. وكنتُ أعرفُ أنّ خبر وجودي هنا سيعرف به (كافور) الّذي ستكون آخرُ انتصاراتِه وأعظمها هو القبضَ عَلَيّ، فزَوّرتُ في نفسي الأمر وأعددتُ الخُطّة.

أرسلتُ تلك اللّيلة من فوري أحدَ العبيد إلى (فُلَيتة بن مُحمّد) مِنْ أصدقائي من بني فِزارة كي يبعثَ لي بدليلَين أريدُ بهما أنْ أعبر الطّرق الّتي لا تعبرها القوافل. ثُمّ لمّا خرجَ نظرتُ في وجوه عبيدي فإذا هم يشخرون، فتركتُهم نائمين، وتقدَّمْتُ إلى الجِمال، فشددتُ عليها، وحمّلْتُها الرّحال، وضربتُ أكبادَها، وأيقظتُ (مُحسّدًا) و(مسعودًا)، فأمرتُ (مُحسّدًا) أنْ يُجنّب الخيل، ويربطَ بعضَها إلى بعض ويسير بها، فتمضي معنا حتّى لو لم يكنْ فوقَ ظهورها أحدٌ. وطلبتُ من (مسعود) أنْ يشدّ قِرَب الماء على الإبل. ولم أُنبّه العبيد إلى ما عَزَمتُ عليه حتّى بدأتِ الإبلُ بالسّير، فاستيقظوا من نومهم فَزِعين، فقلتُ لهم إنّني مرتحل، ولم أتركْ لهم فرصةً ليسألوني: لماذا الآن أو إلى أين؟ بل مضيتُ أركبُ النُّوق وأحدوها، وهتفتُ: «مَنْ أرادَ أنْ يبقى فليبقَ، ومن أرادَ أنْ يتبعني، فها أنا ماضٍ».

ولَحِقَ بي العبيدُ كلّهم، وقد أبطرتْهم الرّاحة، وأترفهم الشّبعَ وأعشى عيونهم الطّمع، وكنتُ قد أشَعتُ فيهم أنّني أقصدُ (البَيَاض) مِمّا يلينا من البلاد، ولم يكنْ يدرون أنّني أترك ما أُعلِن، وآتي ما أُبطِن. فلمّا صِرنا على مشارف (البَيَاض)، توقّفتُ وفي القلبِ ما في القلب من شَكٍّ قاتل، فأمرتُ القافلة أنْ تريحَ هنا، وكان بيننا وبين (البياض) وادٍ ربّما سَلَكه في العام أو في العامَين بعضُ السّيّارة، فلم أشأ أنْ أخوضَه خوفَ أنْ تحدث تلك المرّة معي، فأندم على أنّني لم أحتطْ لمثل هذا.

فلمّا كان اللّيل. نمتُ وظهري إلى ناقةٍ بارِكة، والسّيف على عاتقي، وأغمضتُ عينًا وأبقيتُ الأخرى مفتوحة. وكان اللّيلُ أعمى، إلاّ أنّ طول النّظر في الظّلام يُورِثُ بعضَ البصر، فلمّا جاوز اللّيل، وأتى هزيعٌ في ثلثه الأخير، رأيتُ عبدًا قد قام من مجثمه، فأنهضَ فَرَسَه، ثُمّ دَفَعه إلى عَبْدٍ آخر، ومضى ليأخذَ فرسي ظَنًّا منه أنّ سيفَ الذّهب فيه. فتحفّزتُ، وبقيتُ على حالتي من التّظاهر بالنّوم، وسمعتُ العبد يهمسُ: «سيفُ الذّهبِ هنا؟». فيردّ عليه الآخر: «نعم... نعم... هَيّا اركب حصان أبي الطّيّب وَلْنَعْدُ من هنا». فما قال آخر كلمة من عبارته حتّى نهضتُ على قدَمَيّ وأسرعتُ إلى العبد الّذي عند فَرَسِي، فلمّا رآني ارتجف، وهتفَ مفزوعًا، كأنّه يشكو إلَيّ: «العبدُ أخذَ فَرَسِي». وهربَ العبدُ الآخر بفرسه، ثُمّ عدا هذا العبدُ نحو فرسي ليركبَها، فعدوتُ نحوه، فضربَ بِسَيفِه لِجامها حتّى تُصبحَ حُرّة ويجري بها، فالتقيتُ أنا وهو في رَكْضنا عندَ رأسِها، فهويتُ بالسّيف على رأسِه ففلقتُه فِلقَتين، وسال مُخّه على الجانبين، وخَرّ صريعًا من لحظته، واستفاق على ذلك بقيّةُ العبيد، فأمرتُهم أنْ يُقطّعوه أشلاءً ويرموا قِطَعه للجوارح. فلمّا تردّدوا،

أشهرتُ سيفي، وصرختُ: «إنْ لم تمتثلِوا لما أمرتُكمْ به فسأقتلكم واحِدًا واحِدًا». فنزلوا على ما أردتُ. وفعلتُ ذلك حتّى يكون هذا العبدُ عبرةً لبقيّتهم. ثُمّ أمرتُ (مُحَسّدًا) و(مسعودًا) أنْ يلحقا بالعبد الهارب ليأتياني به، وأخبرتُهما أنّني لن أبرحَ هذا المكان حَتّى يعودوا. فلمّا مَضوا وسكتَ ما في نفسي من غضب، هجوتُ (وَرْدان) الّذي أشغبَ عليّ عبيدي:

لَئِــنْ تَــكُ طَيِّــئٌ كانَــتْ لِئامًا
فَأَلأَمُهــا رَبِيْعَــةُ أَو بَنُــوهُ
وَإِنْ تَــكُ طَيِّــئٌ كانَــتْ كِرامًا
فَــوَرْدَانٌ لِغَيرِهِــمِ أَبُــوهُ
مَرَرْنــا مِنْــهُ في حِسْــمَى بِعَبْــدٍ
يَمُــجُّ اللُّــؤْمَ مَنْخِــرُهُ وَفُــوهُ
أَشَــذَّ بِعِرْسِــهِ عَنِّــي عَبِيــدِي
فَأَتْلَفَهُــم وَمَــالِي أَتْلَفُــوهُ
فَــإِنْ شَــقِيَتْ بِأَيْدِيهِــمْ جِيادِي
لَقَــدْ شَــقِيَتْ بِمُنْصُــلِيَ الوُجُوهُ

ومَضَى (مُحَسّد) و(مسعودٌ) في إثر العبْد الهارب، وقلتُ لهما: «إذا ظفرتما به فاقتُلاه، لأنّه إذا نَجا دَلَّ علينا بَصّاصي كافور». وَتَبِعَا أثرَ العبد، فأدركاه عند العصر، فصاحا به فتوقّف، وقد قَصّر به الفرس وعَيِي، وغالب الرّمال المتحرّكة في بعضِ المواضع. وهتفَ بهما: «أين سيّدي أبو الطّيّب؟!». فقال له (مُحَسّد): «إنّه خلفَنا، وسيأتيك من هذه

الجهة». وأشارَ إلى موضعٍ، فنظر العبدُ إليه فلم يرني، فدَنا منهما كالعائذ وهو يتلفّت حوله خائِفًا، وصارتِ المسافة بينه وبينهما قريبة، فتوقّف حَذِرًا، فسألاه أنْ يتقدّم، فقال: «ما أرى سيّدي معكما ولا أراه من تلك الجهة، فإنْ لم يظهرْ قاتَلْتُكما». فهجَمَا علَيه فهربَ منهما ولم يستطيعا اللّحاق به، فعادا إلينا، فلمّا عادا وافقَ عودتهما قدوم (فُلَيْتة)، فقال لنا: «إنّ ما جرى فيه خيرٌ، ذلك أنّكم لمّا لم تنزلوا من هذا الجبل إلى ذلك الوادي، وتشاغلتم باللّحاق بالعبد الهارب، مرّتْ من تحتكم سُرَبُ الخيل عابرةً من ذلك الجبل، وهي خيلٌ لكافور، فلو زُلْتُم عن مكانكم لأُخِذتم». فحمدْنا الله.

ثُمّ مضينا ومعنا (فُلَيتة) إلى (البَيَاض) في الجنوب الشّرقيّ من الأردن. وكنتُ قد نويتُ أنْ أُشرّق بالخيل أوّلاً فلا أصعد جهة الشّام من صحراء النّقب، بل أمضي إلى الشّرق ثُمّ إلى الجنوب، وأصعد من غربيّ (الحجاز) إلى (العراق)، وهي طريقٌ طويلةٌ ولكنّها بعيدةٌ عن عُمّال (كافور) الّذين يحكمون أكثر الشّام.

وكانتْ ثَمّ (أودات كلبٍ) وهي أودية تنسل من الملحاء، رابيةً مُستطيلةً فما شَرّق منها فهو (الأودات)، وما غرّب فهو (البَيَاض)، وهي شَمال الحجاز. ولم أُمعِن في المسير إلى (البياض) الّتي تقودُ إلى وادي السّرحان والأزرق، لأنّني خشيتُ أنْ تكون عيون (كافور) قد رصدت الطّريق هناك، ثُمّ ملتُ يمينًا، وطلبْتُ من (فُليتة) أنْ يخرقَ بنا إلى (دَوْمة الجندل)، فما بِتْنا فيها ليلة، ولا أرحْنا ساعة، لأنّ الجواسيس كانوا في أثرنا، فتركْناها مُنحدِرين إلى (الكفاف) وهو موضعٌ قرب

وادي القُرى، فتركْناها سائرين لا نريم إلى (كَبْدِ الوهاد) فشربْنا الماء، وسقينا الإبل، وهبطَ اللّيل، وقال العبيد: «ننامُ هنا». ونهرتُهم، وأمرتُ القافلة أنْ تسير إلى (البُوَيْرة) وهو موضعٌ في شمال (البُسَيْطة)، فعرفتُ بها الأنحاء، ووقفتُ الإبل، ثُمّ نزلتُ عنها، ومضيتُ وحدي وسيفي على عاتقي، فجسستُ الطّريق فوجدتُها خالية، فأمرتُ بالتّشريق، فوردْنا (وادي الغَضا) وما كان معي من شوقٍ كما كان مع مالك بن الرّيب فأَذْكُرَه كما ذَكَرَه في قوله:

فَلَيْـتَ الغضَا لَمْ يَقْطَـعِ الرَّكْبُ عُرْضَهُ
وَلَيْتَ الغضَا مَاشَـــى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

بل كان معي الخوفُ والحذر وفِراقُ الأوطان للنّجاة، ولذلك تمنّينا أنْ نقطعه لا أنْ نتلبّث عنده، فمضينا من هناك إلى (الجَوْش) و(العَلَم) وهما جبلان في (البُسَيطة)، والأخيرة موضعُ راحة، فمنّيتُ القافلة الّتي بلغ منها التّعب كلّ مبلغٍ أنْ نُرِيح فيها، ونبيتَ ليلة. وقبلَ أنْ يأخذ هذا القول مجرى راحته في النّفوس عرضَ لنا جماعةٌ في الطّريق نبتوا من الأرض كما ينبتُ البَقْل فخافَهم مَنْ معي، فلمّا نظرتُ في وجوههم عرفتُ أنّهم لصوص، وليسوا عيونًا (لكافور)، فحملتُ عليهم بالرّمح، ورميتُ الأوّل فأشوَيته، وهرب الباقون. فقلتُ:

رَوَامِـــي الكِفَـــافِ وَكِبْـــدِ الوِهَادِ
وَجَـــارِ البُوَيْـــرَةِ وادِي الغَـــضَى
وَجابَـــتْ بُسَـــيْطَةَ جَوْبَ الـــرِّدَاءِ
بَـــيْنَ النَّعَـــامِ وَبَـــيْنَ المَهَـــا

فلمّا توَسّطْنا (البُسَيطة) لم يبقَ في أجسام العبيد قُوّة، ودَبّ فيهم الوهن فأوهمهم، فرأى بعضهم ثورًا وحشيًّا، فقال: «هذه منارة الجامع». وما خَيّل ذلك إليه إلاّ شوقُه إلى الدّيار الآمنة في هذه الرّحلة القاتِلة القاسِية. ورأى عبدٌ آخَرُ نعامةً فقال: «وهذه نخلة». فضحكتُ حتّى كدتُ أستلقي على ظهري، وضحكوا لمّا عرفوا حقيقة ما تخيّلوا، وارتجلتُ قائِلاً:

بُسَــــيْطَةُ مَهْـــلاً سُـــقِيْتِ القِطَارَا
تَرَكْـــتِ عُيُــونَ عَبِيــدِي حَيَارَى
فَظَنُّــوا النَّعَــامَ عَلَيْــكِ النَّخِيْلَ
وَظَنُّــوا الصِّــوَارَ عَلَيْــكِ المَنَارَا
فَأَمْسَــكَ صَحْبِــي بِأَكْوارِهِــمْ
وَقَد قَصَدَ الضِّحْــكُ فِيْهِمْ وَجَارَا

وخرجْنا بعدَ أنْ أرحنا أجسادنا ليلةً في (البُسيطة) وطَعِمْنا، وأمرتُ القافلة أنْ تتوجّه شرقًا إلى (ماء الجُراويّ) وكان حَرُّ السّموم قد لَفَح وجوهنا، فأوردتُ الرّواحل الماء، فأنخْنا لنشرب، فوجدْنا الماء لقلّة الشّرب منه قد أَسِنَ وتغيّر طعمُه، وبَدَّلَ لونَه ركودُه وحَرُّ الهواء وسوافي الرّمال، وفيه دُودٌ كثير، فصَفّينا منه ما استطعنا، وشرِبْنا قليلاً، وارتحلْنا من فورنا إلى (عُقْدة الجَوف)، وقضينا لياليَ من العذاب والتّعب والوهم والسّراب والعطش حتّى وصلْنا إلى (صَوَر) وهو جبل مُنيف، تكاد تنخلع عنق النّاظر إليه إذا تسوّره بِطَرْفه، فلاحَ عند الوصول إليه الصّباح، فما أرحْنا، وقلتُ لهم: «لم يبقَ من هذا إلاّ اليسير، فاصبروا،

فإنّ حلاوة النّجاة تُسِيغُ مرارة الصّبر». فتركناه إلى (الشَّغُور) في بادية بني كلب، ثُمّ هبطَ علينا المساء حينَ وصلْنا إلى (الجُميعيّ)، فما أرحْنا إلاّ لتأخذ أجسامنا من الأرض بعضَ طبيعتها فقد تكوّرنا كالقباب ونحنُ على الرّواحل، فمضينا إلى (الأضارع) فوصلْنا إليها مع الصّباح، فأمرتُهم أنْ يتركوها إلى الماء القريب من هنا، وكادوا يهلكون وأهلكَ معهم من العطش. وسألني (مُحسّد): «أفي هذه النّواحي ماء؟!». فقلتُ: «وهل كذبَ أبوكَ مرّة؟! أنا أَعْرَفُ بهذه الموامي من الدّليل الخِرّيت، إنّنا إذا مضينا نحو الشّمال الشّرقيّ فإنّنا سنصل إلى موضعِ ماءٍ يُسَمّى (الدَّنَا). فَمُرِ القوم ألاّ يُبطِئوا». فساروا على أمل الماء، وما يعرفُ سِحر الماء مثلهم. فلمّا تشقّقتِ الحُلُوق، وجفّتِ الشِّفاه، وتمزّقتِ الأفواه، واغْبرّتِ الوُجوه، وتشعّثتِ الشُّعور، وكُنّا نسير والموتُ يسير معنا، وصلنا إلى ماء (الدَّنا)، فكادَ بعضُ العبيد أنْ يرمي نفسَه فيه من العطش فيغرق.

ثُمّ أقمْنا قليلاً، ولم يبقَ من هذه الرّحلة إلاّ أنْ نفوز. فقُمنا فأَعْرَقْنا، وصارتِ العراق على مرمى القلب، وغَذَذْنا السّير، وقد جَدّت الإبل كأنّها تعرفُ أنّنا قد اقتربْنا، فوصلْنا بعدَ ثلاثِ ليالٍ إلى (أعكش) وهو موضعٌ ليسَ بينه وبين (الكوفة) الّتي سِرْنا لأجلها هذه الشّهور الثّلاثة إلاّ القليل، وكان الوقتُ ليلاً، فلم أصبِرْ حتّى يطلع الصّباح، فنكّبْتُ (أعكش) خلفي، وأنا أكادُ أبكي من الفرح، لقد صِرْتُ الآن بمأمن؛ إنّ (كافورًا) لو بعثَ ورائي الآن كلّ جيوش الأرض فلن تستطيع الإمساك بي، وصارت القافلة تُغنِّي في ذلك اللّيل، وعلى تعبٍ

لا نقدر على وصفه كان ليلاً جميلاً، لأنّه لم يبقَ في جوزهِ إلاّ موضع واحدٌ هو (الرُّهَيمة)، فإذا اجتزناها تكونُ (الكوفة) قد فتحتْ ذراعَيها على اتّساعهما لتحتضن هذه القافلة العجيبة المجنونة:

إِلى عُقْـدَةِ الجَـوْفِ حَتَّى شَـفَتْ
بِـمَاءِ الجُـرَاوِيِّ بَعْـضَ الصَّدَى
وَلاحَ لَهَـا صَـوَرٌ وَالصَّبَـاحَ
وَلاحَ الشَّـغُورُ لَهَـا وَالضُّحـى
وَمَسَّـى الجُمَيْعِـيَّ دِئْدَاؤُهَـا
وَغَـادَى الأَضَـارِعَ ثُـمَّ الدَّنَـا
فَيَـا لَـكَ لَيْـلاً عَـلى أَعْكُشٍ
أَحَـمَّ البِـلادِ خَفِـيَّ الصُّـوَى
وَرَدْنَـا الرُّهَيْمَـةَ فِي جَـوْزِهِ
وَبَاقِيـهِ أَكْثَـرُ مِمَّـا مَـضَى

وها قد نجونا. فهل نجونا حَقًّا؟! هل ينجو هذا الفتى الّذي دَوّخ الدُّنيا، وملأ سَمْعَها بالنّشيد؟! هل ينجو هذا الفتى الّذي مَسحَ سيفَه من دماء أعدائه في كلّ مكان؟! متى تهتفُ العراق ومصر والشّام والكون كلّه مشيرةً إليه: «إنّه الفتى الّذي ادّخرناه لصروف الزّمان»:

فَلَـمَّا أَنَخْنَـا رَكَزْنَـا الرِّمَـاحَ
فَـوْقَ مَكَارِمِنَـا وَالعُـلا

وَبِتْنَـــا نُقَبِّـــلُ أَسْـــيَافَنَا
وَنَمْسَـــحُها مِـــنْ دِمَـــاءِ العِـــدَا

لِتَعْلَـــمَ مِـــصْرُ وَمَـــنْ بِالعِـــرَاقِ
وَمَـــنْ بِالعَوَاصِـــمِ أَنِّي الفَتَـــى

وَأَنِّي وَفَيْـــتُ، وَأَنِّي أَبَيْـــتُ
وَأَنِّي عَتَـــوْتُ عَـــلى مَـــنْ عَتَـــا

ودخلتُ الكوفة في شهر ربيع الأوّل من عام ٣٥١ هـ، فوزّعتُ على مَنْ تبقّى مِنَ العبيد أموالاً كثيرةً مِمّا حملتُ، وأعتقتُهم، وشكرتُهم على أنّهم ساعدوني على النّجاة، ومضيتُ أوّل الأمر أنا و(مُحسّد) و(مسعود) إلى بيتِ جدّتي، فوجدتُ أنّ أحد أعيان الكوفة يسكنُه، ولا أدري كيفَ تَملّكه، فاشتريتُه منه، وأقمتُ فيه ليالي أُحدّث (مُحسّدًا) عن كلّ ذرةٍ فيه، وذكرياتي هنا مع جدّتي، الّتي لم يكنْ يعرفها حينَ رحلتْ عن هذه الدُّنيا!!

المرحلة السّابعة

النِّهايات

٣٥١ - ٣٥٤ هـ

وَغَيْظٌ عَلَى الأَيَّامِ كَالنّارِ فِي الحَشَــا
وَلَكِنَّـــهُ غَيْظُ الأَسِـــيْرِ عَـــلَى القِدِّ
فَإِمَّـــا تَرَيْنِـــي لا أُقِيْـــمُ بِبَلْـــدَةٍ
فَآفَةِ غِمْدِي فِي دُلُوقِـــي وَفِي حَدِّي
يَحُـــلُّ القَنا يَـــوْمَ الطِّعَـــانِ بِعَقْوَتي
فَأَحْرِمُـــهُ عِـــرْضِي وَأُطْعِمُهُ جِلْدِي
تُبَـــدِّلُ أَيَّامِـــي وَعَيْـــشِي وَمَنْزِلِي
نَجَائِبُ لا يُفْكِرْنَ فِي النَّحْسِ وَالسَّـعْدِ

(١)

ماذا تبقّى من الكوفة؟!

ها أنذا أعودُ إلى مَنبِت الحُلم. الموضع الّذي قالتْ لي فيه جدّتي أشياء كثيرة، أشياء حينَ سمعتُها لأوّل مرّة ألقتْ في روعي الرّعب، ثُمّ لمّا كبرتُ صرتُ أُحِسُّ أنَّها تدعوني إلى أنّ أكون ثائِرًا صعلوكًا أقودُ الصّعاليك إلى التّمرّد ثُمّ إلى مملكة الحرّيّة، ولمّا كبرتُ أكثر وجدتُ أنّها كانت صادِقةً إلى الحدّ النّبويّ، ولكنّ صدقَها هذا لم يشفعْ لها بأنْ تعيشَ طويلاً.

والآن ماذا تبقّى من جدّتي؟! لا شيء، سوى بضع كلماتٍ قادرةٍ أنْ تعيشَ طويلاً في قلبي، وفي قلبِ من يَرِثُون قلبي، ولكنّها غير قادرةٍ على أنْ تصنع شيئًا مُهِمًّا على أرض الواقع، ذلك لأنّ الإنسان –منذُ أنْ خُلِق – كلّما فتحتْ له الحُرّيّة ذراعَيها دفنَ رأسَه تحتَ أقدام العبوديّة. وأنا أعيشُ تمامًا في هذا الظّرف التّاريخيّ بين أناسٍ من هذا النّوع، سامحَ الله جَدّتي؛ لماذا كان عليها أنْ تقول لي كلّ هذا. ولْيُسامِحْني الله، فيبدو أنّني بعدَ هذا المعارك الطّويلة سأدفن الرّمح، وسأكسر القوس، وسأبيع السّيف، وسأُلقي عَصا التّرحال.

وكيفَ هي (الكوفة) اليوم؟ خراباتٍ تعيثُ في دروبها الجُرذان، وتتسيّد على قَصَباتها الضّباع، وتُحلّق فوق سمائِها الغربان، ولا تسمع في اللّيل على أشجارها سوى نعيق البُوم.

اليـومَ (الكوفـةُ) غير الأمـس. لا أعني الوجـود العُمـراني وإنّما أعنـي العُمُـور الوجـدانيّ. الكوفـة الّتـي أراهـا اليـوم غـير الّتـي كنتُ أراهـا أمـس. يـا الله كـم تغـيّرت!! الكوفـة كانـتْ أمـسِ جـدّتي، فلـمّا رحلـت لم يبـقَ مـن الكوفـة شيءٌ؟!

سامح الله جدّتي، سامحها الله... في كلّ موقفٍ من حياتي تبرز لي دائِمًا، كلماتُها تُلاحقني، تعاليمُها تنحفر في شعوري، تجلدني بسياط العتاب، تقول: «ليس لك من البلدان إلاّ ما جادَ لك بالأمان». ولا أمان في الكوفة. غير أنّني يا جدّتي، تعبتُ من هذا التّعب، تعبتُ من هذا التّطواف، تعبتُ ألاّ يكون لي فِراشٌ أنام فيه، ولا جنبٌ أضطجع عليه، ولا بلدٌ أسكنُ إليه، تعبتُ ألاّ يكون لي صديقٌ أبثّه همومي، تعبتُ من أنْ أكون وحيدًا دائِمًا... تظنّ النّاس أنّني عنيتُ سيف الدّولة بقولي:

تَظلُّ مُلُـــوكُ الأَرْضِ خاشِـــعَةً لَهُ
تُفارِقُـــهُ هَلْكَـــى وَتَلْقَاهُ سُـــجَّدَا

وما عنيتُ والله إلاّ نفسي، ولكنْ أينَ ملوكُ الأرض لتخشع وأين هي لتهلع، وأينَ هي لتسمع، ما عادَ في الملوكِ إلاّ العبيد، وما عاد في الشّعراء إلاّ النّظّامون.

النّاس هنا تتلقّاني في الطُّرقات: أهلاً بأبي الطّيّب، أهلاً بالشّاعر العظيم، أهلاً بصاحب الشّاردات العابرات، أهلاً... يعرفونني وأُنكِر نفسي، يقولون أشياء لا أدري ما هي، أرى أفواههم تتحرّك وشفافهم كذلك، وأنا لا أسمعُ إلاّ ضجيجًا في أعماقي، وهديرًا في رأسي، أمدُّ يدي إلى طيرٍ أسودَ يحوم في فضاء عقلي منذُ زمنٍ سحيق، أريدُ أنْ أُسكِته، يُفلِت من يدي، يتكاثر، يُصيح سربًا من الغربان الّتي تتوالد من أسرابٍ أخرى كلّها تصطفق في هذه الجمجمة، متى أرتاح؟!!

دُور (الكوفة) روامس. الرّجال عوابس، النّساء عوانس، والوجوه بَوائِس، أسمالٌ باليات، ورياحٌ سافِيات. ولا شيءَ بقي على عهد طفولتي الأولى. ليسَ غريبًا أنْ يتغيّر، الغريب أنْ يفنى، أنْ يكون حُلُمًا بعد أنْ كان عالَمي الأكثر واقعيّة أيّام كنتُ أدرجُ في المكتب في هذه الدّروب.

لم يترك القرامطة من (الكوفة) لحمًا على وَضَم، لقد نهبوا كلّ شيء! هل كان فيها لحمٌ يُؤكَل قبل أنْ تُهاجِمها الذّئاب، لقد كانتْ حزينةً جائِعة منهوبةً منذُ وُجِدت، كأنّ دورها جُبِلتْ بماء الأحزان، وعُجِنتْ بطين البُؤس.

لم تُعجِبْ أهلَ الكُوفة قصيدةٌ من قصائدي كما أعجبتْهم قصيدة الرّحلة من مصر إلى هنا، قصيدة (ألا كلّ ماشية الخيزَلى)، إنّهم يستنشدونني إيّاها كلّما رأوني، إنّ أطفالَ (الكوفة) يحفظونها، ورجالَها يتندّرون بها، ونساؤها يُغنِّينها. هؤلاء الّذين يضحكون وهم يسمعونها، لم يكونوا يدرون أنّني كتبتُها بدمائي على الحقيقة، إنّ وراء هذا الغناء

الشّجيّ ألفَ موتٍ عشتُه في الصّحراء، ووراءَها ألفَ ذئبٍ نهشني، وألفَ طيرٍ نقلَ خبري إلى العبد، وألفَ لِصٍّ سرقَ مِن قُوتِ رُوحي قبل أنْ يسرق من مالي، وألفَ قَصّاصِ أثرٍ تعقّبني، وألفَ جُنديّ رماني برماحه الخَطّيّة... ثُمّ يأتي بعدَ هذا كُلّه ليتغنّى بها هؤلاء... ولكنْ ما عليهم وعَليّ، أنا كذلك لمّا أشرفتُ على (الكوفة)، وقد أَمْنتُ بكيتُ من الفرحة ورقصتُ على إيقاع البيت الأشدّ لصوقًا بشغاف قلبي:

لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالعِرَاقِ
وَمَنْ بِالعَواصِمِ أَنّي الفَتَى

ولقد كنتُ الفتى حَقًّا، ومن يستطيعُ أنْ يُنكِر ذلك؟! إنْ أنكره فليَلْقني عندَ بطنِ هذا الوادي.

الأخبار دُوَل، كما هي الدُّوَل، خبرٌ يجيء به ذاهب، ويذهب به جاءٍ، كما الدُّول تمامًا، لعلّها سُمّيتْ بذلك لأنّها تَدُول، يبطشُ صاحِبها بالنّاس فيبطشُ النّاس به ولو بعدَ حين. ينتصر على مَنْ ظَنّ أنّه عدوّه، ثُمّ ينهزمُ أمامه في لحظة شَرّ هزيمةٍ، ثُمّ يعودُ إلى مجده وانتصاره، يُعادي على ما يُحالِف، ويُحالِفُ على ما يُعادِي، وتتغيّر تحالفاته، فيُصبِحُ العدوّ صديقًا، والصّديق عدوّا... كيفَ يحدثُ ذلك أمام ناظِرَيّ وأنا أعيشُه وأصفه كما أراه؟! هل تلعبُ الأقدار بالسّلاطين، هل تتسلّى الأيّام بالدّول، هل تُحبّ النّكبات أنْ ترى أثرها في النّاس لتضحك عليهم وتسخر منهم...؟! العالَم غريبٌ مجنونٌ متبدّل متلوّن لا يُمكن أنْ تفهمه، إذا خرجتَ له بقانون، كَسَره بعدَ أوّل بيتٍ تُقيم عليه قانونك، حتّى قصائدك تتغيّر، تُبدّل قوانينها، تأكل من ثمارِ قلوبها ثُمّ تَبصُقُها

عليكَ قبل أنْ تبصقها على الملوك وعابِري الدّروب... ما الّذي يجعل هذه العُطبولَ المُتبذِّلَةَ المتبدِّلةَ في كلّ حينِ محبوبةً مُشتهاة، يشتهيها الفقراء والأغنياء على السّواء، الملوك والعبيد في حُبّها سيّان... أيّ جنونٍ وعبثٍ هذا؟!

قال لي خبرٌ ما، كان يُمكن أنْ يكون قاتِلاً في السّابق، لكنّه اليوم بدا لي خبرًا عابرًا، وبدا كأنّني أتشفّى بصاحبه؛ «لقد زحف الرُّوم على (حلب) وقَتَّلوا أهلها تقتيلاً ونهبوا قصر (سيف الدّولة)؛ قصر الدّارَين، وخرّبوه، وسرقوا أجمل ما فيه وأغلاه. ولستُ أدري هل سرقوا الأُسُودَ الّتي فيه، أم أخذوا كلّ ما يلمع، فإنّ الذّهب يُعمي. و(سيفُ الدّولة) ما فُعِلَ به؟ لقد هرب إلى الجِبال، رأى وهو يخرجُ من قصره الرّومَ وهم يحرقون القصر الّذي قضى فيها سنواتٍ طِوالاً يَبنِيه، القصر الّذي استقدمَ المُهندسين من بلاد الغال وأوروبّة من أجل أنْ يُهندِسُوه، وها هم أولادُ عمومةِ مَنْ بَنَوه هم الّذين هدموه، ونهبوا ما فيه. (سيفُ الدّولة) يُهزَم إذًا، وينظر إلى قصره المُحترِق، ويكادُ يكون مثل (نِيْرُون) مع اختلاف المواقع، فنيرون نظر من قصره إلى (رُوما) وهي تحترق، و(سيف الدّولة) نَظرَ من (حلب) إلى قصره وهو يحترق، فاحترقَ معه قلبُه.

كيفَ تُهزَم يا (سيف الدّولة)؟! إنّه من الطّبيعيّ أنْ تُهزَم إذا كان معك أولئك الّذين هربوا يوم وقائع الشّمال، يومَ لم يثبتْ معك إلاّ سبعةٌ كنتُ أحدَهم، وفرّ الباقون، لو كنتُ معك في معركتك الأخيرة هذه لَما سمحتُ لكَ أنْ تنهزَم أمامي، ولا سمحتَ لي أنْ أفعل، إنّما النّاسُ بالنّاس، وإنّ الشّجاعة تُعدي، وكذلك الجُبْن، فلمّا دَبّ الخَور فيمن حولك، دَبّ الخور ذاته في كلّ مَنْ شهد الوقيعة... أتعرف يا (سيف

الدّولة)، حتّى ولو لم أكنْ معك، أليسَ من المُفترَض أنْ يكونَ إلى جانبك شُعراءُ يُحمّسون الجنود، على القتال ويحثّونهم على مقارعة الأهوال؟! كلاّ يا (سيفَ الدّولة) وقد عرفتَ ذلك الآن؛ فكلّ مَنْ حولكَ إمّا شاعرٌ كاذبٌ مُتملّقٌ لا يُجيد القول، أو متكسّب إذا دخل الدّرهم جيبُه نامتْ كلمتُه. وما كنتُ أظنّ أنّكَ تجهل ذلك، فلماذا سَمَحْتَ لهم أنْ يستوّروا حائِطي فأرحل، وما أسفتُ على رحيلي عنكَ بِقَدْر ما أسفتُ على بقائِهم، وها أنتَ ترى أنّ بقاءهم خَوَّر العزائم وحَقّق الهزائم... فوا أسفى عليك ووا أسفى عَلَيّ!!

سيبني لكَ المُهندِسون قصركَ من جديد، ولكنْ هل يعودُ كما كان، إنّ ألفَ بَنّاءٍ له، وألفَ مهندسٍ لن يُعيدَ لكَ القُلوبَ الّتي كانتْ تعمره!! وهَبْهم زَيّنوه بالورود، فهل في الشّرذمة الّتي حولكَ مَنْ يُزيّنه بالكلمات؟! المُحزِن يا (سيفَ الدّولة) أنّه لم يكنْ أحدٌ من الّذين يُسمّون أنفسهم شعراء أو أولئك الّذين يُعدُّون أنفسهم من جهابذة اللّغة يعرفُ أكثرَ منكَ أنّ ورودَ كلماتي لا يستطيع أحدٌ أنْ يصنعَ مثلها، أتعرفُ لماذا؟ لأنّني أسقيها من ذَوْب القلوب فتُصبحَ حقيقيّة، وهم يسقونها من نَهَمِ الجيوب فتُصبِح شمعًا لا حياةَ فيها.

سيعودُ (سيفُ الدّولة) فيَبني قصره، ويُجدّد جيشَه، وسينتصر من جديدٍ على الرّوم، وستبقى في بنائِه لبنةٌ ناقِصة، إنّه ذلك الصّوت الّذي يجعل انتصارَه حقيقيًّا، ويهبه روحَ الخلود. وهو يعرف، وأنا أعرف، والشّرذمة الّذين حوله يعرفون أنّ ذلك الصّوت ما كان ولن يكون غيرَ صوتي.

بقيتُ في (الكوفة) عامًا، أعيشُ على الذّكريات، ولولاها لما احتملتُ بقاءَ يومٍ واحدٍ هنا، كم هو قاتِلٌ أنْ تعيشَ في بلدٍ يُذكّرك بالرّاحلين، وبيتٍ يُسمعك صوتَ الموتى، إنّه قَلَقٌ مُستمرّ، وذات الصّوت الّذي يطردك ويدعوك إلى أنْ تغادر حتّى لا تسمعه في كلّ لحظة، هو الصّوت الّذي يجذبك ويدعوك إلى أن تبقى، ماسِحًا على شغاف قلبك بالحنين!

غيرَ أنّني ما اعتدتُ أن أُجالِسَ الجُدْران، ولا أنْ أغلق على نفسي الأبواب، ولا أنْ أنظر من النّوافذ، وُلِدتُ على صهوات الجِياد وعلى أكوار الإبل، فأنّى لي أنْ أرتاح!

وها أنذا، الكوفةُ بلد، وبغداد بلد، والعراق كلّها بلد، وحلبُ بلد، والأردنّ بلد، ومصر بلد، واللاذقية بلد، وأنطاكيّة بلد، وحمص بلد، ودمشق بلد، والرّملة بلد، وغزّة بلد، و... العواصم كُلُّها بلد... ووحدَه شعري هو الوطن!

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٢)

أَطَوِيْلٌ طَرِيقُنا أَمْ يَطولُ؟!

لُمْلَمْتُ بقايايَ في (الكوفة). تركتُ ابني (مُحسّدًا) يختار حياته، لم تعدْ لي دالَّةٌ عليه، لّما كنتُ في عمره أو أصغر منه أسّستُ دولةً من الصّعاليك تَبِعَني فيها عشرةُ آلاف مُحاربٍ كلّهم يأتمرون بأمري، وينتظرون إشارةً منّي!! واليوم لا تتبعني غير الخيبة، والذّكريات الّتي لا تكفّ عن نقر دماغي، وتتفنّن بطرح الأسئلة القاتلة!

طَمِعَ (سيفُ الدّولة) فِيّ. أيُّ مَلِكٍ لم يفعلْ ذلك؟! غيرَ أنّني غسلتُ يَدَيّ من الملوك كلّهم. جرّأتْ وقاحةُ (كافور) معك وكَذِبُه الرّعاعَ من سفهاء النّاس، أمّا الملوك فيعرفون قَدْر نُظرائِهم. بعثَ ابنه إليَّ في شهر شَوّال من عام ٣٥٢هـ ابنه الّذي يصغر ابني بقليلٍ، وطلبَ منّي أنْ أعودَ إليه: «لا أظنّ أنّني بحاجةٍ إليكَ عندي أكثرَ مِمّا أنا عليه الآن» همستُ قبل أنْ أُكْمِلَ الرّسالة: «لستُ عندك اليوم ولم أكنْ». وتابعتُ القراءة: «ما فاتَ ماتَ...»، وهمستُ وأنا أحبِسُ دموعي: لم يمتْ يا (سيف الدّولة)، وأتمنّى لو أنّه مات. وتابعتُ: «وكم أنا راغبٌ في أنْ تصفحَ ونصفح، وتعود ونعود». وهمستُ لنفسي وأنا أمسحُ دموعي وأبتسمُ ابتسامةً شاحِبة: «لقد صرنا كَهلَين وهو يُريدُ منّي أَنْ أعود؟!».

كيفَ أعودُ يا (سيفَ الدّولة)، والمرارة الّتي لحقتْ بي من نظرةٍ واحدةٍ منك لا يُمكن لكلّ أمواه الدُّنيا أنْ تغسلها، النّظرة الّتي رأيتَ فيها الكَذَبَةَ يُهينون أنفسهم بشتمي أمامك وضربي بالمفتاح دون أنْ تحرّك ساكِنًا، أكنتَ تعتقدُ أو كانوا يعتقدون أنّني عاجِزٌ عن الرّد؟! كلاّ والله، لقد أُعطِيتُ لسانًا يصوغُ الرّدّ بأوجع ما يكون الرّدّ، ولكنّني احترمتُ وجودك، فنزّهتُ سمعكَ عن أن أقول ما يجعلهم يذوبون في ثيابهم وأنّ أُمّهاتِهم لم تلدْهم. أكنتُ عاجِزًا عن أنْ أقطعَ لسانَ مَنْ تَطاول عَليَّ بسيفي، وأجعل الدّم يثعبُ من وجهه، بلى قادرٌ على أكثر من ذلك، ولكنّني مرّة أخرى احترمتُ وجودك، وعجبتُ كيفَ يستخّفون بهذا الوجود وهذا المقام فلا يتورّعون عن السّباب في حضرتك، أما لو كنتُ مكانكَ لطهرّتُ المجلسُ كلّه من قذراتهم، ولكنّكَ رضيتَ بما رَضِيَ السَّفَلة، واستمعتَ إلى مقالة الحمقى... آلآن عرفتَ الحَقّ، وعرفتَ أنّهم زبدٌ وأنّني وحدي الماء، وعرفتَ أنّهم كَذَبة وأنّني وحدي الصّادق؟! لا والله يا (سيف الدّولة) لن يكون. ووالله لو فَتّشْتَ عن قلبي لوجدتَ فيه الحُبّ لك الّذي كان، لكنّه حُبٌّ شابَه سوادُ تلك المواقف، فلم يعدْ قادِرًا على أنْ يكون كافِيًا لألقاكَ من جديد.

تقول في الرّسالة إنّكَ مريض، وما أنتَ مريضٌ لعِلّة، فأنتَ لعلّة الدُّنيا طبيب، ولكنّ الّذي أمرضَك استمرار وجود هؤلاء الحمقى حولك، ليتَ وجودهم يبقى ثابِتًا، إنّهم يتوالدون ويتناسلون، كأنّ الأقدار لم تكتفِ بأنْ تنزل بِكَ في صورةِ مَنْ يُحاربونك من الرّوم في الشّمال، ومن العرب عن جانِبَيك، ومن كلّ حاسدٍ وحاقد، حتّى ألقَى بهذه الشّرذمة في قصرك!!

تقول في الرّسالة، إنّ الدّولة قد بدأتْ تنهار، وإنّ أطرافها قد صارتْ مثلما الثّوب، تنسُلُ. وتقول: الرّوم ذئابٌ متى رأوا ضحيّتهم جريحة استشرسوا؟! وتقول إنّ مَنْ حولكَ صاروا يطمعون في مُلكك، ابنُكَ الّذي تُعِدّه من أجلِ أنْ يرِثَك، قائدُ الجيش المتحمّس لأنْ يتربّع على العرش، وهناك الّذي لم يعرفْ لي فضلك، ابنُ عمّك أبو فراس، أعلمُ أنّه في الأسر عند الرّوم منذُ حوالي خمسِ سنوات، بعدَ أنْ غادرتُك بقليلٍ، وأعرفُ لماذا لم تفتدِه من الأسر حتّى الآن، غير أنّه مع كلّ ذلك، يقولُ في نفسه: «إنّني أحقُّ بالخِلافة من ابن عمّي نفسِه، فكيفَ أتركُها لابنه وهو لا يَزال حدثًا». إنّه ينتظر - مثلَ كثيرين غيره - لحظةَ خروجه من السّجن من أجلِ أنْ يُنشِبَ أظفاره قابِضًا على ما تبقّى من الكرسيّ. لا تقلق يا (سيف الدّولة) سوفَ ننتهي جميعًا. لا تقلق يا صديقي القديم سنفنى أنا وأنتَ و(أبو فراسٍ) في عامٍ واحدٍ، هل تشعرُ بهذا؟! هل تراه؟!

لو كان لي قلبُ ذلك الفتى يا (سيف الدّولة) لعدُت. ولكنَ قلبي لم يعد قلبي. فسلامٌ عليك، سلامٌ على أيّامك البيضاء، سلامٌ على الحلم الّذي نما في رِحابكَ ثُمّ اغتالتْه سيوفٌ كثيرة، سلامٌ عليّ يومَ تُقتُ إليك، ويومَ لقيتُك، ويومَ خرجتُ من عندك.

أحسنتُ ضيافة ابن سيف الدّولة في دار جدّتي بالكوفة، وقلتُ له مازِحًا ومُداعِبًا: «هذه الدّار القديمة الصّغيرة أحسنُ عندي من قصرِ أبيك». فردّ وهو يضحك: «ولكنّكَ لن تجد فيها مَنْ يُشْعِرك بأنّكَ حَيّ؟». وصدق فإنّ العداوات الّتي رأيتُها في قصر أبيه، كانَتْ مادّة شِعري ووقوده. ثُمّ إنّ المكان الّذي تعيشُ فيه مع ذكرى الرّاحلين هو قبر.

ودّعتُ ابن سيف الدّولة، رافقتُه إلى ظاهر (الكوفة)، وأعطيتُه رَقًّا فيه قصيدةُ اعتذارٍ وشوقٍ إلى أبيه، فضَمّها الابن إلى ضلوعه، وقبّلها، ومضى شاكِرًا. في الطّريق لم يصبر الابن على أنْ يُسلّم القصيدة لأبيه مختومة، ففضّ الختم، وراح يقرأ:

مَــا لَنَــا كُلُّنَا جَــوٍ يَا رَسُــولُ
أَنَــا أَهْــوَى وَقَلْبُــكَ المَتْبُولُ؟!
كُلَّــمَا عَــادَ مَــنْ بَعَثْــتُ إِلَيْهَا
غَــارَ مِنِّــي وَخَــانَ فِيْــمَا يَقُولُ

ابتسم، وأسَرَّ في نفسه: «ما عَنَى إلاّ خولة، وما عَنَى بالرّسول إلا أبا فراس، ويحه جعله الأميرَ رسولَه إلى حبيبته، وجعله خائِنًا!!». ثُمّ أردفَ فقرأ:

تَشْــتكي مَا اشْــتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ
قِ إِلَيْهَا وَالشَّــوْقُ حَيْــثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَــرَ الهَــوَى قَلْــبَ صَبٍّ
فَعَلَيْــهِ لِــكُلِّ عَــيْنٍ دَلِيــلُ

وابتسم من جديدٍ، جعل الرَّسُول كاذِبًا في دعواه حُبّ خولة، وجعل نفسَه صادِقًا، وأقامَ الدّليل على دَعواه تلك من نحول جسده. أيّ شاعرٍ وأيّ عاشقٍ هذا؟!

زَوِّدِيْنا مِنْ حُسْــنِ وَجْهِــكِ مَا دَا
مَ فَحُسْــنُ الوُجُــوهِ حَــالٌ تَحُولُ

وَصِلِيْنَـا نَصِلْـكِ فِي هَـذِهِ الدُّنْـ
ـيَا فَـإِنَّ المُقَـامَ فِيْهَـا قَلِيـلُ

وهتف في نفسه: «إنّه لم ينسَ خولة، أفي هذا السّنّ وقد جاز الخامسة والأربعين؟! لا بُدّ أنّ ما يثبتُ في الفؤاد من الحُبّ لا يُمكن أنْ تُبدّله الأيّام. ثُمّ إنّه يريدُه أنْ يكونَ حتّى بعدَ أنْ فقد مكانته عند سيف الدّولة، ماذا يُريدُ من حُبّ كهذا لا تكون وراءه غايةٌ ولا مصلحة؟! ثُمّ كأنّه في بيته الأخير يتنبّأ بموته، أفكان يريدُ أنْ يموتَ وتموتَ معه، أمْ أنّه أرادَ أنْ تكونَ له ولو لزمنٍ قليلٍ قبل أنْ يموت. ما أغربَ وِجدان هذا الشّاعر؟!

فلمّا وصل ابنُ سيف الدّولة إلى قولي:

نَحْـنُ أَدْرَى وَقَـدْ سَـأَلْنا بِنَجْدٍ
أطَوِيْـلٌ طَرِيْقُنـا أَمْ يَطـولُ؟!

تلفّت حوله يبحثُ عنّي، وشعرَ أنّني معهم وأنّني أراقبهم، وهيهات، وبين نجدٍ والكوفة ما بينهما، فهل كنتُ معهم حقًّا. فلمّا أردَفَه بقولي:

وَكَثِـيْرٌ مِـنَ السُّـؤَالِ اشْـتِيَاقٌ
وَكَثِـيْرٌ مِـنْ رَدِّهِ تَعْلِيـلُ

هتفَ وعيناه تدمعان: «صدق والله». ثُمّ لمّا قرأ:

وَالمُسَـمَّوْنَ بِالأَمِـيرِ كَثِـيْرٌ
وَالأَمِـيْرُ الَّـذِي بِهَـا المَأْمُـولُ

الَّـــذِي زُلْتُ عَنْـــهُ شَرْقًـــا وَغَرْبًا
وَنَـــدَاهُ مُقَابِــلِي مَـــا يَـــزُولُ

قال: «لا يزال يُحبّ أبي، لكنّه لا يُريد العودة، وصَدّق ذلك قفلتُه للقصيدة:

مِنْ عَبِيْدِي إِنْ عِشْـــتَ لِي أَلْفُ كَافُو
رٍ وَلِي مِـــنْ نَـــدَاكَ رِيْـــفٌ وَنِيْلُ
مَـــا أُبَـــالِي إِذَا اتَّقَتْـــكَ الرَّزَايَـــا
مَـــنْ دَهَتْـــهُ حُبُولُهَـــا وَالخُبُـــولُ

وأعادَ طَيّ الرّقّ من جديد، وهمسَ وهو ينظرُ في الفَضاء البعيد: «ليتَه يعود، ولكنّني أوقن الآنَ أنّه لن يفعل».

وضاقتْ عليّ (الكوفة) على ضِيقها، ودَعاني غيرُ مُريدٍ أنْ آتي (بغداد)، الّتي لا تزال - على كثرةِ من أكلَ من ثديَيها - حاضرة الدُّنيا وعاصمة الخِلافة، فمضيتُ إليها، وفي الطّريق رأيتُني صغيرًا، في خروجي الأوّل من (الكوفة) إليها، كنتُ لا أزال طفلاً في الثّامنة، وكان أبي إذا تعبتُ من السّير، حملَنِي بينَ ذراعَيه، وطار بي، لم يكنْ أبي من البشر، وما كنتُ أشكّ في أنّه من الجِنّ، وأنّه لم يمتْ ولكنّه غاب، ولا أدري إنْ كان سيعودُ في حياتي أم أنّه سيُطيل الغِياب، كان أبي إذًا يحملني بين ذاعيه ويطير كما قلتُ، ويهمس: «افْتَحْ قلبَك يا بُنيّ، وانْظُرْ إلى تلك العوالم، الكونُ كُلّه بانتظارك». وما أدري ماذا بقي من هذا الكون؟! لم يبقَ فيه إلاّ كلّ ناهزٍ فرصةً من أجل أنْ يطعنني، ولكنْ حسبي أنّني

طَوال هذه السّنوات كلّها عملتُ بوصيّة أبي: «ما انحنيتُ لأحدٍ»، وكنتُ مُستعِدًّا إلى اليوم أنْ أموتَ في سبيل غايتي.

حينَ وصلتُ إلى (بغداد)، استقبَلني على مدخلها (عليّ بن حمزة البصريّ)، تلقّاني بالأحضان، وهتف: «أنا خادمكَ الصّغير». ومضى بي إلى بيتهم في (ربض حميد)، وأنزلني داره على الكرامة والمحبّة، وكان من أهل اللّغة. وقال لي: «إنّ صديقكَ ابن جنّي في بغداد كذلك، وإنّه لمشتاقٌ إليك».

في اليومين التّالِيَين، جاءني (عليّ بن حمزة) بكلّ ما أريد، قال لي بصوتٍ يقطر رجاءً: «يا مولاي لي طلبٌ يتيمٌ واحدٌ، إنْ قبلتَ به أعطيتُك روحي». رددتُ عليه وأنا أبتسم: «ما هو يا عليّ؟!». هتف: «أنْ أكونَ راويةَ أشعارك». «ستكون». «وأنْ أكتبَ عنكَ كلّ شِعرك». «لا بأس».

صار عليٌّ راويتي إذًا، كُنّا نجلسُ في داره، في مُتّسعٍ من غُرفِها، وكنتُ أُملي عليه أشعاري، وقد بدأتُها من أوّلها إلى آخرها بترتيب الزّمن، وكان يكتبُ بأمانةٍ عنّي كلّ ما أقول، ولا يزيدُ حرفًا، وكانَ يسألني عن بيتٍ من الشِّعر: «لقد أنشدَنا هذا البيت إلى هذه القصيدة فلانُ بن فُلان». فأردّ: «صَدَقَ وصَدَقْتَ، ولكنّني لا أريدُ أنْ أضمّه إلى القصيدة». وهكذا في بغداد بدأتْ مرحلة تدوين شِعري وغربَلْتُه، فأسقطْتُ منه بعضَ الأبيات الّتي لم أرضَ عنها، بل إنّني أسقطتُ قصائدَ كثيرةً مِمّا كتبتُ. أعني ربّما أسقطتُ أكثر من ثلث شِعري! هل

كان الأمر يستحقّ؟! إنّ الشّعر الباقي هو الشِّعر الّذي جمَعَ إلى شَرَفِ المعنى وحُسْنِ السَّبْك وبُعدِ الشّأو وسعةِ الخيال - الحِكمةَ والفلسفة، أمّا التّاريخُ الّذي قالَه شِعري، فإنّه كبيرٌ وطويلٌ وممتدّ، ولا يَضِيرُه أنْ يسقطَ منه بعضُ حروفِه، فسقوط هذا الشّعر لا يعني سقوط التّاريخ، ولو أسقطتُ ثلاثة أرباع شِعري، لظَلّ تاريخي عظيمًا يحتاج إلى آلاف المُجلّدات من أجلِ أنْ تقوله!!

صارت النّاس تغشى مجلسي، كان مجلسَ استنشادٍ، وأحيانًا مجلسَ عِلم، غيرَ أنّ الاستنشادَ جعَل الهُواة والمُتصيِّدين والسُّفَهاء يَغشَونه، وقد كنتُ أُهمِلُ بعضهم لا ازدِراءً، ولكنْ توقِّيًا لحماقةٍ قد تحدث أو حوارٍ عقيمٍ قد يجري بيننا. ولِذا لم تَرُقْ لي هذه المجالِسُ كثيرًا. غيرَ أنّ ابن جِنّي مع ابنِ حمزة كانا يُخفِّفان عَنّي قليلاً.

وكان ابن جنّي يقرأ عليَّ ديواني، وأنا أسمعُ وأُحِقِّقُ وأُدقِّق، فلمّا قرأ عَلَيَّ قولي: (أُغالِبُ فيكَ الشّوقَ والشّوقَ أغلبُ)، ومضى حتّى وصلَ إلى قولي:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيْدَةً
فَلا أَشْتَكِي فِيهَا وَلا أَتَعَتَّبُ
وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنّي أَقَلُّهُ
وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ

هتف: «يَعِزّ عَلَيّ كيفَ يكون هذا الشِّعر في ممدوحٍ غيرِ سيف الدّولة؟!»، فقلتُ له: «لقد حَذَّرْتُه وأنْذَرْتُه فما نفع!! ألستُ مَنْ قال فيه:

أخَا الجُوْدِ أَعْطِ النَّــــاسَ مَا أَنَا مَالِكٌ

وَلا تُعْطِـــيَنَّ النَّــــاسَ مَا أَنَـــا قَائِلُ

فهو الّذي أعطاني لكافورٍ بسوء تدبيره وقِلّة تمييزه».

وأكملَ ابنُ جنّي والأسفُ بادٍ على وجهه القصيدة حتّى إذا وصل إلى قولي:

وَمَــــا طَـــرَبِي لَمَّـــا رَأَيْتُـــكَ بِدْعَةً

لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُـــو أَنْ أَرَاكَ فأَطْرَبُ

قال: «ما زِدْتَ أنْ جعلت الرجل أبا زَنّة. لقد استهزأتَ به وهجوته، كأنّكَ تقول: طربتُ على رؤيتك كما يطرب الإنسان على رؤية القِرد وما يستملحه فيه ويضحك منه» فضِحكتُ وضَحِك.

ثُمّ إنّ (ابن جنّي) بعدَ أنْ فرغنا من رواية ثلث قصائدي، قال لي: «إنّ أبا مُحمّد المُهلّبي وزير مُعِزّ الدّولة، يتشوّف إلى لقائك». فقلت: «ما لي وما له؟!». «إنّه يُحبّ أنْ يسمع منك، وله في الشّعر واللّغة فضلٌ وباع». فقلتُ: «إنّني أربأ أنْ يجمع في مجلسه كلّ لاقِطة». فما زال بي حتّى أتيناه، فسلّمْنا عليه، وإذا عنده جماعة، عرفتُ منهم نائِبَ الوزير، وأبا الفرج الأصفهانيّ، وبعض أهل اللّغة، فقرّبني، فجلستُ عن يمينه، فأنشدَ القوم:

سَــــقَى اللهُ أمْوَاهًا عَرفْـــتُ مَكَانَهَا

جُرَامًـــا وَمَلْكُومًا وَبَـــذَّرَ فالغَمْرَا

فقلتُ: «جُرابًا لا جُرامًا، وهذه الأمكنةُ قتلْتُها عِلمًا، ومررتُ عليها موضعًا موضعًا، وإنّما الخَطأ وقع من النَّقَلة». فأنكرَ عَلَيّ أبو الفرج ذلك، فغاظني وهو الّذي لم يسرْ في المفازات كما سرت ولا مرّ بالأهوال كما فعلتُ، بل بقي يتمسّح بأعتاب الملوك، فهتفتُ: «وهل تعرفُ أنتَ هذه الأماكن؟». فأحرجه السّؤال، فقلتُ في نفسي: «مِنْ أجل ذلك لم يُعطِكَ سيفُ الدّولة على ثرثرتك في خمسين مُجلّدة سوى ألفِ دينار». وشايَعه على ما قال مَنْ في المجلس، وهم لم يرتحلوا في حياتهم أكثر من عتبةِ بيوتهم. واحتجّ بعضُهم بما أنشده الأخفش، والأخفش نحويّ لا رَحّالة، وعالِمٌ باللّغة لا بالأمكنة، فعرفتُ أنّ القومَ تمالَؤوا عَلَيّ، وأنّ الحسَد والحقد والكُرْه في قلوبهم لن يتغيّر ولو تغيّرت جلودهم.

ثُمّ عُدتُ في اليوم الثّاني، لغايةٍ في نفسي. وانتظر (المُهلّبيّ) أنْ أُنشِده لمجرّد أنّه وزير، وأنْ أقول فيه الشّعر لمجرّد أنّ له مكانةً عند الأمير، سُحقًا لك وللأمير وللدّولة كلّها إذا كنتَ ستحملني على ما أكره. ومَرّ الوقت، والثّرثرة من حولي تعلو وتهبط، والوزير ينظر في وجهي لعلّني أقول ولو بيتًا واحِدًا فيه، فبقيتُ صامِتًا، ثُمّ نَظَر في وجوه جُلسائه ونظروا في وجهه فما شفيتُ غليلهم بحرفٍ واحدٍ، وهمسَ بعضُهم وهو إلى الخوف أقرب منه إلى الكُره: «إنّه صعبُ الشّكيمة، حادّ الطّبع». وخرجتُ وتركتهم من بعدي يَتَفكّهُون.

فلمّا صار مجلسُه في اليوم الثّالث لم آتِ قَطّ، فأغيظَه ذلك، وأحنَقَه، وهتفَ بمن حضر: «مَنْ يظنّ نفسَه هذا الدّعيّ، إنّه ابنُ سَقّاء، وأنا الوزير...» ولم يستطع أنْ يُتِمّ عبارته من الغيظ برهةً، ثُمّ استعادَ صوتَه،

فهتف: «ليَرَيَنّ منّي ما لم يرَ من سِواي، لأُغْرِيَنّ به شُعرائي تُذكّره بنسبه، وتُعرّفه مكانته».

فلمّا كان الغَد، كان قد أغرى بي كلّ السّاقطين من شعراء (بغداد) الّذين كانوا يَغشَون منزله، وماذا يكون الإناء إذا لم ينضَحْ بما فيه؟! أغرى بي ابنَ الحَجّاج، وابْنَ سُكّرةَ، والحاتِميّ، وراحوا ينالون من عِرضي، ويتماجنون بي، ويتنادرون عَلَيّ، وأنا لا أُجيبهم ولا أُفكّر فيهم، فزادَهم ذلك غيظًا، حتّى خرجَ ما فيهم من سوءٍ؛ فزادهم أنِ اضطررتُهم إلى ذلك غيظًا عَلَى غيظهم!

فقد حدثَ أنْ كنتُ أسيرُ في صينيّة الكرخ في (بغداد) على فرسي، فأقبلَ ابنُ الحَجّاج، فَجَبَهَ الفَرَس، ثُمّ عَلِقَ بلجامها، فتَجمّع النّاس، وتقاطروا من الجهات، فما قلتُ شيئًا، ثُمّ إنّه ابتدأ يُنشِدُ قصيدته، فقال في أوّلها يستهزِئُ بي:

يا شَــيْخَ أَهْــلِ العِلْمِ فِيْنَــا وَمَنْ
يَلْــزَمُ أَهْــلُ العِلــمِ توقــيرَهْ

فصبرتُ عليه، وأنا ساكِتٌ ساكِنٌ، ضاحِكٌ في داخلي من حماقته والقهر الّذي يغلي فيه، حتّى أتمّ قصيدته وهو يستهزئ بي وبشعري، فلمّا أتمّ ذلك تركَ لِجام فرسي، وانصرفتُ أنا كأنّه لم يقلْ شيئًا، فقال لي ابن حمزة البصريّ، وقال غيرُه مِمّن شَهِدَ الحادثة: «ألا تردّ عليه؟!». فقلتُ: «لقد فرغتُ من الإجابة بقولي لمن هم أرفعُ طبقةً في الشّعراء من هذا وأضرابِه:

أَفِي كُلِّ يَـــوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُـــوَيْعِرٌ

ضَعِيْـــفٌ يُقَاوِيْنِي قَصِـــيْرٌ يُطَاوِلُ

لِسَـــانِي بِنُطْقِي صَامِـــتٌ عَنْهُ عادِلٌ

وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِـــكٌ مِنْهُ هَازِلُ

وَأَتْعَـــبُ مَنْ نَـــادَاكَ مَـــنْ لا تُجِيْبُهُ

وَأَغْيَـــظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لا تُشَـــاكِلُ

ولم يتوقّفْ حِقدُ المهلّبيّ علي لمّا تَجاهَلْتُه، فراح يبعثُ سقَط شعرائه شاعِرًا شاعِرًا، وسفلة جُلسائِه سافِلاً سافِلاً، ينحتون في أثلتي، ويتجرّؤون عَلَيّ، وأنا أُعرِضُ إعراض المُزدري المُتجاهل، وكلّما أعرضتُ عنه وعن رُسُلِه زادَ الكيد والغيظُ في قلبه.

(٣)

وَنَترُكُ الماءَ لا يَنفَكُّ مِن سَفَرٍ

عرفتُ أنّه لا مُقامَ لي في (بغداد)، ولكنّني لم أعرفْ أينَ أمضي بعدُ، وقد اسودّتِ البِقاع كلّها إلاّ (حلب)، فما زال فيها بعضُ الحُبّ، وبعدَ ثلاثةِ أشهرٍ - هي كلّ ما أقمْتُه في بغداد - تركتُها بعدَها إلى ما ابتدأتُ، سفرٌ دائِمٌ وقلبٌ قتيل.

قلتُ: أذهبُ إلى (حلب)، فإنّها أرجى البِقاع وإنْ كانَ لا رَجاء، وإنّ (سيف الدّولة) بعثَ منذُ عدتُ من (مِصر) ثلاثة رُسُلٍ إلى الآن يشوّقني إلى زمنٍ مضى. وفيها ما يدعو إليه، فيها (خولة)، لكنّني تردّدْتُ، فإنّ القلب المَشرُوخ الّذي أحمله في ضُلُوعي لن يُعينني على المسير. ثُمّ قرّرتُ في نهاية المطاف أنْ أعودَ إلى (الكوفة) ريثما أجدُ بلدًا يليقُ بي.

وفي الطّريق عاَدَتْني الذّكريات، رأيتُني أدخل على (سيف الدّولة)، كانَ شابًّا وسيمًا قسيمًا، ولكنّه اليوم مُصابٌ بالفالج، وهو كهل، مريضٌ، يرجو أكثرُ الّذين معه موتَه. صوتُه صارَ مهيضًا جريحًا، ألفُ عاوٍ حوله ينتظر اللّحظة المُناسِبة لكي ينقضّ عليه، الدّولة هناك تترنّح تحتَ ضَرَبات الرّوم، لقد صاروا يشعرون أنّهم سيستأصِلون شأفَتَه، ولهذا صاروا يُهاجِمونه أكثر مِمّا يفعل، الحمدانيّون أبناء العمومة مختلِفون فيما بينهم، الجيش يحاول أنْ يكون دولةً داخل الدّولة، رأسُ

الجيش يحاول أنْ يُزيح رأسَ الدّولة، أو يكون دُولةً بينهما... ثُمّ هَبْ أنّني عُدتُ، فهل يعودُ القلب؟! لقد اختلفَ قلبانا يا (سيف الدّولة)، لا تنظر إِلَيّ من زاويةٍ فيه تُسمّى زاوية الماضي، أو العهد القديم، فإنّ هذه الزّاوية ضاقتْ كثيرًا في القلب، ولم تعدْ هي الوحيدة، صارَ هناك ألفُ زاوية وألفُ نافذة، وإذا فتَحْنَا أيّ نافذة فستنبحنا كلاب الطّريق، وما أكثرها! ثُمّ كيفَ أُسامِحُ نفسي وقد عَرَّضْتُ بك في أكثرَ من موضعٍ عندَ العبد الخَصِيّ، كيفَ سأنظر في عينيَك إذا ما استعدتُ تلك الأبياتَ أو استعَدْتَها أنتَ، كيف... كيف يا سيف الدّولة؟!

كان اللّيل قد شمل الطّريق وأنا عائِدٌ وألفُ جرحٍ من دمي يسيل، ما بين (بغداد) و(الكوفة)، هابِطًا مع نفرٍ قليلٍ؛ ثلاثةٍ أو أربعة، ابني وخادمي وراويتي، وأنا... في اللّيل البهيم، لا أَحدَ يُريدُ أنْ يقول شيئًا، إمّا لتعبِ الجسد، وإمّا لتعبِ الرّوح، كنتُ أتهادَى على جَمَلي، وأنا أنظرُ إلى السّماء، فإذا سوادُ اللّيل قد رَصّعها، وزَيَّنَها للنّاظرين، وأمعنتُ النّظر في ناحيةٍ من تلك السّماء، فرأيتُ في إحداها صورة أبي، وفي الثّانية صورة جدّتي، وفي الثّالثة صورة زوجتي، وإذا هي تضحك كلّها، وتسير هي الأخرى معنا في هذا اللّيل، وبالقَدْرِ الّذي غَمَرني فيه هذا الخَيال بالحُزن فإنّه غمرني كذلك بالفرح، فرحتُ أبكي ثُمّ أضحك، ثُمّ أعودُ للبكاء والضَّحِكِ معًا، ومسحتُ دموعي، وواريتُ وجهي حتّى لا يراني أحدٌ، وساعدتْني شِدّة الظّلام على ذلك، ورحتُ أهتف:

حَتّامَ نَحْنُ نُسَـــاري النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ
وَمَـــا سُرَاهُ عَـــلَى خُـــفٍّ ولا قَدَمِ

وَلا يُحِـــسُّ بِأَجْفَـــانٍ يُحِـــسُّ بِهَا
فَقْـــدَ الرُّقَـــادِ غَرِيْبٌ بَـــاتَ لَمْ يَنَمِ

وما في الأرضِ والله غريبٌ مثلي، وما فيها مَنْ حُرِمَ النّوم مثلي. ولكنّني ماضٍ إلى قدري، وأيًّا كان فأنا لم أعدْ أكترث. فإنّ فَقْدَ الأحباب هَوّن عليّ كلّ مُصيبة.

وعادَتْني ذِكرى (فاتِك)، فقد كان يُمكن أنْ نصنع شيئًا معًا، ولكنّ الأَسْود على الأرجح قتَلَه، أو دَبَّرَ له ذلك، فتاريخُه في القتل الخَفِيّ طويل، ومَنْ يدري ماذا يبعثُ اليوم أو مَنْ يُسخِّر من أجل أنْ يفعل ذلك معي، فأنا أعرفُ أنّه لن ينسى ما قُلتُه فيه، ولن يرتاح إلاّ إذا رأى رأسي مقطوعًا مُعَلّقًا فوق رُمحٍ في الصّافية:

لا فاتِـــكٌ آخَـــرٌ في مِـــصْرَ نَقْصِدُهُ
وَلا لَـــهُ خَلَـــفٌ فِي النَّـــاسِ كُلِّهِمِ
مَـــنْ لا تُشَـــابِهُهُ الأَحْيَاءُ فِي شِـــيَمٍ
أَمْسَـــى تُشَـــابِهُهُ الأَمْواتُ في الرِّمَمِ

ثُمّ تذكّرتُ ملوكَ الأرض فرأيتُهم إمّا عبيدًا حاشا سيف الدّولة، وإمّا حجارةً أو حديدًا. ما كان فيهم غيرُ هيئاتهم تدلّ على أنّهم بشر، وأمّا ما دون ذلك فأصنام تُعبَد دون أنْ تنطق:

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إِبْـــلِي كُلَّما نَظَرَتْ
إِلَى مَـــنِ اخْتَضَبَـــتْ أَخَفَافُها بِدَمِ

أُسِـــيْرُها بَـــيْنَ أَصْنَامٍ أُشَــاهِدُها

وَلا أُشَــاهِدُ فيهــا عِفَّــةَ الصَّنَمِ

حَتَّـــى رَجَعْتُ وَأَقْلامِــي قَوائِلُ لِي

المَجْدُ لِلسَّـــيْفِ لَيْسَ المَجْـــدُ لِلقَلَمِ

ولمّا أَنَخْنا في اللّيلة الثّانِية، تذكّرتُ الوزير الأحمق المُهلّبي الّذي أغرى سفلة القائلين كي يسبّوني ويطعنوا في نَسَبي، فظنّوا أنّ سكوتي عجزٌ، ولكنّهم لم يعرفوا أنّ الكِبار يترفّعون عن الدّنايا، وأنّ أنفتي لا يفهمها مَنْ مرّغوا أنوفهم بأنفسهم في التُّراب، أفرأيتَ لو أنّ هِرًّا صغيرًا تَهارَشَ مع الأسد، فهل يلتفتُ الأسدُ إليه؟!

تَوَهَّـــمَ القَـــومُ أَنَّ العَجـــزَ قَرَّبَنا

وَفي التَقَـــرُّبِ ما يَدعـــو إِلى التُّهَمِ

وَلَم تَـــزَل قِلَّـــةُ الإِنصـــافِ قاطِعَةً

بَينَ الرِّجالِ وَلَو كانـــوا ذَوي رَحِمِ

فَـــلا زِيـــارَةَ إِلّا أَن تَزورَهُـــمُ

أَيدٍ نَشَـــأنَ مَـــعَ المَصقولَـــةِ الخُذُمِ

مِن كُلِّ قاضِيَـــةٍ بِالمَوتِ شَـــفرَتُهُ

مـــا بَـــينَ مُنتَقَـــمٍ مِنـــهُ وَمُنتَقِمِ

وفي الطّريق في اللّيل عَدا علينا وعلى مجموعةٍ من القوافل السّيّارة لِصٌّ ومعه جماعةٌ من اللّصوص يأتمرون بأمره، يُدعَى (ضَبّة)، وكان

إلى لصوصيّته قاتِلٌ يقتلُ كلّ مَنْ يقفُ في وجهه، وكلّ ما طالتْه يداه هو وجماعته، فلمّا كُنّا في وسط الدّرب في جوز اللّيل، هَجَمَ علينا، فقتلَ من النّاس مقتلة، وطرَدْتُه أنا وابني فما قدر على شيءٍ مِمّا كان لَنا.

فلمّا ضَوّأ الصُّبح، وقطعْنا فرسخًا من الطّريق، رأينَا آثار الدّماء على النُّوق، وأنفسًا كثيرةً قد أزهِقَت على جانِبَيه. ولحقنا ببعضِهم قبل أنْ يلفظَ آخر أنفاسِه فأنقذْنا ومرّضْناه، فسمعتُ جماعةً تقول: «لو أنّكَ تهجو ضَبّة هذا؟». فقلت: «أهجو لِصًّا؟! أيّ فضلٍ لي في ذلك؟! لو لا اضطراري إلى الهِجاء لترفّعتُ عنه حتّى ولو كان في هجاء الملوك فما بالُكَ بهجاء السُّوقة؟!». فقالوا لي: «إنّه يتكلّم فُحشًا في حقّك». فقلتُ: «ليسَ على لِسان الأحمق عتب». فما زالوا يقولون فيه، وينقلون ما يقول فِيّ، حتّى نهرتُهم. فلمّا استيأسوا، قال أحدُهم: «إنّه قد كادَ يقتلُ ابنك، وإنّه يقول إنّكَ ابْنُ سِفاح، وخاض في عرضِكَ ونسبك ما لا يُمكن أنْ نقوله، وسَرَقَ من مالك، وتوعّد أنْ يقتلك في المرّة القادمة». فلمّا أنهوا مقالتهم لم يُحرّكْ فِيّ ما قالوه شيئًا، غيرَ ما كان من أنّه يتهدّدُني بالقتل، فقلتُ: «هذا الفِسْل يقوى على أنْ يُفكّر في قتلي؟». فقالوا: «إنّه فَتّاك، وإنّه يقتلُ غِيلةً وغدرًا». فلمّا مضى على وعيده إيّاي، قلتُ فيه قصيدةً لو راجعني فيها ابن الحمزة البصريّ لحذفتُها، وهي تنفيسٌ عن غضبتي مِمّا لقيتُه من الكلاب والرّعاع في (بغداد)، فقلتُ لِدَفْع ما في النّفس، ليسَ لكي تُروى أو تُنشَد:

ما أَنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّةْ
وَأُمَّهُ الطُرطُبَّةْ

رَمَـــوْا بِـــرَأسِ أَبيـــهِ
وَباكُـــوا الأُمَّ غُلُبَّـــةْ

وها أنذا أدخل (الكوفة)، البلد الّتي ظننتُ أنّه سَكَنٌ فإذا هو سَفَر، وعددتُه وطنًا فإذا كسائر الأوطان؛ غير فؤادي فيه مُقيم. وانكفأتُ على نفسي. شهرًا لا أخرجُ من بيتِ جدّتي. شهرًا لا أكلّم أحدًا. ولولا أنّ راويتي استعادَ معي بعضَ ما فقدتُ من الحياة بقراءته ديواني عَلَيّ لكنتُ قد تردَّيتُ.

وفي (الكوفة) ما يدعو إلى النّحيب، وفيها ما يدعو أنْ تعجن بماء عينيك شفيفَ تُرابِها المذرور من حُزنٍ فتُلطّخ به وجهك. وفيها أنّني لا أستطيع أنْ أعيشَ فيها ولا أستطيع أنْ أُغادِرَها، فهل يزورني فيها داعي البين؟!

عرفتُ أنّ الرّوم أسروا صديقي العتيق الّذي أكرمني أوّل ما أردتُ أنْ أشبّ عن طوق الفقر، أبا العشائر الحمداني، صارَ أميران في السّجن، أبو العشائر أقربُ إليّ من أبي فراس، وإنْ كنتُ لا أنسى غدرته يومَ بعثَ لي حَرَسه الخاصّ ومُقاتِليه الأشدّاء ليغتالوني، وما كان قد جرّبني في القِتال ولا في الشّجاعة كما ينبغي، فلمّا صرعتُ فُرسانه عرفَ أنّني على غيرِ ما يظنّ، وأنا؟ نجوتُ من الموت؟ نعم، لكنْ ربّما إلى حين، فكلّنا طعامُ الموت اليوم أو غدًا. أمّا هو، أبا العشائر أعني، فقد أكله الموتُ اليوم، بعثَ له الرّوم لِترَاتٍ قديمةٍ أحدًا منهم إلى سَجنه فدسّ له السُّمَّ في الطّعام فقتَله. ماتَ أبو العشائر فهل أرثيه؟! كم كنتُ أودّ ذلك، ولكنّ جرحَ خيانته ما زال ينزفُ من خاصرتي إلى اليوم!!

(٤)

ولا بُدّ دُون الشّهدِ مِنْ إِبَرِ النّحلِ

ثُمّ كيفَ يكونُ اللّيلُ طويلاً إذا لم يكنْ كَلَيلي؟! أنا دونَ الشّعراء كُلِّهم؛ لِي ليلي الّذي لم يعشْه سِواي، لم يعشْ بُؤسَه ولا طُولَه ولا ثِقله ولا جُثُومه مِثلي!!

إنّ بني حَمْدان يتساقَطون واحِدًا تلو الآخَر!! ما الّذي حَدَثَ لهم حتّى أقامَ الموتُ في ربوعهم، يخطفُ كلّ يومٍ منهم نفسًا؟! ووالله لو خَطَفَ (سيفَ الدّولة) نفسَه ما كنتُ أَسِيْتُ كما عرفتُ اليومَ مَنْ خَطَفَ!!

لقد كانتْ رُوح (خولة) الحبيبة طعامَ الموتِ اليوم؟! أيّها الموتُ الّذي لا بُدّ منه، ولا محيصَ عن زيارتها، قد زُرْتَها اليومَ فهل كنتَ بها رفيقًا، فإنّها والله كانتْ رفيقةً بي؟! هل مسحتَ على رُوحِها بيدٍ من غمامٍ قبلَ أنْ تصعدَ بها إلى السّماء؟! إنّني لأُدرك كأنّني أراها أنّها حينَ رأتْكَ ابتسمت ابتسامةَ الرّضا، وسلّمتْ عليكَ تسليم المُشتاق، وقالتْ: أهلاً بغائبٍ طال انتِظاره، أهلاً بمنْ سيجعلني أخِفّ من فوق هذه الأرض، فإنّ الّذي سَكَن السُّويداء قد رحل، وليسَ لعودته من رجاء، فيا مرحبًا بكَ أيّها الزّائر على غير ميعاد، ولكنْ إذا أخذتَ روحي، فلا تأخذْ روحَ مَنْ أحبّ حتّى يشهدَ لي وله التّاريخ في كلماته، قلْ له أنْ يرثِيَني كما يجبُ

لحبيبةٍ أو أميرةٍ أنْ تُرثَى:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَــا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ
كِنايَــةً بِهِا عَــن أَشرَفِ النَّســبِ
أُجِـــلُّ قَــدْرَكِ أَن تُسْــمَيْ مُؤَبَّنَةً
وَمَــن يَصِفْكِ فَقَد سَــمّاكِ لِلعَرَبِ

ماتتْ خولة إذًا، ومات معها آخر أملٍ في الحياة، بل ماتتْ معها الحياة، واليوم والله لا أبالي على أيّ جنبٍ ألقى مصرعي، ولا أبالي بحياةٍ بعدَها مهما كانتْ رَغدًا، وإنّني بها عمّا قريبٍ لاحق. لقد كان أخوها أشجعَ الفُرسان، كان هو الّذي يجعل الموتَ في شُغُلٍ حينَ يدعوه ليقطفَ أرواحَ أعدائه، واليوم شغله بقطفِ روحِ أخته، كأنّ الموتَ الّذي أشبعه في كلّ معاركه السّابقة غدرَ به هذه المرّة فحينَ جاع لم يجدْ مَنْ يفجعه بها سِواها:

غَدَرتَ يـا مَوتُ كَم أَفنَيـتَ مِن عَدَدٍ
بِمَـن أَصَبـتَ وَكَم أَسـكَتَّ مِن لَجَبِ
وَكَم صَحِبــتَ أَخاهــا في مُنازَلَةٍ
وَكَم سَــأَلتَ فَلَم يَبخَــل وَلَم تَخِبِ

وأنا حينَ وصلَ إليّ نعيُك؟ لم أُصدِّق أنّكِ مُتِّ!! كأنَّ الموتَ مكتوبٌ على كلّ بشريٍّ سِواك. هتفتُ: «مُحَال!!»، أدفعُ بذلك عنّي فجاءة الخبر وصَدْمته الّتي لا يُمكن أنْ يحتملها قلبُ عاشِقٍ مثلي، ثُمّ لمّا صارَ الخبر مَشاعًا، وصارتِ الألسنة تتحدّث به، والأفواه تتناقله، بدأ

الخبر المُحال يتغلغل في النّفس قليلًا قليلًا، وبدأتْ غمامة الشّكّ في أنّه مُحال تتبدّد، بدأتْ تتنامى في نفسي مع تبدُّد غمامات الشّكّ شيئًا فشيئًا فكرةُ تصديق الخبر الصّحيح، ولكنْ ظلّ عندي أمل بأن يكون كاذبًا. ولكنّ الأمل مع كثرةِ انتشار الخبر انتهى، فلا يكذبُ كلّ هؤلاء النّاس، وقد بدأتِ الصّدمة الضّاغطة على عقلي تتلاشى، ثُمّ انتهى الأمل بكذب الخبر وحلّ محلّه الصّدق، فلمّا صارَ دفعُ الخبر هو المُحال، والتّصديق به هو المُمكن، وتأكّد اليقين في القلب فانتقل إلى العقل، انعكسَ أثرُ هذا التّصديق عَلَيّ وجومًا وشرودًا، ثُمّ بكاءً وانتحابًا:

طَــوَى الجَزيرَةَ حَتّى جــاءَني خَبَرٌ
فَزِعــتُ فيــهِ بِآمــالي إِلى الكَذِبِ
حَتّــى إِذا لَمْ يَــدَعْ لي صِدْقُــهُ أَمَلاً
شَرِقتُ بِالدَّمْــعِ حَتّى كادَ يَشرَقُ بي

وها هو ليلُ العراقِ طويلٌ حتّى كأنّ أهل الأرض قد فقدوا أعزّ أحبابهم، وها هو يُمعن في سَواده لكي لا يرى البكّاؤون دموعهم وهم ينتحبون على أحبابهم، وها أنا في حُزنٍ مُقيم، لا أدري إذا كان هذا زمنَ المصائب، لماذا تأتي فيه زُرافاتٍ ولا تأتي وِحدانا؟! لماذا عَلَى الزّمان أنْ يُجرّدني من كلّ شيءٍ، بعدَ أنْ كان قد أعطاني الأمل بأنْ أكونَ ما أُريد؟! هل كان يفعل ذلك من أجل أنْ يكون الألم على قَدْر الفقد، فينزع منّي كلّ رغبةٍ في الحياة:

أَرَى العِراقَ طَويــلَ اللَّيْلِ مُذ نُعِيَتْ
فَكَيفَ لَيلُ فَتــى الفِتيانِ في حَلَبِ؟!

غيرَ أنّ (خولة) ما ماتتْ. يموت الجسد وتبقى الرّوح، تموتُ الجوارح ويبقى الصّوت. ما زال صوتُها في مسمعي، أنّى لشيءٍ أنْ ينزعه من سُوَيدائي أو يُسكِتِه:

وَلا ذَكَــرْتُ جَمِيلاً مِــنْ صَنَائِعِها

إِلّا بَكَيْــتُ، وَلا وُدٌّ بِــلا سَــبَبِ

وروحُها؟! تُحلّق هنا. لا أدري كم زمنًا ستبقى في هذا الفضاء، أنا مؤمن بأنّها تخلد. ليسَ هناك من فناءٍ للأرواح كما يقولُ بعضُ أهل العقائد. وإذا كان خلود الرّوح يقينًا لَدَيّ، فإنّ اليقين الآكَدُ منه التقاءُ رُوحَينا في مكانٍ ما في زمنٍ ما:

تَخالَــفَ الناسُ حَتَّــى لا اتِّفاقَ لَهُمْ

إِلّا عَلَى شَجَبٍ وَالخُلْفُ فِي الشَّجَبِ

فَقيــلَ تَخلُــصُ نفسُ المَرءِ ســالِمَةً

وَقيلَ تَشْرَكُ جِســمَ المَرءِ في العَطَبِ

غيرَ أنّني كلّما فكّرتُ في سوادِ الأيّام الّتي لم أرَ فيها بَيَاضًا إلاّ بياضَ الأكفان، وحينَ أتذكّر الّذين رأيتَهم ينظرون إليّ نَظَراتهم الأخيرة وهم يموتون تحتَ طعن الرّماح في الوقائع، وحينَ أرى الملوك ذوي التّيجان الّذي ضاقتْ بهم فضاءات الكون، لم يحصلوا من مُلكِهم إلاّ على حفرةٍ حقيرةٍ مليئة بالدُّود في نهاية الأمر، قتلني كثرةُ ورودِ هذه الخواطر على ذهني:

وَمَــنْ تَفكَّــرَ في الدُّنيــا وَمُهجَتِهِ

أَقامَــهُ الفِكْرُ بَينَ العَجــزِ وَالتَّعَبِ

ولّما وردت قصيدة الرّثاء إلى (سيف الدّولة) قبّلها، وأكرمَها، وأمرَ أنْ تُخَطّ على لوحاتٍ كبيرةٍ، وأنْ تُنقَش أبياتٌ منها على جدران قصر الدّارين، وأنْ تُنسَخ نُسخًا كثيرةً، وتُحفظَ وتُتدارَس لطلبة المكاتب.

وانتهى إلَيّ بعدَ أيّامٍ من وصولي إلى الكوفة، كتابٌ من (سيف الدّولة)، فلمّا فتحتُه، وجدتُ فيه هذه الرّسالة بخطّ يده: «لقد وردَ المُستنفِرون علَيّ يا أبا الطّيّب يذكرون لي إحاطة عدو الله الدُمُستُق وجيوش النّصرانيّة بطرسوس، واستسلام أهلِها لهم إنْ لمْ يُغاثُوا أو يُبادَروا، وأنا اليوم يا أبا الطّيّب عليل، فتعالَيتُ على عِلّتي، وسِرْتُ من وقتي إليهم، وكان الدُّمُستُقُ قد شحن الدّرب الّذي يلي الثّغور والشّام بالرّجال، فها أنا سائرٌ إليه، فهل تسير معي؟!». وطويتُ الكتاب، وقتلني سُؤاله الأخير، إنّ رسالَتَكَ هذه لتُعِيد إلَيّ الثّقة بسيفي من جديد، إنّها إقرارٌ منك أنّه لم يُقاتِل معك بحدِّ الكلمة أو بِحَدّ السّيف أحدٌ مثلي، وأنّكَ تستنجِدُ بي من أجل أنْ أصفَ معركتك الّتي تمضي إليها على علّتك بِشَمِم الفُرسان النّادرين، ومن أجل أنْ أبثّ العزيمة في نفوس جيوشِك، لأنّه لا ينهضُ بهم السّيف إنْ لم تنهض بهم الكلمة، ولا كلمة سِوى ما أقول:

فَهِمْتُ الكِتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ
فَسَمعًا لِأَمْرِ أَميرِ العَرَبْ
وَطَوعًا لَهُ وَابْتِهاجًا بِهِ
وَإِن قَصَّرَ الفِعلُ عَمّا وَجَبْ
وَما عاقَني غَيرُ خَوفِ الوُشاةِ
وَإِنَّ الوِشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ

غيرَ أنّني على ابتهاجي برسالتك يا سيفَ الدّولة، عَلَيّ أنْ أقول بعدَ هذا العُمر ما كان حالي يبينُ عنه من قبل، واليوم يبينُ عنه مقالي:

وَمَـــا لاقَنـــي بَلَـــدٌ بَعْدَكُـــمْ
وَلا اعْتَضْتُ مِـــنْ رَبِّ نُعْمايَ رَبْ

هذه حقيقة ناصِعة، والحقيقة الأشدّ نصوعًا منها هي قولي:

وَمَـــنْ رَكِبَ الثَّـــوْرَ بَعْـــدَ الجَوادِ
أَنْكَـــرَ أَظْلافَـــهُ وَالغَبَـــبْ

فلئِـن كنـتَ مَلِـكًا حبيبًـا إلَيّ، فإنّـكَ إلى ذلـك كنـتَ مطيّتـي وركوبتـي إلى مـا أريـد، غـيرَ أنّنـي ركبـتُ مـن الملـوك الحِـار العنيـد والثّـور السّـمين والنّاقـة الذّلول والعير الشَّـمُوس، وكنـتَ أنتَ بينهم الجَـواد، فذلـك مـا نفَـاكَ منهـم، غـيرَ أنّـه جمَعَـكَ معهـم، أنـك كنتُ وإيّاهـم ركائبـي إلى حيـثُ غايتـي!!

وهـا هي إقامتـي في (الكوفة) تمضي على سـنن الملـل، وأنا رجلٌ لم يُنـزِل عـن الجِيـاد سُرُوجَـه، فهـل يطـول ذلـك عـلى هـذا النّحـو؟! يقـول لي ابـن حمـزة البصريّ بقي مـن الدّيـوان القليـل، إذا وصلتُ إلى (قصيـدة ضَبّةَ) هـذه هل أُثبِتهـا في الدّيوان أمْ أحذفهـا؟ نحذفها طبعًا، إنّهـا نفثـة مصـدور، ولكنْ تريّـثْ قليلاً، أنـتَ لم تصلْ في قـراءة ديوانِي عَلَيّ إليهـا، فَلِـمَ العَجلة، سـيأتيها دورُها؟!

في آخر سنة ٣٥٣هـ في شهر ذي الحجّة، شهر السّلام، الّذي تكفّ فيه الأذن عن سَماع صليل السّيوف دخل القرامطة من جديدٍ إلى

(الكوفة). كان ذلك القرمطيّ مِمّن وَلِيني من قبلُ عندما كنتُ في بادية السّماوية، خارجيٌّ من بني كلاب، وقد استفادَ من طريقتي الأولى في القتال، وسبيلي في جمع النّاس حولي، فأجابه إلى دعواه خلقٌ كثير من بني كلاب، وحلفوا له، وأصقبوا معه، ورفعوا الرّايات باسمه، فلمّا سمعتُ هيجتهم فجرًا صِحتُ بابني أنْ يصيح بأهل (الكوفة) من الرّجال أنْ يهبّوا للدفاع عن مدينتهم، وخرجتُ على هياجهم معتقلاً الرّمح شاهِرًا السّيف، وكانت الشّمسُ لمّا ترتفع، فوافيتُهم من ناحية (قَطَوان)، فلقيتُ سُربةً من الخيل عندها فقاتلْتُهم وحدي، فقتلتُ منهم عددًا وجرحتُ عددًا، وكنتُ أطعنُ شزرًا، فلمّا رأى بعضُهم مَنْ سقطَ منهم فَرّوا، ولم يبقَ منهم أحدٌ.

ولم أعدْ إلى البيت، بل سِرتُ في النّاس أُحرّضهم على القتال، وبقيتُ على ذلك حتّى الظّهر، فمضيتُ إلى درب (البراجم) حيثُ بدأ النّاس يتجمّعون، وألقيتُ فيهم خُطبةَ القتال. فاجتمع على كلمتي مَنْ رفعتِ الكلمة من هِمّته ودعَتْه إلى الوقوف في وجه عدوّه.

فلمّا كان الغدُ عادَ القرامطة إلى القتال، فقاتلتُهم مع أهل (الكوفة) حتّى آخِرِ النّهار، فلم يظفروا مِنّا بشيءٍ، وجَلَوْنا أكثرَهم، وضربْنا وجوه خيولهم فتفرّقوا، ورَجَعوا وقد اختلفوا فيما بينهم، وتبرّأ بعضُهم من بعضٍ.

وجمع القرمطيّ جُنده من جديد، وحَزّبهم، فعادوا لقتالنا بعدَ أربعة أيّام، فاقتتلْنا معهم قِتالاً شديدًا، غير أنّ النّصر يحتاجُ إلى صبرٍ،

والفرقُ بين الهزيمة والنّصر شعرةٌ من الصّبر أزيدُ عند المنتصر من المنهزم قليلاً. وقتلْنا من بني كلابٍ أتباع القرمطيّ كثيرًا. وطُعِنَتْ فرسٌ لي كنتُ قد أركَبْتُها أحدَ الفتيان للقتال، فجاءت الطّعنة في لبّته فسقطَ ومات، فأعطينا المقاتل فرسًا أخرى، وخرجَ هو وآخَر من جنودنا فقُتِلا. فانحاز بنو كلابٍ لشدّة القِتال إلى دار أَسْلَمَ، وتحصّنوا بالسّور هناك، فراميناهم بالسّهام، فقتلْنا منهم عددًا كبيرًا.

فلمّا مرّ على هذه المعارك أسبوعٌ جَلَوا، وخرج القرامطة من (الكوفة)، وسار من (بغداد) دِلِّير بن لَشْكَرَوَّز رسول الخليفة، ومعه عددٌ من القادة، فوصلوا إلى (الكوفة) بعدَ أنْ هربَ القرامطة، فلمّا سَمِعَ بما صنعتُ، أنفذَ إِلَيّ أموالاً وهدايا نفيسة، فركبتُ خيلي إلى جانبه، وأنشدْتُه ونحن في الميدان:

كَدَعْـواكِ كُلٌّ يَدَّعـي صِحَّـةَ العَقْـلِ
وَمَـنْ ذا الَّذي يَدْري بِما فيـهِ مِنْ جَهْلِ

وما صدقَ في القصيدة تلك مثلُ قولي:

وَخَيلٍ إِذا مَرَّت بِوَحْـــشٍ وَرَوضَةٍ
أَبَـــت رَعيَهـــا إِلّا وَمِرْجَلُنـــا يَغْلي

وما هَدَأ مِرجلي منذُ خروجي مع أبي وأنا ابنُ ثمانٍ، وما رعَتِ الصّحارى من إبلي وخيلي مثلما رَعَتْ مِنّي، وها أنا قاتلتُ في كلّ بلدةٍ، وناضلتُ في كلّ دربٍ، وواجهتُ الموتَ وحدي في كلّ زاوية... ها أنذا في (الكوفة) أرى حبل هذا العُمر الطّويل قد رَثّ على طُول عهد، وأوشك يتقطّع!

(٥)

وَقَد كُنتُ أَدرَكتُ المُنى غَيرَ أَنَّني
يُعَيِّرُني أَهلي بِإِدراكِها وَحدي

جدار الغيب أمامي، لا أحدَ يرى ما وراءَه. الماضي الّذي تركتُه خلفي لم يكشف لي ولو كُوّة في جدار الغيب هذا، غيرَ أنّ الطّلال الّتي تلوحُ تقول أشياء كثيرة، كلّها تُفضي إلى الموت، وتقودُ إلى الهَلاك. وأنا؟ بقيتُ في شهوري الأخيرة في (الكوفة) أُدِيم النّظر في هذه الطِّلال وأتعجّبُ منها.

دخلتْ سنة ٣٥٤ هـ، لا أدري لِماذا أشعرُ أنّني لن أَجُوزَها إلى السّنة القابِلة، وأنّني سأشربُ كأسي الأخيرة فيها. لقد شربتُ من مياه الأرضِ كلّها، وظلّ أنْ أشربَ من هذه الكأس، الكأسِ الأخيرة. الّتي لا يكونُ بعدَها عَطَش!

وردَتْ إِلَيّ رسالةُ من (ابن العميد) وزير (رُكْن الدّولة)، يدعوني فيها إليه، ويُرغّبني بالمسير إلى بلاد فارس. وما لي ولتلك البِلاد، لقد أفنيتُ بلادَ العرب وأنا أقطعها فما حصلتُ فيها من العرب إلاّ على القليل، ولم يكنْ في القليل إلاّ قليلٌ مِمّن عرفَ ما أريد، أفأذهبُ بعدَ هذا كلّه إلى الأعاجم، أولئك الّذين عرّضتُ بهم في شِعري حتّى سَقَطَ لَحْمُ القصيدة عن وجهها لكثرة ذلك؟!

غير أنّ ابني (مُحَسَّدا) وراويتي (عليّ بن حمزة) البصريّ رَغْباني فيما زهدتُ فيه، وقالا: «تجربةٌ جديدة. جائزةٌ على بلائك في الدّفاع عن الكوفة. استراحة مُحارب». ثُمّ كيفَ يستريحُ مُحارِب؟! على أيّ وجهٍ يكونُ ذلك؟!

شدّ ولدي وخادمي وراويتي السّروج على الخيول، ودّعْتُ آخِرَ ما تبقّى لي من جدّتي؛ تعاليمَها، نظرَتها الّتي قالتْ كلّ ما أردتُ أنْ أقولَه، بيتي الّذي نشأتُ فيه، قبّلتُ جُدْرانه، وسقيتُ الشُّجَيرة الصّغيرة الّتي أمام طاقته، وخرجتُ وغصّة في القلبِ لا تفارقني. بعضُ الفُرسان يعرفون أنّهم يسيرون إلى حتفهم فلا يصرفهم المصير عن المسير، بل يغذّون إليه الخُطا!

مررنا ببغداد، قلتُ لخيلي: «نكّبيها، فإنّ فيها من الرّعاع ما لا يليقُ بك أنْ تقع عيونُكِ عليهم». فما أقمْنا فيها إلاّ غِرارًا. ولَحِقَ بنا (ابن جنّي) في بطائح السّواد فكان في جُملتنا، ثُمّ مضينا إلى (أَرَّجان) حيثُ (ابن العميد) هذا.

وفصلتْ عِيْرُنا لأحدَ عشرَ يومًا مضينَ من صفر سنة ٣٥٤هـ إلى (المدائن)، فرأيتُ الأكاسرة فيها ينوحون، وخُيِّلَ إلَيّ أنّهم اصطفّوا في سِماطين أكثر من عشرين كِسْرَى، وقد أخنَوا رُؤوسهم على صدورهم، وهم يبكون عَلَيّ، ويُنشِدون قصيدةً لي كانتْ أوّل عهدي بالشّعر:

أَيــنَ الأَكاسِرَةُ الجَبابِــرَةُ الأُلى

كَنَزوا الكُنوزَ فَما بَقــينَ وَلا بَقوا؟!

مِن كُلِّ مَن ضاقَ الفَضاءُ بِجَيشِهِ
حَتّى ثَوى فَحَواهُ لَحدٌ ضَيِّقُ
خُرسٌ إِذا نُودُوا كَأَن لَم يَعلَموا
أَنَّ الكَلامَ لَهُم حَلالٌ مُطلَقُ

غيرَ أنّهم كانوا اليوم أشدّ بيانًا وفصاحة، فحضنتُهم مَلِكًا مَلِكًا، وربّتُّ على أكتافهم، وهتفتُ بقولة امرئ القيس لكلّ واحدٍ فيهم: «لا تَبْكِ عينُك». ثُمّ أردفت: «سأكونُ بينكم قبل أنْ ينقضي هذا العام». ومضينا.

وتركْنا المدائن إلى (دير العاقول)، فقلتُ للرّكب: «أنيخوا هنا». فقال ابني: «لم نَسِرْ مدّةً فنتعبَ فنُنِيخ!». فغضبتُ: «لا أبا لك، وهل سارَ أحدٌ في الأرضِ بمثلِ سَيْرِي؟! إنّما أريدُ ذلك لحاجةٍ في نفسي». فانتحيتُ وحدي إلى زاويةٍ هناك، وجثوتُ على رُكبَتَيّ، ثُمّ مددتُ يدي إلى التّراب، فقبضتُ منه قبضةً، فقرَّبْتُها من أنفي فشممتُ فيها رائحة دمي. فنبذتُها وقد بدا في عينَيّ رُعبٌ إلى شوقٍ معًا، وخوفٌ إلى سكينة. فبقيتُ أُنشِدُ عندَ ذلك التّراب قصيدةً أُتبِعها قصيدة، حتّى أتممتُ خمسينَ قصيدة، لم يحفظْ ديواني منها شيئًا، فلمّا استبطأني الرّكب، جاءني (مُحسّد) فسألني فما أجبتُه، ثُمّ أخذَ بيدي فنهضتُ معه وسِرْنا، وبقيتُ لا أكلّم أحدًا، ولا أجيبُه إلى قوله حتّى وصلْنا إلى (جرجرايا) وهي بلدٌ من أعمال النّهروان الأسفل بين (واسط) و(بغداد)، ومنها مضينا إلى (جَبُّل) وهي بُليدة بين (النّعمانيّة) و(واسط). ثُمّ مررنا ببلادٍ كثيرةٍ حتّى وصلْنا إلى (الأهواز)، ثُمّ توجّهنا منها عبر (الزُّطّ) ومخاضة (وادي الملح) إلى (أرّجان)، وكانتِ الغاية.

فلمّا أشرفتُ عليها مع الرَّكْب، رأيتُها ضيّقةٍ لضِيقٍ في صدري فضربْتُ بيدي على عنق خيلي وهتفتُ: «تركتُ مُلوكَ الأرض وهم يتعبّدون لي وقصدتُ رَبَّ هذه المَدَرة فما يكون منه؟!». فوقفْنا بظاهر المدينة وأرسلتُ خادمي إلى (ابن العميد) فدخل عليه وقال: «مولاي، أبو الطّيّب المُتنبّي خارج البلاد»، وكان (ابن العميد) وقت القيلولة مضطجعًا في دَسْتِهِ فثار، ونهَض كالملدوغ من مضجعه، واستثبتَ الخادم فأكّد له أنّني قد وصلتُ فأمر حاجبه (كياروين) أنْ يمضي لاستقبالي، فركب إِلَيّ واستركب مَنْ لَقِيَه في الطّريق، ففصل عن البلد بجمع كثير، فتلقَّوني بالتّرحاب، وقضَوا حقّي، وأدخلوني البلد، فدخلتُ على (ابن العميد)، فقام لي قيامَ إجلالٍ، ثُمّ اعتنقني ودعاني للجلوس عن يمينه على كرسيٍّ عليه مِخَدَّةُ دِيباج، وهتف: «كم كنتُ مشتاقًا إلى أنْ أراكَ يا أبا الطّيّب، إنّ هذا الوجه لهو الّذي كنتُ إليه أتوق!». فلمّا تَمّ القول في حديث السّفر، أنشدتُه رائعتي:

بــــادٍ هَـــواكَ صَـــبَرتَ أَم لَم تَصبِرا

وَبُــــكاكَ إِن لَم يَجـــرِ دَمعُكَ أَو جَرى

كَم غَرَّ صَبرُكَ وَابتِســـامُكَ صاحِبًا

لَمّـــا رَآكَ وَفي الحَشَـــى مـــا لا يُرى

فهل رأى أحدٌ ما في حَشَاي؟ كلاّ. وهل عرفَ أحدٌ أينَ تكون غايتي؟ كلاّ. إنّ الزّمان نفسَه ليعجز عن ذلك، فكيفَ بحفنةٍ من الملوك أُلقِي كلّ ملكٍ منهم في بُقعةٍ كما تُلقَى البِذار؟!

وقال لي (ابن العميد) لمّا سَمِعَ ذلك: «يا أبا الطّيّب، أتقول: بادٍ هَواكَ، ثُمّ تقول بعده: كم غَرّ صبرُكَ؟ ما أسرعَ ما نقضتَ ما ابتدأتَ به!!». فقلتُ له: «تِلْكَ حالٌ وهذه حال». ثُمّ أردفتُ في سِرّي: «وأنتَ لا تدري بأيّ حالٍ منهما يكونُ الحال، فخولةُ في الأولى وأنا في الثّانية، وكما آلتْ خولةُ إلى حالٍ، فأنا آيلٌ إلى ذات الحال».

غيرَ أنّ (ابن العميد) حازَ أدبًا وعِلمًا، وكان صاحبَ فلسفةٍ وقلمٍ، وأنا أعرفُ ذلك له، فأعطيتُه على هذا قولي:

مَـــن مُبلِـــغُ الأَعـــرابِ أَنّي بَعدَها
شاهَدتُ رَســـطاليسَ وَالإِسكَندَرا
وَسَـــمِعتُ بَطليموسَ دارِسَ كُتبِهِ
مُتَمَلِّـــكًا مُتَبَدِّيًـــا مُتَحَـــضِّرا
وَلَقيـــتُ كُلَّ الفاضِلـــينَ كَأَنَّـــما
رَدَّ الإِلَـــهُ نُفوسَـــهُم وَالأَعـــصُرا

وكانتْ (أرّجان) جنّة، بل جِنانًا، وهي زينةُ الدُّنيا، ومتعة النّاظرين، فلمّا حلّ النّيروز لبستْ أبهى حُلَلِها، وأخذتْ أعظم زينتها، فأدّيتُ إلى الأمير قولي:

جـــاءَ نَيروزُنـــا وَأَنـــتَ مُـــرادُه
وَوَرَت بِالَّـــذي أَرادَ زِنـــادُهْ
هَـــذِهِ النَظـــرَةُ الَّتـــي نالَهَـــا مِنـ
ـــكَ إِلى مِثلِهـــا مِنَ الحَـــولِ زادُهْ

فكأنّني مللتُ وأنا جئتُ منذُ أيّام، وكأنّني شعرتُ أنّني أقول ما في اللّسان لا ما في القلب، وأنّني أودّعه حينَ أرى نظرتي إليه حولاً، ولم أدرِ ما أفعل، فالمرء بين مَنْ لا وجه لهم غريب، ولا لسانَ يُشبه لسانه وحيد. وأرى أنّ هؤلاء الأعاجم يريدون أنْ يتسَلَّوا، وما بقي في عمري بقيّة من أجل ذلك، وأنا رجلٌ أَلُوف. وشعر الرّجل بهذا في نفسي، فوصلني بالهدايا والعطايا والأموال الكثيرة حتّى أعطاني نحو خمسين ألفَ دينار، ولم أعدْ أشعر بقيمة المال، فقد جاءَني الغِنى على الهرم، وكنتُ أتمنّاه أو أتمنّى بعضَه وأنا فتًى أخبِطُ في المفاوز والمجاهل لا أكادُ أجدُ لقمةً أدفع بها شبح الجُوع والموت المتربّص بي:

أَتَــى الزّمــانَ بنــوه في شَــبِيبَتِهِ

فَسَرّهُــمْ، وأتينــاهُ عــلى الهَــرَمِ

ولمّا كنتُ في حضرةِ الغَنى والتّرف والبذخ بين يدَي (ابن العميد)، وردَ كتابٌ من (عَضُد الدّولة البُويهيّ) إليه يطلبُ منه أنْ يُنفِذَني نحوه، فأخبرني بذلك، فقلتُ له: «ما لي وللدّيلَم؟». فقال ابن العميد: «عَضُد الدّولة أفضلُ منّي، ويَصِلُكَ بأضعافِ ما وصلْتُكَ به؟». فقلتُ في نفسي: «يظنّ هذا الملك أنّ الّذي يدفعني إلى مَلِكٍ سِواه المال، ولكنّه لا يعرفَ أنّني أيِسْتُ من الملوك كلّهم، فأجبتُه: «يا أبا الفضل إنّني رجلٌ مُلَقًّى من هؤلاء الملوك، أقصِدُ الواحِدَ بعدَ الواحد، وأُمَلِّكهم شيئًا يبقى بقاءَ النَّيِّرَين، ويُعطونني عَرَضًا فانِيًا، ولي ضجَراتٌ واختِيارات، فيعوقونني عن مُرادي؛ فأحتاجُ إلى مُفارقتهم على أقبح الوجوه». وكتبَ (ابن العميد) كتابًا إلى (عضد الدّولة) ضَمّنه هذا القول، وكان يُمكن

أنْ يكون داعيةَ غضبٍ للملوك، وأنْ يبطِشَ بي أضعفُهم، لكنّ الرّد جاء من (عضد الدّولة): «أنتَ مُملَّكٌ في مُرادِكَ في الإقامة والظَّعْن». فهل فعلَ ذلك لأنّه عرفَ مكانتي، وأنّني آتيه متى شِئت، وأتركه متى ضجرتُ منه ومللتُ؟ هل أحدٌ من الملوك يرضى بذلك؟ أشكّ أنّه قالَها عن يقين. ربّما أرادَ أنْ ينضمّ إلى قائمة الملوك الّذين خَلَّدَهم شِعري، فكانتْ رغبته في ذلك أقوى من طبيعة مَلِكٍ يخضع لشاعر، فغلّب ما أردتُه أنا على ما أراده هو. أو لعلّه يُضمِر في نفسِه شيئًا. فإنّ الملوك - وقد خبرتُهم طويلاً - لهم غَدَراتٌ وفَجَرات، ولا أمان لهم، ومَنْ يأمنُ سيفًا مربوطًا فوقَ عنقه بشعرةٍ، متى اهتزَّتْ سقَط فسقط.

لقد أدركتُ أنّني إنْ رفضتُ لقاء هذا الملك الأعجميّ، سيكون ذلك داعيته إلى قتلي، إذْ سيقال: «كيفَ قدر شاعرٌ أنْ يُذِلّ مَلِكًا؟!». فقلتُ في نفسي: «أزورُه أُطفِئ غضبه المتوقّع أوان رفضي، ونهَمه إلى قولي فيه شِعرًا يُبقي ذِكره، ثُمّ أنصرفُ عنه وقد أَمِنْتُ شرّه». فأوحيتُ إلى وزيره ابن العميد أنّني أقبلُ، ثُمّ لمّا رحلتُ عنه إليه، ودّعتُ ابن العميد بقصيدتي:

نَسِيتُ وَما أَنسى عِتابًا عَلى الصَدِّ
وَلا خَفَرًا زادَتْ بِهِ حُمرَةُ الخَدِّ

فلمّا قلتُ:

وَمَنْ لي بِيَومٍ مِثلِ يَومٍ كَرِهتُهُ
قَرُبْتُ بِهِ عِندَ الوَداعِ مِنَ البُعدِ

ظَنّ أنّني أودّعه، وما دَرى هو ولا أحدٌ مِمّن سَمِع أنّني كنتُ أرثي نفسي، وأنّني أبحثُ عن وداعٍ يليقُ بها.

فلمّا قلتُ:

وَمَن يَصحَبِ اسمَ اِبنِ العَميدِ مُحَمَّدٍ

يَسِرْ بَينَ أَنيابِ الأَساوِدِ وَالأُسْدِ

ظَنّ أنّني أمدحه، وما درى أنّني أحاذر يومَ حَيْني، فإنّني بين الملوك أسيرُ بين أنيابِ سِباعٍ تودّ افتراسي، وبين أفاعٍ تودّ نهشي!! وما ينفع الحَذَر إذا وقع القَدَر؟! وما يدفعُ الحِرْص إذا كانَ الحَصْر؟!

(٦)

وَما أَنا غَيرُ سَهمٍ في هَواءٍ

ولمّا كان مجلس (عضد الدّولة) في البُستان الزّاهر يوم زِينته، وجلسَ إليه وزراؤه وأعيانُه وأهل خاصّته، وبسطَ لهم الرّوض رداءَه، وفَتّق الورد عن أكمامه فملأ الجَوّ شذًى، قال أحد العارفين: «ما يُعوِزُ مجلس مولانا سِوى أحد الطّائِيَّيْن البحتريّ وأبي تمّام»، فقال له (عضد الدّولة): «لو حضر المتنبّي لَنَابَ عنهما». وهكذا كنتُ في خاطره قبل أنْ أخطرَ في رياضه.

لم أمكثْ عند (ابن العميد) سِوى شهرَين اثنين، فقد تركتُ (أرّجان) في ربيع الثّاني من عام ٣٥٤هـ وتوجّهتُ إلى (شيراز) حيثُ عضد الدّولة، وأنا والله ضَجِر وإنْ كانت الطّريق تحتَ أقدام الخيل عسجدًا وزهرًا، وإنْ كانتِ الأصائل في الدّروب مسكًا وعنبرًا، وفَوْحًا وبَوْحًا ... غير أنّ المألوم يبهتُ فيه عينَيه المشهد مهما كان ساحِرًا.

وفي هذه الدّرب الّتي سلكنا بين اللُّجَين والذّهب، مررنا بشِعبِ (بَوّان)، وكان جنّةَ الدُّنيا، ومَنْ نعتَه بذلك ما كذب، كانَ كثيرَ الشّجر، متدفّق المياه، تنبتُ فيه الفاكهة في كلّ مكان، وينبثق الورد فيه حتّى من بين الصّخور. والماء الّذي يجري إنّما يجري في جانِبَيه فيخضلّ فيهما التّراب فينتشر الشّجر المتشابك حتّى لا ترى من ذلك الأرض من تحته،

وكان ما فيه من جَمال يعدو على الأحزان فيُبدّدُها، وقد مَرِحَ له الرّكبُ إلاّي، فقد كانتْ في صدري أحزانٌ لا تعدو عليها شِعابُ الأرضِ كلّها!!

ثُمّ تركْنا (بَوّان) وسِحره حتّى وصلتْ خُيُولُنا إلى (النُّوبَنْدَجان) وبينها وبين (أرّجان) ستّةً وعشرين فرسخًا، وكانتْ هذه نصفُ المسافة إلى (شيراز)، وليسَ في شِعبِ (بَوّان) شيءٌ ليسَ في (النّوبَنْدَجان)، فظللنا تغوصُ أقدامُ خيولنا في العُشبِ الطّريّ، والأغصان اللَّدْنة، والرّوائح الشّذيّة، فلمّا وصلْنا إلى (شيراز) بعدَ أنْ قطعنا أربعة مراحل، رأينا فيها ما فاق ما رأيناه في كلّ ما سبقَها؛ وشيراز مدينة الورد، فلو كان في الأرض وردٌ فأوّله من شيراز، وعِطْرُهُ يبدأ من هنا.

واستقبلنا رسول عضد الدّولة على مدخل شيراز بحاشية ملكيّة، وعرباتٍ ذهبيّة، وسار معنا في خفارةٍ من أمنٍ وبردٍ وسلام، فلمّا ائتلفَ الرّاكبون في الطّريق، استنشدني رسول عضد الدّولة، فاعتذرتُ، وما كان لي من مِزاجٍ اقرأ فيه شعري، وأنا أُحِسُّ أنّني أُساقُ إلى الموت لكنْ بين حدائق غنّاء، وأشجارٍ لَفّاء. فقلتُ له: «النّاسُ يتناشدون شِعري فاسْمَعْه منهم». فلمّا ألحّ، أردتُ أنْ أُسكِته، فأنشدْتُه البيتَ الأول من قصيدة الخروج من مصر:

ألا كلّ ماشِـيـة الخيــزلى
فِـدَى كلّ ماشـيـة الهيذبـى

وصَمتّ رَجاء أنْ يصمت، فما فعل، وألحّ قائلاً: «أأطلبُ منك وتُنشِدني بيتًا واحِدًا؟!». فأردتُ أنْ أقطعَ لِسانه، وأوصِلَ رسالةً إليه

وإلى سيّده، فأنشدْتُه قولي:

فَلَــمّا أَنَخنــا رَكَزنــا الرِمــاحَ
فَــوقَ مَكارِمِنــا وَالعُــلا

وَبِتنــا نُقَبِّــلُ أَســيافَنا
وَنَمسَــحُها مِــن دِمــاءِ العِــدا

فلمّا دخل على (عضد الدّولة)، وأخبره بما جرى وهو لا يدري ما وراء ما قلتُ، هتفَ عضد الدّولة: «هَوْنًا... يتهَدَّدُنا المتنبّي». فدخلتُ (شيراز) على عداوة وعلى إحنة، وعرفَ كُلّ واحدٍ ما يُضمِره لصاحِبِه وما يراه فيه، غير أنّه كان يُخبِّئه، ويخفي نار اتّقاده.

ولّما استرحتُ في ضيافته من وعثاء السّفر، ونفضتُ عنّي بعضَ ما عَلِقَ بي من التّعب، دُعِيتُ إلى أوّل لقاء بهذا المَلِك، فمضيتُ مع الجُند إلى قصرٍ له بالضّاحية الجنوبيّة من شيراز، فلمّا أشرفتُ عليه لم أرَ قصرًا في حياتي مثله، كان قصرًا باذِخًا، تحفّ به الحدائق المُخضلّة، وتقود إليه دروب الورود بألفِ لونٍ وشكلٍ ورائحة، فلمّا توسّطْتُ المجلس، بقيتُ واقِفًا، ولم يَدْعُنِي إلى الجلوس عن يمينه كما دعاني مَنْ قبله، فلمّا رأيتُ الفتور في الآل، وانتظارَه مِنّي الكلام، عرفتُ أنّ عليّ اختيار حروفي حتّى لا تطيرَ عنقي بين يدَيه قبل أنْ يرتدّ الطّرف، فهتفتُ: «شَكَرْتُ مَطِيَّةً حَمَلَتْني إليك، وأملاً وقفَ بي عليك». وسَكتّ. فسألني عن مسيري من (مصر)، وكان يريدُ أنْ يعرفَ كيفَ نجوتُ من قبضةِ ملك مثل (كافور) لا تنجو من قبضته الطّيور الّتي في السّماء، فأجبْتُه إلى ما يريد. ثُمّ سألني عن (سيف الدّولة)، وكنتُ أعرفُ أنّهما عَدُوّان

لَدودان، فأجملتُ الإجابة، وحذرتُ أنْ أقول كلمةً تكون مدعاةً إلى ألاّ أقول بعدها. ثُمّ انصرفتُ ولم أُنشِدْه.

فلمّا صرتُ في الطّريق إلى بيتي، ألحقَ بي أحدَ عيونه، وهو لا يعرفُ أنّني أعرفُ ذلك، فلاطَفَني في القول، وقال إنّه كان يتوقُ إلى أنْ يراني في هذه الدّيار الحسناء من (شِيراز)، وأنّه أحدُ الّذين يُدرّسون شِعري في مجالسِه، ثُمّ حَرَف وجه الكلام فقال: «عرفتُ أنّكَ كنتَ اليومَ في مجلسِ المَلِك، فكيفَ رأيتَه؟». فعلمتُ أنّ كلّ حرفٍ أنطقُ فيه، وكلّ همسةٍ أهمسُها ستُنقَل إلى هذا المَلِك الّذي أغلبُ الظّنّ جاءَ بي إلى هنا ليتخلّص منّي بعدَ أنْ أُعطِيه ما يريد، فقلتُ لسائلي الجاسوس: «ما خَدَمتْ عيناي قلبي كاليوم». وانصرفَ بها إلى سيّده، فأطالتْ هذه العبارة أمدَ أجلي إلى حين!

وكان يلازمني في هذه الرّحلة راوِيَيّ: ابنُ جنّي، وعليّ بن حمزة البصريّ، وكنتُ قد عُدْتُ معهما إلى تدوين قصائدي، وتنقيحها، وتحكيكها، وكان في نفس ابن حمزة شيءٌ من قصيدة (ضَبّة)، فوعدتُه أنْ أحذِفها متى وصلْنا في المراجعة إليها، وكانتْ لنا جَلَساتٌ في شيراز لا نقوم إلاّ على هذا الأمر، وكانوا يعجبون من كثرةِ إسقاطي لأشعارٍ استحسنوها واستقلَلْتُها فحذفتُها.

وكان ابنُ جنّي تلميذ أبي عليّ الفارسيّ، وكان لأبي عليّ الفارسيّ مجلس، يجلسُ فيه إلى كرسيّ يُعلّم اللّغة والنّحو، فاتّفق أنْ كُنتُ أمرّ بهما ولا أجالِسهما، فإنّ تجربتي مع النّحويّين أيّام (سيف الدّولة) كانتْ تجربةً مُرّة، وما كانتْ لتكون كذلك لولا الحَسَدُ الّذي يُعمي عيون أهل العِلم

عن أنْ يقولوا الحَقّ ولو على أنفسهم. وكان أبو عليّ يكره ذلك منّي ويُبغِضه، وأنا لا أبالي أَكِرَه أم أَحبّ، أَسَخِطَ أمْ رَضِي! واتّفق أنْ قال أبو عليّ الفارسيّ يومًا: اذكروا لنا بيتًا من الشّعر نبحثُ فيه، فأنشده ابنُ جنّي قولي:

حُلْــتِ دُونَ المَزارِ فاليــومَ لو زُرْ
تِ لحــالَ النُّحــولُ دُونَ العِنــاقِ

فاستحسَنَه أبو عليّ الفارسيّ، واستعادَه، وقال: لمن هذا البيت؟ فإنّه غريبُ المعنى! فقال ابْنُ جِنّي: للّذي يقول:

أزورُهم وسَــوادُ اللّيل يشــفعُ لي
وأَنْثَنِــي وَبَيَاضُ الصُّبْــحِ يُغْرِي بي

فقال: والله هذا حَسنٌ، بديعٌ جِدًّا، فَلِمَنْ هُما؟! قال: للّذي يقول:

أَمْــضَى إرادَتَهُ فَسَــوفَ لَــه قَدٌ
وَاسْــتَقْرَبَ الأقصى فَثَــمّ له هُنا

فَكَثُرَ إعجابُ أبي عليٍّ، واستغربَ معناه، وقال: لِمَنْ هذا؟! فقال ابنُ جِنّي: للّذي يقول:

وَوَضْعُ النّدى في موضع السّيفِ بالعُلا
مُضِرٌ، كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوضِع النَّدَى

فقال: هذا حَسَنٌ والله، وقد أطلْتَ يا أبا الفَتح، فأخبرنا مَنِ القائلُ؟ قال: هو الّذي لا يزال الشّيخُ يستثقله، ويستقبح زِيّه وفِعلَه.

وما علينا من القُشُور إذا استقامَ اللّبّ؟! فقال أبو عليّ: أظُنُّكَ تعني المتنبّي؟ قلتُ: نعم. قال: والله لقد حَبَّبْتَه إليَّ».

ثُمّ لمّا دخلتُ على عضد الدّولة لأنشِده قصيدةً لي، قلتُ لحاشِيته على مسمعٍ منه: «أنا لا أنشِدُ ماثِلاً. وقد دأبْتُ عليه، والملوك يعرفون ذلك عنّي». فأمرَ عضد الدّولة أنْ أجلسَ عن يمينه على الكرسيّ كما فعل كلّ مَلِكٍ من قبل، فقال لي: «اجلسْ». فأبيتُ، وبقيتُ واقِفًا، فتعجّب من صنيعي، فأردفتُ: «هيبتكَ تمنع من ذلك». فَصدَّقَ ما قلتُ، ووقع ذلك منه ومن الحضور موقعًا حَسَنًا، وما دروا أنّني أقول له: «إنّني أنشدك واقِفًا لأنّني على عَجَلةٍ من أمري، ولن أبقى عندكَ طويلاً، فإنّ الجلوس أمان، وأنا على قلقٍ وخوفٍ منك ومن غَدَراتِك بي، وإنّني على سفرٍ عنكَ اليومَ أو غدًا». فأنشدتُه:

مَغـــاني الشِّـــعْبِ طِيبًـــا في المَغاني

بِمَنزِلَـــةِ الرَّبيـــعِ مِـــنَ الزَّمـــانِ

وَلَكِـــنَّ الفَتـــى العَـــرَبِيَّ فيهـــا

غَريـــبُ الوَجـــهِ وَاليَدِ وَاللِّســـانِ

مَلاعِـــبُ جِنَّـــةٍ لَـــو ســـارَ فيها

سُـــلَيمانٌ لَســـارَ بِتَرجُمـــانِ

وإنّه لو كان لبيبًا، وهو كذلك، فإنّه سيعلمُ أنّ هذا الافتتاح للقصيدة يحمل الهِجاء، فإنّ الفتى العربيّ لا يجدُ هنا ما يُشبهه، وإنّه غريبٌ لا يجدُ أمانًا، حتّى إنّه لو أرادَ أنْ يُفهِمَ عنه أحدًا لاحتاجَ إلى ترجمان، بل إنّ سليمان الّذي عُلِّمَ لغة الإنس كلّها ولغة الجنّ ولغة الطّير، لو سار

في هذه البلاد لاحتاجَ هو كذلك إلى ترجمان، لأنّ أهلها لا يفهمون ولا يُفهِمون. فلمّا قلتُ:

وَأَلقــى الــشَرقُ مِنهــا في ثِيابي
دَنانــيرًا تَفِــرُّ مِــنَ البَنــانِ

قال الملك: «لأُقِرَّنَّها في يديك». فلمّا خاطبْتُ حِصاني بقولي:

يَقــولُ بِشِــعبِ بَــوّانٍ حِصَاني
أَعَــنْ هَــذا يُســارُ إِلى الطِّعــانِ

عرفَ أنّني لا أريدُ البقاء في دياره طويلاً، وشَمّ رائحة الهِجاء في أنّني أشتاق بلادَ الرّمل والغُبار والنّقع أنا وحِصاني من أجل المُجالِدة والدّخول في معمعات النِّزال، ولا نُريد الدّعة والرّاحة فآكل أنا ما لذّ من الطّعام والشّراب ويرعى حِصاني ما طاب له المرعى!

ومع أنّني لا أشكّ أنّ (عضد الدّولة) فَهِمَ الإشارات الّتي أشرتُ إليها في القصيدة، إلاّ أنّه أرادَ أنْ يُغطِّيَ ما سيفعله مِمّا فَهِم بإغداق العطايا عَلَيّ، فيُوهِمَ مَنْ حوله برضاه عنّي، ويُخفِي ما أضمر، فحمل إليّ بعدَها أنواعَ الطِّيبِ في الأردية والأمنان، من عنبر ومِسْكٍ وعُود، وقادَ إلَيّ فرسًا تُلقّب بالمجروح، وخمسين ألفَ دينار، ورداءً حشوُه ديباجٌ روميّ مُفصّل، ونصلاً هنديًّا مُرَصَّع النّجاد والجفن بالذّهب.

ثُمّ كانَ مَنْ سألني: «إنّ شِعركَ في غربِ فارسَ عند سيف الدّولة كان أجودَ مِنْ شِعركَ في هذا الشّرق». فقلتُ له: «إنّ الشِّعر على قَدْرِ البقاع». فلمّا وصلَ إليه ما قلتَ آكَدَ ذلك ما نوى عليه في نفسِه.

ثُمّ مضتْ مُدّة يسيرةٌ فماتت عَمّته، فدُعيتُ إلى رثائِها، ففعلتُ، ولكنّهم ما دَروا أنّ حضور الموت، جعله ماثِلاً في وِجداني، فلمّا قلتُ القصيدة ما أحسّ أحدٌ أنّني أرثي نفسي لا أرثيها:

لا بُـــدَّ لِلإنســـانِ مِـــن ضَجعَـــةٍ

لا تَقلِـــبُ المُضجَـــعَ عَـــن جَنبِهِ

يَنســـى بِها مـــا كانَ مِـــن عُجبِهِ

وَمـــا أَذاقَ المَـــوتُ مِـــن كَربِـــهِ

نَحـــنُ بَنـــو المَوتـــى فَـــما بالُنـــا

نَعـــافُ مـــا لا بُـــدَّ مِـــن شُربِهِ

ولقد كُنّا حقًّا بني الموت، لم يشبَعْ منّا، ولقد أكلَ مِنْ سِواي، وها هو قادمٌ نحوي فاغِرًا فاه، وسيأكل عمّا قريبٍ منّي، وإنّ فؤادي ليخفق من رُعبِ لحظته الّتي لا يدري المرء متى تأتي:

فـــلا قَـــضَى حاجَتَـــهُ طالِـــبٌ

فُـــؤادُهُ يخفـــقُ مِـــنْ رُعبِـــهِ

ولقد مللتُ من بعدِها البقاء ولم يكنْ قد مضى على مجيئي إلى هذه البلاد غير شهرين أو أكثر قليلاً، ولكنّني أستعجلُ قدري، ثُمّ ما مقامي بين هؤلاء الأعاجم، بيض الوجوه، سودُ القلوب، لُكْن الألسنة، ليسَ فيهم من يعرفُ للشِّعر قَدْرَه؟! فاستأذَنْتُه المسير عنه، فسألني سؤال الحَذِر: «إلى أين؟». فقلتُ: «إلى (بغداد)، ثُمّ (الكوفة)، آتي بأهلي وأعود إليكَ فقد نَعِمَتْ لي هذه المعيشة هنا وطابتْ». فسألني: «ألكَ في الكوفة

أهل؟». فقلت: «أخي الأعمى، وأختي، ثُمّ قد أتزوّج من هناك، وآتي بهم جميعًا إلى هذه البلاد». فاستنشدني قصيدةَ وداعٍ، وأَذِنَ لي بذلك، فلمّا مرّ يومٌ وليلةٌ، أنْشَدْتُه آخر ما قلتُ:

فِدًى لَـــكَ مَن يُقَصِّرُ عَـــن مَداكا
فَـــلا مَلِـــكٌ إِذَن إِلّا فَـــداكا

وأعلنْتُ بعضَ ما أعلنْتُ من شِباكٍ يُعدّ لي لأقع فيه، وشِراكٍ يُنصَب لي ليغتالني من تحتي، فقلتُ:

وَمَـــن يَظَّـــنُّ نَثْـــرَ الحَـــبِّ جُودًا
وَيَنصِـــبُ تَحتَ مـــا نَثَرَ الشِّـــبَاكَا

ولقد صدقتُ نفسي حينَ قلتُ:

قَـــدِ اسْتَشْـــفَيْتَ مِـــنْ داءٍ بِداءٍ
وَأَقْتَـــلُ مـــا أَعَلَّـــكَ ما شَـــفاكَا

ونعيتُها، وتطيّرتُ بها حينَ هتفتُ:

وَأَيًّا شِـــئْتِ يـــا طُرُقـــي فَكُوني
أَذاةً أَو نَجـــاةً أَو هَـــلاكَا

(٧)

اجتماع القَتَلَة

إنّ في الطّريقِ موتًا مُؤجّلاً. كلّ شيءٍ فيها قاتل. الخوف، والقلق، واللّصوص، والسّماء، والرّحيل، وتوقُّع الخَفِيّ من الأقدار، وما أنا إلاّ كما قالتْ أُمُّ السُّلَيك:

وَالمَنايـــا رَصَـــــدٌ
لِلفَتى حَيثُ سَـــلَكْ
كُلُّ شَيْءٍ قاتِـــــلٌ
حِـــيْنَ تَلْقَـــى أَجَلَكْ

وخرجتُ من عند (عضد الدّولة)، وأنا أعرفُ أنّني لن أعود، غير أنّني لا أعرفُ إلى أين لن أعود، فما من بلدٍ تعودُ إليه، ولا وطن، ولا نديم، ولا أهل، ولا سَكَنٌ، ولا كأسٌ، ولا حُلُم، كلّ شيءٍ يُغلّفه السّواد، ويقبضُ عليه الموتُ قبضةَ جبّار.

وفي الطّريق دَسَّ إِلَيّ عَضُد الدّولة - وكان قد وصلني بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مُحلاّة - أحدَ عُيُونِه فسألني: «كيف عطاء عضد الدولة وعطاء سيف الدولة؟». وأنا أعرفُ أنّه عينٌ له، وأعرفُ أنّ إجابتي ستقتلني، ولكنّني ما اكترثتُ بالحياة حتّى أكترث بالموت،

وما قَدّمْتُ مُداهنةَ الملوك على صِدقي مع نفسي مهما كَشّروا عن أنيابهم، فأجبتُ سائلي: «إن سيف الدولة كان يعطي طبعًا وعضد الدولة يعطي تَطَبُّعًا». فلا أدري على أيّ وجهٍ أغضبَه هذا الرّدّ وأحنَقه؟! ولا أدري أكان يُريدُ أنْ يُشارِكَ في دمي أم يتنصّل منه؟!

غيرَ أنّه لَحِقَ بي بعدَ يومٍ أحدُ عُيُونه مرّة أخرى، وقَدّم لي مالاً كثيرًا، وهدايا عميمة، وأبلغني رِضى عضد الدّولة عنّي، وأنّه إنْ أردتُ فسيبعثُ في خفارتي مَنْ يحميني حتّى أصلَ إلى ما أقصدُ من البلدان، فقبلتُ المال والهدايا، وشكرتُه على الخفارة، فأنا أحمي نفسي. وعرفتُ أنّه يُريدُ بالمال والخفارة أنْ يُبعِدَ تُهمةً كانتْ ستلصَقُ به لُصُوق الرّائحة بالثّوب إذا تَشَرَّبَهُ الدّم!

وتركتُ بالفِعل (شيراز) كلّها ورائي إلى (بغداد) لثمانٍ خَلَوْن من شعبان سنة ٣٥٤ هـ. إنّ الرّحيل عن الملوك رحيلٌ عن الموت، لكنّه رحيلٌ مُؤقّت، فما أحدٌ ينجو من الموت ولو كان في بروجٍ مُشيَّدة، إنّه رحيل الخائف الهاربِ من قَدَرِه الّذي يراه إلى قَدَرِه الّذي لا يراه. ورحّبَتْ بِنا الرّوض، وأنا أعرفُ أنّ قصدي إلى سِواها، وأنّها السّبيل، وأيّ سبيل لم تطأها ركائبي، وأيّ دربٍ لم أجرّ فيها ذوائبي؟! ومضيت.

الطّريق الخالية من كلّ أحدٍ مُكتظّةٌ بالموت، الموتُ يكمنُ في الدّروب السّاكنة، ويختبِئ خلفَ الأجَمات الهادِئة، وإنّني أراه ويعمى عنه كلّ مَنْ معي، والدّروب الّتي تُوصِلُ إلى الحياة في حياتي كانتْ مسدودةً كلّها!

وما تطَيَّرْتُ إلاّ وجدتُ. وما توقّعتُ إلاّ رأيتُ. وقد كانتْ حياتي لا تنتمي إلى هذا الكون، وسِيرتي لا تُشبِه أيّةَ سيرة. وأبي يُنكِره الأقربون قبل الأبعَدِين. وجدّتي لا يُدرك أحدٌ ما هَمَستْ لي به في الصّبا فشّكل كلّ خواطري وعَزائمي. وزوجتي لم يرها في حياتي سِواي؛ كانتْ أحدَ أحلامي الموؤودة، وسِرًّا من أسراري الّتي لا تنتهي. وخولةُ كانتْ هِيَ الأخرى حُلُمًا منذورًا للموت، وقد نَهَشَها فيما نَهَشَ من أحلامي قبلها، وما سينهشه بعدَها. وأخي كان أعمى. وأختي لم يكنْ يعرفُ رغائبها أحدٌ إذا خلتْ بنفسِها في اللّيالي المُوحِشات، ولا يدري كيفَ تنظرُ إلى أخيها الّذي ملأ الدُّنيا. وابني كان حارِسي من الموت الّذي كان يضحك مِنّي ومنه. ورُواتي لم يكونوا بشرًا، كان يروي عنّي الحجر والرّمل والصّخر والشّجر في الأرض، وكانتْ تروي عنّي الملائكة والنّجوم والكواكب والأفلاك في السّماء، وكان يروي عنّي الجِنّ والطُّيوف فيما بينهما، فأنّى لي أنْ أموتَ بعدَ هذا كلّه؟!!

واجتمع وأنا لا أدري، غيرَ أنّ القلبَ يرى ما لا تُخبِر به العُيون، ولا ما تحمله الرّسائل، ولا ما يكون في أجنحة الطّير... اجتمع في مكانٍ عندَ قارعة الحقد الأعمى، وبين أخبية الجهالة العمياء، وما اجتمعَ حشدٌ من الملوك في الأرض على سببٍ أو غايةٍ كالسّبب والغاية الّتي اجتمعوا فيها لأجلي، وهذا من الأقدار الّتي يكتبُها الله للخالِدين، فإنّ ما بعدَها سيكون حديث الزّمان إلى أنْ يَرِثَ الله الأرضَ وما عليها.

اجتمع مُعِزّ الدّولة البُويهيّ، وكافورُ الإخشيديّ، وعضدُ الدّولة، وابنُ العميد، وفاتِكُ بن فراسٍ الأسديّ اللّص، وما قَبِلَ ملوكٌ من قبل هؤلاء أنْ يجلسوا إلى لِصّ. فقال مُعِزّ الدّولة: «إنّ هذا الشّاعر استخفّ

بي، أرأيتم أحدًا فعلها إلاّ أطرتُ عنقه عن كاهله، مَنْ يظنّ نفسَه؟!». فردّ كافور: «لقد جعلني سُبّة في جبين الدّهر، ما مرّ بها أكوعٌ وأمصعٌ إلاّ رآها، وإنّني لا أعرفُ كيفَ يُمكن أنْ أُبرِّد اللّظى الّذي يلتهبُ في أحشائي بوسيلةٍ غير تمزيقه إربًا؟!». وأردفَ عضد الدّولة: «اللّئيم أعطيتُه نصفَ ما في خزائني وظلّ يحنّ إلى حبيبه سيف الدّولة الّذي ما جَفَّتْ سيوفُ جنوده من دمائنا، وما جعلنَا نهنأ بالمُلْكِ يومًا». وتدخّل اللّصّ فقال: «سيف الدّولة المفلوج هذا، نهايتُه هو الآخر قريبة». وبانت الغِبطة على وجوه الملوك الثّلاثة. وسأل ابن العميد الّذي لم يُتابِعهم على ما قالوا: «وهذا اللّصّ...» وأشار إلى (فاتكٍ): «فيمَ اجتمع معكم فلا هو بملكٍ ولا وزير ولا عالِم، وإنّما هو مجرّد نكِرة؟!». فردّ كافور: «إنّما دعوناه لنتّكِئ على هِجائه ابن أخته ليكون ذلك سببًا وجيهًا نُقدّمه للبشر في مقتل هذا القبيح». فأجابه (ابن العميد): «لن تقدروا عليه». فتساءل مُعِزّ الدّولة: «ماذا تعني؟ أعنده من الجُيوش ما يقارع به جيوشنا نحن الملوك الأربعة؟». «ما هذا قصدت، إنّما قصدتُ أنّ قتلَه لن يُغيّر في خلوده شيئًا، بل سيكون أوسعَ بوّابة يدخل منها إلى ذلك الخلود...»، وتنهّد قبل أنْ يُكمِل: «إنّه تخلّى عن جسده منذُ ولد، فإذا قتلتموه فلن تقتلوا غيرَ جسده». فاعترضَ مُعِزّ الدّولة: «ليتَه استهزَأ بي فحسب، بل استهزأ بوزيري المُهلّبي، وازورّ عنه كما يزورّ السّليم عن الأجرب». فردّ ابن العميد: «إنّه لا يقدر عليه أحدٌ... لقد قلتُ ما عندي». فتدخّل كافور: «إنّكَ تعرفُ أنّنا أعداء، وما جمَعَتْنا إلاّ هذه الغاية؛ التّخلّص منه، فإنْ كنتَ لا تريدُ أنْ تشاركنا في ذلك، فانسحب عائِدًا إلى صولجانك». «إنّ صولجانه أعلى من صولجاننا جميعًا وأبقى، أنتم لا تفهمون ما أعني لأنّكم لا تعرفون معنى الشِّعر، إنّكم لو جمعتُم

ملوك الأرض اليوم كلّهم، وأقمتم مَن غَبَر منهم مِن بطون الأرض فقاموا يمشون إلى مجمعكم هذا، وأقرّوكم على ما تنوون فِعله، فلن تقتلوه... لن تقتلوه». وصَرَخَ صرخةَ اليائس في آخر جملته، فتدخّل اللّص قائِلاً بخبثٍ وحِقد: «مَلِّكوا هذا السّيفَ بعضَ المال، وسيشرب من دمه في الحال». ونَظَرَ الملوك بعضُهم إلى بعضٍ وقد احتقروا أنفسهم أنْ يجتمعوا مع قاطع طريقٍ، ويُضطرّوا إلى أنْ يُشاركهم الحديث. وسأله ابنُ العميد: «ألِلمال أمْ لِضَبّة؟!». فقال وهو يضحك: «للمال بالطّبع، أمّا ضَبّة فليذهبْ إلى أمّ قشعم... المال المال أيّها السّادة...». وبدا أنّ كافور كان أكثرهم حماسةً حين هتف: «أنا أدفعُ المال، مستعدٌّ أنْ آتي بخراج مصر والشّام والسّودان والحجاز في آخر خمس سنوات فأدفعها لمن يأتينا برأسه». ونفثَ هواءً أسودَ من فمه بعد غضبته هذه، فضحك لها فاتك، وأردفَ مُعزّ الدّولة: «وأنا أبعثُ مع فاتكٍ سبعينَ فارِسًا من أشدّ فرساني، فيكونون في جماعته، فيضربون هذا الدّعِيّ ضربةَ رجلٍ واحد». وانبرى عضد الدّولة وقد أخذه الحماسُ هو الآخر فهتف: «وأنا أدفعُ خراجَ شيراز مالاً وثمرًا لمن يقطفُ ثمرته، على ألاّ يُقتَل في الدّيار الّتي أحكمها». فردّ معزّ الدّولة: «ليُقتَل في الدّيار الّتي أحكمُها أنا، فذلكَ شرَفٌ لي». وبانت البسمةُ والإشراق على وجه كافور، فسأل: «وَلكنْ من يضع الخُطّة». فقال عضد الدّولة: «الخُطّة عليّ». «والسّبب؟». فردّ مُعِزّ الدّولة: «هجاؤه لابن أختِ هذا اللّصّ الواقفِ معنا». ولمعتْ عينا فاتك، ومَدّ أجربةً كانتْ معه في رَحْله: «املؤوا هذه الأجربة بالذّهب والفِضّة، وسيكون لكم ما تريدُون قبل أنْ يعودَ كُلّ مَلِكٍ منكم إلى عَرْشِه». وانسحَبَ ابنُ العميد من الجمع، وابتعدَ خُطوتَين خلفَ المجلس، وهتف: «أمّا أنا فلا أُريد أنْ يذكر التّاريخ أنّني شاركتُم في

دمه». فَضَحِكَ كافور وقهقه حتّى كادَ يستلقي على قفاه، وهتف: «إنّكَ ما دُمتَ في مجلسنا فأنتَ شريكٌ في دمه، لا تكنْ أحمق، ولا تكنْ جبانًا». وانفضّ الجَمْع، وساروا إلى بلاقعهم. فيما بقي فاتك يجمع الذّهب والفِضّة من رُسُلِهم، فلمّا فاضتْ عن أوكائِها، صرخَ صرخةً انشقّ لها سُكون اللّيل: «إنّني قاتِلُه».

ومشى التّاريخ مشية الكسير، وأطرق إطراقةَ الحزين، وما استطاع أحدٌ أنْ يقتلني كما قال ابنُ العميد مِمّن اجتمع من الملوكِ مَلِك، وما قتلني في الحقيقة إلاّ مَلِكٌ لم يشهدْ هذا الجمع الآثِم، قتلني سيفُ الدّولة لأنّه أبى أنْ يسير الطّريق الّتي أردتُها له، ولا اتّخذني رُمحَه الّذي يطعنُ به، وأشدُّ الحرمان ما كان عن رِزق، وإنّه ما صَدّق قولتي حينَ هتفتُ في مجلسه قبل سنواتٍ سحيقة:

ومـــا أنـــا إلاّ ســـمهريٌّ هَزَزْتَهُ

فَزَيّـــنَ معروضًـــا، وراعَ مُسَـــدّدَا

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٨)

عَطَشٌ على الفُرات

وسِرْتُ وقد صارتْ (شيراز) بعيدة، والدّهر يأكل أخفاف الإبل، ويأكل من حُشاشة قلبي، حتّى إذا بلغْنا (الأهواز) بعدَ خمسين فرسًخا من مدينة الضّباب والوُرود دخل رمضان، فإذا نَفَحاتُه نَفَحاتُ مُودِّع، وإذا نهاراتُه نهاراتُ صَبْر، ولياليه ليالي صَفاء، فحللتُ ضيفًا على أبي الحَسَن السُّوسِيّ، فتلقّاني وندى الحُبّ يقطرُ من ذؤابته، فأقمتُ حتّى أراحَ الرّكبُ الّذي معي، وأمّا أنا فأيّ راحةٍ أبغي؟! فما كلّ سائرٍ صابر، ولا كلّ ضاربٍ في الأرض مُحتمِل، ولا كلّ محتملٍ بالغٌ ما نوى.

ثُمّ ارتحلتُ وقد مضى من رمضان نِصفُه إلى مدينة (واسط)، فنزلتُ عندَ (أبي نصر الجَبُّليّ)، فأكرمني، وعِشْتُ في ضيافته لياليَ هانِئات، كأنّهنّ يُودّعْن ما ظلّ من هناء، وإنْ لم يظلّ منه شيءٌ. ثُمّ لَمّا كان يومُ مسيري من عنده، رأيتُ في عينَيه أسرابًا من الكلام، تُحاول أنْ تحلّق فيمنعها من ذلك شُسُوع الفضاء وخوفُ الضَّياع. ثُمّ ذلّلَتْ عينايَ له طريقَ الكَلام، فنَطَقَ عن خوفٍ مُستترٍ بالرّجاء: «إنّ الطّريق محفوفةٌ بالأخطار». «ومتى كانت محفوفةً بالأمان؟!». «غيرَ أنّها هذه المرّة بالغة». «إنّني رأيتُ أبلَغ منها ولم أكترثْ». «إنّما أنصحكَ أنْ تأخذَ حِذْرك». «تنصحني؟! إنّ في هذه الكلمة أمرًا، فلا تُبطِنْ إنْ كانَ لديكَ ما تُظهِر».

«ابقَ عندي». «ما بقيتُ عندَ الملوك فأبقى عندك!». «أريدُ لكَ الخير». «آلخَير في البقاء. إنّني لا أراه إلاّ في الرّحيل، ولو كان الرّحيل شَرًّا لَمَا تركتُ الكوفة منذُ أربعينَ عامًا». «فعلامَ أنتَ مُجمِع؟!». «على أنْ أتّخِذَ اللّيلَ مركبًا، فإنّ السَّير فيه يَخِفُّ عَلَيّ». «وهذا ما أريد». «تُريدُ ماذا؟ السَّيْرَ في اللّيل أم السّير؟!». «اللّيل يستر». «لو كان يسترُ ما لقيتْني فيه الأُسُودُ يوم الفراديس، ولا صحبتْني فيه الوحوش، ولا تكلّمَ فيه الجِنُّ معي، ولا دَهتْني فيه الدّاهِيات». «إنّ اللّيل يجعلك تقطَعُ بلدًا بعيدًا عن أعينُ الرّقباء». «أمن الرّقباء تخافُ عَلَيّ؟!». «أجل». «فما تقصد؟». «خُذْ معك من الرَّجّالة مَنْ يحمونكَ ويقطعون معك المخاوف حتّى تصل إلى دار السّلام». فحينها قَطّبْتُ وجهي، وبدا الغَضبُ في كلماتي: «لقد ألغَزْتَ كثيرًا يا أبا نصر، فَلِمَ تريدُني أنْ أتّخذ خفارةً معي؟!». «لتستأنِسَ بهم». «أمَا والجُرازُ في عُنُقي فما بي حاجةٌ إلى مُؤنِسٍ غيرِه». «الأمرُ كما تقول، والرّأيُ في الّذي أشرتُ عليك». حدّقْتُ فيه فاحِصًا، وسألته بلهجةٍ صارمة: «تلويحُكَ يُنبِي عن تعريضٍ، وتعريضُكَ يُنبِي عن تصريح، فعَرِّفْنِي الأمر وبَيِّنْ لِيَ الخطب، فقد أكثرتَ القول من دون معنى». فتردّد أبو نصرٍ حتّى دفعتُه إلى القول دَفْعًا، فهتف: «إنّ هذا الجاهل...» وتردّد ثانِية، فنظرتُ إليه نظرةً ألجأتْه إلى أنْ يُردِف: «أعني فاتِكًا الأسديّ كان عندي منذُ ثلاثةِ أيّام، وهو يتحرّق حقدًا عليك وغضبًا منك». «أضِفْه إلى قائمة الحَقَدة الغاضبين إذًا». فليّن لهجته إلى الرّجاء: «لقد سأل عنكَ سُؤال المُلِحّ». «وماذا يريدُ؟!». «يريد...» ولم يُكمِلْ، فصرختُ فيه: «ستعودُ إلى تردّدِكَ وخوفِك.. هيّا قُلْ ماذا كان يريدُ هذا اللّصّ؟!». «يُريدُ قتلكَ يا سيّدي». ونَدّتْ منّي ضِحكةٌ عالية، وهتفتُ وأنا أبلعُ نصفَها: «هذا الصّعلوك يريدُ قتلي؟!». «نعم يا سيّدي،

لقد ظلّ هو ومجموعةٌ كبيرةٌ من أتباعه لا ينزلون عن جِيادهم، ولا يَحُلّون سُرُجَهم، يطوفون في هذه النّواحي، يسألون عنك، ويتسقّطون أخبارَك، وكان حريصًا على ألاّ تفوتَه، ويسأل كلّ مُجتازٍ بهذه السُبُل عنك، فلمّا علمتُ ذلك عنه، لقيتُه فقلتُ له: لقد أكثرتَ السّؤال عن المتنبّي، فأيَّ شيءٍ تُريدُ منه إذا لَقِيتَه؟!». فقال وفي لهجته الكذب والغدر: «ما أريدُ منه إلاّ الجميل، وعَذْلَه على هجاء ضَبّة ابنَ أُختي». فقلتُ له وقد شِمْتُ الخيانة والشّرّ من قولته: «هذا لا يليقُ بأخلاقِك». فتضاحَكَ، ثُمّ قال: «يا أبا نصر والله لئن اكتحلتْ عيني به، أو جمَعَتْني وإيّاه بُقعةٌ لأسفِكَنّ دَمَه، ولأمحَقَنّ حياتَه، إلاّ أنْ يُحالَ بيني وبينَه». فقلتُ له: «كُفّ - عافاك الله - عن هذا القول، وارجع إلى الله، وأَزِلْ هذا الرّأيَ عن قلبِك، فإنّ المتنبّي شهيرُ الاسم، بعيدُ الصِّيت، ولا يَحْسُنُ مِنْكَ قَتْلُهُ على شِعرٍ قاله، وقد هَجَتِ الشُّعراءُ المُلوكَ في الجاهليّة، والخُلفاءَ في الإسلام، فما سَمِعْنا بشاعرٍ قُتِلَ بهجائه، وقد قال الرّاعي النُّميريّ:

هَجَوْتُ زُهَيْرًا ثُمّ إِنّي مَدَحْتُهُ
وَمَا زَالَتِ الأَشْرافُ تُهْجَى وتُمْدَحُ

ولم يبلغْ من هجائِه ضبّةَ ما يُوجِبُ قَتْله!». فقال لي: «يفعل الله ما يشاء». وخرجَ من عندي». وبقيتُ صامِتًا حتّى أتمّ أبو نصر كلامه، ثُمّ قلتُ: «أَفِي هذا القول ما يُوجِبُ الخوفَ يا أبا نصر؟! لا والله. ثُمّ إنّني لا أحتاجُ أنْ تُسوِّغَ لي هِجائي عنده، فأنا سيّد القول، أقول ما أشاء متى أشاء لِمَنْ أشاء. ولو عدلتَ لَخَوَّفْتَه بي، لا أنْ تُخوّفني به». «إنّما أخافُ عليكَ يا سيّدي. وإنّ الرّأي ما قُلتُه لكَ أنْ يسير معكَ مَنْ يحميك من

هذا الفَتّاك». «خَفْ على نفسِكَ يا مسكين، أمّا خوفي على نفسي فدَعْه لي». وتدخّل خادمي (مسعود) فقال: «الصّواب يا سيدّي ما قالَه أبو نصر، ولا ينقصُ من شجاعتك ولا من قَدْرك أنْ يسير معك مَنْ يَحرُسُك». فغضبتُ حينَها أشدّ الغضب، وشتمتُ خادمي، وصِحتُ: «والله لا أرضى بأنْ يتحدّثَ النّاسُ بأنّي سِرْتُ في خِفارةِ أحدٍ غيرِ سيفي». فطامنَ أبو نصرٍ من هامته، ورجا رجاءً أخيرًا: «فأنا أُوجِّه قومًا من قِبَلي في حاجةٍ لي لا يكونون حمايةً لك، وإنّما يسيرون معكَ الطّريق، ينزلون حيثُ تنزل ويرحلون حينَ ترحل، وتكونُ على مرآهم، فلا يقول النّاس إنّهم يحرسونك، بل هم مُرتحِلون مثلك، لا يشاركونكَ إلاّ النّظر إليك، فإنْ وقعَ ما أخشاه كانوا لكَ دِرْءًا». فقلتُ: «والله لا فَعلْتَ شيئًا من هذا. يا أبا نصرٍ أَبِخُرْءِ الطّير تُخْشِيني، ومِنْ عبيدِ العَصا تخافُ عَلَيّ؟! ما أبقى الله بيدي هذا الأدهم وذُباب الجُراز الّذي أنا مُتقلِّدُه فإنَّني لا أُفكِّر في مخلوقٍ ألبَتّة. والله لو أن مِخصرتي هذه مُلقاةٌ على شاطئ الفُرات وبنو أسد كُلُّهم مُعطَشُون بخمسٍ، وقد نَظَرُوا إلى الماء كبُطون الحيَّات ما جَسَرَ لهم خُفٌّ ولا ظِلْفٌ أنْ يَرِدَه. معاذ الله أنْ أَشْغَلَ فِكري بهم لحظةَ عين». فقال لي: «قل إِنْ شاءَ الله تعالى». فقُلتُ: «هي كلمة مَقُولةٌ لا تَدفعُ مَقْضِيًّا ولا تستجلب آتِيًا». فضربَ أبو نَصْرٍ كَفًّا بِكَفّ.

فنادَيْتُ في الرّكب: «بغداد، ثُمّ الكُوفة. إنّكم لقومٌ تُدِلّون بأجسادكم، لا شُغْلَ لكم إلاّ الرّاحة، وأنا لا شُغْلَ لي إلاّ تَرْكُ الرّاحة». فشدَدْنا على الإبل والخيل، ومَضَيْنا، وقد دخلتِ العشر الأواخر من رمضان.

ثُمّ مضتْ ليلتان، والقومُ معي جَزِعون، وأنا أرى ذلك في عُيُونِهم وأُشفِقُ عليهم، ثُمّ دعوتُ راويتي الأصدق علي بن حمزة البصريّ، فرأيتُ في عينَيه ما رأيتُ في عيونهم، فقلت: «الأمر لك. تخلّفْ عن الرّكب إذا كنتَ تسيرُ معي لأجلي». فهتف: «لا أفعل يا سيّدي، لعلّكَ رأيتَ ما رأيتَ في عينَيّ؟!». فقلتُ: «نَعمْ»، فقال: «إنّما كان ذلك على الشِّعر، على هذه الخرائِدِ الحِسان أنْ ينقطَع وَحْيُها». فطمأَنْتُه، فما وَجَدَتِ الطُّمأنينة إلى قلبِه سبيلاً، فقال: «لم يبقَ من خَطّ ديوانِكَ إلاّ أمران». فسألتُه عنهما. فقال: «لم أروِ عنكَ القصيدتَين الأخيرتَين، ولم تُجبْني بشأنِ قصيدة ضَبّة». فقلتُ له: «هاتِ قراطيسَك». فجاءَ بها واللّيل مُعكِر، والقومُ هُجَّع، فكتَبَهما عنّي، ويدُه ترتجف، وقلبُه أشدّ رجفانًا، فلمّا انتهى منهما، شَعَر ببعض الرّاحة، غير أنّه سأل: «وقصيدة ضَبّة؟ أَأُسقِطَها». فقلتُ: «هي ساقِطةٌ منذُ قلتُها، ولكنّها الآن بعدَما سَمِعْتَ ورأيتَ، لا سبيلَ إلى إسقاطِها، فإنّها نُقِشَت في صدور الرّواة الحاقدين المُتشفّين، وإنّ إسقاطَها من القراطيس لا يُلغيها، ولكنّني أقولُ لك: إنّ النُّسخة الّتي بين يدَيك من ديواني بريئةٌ منها، وأمّا ما رواه الآخرون فلا يدَ لي عليهم». فخفضَ طرفَه وصمت. فأردفْت: «الآن، لا تسرْ معنا، بل سِرْ بهذه النُّسخة من ديواني في الأرض، فإنّي أخافُ على كلماتي لا أخافُ على نفسي، وإنّكَ إنْ بقيتَ معنا فلا نأمنُ سلامةَ الكلمات». فطوى القراطيس، وشَدّ على الرّحل، ومضى، وكان ذلك آخرَ عهدي به. ثُمّ إنّنا مَضَيْنا إلى ما كتبه الله لنا.

(٩)

أريدُ أنْ أَمُوتَ صائِمًا

مَرَرْنا بمحاذاة (النُّعمانيّة) على الشّاطِئ الغربيّ لِدجلة فتذكّرتُ الجِياد، فسمعتُ وحدي صوتَ حمحمتها، وشعرتُ بها أشجاها وأشجاني، وقد انتصفتِ المسافة بين (واسط) و(بغداد)، وصارتِ الأخيرة قريبة، وإنْ ظَلّتْ بعيدةً عنّي وَعَلَيّ. وفي نفوسِ القوم أنّها لمّا أشرَفْنا عليها فقد أمِنّا، وما دروا أنّ أَقْتَلَ البِلادِ ما أمِنْت، وأنّ أسرعَ السُّمّ ما أتى عن لِين.

ثُمّ مضينا حتّى وصلنا إلى (جَرْجرَايا) الّتي قطعتُها قبل بضعة أشهر مُشَرِّقا إلى بلادِ فارس، فشعرتُ أنّ البِلادَ تسرقُ مِنّي ما أعطت، وتنهبُ منّي ما وهبَتْ، وأنّ حياتي تبدو على صفحة مرآةٍ، الحياة فيها صورةُ الموت. وكانتْ (دير العاقول) على بُعدِ أربعة فراسخ منّا جهة الجنوب الشّرقيّ، فلمّا لامستْ عيناي عينَيها بكت، ولمّا مرّ طيفي بها تناوحتْ، فما سمعتُ نُواحًا أشجى من نُواحِها، ووددّتْ لو حضَنْتُها لِتَقَرّ، غيرَ أنّني لمّا هممتُ أنْ أفعل ذلك كَفَفْتُ، لأنّني شعرتُ بأنّ في هذا الشّوق ضعفًا، وما قتلَ العُشّاقَ كالشّوق، فجاوَزْتُها أنا والرّكب، وما تبقّى مِنّا إلى هذه اللّحظة غيرُ خمسة، أنا ومُحسّد ابني، وخَدَمي (مُفلح) و(مسعود) و(سِراج). فتركْنا (دير العاقول) إلى (الصّافية)، وهي

تقول لي: «أنا أنت. لا أتركك حتّى أُقبِّلَ جبينَك، أو أرفعه مصلوبًا على هوائي، أو أحضتنك في قلبي». فابتسمت، فإنّ الحجر طَوَال حياتي كان أرأفَ بي من البشر!

فبينما نتهادَى نحنُ الخمسة، برزَ لنا بغتةً من خلفِ أكمةٍ سبعون رجلاً من الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوًا. ففزِعَتِ الخيل، وفَزِعَ مَنْ معي، وركضتْ بِنا غَيْرَ بعيدٍ، فهتفَ (مُفلِح): «سيّدي لا تدَعْ بيتَك - الخيل واللّيل والبيداء تعرفني والسّيف والرُّمحُ والقرِطاس والقَلَمُ - يسقط». فَصِحْتُ صيحةً انخلَعَ لها قلبُ الصّحراء، قبل قلوب الكتيبة السّوداء، وكررتُ هاتِفًا بالبيت ليكون شاهِدًا على أنّ كلماتي كانتْ صورةً صادِقةً عن حياتي: بلى وَحَقِّ مَنْ ألهمني سِحر القول:

الخَيْـــلُ واللّيــــلُ وَالبَيْــداءُ تَعْرِفُنِـــي
وَالسَّـــيْفُ والرُّمْحُ والقِرْطـــاسُ والقَلَمُ

فواجهتُ فارِسًا يلتهبُ التِهابًا، فشككْتُ بالرُّمح صدره فخَرّ صريعًا، ثُمّ اجتَمَع إلَيّ أربعةٌ أحاطُوا بي من كلّ صوب، فضربتُ بالسَّيْفِ من كان على يميني فتَرَدّى، ثُمّ ضربتُ مَنْ كان على يساري فتهاوَى، ولم يُسمَع لهم غيرُ صوتِ سُقُطوهم، وقاتَلَ عنّي ابني، فطعنَ الثّالث، وهربَ الرّابع، فلويتُ عِنان الأدهم، إنّه مُذْ كان صَدَقَني، فنظرتُ إلى القوم فإذا هم يُحيطون بنا إحاطةَ الحِلَق بالجِذع، وتفحّصْتُ الخَدَم، فرأيتُ (مسعودًا) قد تجندل على الأرضِ مُعفَّرًا بِدمائه، وأرسلتُ نظرةً من خلف هؤلاء الرّجال المُتعطِّشين إلى دمي، وأنا أنفخُ النّار من منخَرَيّ فإذا خلفهم (مُفلح) الّذي رأى أنْ يسير قومٌ في خفارتي قد هرب، وإذا

نقعُ فرسِه يُبديه ويُخفيه، فعلمتُ أنّه الموت، فبشَّتْ له رُوحي، وهَلّل له فَرَسي، وسَدّد لأجله رُمحي. ثُمّ هتفَ (فاتِكٌ) هذا: «انفذْ بجلدك، لا نُريدُ غير مالك، وهو كثيرٌ وكافٍ». فهتفتُ: «أيّها الضّعيفُ المُنّة القليل الحيلة، لا تصل إلى مالي إلا ودُونه رُوحي، لا يقول العرب فدى حياته بالمال، إنّما أموتُ دونَ شرفي ومجدي ومالي». فشَدَّ عَلَيّ، فشددتُ عليه، فالتقينا، فضربتُ بذُباب سيفي سيفَه فأطرتُه وتراجَع، فهَوَى أحدُ فرسانِه فالتقَطَه وأعطاه إيّاه.

وقاتل معي ابني، فقتلَ عددًا. وقتلتُ أكثرَ من عشرةِ أنفُس، ودارت الحربُ بيننا حتّى اشتدّ لهيبُ االشّمس فوقَ رؤوسِنا وهي تشربُ من دمائنا، وتسفك من أرواحِنا، فما كللتُ عن القِتال حتّى كَلُّوا. فلمّا يَئِسَ مَنْ يَئِس، أشارَ عليهم (فاتِكٌ) أنْ يتراجَعوا إلى الوراء ليجمعوا صُفُوفهم، ويشدّوا إلى الكريهة مَنْ بقي منهم، وتراجعتُ أنا وسِراج ومُحسّد. فمدّ إليَّ ابني قربة الماء لأشرب. فدفعتُها بعيدًا: «أنا صائمٌ يا بُنَيّ». «إنّنا في سفرٍ وفي قِتال، ولك في الإفطار رُخصة». «كلا يا بُنَيّ، أريدُ أنْ أموت صائِمًا. فما كان عطشي ليمنعني من المجد فيما مضى من حياتي، أفَيَمْنَعُني اليومَ؟!». وحسا هو نُغبةً من الماء، ثُمّ مَدّ القربة إلى (سراج) فحسا هو الآخَر منها، ثُمّ نَظَر ابني في وجهي: «إنّهم قاتِلوك، وإنّني أرى أنْ ننسحبَ من خلفِ هذه التّلّة». «لن أبرح المكان حتّى لا يُقال فَرّ، أو يفرّوا هُمْ». «إنّهم سبعون رجلاً، ونحن خمسة قد فرّ منّا واحدٌ وقُتِلَ آخَر». «وهم قد قِتلَ منهم خمسةَ عشرَ فارِسًا. النّصر لا يكون إلاّ لمن يستخفّ بالموت». وأطلقَ زفرة الحائن، وكان الموتُ يدور في رِحالِنا جميعًا، ولم يكن منه بُدّ، فعزَمْتُ على أنْ أموتَ على ما أريدُ،

وإنّني لأعرفُ الهيئة الّتي عَلَيّ أنْ أموتَ عليها، فقد أوصاني أبي بذلك، وجدّتي من قبل، ولا زلتُ أسمعُ صوتَيهما في أذني، وها هم يا بُنَيّ أمامي الآن، وفي مدى رُؤيتي، يُراقِبون ما أنا عليه، فإنْ هربتُ من عيون النّاس فكيفَ أهربُ من عيونهما؟!

ثُمّ مضتْ فترةٌ قليلةٌ، فهتفتُ بسراج:

أَفْــرِغِ الــدِّرْعَ يــا سِراجُ وَأَبْصِرْ

مَا تَــرَى اليَــوْمَ هَهُنا مِــنْ قِتَالِ

فَلَئِــنْ رُحْــتُ فِي المَكَــرِّ صَرِيعًا

فَانْــعَ لِلْعَالَمِــينَ كُلَّ الرِّجَــالِ

ولقد كنتُ كلّ الرّجال كما قلت. ولقد واجهتُ الأُسُودَ وحدي في الفراديس، وواجهتُ الموتَ بألفِ وجهٍ ووجهٍ من قبل، أفلا أُواجِهه اليوم في شُخُوصِه الأخير؟!

ثُمّ دار القِتال، فرأيتُ عددًا من فرسان فاتِكٍ يسرقون ما في رحالنا من مالٍ وذهبٍ، فصحتُ بهم: «خذوا ما تريدون واتركوا لي كُتُبي». وهربَ خمسةٌ منهم بالذّهب، فأتبَعهم فاتِكٌ بعضَ فرسانه الآخرين، فقتل اثنين، ولم يظفر بالباقين. وخافَ مَنْ تبقّى من بطشِ فاتِك، فأُلجِئوا إلى معاودة القِتال، فحملتُ هذه المرّة على فاتِكٍ لنفسي، فضربتُه بالسّيف فأطرتُ عنه بيضَته، فتلجلج، واضطرب، فدَرَأ عنه أحدُ فرسانه، فاستعادَ جأشَه، فكرّ عَلَيّ، وهو يصيح: قُبحًا لهذه اللّحية، ألستَ الّذي تقول:

الخَيْلُ واللَّيْـــلُ وَالبَيْـــدَاءُ تَعْرِفُني

وَالسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

فطعنْتُه في خاصرته، وهتفتُ: «أنا عند ذاك يا ابن اللَّخْناء العَفْلاء». وقتلتُ منهم ثلاثةً، ثُمّ خذلني الأدهم في لحظةٍ قاتِلة. غاصتْ رِجلُه في ثُقبٍ كان في الأرض، فما استطاع أنْ يتخلّص منها، وساختْ أقدامه هناك، فأهبْتُ به، فما درى كيفَ يفعل، فنزلتُ عنه، وعقرتُه كما فعل (جعفرٌ) يوم (مؤتة)، ثُمّ قاتَلْتُ وأنا راجِلٌ، فما كانتْ إلاّ لَحَظاتٍ حتّى أحاطَ بي أكثر من أربعة عشرَ فارِسًا، فطعنني فاتِكٌ أوّل الأمر، فنفذَ رُمحه من دِلاص الدّرع، فثعبَ دمي، فوضعتُ يُسراي على موضع الدّم المُتدفِّق، وقاتلتُ بالسيف في يُمناي، غيرَ أنّ قواي بدأتْ تَخُور لكثرةِ ما نزَفْتُ، ثُمّ لَمّا رأى (مُحَسّد) وسراج ما أحاق بي، هَرَبا، فأمّا مُحَسّد فرجع بعد أنْ عادَ إليه رَوْعُه، وما عادَ ليُنقِذني من الموت، بل عادَ من أجل كُتُبي لَمّا سَمِع قولتي: «خذوا مالي ودعوا لي كُتُبي». فتلقّاه أحدُ الفرسان فضربه بالسّيف ضربةً فسقط يغوصُ في دمائه، ثُمّ جزّ رأسه بالسّيف وألقاهُ بعيدًا، وأمّا سِراجَ فاعتلى صخرةً على مبعدةٍ من رحى الحرب، يراقِبُ ما يحدث عن كثب، ليكتبَ عنّي: لقد هَوَوا عليه بكلّ ما في شياطين الأرضِ مِنْ غِلّ، فطعنةٌ في الصّدر، وضربةٌ في في اللّبّة، ووكزةٌ في البطن، وشزرةٌ في الخاصرة، فما تركوا شِبْرًا من جسده إلاّ طبعوا عليه كُعُوب أسلحتهم، ورأيتُه يبتسم، فلقد صَدَقَ في هذه اللّحظة ما قالَهُ من قبلُ:

أَعْـــلَى المَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَـــلِ

وَالطَّعْـــنُ عِنْـــدَ مُحِبِّيهِـــنَّ كَالقُبَلِ

فكانتْ طعناتهم قُبُلاً، وقد رأى كلّ شيءٍ في اللّحظة الأخيرة يبتسمُ له. وها هو ذا يُودّع الدُّنيا وحيدًا شريدًا كما جاءَها، خاليًا إلاّ من شِعره، وما طَوّقَ به الدُّنيا من كلماته. ثُمّ نزلَ أبو الجُبناء فاتِكٌ عن فَرَسِه والمتنبّي يجودُ بأنفاسه الأخيرة، فَجَزّ عُنَقَه، وقد مالتِ الشّمسُ إلى الغروب، وحانَ وقتُ الإفطار في ليلة السّابع والعشرين من رمضان من سنة ٣٥٤هـ، وشَرِبَ من دمه، وما رَوِيَ من ظمأ على الهواجر، وهكذا كان، لقي الله صائِمًا، ثُمّ رَكَزَ فاتِكٌ رُمحه على الأرض وعَلّقَ رأسَ المُتنبّي عليه، وأخذَ كلّ شيءٍ ومضى.

وبقي رأسه ثلاثة أيّام لا يجرؤ أحدٌ أنْ يقتربَ منه، فلمّا كانتْ ليلة العيد. تلقّاه الملاك الّذي تلقّاه يومَ وُلِد، يقطر النّدى من طلعته، فحمل روحه إلى السّماء، وتركَ جسده للأرض. إن قبره سيكون كقبر الإمام عليّ؛ حنى عليه الغَمامُ ولا أحد يعرف له موضعًا...!!

(١٠)

إنّها ليلة القدر

هذا الجزء لا ينتمي إلى المخطوطة، عُثِر عليها مُلحَقًا بها، مكتوبًا بخطّ غير بشريّ، وفي ورقةٍ يبدو أنّها لا تنتمي إلى أوراق المخطوطة القديمة.

****

السّماءُ صافية، سمعتُ صوتًا يهمس: «إنّها ليلة القَدْر» «بل ليلةُ قَدَرك، قَدَرِك الّذي سيرفعُك من هذه القرى الظّالم أهلها، إنّها ليلة الفناء من أجل الخلود، والموت من أجل الحياة». كانا يتحدّثان وأسمعهما غير أنّني لم أكنْ قادِرًا على أنْ أشاركهما الحديث.

إنها (الصّافية)، وإنها ليلةٌ صافِية. السُّكُون التّام، والهدوء يُخيّمان على الأرض. رأيتُ في هذه اللّحظات حياتي السّابقة كلّها، رأيتُ (أنيان) و(الحُسين)، وهما يبتسمان لي، أمّا (أنيان) فسمعتُه يقول: «لكَ الخلود». ويلتفتُ إلى (الحُسين) قائِلاً: «لقد عَطِش، فقد أظَمَتْهُ الدُّنيا طويلاً»، وأمّا (الحُسين) فتقدَّمَ نحوي وهو حاملٌ على عاتقه دِلاء الماء وقد ظهرتْ من خلفه حواري (الكوفة)، وسألني: «هل تريدُ أنْ تشرب؟». ثُمّ وضع الدّلاء على الأرض، وتناول كأسًا بلّوريّة، يترقرق

الماء الباردُ فيها على شعاع الشّمس، وقرّبَها من فمي، فتحتُ فمي، أرادَ (الحُسين) أنْ أشربَ، ويشربَ معي، كادَ أنْ يضعَ حوافّه الباردة على شَفَتَيّ الظّامِئتَين المُشَقَّقَتين، لولا أنّ صوتًا من السّماء في لحظةٍ خاطِفةٍ صاح: «دَعْه، سيشرب من مائِنا، هذا الماء ميّت»، التفتَ أبي إلى مصدر الصّوت، هتفتُ به بصوتٍ مجروح والدّم يسيل على وجهي ويبلّ نحري، ولا أدري إنْ كان قد سَمِعَني: «أريدُ أنْ أشربَ يا أبي»، غير أنّه كان لا يزال ينظر إلى مصدر الصّوت في السّماء كأنّه مخطوف، ثُمّ ارتفعتْ رِجلا أبي فوقَ الأرض، هتفتُ به: «إلهي... إلهي... لماذا تَرَكْتَني؟!». لم يلتفتْ أبي نحوي وهو يرتفعُ إلى السّماء. صرختُ بآخر حشرجةٍ في صدري: «إذا تركْتَني يا أبي، فاروِ لهم ما حدث». ظلّ صامِتًا، صَعَدَ أكثر، في صعودِهِ الأبديّ سقطتِ الكأس من يده، فانكسرتْ، وتناثرتْ شظاياها في كلّ مكانٍ، وملأتِ الأرض من أطرافها السّبعة، ثُمّ... ثُمّ حلّ الظّلام.

انتهت

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملحوظة غير مهمّة:

عُثِر على هذه المخطوطات الثّلاث في بيتٍ مهجورٍ في السّنغال في العقد الأخير من الألفيّة الثّانية لميلاد المسيح.

أمّا المخطوطة الأولى (أرض الله - حكاية عمر بن سيّد) فكُتِبتْ بينَ عامَي ١٨٣١م - ١٨٦٣م.

وأمّا المخطوطة الثّانية (مسغبة - حكاية عبد اللّطيف البغداديّ) فكُتِبتْ في السّنتين الأخيرتين من القرن السّادس لهجرة محمد بن عبد الله.

وأمّا المخطوطة الثّالثة (ساحر أو مجنون - حكاية أحمد بن الحُسين) فكُتِبَتْ في العام ٣٥٤هـ حينَ فرغَ صاحِبُها لها.

وهي مخطوطاتٌ ثلاثٌ ابتدأتْ من ذلك البيت المهجور وانتهتْ في هذا الصّدر المعمور.

أيمن العتوم

الدّوحة - قطر

٢٠-٦-٢٠٢٣م

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

قصّة المخطوطة الثّالثة (ساحرٌ أو مجنون) ٥
المرحلة الأولى: في حَمْدِ أَحْمَدِهِ ٧
(١) ولادة ٨
(٢) مَنْ يكونُ أبي؟! ١٢
(٣) هل يَبِيعُون النّساء؟! ١٦
(٤) نَكِّرْ تُعْرَف..!! ٢٢
(٥) ذَنْبُهم ضَعفُهم ٣٠
(٦) أصحابُ حَقّ أم باطل؟! ٣٧
(٧) قد تمّتْ لكَ المُعجِزة ٤٥
(٨) يَجُوع اللّفظُ ويَشْبعُ المَعنى ٥٢
(٩) الثّأر ضَعْف، والثّورة قُوّة ٦١
(١٠) اشربْ بعضَ ما سالَ مِن دَمِك ٦٨
المرحلة الثّانية: نَكَبات الدّهر والثّورة ٧٥
(١) إنّ هذا لَشَيْءٌ عُجاب ٧٦
(٢) بغدادُ ليستْ دارًا لك ٨٣
(٣) هل مرّ أبي من هنا؟ ٨٩
(٤) أبحثُ عن ظِلّ أبي! ٩٦
(٥) مَنْ صَعّرَ خَدّه لي أَخَذْتُه بالسّيف ١٠٣

(٦) الدّمُ يَحِنُّ إلى الدَّم ١١٠
(٧) الشّعر في سُوقِ الكسادِ ١١٦
(٨) إنّ يدًا لا تَطعنُ أَوْلى أنْ تُقطَع ١٢٤
(٩) الموعِدُ الثّورةُ والكافِلُ الله ١٣٣
(١٠) إنَّ الصَّحْرَاءَ قَدْ ضَجَّتْ وعَجَّتْ ١٤٠
المرحلة الثّالثة : في السِّجْن **١٤٨**
(١) عِشْ عَزِيْزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ ١٤٩
(٢) تاجُ الشَّوْكِ ١٥٦
(٣) الغِيْلان ١٦٣
(٤) المُحاكَمة ١٧٠
(٥) المُحاكمة مرّة أخرى ١٧٧
(٦) القَرار ١٨٤
(٧) أمضي إلى قَدَرٍ جديد ١٩١
(٨) مَنْ لا يعرفُ المُتنبّي؟! ١٩٧
(٩) لن يخرجَ هذا الزّنديقُ من السّجن وأنا حَيّ! ٢٠٣
(١٠) أمامكَ سَفرٌ طويلٌ! ٢١٠
المرحلة الرّابعة: الخُروج إلى العالَم - العَودةُ إلى الأُمّ **٢١٦**
(١) فلا مَجْدَ في الدُّنيا لمنْ قَلَّ مالُهُ ٢١٧
(٢) لستُ لِصًّا!! ٢٢٤
(٣) دِيارُ النّشأة الأُولى ٢٣١
(٤) الحربُ خُدعة! ٢٣٨

(٥) أنتَ زينُ الشّبابِ ٢٤٥
(٦) شِتاءُ لُبنان ٢٥٢
(٧) لا افْتِخارٌ إلاّ لِمَن لا يُضامُ ٢٥٩
(٨) لَنْ تَدخُلَ الكُوفةَ إلاّ مَقطُوعَ الرّأسِ؟ ٢٦٩
(٩) ماذا تبقّى لي؟! ٢٧٦
(١٠) أنطاكيّة وَحدَها صَغِيرةٌ عليك ٢٨٤
المَرحلةُ الخامِسة: السّيفيّات ٢٩١
(١) ليسَ عَلَى الحَبيبِ شَرْط ٢٩٢
(٢) سُؤال الوُجود!! ٣٠٣
(٣) إذا أَردَتْ لِشِعْركَ الخلود فَزَيِّنْه بالحِكمة ٣١٣
(٤) وَفي التّجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ ٣٢٥
(٥) خَيالُ خَوْلَة ٣٣٦
(٦) سَحَرَةُ فِرعون ٣٤٤
(٧) المُصالحة ٣٥٦
(٨) ليلٌ طويل ٣٦٥
(٩) تَذَكَّرتُ ما بَينَ العُذَيبِ وَبارِقِ ٣٧٨
(١٠) لقد صارتْ (حَلَبُ) بَعِيدةً!! ٣٩٠
المرحلة السّادسة: الكافوريّات ٣٩٨
(١) وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ استقَلَّ السَّواقِيا! ٣٩٩
(٢) وأتعبُ خَلْقِ الله مَنْ زادَ هَمُّهُ! ٤١١
(٣) كُلُّ بَعِيدِ الهَمّ مُعَذَّب ٤١٩

(٤) القَصِيدةُ الباكِية.................................. ٤٢٦
(٥) وماذا في هذه الدُّنيا غيرُ الهَمّ؟ ٤٣٧
(٦) الحُمّى ٤٤٧
(٧) كُلُّ الَّذي فوقَ التُّرَابِ تُرَابُ ٤٥٧
(٨) الهُرُوبُ الكَبِير.................................... ٤٦٥
(٩) التِّيه.. ٤٧٦
(١٠) الفتى الّذي دَوّخَ الدُّنيا............................. ٤٨٧
المرحلة السّابعة: النِّهايات................................ ٤٩٩
(١) ماذا تبقّى من الكوفة؟! ٥٠٠
(٢) أطَوِيْلٌ طَرِيقُنا أَمْ يَطولُ؟!............................. ٥٠٧
(٣) وَنَترُكُ الماءَ لا يَنفَكُّ مِن سَفَرٍ ٥١٩
(٤) ولا بُدّ دُون الشّهدِ مِنْ إِبَرِ النّحلِ......................... ٥٢٥
(٥) وَقَد كُنتُ أَدرَكتُ المُنى غَيرَ أَنَّني ٥٣٣
(٦) وَما أَنا غَيرُ سَهمٍ في هَواءٍ............................. ٥٤١
(٧) اجتماع القَتَلَة ٥٥٠
(٨) عَطَشٌ على الفُرات ٥٥٦
(٩) أريدُ أنْ أَمُوتَ صائِمًا............................... ٥٦١
(١٠) إنّها ليلة القدر.................................. ٥٦٧

Magician And Crazy

رواية
NOVEL

أيمن العتوم

ساحر أو مجنون

كانتْ حياتي لا تنتمي إلى هذا الكون، وسِيرتي لا تُشبِه أيّةَ سيرة. وأبي يُنكِره الأقربون قبل الأبعَدِين. وجدّتي لا يُدرك أحدٌ ما هَمَستْ لي به في الصّبا فشكّل كلّ خواطري وعَزائمي. وزوجتي لم يرها في حياتي سِواي؛ كانتْ أحدَ أحلامي الموؤودة، وسِرًّا من أسراري الّتي لا تنتهي. وخولةُ كانتْ هِيَ الأخرى حُلُمًا منذورًا للموت، وقد نَهَشَها فيما نَهَشَ من أحلامي قبلها، وما سينهشه بعدَها. وأخي كان أعمى. وأختي لم يكنْ يعرفُ رغائبها أحدٌ إذا خلتْ بنفسِها في اللّيالي المُوحِشات، ولا يدري كيفَ تنظرُ إلى أخيها الّذي ملأ الدُّنيا. وابني كان حارِسي من الموت الّذي كان يضحك مِنّي ومنه. ورُواتي لم يكونوا بشرًا، كان يروي عنّي الحجر والرّمل والصّخر والشّجر في الأرض، وكانتْ تروي عنّي الملائكة والنّجوم والكواكب والأفلاك في السّماء، وكان يروي عنّي الجِنّ والطّيوف فيما بينهما، فأنّى لي أنْ أموتَ بعدَ هذا كلّه؟!!

telegram @soramnqraa

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
http://www.airpbooks.com